
آلان مينارغ
أسرار حرب لبنان
★★
من مذابح صبرا
و شاتيلا حتى
رحلة أمين الجميل
إلى دمشق
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
Librairie
Internationale

صدر للمؤلف

Les Larmes de la colère
Presses de la Renaissance, 1991

Les secrets de la Guerre du Liban T I : Du coup d'État de Bachir Gémayel aux massacres des camps palestiniens
2e édition, Librairie Internationale, Beyrouth, 2012

Les secrets de la Guerre du Liban T II : Des massacres de Sabra et Chatila à la voyage d'Amine Gémayel à Damas
2e édition, Librairie Internationale, Beyrouth, 2012

أسرار حرب لبنان الجزء الأول: من انقلاب بشير الجميل
إلى حرب المخيمات الفلسطينية
المكتبة الدولية، بيروت، 2005

آلان مينارغ

أسرار حرب لبنان

* *

من مذابح صبرا وشاتيلا
حتى رحلة أمين الجميل إلى دمشق

المكتبة الدولية ـ بيروت
Librairie Internationale - Beyrouth

ISBN 9789953015712

www.librairieinternationale.com
Rue, Clémenceau, Centre Gefinor, Bloc D,
Beyrouth-Liban

ISBN 9789953015712

Couverture : © françois.guenet@free.fr
Maquette HUSSAK COMPUTER PRESS forTyping, Printing Graphic Design

التمهيد[1]

في الساعة الرابعة وعشر دقائق من بعد ظهر يوم الثلاثاء 14 أيلول/ سبتمبر 1982 دوّى انفجار هائل في أرجاء بيروت كلها وجعل حيّ الأشرفية المسيحي يهتز من أساساته. وكانت العبوة الناسفة التى يبلغ وزنها عدة عشرات من الكيلوجرامات قد نسفت تماماً مركز حزب الكتائب بالأشرفية حيث كان يعقد الرئيس بشير الجميّل الذي لم يمض على انتخابه إلّا 21 يوماً اجتماع وداع مع العاملين الدائمين الذين عمل معهم سنين عديدة.

و قد تعرف فادي أفرام القائد الأعلى للميليشيا المسيحية بعد أن هرع إلى مكان الحادث على خاتم ثماني الأضلاع كانت ترتديه إحدى الجثث التي انتشلها رجال الإنقاذ من تحت الأنقاض. كانت تخص بشير. كتم أفرام اكتشافه كي يتفادى تحويل التوتر العصبي السائد إلى هيستيريا جماعية.

في مشفى «أوتيل ديو» طلب أفرام من الأطباء التزام الصمت المطلق وأن يقوموا بتنظيف الجثمان وتجهيزه.

ما إن قام مناحيم ناوت (مندي) ، وهو الرجل الثاني في الموساد، من بيروت، في حدود العاشرة والنصف ليلاً بارسال رسالة لاسلكية إلى تل أبيب معلناً التثبّت من موت بشير، حتى قرّر شارون التدخل عسكرياً مستغلاً الفرصة من أجل «تنظيف» بيروت الغربية. فإن الجيش الإسرائيلى، بالرغم من قوته الشديدة، لم يتمكن قط من الدخول إلى هذا الجزء من العاصمة اللبنانية من أجل طرد منظمة التحرير الفلسطينية، وذلك على مدار ثلاثة شهور من الحصار و القصف المتواصلين خلال صيف 1982. وكانت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية تؤكد إنه لا يزال في هذه المنطقة الكثير من الأسلحة ومن موظفي ومقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، إضافة إلى العديد من الوثائق.

فاتصل من جديد ببيغن ليحيطه علماً بذلك. فأعطاه رئيس الوزراء موافقته مذكّراً إياه بالقرار

(1) انظر آلان مينارغ، أسرار الحرب اللبنانية، الجزء الأول الفصل 23 «عملية الدماغ الحديدي»، المكتبة الدولية (Librairie Internationale)، بيروت، 2005.

المتّخذ في مجلس الوزراء: **ليس موضع بحث دخول رجالنا إلى مخيمات صبرا وشاتيلا أو الفاكهاني.**

بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة، وقّع رفائيل إيتان، القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي، الذي يطلق عليه الجميع لقب رفّول، الأمر رقم 1 بادئاً العملية ثم توجه إلى مسرح العمليات.

ما من أحد في المقرّ العام للقوات اللبنانية، في الكرنتينا، قرب المرفأ في بيروت، كان ينتظر وصول رفّول والذين يرافقون.

في الساعة 3:30 عند الفجر. كان فادي أفرام، القائد العام للقوات اللبنانية، متغضّن الوجه، من تأثير الصدمة لاختفاء بشير، محمرّ العينين من الإرهاق والدموع، حين التقى بالإسرائيليين في قاعة الاجتماع الكبرى في المقرّ العام وإلى جانبه مستشاره زاهي بستاني وأنطوان بريدي، المفتش العام للقوات، وجوزيف سعادة. أقبل رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي فحيّاهم بسرعة وبسط على الطاولة مخططاً لمدينة بيروت. كانت مواقع المخيمات الفلسطينية معلّمة بالحبر الأحمر. وطرق إيتان الهدف مباشرة دونما اهتمام بالشكليات.

– سوف ندخل إلى بيروت الغربية سالكين ثلاثة محاور: فنطلب إليكم عدم التحرك ومراقبة مناطقكم. سوف نطلب إلى الجيش اللبناني عدم التعرّض لتقدّمنا. سوف نبدأ بالتحرّك في الساعة الخامسة تماماً. وتحمل العملية الاسم الرمزي «الدماغ الحديدي». أما القصد منها فهو **البحث عن الإرهابيين والوثائق ومخابئ الأسلحة.**

في الساعة المتفق عليها من صباح 15 أيلول/ سبتمبر 1982، كان الرتل الإسرائيلي المدرّع الأول M113، يتقدّم رافعاً لافتة تعريف من القماش بلون برتقالي، وسط زوبعة من الغبار نحو بيروت الغربية. وفي اللحظة ذاتها، كان سرب من الطائرات المطاردة القاصفة المدموغة بنجمة داود، يحلّق فوق المدينة على ارتفاع منخفض جداً، في عملية استعراض للقوة تصمّ الآذان. كانت المباغتة كاملة. ما كان سكان بيروت الغربية، وهم في حالة صدمة، مستقرين في منازلهم يتساءلون على الدوام إن كان بشير الجميّل قد مات حقاً[1] ليتوقعوا وصول الإسرائيليين على الإطلاق. كانت موجة بشرية حقيقية تغادر مخيمي صبرا وشاتيلا باندفاع، لتحتمي داخل المدينة السنّية. أما المسؤولون السياسيون اللبنانيون القريبون من منظمة التحرير الفلسطينية، فتواروا عن الأنظار.

في تمام السابعة والنصف، أي بعد نحو ساعتين وثلاثين دقيقة من عبور خط وقف إطلاق النار سمع دويّ أولى الطلقات النارية إضافة إلى انفجار مكتوم في منطقة المدينة الرياضية.

أكّد ناطق عسكري في تل أبيب، تأكيداً رسمياً، بدء عملية «الدماغ الحديدي»، موضحاً أن

---

(1) سرت إشاعات حول هذا الموضوع طوال شهور.

إسرائيل اتخذت إجراءات عسكرية لتفادي سفك الدماء بين الطوائف اللبنانية إثر اغتيال بشير الجميّل.

وُضِع نعشُ بشير الجميّل في كنيسة مار عبدة الصغيرة في بكفيا التي تحولت إلى كنيسة متأججة. فوقف مئات اللبنانيين، الذين جاؤوا لإلقاء نظرة الوداع، رتلاً في الخارج.

وصل أرييل شارون ومستشاروه إلى مطار بيروت ثم توجهوا بالسيارة إلى بكفيا محل سكن بيار الجميّل. فأُدخِلوا إلى الصالون المقنطر والمعتم في الطابق الأرضي، بمعزل عن القاعة التي يستقبل فيها رجال آل الجميّل المعزّين. كان الوزير الإسرائيلي بادي التأثّر، وقد عبّر بالإنكليزية، عن عميق حزنه. فتولى مناحيم ناوت الترجمة بالفرنسية للشيخ بيار. وقد ردّ هذا بكل مهابة متذرّعاً بالقدر وبقسوة المعركة السياسية. جرى تقديم فنجان قهوة لكل واحد من الحضور. وتولى وودي تقديم أمين للإسرائيليين. فأكد الشقيق الأكبر للفقيد قائلاً لشارون: **لقد أطلعني بشير على كل ما كان يفعل وعن علاقاته اللصيقة بكم.** ولسوف أحمل المشعل. . .

فقاطعه الوزير بنبرة جافة[1]:

- أنا هنا من أجل التعزية بصديق، ولا أريد الكلام في موضوع آخر.

في ضحى يوم الأربعاء 15 أيلول/ سبتمبر 1982، وحين لم تكن صبرا وشاتيلا مقطوعتين تماماً عن باقي المدينة **دخلت قوات إسرائيلية إلى المخيمات الفلسطينية**[2]، وبعدما قامت دبابات الميركافا، المتمركزة إلى الجنوب من شاتيلا بقصف من مدافعها على المخيمات «للعمل على طأطأة الرؤوس»، بدأت مجموعات عديدة، وكل واحدة من عشرة رجال تقريباً، بلباس الميدان، ومن غير أيّة إشارة ظاهرة مميزة، بالتسلل خفيةً داخل متاهات الأزقة المقفرة، كانوا ينتمون إلى وحدة استطلاع فرقة هيئة الأركان العامة (Sayeret Mat'kal) وهي وحدة قوات خاصة خاضعة مباشرة لرئيس الأركان و تتمثل مهمتها في «العمل» في ما وراء خطوط العدو و القيام بعمليات محددة من التدمير والتصفية. تنقلوا بسرعة وبصمت، سالكين مسارات بدوا أنّهم يعرفونها حق المعرفة للتوجه نحو مساكن محددة. ومن دون أي تردد، خرقوا الأبواب طالبين، بواسطة مترجم يتكلم العربية بلهجة غير لبنانية، اسماً محدداً من السكان المرتعبين. وما إن يتقدم الشخص المستدعى فيعرف عن نفسه حتى يرجونه بالخروج ليُقضى عليه بكل برود برصاصة واحدة في قذاله[3]. وطوال النهار تجاوبت طلقات نارية متقطعة[4] داخل المخيمين. وقد أكّدت أسرتان من شاتيلا، تمكنتا من

---

(1) وليد فارس لآلان مينارغ.

(2) شهادات وردت في «لوريان لو جور» في 16 و17 أيلول/ سبتمبر 1982.

(3) شهادات عائلات أمام لجنة جرمانوس.

(4) شهادة ممرضة نرويجية وأطباء أجانب في مشفى عكا.

الهرب، أنهم جنود إسرائيليون يسهل التعرف عليهم من الطاقية التي كان يضعها بعضهم على رأسه[1]. انتهت السلسلة الأولى من إعدامات المدنيين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا بعد العصر حين غادرت مجموعات وحدة الاستطلاع لهيئة الأركان العامة الإسرائيلية المخيمين بالطريقة المتكتمة ذاتها التي دخلوا بها[2]. لقد بدأت المذبحة، حيث ينبغي أن يقوم الفريقان الآخران فيتوليان ذلك بالتناوب.

في حدود الساعة الحادية عشرة، من ليل 15 أيلول/ سبتمبر، أضيئت السماء فوق صبرا وشاتيلا بنور أصفر ناجم عن مطر متواصل من القنابل المضيئة. أما الصمت الذي كان يسود المخيمين فأخذت تقطعه رشقات متفرقة حتى الصباح. كانت الموجة الثانية من القتلة قد باشرت عملها في المخيمين: إنّهم عناصر ميليشيا جيش لبنان الجنوبي[3].

كان رفائيل إيتان يصدر تعليماته شخصياً للنقيب كميل صحّاح الذي كان يتولى قيادتهم قائلاً: **إن النتيجة التي عليكم بلوغها هي هرب السكان من المخيمات**، قال ذلك القائد العام لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي من غير أن يحدد على وجه الدقة كيفية بلوغ ذلك[4]. كانت الأكثرية الساحقة من عناصر تلك الميليشيات من الشيعة، فقد دخل كثيرون منهم جيش لبنان الجنوبي ردّاً على أعمال العنف التي كان ينزلها الفلسطينيون بسكان الجنوب على نحو ما أوضح ضابط صف، جرى استجوابه فيما بعد من قبل لجنة جرمانوس، وقد رأى امرأته وبناته يُغتصبن أمام عينيه[5].

تسلل الرجال الذين كانوا تحت قيادة كميل صحّاح بين مواقع «الاحتكاك» الإسرائيلية الواقعة على تلة تقع مقابل السفارة الكويتية، و إلى صبرا عن طريق المدينة الرياضية وهما نقطتان تقعان عند أسفل المبنى الذي يقع فيه مركز القيادة المتقدم للجنرال عاموس يارون الذي كان يتولى قيادة عملية «الدماغ الحديدي».

كان رجال سعد حدّاد مكلفين بتفتيش مكاتب جبهة التحرير الفلسطينية وبإفراغها من وثائقها[6]. وقد استخدموا تطبيقاً لتعليمات رفائيل إيتان، «طريقة» من أسهل الطرق: فتح النار على كل من يظهر أمامهم، بينما يقوم رماة النخبة من لواء غولاني، والمتمركزون حول المخيمات بتغطيتهم، يمسحون بمناظيرهم المقرّبة الأزقة المقفرة التي كانت تتقاطع تحتهم مباشرة. انسحبت

---

(1) شهادات التقطتها أفليتا راميرغ مراسلة الإذاعة والتلفزيون السويدي في بيروت.

(2) من أسعد جرمانوس إلى آلان مينارغ.

(3) جيش لبنان الجنوبي، ميليشيا مكونة من 85٪ من الشيعة وتحت قيادة مسيحية، مشكلة وممولة ومجهزة من قبل إسرائيل وتحت إشراف جهاز آمان، وهو جهاز استخبارات الجيش لحماية الحدود الشمالية للدولة العبريّة.

(4) شهادة ضابط إسرائيلي كان يحضر المناقشة ورغب في عدم ذكر اسمه.

(5) أسعد جرمانوس لآلان مينارغ.

(6) «لوريان لو جور» 17 أيلول/ سبتمبر 1982.

ميليشيات الجنوب بعد ظهر 16 أيلول/ سبتمبر. وقد وقع ثلاثة منهم، غادروا المخيّم من مكان غير مقرّر، بعد أن ضاعوا في متاهات الأزقة، تحت نيران المظليين الإسرائيليين، الذين اعتبروهم فلسطينيين يحاولون الهرب. فقتل واحد منهم على الفور وأصيب الآخران بجراح خطيرة. وكان على أريل شارون أن يعترف من بعد بأنّهم «قد شاركوا على ما يبدو في المذابح»[1].

عند فجر يوم 16 أيلول/ سبتمبر 1982، و هو يوم رأس السنة العبريّة، كان الاحتفال بالعيد في إسرائيل يأخذ أقصى مداه. فالناس يتدافعون في الأسواق. وحركة السير على درجة من الكثافة، دعت الشرطة إلى إطلاق نداءات لتوقي الحذر. وتصدّرت الصفحة الأولى في صحيفة «دافار» العمالية، عبارة تمنيات لقرائها: عام خير وهناء، وتحتها صورة لجنود مشاة إسرائيليين ودبابات، يقاتلون في بيروت الغربية.

وفي الساعة العاشرة صباحاً، كان أريل شارون ورفائيل إيتان ويوشع ساغي وآفي دوداي، مساعد الوزير، عاكفين، في وزارة الدفاع الإسرائيلية، على تحليل الوضع في بيروت. لقد جرى الاستيلاء على المدينة في 30 ساعة. وهي المرّة الأولى التي تقوم فيها الدولة العبريّة في تاريخها باحتلال عاصمة عربية. وأعرب شارون عن رضاه قائلاً: إنّ المدينة بمجموعها هي الآن بين أيدينا، والمخيمات الفلسطينية محاصرة، ويستطيع رجال الكتائب الدخول إليها.

دوّن رفائيل إيتان على الفور، الأمر رقم 6، الذي يحدد بكل وضوح أنه يحظر (على الجيش الإسرائيلي) دخول المخيمات، فالبحث عن آخر المقاومين وتنظيف المخيمات منهم سيتم على يد الكتائب أو الجيش اللبناني أو الطرفين معا. ثم يضيف الأمر يتمتع الجيش اللبناني بالحق في الدخول إلى أي مكان في بيروت بناءً على طلبه. واتصل أريل شارون هاتفياً بمناحيم بيغن ليقول له:

– لقد انتهت المعارك. وتوقف إطلاق النار. وليس في صفوفنا من ضحايا آخرين[2] الكل هادئ ومطمئن والمخيمات محاصرة .رفّول جالس أمامي. لقد رجع من هنالك وأكّد لي أنّ كل شيء قد انتهى. سوف أحضر بصحبته هذا المساء إلى اجتماع مجلس الوزراء.

ساعة كان شارون يتفوّه بهذه الكلمات، كانت ميليشيات جيش لبنان الجنوبي لا يزال في صبرا وشاتيلا.

كانت العملية الإسرائيلية، في نظر الجميع، عملية ثانوية. إذ كان الشغل الشاغل الوحيد لهم جميعاً، خلافة الرئيس المنتخب. استدعى فادي أفرام أعضاء فريق بشير[3]في مقر الميليشيا في

(1) أقوال أريل شارون أمام لجنة كاهان في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1982.

(2) ذكر بيان الجيش وقوع ثمانية قتلى وحوالى 50 جريحاً لدى اجتياح بيروت الشرقية.

(3) كان حاضراً: فادي أفرام، جوزيف أبو خليل، سامي الشدياق (غير كتائبي)، كريم بقرادوني، أنطوان نجم (مستقيل من الكتائب)، حنا صفتلي (غير كتائبي)، ألفرد ماضي، نازار نجاريان (غير كتائبي)، أنطوان بريدي، أسعد سعيد، فؤاد أبو ناضر، سمير جعجع، إيلي وزّان، فؤاد روكز (12:15)، إيلي حبيقة (12:20)، مسعود الأشقر (بوسي) (13:50).

الكرنتينا. وإنّ الجملة الصغيرة التي أطلقها أمين من فوق نعش أخيه، قد قوبلت أسوأ استقبال من قبل عدد كبير منهم. فالأكثرية من بين رفاق الدرب القدامى لـ«باش»، كانت تتبنّى نفوره حيال الابن البكر لآل الجميّل. ومع ذلك، فقد كان بين صفوفهم أقليّة شديدة «مع-أمين»، خصوصاً أولئك الذين كانوا قريبين جداً من حزب الكتائب. وفي غضون ساعتين من النقاش، جرى التوصّل بتوافق شاق لمصلحة دعم أمين الجميّل، بالشرط المعلن بأن يتعهّد بسلوك خط أخيه السياسي.

حوالى الساعة الخامسة والنصف عصراً ألقي القبض على حبيب طانيوس الشرتوني من قبل ابن عمه إلياس العضو في جهاز أمن القوات اللبنانية. وكان حبيب الشرتوني عضواً في الحزب السوري القومي الاجتماعي المعروف بولائه لسوريا، وشقيقته تقطن الشقة التي تعلو المركز الذي قتل بشير بنتيجة تفجيره. وقد أثار سلوك الشرتوني غير المعتاد انتباه ابن عمه إلياس. وقد بقي هذا التوقيف طي الكتمان طوال مدة الاستجواب.

في الوقت ذاته، بناء على طلب الإسرائيليين، كان رجال جهاز الأمن التابع لإيلي حبيقة يدخلون شاتيلا من جنوب المخيم. وهؤلاء «الشباب» الملقبون بـ«الهنود الحمر» أو «الأباشي» من قبل ميليشيات الوحدات النظامية في القوات اللبنانية، لم يكن لديهم أي تنظيم عسكري محدد. كانوا مشكلين على التقريب من ثلاث مجموعات. ولا يعترفون إلّا بسلطة رؤسائهم المباشرين وهم: جورج ملكو وميشال زوين، ومارون مشعلاني، وكان هذا الأخير «عسكرياً» أكثر من رؤساء المجموعات كافة. فهو يعتبر فريقه أشبه ما يكون بفريق المغاوير القادر على تنفيذ «العمليات الخاصة» كافة المطلوبة من حبيقة.

لقد نزلوا من شاحنات أمام المداخل الجنوبية والغربية من صبرا وشاتيلا قبيل السادسة مساءً من يوم الخميس 16 أيلول/ سبتمبر. كان بوسع الضباط الإسرائيليين مراقبتهم من على السطح (حيث مركز قيادة عاموس يارون). فقد كانوا مزوّدين بأجهزة تلسكوب ومناظير مكثفة للنور تسمح باستخدامها ليلاً. وواقع الحال أنهم ما كانوا بحاجة إليها حقاً[1]. في هذا الوقت بدأت الموجة الثالثة من عمليات القتل.

عندما وصل الطبيب العقيد بالجيش اللبناني مارسيل برَنْس إلى المدخل الجنوبي لشاتيلا في حوالى الثامنة والنصف من صباح يوم السبت، لم يكن يتبقى في المنطقة أي عنصر من الميليشيات المسيحية. وكان مارسيل برَنْس كبير الجراحين في المشفى العسكري المركزي في بيروت وهو اختصاصي في الجراحة الحربية معترَف به دولياً[2]، وهو أيضاً خبير في ذلك الاختصاص أمام المحاكم المدنية والعسكرية. وكان مرسلاً من قبل الجنرال فيكتور خوري القائد العام للجيش

---

(1) أمنون كابليوك، صبرا وشاتيلا. تحقيق حول مذبحة، منشورات سوي، باريس، كانون الأول/ ديسمبر 1982.

(2) مؤلف كتاب هو مرجع حول مبادئ الجراحة الحربية، 1975.

اللبناني. وتوقفت سيارته أمام البيوت الأولى في شاتيلا، ساعة وصول سيارة من هيئة الصليب الأحمر الدولي بصحبة المستشار الأول في السفارة الأميركية رايان كروكر. سلك مارسيل برَنْس ماشياً الشارع المتجه صاعداً نحو مشفى غزّة. وبعد تجاوز بضعة أبنية دمّرتها البلدوزرات، كانت مجموعات من الأجساد ترقد في أرض الشارع، وقد باغتها الموت لدى خروجها من المنازل. كان عددهم كبيراً في شاتيلا. أما صبرا، إلى الشمال، فبدت في مأمن. كان بعض المدنيين المذعورين يبرزون من ملاجئهم هنا وهناك، بكل حذر وينظرون إليه بارتياب. وسعى الجراح لطمأنتهم مكرّراً دون توقف **لا تخافوا، نحن من الجيش اللبناني.**

كانت الصور الأولى عن المذبحة هي التي استُهِلّت بها نشرات الأخبار المتلفزة كافة مساء 18 أيلول/ سبتمبر. وبعد ذلك بدقائق، أعلن فرانسوا ميتران من باريس أنّه شعر بـ **الهول** لرؤيتها. وعقد مجلس الأمن في نيويورك جلسة مستعجلة، أما في واشنطن فقد أوعز رونالد ريغان بنشر بيان لا سابقة لقسوته في تاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة والدولة العبريّة. واستدعي السفير الإسرائيلي موشيه أرينز، لكي يُخطر إسرائيل رسمياً **بسحب قواتها فوراً من بيروت الغربية.** من وجهة نظر التأكيدات الصادرة في القدس، أنّ ريغان لم يتردد عن التصريح طوال نهار الأربعاء في 15 أيلول/ سبتمبر، أثناء جولة قام بها في ولاية نيوجرسي، أنّ الإسرائيليين قد تجاوزوا الخط الأخضر للردّ على رمي ميليشيات معزولة – وهي حجةلم يجرؤ الإسرائيليون أنفسهم على التقدّم بها.

فإن رواية هذه المذابح تم استخدامها، ما بين الحقيقة والتلاعب، من قبل جميع القوى السياسية والعسكرية في المنطقة في جميع الأحداث اللاحقة على الساحة اللبنانية. وما سنرويه هنا هي تفاصيل هذه الأحداث التي غالباً ما كانت سرية.

1

«خطيئة الصمت»[1]

في مطلع النهار من يوم الأحد، 19 أيلول/ سبتمبر، أقبل الجنرال رفائيل إيتان، القائد العام للجيش الإسرائيلي، مندفعاً إلى بيروت. وما إن وصل حتى أعطى الجنرالَ عاموس يارون، قائد عملية «سلام الجليل»، الأمر بإخلاء المواقع التي كان يحتلّها مظلّيّوه حول صبرا وشاتيلا. وقصد بعدئذ، متوجّهاً إلى المجلس العسكري للقوات اللبنانية في الكرنتينا، يصحبه عامير دروري ومناحيم نافوت (مندي)، وهو الرجل الثاني في جهاز الموساد. فاستقبلهم جوزيف أبو خليل وأنطوان بريدي (توتو)، المفتش العام للقوات اللبنانية.

كان جوزيف أبو خليل، الذي كان يناديه بشير الجميّل بلقب «عمّو»، لقربه الشديد من أبيه بيار الجميّل، بمثابة «الضامن لاستقامة الكتائب» في القوات اللبنانية، قبل أن يتبنّى، قلباً وقالباً، منظورات الرئيس المنتخب، بقيامه بوظائف غير رسمية، مستشاراً سياسياً. إنّه صحافي قديم، نحيف القامة، ديدنه التدخين وشرب القهوة، ومطّلع على الأسرار كافة. فهو الذي، حين قصد إسرائيل في آذار/ مارس 1976، لحّ في الطلب إلى وزير الخارجية شمعون بيريز، كي يتيح للزعيم الشاب، مواصلة عمليات القتال في مركز المدينة[2]. ومن الطبيعي أن يواصل نشاطه هذا لدى زعماء القوات، من بعد اغتيال بشير الجميّل.

كشف لهم القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي عن أنّ الأسرة الدولية مستاءة مما جرى في المخيّمات. فالعالم كلّه يتّهم إسرائيل. وقد نغدو مرغمين على الانسحاب من بيروت. ولا بدّ لأحد منّا أن يقدّم تفسيراً لما حصل، وبسرعة! وينبغي للرواية المقدّمة أن تحمّلكم جزءاً من المسؤولية، مع الإشارة إلى أنّ ذلك قد وقع خارجاً عن مراقبتكم.

---

(1) عنوان صحيفة «معاريف» 24 أيلول/ سبتمبر 1982.

(2) العودة إلى كتاب: آلان مينارغ، أسرار حرب لبنان، م س.

– ونصح عامير درووري بضرورة التخفيف من وقع الصدمة عن طريق الإشارة إلى المذابح التي ارتكبها الفلسطينيّون أيضاً في الدامور عام 1976. مضيفاً: قولوا إنّ الأمر ليس فعلاً مقصوداً ومقرراً من قيادتكم. وعليكم أن تشيروا إلى حصول معارك في الأماكن التي دخلتم إليها. وليس مع الكتائب فقط، وإنّما أيضاً بين فصائل فلسطينية متخاصمة.

– وتحوّلت لهجة إيتان إلى نبرة تهديد لا لبس فيها، وهو يقول: من الضروري أن تشرحوا ذلك بكل استعجال، فهل يسعكم تنظيم مؤتمر صحفي؟

كان أمين وبيار الجميّل قد ألحّا عشية ذلك اليوم على القوات اللبنانية كي لا تباشر أي عمل كان من شأنّه أن يعرّض للخطر حسن سير الانتخابات الرئاسية. فما كان البريدي وأبو خليل ليفهما الإلحاح في الطلب رقّول. فقد وقعت قبل ذلك بستة أعوام، لدى الاستيلاء على تل الزعتر، مذبحة للفلسطينيين أكبر بكثير، من غير أن ينفعل أحد للأمر. كذلك كانت عليه الحال بالنسبة إلى مخيّمات الكرنتينا، أو الدامور، علما بأنّ مسيحيين قد قتلوا في تلك الواقعة الأخيرة. يبقى أنّه لم تكن لدى اللبنانيين الاثنين، أية فكرة حول حقيقة ما جرى في صبرا وشاتيلا. فهما يعرفان أنّ رجال جهاز الأمن دخلوا إلى هنالك، وقد حصلت معارك، لكنّ إمكانية الإفراط، حتى الإفراط الجدّي، لا تبرّر في نظرهما، مثل تلك الردود من الأفعال. فهما أبعد ما يكونا عن التصوّر، أنّ مسؤولية الدولة العبريّة، مهما تكن ضئيلة، يمكن أن تستجرّ اضطراباً وتشويشاً خطيراً. زدْ أنّهما لم يدركا السبب الذي يجعل القوات ملزمة بالاعتراف بأيّ شيء كان، في حين أنّ صائب سلام نفسه يبرّئهم وهو يشير بإصبع الاتهام إلى سعد حدّاد، قائد جيش لبنان الجنوبي.

وواصل ناوت الإيضاح بصوت هادئ، فقال:

– صحيح أن الكتائب قد دخلوا المخيمات. لكنّ ما وقع لم يكن مقرراً من قبل قيادتهم العليا. عليكم أن تقولوا إنّ ما وقع كان استثنائياً، وأنّه جاء على أثر اغتيال بشير. أرى أنّ الأمور تستقيم هكذا. فيستحيل علينا أن نكون وحدنا في مواجهة ردة الفعل العالمية. لو كان علينا وحدنا تقديم التفسيرات، لسردنا ما نرغب في سرده.

وما كان للتهديد أن يكون أشدّ وضوحاً.

فلخّص جوزيف أبو خليل الوضع بقوله:

– تريدون في الواقع أن نأخذ كل شيء على عاتقنا، لكنّ ذلك مستحيل في وضع لبنان السياسي الراهن!

فقال إيتان ببرود:

– فماذا تقترحون؟

– لا تتهمونا، واكتفوا بإحاطة وسائل إعلامكم علماً بالأمر.

فكرّر رفّول قائلاً بشدّة:

- لكنّ الجميع يعلم أنّ ذلك وقع بفعل الكتائب!

فألحّ أبو خليل يقول في ردّه:

- أطلب إليكم إعطاء توجيهات إلى صحافتكم كي لا تلقي بأيّ مسؤولية على عاتقنا، وفي الأيام القليلة القادمة على القليل.

فاستأنف عامير دروري القول:

- يسعكم أن تقولوا إنّها ليست سياستكم. وإنّ ما وقع لم يكن بسبب الكتائب فقط، لكن وقعت أيضاً معارك بين فصائل فلسطينية مختلفة.

ونفد صبر قائد أركان الجيش الإسرائيلي، فقال:

- الكل يعلم أنّ ذلك من فعل الكتائب. فعليكم أن توضحوا أنّه لم يقع نتيجة أمر صادر عن القيادة العليا، وأنّه وقع خلل في الرقابة وأنّكم أوقفتم كل شيء بمجرد معرفتكم بما قد وقع. عليكم أن تقولوا ذلك! إنّ أجهزتنا الإعلامية حرة! فيسعها أن تقول ما تشاء. أوضحوا أنّ ما وقع كان ردّة فعل عنيفة من جنودكم إثر اغتيال بشير. فهل لديكم من اقتراح آخر؟

وثبُتَ لدى رفّول، ثباتاً لا ريب فيه، أنّه إذا ما استمرّ الصمت الذي التزمت به القوات اللبنانية حتى الآن، فسوف يتحوّل إلى عبء سياسي هائل، تنوء تحته الكواهل الإسرائيلية.

فرد أبو خليل بهدوء قائلاً:

- علينا التعامل مع هذه القضية يوماً بيوم، وعلى نحو غامض وفقاً لما هو منشور في وسائل الإعلام. فلا يسعنا القول إنّ الكتائب قد فعلوا ذلك.

فاستفسر إيتان قائلاً بجفاء:

- وكيف تريدون تأويل ذلك؟

فأعلن جوزيف قائلاً بهدوء:

- سوف نواصل الإنكار.

- لست أدري كيف سيكون انعكاس ذلك على الوضع السياسي، لكن يسعني أن أقول لكم شيئاً واحداً: العالم كلّه يعرف الوقائع، أي أننا جعلناكم تدخلون المخيمات فوقع على أيديكم ما وقع. عليكم أن توضحوا ذلك للعالم وأن تحددوا بدقّة أنّ ذلك لم يكن أمراً صدر عن قيادتكم، بل هو سورة غضب. فلن يلوم الجيشَ الإسرائيليَّ أحدٌ من الناس! ذلك ما أكّد عليه رفائيل إيتان، وكأنما هو يجهل وجود فريقين اثنين من القتلة.

- ولا توجّهوا اللوم إلينا. أنكروا فقط أنّ الجيش الإسرائيلي فعل ذلك.

فتدخّل رئيس الأركان قائلاً:

– ليس من يلوم الجيش الإسرائيلي! والكل يعرف أنكم أنتم الفاعلون!
– هذه مشكلة تخصّنا نحن.
فقال مندي:
– ليست مشكلة داخلية تخصّكم أنتم فقط، بل هي مسألة داخلية لدينا نحن أيضاً.
فخلص اللبناني إلى القول:
– سوف ندرس القضية ونهتمّ بها. لكن لا تدينونا!
فأردف رفّول مؤكداً: إذا ما أوضحتم ذلك بنزاهة، فلن يكون الأثر إلّا إيجابياً. فالجميع اليوم خائف منكم.
– إنّ تصريحاً من هذا النوع سوف يضايقنا.
فاقترح عامير دروري:
– ليس لكم سوى إيضاح القضية جزئياً.
فأضاف إيتان قائلاً:
– مشكلتنا مطروحة مع العالم أجمع وليس في إسرائيل فقط. طرحنا أمامكم وجهة نظرنا بطريقة واضحة. فعليكم النظر فيها واتخاذ القرار.

لم يكن يراود القوات اللبنانية أي شعور بالذنب. فلا يخطر في بال إيلي حبيقة، أن يقلّ التماسك بينه وبين رجاله، ذلك أنّه لم يكن يرى، بادئ ذي بدء، أي شيء خارق للعادة في هذه القضية. فدروب التاريخ الحديث في لبنان وحافلة بالمذابح وما من أحد أولاها اهتماماً حتى الآن.

باشر الإسرائيليون يوم الأحد، بعد أن أمضوا 24 ساعة وهم ينكرون كل مسؤولية لهم عن المذابح، بالدفاع عن أطروحة الخطأ التي تسببت بـ «انزلاق هائل». وتقدّم موظف كبير، ذكرته إحدى الإذاعات، فأوضح أنّ الجيش الإسرائيلي سمح بمرور عناصر «كتائبية» مسلحة مكلّفة بتوقيف عدد من «الإرهابيين»، وأنّه ما كان بوسع أحد أن يتخيّل أنّ ذلك سوف ينتهي إلى «مذبحة بشعة» وأنّ الكتائب وصلوا من شرق المخيمات في حين أنّ القوات الإسرائيلية كانت تقف غربها. [. . .] أنّ المذابح بدأت يوم الجمعة مساء هذا ما أكّده الناطق باسم الجيش الإسرائيلي، في حين أكّدت التحقيقات القادمة من بيروت أنّها بدأت يوم الخميس، بل يوم الأربعاء صباحاً. وأدلى موظف كبير آخر، رفض الكشف عن اسمه، بتصريح للصحافة، كشف فيه عن أنّ الجيش الإسرائيلي لم يتدخّل إلّا بعد أن اطلع على حقيقة ما جرى حتى أنّه قتل عنصراً من الكتائب أثناء تدخّله، خالطاً عن عمد ما بين القوات اللبنانية وقوات جيش لبنان الجنوبي الخاضعة تماماً لسيطرة جهاز آمان. واعترف الجيش الإسرائيلي من جانبه، في بيانات متتالية أكثر اقتضاباً، بأنّه لم يكن مسيطراً على الكتائب التي في منطقة المطار، وبأنّه وصل بعد فوات الأوان.

وردّ جوزيف أبو خليل بنشر بيان فيه تكذيب قاطع. لقد أكّد أنّ القوات اللبنانية لم تكن لها أي مساهمة في مذابح صبرا وشاتيلا. [...] وأنّ القوات اللبنانية لم يكن لها أي وجود في مناطق شرق بيروت أو في المخيمات. في حين أضاف فؤاد مالك، ممثل القوات اللبنانية في باريس، لمسةً شخصية من جانبه، موضحاً إيضاحاً دقيقاً أنّ القوات اللبنانية لم تتجاوز قط خط التماس الذي يفصل بين شطري بيروت وأنّها لم تدخل المخيمات الفلسطينية[1].

فبدأت إذّاك حرب حقيقية من البيانات والتصريحات بذل كل طرف فيها قصارى جهده في استخدام الأكاذيب وأنصاف الحقائق التي لم تسهم إلّا في زيادة الإبهام العام.

كان أربعة عناصر من الدفاع المدني، وعلى وجوههم أقنعة يستخدمها الجرّاحون، يقومون تحت شمس محرقة، بلفّ جثّتي شابين، في زقاق يمتد من حي حرش تابت إلى شاتيلا. وكانت وضعية الجثمانين ترجّح الفرضية أنّهما سقطا فيما كانا يبتعدان هاربَين. وقالت امرأة تقيم في ذلك الزقاق إنّهما لبنانيان. إنّهما الأخوان سليم وسميح تعباني وهما في العشرين والثانية والعشرين. كان عدد كبير من اللبنانيين يقيمون في حرش تابت في الحي الجنوبي الشرقي من شاتيلا. وهم من الشيعة بشكل رئيس وأصلهم من قرية لاسا في كسروان المسيحية، معظمهم من المزارعين، الذين يزرعون الخضار، فهم من صغار الملاكين، ولقد هربوا من قريتهم أو طُرِدوا منها مع بداية الحرب.

كان مخيّما صبرا وشاتيلا محكمَيْ الإغلاق بقوات اللواء الثامن بقيادة الجنرال عون. ولا يملّ المسعفون من أداء الحركات ذاتها وسط رائحة نتنة جداً. فهم يقومون بتفتيش الجثث بحثاً عن وثائق تسمح بتحديد هويّتها، فيدوّنون على بطاقة، المعلومات التي حصلوا عليها بشأن كل جثّة، ويقومون بإخلائها نحو منطقة الفرز. فيقوم طبيبان، أحدهما الدكتور مارسيل برَنْس، بتفحّصها.

هنالك أسرة من أربعة أشخاص بينهم طفلان، فريد في السادسة من عمره، وبسام في الحادية عشرة، من عائلة المرعي، وقد بوغتوا وهم على المائدة. لقد رقدت عشر جثث في قبو طوله يقارب المئتي متر، بين صناديق الذخيرة. وسقط خلف سيارة ستة رجال يبدو أنّهم كانوا يقاتلون. فالأرض من حولهم ملأى بالطلقات الفارغة من عيار 7,62، وهو عيار الكلاشنيكوف، في حين كانت الطلقات الفارغة عند زاوية الشارع المقابل من عيار 5,56 وهو عيار بنادق M16 الأميركية أو جليل الإسرائيلية. بدا الناس الذين ظلوا هنالك، زائغي البصر، يراقبون المسعفين بهيئة فيها شيء من الارتياب. وتمتزج بلامبالاة بعضهم نوبات من البكاء أو الضحكات العصبية. وأثار وصول شاحنة تحمل جنوداً لبنانيين هلعاً لا يوصَف دام ساعات عديدة. وحين رأتهم إحدى النساء ظنّتهم من الميليشيات. فولّت مدبرة وهي تصرخ لقد عادوا، لقد عادوا.

---

(1) صحيفة «اللوموند»، 21 أيلول/ سبتمبر 1982.

مع بداية الظهيرة، من يوم الأحد في 18 أيلول/ سبتمبر 1982، أخذت امرأة فلسطينية اسمها مريم عايدة، تتنقّل كالظلّ من جثّة لأخرى، فوق الأرض التي صُفّت فوقها جثث الضحايا من مجهولي الهوية. فتنحني بحركة إنسان آلي لتزيح بكل ترفّق طرف الغطاء الذي يخفي الوجه. فتراقب الجثمان مطوّلاً قبل أن تغطّيه مجدداً فتنتقل إلى الذي يليه. وما كانت تهتزّ عضلة واحدة في وجهها. فقد أضحت عيناها فارغتين لشدّة ما بكت. وكانت حولها عدة عشرات من النساء، يمضين في الغالب مثنى، وهنّ يؤدّين الحركات ذاتها. ويرتفع بين الفينة والأخرى عويل تفجّع يمزّق الصمت. لقد جرى التعرّف على أحد الجثامين. فيتقدّم رجال الصليب الأحمر اللبناني ويسألون إن كانت العائلة ترغب في أن تتولى بذاتها أمور الدفن. فإن كان الردّ بالإيجاب، يقوم رجال الإسعاف بنقل الضحية. أما مريم عايدة فواصلت بحثها، بلامبالاة. وبغتة سقطت على ركبتيها أمام أحد الأغطية. لقد عثرت على ابنها، حسن قاسم حرب، وهو في الرابعة عشرة من عمره. ولبثت هنالك، واهنة، لا تفارقه عيناها. ولم تنبس ببنت شفة حين أقبل المسعفون يسألونها. وانتهى بهم الأمر إلى مساعدتها على النهوض وأخذها إلى ظلّ أشجار الكينا التي تحيط بالمكان: فقعدت فوق حجر، وشهدت نقل جثة ابنها إلى حفرة مشتركة. وإنه الجثمان التاسع والثلاثون بعد المئة، الذي يُوارى الثرى منذ صباح السبت.

كان يتجمهر في الوقت ذاته، في شارع بلفور في مدينة القدس، خمسمئة من المتظاهرين وهم يصرخون هاتفين بيغن إرهابي، الاستقالة يا بيغن، وذلك أمام مقرّ رئيس الوزراء في حين كانت وزارته تعقد اجتماعاً فوق العادة. كان على جدول الأعمال موضوع واحد: صبرا وشاتيلا. وكان الاجتماع صاخباً. فردّ بيغن مذكّراً بـ الدعوة بالموت التي أُطلِقت ضدّ دولة إسرائيل ومقارنة العزلة المتنامية للحكومة الإسرائيلية بالعزلة التاريخية للشعب الإسرائيلي وسط الأمم.

وتوجّه إلى زملائه قائلاً بقسوة:

– ليس لهم أن يعلّمونا الأخلاق!

حين انفضّ الاجتماع، بدا الوزراء، وعلى وجوههم آثار التعب، متضامنين مع بيان متراصّ مع الموقف الإسرائيلي ويدعو شعب إسرائيل للاتحاد ديمقراطياً حول حكومة منتخبة ديمقراطياً.

بعد ذلك بدقائق، ارتفع من إحدى الإذاعات، صوت إسحق شامير مندّداً بـحملة الافتراء الموجهة ضدّ إسرائيل ومؤكّداً أنّ الجيش الإسرائيلي في بيروت قد أنقذ آلاف الأرواح البشرية. [. . .]ومن الممكن أن يتوقع المرء أن موت بشير الجميّل قد يؤدي إلى سفك الدماء. ثم أضاف يقول: إنني مصاب بصدمة عميقة بسبب تلك الجرائم ضد الفلسطينيين داخل المخيمات، لكنّها ليست المرة الأولى التي يقع فيها مثل ذلك في لبنان. ولقد تدخّل الجيش الإسرائيلي فور علمه بتلك الأحداث المأساوية. فردّ عليه زعيم حزب العمال، شمعون بيريز، عبر شاشة تلفزيون وسيط مطالباً

باستقالة رئيس الوزراء ووزير الدفاع أريل شارون: **على الذين اتخذوا القرار بإدخال قواتنا إلى بيروت أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم وأن يتحمّلوا المسؤولية الكاملة المترتبة على قراراتهم.**

إن التفاهم التقليدي بين الأكثرية والمعارضة في زمن الحرب قد تحوّل هباءً منثورا. وغرس بيريز الخنجر أكثر مطالباً بعقد اجتماع مستعجل للكنيست. لكنّ الضربة الأقسى التي وجّهت إلى بيغن جاءت من الجناح الليبرالي في حزبه هو. فقد طالب النائب درور تسايغرمان بتشكيل لجنة تحقيق لتحدد ما إذا كان غزو بيروت قد أدّى إلى المذابح.

وأوضح قائلاً إنّ على وزير الدفاع أن يستقيل على الفور إذا ما كان الجواب إيجابياً.

ما إن نُشِر بيان الحكومة الإسرائيلية حتى استدعت القاهرة سفيرها في تل أبيب، سعد مرتضى، «بقصد التشاور». إنّها إشارة احتجاج سياسي لم تقم مصر بمثلها من حين بدء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في 18 آذار/ مارس 1980، وحتى لدى عمليات القصف المكثفة على بيروت. وقالت واشنطن إنّ مناحيم بيغن، وهو يواصل تأجيج النار اللبنانية، إنّما يسعى إلى نسف مخطط السلام الذي اقترحه رونالد ريغان في مطلع أيلول/ سپتمبر 1982. واستدعى رئيس الولايات المتحدة هيئة أركانه في الأزمات لتدارس إرسال قوة جديدة متعددة الجنسيات، إلى لبنان، ضمن إطار الأمم المتحدة. ومساء الأحد، أعلن الرئيس ريغان قائلاً، عبر شاشات التلفزيون: **لقد آن أوان العمل من أجل تسوية عادلة ودائمة للنزاع الإسرائيلي العربي، يأخذ بعين الاعتبار الحقوق المشروعة للفلسطينيين الذين هم الضحايا في أغلب الأحيان.** ثم أضاف، من غير أي إشارة إلى أمن الدولة العبريّة: **ينبغي أن تكون إسرائيل قد تعلّمت أنها لا تستطيع فرض حلولها الخاصة على أحقاد عميقة ومريرة كتلك التي تسبّبت في هذه المأساة. ولئن سعت إلى فعل ذلك، فأنها لن تقوى إلّا على الغوص أعمق في الموحلة. . .**

تلك كانت المرة الأولى التي يشير فيها رئيس أميركي إلى حقوق الفلسطينيين الشرعية. وكانت الضربة شديدة الوقع على تل أبيب.

وفي يوم الاثنين 20 أيلول/ سپتمبر 1982، حملت صحيفة «هآرتس»[1] اليومية على عرض صفحتها الأولى عنوان: **جرائم حرب في بيروت**، وهو أول يوم ظهور لها في إسرائيل بعد الإعلان عن المذابح. أما صحيفة «دافار»[2] فطالبت من جانبها بـ **الطرد الفوري لحكومة المجرمين تلك.** وأجمعت الصحافة على التعبير صراخاً عن انفعالها. كما عرضت صحيفة «يديعوت أحرونوت»[3]،

(1) «هآريتز» (صحيفة اليسار المعتدل - وتشبه صحيفة «الوموند» الفرنسية) تأسست عام 1920، وهي ملك لعائلة شوكن، وتطبع 60,000 عدد.

(2) «دافار» تأسست عام 1925، صحيفة ناطقة باسم اتحاد نقابات العمال الإسرائيلية «الهيستادروت» القريب من حزب العمال (كان في المعارضة عامي 1982-83) 30,000 عدد عام 1982، و15,000 عدد عام 1995.

(3) «يديعوت أحرونوت» (مستقلة) أنشئت عام 1939، وهي ملك لعائلة موزيس (التي تمتلك على 14 صحيفة اسبوعية وقناة تلفزيون خاصة) تطبع 400,000 عدد في الأسبوع، و750,000 في عطلة نهاية الأسبوع.

في الأكشاك، عنوانها «الجحيم في بيروت» إلى جانب عنوان «معاريف»[1] «معسكر الموت»، والعناوين كلها مصحوبة بصور يعجز المرء عن النظر إليها. وكشفت صحيفة «جيروزلم پوست» عن أنّ أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية كانت أعلمت رئيس الوزراء، كما وزير الدفاع، بخطر المذابح في بيروت الغربية، لكنّ تلك التحذيرات قد جرى تجاهلها.

كان وقع الصدمة رهيباً على الإسرائيليين. فلقد أثار أزمة أخلاقية حقيقية. ولم يتردد بعض الصحفيين الإسرائيليين عن التأكيد أنّ بعض الزعماء اليهود من الناجين من الإبادة النازية، قد تستّروا تستّراً مباشراً أو غير مباشر، على جريمة ضد الإنسانية[2]. وظهر انطباع على شعب الدولة العبريّة بأنّه فقد على نحو مباغت جزءاً من هويته التاريخية. فكان منذ يومين متعلّقاً تعلّقاً تاماً بنشرات الأخبار الإذاعية، وكانت الأخبار المتلفزة تضرب أرقاماً قياسية بعدد المشاهدين والصحف اليومية تباع بسرعة قياسية أيضاً.

كانت كل ساعة تمرّ تحمل نصيبها من إفشاء الأسرار ومن ردود التكذيب. فأكّد مراسل التلفزيون الإسرائيلي في لبنان أنّ الرجل الذي قتلته القوات الإسرائيلية حين تدخّلت لإيقاف المذابح في مخيّم شاتيلا كان جندياً من ميليشيات سعد حدّاد. وكانت المرة الأولى التي تسمح فيها الرقابة العسكرية بتسريب خبر على تلك الدرجة من الدقة، لا سيّما وأنّ الناطق باسم الجيش الإسرائيلي قد كذّب قبل ذلك بيوم واحد أن يكون رجال من جيش لبنان الجنوبي قد شاركوا في المذابح، مع الاعتراف بأنّ المظلّيين المنتشرين حول المخيمات قتلوا رجلاً من «إحدى القوات الصديقة».

انفجرت آنذاك حرب كلامية حول دور الصحافة و«دعمها» لأعداء إسرائيل. لكنّها أُخمِدت سريعاً عبر «قضية» لجنة التحقيق. فطلبُ درور تسايغرمان استؤنِف فوراً من قبل حزب العمال تدعمه عريضة رفعها عدد من المثقفين، وعلى رأسهم الرئيس السابق للدولة العبريّة إيفراييم كاتسير. وكانت حجّتُهم بسيطة على قدر ما هي ناجعة: إنّ الروايات التي يتوالى نشر بعضها من قبل السلطات العسكرية والمدنية بعد بعضها الآخر، متناقضة تناقضاً تاماً، ولنا الحق في معرفة الحقيقة .بل إنّ الرئيس الإسرائيلي إسحق نافون، انخرط هو نفسه في المعمعة، وهو يتكلّم بتأثر في لقاء متلفز. فقرّر التقدّم باستقالته ما لم تُشكّل لجنة للتحقيق[3]، وأدان بكل شدة جريمة بيروت الشنيعة كما أدان المحاولات التي نشهدها في العالم وفي البلدان العربية لإلقاء مسؤولية المذابح على جنود الجيش

---

(1) «معاريف» (اليمين المعتدل) أنشئت عام 1948 بالانشقاق عن «يديعوت أحرونوت»، وهي ملك لعائلة نمرودي (مع عدة مجلات وقناة تلفزيون خاصة) تطبع 160,000 عدد أسبوعياً، و260,000 في عطلة نهاية الأسبوع.

(2) إلى آلان مينارغ، 1993.

(3) قال في مقابلة نشرت في صحيفة «الغارديان» عشيّة انتهاء مدّة ولايته: كنت سأتقدّم باستقالتي لو أن لجنة التحقيق لم تتشكل آنذاك، وما كنت سأحيط رئيس الوزراء، أو كائناً من كان، علماً بالأمر لأنني لا أعتقد بضرورة استخدام مثل ذلك وسيلة تهديد.

الإسرائيلي. وأضاف مؤكّداً: [. . .]لكن لا ينبغي طي الصفحة، فهذه الأحداث لا بدّ من تفحّصها في أقرب فرصة من قبل لجنة تحقيق مستقلّة، يكون أعضاؤها موضع ثقة.

أصيب زعماء القوات اللبنانية بجرح عميق نتيجة ما كشفت عنه الصحافة الإسرائيلية، وظلوا على عدم فهمهم لأسباب ذلك الصخب الإعلامي. فتوجّه جوزيف أبو خليل، يوم الإثنين في 20 أيلول/ سبتمبر، بلوم شديد على ذلك لأمنون، وهو أحد رجال الموساد المقيمين في لبنان، فقال متعجباً:

– ينبغي وضع حد لتصريحات رجال صحافتكم! فلم نعد نجرؤ على الكلام معكم أو اللقاء بكم. ولم يعد هنالك ما يضمن سرّية اجتماعاتنا.

– فأعرب الإسرائيلي عن أسفه، لأنّه ما عاد أحدٌ بقادرٍ على إيقاف هذا السيل المتدفق.

أخذت قضية اللجنة تسمّم الحياة الإسرائيلية أخلاقياً وسياسياً. فصحيفة معاريف ثارت ثائرتها، مع أنّها موالية للحكومة، فقالت في عددها يوم الثلاثاء 21 أيلول/ سبتمبر: **يكمن داخل كل فرد وكل مجتمع، خط أحمر لا ينبغي تخطيه في قضايا القتل والظلم. أليست الحكومة على علم بهذا الخط؟ وهل نسيت أحزاب التحالف ما الذي يفوق حد التحمّل؟ وهل ينبغي الاستمرار في التزام الصمت؟**

عقدت الحكومة بعد ظهر اليوم ذاته اجتماعاً عاجلاً للمرة الثانية في غضون يومين. وتوجّب على رئيس الحكومة أن يخوض صراعاً على مدى خمس ساعات ليقمع تمرّداً حقيقياً قام به ستة وزراء مطالبين بتشكيل اللجنة.

وقّع مناحيم بيغن كلامه قائلاً إنّ إسرائيل لا يسعها التحقيق في ظروف جريمة لم ترتكبها. لقد وقعت جرائم شنيعة ارتكبها أناسٌ غير يهود بحق أناسٍ غير يهود، ولا يقع على عاتق إسرائيل أي مسؤولية في تلك المذابح، فليس لجيشنا من وجود في المخيمات!

لقد جرى رفض تشكيل لجنة تحقيق. لكن ما كاد الاجتماع يُختتَم، حتى أعلن وزيرا الطاقة، إسحق بيرمان، والاتصالات، مردخاي تسيبوري، عن عدم تضامنهما. بل إنّ بيرمان قدّم استقالته. وطالبت المعارضة مجدداً بعقد اجتماع استثنائي للكنيست. إنّ أزمة سياسية خطيرة قد تفجّرت. وعقد البرلمان في اليوم التالي، 22 أيلول/ سبتمبر، جلسة فوق العادة، فجرت أعنف صدامات جرى تسجيلها على الإطلاق ما بين الحكومة والمعارضة. لكن تدوين مساءلة قضائية، على جدول الأعمال، قد رفض بواقع 48 صوتاً ضدّ 42، على الرغم من أنّ حكومة بيغن كانت ذات أقلية برلمانية.

كشف كلٌّ من مايكل إلكنز في الـبي بي سي (BBC)، ولورنز جنكنز في الـواشنطن بوست، وكولن كامبل في الـنيويورك تايمس، استناداً إلى مصادر إسرائيلية، على أنّ واحداً من أعلى ضباط

الكتائب، إيلي حبيقة، قد قاد عملية صبرا وشاتيلا. فردّت القوات اللبنانية على الفور بنشر تكذيب جديد. وبعث فادي أفرام برسالة إلى مندي:

[...] إنّ التصريحات التي يدلي بها مسؤولون إسرائيليون كبار، والتي تلقي بمسؤولية المذابح في المخيمات على القوات اللبنانية [...] تلحق أضراراً كبرى بصورتكم هنا لا سيّما وأنّ المصادر الأخرى كلها تشير إلى أنّ ميليشيات حدّاد مسؤولة. [...] بودي فقط أن أذكّركم ببعض الوقائع: قواتنا لم تدخل، وأكرّر القول: لم تدخل إلى شاتيلا أو إلى بيروت الغربية. وأثناء اجتماعنا مع رفّول ودروري وعاموس ومعك أنت، قام رفّول بتهنئتنا على «العمل النظيف» الذي تمّ. [...] فأرجوك أن تقوم بما وسعك لتوضيح هذه النقاط مع مسؤوليكم [...].

كان رجال حبيقة يشكّلون بنية منفصلة عن القوات اللبنانية. ولقد تصرّف على الدوام أن يكون الأمر هكذا، ويعلم الإسرائيليون ذلك حقّ العلم. وحين أشار أفرام إلى «قواته»، لم يكن كاذباً، فالقوات اللبنانية النظامية لم تدخل إلى المخيّمات، فظلّت في المطار ولم تتدخّل البتة. يضاف إلى ذلك أنّ عدد الضحايا الذي بحوزته كان أدني بكثير من الأعداد التي جاءت الصحافة على ذكرها. ولا يسع هذه النتائج المختلفة أن تجد جذورها إلّا في تصفية الحسابات السياسية الداخلية في إسرائيل، أو في عمل أميركي يرمي إلى مضايقة حكومة بيغن المعارضة لمخطط ريغان. وأمر أمين الجميّل، الذي انتُخب رئيساً في 21 أيلول/ سبتمبر، بالاتفاق مع فادي أفرام، بفتح تحقيق. وأصدر الجنرال فيكتور خوري، رئيس أركان الجيش اللبناني، القرار رقم11466، الذي يأمر بأن **تُحال أمام القضاء العسكري الجريمة المرتكبة ضدّ الأمن الداخلي والتي تحمل تهديداً للأمن العام.** وأُوكِل الملفّ إلى المدّعي العسكري العام أسعد جرمانوس. فتمثّل الإجراء الأول الذي اتخذه في رفض الكشف عن هوية القضاة وضباط الجيش المتعاونين معه[1] ليجعلهم في مأمن من الضغوط.

ما إن أمسك أسعد جرمانوس بالملف حتى طلب إلى الطبيب العقيد مارسيل برَنْس تقريراً شرعياً حول ما توصّل إليه، وإلى المكتب الثاني[2] في الجيش اللبناني أن يرفع إليه ملاحظات التنصّت اللاسلكية التي جرت ما بين 14 و19 أيلول/ سبتمبر 1982. توجّه بعدئذ إلى المخيمات لجمع البيّنات الأولية واستماع لأقوال الشهود. كان الناجون متكتّمين. والدافع هو الخوف أولاً. فمنذ انتخاب بشير، والكلام يتناول في الغالب مسألة طرد الفلسطينيين، الذين جاؤوا بعد 1965، من لبنان، وتلك كانت حال عدد كبير منهم. أمّا من بعد، فكلّما مرّت الأيام، اتخذت التأثيرات السياسية للأحزاب والجماعات أهمية أكبر.

---

(1) القضاة: فوزي داغر، الياس موسى، أسعد دياب، والعقيد ميشال عون، الرائد حمد خطاب، النقيب سعيد ممتاز، الملازم ميشال هيدموس.

(2) المكلف بالاستخبارات العسكرية.

اعتمد جرمانوس «إجراء تقنياً» قوامه التطابق ما بين يوم سقوط الضحايا وساعته، وبين الموقع الجغرافي لاكتشاف الجثث، وهوية أصحابها وعناوينهم ومهنهم. يضاف إلى ذلك من بعد تسجيل تصريحات الجيران أو الشهود المباشرين[1].

لم تسهّل الحرارة، وقد بلغت 30 درجة في الظل، عمل الطبيب الشرعي، لا سيّما تحديد تأريخ الوفاة. فالحرارة تسرّع تفسّخ الأجساد، لا سيّما تلك المعرّضة للشمس في النهار. وتتحلل الجثث بسرعة أكبر، إن كان جرى تناول طعام قبل الموت. إذ يؤدي تفسّخ الوعاء الغذائي إلى إطلاق غازات تعمل على انتفاخ الأجساد. وعليه فقد اعتمد العقيد مارسيل برَنْس، في استنتاجاته، على «البيئة الفورية للجثث». فأعضاء أسرة واحدة، وقد عثر على أجسادهم حول مائدة الطعام، لا يمكن أن يكونوا قتلوا إلّا ساعة العشاء، لا وقت الغداء، تبعاً للعادات المحلية. فالواقع أنّ أفراد الأسرة الواحدة يتجمّعون مساء لتناول الطعام معاً في حين جرت العادة أن يتبلّغ كل فرد من جانبه «لُقَيْماتٍ» في منتصف النهار.

بدءاً من يوم السبت، 18 أيلول/ سبتمبر، قدّر الطبيب الشرعي أنّ الجثامين «الأقدم» تعود إلى يومين ونصف وأنّ الأحدث تعود إلى 24 ساعة على الأقل. أي بصيغة أخرى أنّ القتل بدأ يوم الأربعاء في 15 أيلول/ سبتمبر مع نهاية النهار وانتهى يوم الجمعة في 17 أيلول/ سبتمبر وقت الضحى. وما من جثمان جرى العثور عليه سبق ذلك الوقت.

ووفقاً لمعايناته، فإنّ المذبحة قد جرت، في تلك الفترة المحددة، على ثلاث دفعات: وقعت الأولى نهار الأربعاء في 15 أيلول/ سبتمبر، والثانية مساء الأربعاء 15 وليلة الخميس 16، والثالثة ليل الخميس 16 والجمعة 17. ذلك أنّ **المجموعتين الأخيرتين من الجثامين هما الأكثر امتلاء[2] [. . .] وعلى سبيل المثال فإنّ الرجال الستة الذين اكتُشِفوا وراء السيارة قد قُتِلوا في الموجة الثالثة.**

إنّها المرة الأولى التي تقع فيها المذابح هكذا، مجزّأة في الوقت. أما بشأن أسباب الوفاة، فكان مارسيل برَنْس قاطعاً في رأيه: فما من جثمان فحصه، باستثناء ثلاث حالات، كانت تحمل جروحاً أو آثار ضربات فؤوس أو أسلحة بيضاء. فالضحايا كافة قُتلوا بأسلحة نارية وعيار المقذوفات التي التقطها كان من نوع 7,62، و5,56، أو من 9 مم. فالكلاشنيكوف، وهو السلاح المفضّل لدى القوات اللبنانية وبعض عناصر جيش لبنان الجنوبي، يستخدم ذخيرة 7,62، أما بنادق جليل الإسرائيلية فتعمل وفق العيار الأميركي: 5,56. في حين أن عيار 9 مم هو المستخدم خصوصاً من قبل القوات الخاصة لدى جيوش العالم كافة تقريباً، في عمليات التصفية.

---

(1) من أسعد جرمانوس لآلان مينارغ.

(2) من مارسيل برَنْس لآلان مينارغ.

كان المحققون، كل مساء، يجمعون معاً نتائج تحقيقاتهم ليتولى أسعد جرمانوس نقلها شفوياً إلى أمين الجميّل. والواقع أنّ الرئيس قد حرص على الاطلاع يومياً على مجريات التحقيق. وفي أحد تلك التقارير، أطلعه أسعد جرمانوس على أنّ أحد المحققين قد عثر بين أنقاض مكتبٍ لإحدى الميليشيات الفلسطينية على شيكات سياحية بقيمة 14 مليون دولار. وبعد ذلك بساعة واحدة، جاء ضابط من القصر يطالب القاضي بتسليمه إياها «بناء على طلب من الرئيس». فرفض المحقق رفضاً قاطعاً متعللاً بضرورة تسجيلها كلّها لمقتضيات إجراءات التحقيق. ولدى إلحاح الضابط، طلب منه جرمانوس أن يدع لفريقه شيئاً من الوقت لتسجيل أرقام الشيكات السياحية وأن يأتي لتسلّمها صبيحة اليوم التالي. وما إن انصرف المبعوث الرئاسي، حتى هتف المحققُ لمحامي مصرفَ الإصدار يسأله عن الطريقة الأسرع لإلغاء الشيكات السياحية.

– هنالك آلة خاصة تُحدِث ثلاثة ثقوب صغيرة في تلك الوثائق فتجعلها غير قابلة للتداول.

فقال جرمانوس:

– ائتني بواحدة على جناح السرعة.

أمضى المحققون الليل بطوله وهم «يدمغون» الملايين الأربعة عشر من الشيكات السياحية، التي وضعت عند مطلع الفجر في أكياس بلاستيكية زرقاء للقمامة، فسلّمت للمبعوث الرئاسي. وقد أعادها هذا الأخير بعد الظهر قائلاً:

– يرى الرئيس أنّ من الخير أن تحتفظوا بها[1].

بدأ التذمّر ينتشر في صفوف الجيش الإسرائيلي. فهو لم يشأ أن يدفع ثمن «قضية المخيمات». لقد اتّهِم اتهاماً مباشراً، إثر اكتشاف محفظة في أحد شوارع شاتيلا، تعود للرقيب بيني حاييم بن يوسف. وقد وُجدت في إحدى جيوبها بطاقة هويته الشخصية وصفيحة قيد عسكرية باسمه تحدّد أنّه مولود في 9/ 7/ 61. فقام مجلس كبار ضباط الجيش (ساپاك Sapak)، الذي يضم الأكثرية تقريباً من الجنرالات العاملين، بإرسال وفد إلى رئيس الأركان للتعبير عن عزمهم على عدم السماح بأن يدفع الجيش، والجيش وحده، ثمن «أخطاء سوء التقدير» التي أدّت إلى وقوع مذابح بيروت. وطالب 260 ضابطاً، على أثر اجتماعين متواليين، باستقالة وزير الدفاع[2]. وجاء في افتتاحية صحيفة هآرتس اليومية أنّ ارتيابهم في أرييل شارون يرتكز على واقع أنّه سحب من المصادر العسكرية كلّ مصداقية وخصوصاً بسبب نزوعه إلى الكذب. وفي ذلك إشارة، حسب رأيهم، إلى عجزه عن قول الحقيقة، وهو العجز الذي تميّز به طوال حياته العسكرية. وذكّر بعض منهم بأنّ رئيس الوزراء السابق بن

(1) من أسعد جرمانوس لآلان مينارغ.

(2) «هآريتز» 4 تشرين الأول/ أكتوبر 1982.

غوريون، كان يسأل الجنرال موشي دايان مراراً وتكراراً إن كان العقيد أرييل شاينرمان[1] لا يزال يواصل الكذب. كان من شأن تلك النقيصة أن تلازم أريئيل شارون طوال مراحل حياته العسكرية. وقد طلب الجنرال عمرام متسنا أن يحصل على إجازة بلا راتب ما دام أريئيل شارون في منصبه.

جاءه ردّ هذا الأخير لاذعاً:

- لسنا هنا في أميركا الجنوبية. وليس الضباط هم الذين يختارون وزيرهم.

جابه شارون الموقف ومضى قدُماً مثلما قطار سريع على قضبانه الحديدية بحيث لا يحرفه شيء عن خطه، على نحو ما قال مئير عاميت، الزعيم السابق لجهاز آمان ثم الموساد. فهو لا يعبأ بالتفاصيل على الإطلاق، مثل عدد الأرواح البشرية التي سوف تزهق بسبب عملية قد قرّر القيام بها. كما أنه غير قادر على تخيل النتائج السياسية المترتبة على ما يقوم به. فهو لا يُقيم حساباً إلّا للسرعة والعمل الذي أُنجِز[2] وكان من شأن شهرة أريئيل شارون، رجلَ عملٍ وبطلَ حرب يوم الغفران، أن تكون ذات تأثير سحري على رئيس الوزراء. ولقد برع مناحيم بيغن في فنّ حشد الجمهور، وإلقاء خطب طويلة حول أهدافه لكنّه لم يعرف قط كيف يفصّل طريقة بلوغها. أما شارون، فكان من جانبه متألّقاً في ذلك، وهي ميزة في نظر بيغن يصعب تقدير مداها. أما وأنّ أريك (لقب شارون) هو العسكري الوحيد في الوزارة، فمن المسلّم به أن يكون ذا تأثير كبير على بيغن، الذي كان على الرغم من ماضيه زعيماً للمقاومة، يشعر بإعجاب أكيد حيال ذلك الجنرال المكلل بالمجد والذي كان يجسّد في نظره كلّ ما حلُم هو، من جانبه، ببلوغه.

في 25 أيلول/ سبتمبر 1982، أعلن وزير الدفاع على نحو مباغت عن تأييده لتشكيل لجنة تحقيق. وذلك ما أعرب عنه 27 سفيراً إسرائيلياً سابقاً. وفي المساء، احتشد في ساحة ملوك إسرائيل في تل أبيب، أكثر من 400 ألف شخص[3]، استجابة لنداء حركة «السلام الآن»، وعلى رأسهم ثلاثة من رؤساء الأركان السابقين هم بارليڤف وإسحق رابين وموتا غور، وهم يرددون هاتفين: بيغن، رفّول ي شارون، تسو مياد مي إليفانون[4]. وطالب عضوان آخران من أعضاء الحكومة، هما يوسف بورغ، وزير الداخلية، مردخاي بن پورات، وهو وزير بلا حقيبة، بتشكيل لجنة تحقيق. فما كان من بيغن إلّا أن رضخ على مضض.

أوكِل أمرُ التحقيق إلى رئيس المحكمة العليا إسحق كاهان. وجرى تعيين قاض من المحكمة ذاتها، هو أهارون باراك، والجنرال المتقاعد يونا إفرات بصفة مساعدَيْن. واشتُهِر الثلاثة

---

(1) إسم شارون الأصلي.

(2) برنار أولمان. «الأكسبريس»، عدد 1 - 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1982، ص 103.

(3) حوالى 15٪ من السكان اليهود في إسرائيل.

(4) يا بيغن ورفّول وشارون، غادِروا لبنان الآن.

باستقلاليتهم. أمّا المهمة الموكلة إليهم من قِبَل الحكومة فواضحة: **القضية التي ستشكّل موضوع التحقيق هي: الوقائع والعوامل كافة ذات العلاقة بالفظائع المرتكبة من قِبَل وحدة من القوات اللبنانية ضد السكان المدنيين في مخيّمي صبرا وشاتيلا**[1]

فالقضية متّفَقٌ عليها سلفاً والقتَلَة محدّدون.

ما كان للجنة أن تقوم بتقصّيات إلّا على فعل القوات اللبنانية، أي بعبارة أخرى، ليس عليها أن تهتم إلّا بالفترة التي تبدأ في الساعة الثامنة عشرة من يوم الخميس 16 أيلول/ سپتمبر وحتى الثامنة صباحاً من اليوم التالي، الجمعة. فليس لها أن تقيم وزناً لما وقع في المخيّمات قبل وصول رجال حبيقة. فالحكومة الإسرائيلية قد أسدلت حجاب تحفّظ على مجموعتين من القتلة جاءتا من عندها وفعلتا فعلتهما يومي الثلاثاء والأربعاء، في 15 و16 أيلول/ سپتمبر. وقد احترمت لجنة كاهان تلك الحدود بكثير من الالتزام. وجرى كمّ رسمي لأفواه الصحافة الإسرائيلية تفادياً لكل مفاجأة. وإذا ما استثنينا نقل بيانات اللجنة واللقاءات العامة وتصريحات رجال السياسة، فالموضوع يقع حصراً تحت نظر العدالة. فما من أحد بيّن القيد المفروض على حقل تحقيق اللجنة. لا قادة «القوّات» المنكبّون على مشاكلهم الداخلية وعلاقاتهم مع أمين الجميّل، ولا المعارضة الإسرائيلية التي اكتفت برفع لواء النصر مؤكّدة على أنّ **الشعب هو الذي قرّر تشكيل لجنة تحقيق، لا الحكومة**[2].

عملت لجنة جرمانوس في بيروت بعيداً عن كل صخب إعلامي. فالطبيب العقيد مارسيل برَنْس سلّم استنتاجاته بعد بضعة أيام من دفن آخر جثة. ولقد تفحّص شخصياً 328 جثة[3]. مقدّراً أنّ **عدداً إضافياً من 10إلى 15٪ قد فاتته رؤيته**. إذ كان بوسع الأسر المقيمة في المخيّمات أن ترفع جثامين ذويها من غير إجراء إحصاء لها. إنّ هذا العدد من 328 جثة جرى العثور عليها – مع هامش إضافي من عشرة إلى خمسة عشر بالمئة – بينها 183 جثماناً أمكن التعرّف على هويّتها، تشكّل في نظر مارسيل برَنْس العدد الختامي لمذابح صبرا وشاتيلا[4].

لم يجرِ تزويد الصحافة بذلك العدد الختامي. إذ لم يشأ المحققون اللبنانيون **أن يصيروا هدف انتقادات أولئك الراغبين في تضخيم الأرقام لأهداف سياسية شتى**[5]مارسيل برَنْس شفوياً أثناء اجتماع مع أسعد جرمانوس حقيقة حصول ثلاث موجات من القتل امتدت زمنياً ما بين الأربعاء 15

---

(1) الأسطر الأولى من تقرير لجنة كاهان.

(2) تصريح لشمعون پيريز، في 28 أيلول/ سپتمبر 1982.

(3) السبت 18 والأحد 19 أيلول/ سپتمبر: 139 جثماناً / الاثنين 20 أيلول/ سپتمبر: 56 جثماناً (94 جثماناً في قبر جماعي) / الثلاثاء 21 أيلول/ سپتمبر: 85 جثماناً، 76 في قبر جماعي / الأربعاء 22 أيلول/ سپتمبر: 24 جثماناً (الكل في حفرة مشتركة) / الخميس 23 أيلول/ سپتمبر: 5 جثامين (الأسرة نفسها في قبر جماعي) / 24 أيلول/ سپتمبر: 19 جثماناً (أسرتان وأربع أعضاء من العاملين في مشفى غزة في قبر جماعي).

(4) من مارسيل برَنْس لآلان مينارغ.

(5) من أسعد جرمانوس لآلان مينارغ.

والجمعة 17 أيلول/ سبتمبر. كشف تحديد الهويات الذي قام به الطبيب العسكري عن وجود عدد من الضحايا اللبنانيين (83 بينهم 12 امرأة) أكثر من الفلسطينيين (61 منهم 12 امرأة، و9 منهن ديانتهم اليهودية) . و14 أجنبياً (منهم ثلاث نساء) قتلوا وجنسية قرابة عشرين من الجثامين لم يكن ممكناً تحديدجنسياتها بطريقة حاسمة[1] .

انسحب المسعفون من المخيمات يوم الجمعة مساء في 24 أيلول/ سبتمبر. وخرج السكان شيئاً فشيئاً من حالة ذهولهم. فالشوارع والجدران والملابس كانت مشبعة برائحة الموت الحادة التي تنتشر فوق الأحياء المجاورة مع أدنى هبّة ريح.

والمفارقة أن باقي بيروت كان يعيش وسط ولادة جديدة وفي جو رسمي جداً من البهجة العارمة وعودة الوحدة. بل إن «صبرا وشاتيلا» بدأتا تتسبّبان بشيء من الضيق لدى الطرفين الواقعين على خط التماس القديم إذ لم يعد من وجود لغربية أو شرقية فكل طرف يجهد لتملق ذاك الذي كان يجابهه قبل بضعة أسابيع. وفي 30 أيلول/ سبتمبر، فتح المطار الدولي مهابطه لاستقبال أول طائرة لشركة طيران الشرق الأوسط قادمة من قبرص فالركاب بعد أن حلقوا فوق العاصمة «الموحدة» وجدوا في استقبالهم عند أسفل السلم الرئيس أمين الجميّل نفسه. وفي اليوم السابق قام رئيس الوزراء شفيق الوزّان على الرغم من أنّه مستقيل، بإعادة افتتاح الجادة المعلقة الواصلة بين قطاعي المدينة، والمسمى طوال سبعة أعوام «حلبة الموت» بسبب القناصة. وفي ذلك اليوم كان الاسرائيليون قد جمعوا 520 طناً من الذخائر من العيارات كافة و23 دبابة وخمس منصات إطلاق صواريخ متعددة القياسات و75 (آر بي جي RPG) ، و 220 سيارة عسكرية و80 مدفعاً و5000 قطعة سلاح فردي وعدة آلاف من البزات والملابس العسكرية.

إلاّ أنّ «مذبحة بيروت» ظلت تشكل افتتاحية الأخبار اليومية الإسرائيلية. فالعديد من القادة عبّروا عن آرائهم وأساهموا في مناقشات. وكان الكل، يستأنف الأطروحة الرسمية مشيراً بإصبعه في اتجاه (القوات) . وفي 3 تشرين الأول/ أكتوبر صباحاً أثناء اجتماع عقد في المدرشة[2]، حيث جرت المحادثات بالفرنسية بين اللبنانيين جوزيف أبو خليل وأنطوان نجم ووليد فارس والموساد، ثارت ثائرة جوزيف:

– ينبغي أن تكفّوا عن اتهامنا وإلاّ سنكون مرغمين على الكشف عن كل ما نعرف. اقترح عليكم إيجاد حل لمشكلة صبرا وشاتيلا، ولنقم بتحقيق مشترك لمعرفة ما جرى على أرض الواقع.

---

(1) لبنانيون 83، بينهم 17 طفلاً أعمارهم أقل من 15 سنة و21 امرأة. فلسطينيون 61 بينهم 10 أقل من 15 سنة و12 امرأة. جنسيات أخرى (جزائرية، باكستانية، سورية، عراقية، مصرية) 14 بينهم 3 نساء. جنسية غير محددة: 20 رجلاً، وامرأة واحدة. والعمر غير محدد. الملحق رقم 16.

(2) مقر الموساد، ويقع على المدخل الشمالي لتل أبيب مقابل الـ Country Club وتعتبر رسمياً المقر الصيفي لرئيس الوزراء.

فردّ أڤنير أزوالي رئيس محطة الموساد في لبنان قائلاً: أحقاً أنكم لا تعرفون؟

فلنصغِ إلى إيلي حبيقة وإلى قائدكم على الأرض. لا بد أنهما يعرفان من جانبهما كيف جرى ذلك بالضبط. ينبغي علينا أن نعرف وبعدئذ نُسكِتُ تلك الحكاية.

وأكد قائلاً:

- إن تبادل إطلاق النار دام 4 ساعات ودباباتكم أطلقت النار أيضاً.

فكرر أزوالي بعض الأقاويل التي تتداولتها الصحافة قائلاً:

- هنالك أشخاص قتِلوا طعناً.

فتدخل مناحيم ناڤوت (مندي) قائلاً:

- لقد توقفنا عن تداول هذا الكلام منذ إنشاء لجنة تحقيق.

وتساءل پاتريك[1] قائلاً:

- لكن من عسى أن يكون قد فعل ذلك؟

فقال أبو خليل:

- اذهبوا واسألوا على أرض الواقع.

فقاطعه (مندي) قائلاً:

- ينبغي الكفّ عن الكلام في ذلك.

- إنّ الرأي العام المسيحي لا يستوعب إلى أين تنوون الوصول بهذه الحكايات. وهو لا يُدرك ما مفهوكم عن حرية الإعلام.

فألح مندي مجدداً:

- ينبغي الكفّ عن الكلام في ذلك.

فردّ جوزيف ساخراً:

- كيف فعلتم لإسكات وسائل إعلامكم؟ وأين هي حريتكم الصحفية؟

فأوضح ناوت قائلاً:

- إنّه القانون. فبعد تشكيل لجنة التحقيق استطعنا أن نفرض عليهم التزام الصمت.

بث التلفزيون الإسرائيلي، في المساء ذاته، لقاء بالفرنسية أجراه دان سكيماما مع شاب لبناني (ميشال) 24 عاماً يعمل مهندساً، وهو عضو في الكتائب منذ ثماني سنوات وأحد مساعدي إيلي حبيقة[2]. وسأله الصحفي إن كان قد أسهم في قتل النساء والأطفال في صبرا وشاتيلا. أجاب الشاب في المقابلة: إنّهم ينسجون حكايات من لا شيء. فأنا شخصياً قتلت خمسة عشر في المخيمين ولمّا

---

(1) لا يزال في الخدمة، وسوف يشار إليه باسمه الحركي.

(2) أمنون كابليوك، م س، 1982، ص 98.

أنتهِ. إني أكرههم ولا أعتبر نفسي قاتلاً، هنالك آلاف آخرون سوف يقتلون أيضاً وآخرون أيضاً سينفقون جوعاً، إلى حين أن ينصرفوا من لبنان.

كان لتلك المقابلة وقع كبير جداً لدى الرأي العام الإسرائيلي، وفي اليوم التالي أكدت القوات اللبنانية تأكيداً شديداً أن «ميشال» ليس في عداد مؤسستهم. وفي حدود الثامنة مساء وصل أبو خليل ونجم وفارس إلى وزارة الدفاع في تل أبيب للقاء أرييل شارون. كان عليهم أن يناقشوا معه العلاقات بين الإسرائيليين وأمين الجميّل وكذلك مستقبل القوات اللبنانية، لكن الوزير استعاد على الفور الآثار المترتبة على المذابح.

– إن مسألة المخيمات والاتهامات الموجه ضدنا تعقد الوضع تعقيداً كبيراً فهل لديكم فكرة حول وضعنا الداخلي؟

أجاب أبو خليل بثقة هي أبعد ما تكون عن مطابقتها للحقيقة:

– نعرفها تمام المعرفة لكن عليّ أن أقول لكم إنّ طريقتكم في العمل تسيء إلينا إساءة كبرى. فنحن لا نفهم على سبيل المثال المقابلة التلفزيونية التي أجريت بالأمس مع ذلك النكرة الذي زعم أنّه كتائبي ولا واقعة أن اسم إيلي حبيقة قد نشر بتأثير منكم في الصحافة الأميركية.

فحوّل أرييل شارون الحديث رافعاً في وجهه عدة صحف تحمل صورته قائلاً:

– لا أدري إن كنتم تعلمون ما هو مكتوب عني هنا!

– أنا لا أدين أحداً بل أطرح الوقائع فقط من أجل العثور على حل لها.

– نحن نجابه مشكلة ضخمة داخلية ودولية. والعالم كله يتهمنا الآن وليس من قال مثل ذلك حين قتل 110 آلاف مسيحي في الحرب اللبنانية.

فقال أبو خليل بلهجة مصالحة:

– نحن هنا أصدقاء وعلينا أن نتعاون في سبيل إخماد هذه المسألة، وينبغي الوصول إلى حل لهذه المسائل كلّها.

فردّ الوزيرمقراً:

– أعرف ذلك، ولكني طلبت منكم تصريحاً علنياً بأنكم ستجرون تحقيقاً لتحديد المسؤوليات، مع ذلك نحن في الجانب ذاته من الطاولة.

– رد أبو خليل محتجاً:

– ولكن لقد تم ذلك! أقترح عليكم مجدداً تشكيل لجنة مشتركة لتحديد ما حدث بالضبط. وإنْ اقتضى الحل أن تتهم الكتائب سنقبل ذلك. ولكن إن كان في الأمر ما يسيء إلى علاقاتنا فلنبحث عن شيء آخر. أقر بصراحة أنني أجهل شخصياً كل ما جرى فهل تعرف أنت؟

قال شارون كلا، من غير أن يطرف له جفن:

– إذن نُنشىء لجنة تحقيق مختلطة بقصد أن نعرف ما قد حصل. من المستحيل الاستمرار على هذا النحو. وبودّي أن أجتذب انتباهكم إلى أنّه ما من مسلم لبناني يريد أن يصدّق أنّ الكتائب مسؤولون. فلنضع برنامج عمل زمنياً لهذه اللجنة!

لكنّ اقتراح أبو خليل رُفِض. فليس ما يدعو الوزير الاسرائيلي إلى إنشاء أداة تحقيق أخرى غير لجنة كاهان التي تراقبها الحكومة مراقبة تامة. وقد اجتمعت هذه اللجنة للمرة الأولى في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1982، وبدأت أعمالها في 12، وقصدت بيروت سراً في 18، وأصغت في اجتماع سرّي، يوم 20، إلى الشهود الأوائل وهم إسحق هوفي ويوشع ساغي واثنان من الضباط الكبار.

بعد ذلك بخمسة أيام، حين دخل شارون القاعة الصغيرة في مبنى بوبيك، في الجامعة العبريّة في القدس، كانت لجنة كاهان تعقد فيها جلساتها العلنية للاستماع للشهود. وكان الصحفيون يتكدّسون داخلها. ودخل الوزير الذي كان يرتدي بزّة فاتحة اللون تصحبه زوجته ليلي وهي تبتسم أمام الكاميرات، يرافقه ملحقه الصحفي أوري دان واثنان من معاونيه وهما يحملان مصنّفات سميكة. كان المستشار القانوني لوزارة الدفاع، دوف فايسغلاس[1]، وهو محام يؤدي فترة خدمة إلزامية، والأقسام الأمنية في الوزارة وفي الموساد، قد عملوا على قدم وساق من أجل إعداد ملفّ أريل شارون. فلقد لقي مشقّة في العثور على محام يقبل بأن يتولى الدفاع عنه[2].

كان رابط الجأش تماماً، وبادي الاحترام حيال اللجنة، وهو يدلي بشهادته التي بدأها بمرافعة طويلة حول الحرب على لبنان التي أُعلِنت في 6 حزيران/ يونيو 1982، **ضدّ قواعد الإرهاب الدولي.**

قال شارون مؤكداً:

– إنّ دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت الغربية، بعد اغتيال بشير الجميّل، كان أمرا لا يمكن أن نتجنّبه، إذا لم نشأ إفساد مكتسبات الهجوم. أما مبدأ دخول مئة إلى مئتين من عناصر «القوات» إلى بعض القطاعات المحددة فقد حظي بموافقة حكومة السيد بيغن، لكنّي أنا الوحيد الذي سمحت لهم بالدخول إلى صبرا وشاتيلا. وما من أحد كان يتخيّل حينها أنّ ذلك التدخّل سوف يؤول إلى مجازر بحق المدنيين هي غريبة عن أخلاق الجيش الإسرائيلي.

وبدا إسحق كاهان، بوجه جليدي، ساكناً سكون التماثيل، وهو يطرح بصوته الأجش سلسلة من الأسئلة الآلية، من غير أن يرفع عينيه المحتجبتين وراء نظارتين سميكتين بإطار صدفي.

قال شارون مؤكّداً:

– وصلتني الأنباء الأولى مساء يوم 17 أيلول/ سبتمبر فقط إثر مكالمة هاتفية من الجنرال إيتان أشار فيها إلى «تجاوزات» من جانب القوات اللبنانية. قبل أن يروي كيف اتخذ من جانبه الإجراءات

(1) سيصبح فيما بعد أحد أكثر المستشارين المقربين من أريل شارون، بعد انتخاب هذا الأخير رئيساً للوزراء عام 2000.

(2) أريل شارون، سيرة مقاتل بخط يده، سايمون وشوستر، نيويورك 1989.

المفروضة، وأنّه توجّه بالطائرة إلى بيروت ليلة السنة العبريّة الجديدة (بين 17 و18 أيلول/ سبتمبر) من أجل إيقاف المذابح على الفور .إلّا أنّ أحداً من قادة القوات اللبنانية لم يره في تلك الليلة في لبنان، كما أنّ رون بن يشاي، المراسل العسكري للتلفزيون، قد اتصل به في بيته، في حدود منتصف الليل.

وواصل شارون كذبه قائلاً:

- قرّرنا تعليق العملية، ومنع وصول الدعم[1] إلى مواقع المأساة، وأمرنا بانسحاب الكتائب من صبرا وشاتيلا. لكن توجّب علينا أن نتفاوض مع القوات اللبنانية خطوة فخطوة طوال الليل، لكي تتوقّف المذابح في الخامسة من صباح السبت 18 أيلول/ سبتمبر. في حين أنّ رفّول، خلافاً لذلك، قد ألحّ بعد ظهر يوم الجمعة على مواصلة عملية التنظيف على الرغم من أنّ فؤاد أبو ناضر قد أخبره بأنّ المخيمات فارغة. أمّا «الانسحاب» فجرى إقراره من قبل فادي أفرام وإعلام رفّول به يوم الجمعة في حدود الساعة الرابعة بعد الظهر، نزولاً عند طلب أمين الجميّل، وبُدِيء به على الفور. أما عن «مفاوضات خطوة فخطوة طوال الليل» فهي نزوة خيال، لا سيّما وأنّ رجال جهاز الأمن غادروا جميعاً صبرا وشاتيلا في حدود الساعة السادسة مساء لتحلّ محلّهم قوات من الشرطة العسكرية.

وأقام وزير الدفاع الحجة على جدوى ذلك القرار، بقوله في تلك الشهادة العلنية، أي على مرأى ومسمع من الصحافة:

- علمت في مركز القيادة في وزارتي أنّ جنوداً من إحدى كتائبنا المظلية قد اشتبكوا مع عناصر من ميليشيات حدّاد، فقتلوا واحداً وجرحوا اثنين آخرين. ويبدوا أنّ هذه العناصر قد شاركت في المذابح. [. . .] وكانت تلك هي المعلومة الوحيدة التي في حوزتنا حتى ذلك الحين. فعلينا أن ندرك أنّ المسألة تتعلّق بحلفاء لنا. ولئن كان جنودنا مرغمين على فتح النار عليهم، فالأمر يعني بكل وضوح أنّ الإجراءات التي اتخذها قائد الأركان (من أجل إيقاف المذابح) قد جرى الالتزام بها. وبحسب علمي أنّ هذا الحادث قد وقع عند حدود برج البراجنة[2].

لقد أغفل شارون القول إنّ ذلك «الرمي على قوات حليفة» جرى بعد ظهر يوم الخميس 16 أيلول/ سبتمبر، قبل دخول قوات حبيقة إلى المخيّمات، أي على حدود مخيّم شاتيلا، لا في برج البراجنة الذي كان يحتله آنذاك الجيش اللبناني وحيث لم يقع في ذلك النهار أي قتال أو أي إطلاق للنار.

وزعم شارون:

- فيما يتعلّق بالميليشيات اللبنانية الجنوبية، إنّها لم تشارك في المذابح. لقد تحدّثت في ذلك

---

(1) «الدعم الذي في الواقع لم يكن مقرراً البتة» ضابط من هيئة الأركان الإسرائيلية لآلان ميـارغ.

(2) وكالة الصحافة الفرنسية، 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1982.

الشأن مع المقدم حدّاد نفسه، كذلك نفى أمامي كبار الضباط في هيئة أركان الكتائب أية مسؤولية لحدّاد. فيسعني التأكيد إذن، استناداً إلى لمعلومات التي بحوزتي، أنّ الميليشيات اللبنانية الجنوبية لم تشارك في المذابح.

وبعد هذه المغالطة، طلب وزير الدفاع من اللجنة مواصلة سماع شهادته في جلسة سرّية. فغادر الصحفيون القاعة مزوّدين بمادة لمقالاتهم.

كذلك جرى الإصغاء لأقوال أبراهام شالوم، رئيس أجهزة الأمن الإسرائيلية (شين-بيت)، نظراً لأنّ اسمه لا يمكن أن يُنشَر، فاستُجوِب في 28 تشرين الأول/ أكتوبر طوال ثلاث ساعات. ويوم 31، جاء دور العسكري الإسرائيلي الأول، الجنرال عامير دروري، ليُدلي بشهادته علناً.

فأكّد قائلاً:

- في الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس 16 أيلول/ سبتمبر تلقيت الأمر بإعطاء الضوء الأخضر لدخول القوات اللبنانية. بحيث يُفهَم من كلامه أنّ القرار اتُخِذ على أعلى مستوى، أي أنّه قرار سياسي.

فألقى بمسؤولية لمذابح على القوات اللبنانية واستثنى ميليشيات المقدم حدّاد. واعترف دروري، تحت ضغط الأسئلة منكاهان، أنّ ضابطاً إسرائيلياً رفيع الرتبة لقبه رون[1]، قد ذكر أمامه، بدءاً من مساء الخميس «إمكانية» وقوع مذابح.

- أجبته بأنّ خوفه غير مبرّر لأنّه ليس هنالك من سابقة.

اعترف القائد الأعلى لعملية الدماغ الحديدي بأنّه أُحيط علماً يوم الجمعة في 17 أيلول/ سبتمبر، من قبل ضابط اسمه عاموس (عاموس يارون) بأنّ الأمور سيئة، وأنّ هنالك انزلاقات. وأكّد دروري أنّه اتصل آنذاك بقائد الأركان (رفائيل إيتان) ودعاه للقدوم إلى بيروت قائلاً له إنّ القوات العسكرية للكتائب قد تكون بالغت. فلم يطلب قائد هيئة الأركان أي معلومة إضافية. ولم يطرح من أسئلة حين كرّر دروري مخاوفه في السيارة التي قادتهما إلى مركز قيادة القوات اللبنانية في عصر يوم الجمعة 17 أيلول/ سبتمبر. وأيّد إيتان أقواله موضحاً أنّه على العموم، لا يرغب في الكلام أثناء السفر[2]. وأكّد عامير دروري أمام القضاة أنّه قد وجّه أمراً للموجة الثانية من القوات اللبنانية المرابطة في المطار بعدم دخول المخيمات - فليس عليها القيام بذلك، ما دامت مهمّتها التدخّل وراء الإسرائيليين، في بيروت الغربية.

- علمت بوقوع المذابح يوم السبت 18، فأحطت رئيس الأركان علماً بالأمر في حدود العاشرة صباحاً، لأنني لمّا أتبيّن ضخامة المأساة. فأعطاني الجنرال إيتان توجيهات جديدة .إلّا أنني

---

(1) روفن إيرليخ، ضابط الاستخبارات العسكرية، التابعة للكتيبة كان يتميّز بتدوين ملاحظات دون أن يحوّل عينيه عن المتكلّم.

(2) تقرير لجنة كاهان.

قررت، بعد تلك المحادثة الهاتفية، أن أحظّر على جنودنا دخول المخيّمات، كي لا يُعتبَروا متورّطين في تلك القضية. لكن لم يبقَ على كل حال من شيء كبير يمكن فعله.

كان يمكن رفع سرّية التحقيق، في حال شهادة ذات دلالة خاصة، وقد أخبر القاضي إسحق كاهان الصحافة في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1982 بمقتطفات من شهادة الملازم آفي غرابوسكي، الذي سُمِعت أقواله في جلسة سرية، وقد شهد بأنّه رأى وقوع أعمال عنف ضدّ الأهالي، وأنّه أحاط رؤساءه لاسلكياً بحقيقة الأمر، وأنّ الجواب قد أتاه نحن على علم بذلك، ونحن نعالج الأمر، مُثبتاً على ذلك النحو أنّ قيادة الأركان كانت تعلم.

يُستَخلَص يقيناً من مجموع شهادات كبار الضباط على الأرض أن الإجراءات كافة جرى اتخاذها لفسح الوقت أمام عناصر جهاز الأمن إفساح أطول وقت ممكن. وقد كتب إيتان هابر، المراسل العسكري لصحيفة «يديعوت أحرونوت» يقول: قد تكون المذبحة تواصلت، لأنّ أحداً ما كان يهمّه أن تتواصل.

وشهد في اليوم ذاته كلّ من بول موريس، وهو طبيب عام بريطاني، وسوي تشاي-أنغ، وهي طبيبة عظمية بريطانية أيضاً، من أصل صيني، وهيلين سيغل، وهي ممرضة أميركية يهودية. كان الثلاثة يعملون في مشفى غزة الواقع في مخيّم صبرا. وقد أكّدوا على أنّه ما كان بوسع الجيش الإسرائيلي أن يجهل ما كان يقع في المخيمات. وقد أشاروا إلى مركز قيادة عاموس يارون المتقدّم، والواقع على السطح، فيستطيع المرء وهو فيه أن يرى مثلما يرى الجالس في أول صف في المسرح[1]، وفقاً لشهادة الضابط الإسرائيلي نفسه. هنالك، إضافة إلى ذلك أزيز الرصاص. وروت سوي تشاي-أنغ للجنة التحقيق أنّ انفجارات تصمّ الآذان، متواصلة أو شبه متواصلة، صادرة عن أسلحة ثقيلة وخفيفة كانت مسموعة في المخيم بدءاً من يوم 15 أيلول/ سبتمبر، بعد مرور وقت قصير على دخول القوات الإسرائيلية إلى بيروت الغربية، وأنّهاتيقّنت بنفسها بعد ظهر يوم الخميس 16 أيلول/ سبتمبر، من دخول رجال مسلحين يفتحون النار على عائلات بأكملها، وأنّها أجرت مداخلات جراحية على عدد كبير من النساء والأطفال في مشفى غزة، بدءاً من يوم الخميس 16 وحتى اليوم التالي.

ولم يسعَ أي قاض لأن يعرف شيئاً عن حقيقة إطلاق النيران المسموعة في يومي 15 و16 أيلول/ سبتمبر، لأنّ ذلك لا يدخل ضمن حدود مهمّتهم. فكان الصحفيون يجهلون ذلك.

وأتت هيلين سيغل في شهادتها على ذكر زيارة إلى مشفى غزة، لشخصين اثنين، في الساعة 19 من يوم الجمعة 17 أيلول/ سبتمبر، كانا بملابس مدنية ويتكلّمان الألمانية مؤكّدة شعورها الفوري

---

(1) أمنون كابليوك، م س.

بأنها حيال يهوديين اثنين من الأشكيناز. لكنّ لجنة كاهان استبعدت شهادتها بحجة أنّها ذات طابع مُغرِض[1] نظراً لوجودها في المخيّمات إلى جانب الفلسطينيين. لكنّها أخذت بالمقابل بأقوال الممرضة نفسها التي كانت تقرأ العربية وقالت إنّ الكتابة المدوّنة على لباس الميدان للجنود الذين رأتهم فيما بعد كانت تعني «الكتائب»[2].

بعد مرور أسبوع على سماع شهادات علنية، لم يطرأ أي كشف حقيقي رسمياً. وأشارت الصحافة إلى تراكم من الأحداث الصغيرة والصمت. وجرى التحقق من أنّه كلّما كان الشخص الذي يشهد ذا رتبة أدنى في المراتبية العسكرية الإسرائيلية، كانت شهادته أكثر تناقضاً مع المواقف المعتمدة من القيادة العليا والحكومة الإسرائيلية. وهي مواقف يمكن تلخيصها على النحو التالي، وفقاً لتسلسلها: ما كان يسعنا أن نتخيل أنّ تلك الأحداث يمكن أن تقع، وبعدئذلم يصل إلى علمنا نبأ تلك الأحداث إلاّ في وقت متأخر، وأخيراً قمنا على الفور بما هو ضروري لوضع حدّ لها. أما أثناء الشهادات العلنية، فكان النقاش الذي يديره إسحق كاهان يتمحور حول نقطتين اثنتين:

أولاً التحديد الدقيق للوقت الذي علم فيه المسؤولون العسكريون بضخامة أعمال العنف. ويبدو أنّ المسؤولية الإسرائيلية تتعلّق في واقع الأمر بهذه النقطة، بل بها وحدها، ما دام مرتكبو أعمال العنف ودوافعهم، من الأمور المسلّم بها، في النصّ ذاته للمهمة الموكلة للجنة من قبل الحكومة.

ويسعى القاضي بعدئذ ليعرف إن كان جرى فعل كلّ شيء على الفور للعمل على إيقاف المذبحة. وكانت تنتهي شهادات العسكريين كما المدنيين إلى أنّ الجيش الإسرائيلي لم يصدر قط أمراً إلى رجال الجهازبالخروج من المخيمات.

لاحظ الصحفيون الذين كانوا يتابعون الملف أنّ القضاة بدوا وهم يقومون بتقصّياتهم بكل حرية. فأسئلتهم التي تكون عنيفة أحياناً، حول هاتين النقطتين، تؤدي في بعض الأحيان إلى تناقضات في الشهادات. وأذاعت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر، كشفاً نهائياً بالمذابح: عُثِر على 469 جثة، منها 166 مجهولة الهوية، إضافة إلى 370 طلباً للبحث عن مفقودين.

كان لاختيار لجنة كاهان للشهادات التي نُشرت علناً وتوجيه مناقشاتها آثار مدهشة. فجرى في صفوف الرأي العام انقلاب مذهل في غضون شهر ونصف. ففي حين كان 60 بالمئة من الإسرائيليين يقدّرون، في ذروة العاصفة التي أثارها الإعلان عن المذابح، أنّ حكومتهم تتحمّل مسؤولية بطريقة

---

(1) تقرير لجنة كاهان. فصل «المسؤولية المباشرة».

(2) م ن.

أو بأخرى، أصبحوا بعدد مماثل تقريباً (55 بالمئة) يعتقدون عكس ذلك[1]. فالحكومة على وشك أن تربح التحدي السياسي. لكن يبقى مع ذلك الاستماع إلى شهادة رئيس الوزراء. وعقدت جلسة الإصغاء لشهادته في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982.

كان لصبرا وشاتيلا بالنسبة إلى مناحيم بيغن الخلفية المريرة لتاريخ يتكرّر. ففي عام 1947 قام أعضاء من منظمة أرغون التي يديرها، بعملية إعدام جماعية للسكان العرب في قرية دير ياسين الواقعة عند أبواب القدس وعددهم 250 قروياً. وقد غطى على جريمتهم على الرغم من أنّه لم يأمر بها شخصياً. كذلك كان رئيس الوزراء شديد التأثر بعدد الضحايا الإسرائيليين الذين تسببت بهم الحرب في لبنان، إلى حد أنّه منذ 6 حزيران/ يونيو 1982، لم يعد يشهد عمليات الدفن أو الاحتفالات الرسمية بذكرى المفقودين. وكان ظهوره أمام اللجنة عملية تعذيب أخلاقي حقيقية بالنسبة إليه. فهو من ناحية يقف شاهداً للمرة الأولى أمام هيئة عدلية وقد بلغ التاسعة والستين، وهي أيضاً المرّة الأولى التي يجد رئيس الوزراء الإسرائيلي نفسه مرغماً على المثول شخصياً في عداد الشهود. وقدّر أن ذلك سيسيء إلى صورة الحكومة الإسرائيلية. فقد فضّلت غولدا مائير، عام 1973، إرسال شهادة مكتوبة إلى لجنة أغرانات التي حققت في أشكال تقصير هيئة أركان الجيش الإسرائيلي أثناء حرب يوم الغفران.

دخل بيغن القاعة الصغيرة من مبنى «بوبيك»، قبيل العاشرة صباحاً مشدوداً داخل بزّته الضيّقة فتقدم بمشية متعثّرة وهو يتوكأ على عصاه. وخلافاً لشارون لم يكن يرافقه أي فرد من أسرته، فزوجته أليزا، التي تعاني من نوبة ربو، كانت في المشفى منذ ثلاثة أسابيع[2].

ويعرف بيغن، وهو طالب سابق في كلية الحقوق في فرصوفيا، طقوس المحكمة معرفة تامة. فجلس في كنبة يتجه ظهرها نحو المقاعد المدرسية التي احتلها 70 صحفياً سُمح لهم بتغطية الحدث. في الساعة العاشرة تماماً، دخل الرئيس كاهان القاعة يتبعه مساعداه. ولم يكن وجهه ينمّ عن أي انفعال. وضع أوراقه أمامه وجلس. حبس كتّاب المحكمة وراء ملفاتهم السميكة والصحفيون وعناصر جهاز الأمن أنفاسهم. بدأ إسحق كاهان استجوابه بصوته الأجش من غير أن يرفع رأسه.

– الكنية؟

– بيغن

– الاسم؟

– مناحيم

– المهنة؟

---

(1) إحصائية نشرت في 5 تشرين الثاني/ نو?مبر 1982.

(2) توفيت بعد ذلك بـ 6 أيام.

– رئيس وزراء.

كان رئيس الحكومة الذي استدعي للإدلاء بشاهدته مثل مواطن عادي، قد وُضِع بكل عناية خارج حدود الشبهة من قبل الشهود كافة الذين أدلوا بشهاداتهم منذ 15 يوماً، وكانت شهادته، المنقولة مباشرة من قبل الإذاعات، تسمع حتى داخل باصات النقل. وقد ردّ طوال 45 دقيقة على الأسئلة الدقيقة المتلاحقة، مكرراً دون انقطاع:

– لم أكن أعرف. ما كان بوسع أحد أن يتخيّل.

وتردد رئيس الوزراء وقد دعي لأن يقرأ بصوت عال مقاطع نسخها القضاة أثناء حديثه في 12 أيلول/ سپتمبر مع موريس دراپر، وقد ورد فيها ذكر ميليشيات الكتائب باعتبارها خطراً كامناً في بيروت الغربية، ثمّ طلب المساعدة من معاونيه الاثنين الجالسين إلى جانبه. لم تسمح له خطورة الحدث وهول الأفعال المذكورة بإظهار كل الفصاحة التي يستسيغها الإسرائيليون لديه. ورفع كاهان السريّة عن مقطع من شهادة سابقة أدلى بها رفائيل إيتان وحذر فيها الحكومة من الكتائبيين في 16 أيلول/ سپتمبر، أثناء جلسة مجلس الوزراء.

قال آنذاك رئيس هيئة الأركان:

– إن ذلك يدع الباب مفتوحاً أمام الثأر، وأستطيع أن أرى مسبقاً في عيونهم ما ينتظرون. فجهاز الكتائب كله بدأ بشحذ السكاكين.

نفى بيغن نفياً قاطعاً سماع مثل تلك الأقوال قبل أن يضيف:

– كان مبدأ قيام القوات اللبنانية بعمل ما أمراً مفروغاً منه أثناء اجتماع الوزارة في 15 حزيران/ يونيو 1982. فكان وزير الدفاع إذن مكلفاً بالتصرف على نحو ما فعل. كنا نفترض وجود خطر للثأر من قبل المسيحيين ضد المسلمين، لكن عمل رجال الكتائب كان ضرورياً. كان في مخيمات صبرا وشاتيلا 2000 إرهابي ولم نكن راغبين بخسائر إضافية داخل صفوفنا.

لقد أكّد سعد حدّاد، في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر داخل القاعة ذاتها وهو يرتدي بزّته الخضراء وقبعته بواقيتها الطويلة ماثلة فوق رأسه، قائلاً بصوت قوي:

– أنا على ثقة من أنّ أي واحد من جنودي لم يسهم في مذابح المخيمات الفلسطينية في صبرا وشاتيلا.

لقد حيّا الصحفيين وهو يدخل تحيّة إلفة ثمّ جلس وحيداً في مواجهة القضاة الثلاثة دون أن يبدو عليه أي اضطراب. وبدا قائد قوات جيش لبنان الجنوبي، وقد برّأت ساحته شهادتا أرييل شارون وعامير دروري، في راحة تامّة طوال الدقائق الـ 15 التي استغرقتها شهادته، وهي الأقصر بين الشهادات العلنية، ولم يطلب أعضاء لجنة التحقيق الثلاثة الإصغاء لأقواله في جلسة سريّة.

– أين كنت في أسبوع المذابح؟

– كنت في بيتي في مرجعيون، باستثناء يوم الجمعة في 17 أيلول/ سبتمبر حيث ذهبت إلى بيروت. فقد كان من واجبي لبنانياً، أن أتقدم بالتعازي إلى عائلة الجميّل. وصلت في مروحيّة (إسرائيلية) إلى المطار الدولي. ومن هناك ركبت سيارة حتى مكان إقامتهم في الجبل وكانت الساعة في حدود العاشرة. لبثت ساعةً بصحبة بيار الجميّل. ثم أضاف: لم يجر أي تلميح قطّ لما كان يحدث في المخيمات. ذهبت بعدئذ إلى جونيه لزيارة أقارب لم أرهم منذ 7 أعوام. وفي حدود الساعة 15 عدت مباشرة وفي السيارة بصحبة حرسي الخاص إلى مرجعيون. وأنا واثق 100٪ من أنّ أحداً من رجالي لم يعبر في تلك الأيام نهر الأوّلي وهو الحد الشمالي المفروض على جيش لبنان الجنوبي من قبل الإسرائيليين.

كان ذلك صحيحاً بكل دقة نظراً لأنّ عناصر جيش لبنان الجنوبي الذين دخلوا إلى المخيمات كانوا في المنطقة مسبقاً وكانوا يعسكرون غير بعيد عن «خلدة».

أما بشأن الرجال الثلاثة الذين قتلوا أو جرحوا على يد المظليين الإسرائيليين فأوضح حدّاد، من غير أن يطرف له جفن، كانوا من الحرس المدنيين الذين ليسوا تابعين لي تبعية تامّة – كانوا تحت إمرة جهاز آمان الإسرائيلي – وكانوا في زيارة خاصة إلى بيروت فهوجموا من قبل ميليشيا جنبلاط اليسارية، وليس لذلك أي علاقة بصبرا وشاتيلا.

ما كان بوسع لجنة كاهان سوى أن تصدق شهادة سعد حدّاد فمن غير المعقول في الواقع اعتبار جيش لبنان الجنوبي مذنباً ما دام يدار إدارة مباشرة من قبل الأمن العسكري الإسرائيلي. وإنّ توجيه التهمة إليه سيستجر آليا اتهام جهاز آمان ووزارة الدفاع وبالتالي الحكومة.

في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982 وقبل دقائق من الغداء مع أرييل شارون في بيت الضيافة في الـ«المدرشة» علم فادي أفرام وأنطوان بريدي وجوزيف أبو خليل وأنطوان نجم عن طريق مندي أن ناحوم أدموني، زعيم الموساد الذي استجوب بجلسة سريّة – ما كان لاسمه أن يُعرف علناً – قد أعلن أمام اللجنة تفاصيل الإعداد العسكري لعملية «سلام الجليل». وقد سلّم القضاة وثائق مثل مخططات «م» العسكرية والسياسية التي تثبت التعاون بين الإسرائيليين و«القوات». استولت على اللبنانيين دهشة كبرى لأنّ وزير الدفاع سمح بمثل ذلك الكشف، وأثناء الغداء، والذي دعي إليه أيضاً أوري دان وأفنير أزوالي، لم يقدم أرييل شارون أي تفسير وسأل المسؤولين في القوات اللبنانية:

– هنالك عوامل عديدة تثقل علاقاتنا في آن معاً. ولجنة تحقيق كاهان واحدة منها. واقترح شارون على اللبنانيين قائلاً:

– هاتوا فسّروا أمام لجنة كاهان ما قد جرى في الواقع.

– إن كان ذلك نافعاً فأنا مستعد له، لكن ينبغي أن يظل سريّاً.

فأكد شارون من غير أن يطرف له جفن قائلاً:

- بوسعنا تنظيم جلسة استماع، ربما لم تقع مذابح. ما من أحد يعرف شيئاً حتى الآن. قولوا الحقيقة، فالناس هنا لا يعرفون شيئاً. إنّهم يتخيلون أن آلاف النساء والأطفال قد قتلوا.

إنّ الجندي الإسرائيلي بيني حاييم الذي أُكتُشِف جعبة مخزنه في زقاق في شاتيلا، قد وجد في مشفى تل هاشومير حيث لا يزال يتلقى العناية. وبعد أن ظل يراوغ لفترة تتجاوز الأسبوع، تقدم في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر إلى المكان المخصص للشهود. وقد روى أثناء شهادته، التي جرت في جلسة سريّة وكُشِف عنها جزئياً فيما بعد، حكاية جرحه وأشكال العناية التي أحيط بها مؤكداً أنّه لم يدخل قط إلى مخيّم شاتيلا، لا هو ولا أي جندي آخر من وحدته، أما في تفسيره للعثور على عتاده فساق الفرضية أن ذلك العتاد، وأوراق هويته والقنابل اليدوية التي كانت في حوزته قد التقطت ووُضِعت في أحد شوارع المخيم، وقد أوردت اللجنة في تقريرها قصة حاييم وفرضيته بحرفيتها تقريباً.

فهي لم تفكر لحظة واحدة في الاستحالة المادية لذلك الفعل. واقع الحال أنّ الشخص الذي «التقط» جعبة ذخيرة بيني حاييم بحجمها الواضح واحتوائها على قنابل يدوية، كان عليه، في سبيل وضعها في مخيم شاتيلا المحاصر حصاراً تاماً، أن يعبر عدّة نقاط تفتيش للجيش الإسرائيلي والجيش اللبناني، والتي كانت مهمتها على وجه التحديد، منع كائن من كان من دخول المخيم ناهيك بالأسلحة أو المتفجرات، أضف إلى ذلك أنّ هذا قد حصل ساعة لم تكن تعتمل في نفوس الذين كانوا في المخيمات كافة سوى فكرة واحدة: الهرب.

في مطلع كانون الأول/ ديسمبر، توجه مناحيم نافوت إلى بيروت ليسأل إن كان ممكناً قيام لبنانيين بالشهادة أمام لجنة كاهان.

- إنّ شارون في موقف سيّء ويسعكم بالذهاب إلى هناك مساعدته على إيضاح بعض النقاط.

لم يجد زاهي بستاني أي نفع في مثل تلك الخطوة. أما أنطوان نجم فكان بخلاف ذلك مؤيداً لها، فقد كان مقتنعاً بأنّ أرييل شارون سوف يردّ له الجميّل لاحقاً، وأنّ القوات اللبنانية لن تكون وحيدة من بعد على الساحة السياسية اللبنانية ما دام هو بجانبه، لا سيّما في مواجهة أمين الجميّل. لقد قررت القوات اللبنانية دعم شارون، لكنّهم رفضوا إدلاء إيلي حبيقة بالشهادة. إنّ زعيم جهاز الأمن الذي تشير إليه الصحافة بإصبع الاتهام سيكون هدفاً لأسئلة القضاة.

جرى الحديث بين اللجنة المكوّنة من كاهان وضاربة على الآلة الكاتبة، في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1982، في الساعة 14 في قاعة معتمة بسبب السماء الغائمة والمطر، ولم يفكّر أحد في إضاءتها. ألقيت الأسئلة بصورة شكلية جداً وسط جو من البرود. ودارت أساساً حول بنية القوات اللبنانية وتكوينها وعملها. ولم يفُزْ إلّا بأجوبة باهتة وغير دقيقة.

أما في بيروت، فاستمرّ التحقيق الرسمي، بعيداً عن الأضواء الإعلامية. وقد تثبّت أسعد جرمانوس من ثلاثة أوقات شدّة للمذابح. وظهرت عناصر جديدة تتعلّق بالفاعلين على «مسرحي الجرائم» وبدوافعهم المختلفة. وهكذا فإنّ الضحايا الأول الـ63، والذين قضوا جميعاً برصاصة في الرأس، كانوا من المثقفين الفلسطينيين. لقد تمّ العثور على تلك الجثث في كل مكان تقريباً من صبرا وشاتيلا، وهي تعود إلى نهار الأربعاء في 15 أيلول/ سبتمبر. أما «الرزمتان» الأخريان من الجثامين فكانت متميزة عنها تميّزاً واضحاً، سواء في ما يتعلّق بتاريخ القتل أم بمكانه. وقد اقتنع المحققون اللبنانيون سريعاً بوجود ثلاث مجموعات من القتلة المختلفين وبشكل متوالٍ. وقد قال أسعد جرمانوس فيما بعد: **بدا لنا ما شهدنا لا يُصدّق، وغير قابل للتصديق**[1]. وعمد المحقق إلى الغوص مجدداً بفريقه في شهادات الناجين، سعياً منه وراء تحديد هوية تلك المجموعات الثلاث.

نشرت لجنة كاهان تقريرها في 8 شباط/ فبراير 1983. لقد عقدت 60 جلسة، واستمعت إلى 58 شهادة، وجمعت 163 شهادة أخرى عن طريق لجان إنابة قضائية وتوجّهت إلى بيروت لكن من غير أن تتمكّن من دخول المخيّمات. كان قسم من التقرير، هو القسم B (ب)، مدموغاً بطابع سرّ دولة، فلم يُنشَرْ (إنّه يتعلّق، مع جملة أشياء أخرى، بقائمة أعضاء الموساد وجهاز آمان الذين أدلوا بشهاداتهم، والمعنيين بالقضية بدرجات مختلفة). وتضمّن ذلك التقرير بعض المغالطات والتناقضات الصارخة. فنقرأ فيه على سبيل المثال: **كانت المخيمات (صبرا وشاتيلا) محاصرة من الجهات كافة؛ فالجيش الإسرائيلي يحتلّ ثلاثة جوانب والجانب الرابع هو خط التماس (الذي يفصل شرق بيروت عن غربها)، والذي كان تحت إشراف الكتائب.** وواقع الحال أنّ هنالك، من جهة، مسافة 1600 متر خط نظر - الأحياء الشيعية في الشياح والغبيري - بين خط التماس وهذين المخيمين. ومن جهة أخرى، كان الجيش اللبناني، لا القوات اللبنانية، هو المنتشر على خط التماس. يضاف إلى ذلك، أنّ المظليين من لواء غولاني الذين قدموا جواً لتأمين الدعم، قد احتلوا الغبيري (حيث فقدوا مدرّعة) حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر من 15 أيلول/ سبتمبر. وما كان لذلك الانتشار أن يكون مجهولاً في تل أبيب. تدلّ على ذلك، إن دعت الحاجة، المعلومة التي أعطاها أرييل شارون لمناحيم بيغن في 16 أيلول/ سبتمبر، قبل دخول المقاتلين المسيحيين إلى صبرا وشاتيلا، **إنّ المدينة بأكملها هي الآن بين أيدينا. فالمخيمات الفلسطينية محاصرة. ويسع الكتائب الدخول إليها**[2].

إنّ هذه «المعلومة» المغلوطة تسمح بالافتراض، أنّه كان بوسع جهاز الأمن دخول المخيّمات في غفلة عن الإسرائيليين، من غير أن تؤكّد ذلك تأكيداً جازماً.

---

(1) حديث مع آلان مينارغ.

(2) مراجعة الفصل السابق.

أما التناقض الآخر المدهش في تقرير كاهان، فيتعلّق بوجود «الإرهابيين» المسلّحين وعددهم في المخيمات. فمناحيم بيغن قدّر عددهم في شهادته بـ 2000. وورد العدد ذاته على لسان شارون ورفائيل إيتان، لتبرير عملية «الدماغ الحديدي». وكان رفائيل إيتان قد أكّد يوم 14 أيلول/ سبتمبر، عشية العملية، أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكنيست قائلاً: **لم يبقَ في بيروت الغربية سوى بضعة إرهابيين ومكتباً صغيراً لمنظمة التحرير الفلسطينية**[1]. أما الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية ومرتبيات الجيش الإسرائيلي فكانت تعلم حقّ العلم أنّ المخيمات أضحت خاوية من المقاتلين وأنّه لم يعد فيها سوى مدنيين فلسطينيين. وبعد الساعة الثانية من يوم مساء يوم الخميس في 16 أيلول/ سبتمبر، أعلن رون إيرليخ، مسؤول آمان في فرقة دروري، أثناء اجتماع ضمّ عدة ضباط بينهم دروري ويارون، مشيراً إلى دخول عناصر جهاز الأمن إلى المخيمات قبل ذلك بساعتين: **إنّهم يتساءلون عمّا عساهم يفعلون بالسكان المدنيين. يبدو أنّه لم يعد هنالك من إرهابيين في المخيمات. إنّ صبرا فارغة**[2]. ويبدو أنّ الوقائع قد أثبتت ذلك، فقد قالت المصادر العسكرية الإسرائيلية، إنّ الإسرائيليين لم يوقفوا طوال الأسبوعين (من 15 إلى 29 أيلول/ سبتمبر) من وجود الجيش الإسرائيلي في بيروت الغربية سوى بضع عشرات من الفلسطينيين واللبنانيين[3].

ظل النص المنشور من قبل لجنة كاهان يلتزم الصمت حول استفسارات عديدة مثل ذلك المتعلق بالدوافع الحقيقية الكامنة وراء إخلاء مركز أمنون، وهو ضابط الاتصال الذي أعاره الموساد لتأمين التنسيق بين غرفة عمليات القوات اللبنانية ومقر قيادة الجنرال عامير دروري ساعة دخول عناصر جهاز آمان إلى المخيمات. كذلك لم يقدِّم أي تفسير لإيضاح واقع أن علاقات التنصّت اللاسلكية بين آمان ومركز القيادة المتقدم في الجبهة الشمالية في عاليه لم تصل إلى يوشع ساغي[4]. وحول هذه النقطة يسوق بعض ضباط الجيش الإسرائيلي سراً العلاقات السيّئة القائمة بين شارون ويوشع ساغي ويشيرون إلى **إمكانية فعل مقصود للإيقاع بوزير الدفاع**[5].

في نهاية شهر آذار/ مارس 1983، وبعد مرور شهرين على نشر تقرير إسحق كاهان، سلّم المدعي العام أسعد جرمانوس تقريره هو إلى الرئيس أمين الجميّل وأودع نسخة منه في محفوظات وزارة الدفاع اللبنانية[6]، وقد فصّل فيه فعل ثلاث مجموعات من القتلة. كانت المذبحتان الأولى

---

(1) صحيفة «هآريتز» 15 أيلول/ سبتمبر 1982.
(2) تقرير «لجنة كاهان».
(3) أمنون كابليوك، م س.
(4) يان بلاك وبيني موريس، حروب إسرائيل السرية، غرو؟ فايدنفلد، 1991، ص 386.
(5) ضابط إسرائيلي فضّل عدم ذكر اسمه.
(6) اختفى في تشرين الأول/ أكتوبر 1990، عند دخول القوات السورية إلى القطاع المسيحي الذي كان تحت سيطرة الجنرال ميشال عون.

والثانية، من أجهزة العمليات الإسرائيلية السرية أو ما يماثلها، ومردّها إلى واقع أن مخيمات صبرا وشاتيلا كانت مخيمات تدريب للإرهابيين الأجانب. لقد تثبّت المحققون اللبنانيون يقيناً كما دوّنوا كتابةً أسماء بعض أعضاء جيش لبنان الجنوبي الذين شكلوا الموجة الثانية لأنّهم دخلوا المخيمات يوم الأربعاء مساءً .لقد فعلت المجموعتان الأولى والثانية فعلهما خلال 18 أو 24 ساعة، أما الموجة الثالثة المكوّنة من جهاز الأمن فقد تسببت، ضمن جرائم أخرى بقتل الأكثرية الساحقة من الضحايا الـ 109 من الجنسية اللبنانية والذين كانوا يقطنون شاتيلا. لقد تثبت المحققون من عمليات ثأر شخصية وسرقات. وعليه فقد أكّد ميشال زوينْ، وهو أحد زعماء فريق جهاز الأمن، ما دام منزله قد دمّر، فقد استردّ ما كان قد أخذ منه. ويرى أعضاء هذا الفريق الثالث، أن أولئك اللبنانيين (القتلى) قد تحزّبوا للفلسطينيين.

لقد أكّد فيما بعد العقيد الإسرائيلي السابق إيلي غيڤا قائلاً: كان في إسرائيل خمسة أشخاص لا يعرفون مجريات الأمور في صبرا وشاتيلا فقط، بل إنهم من غير الكلام بوضوح، ومن غير إصدار الأوامر ومن غير كتابة أي حرف كان، قد فعلوا ما وسعهم في سبيل وقوع ما وقع في صبرا وشاتيلا لأنهم كانوا راغبين في جعل السكان يهربون. وبما أنهم كانوا يخشون فوق ذلك ألّا يفعل المسيحيون ما كانوا هم يتوقعون، فقد استخدموا عدداً كبيراً من اللاعبين. وكانت لعبة غاية في الوقاحة[1].

إنّ تدخل «الكتائب» الذي طالب به الإسرائيليون قد جرى الحصول عليه بعد ترددات ومراوغات؛ فقد اعتقدت القوات اللبنانية طوال يومين اثنين أن الجيش الإسرائيلي سيتكلف بالعملية. والواقع أنّه لم يكن لدى القوات اللبنانية من خيار آخر سوى التعاون مع الإسرائيليين للاستفادة من دعمهم، وهو دعم حيوي بعد موت بشير. إنّهم مقتنعون الآن بأن الهدف الأساسي لهذا الطلب هو «تغطية» أفعال المجموعتين الأولى والثانية من القَتَلة وهم من أجهزة العمليات الإسرائيلية السرّية أو ما يماثلها. لم يكن الجنرال عاموس يارون الذي يتولى مسؤولية المنطقة يعلم ما كان يجري. وسوف يعلّق إيلي غيڤا[2] على ذلك بقوله: إنّه لم يفهم حقيقة ما كان يجري ولم يكن يظن أنّ الزعماء الخمسة الذين كانوا يديرون العمليات من إسرائيل كانوا على تلك الدرجة من الوقاحة، وإلى أي حد كانوا يتلاعبون به تلاعباً خفياً بل إنّ ذلك لم يخطر منه على بال. والواقع أنّ تلك كانت أيضاً حال زعماء القوات اللبنانية الذين كانوا مقتنعين على الدوام بأنّهم وحدهم في تحمّل المسؤولية. لقد خشي «الزعماء الخمسة» لبعض الوقت، بحكم موقعهم بفعل قوة الأشياء في السويّة الأعلى من التراتبيّة العسكرية والسياسية الإسرائيلية، من قيام تحقيق حقيقي في إسرائيل يغطي

(1) من إيلي غيڤا لآلان مينارغ، تشرين الأول/أكتوبر 1992.

(2) من إيلي غيڤا لآلان مينارغ.

مجموع الأيام الأربعة (15 و16 و17 و18 أيلول/ سبتمبر 1982) وقد طمأنهم مجلس الوزراء - عمداً؟ - بحصر التحقيق بالأفعال والدوافع المتعلقة بالفظائع التي ارتكبتها وحدة من القوات اللبنانية. وذلك ما سيتمّ التعليق عليه فيما بعد بسخرية لاذعة على لسان الكاتب يزهار سميلانسكي في العبارات التالية: **لقد أفلتوا سباعاً جائعة في الحلبة فافترست الناس. الذنب إذاً يقع على السباع؟ أليست هي التي افترستهم حقاً؟ فمن كان بوسعه أن يتوقّع، حين فتحنا لها الباب وجعلناها تدخل، أن هذه السباع سوف تفترس أولئك الناس**[1].

كان لصبرا وشاتيلا نتيجةً أولى، أن غيّبت عن الساحة السياسة آخر واحد من كبار بناة الدولة العبريّة والذي أبرزته حرب استقلال إسرائيل: مناحيم بيغن.

(1) أوردها أمنون كابليوك م س.

2
أمين رئيساً

شكل اغتيال بشير الجميّل كارثة حقيقية للقوات اللبنانية، ففقدت الميليشيا فقداناً مباغتاً الزعيم المسلّم به من قبل الجميع، والصديق الصدوق لكل واحد والرابط الحقيقي لمختلف النزعات، ودعامة الحزب ومعلّم السياسة والمقرّر الذي لا يمكن تجاوزه، والرئيس الذي منذ انتخابه كان على أهبة وضعهم جماعياً وفردياً على درب المستقبل. إنّ اختفاءه لم يدع أعضاء فريقه في حالة ضياع فقط بل تركهم عاطفياً أيضاً عراةً، وكردّة فعل أصبح ما تحقق أو قيل أو تقرر في حياته مرجعيات وبالدرجة الأولى دستوراً وقوانين للقوات اللبنانية، فتشبث الجميع بذلك كأنما بطوق نجاة.

مع توالي الشهور من عام 1982 اختُصِر حزب الكتائب ضمن قرارات القوات اللبنانية ليغدو قُبولاً من پيار الجميّل، ويدار فقط من قبل بشير. لقد استعفى الرئيس من تلقاء نفسه تاركاً أكبر حرية للمناورة أمام ابنه الثاني. وعلى ذلك كانت النتيجة الأولى لموت الرئيس المنتخب أن دفع بحزب الكتائب إلى مقدمة المسرح. وعاد پيار الجميّل ليكون المرجعيّة مجدداً. لكنّه لم يعد قادراً على أداء دور الزعيم، فهو من ناحية قد أصبح مسناً ويلاقي مصاعب في الحوار مع الأجيال الفتيّة ذات القيم المختلفة، ومن جهة أخرى فإنّ صورة بشير تعود لتستقر، عن وعي أو بدون وعي، فوق كل طامح إلى قيادة العالم المسيحي. بدا پيار الجميّل عتيقاً قد تجاوزه الزمان وأمين ضعيف الشخصية.

أضحت القوات اللبنانية مجموعة من اليتامى، وأداة غزو للسلطة تسعى بحثاً عن أبٍ جديد تقوم بخدمته. كان فادي أفرام رئيس هيئة الأركان قد انتُخب قائداً عاماً في 13 أيلول/ سپتمبر بناءً على اقتراح من بشير الذي أوكل إليه مهمّة إدارة الانضمام إلى الجيش اللبناني. لكنّ ذلك لم يعد الآن موضع بحث. أقله طالما أن أمين الجميّل يقبل باعتماد استراتيجية بشير وقراراته. كان أفرام يتمتع بشرعية تعيينه من قبل بشير فكانوا كثراً أولئك الذين اعتبروا، أنّ عليه بفعل ذلك الواقع، أن يتولى رئاسة الجمهورية. لكنّ أفرام، «عسكريّ أكثر مما هو سياسي»، كان إدارياً للجهاز فليس لديه أي

طموح شخصي. ذلك على كل حال أحد الأسباب التي جعلت بشير يختاره ليخلفه على رأس «القوات». لم يكن يتمتع بقيافة رئاسية وكان يعي ذلك. مثل ما كان يعي أن من المستحيل عليه من ناحية أخرى مجابهة تيار الجميّل والمخاطرة بردّةٍ تصدر عن مناصري الكتائب داخل القوات اللبنانية وهذا ما كان سينتهي إليه لو طرح ترشيحه. فمنذ اللحظة التي رأى فيها جثمان بشير، مساء 14 أيلول/ سبتمبر 1982، وضع أفرام هدفاً نصب عينيه: الحفاظ على القوات اللبنانية، ليس ذلك بوصفها حاملة استقلال في وجه الكتائب ولا بوصفها أداة لغزو السلطة كما صمّمها بشير وإنّما مؤسسة تسمح للحركة السياسية - العسكرية للمقاومة المسيحية بالبقاء على قيد الحياة.

لقد حشر أمين الجميّل نفسه على الفور ضمن الفراغ الناجم عن موت أخيه. فحافظ على علاقات شخصية مع بعض المسؤولين في القوات اللبنانية مثل فؤاد أبو ناضر وإيلي زايك بل حتى فادي أفرام الذي قاتل معه في المتن في عامي 1975 - 1976. وقد التمس عطفهم على الفور. وهو يعرف حق المعرفة أنّ القوات اللبنانية بمجموعها تناصبه العداء، كما استطاع مرات عديدة أثناء نزاعاته مع بشير أن يقدر ما يضمرون له من بغض.

كانت القوات اللبنانية بميزانية إنفاق شهري تصل إلى 40 مليون ليرة لبنانية[1] وأكثر من 20 ألف رجل ودعم الدولة العبريّة، تمثّل ثقلاً سياسياً وعسكرياً في المعسكر المسيحي لا يسعه أن يتجاهله.

كذلك كان أمين يعلم ردّة فعل انتمائه للكتائب من عدد كبير من الميليشيات. فبعض المتعصّبين للحزب والذين استبعدهم بشير رجعوا والتحقوا به بسرعة كبيرة وبفرح ظاهر لعودة الكتائب من باب قوّة. يقول مثل صيني حين يصبح رجل في عداد الوجهاء فحتى طيور البط في قنّ دجاجاته تنتفع بذلك. وإذا لم يكن لهذا المثل من مقابل بالعربية فإن المبدأ عالمي.

لا تكفي ردّة الفعل والتحالفات للسعي وراء «انتفاضة» لمصلحة أمين الجميّل، لكنها كافية للحكم على «القوات» للبقاء ضمن فلك الحزب خوفاً من حصول تفتت داخلي. لقد جرى الإعلان عن ترشيح أمين من فوق نعش أخيه، من غير أن يكون ذلك إعلان حرب على الذين يرفضونه، لا سيّما وأنّ تأكيد إرادته كان بعدم جعل أحد من «معسكره» يعترض طريقه.

إنّ هذه العبارة الصغيرة قد أحدثت جرحاً داخل صفوف القوات اللبنانية. فتشكّلت جماعات بشكل غير محسوس لكن بقسوة وتصلّب. وسعياً من فادي أفرام وراء الإبقاء على تجانس المجموعة دعا يوم 16 أيلول/ سبتمبر ظهراً زعماء القوات اللبنانية كافة[2] إلى قاعة الاجتماعات الكبرى في المجلس العسكري في «الكرنتينا». فتجابه على طوال ساعتين معارضو أمين ومناصروه، وكانت

---

(1) تعادل 12 مليون دولار عام 1982.

(2) مراجعة آلان مينارغ، أسرار حرب لبنان، الجزء الأول، الفصل 21 «عملية الدماغ الحديدي»، المكتبة الدولية، بيروت 2005.

المجابهة حادة أحياناً. أما إيلي حبيقة الذي كان يصغي صامتاً فقد رفع عينيه بغتةً عن الورقة التي كان يخربش فوقها أشكالاً هندسية وأعلن قائلاً:

– أرغب في تذكيركم ببعض الأشياء. ليس، بدايةً، يوم 23 آب[1] اليوم الأهم في تاريخنا. إنّ القوات اللبنانية هي الأكثر أهميّة. لقد كان مرسوماً، بعد ارتقاء بشير إلى سدّة الرئاسة، وضع نهاية للحرب والبدء بإعمار البلاد. ويستطيع أمين القيام بمهمة إعادة الإعمار هذه خير قيام، فالحزب سوف يقدم ترشيح أمين بكل تأكيد وسوف يُنتخب. فإن حافظ على خط بشير السياسي فعلى الرحب والسعة. وإلاّ فسوف نواصل الدرب من دونه.

جرى التوافق على تلك الفكرة. وتعهّد أمين بمواصلة «خط أخيه». وبدأت من حينها مصاهرة وجاهية بينه وبين القوات اللبنانية لتغدو من ورائها البراعة السياسية والسذاجة وتحريك الخيوط عناصر هامّة.

لقد أُخِذ الأميركيون على حين غرّة باغتيال بشير. فلم يضعوا في الحسبان أيّة سياسة بديلة لأنهم لم يقدّروا المخاطر تقديراً واقعياً على الإطلاق. لقد أرسل الدبلوماسيون وممثلو الـCIA العاملون في لبنان، بملاحظات وإنذارات إلى واشنطن، لوعيهم بالعداوات والأخطار التي يتعرّض لها الرئيس الشاب، لكن ما من أحد ألقى إليها بالاً. لقد هتف ألفريد ماضي المسؤول عن مكتب القوات اللبنانية في الولايات المتحدة بعد استعطاف من أمين إلى روبرت الذي ينادونه باسم بوب باسيل وهو رئيس الجمعية الأميركية اللبنانية، ليعرف تقييمات الأميركيين بشأن خلافة بشير، وجاء ردّ ماضي شديداً، حين علم أنّ اسم كميل شمعون يجري تداوله بإلحاح، فأكد قائلاً:

– إنه لخطأ فادح. وينبغي القيام بكل شيء لاستبعاد كميل شمعون واقتراح أمين الجميّل. ثم أضاف من غير أن يطرف له جفن: **إنما حزب الكتائب هو الذي ربح الانتخابات.**

كان باسيل مرتاباً، فهو يعرف حقّ المعرفة الخلاف العضوي العميق الذي يفرّق بين الأخوين، ويعلم تماماً أن القوات قد التزمت التزاماً عاطفياً بـ بشير حيال أخيه البكر.

بعد ذلك ببضع ساعات هتف أمين بدوره إلىبوب باسيل طالباً إليه أن يتدخل لمصلحته إذ ليس له عملياً أي اتصال بواشنطن. كان الرجلان قد التقيا أثناء المؤتمر الدولي حول لبنان في «بيت مري». وقد سعى أمين، أثناء تعليق الجلسات لإقناع باسيل بأن يعمل لمصلحته لدى الأميركيين وبعدم مساندة أخيه في الانتخابات الرئاسية[2]، وأكّد له أمين في ختام تلك المحادثة الهاتفية قائلاً:

– سوف التزم حتماً بسياسة بشير.

اتصل روبير باسيل بشارلي هيل معاون وزير الخارجية جورج شولتز الذي سبق أن أعانه على

---

(1) تاريخ انتخاب بشير الجميّل للرئاسة.

(2) روبير باسيل لآلان مينارغ، أيار 1995.

تعديل صورة بشير لدى المسؤولين الأميركيين في النصف الأول من عام 1981. وقدم باسيل النصيحة إلى هيل بتحويل جهود وزارة الخارجية لمصلحة الابن الثاني لـبيار الجميّل مع الإشارة إلى أنّ هذا الأخير يظلّ سيداً لمنظمتين قويتين: الكتائب والقوات اللبنانينة. وقد أكّد قائلاً: **لقد قدمتا براهينهما في انتخاب بشير ولم يمسسهما عطب**، مع الإلحاح على واقع أن كل ما يتم دون موافقتهما، بل ضدهما، سوف يستجرّ نتائج خطيرة. وكان من شأن المداخلة ونتائجها أن جعلت الأميركيين حائرين يخامرهم الشعور بفقدان كل شيء.

مع حلول مساء ذلك اليوم في 16 أيلول/ سپتمبر، أعلن المكتب السياسي لحزب الكتائب رسمياً ترشيح أمين الجميّل لرئاسة الجمهورية. كانت لديه حظوظ كبرى بالفوز. فالسيل الهادر الذي غمر البلاد تأثراً وتضامناً بعد مصرع أخيه لا يسعه إلّا أن ينعكس عليه. أما دخول الإسرائيليين إلى بيروت الغربية في اليوم السابق فكانت نتيجته تلاحم اللبنانيين.

لقد أعلن المستشار السياسي لحزب الوطنيين الأحرار على الفور أنّ رئيسه كميل شمعون، سيكون مرشّحاً أيضاً، مؤكّداً **أنّ أمين الجميّل أبعد ما يكون عن بشير وأنّ النظام البرلماني ليس شأناً عائلياً**.

توجه أمين على الفور إلى بيت صائب سلام. كان في عجلة من أمره للحصول على الدعم الرسمي من السنّة. استقبله رئيس الوزراء السابق بترحاب، وطمأنه إلى دعمه الشخصي، واقترح عليه «المساعدة» لاختيار رئيس الحكومة المقبل، وهو سنّي إلزاماً بموجب دستور 1943. فقَبِلَ أمين. ثمّ أكّد له سلام أنه سيضع كل ثقله لإقناع حلفائه المسلمين. فعاد المرشح الكتائبي إلى بكفيا مسرعاً، وهو مطمئن. لقد دعا للعشاء في بيته كلاً من ابن أخته فؤاد أبو ناضر، صهره (زوج ابنة شقيقته) فادي أفرام، وإيلي الزايك وإيلي حبيقة. وكرّر عزمه على مواصلة عمل أخيه. وباستباقه التسربات حول اجتماع نهاريّا، أبدى معارضةً قاطعة للطلب الإسرائيلي بإجراء حوار على مستوى عال عرضه عليه الرجال الأربعة. فألحّ ضيوفه مذكّرين بأن إسرائيل لا يمكن تجاوزها في العملية السياسية التي اعتمدها بشير للوصول إلى إعادة توحيد البلاد. فاضطر أمين للرضوخ. وقَبِلَ بأن يستقبل في البداية مناحيم نافوت، الرجل الثاني في الموساد، لكنه طلب بسرّية مطلقة.

لقد قرر جهاز الموساد بعد أن أحيط علماً بعزم بعض المسؤولين الأميركيين على دعم الولد البكر من آل الجميّل القيام بالشيء ذاته.

إنّ جهاز الموساد المتعلق مباشرةً برئيس الوزراء، وبه وحده فقط، منظّمٌ ضمن أقسام (Desk) مرتكزة على اعتبارات جغرافية. فكان (دسك) لبنان مكلفاً بالاتصالات العسكرية والسياسية كافة مع القوات اللبنانية ومع مختلف التشكيلات في البلاد. فقد أقام في لبنان في شباط/ فبراير 1981 مركز اتصال دائم مؤلف من ضابط اتصال، هو شموليك أفياتار (ألِكس)، واثنين من

الحرس الشخصي، وعنصر شيفرة. وقد وضعتهم القوات اللبنانية في «أدونيس»، على مرتفعات «الزوق»، تحت حماية بعض عناصر الميليشيات المسيحيين ضمن مقرّ سفارة السنغال التي هجرها الدبلوماسيون. وعلى الرغم من التكتم الشديد، فإن فريق الموساد اجتذب انتباه الجوار وهو ينشد بالعبريّة ليرافق شموليك أفياتار الذي كان يعزف على البيانو مساءً، والنوافذ مفتوحة بسبب الحرّ. وحين أسترجع الدبلوماسيون السنغاليون مقرّ سفارتهم في تمّوز/ يوليو 1981، جرى إسكان فريق الموساد خلال بضعة شهور وحتى نهاية تشرين الأول/ أكتوبر في الطابق الأول من دير صغير هو دير القديس يوحنا في «عجلتون»، وذلك خلال الفترة التي ستشاد من أجلهم يلاّ ومهبط حوامات في طبرجا على شاطئ البحر حيث يُنزل الإسرائيليون منذ أعوام أسلحةً وذخائر للميليشات المسيحية. وجرى تجهيز فريق الموساد فيما بعد ليبلغ قبل عملية «سلام الجليل» قرابة 30 شخصاً بينهم 3 مترجمين و4 عناصر شيفرة. وقد استبدل بـ شموليك أفياتار، أفنير أزوالي (فيليب) ومساعده وميكي أرمور (ماريون)[1].

على الرغم من أنّ الدولة العبريّة كانت في مركز الإعصار الذي أثارته مذابح صبرا وشاتيلا، فقد حرصت ضماناً للثمار السياسية لعملية «سلام الجليل» على عدم تغييبها عن السباق الانتخابي اللبناني.

لقد بلور أمين الجميّل حول نفسه حذراً خافتاً في تل أبيب. فالموساد تابع عن كثب علاقاته مع ياسر عرفات عبر وساطة واحدة من بنات رياض الصلح، وصفقاته المالية والتجارية مع الفلسطينيين، حتى أثناء الحرب[2]، ورفضه أثناء حصار بيروت، القيام بأيّ اتصال كان مع الإسرائيليين، بمن فيهم الصحفيون، في حين أنّ ياسر عرفات كان يستقبلهم من ناحيته. لكنّ أمين الجميّل كان المرشح الوحيد اللائق على الحلبة فأدت الواقعية الإسرائيلية دورها.

فباشر الموساد «بإقناع» حلفائه ومعارفه في لبنان بضرورة «المراهنة» على مرشح الكتائب وتوجه ناوت إلى بيت كميل شمعون في سيوفي فوق تلة الأشرفية، ليطلب إليه الانسحاب من السباق، وقد أوضح له الرجل الثاني في الموساد أنّ:

– هذا هو عهد عائلة الجميّل، ولم يعد عهد عائلتكم. كذلك لم تعودوا في السن التي تسمح لكم بالارتماء في هذه المعارك الانتخابية، فلا تزجوا بأنفسكم في هذه المنافسة[3].

كان رئيس الجمهورية السابق هادئ الأعصاب، فلم يعِد بشيء. أما وهو العجوز السياسي

---

(1) سيغادر فريق الموساد طبرجا على نحو مباغت في حوّامة، في 16 كانون الثاني1985، غداة «الانتفاضة» التي أخذ بها إيلي بيقة وسمير جعجع وكريم بقردوني السلطة في القوات اللبنانية بطردهم القائد الأعلى الجديد فؤاد أبو ناضر.

(2) من مناحيم ناقوت لآلان مينارغ، تشرين الأول/ أكتوبر 1992.

(3) المصدر السابق نفسه.

المخضرم فقد أدرك أنّ الدولة العبريّة لن تسانده بل لن تتردد في محاربته سياسياً عند الحاجة. وأدرك حقاً أن الأمر لن يكون غير ذلك من بعد تصريحه قبل بضعة أيام من اغتيال بشير بأنه يعارض معارضةً كليّة توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل. وهذا الموقف قد جعل بيغن ساخطاً. أما وأنه لا يتمتع إضافة إلى ذلك بأية حماية أميركية – التي كانت ستسمح له على الأرجح بالحصول على التصويت السنّي – فإنّ حظوظه في النجاح كانت معدومة أو شبه معدومة.

قرر مناحيم بيغن، للتدليل على الأهمّية التي يرغب في إسباغها على المحادثات مع مرشّح الكتائب، أن يبعث إليه بوفد يتألّف من الرجلين الأكثر أهمّية في وزارته: وزير الدفاع، أرييل شارون، وإسحق شامير، وزير الخارجية. فتحدّد الموعد مع أمين الجميّل في الليلة السابقة للانتخابات، أي ليلة 20/ 21 أيلول/ سبتمبر 1982.

واستعداداً للقاء، استقبل مرشّح الكتائب، في بيته في بكفيا على العشاء، كلاً من مناحيم نافوت وفادي أفرام ووليد فارس (وودي)، في 19 أيلول/ سبتمبر.

استهلّ مرشّح الكتائب الحديث قائلاً:

– رغبت في أن يكون لقاء العمل الأول بيننا في بيتي لنتمكّن من أن نتناول معاً شيئاً من الخبز والملح، على نحو ما جرت به العادة. إنّي راغب في مواصلة عمل بشير وفي إقامة علاقات وثيقة معكم. ويؤسفني أنّي لست على كبير اطّلاع على تفاصيل المواضيع المختلفة التي بحثها أخي معكم. لكنّي سوف أدرسها في أسرع وقت ممكن. ويسعني أن أقول لكم سلفاً إنّي أقبل القيام بالالتزامات كافة التي عقدها بشير مع إسرائيل. أمّا بشأن علاقتنا الشكلية، فقد تسلّمون بأن تكون القرارات مقبولة من حكومتي. وأود أن أطرح عليكم سؤالاً في هذا الشأن. ما الذي جعل الاجتماع الذي عُقد بين بشير ورئيس الوزراء بيغن يُنشر على الملأ؟ أنا لا يسعني الإقدام على مثل تلك المخاطر. فسوف يتّهمونني بالخيانة.

فوافق مناحيم نافوت قائلاً:

– إنّ تسرّب الأخبار من الأشياء التي تقع. لكنّ ذلك لا يمثّل شيئاً ذا بال، مقارنة بحجم نشاطاتنا السرّية. فلقد أسهمنا وسط سرّية مطلقة في التطوير العسكري والسياسي للقوات اللبنانية، ونسّقنا عملية «سلام الجليل» ووضعنا خططها. وليس ما يماثل ذلك حتى بين دولتين اثنتين. وقد تناول بشير وأرييل شارون بالبحث، في آخر لقاء بينهما، عدّة نقاط هامة جداً بالنسبة إلينا، من بينها، البدء بعملية سلام وإقامة صلات مباشرة بين حكومتينا، دون تدخّل من طرف ثالث.

كان واضحاً التلميح للولايات المتحدة، التي يكرهها شارون أشدّ الكره. لكنّ أمين لم يتبيّن ذلك.

وعاد ليؤكّد قائلاً:

– ما زالت معرفتي بهذه الملفات غير كافية. آمل فقط ألا أخيّب أملكم في هذا اللقاء. فالهدف الأساسي منه في نظري سيكون في البداية إجراء تعارف أوسع مع شارون وشامير في سبيل إقامة علاقات شخصية أكثر والتوصّل من بعد إلى فهم مشترك للمسائل المطروحة من أجل معالجتها.

بعد ظهر يوم 20 أيلول/ سبتمبر 1982، وقف الوزراء اللبنانيون، بانتظار افتتاح اجتماع المجلس، وهم يتأمّلون صامتين، عبر النوافذ الزجاجية الكبرى في قصر بعبدا، الطريق الساحلية التي تقع إلى الجانب الآخر من المطار. كان رتل لا ينقطع من الشاحنات، من الأحجام والألوان كافة – كان بعضها يرفع لوحات إعلانية بالعبريّة– تغادر المدينة باتجاه الجنوب. كانت تحمل الأسلحة والذخائر التي اكتُشِفت في مستودعات جبهة التحرير الفلسطينية. وكانت كمية هائلة من العتاد قد نُقِلت مسبقاً من بيروت إلى إسرائيل.

في ذلك اليوم، وافقت الحكومة اللبنانية بالإجماع، أثناء أقصر جلسة في تاريخها[1]، على استدعاء قوة فصل دولية من أجل إحلال الهدوء في بيروت الغربية. ولم يشأ إلياس سركيس، الذي سوف تنتهي ولايته بعد ثلاثة أيام، في فرض ذلك القرار على خليفته. وكان قبلها بيوم واحد قد سبر غور أمين الجميّل. فقبل بها هذا الأخير بكل اندفاع. بعدئذ استدعى شفيق الوزّان السفير الفرنسي پول–مارك هنري ليطلب إليه المساعدة من باريس. وفي الوقت ذاته، كانت المقاومة الإسلامية تعقد اجتماعاً في منزل صائب سلام. وكان زعماء الاتجاهات كافة، من حركة المستضعفين الشيعية (أمل) إلى الحركة الوطنية، حاضرين، وقد قرر الجميع بسرعة كبرى وبدون مناقشة من الناحية العملية ودون انفعال، تأييد مرشح «الكتائب» ثم أعلموا المعنيّ بذلك على الفور.

مع هبوط الليل في ذلك اليوم ذاته 20 أيلول/ سبتمبر، حطّت مروحية إسرائيلية CH 53 وسط زوبعة من الغبار وراء محطة الزوق الكهربائية. فوطئ شامير الأرض اللبنانية لأول مرة في حياته. ثم نزل وراءه كل من أرييل شارون وديڤيد كيمحي[2]ناحوم أدموني[3] (پيتر) ومساعده مناحيم ناڤوت (مندي)، فكان في انتظارهم، إضافة إلى بعض رجال الحرس الشخصي الإسرائيليين، المقيمان الاثنان في مقر الموساد أڤنير أزوالي (فيليب) وأمنون، مع أربع سيارات تابعة للقوات اللبنانية. وسلكوا على الفور طرق «الضبيّة». كان «بيت المستقبل» الذي بناه أمين الجميّل وحيث سيتم اللقاء، بناء ضخماً من الإسمنت بأشكال مشرّعة يضمّ مركز توثيق الأرز – المجهّز بواحد من أضخم العقول الالكترونية في الشرق الأوسط – وببنك معلومات حول مشاكل المنطقة كافة. كان في استقبال الإسرائيليين، ومرشح الكتائب لمّا يصل، سيمون أبو جودة، سكرتيرة أمين الجميّل التي قادتهم إلى

(1) دقيقتان و 15 ثانية.

(2) المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية.

(3) رئيس الموساد.

قاعة كبرى في الطابق الأرضي حيث كان بانتظارهم فادي أفرام وزاهي بستاني وجوزيف أبو خليل وأنطوان بريدي وإيلي حبيقة.

احتلّ اللبنانيون والإسرائيليون أماكنهم على جانبي طاولة كبرى مستطيلة. ومن الطبيعي أن يتولى زاهي بستاني الكلام فهو الأقرب إلى الملفّات السياسية قائلاً: **نحن نودّ، بعد غياب بشير، أن نقوّي علاقاتنا بكم وجعلها ودية أكثر وأعمق.** فعبّر شارون باقتضاب عن تأثُّر إسرائيل لموت بشير ودخل في صلب الموضوع:

– نحن راغبون في أن نعرف إن كنتم ستستمرون في البقاء بوصفكم قوات لبنانية وكيف تنظرون إلى مستقبلكم؟ لقد قال لي رفّول إنكم طلبتم 3000 كلاشنيكوف وأنا طبعاً أعطيت موافقتي على الفور. ولسوف تكون الحال كذلك بالنسبة إلى كل ما تحتاجون. إن ما عثرنا عليه في بيروت الغربية لا يصدق: آلاف الأطنان من المتفجرات والأسلحة ووفرة في الذخائر. وفي كل يوم نكتشف كميات أخرى ولا يزال منها كمٌّ هائل. لكن أن تنتشر في بيروت قوة دولية فسوف تمنعنا من مواصلة تفتيشنا.

وعقّب إسحق شامير قائلاً:

– إنّها زيارتي الأولى إلى لبنان وأنا حزين جداً لعدم لقاء بشير. نحن جئنا أصدقاء. وإنّ من الأهمية بمكان الحفاظ في مثل هذه الأوقات على ما يوحّد بيننا. لقد تسبّب غياب بشير باضطرابات في لبنان، أما عندنا فما تغيير شيء. نحن نريد مواصلة السياسة ذاتها وبودّنا أن نعرف إن كنتم من ناحيتكم تريدون القيام بالشيء ذاته. إنّ هذا بالنسبة إلينا هام جداً لا سيّما وأن علاقاتنا أصبحت رسمية أكثر فحتى الآن كان وزير الدفاع هو الوحيد في معالجة الملف اللبناني. أما فيما بعد فسوف نكون أكثر فاعليّة.

فقال زاهي بستاني:

– نحن دوماً على ما نحن. ويسعني أن أؤكد لكم أننا راغبون في الحفاظ على علاقاتنا الطيبة بل في تطويرها. فغداً سيكون لنا رئيس جمهورية جديد. ويكون لكل يوم يليه نصيبه من الأحداث. فلنلتقط أنفاسنا قليلاً، ونكون مستعدين من بعد لأن نجيبكم.

قال شارون:

– لن نمارس أي ضغط عليكم. فنحن نفهم الموقف حقّ الفهم ونقرأ حجم الكارثة على وجوهكم ولسوف تنالون تأييدنا وعوننا. فمن الأهمية بمكان الحفاظ على القوات اللبنانية على نحو ما هي لأنّه لا يمكن لأحد أحداً أن يعرف كيف سيتطوّر الموقف. فالحكومة اللبنانية قررت توّاً استدعاء قوة متعددة الجنسيات. ونحن لا نعرف على سبيل المثال إن كانت ستنتشر في بيروت فقط أم في أمكنة أخرى أيضاً.

– فقال البستاني :

– في بيروت الغربية وحول صبرا وشاتيلا.

– ولأية مدّة؟

– لعشرين يوماً.

فسأل كيمحي :

– وهل ستنتشر في المطار أيضاً؟

– لم يُحدَّد ذلك بعد.

فاستأنف شارون قائلاً :

– لقد تناقشنا بشأن المطار مع بشير، واتفقنا على أن تكون الإدارة كلها للسلطات اللبنانية، لكن سيكون بوسعنا الاحتفاظ بمراقب في البرج لتفادي الحوادث الجوية. واتفقنا كذلك على أن تهبط طائراتنا فيه مثل الطائرات الأخرى كلها. وقد طلب إلينا بشير إخلاء دباباتنا فقط عن المهابط فأعطيت موافقتي. نحن نرى أنّه لا ينبغي للقوة متعددة الجنسيات أن تنتشر فوقه لأننا لن نستطيع استخدامه من بعد وسنفقد سرعة العمل التي بحوزتنا.

وسأل إسحق شامير :

– أودّ أن أعرف إن كانت الحكومة اللبنانية قد اتصلت بكم قبل اتخاذ قرارها المتعلق بالقوة متعددة الجنسيات؟

– كلا.

فسأل شارون :

– متى ستنزل؟ وهل ستكون لها المهمة ذاتها كالقوة السابقة؟

فأضاف مندي :

– ولِمَ عشرون يوماً؟

فأعرب البستاني عن أسفه قائلاً :

– ليس لدينا من تفاصيل. نحن نعرف فقط أن بيريز دوكويار يعمل على ذلك في الأمم المتحدة.

فاستنتج شامير وهو يركّز اهتمامه على إضبارته قائلاً :

– لقد قبل الأمين العام إذاً بإرسالها.

فسأل شارون :

– هل لديكم تفاصيل حول تشكيل الحكومة أو اسم رئيس الوزراء؟

أجاب البستاني :

– كلا! ليس بعد. فالساعات الأخيرة كانت مكرّسة للانتخابات. غداً يكون التصويت وبعد يومين التنصيب الرسمي وسوف تبدأ في 24 أيلول/ سبتمبر الاستشارات لتشكيل الحكومة.

وتدخّل جوزيف أبو خليل للمرةّ الأولى قائلاً:

– بودّي أن أقول لكم إنّ مستقبل علاقاتنا منوط كثيراً بلقائكم بعد قليل بالشيخ أمين. كونوا صبورين معه. إنّه بحاجة لزمن كي يأتي إلينا. ولسوف نفعل ما وسعنا من جانبنا لنجتذبه. إنّ اللقاء الشخصي ما بينكم وبينه لحاسم.

فتوجّه شامير إلى جوزيف سائلاً:

– أسألك أنت شخصياً، هل ستبقى؟

فحسم أبو خليل الردّ قائلاً:

– سوف نفعل ما وسعنا لنجتذبه إلى سياستنا. فالشيخ أمين مقتنع بصحة هذه السياسة. لكن عليكم أن تعلموا أنّ أسلوبه في العمل وطرائقه ذات اختلاف شديد عنها لدى بشير.

فسأل وزير الخارجية قائلاً:

– وما هي تلك الاختلافات حسب رأيكم؟

فردّ اللبناني:

– خذوا الانتخابات على سبيل المثال. لقد حصل بشير على أكثرية مسيحية ساحقة وبعض المسلمين. أما مع الشيخ أمين، فهو العكس، مع كل ما يستجرّه ذلك من نتائج حول سياسة البلاد مستقبلاً. لقد راهن الشيخ بشير على الورقة الإسرائيلية حتى النهاية. لكنّ حال الشيخ أمين لن تكون كذلك، لا على نطاق المبادئ، لكن على نطاق تكتيكي. لقد قابلناه كثيراً في هذه الأوقات الأخيرة. فوعدنا بأنّه سيواصل سياسة بشير مع الفريق ذاته.

وأكّد مندي قائلاً:

– واقع الحال أنّ الشيخ أمين قال لي إنّ فريق عمل بشير سوف يغدو فريقه هو.

واستفسر ديفيد كيمحي:

– وماذا بشأن سوريا؟

فأكّد أبو خليل قائلاً:

– لن يحصل أي تغيير حول هذه النقطة، أما من جانبنا نحن، فليس وارداً على الإطلاق التراجع خطوةً واحدة بشأن هذا الملف.

وتدخّل شارون سائلاً:

– الجنوب ملفٌّ صعب. وينبغي أن أقول لكم إنّه موضوعٌ يتعلق بأمننا. فلنتفاهم جيداً. نحن

لسنا راغبين في الاحتفاظ بجزء ضئيل من الأرض اللبنانية. فنحن نريد أن نرى لبنان موحّداً كليّاً، مع حكومة مركزية قوية. فيتطلب ذلك منّا وجوب الانطلاق بعملية مفاوضات حول السلام.

ثم أكد شارون مشيراً بإصبعه إلى زاهي بستاني وجوزيف أبو خليل قائلاً:

- لقد فكّر بشير يوم الاثنين الماضي فيكما أنتما لتمثيله في لجنةٍ...

فقاطعه أبو خليل قائلاً:

- إنّ الشيخ أمين يعرف ذلك وهو على استعداد لمواصلة السير على هذا الدرب.

قال شارون:

- ناقشت هذا اليوم، قبل الحضور إلى هنا، وضع حدّاد مع بيغن. نحن لسنا راغبين في التدخل في شؤونكم، لكنّ رئيس الوزراء شديد الحساسية حيال هذا الموضوع. لقد طلب أن يقوم الرئيس الجديد بإلغاء التهم كافة الموجهة إليه.

فردّ البستاني:

- ذلك مستحيل قبل إصدار مرسوم عفو.

فقال شارون:

- سوف نناقش ذلك مع أمين.

ثم توجّه نحو إيلي حبيقة وسأله:

- هل تعتقد أن من الممكن مواصلة أعمال البحث في بيروت بعد دخول القوة متعددة الجنسيات؟

- ليس من مشكلة في هذا المجال.

دخل أمين الجميّل القاعة ببزة غامقة. ونهض الجميع. توجّه المرشح للرئاسة، محمرّ الخدين قليلاً، نحو الوفد الإسرائيلي وصافح مطوّلاً، وهو يبتسم، كلّ عضو من أعضائه. ثم جلس وسط وفد القوات اللبنانية. وقال للإسرائيليين:

- أنتم على الرحب والسّعة وأنا سعيد باستقبالكم في «بيت المستقبل» هذه. يؤسفني فقط أنّكم جئتم إلى هنا ليلاً لأننا لن نستطيع زيارتها. لا يسعنا أن نصف لكم حجم الكارثة التي أصابت عائلتي، والحزب والوطن، ذلك أنّ بشير كان أخي قبل كل شيء. لقد قام بعمل ضخم حيال البلاد والشعب اللبناني فيجب علينا استئناف ما ترك لنا ومحاولة الاستمرار في الاتجاه ذاته. لقد قرأت قراءةً سريعة بعض الوثائق ومَحاضِر الاجتماعات التي عقدها بشير معكم. فعلاقاتنا متواصلة معكم منذ عام 1958. ومن الممكن تطويرها لإنشاء سلام حقيقي في ما بيننا. ويمكن أن يكون لبنان المرحلة الأولى من سلام يعمّ المنطقة كلها. لكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الوضع في لبنان وجغرافيته وديموغرافيته والعديد من العوامل الأخرى. أنا لست مستعداً بعد لمفاوضات كاملة، فالملفات كافة

ليست مألوفة لدي. لست أدري أين صرتم على وجه الدقة ضمن هذا الميدان. تعلمون أنّ ما قد حصل والمعركة الانتخابية قد شغلاني تماماً. غداً نربح الانتخابات. لديّ القناعة العميقة بضرورة الوصول إلى نتائج حسنة وتفاهم جيد في ما بيننا وسوف نعمل لبلوغ ذلك. بودّي أيضاً أن أقول لكم إننا لن ننسى أبداً ما فعلتم من أجلنا طوال الحرب. ولا أدري إن كنا سنبقى أحياء من دونكم. ومجدداً أقول أهلاً وسهلاً لدي (كيمحي) ، الذي استقبلني هو وزوجته في تل أبيب أحسن استقبال.

فردّ إسحق شامير بلهجة رسمية قائلاً:

– سيدي الرئيس، نحن حزينون وسعداء في آن معاً. حزينون لأنّنا فقدنا بشير، وسعداء لأننا نرى أنّ حركتكم والشعب اللبناني وجدا زعيماً لمواصلة الدرب نحو الاستقلال. نحن مقتنعون بأنه سيتم غداً انتخابكم رئيساً للبنان. ونفهم بعد وقوع هذه المأساة أنّكم لستم ضمن مجريات المسائل كلها. لكن فلنناقش، على الأقل، أثناء هذا الاجتماع المبادئ العامة من غير الدخول في التفاصيل. إنّ وزير الدفاع خبيرٌ في هذا المجال، وأرى من الأفضل أن يواصل النقاش.

بدأ شارون بالقول:

– لن أعبّر عن ألمي وعن أسفي لأنّي لن أجد الكلمات الملائمة. لقد سبق لنا أن التقينا من قبل. . .

قال أمين مبتسماً:

– على ظهر مركبٍ قبل عدّة سنين.

– لقد عُقِدت، منذ كانون الثاني الماضي، اجتماعات عديدة بيننا وبين الشيخ بشير. وكان لنا شرف استقباله في بلادنا مراراً وتكراراً. أما الآن، فمن الصعب علينا توجيه الدعوة لرئيسٍ. . .

جاء نداء هاتفي ليقطع كلامه. رفع أمين السمّاعة في مكتب مجاور. فأخبره محدّثه أن كميل شمعون سحب ترشيحه رسمياً. وعاد كبير أبناء الجميّل ليحتلّ مكانه بابتسامة اعتذار. واستأنف الوزير الإسرائيلي الكلام.

– إنّ موقف التويني[1] في الأمم المتحدة يضايقنا. فمطالباته المتكررة بسحب قواتنا تسبّبت لنا بالكثير من المشكلات.

– كان التويني يتصرّف وهو تحت تأثير شفيق الوزّان وحكومته.

– آمل بدءاً من يوم غد أن يتصرّف تحت تأثيركم أنتم. نحن نعرف أنّكم أبناء عائلة شديدة القوة. ولديكم القوات اللبنانية التي هي القوة الأعظم في لبنان. . .

فقاطعه أمين قائلاً:

(1) غسان التويني سفير لبنان في الأمم المتحدة، وقد تدخل مرات عديدة ضد الاجتياح والوجود الإسرائيلي في لبنان.

– بل في الشرق الأوسط، باستثنائكم أنتم. لقد أنجزت القوات اللبنانية عملاً جباراً أثناء الحرب.

فقال شارون:

– نحن نقيم اعتباراً خاصاً لكل فردٍ من أفرادها. ونعرفهم شخصياً.

ثم أضاف شارون:

– هنالك شيءٌ ينبغي أن يكون واضحاً في ما بيننا. ينبغي لعلاقاتنا أن تكون مباشرة. لم تكن لدينا أية اتصالات مع سركيس والوزّان. لكن حين ستصبحون رئيساً سيكون لنا اتصال مباشر معكم. ويمكن لهذا الاتصال أن يكون سريّاً في البداية. . .

فقاطعه أمين قائلاً:

– ينبغي إقناع إذاعتكم بذلك.

فواصل وزير الدفاع دون الالتفات لمقاطعة محدثه:

– لن نناقش سحب قواتنا، أو السلام أو سحب الجيوش الأجنبية عن طريق طرف ثالث. إننا نقدّر الأميركيين والفرنسيين، لكن حين يتعلق الأمر بمناقشة انسحاب قواتنا من بيروت، فإنّ ذلك لا يعني سوى لبنان وإسرائيل. لسنا راغبين في التدخل في مسائل لبنان الداخلية، لكن حين يتعلق الأمر بالفلسطينيين، فهو يعنيكم ويعنينا. ينبغي مناقشة كل شيء بين الحكومة الإسرائيلية والحكومة اللبنانية. ولا يسع السلام أن يتحقق في يومين. ولسوف يناقش شامير من بعد الآلية الواجب اتّباعها لبلوغه. أنا راغب في الإلحاح على ضرورة الاتصال المباشر، وأنا عازمٌ على كل حال على قول ذلك للأميركيين. نحن نريد إقامة علاقة بين دولتين مستقلتين.

فلاحظ أمين الجميّل قائلاً:

– نحن لسنا بعد دولةً مستقلة.

– نحن عازمون على بلوغ ذلك وعلى وجود حكومة مركزية قوية. لم نعد راغبين في أن نكون رجال شرطة في لبنان. بقيت بعض الأشياء الواجب إنجازها في بيروت. تلزمنا 4 أسابيع أخرى من العمل لنستطيع التأكيد أننا دمّرنا منظّمة التحرير الفلسطينية ومستودعاتها وقواعدها. ولسوف تطرح من بعد مسألة انسحاب القوات الأجنبية كافة من لبنان: انسحاب 1000 إرهابي من الشمال، و4000 من البقاع، والسوريين وانسحابنا نحن أيضاً. وتبدأ بعدئذ المرحلة الثانية: معاهدة السلام والتسويات الأمنية من أجل تفادي كل عودة لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى هذه البلاد. نقترح عليكم تشكيل لجنة مشتركة من أجل مناقشة ملف الأمن. إنّ الجنوب، من وجهة نظرنا، قضيّة أمنية. وسوف يتعلق بطبيعة العلاقات بين بلدينا. فليس ضرورياً، في حال اتفاقية سلام، وجود وضع قانوني خاص بالجنوب. فإن لم يكن هنالك من اتفاقية سلام، وإذا تواصلت علاقاتنا من تحت الطاولة، توجّب

علينا إنشاء وضع قانوني خاص بالجنوب. إنّ الشبان الذين يحيطون بكم يعرفونني منذ شهور ويعرفون أننا كنا نتناقش بصراحة مع بشير.

فأيده الجميّل قائلاً:

– بودي أن يستمر ذلك معي.

فاستأنف شارون قائلاً:

– حين كان علينا أن نتناقش مع طرف ثالث كنا نتفق مسبقاً مع بشير حول ما ينبغي قوله. فما من شيء سيجري من وراء ظهركم. ولست أفهم لماذا كانت الحكومة اللبنانية على تلك الدرجة من العجلة في استدعاء القوة المتعددة الجنسيات.

فقال الجميّل ساخراً:

– لأننا نريد سواحاً في بيروت.

فردّ أرييل شارون بجفاء قائلاً:

– إن آلاف الإرهابيين سوف يختبئون وراء أولئك السواح. لكن أين تريدون لقواتنا أن تتمركز؟ ومن أية مواقع تريدون لها أن تنسحب؟ لقد عقدنا العزم على مغادرة المدينة بعد انتهاء عملية التنظيف. لكننا سنظل في لبنان ما دام فيه قوات أجنبية. وسوف نحتل طريق بيروت–دمشق لأننا عندما ننسحب منه يعود السوريون. فما رأيكم؟

فأكد أمين باقتضاب:

– أنا موافق.

فاستأنف شارون يقول وهو يشير إلى وفد القوات اللبنانية:

– هؤلاء الشبان عرضوا مشكلة حماية المسيحيين في الشمال وفي البقاع، إن لم يكن في مواجهتكم سوى حركات بسيطة، فأنتم قادرون على التصدّي لها. وبالمقابل إن كان هنالك من شيء أكثر خطورة، فسوف نتولى الأمر بطيراننا في بعض الأماكن أو بمدفعيتنا في أماكن أخرى. لكن لست أدري ما الذي سيمكن عمله بعد قرار الحكومة اللبنانية باستدعاء القوة متعددة الجنسيات. فهل ترغبون في انتشارها في بيروت أم في لبنان كله؟ هنالك شيء مؤكد، وهو أن عملنا سيكون أكثر صعوبة ضد الإرهابيين في بيروت بعد الانتشار. سوف نحاول العمل بأقصى سرعة. وكل يوم تأخير تكسبونه سيكون مفيداً جداً بالنسبة إلينا.

فسأله الجميّل:

– كم يوماً تحتاجون؟

– 4 أسابيع!

فقال أمين:

– من الممكن تأخيرهم عن طريق طلب الانتشار على مراحل.

فأعرب شارون عن رضاه:

– يمكن تأخيرهم عن طريق فرض مخطط انتشار على مراحل وفقاً لخطةٍ نتفق عليها مسبقاً كي نحرم الإرهابيين من كل حماية من القوة المتعددة الجنسيات. فما رأيكم؟

– علينا أن نحاول في واقع الأمر تأخير وصولهم.

– وماذا بشأن وجود قواتنا في بيروت. هل تريدون لها أن تبقى أم لا؟

فقال الجميّل:

– عليّ أن أستشير القوات اللبنانية لأعرف ماذا تفضّل. فأنا في حقيقة الأمر لست شديد الاطلاع على الموقف. لكنّ الحكومة اللبنانية ترغب قبل كل شيء أن تستأصل من العمق هذا الخرّاج الفلسطيني قبل انسحابكم. ولن يتمكن أحد من تحقيق ما تقومون به. ينبغي كذلك استشارة الأميركيين لأنّهم معنيون أيضاً. فقد اتصلوا بي منذ يومين قبل الموافقة على إرسال قواتهم.

فسأله مندي:

– هل تعتقد أنّك تستطيع أن تطلب إليهم بوصفك الرئيس المقبل تأجيل قدومهم.

وعقّب شامير قائلاً:

– لديك حجة ممتازة. بوسعك أن تطلب إليهم التريّث لأن على حكومتك الجديدة أن تدرس الملف. وأعتقد أنك تدرك أهمية ذلك بالنسبة إلينا كما بالنسبة إليكم. سوف نجتمع بعد انتخابكم ونرى كيفية التصرف وبأيّة وسيلة.

فأيده أمين قائلاً:

– سيكون ذلك أسهل بعد يومين، حين أستلم السلطة.

فسأله مناحيم ناڤوت:

– إنّما القوة المتعددة الجنسيات جيش أجنبي جديد فوق أرضكم. فلِمَ استقدامها إن كانت الوسائل متوافرة لكم.

وعقّب شامير وهو يعقد الحاجبين:

– عجيبٌ اتخاذ الوزراء هذا القرار عشيّة انتخابكم دون استشارتكم.

فروى الجميّل الحكاية:

– إليكم كيف جرى ذلك. لقد طلب صائب سلام العون من العربية السعودية. فطلبت الرياض تدخّل الأميركيين على الفور لأنّ المسلمين يتعرضون للقتل. عندئذ بعث واشنطن برسالة.

فاعترض إسحق شامير قائلاً:

– ليس الوضع على الخطورة التي يزعمون. ويسعكم تماماً أن تطلبوا إليهم الانتظار حتى نهاية الانتخابات.

فأكّد أمين قائلاً:

– أذكّركم بأني سأصبح رئيس لبنان كله لا رئيس المسيحيين فقط أو الكتائب أو القوات اللبنانية أيضاً. سيتوجب عليّ احترام القوانين والأنظمة. عليكم أن تفهموا ذلك. وسوف نعمل ضمن هذا الاعتبار. أما بشأن العلاقة المباشرة التي أشار إليها شارون فلدينا حتى الآن نمطان من الاتصالات في ما بيننا. اللجنة العسكرية بين الجيش الإسرائيلي والجيش اللبناني. وسوف أحاول إعطاءها مدى أوسع بضم ممثل للشؤون الخارجية، إليها كي تتاح لها مناقشة مواضيع أكثر أهمية. وتلك ستكون المرحلة الأولى من الحوار الرسمي بين الحكومة والإسرائيليين في لبنان. أما القناة الثانية فتمرّ عبر علاقاتكم مع القوات اللبنانية التي سنحافظ عليها والتي ستظل سراً. ستكون تلك هي الصلة بينكم وبيني وسوف تشكل أيضاً إطار الإعداد لوثائق رسمية. أما في وقت لاحق فسوف تنصهر هاتان القناتان الواحدة في الأخرى لإعطاء لجنة سياسية تناقش العلاقات بين بلدينا.

فعقب شارون قائلاً:

– ها قد انقضت سنون، ونحن نتناقش، أنا وشامير، مع رؤساء وزراء مسلمين في مصر. وسبق لنا أن تناقشنا مع مسلمين.

فردّ الجميّل قائلاً:

– لكنّهم واصلوا مهاجمتكم حتى كامب ديڤيد. زِدْ أنّ الوضع لدينا مختلف.

فأبدى شارون تعجبه قائلاً:

– الوضع هنا أسهل!

– كلا! فهم ليس لديهم دستور 1943، وضرورات تعايش أخرى. فالرئيس هنالك هو الذي يقرر والكل يتبعه.

– أنت هنا الرئيس وعليك أنت أن تقرر.

وأضاف شارون مبتسماً:

– وليست حالك كحالي، فأنا مجرّد عضو في وزارة.

فردّ أمين بالنغمة ذاتها:

– أعطني منصبك وخذ منصبي أنا.

وعاد وزير الدفاع يقول مؤكداً:

– أرغب أيضاً، منذ البداية، في أن أكون واضحاً كل الوضوح. فنحن نحب القوات اللبنانية.

– أعرف ذلك. فمن أول اجتماع لي مع رفّول قال لي إنّه هو زعيم القوات اللبنانية.

– لن أقول أكثر فهم حضور هنا. ينبغي أن تدركوا أنّ مفاوضات سياسية لا يمكن لها أن تتم تحت الطاولة أو تحت الأرض!

– قلت بوضوح إنّ اللجنة العسكرية سوف تضمّ ممثلاً عن وزارة الخارجية كي يتاح له مناقشة الأمر.

فألحّ إسحق شامير قائلاً:

– إنّ وضعنا وموقفنا لا يتيحان لنا مواصلة علاقاتنا سراً. وهنالك مراحل ينبغي احترامها. إنّ بلدينا اليوم في حالة حرب. فليس طبيعياً قيام تعاون عسكري من جهة، ووجود حالة حرب من جهة أخرى.

فشدد أمين قائلاً:

– أنا متفق معك حول هذه النقطة. فلنضع في البداية حداً لحالة الحرب.

– تنتهي حالة الحرب بعمل دبلوماسي. هنالك أيضاً ملفات أخرى ينبغي مناقشتها مثل ملف الاقتصاد والتجارة.

فألمح الجميّل إلى التدفّق الضخم للبضائع الإسرائيلية على لبنان منذ بداية عملية «سلام الجليل»، قائلاً:

– لا تعمل التجارة الآن إلّا في اتجاه واحد.

فرد وزير الخارجية مؤكداً:

– ينبغي البدء بتطبيع علاقاتنا. ويلزم من الآن وحتى شهرين وجود ممثل إسرائيلي في لبنان وبالعكس، من أجل كل ما يتعلق بالتجارة والسياحة. ثم نمضي من بعد في اتجاه اتفاقية سلام. ولا أظنّ أن لبنان لن يكون مهيّأً لذلك. لدينا حتى الآن اتفاقية سلام مع بلد مسلم، هو مصر. فيسعنا البدء من هنالك. فلنشكّل لجنة سياسية بعد انتخابك تكون مكلّفة بتطبيع الوضع. فيسعكم تسمية ممثليكم، ونسمي نحن ممثلينا، وليباشروا مناقشة السلام.

فعقب ديفيد كيمحي قائلاً:

– هنالك مبادلات تجارية حالياً لأنّ الجيش الإسرائيلي في لبنان. والمسلمون يدركون ذلك لأنّ الوقائع تفرضه. فإذا ما واصلنا سراً، صار صعباً، بعد انسحابنا، فتح مفاوضات رسمية. أما اليوم فالكل يقبل بأن نتناقش، ما دمنا هنا.

فسلّم أمين الجميّل بذلك قائلاً:

– ذلك صحيح. إذْ أنّه كان مستحيلاً، قبل قدومكم، إجراء مناقشات رسمية. فأؤكّد لكم أنّنا سنوسّع اللجنة العسكرية لنرفع مستوى تمثيلها حتى الشؤون الخارجية. ما دام الهدف وضع حدٍّ لحالة الحرب.

فالحّ شامير قائلاً:

– تقترحون اللجنة العسكرية، لكنّ حقل عملها محدود.

– إنّها بداية! فلا ينبغي طلب المستحيل. ولا بدّ من البدء في مكان ما! لست راغباً في الذهاب إلى أبعد مما فعلت. وينبغي عليّ التفكير في القضية على الأقل. فإذا ما توصّلت إلى العثور على رئيس وزراء مستعد لتوقيع اتفاقية سلام معكم، فسوف أختاره على الفور. من واجبنا احترام أنظمتنا، وإلاّ فلنقمْ بانقلاب!

فقال إسحق شامير:

– لقد تناقشنا وتفاهمنا. قلتم إنكم غير مستعدين. ونحن فهمنا، لكن علينا أن نناقش شيئاً ما! قال الجميّل:

– الاتصال الشخصي كبير الأهميّة بالنسبة إليّ. فمواقفي في السنين الأخيرة لم تكن مفهومة على الدوام، لا سيّما علاقاتي بالفلسطينيين والسوريين. لقد كانت مفيدة للبنان وسوف تكون كذلك غداً بالنسبة إليكم، ذلك أنني أتمتع بمصداقية راسخة في العالم العربي. فلنحافظ عليها كي نستطيع اللجوء إليها عند الاقتضاء. أنتم تتمتعون بأعصاب قوية وبالصبر فتتصرّفون ببرود. لديكم جسد دافئ ورأس بارد.

فقال شامير بملاطفة:

– أشكركم على صراحتكم. فهذه بداية طيبة. سوف ندرس ما قلتم لنا ونستأنف مناقشاتنا بعد انتخابكم.

– أرغب قبل الانتهاء، بالعودة إلى علاقاتنا الممتازة مع الأميركيين. نحن حريصون على الحفاظ عليها. أعلم أنّه لا ينبغي لنا التعوّد على استدعاء «المارينز»، لكنّنا نريد العون السياسي من واشنطن. إنّهم يعرفون الملفّ اللبناني معرفة تامة. أقترح أن تدعوا لي بعد الانتخابات بضعة أيام للتفكير. وسأبعث إليكم من بعد برسالة مع زاهي (بستاني) وجوزيف (أبو خليل) .وقد نتمكّن مستقبلاً، من الاجتماع علناً للاحتفال بذلك كلّه.

ونهض أمين فدعا محاوريه لتناول وجبة خفيفة ساخنة كانت بانتظارهم في الطرف الآخر من القاعة. تذوّقوا الشاورمة وهم يتحدّثون أحاديث متقطّعة. واصطحب أمين ضيوفه نحو مجسّم ضخم تحت الزجاج، يمثّل مشروعاً محبباً جداً إلى نفسه: تنظيم شاطئ المتن عن طريق ردم للبحر.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وقبل إقلاع الوفد الإسرائيلي من الزوق، أعلن فرانسوا ميتران من على شاشات التلفزيون قائلاً: نزولاً عند طلبِ من الحكومة اللبنانية، واستجابة لنداءات جاءت من كل حدب وصوب، لا سيّما من العالم العربي، قرّرتُ أن تشارك فرنسا في تشكيل قوة جديدة متعددة الجنسيات تكون مهمتها المساهمة في إعادة الأمن واحترام حقوق الناس.

وأقلعت في الوقت ذاته من «تولوز»، طائرات تنقل كتيبة من فيلق مظليّي البحرية في «كَرْكاسون»، متوجهة إلى «لارنكا» في قبرص، حيث تنتظرها سفينة إنزال الدبابات أرجنس، والطراد جورج ليغ، وسفينة الخفر ديستريه، لتقودهم إلى بيروت. كما أعلنت روما من ناحيتها، أنها بخلاف ما أُعلِن عنه في الشهر الماضي، لن يكون الجنود Bersaglieri المتوجّهين إلى لبنان من وحدة الأغرار، بل من الجنود العاملين. وألغى الأسطول الأميركي السادس، الراسي في «نابولي» الإجازات كافة، وأستعدّت حاملة الطائرات إندبندانس Independence للاتجاه نحو الشرق الأوسط.

أصبحت الولايات المتحدة واثقة الآن من أنّ أمين الجميّل هو المرشّح الملائم. فهي مقتنعة بأنّها، بطريقة أو بأخرى، تطوّق أباه والقوات اللبنانية، فيسعها إذن أن تطوّق أمين[1]. وتتويجاً لذلك، بدا العالم العربي مؤيّداً لها. لكنّ اللقاء بين شارون وشامير وأمين الجميّل في بيت المستقبل، كان له الدور الحاسم في القرار الأميركي. لقد حظي شقيق بشير بدعم لوبي اليهود في واشنطن، الذين استخدموا بسرعة قصوى اتصالاتهم كافة. أما الشغف باسمه في ما وراء الأطلسي، فأقنع أمين بأنّ لدى الولايات المتحدة مصلحة حيوية في لبنان.

كان الطقس حاراً جداً في الثامنة من صباح 21 أيلول/ سبتمبر 1982. إنّها 25 في الظل. فخط التماس الذي يشطر بيروت شطرين، كان جرحاً مفتوحاً أكثر من أي وقت مضى. كان فارغاً. ونقاط العبور بين قطاع من المدينة والآخر خالية منذ ستة أيام. أما السيارات النادرة المخوّلة بعبورها فتنقل عسكريين أو نواباً أو صحفيين. وفي الساعة الحادية عشرة، جاء أمين الجميّل مشدوداً داخل بزّة غامقة ضيّقة، وشعره الأسود المجعّد كعادته يحيط بوجهٍ زاه، يصحبه صائب سلام، وهما يبتسمان ابتسامة صديقين قديمين، ليكونا آخر الداخلين إلى مبنى الكلية العسكرية نصف الدائري، في الفيّاضية. فحيّاهما النواب الـ77 الحضور بعاصفة من التصفيق. واتخذ المرشح الوحيد مكاناً له بين والده وكميل شمعون، فكان أشبه بفتى مرتبك محصور بين جدّيه الاثنين، يوم توزيع الجوائز المدرسية[2]. وبعد الإصغاء للنشيد الوطني والوقوف دقيقة صمت حداداً على بشير، دوّن كل برلماني كلمة على ورقة صغيرة ثم طواها ووضعها في مظروف. وتوالى النواب بعد المناداة على كلّ واحد باسمه، لإسقاط اختيارهم في صندوق زجاجي أشبه بحوض لأسماك الزينة. كان أمين ينظر إلى السقف كمن تسبّبت له تلك الشكليات بالضيق. وفي الحادية عشرة وخمسين دقيقة بدأ فرز الأصوات. وبعد خمس دقائق كان فارز الأصوات قد قرأ اسم أمين الجميّل 77 مرة. فأعلن كامل الأسعد عن فوزه باعتباره الرئيس الرابع عشر للجمهورية اللبنانية.

---

(1) روبير باسيل لآلان مينارغ. ايار 1995.

(2) ذكرى الاستقلال 22 أيلول/ سبتمبر 1982.

نُقِلت النتائج عبر إذاعات البلد وأقنيته التلفزيونية كافة فقوبلت بلامبالاة في بيروت الغربية. أما الشرقية التي استمرت شوارعها مزدانة بصور بشير الملوّنة، فكانت راضية فقط. راضية دون زيادة. وارتقى أمين المنصة ليقول إنّه سيبدأ العمل على الفور، وإنه ليس راغباً في تلقي التهاني كما جرت به العادة.

في ذلك اليوم، كان فوق الأرض اللبنانية، أحد عشر جيشاً أجنبياً نظامياً - بما فيها الجيوش المشاركة في قوات الطوارئ الدولية (FINUL- UNIFIL) - من غير أن نحتسب الميليشيات الخاصة أو العامة، والعصاة أو المقاتلين من المشارب كافة، الذين كانوا «يحتلون» أجزاء من الأراضي اللبنانية.

3

الإرغام الأميركي

في 24 أيلول/ سبتمبر 1982، وهو اليوم التالي لحفل التنصيب، كان لفيليب حبيب وموريس درابر لقاء مطوّل مع أمين الجميّل. ولدى خروجهما من القصر الرئاسي، توجّها في حوّامة إلى القدس للاجتماع بالزعماء الإسرائيليين. كان حبيب يتهلل فرحاً. وقد أسرَّ بابتهاجه المعهود إلى شارون قائلاً:

– أنا متفائل مزمن. والأمر الهام الآن، هو تدعيم السلطة المركزية في لبنان. أما المرحلة التالية فسوف تتمثل في تمتين الحكومة والسماح لها باستعادة سيادتها الكاملة. ولسوف ترى أنّ أمين سيفاجئكم!

وفي اليوم التالي 25 أيلول/ سبتمبر دعاه وزير الدفاع الإسرائيلي إلى العشاء عنده في مزرعته في «النقب» للمناقشة بتوسّع أكبر مع نهاية عطلة السبت.

أثناء الطعام، قصّ المبعوث الخاص للرئيس الأميركي على الوزير محادثته مع أمين الجميّل. لقد أصرّ الرئيس اللبناني على العلاقات الطيّبة التي يريد إقامتها مع الدولة العبريّة. إلّا أنّه أضاف مع ذلك أنّه لن يستطيع من بعد القبول بلقاءات غير رسمية مع الإسرائيليين كما كان يفعل أخوه. ولم يتزحزح شارون، لقد فهم أنّ الأميركيين تدخّلوا لتغيير قواعد اللعبة في لبنان. عند نهاية الطعام طلب الوزير إلى ضيوفه مع محافظته على مظهره الهادئ أن ينقلوا رسالةً للرئيس اللبناني: ينبغي للمفاوضات أن تبدأ للوصول إلى اتفاقيات ضرورية جداً تتعلق بالأمن والتطبيع، وينبغي أن تتضمن تسويات حول حرية تنقل الأشخاص والبضائع.

وخلص شارون إلى القول:

– كلما أسرعنا في توقيع هذا النص كانت مباشرة انسحابنا من لبنان أسرع.

ما إن انصرف المبعوثون الأميركيون حتى طلب من الموساد ترتيب لقاء سريّ مع الجميّل، على نحو ما اتفق عليه أثناء الاجتماع في «بيت المستقبل». وكان يخشى إضافة إلى ذلك أن يكون

الحبل انقطع به عن طريق الولايات المتحدة، وأن يُحرم في هذه الحال من النتائج السياسية للحرب. لكن أمين أصمّ أذنيه حتى إنه لم يرد على دعوة الموساد. فأمر شارون بإحضار مسؤولي القوات اللبنانية إلى تل أبيب.

حطّت المروحية التي كانت تحمل وفد القوات اللبنانية إلى الشمال من تل أبيب بعد عصر يوم 4 تشرين الأول/ أكتوبر. وبعد ذلك ببضع دقائق، دخل اللبنانيون المبنى المركزي لوزارة الدفاع. وبعد أن صعدوا عدّة أدراج مزيّنة بصور لمطاردات إسرائيلية، سلكوا دهليزاً اصطفت على جدرانه صور جميع وزراء الدفاع على التوالي. وعبروا بعدئذ من باب مبطن بالجلد الطبيعي ليدخلوا إلى المكتب الفسيح حيث يعمل أرييل شارون.

كان أعضاء الموساد الذين يتابعون الملف اللبناني ومديرهم ناحوم أدموني (بيتر) قد حضروا قبلهم. طلب شارون من زواره تفسيراً لسلوك الرئيس الجديد. فبعد انتخابه بأسبوعين لمّا تتشكل الوزارة وخلافاً لما وعد به أمين الجميّل، لم يحصل أي تقدم ولا أيّة بادرة باتجاه الدولة العبريّة.

فدافع جوزيف أبو خليل قائلاً:

– يجب أن تأخذوا بعين الاعتبار أسلوبه وطريقته في العمل. لقد انتخب أمين انتخاباً تقليدياً، لا بخرق الأبواب كما فعل بشير. وعلاقاته بكم ليست هي العلاقات ذاتها التي كنتم تقيمونها مع أخيه. فالصداقة والصلة الشخصية غير قائمتين، وهنالك نفاد صبركم في تسوية بعض الملفّات قبل انسحاب قواتكم.

فردّ شارون بسخرية لاذعة قائلاً:

– كان يتوقع دون ريب أن نعيد إغلاقها بعد انسحابنا.

فردّ اللبناني:

– أنا لا أقوم إلّا بعرض الوقائع.

– لديّ سؤال دقيق أطرحه عليك. فالآن، وأنت تكلمني، هل تقوم بذلك بوصفك ممثلاً للقوات اللبنانية أم للشيخ أمين؟

فراوغ أبو خليل كي لا يرد على سؤال دقيق جداً:

– جئت بمبادرتي الخاصة وقد ألح عليّ الشيخ بيار كي أحضر لرؤيتكم. عليكم أن تدركوا أنّ كل شيء صار أصعب بواقع شخصية أمين نفسها. فلمّا يتوافر لنا الوقت كي نتناقش معه حقّاً. فقد انتُخب بسرعة كبيرة وبدأ بمعالجة مشكلات مثل مسألة تشكيل الحكومة. فالمرة الوحيدة التي صادفته فيها منذ انتخابه، كانت قبل يومين، ولمدة ساعة ونصف. والشيء الوحيد الذي أمكنني الحصول عليه هو الجملة التالية: من غير الممكن أن نتفادى اتفاقية سلام مع إسرائيل، لكن امنحوني الوقت لإعداد المسلمين لذلك. لقد هدّأ ذلك من مخاوفي لكنني أدرك أن هذا غير كافٍ. هاكم

تشكيل الحكومة على سبيل المثال: لم تجر استشارة القوات اللبنانية. لقد أعلمناهم بواسطة الشيخ بيار أننا نرغب في رؤية أحمد الحاج[1] رئيساً للوزراء. وكان ينبغي أن نلتقي به يوم أمس للتحدث في ذلك. لكن الاجتماع جرى تأجيله إلى غد أو بعد غد. وسوف نستغل ذلك لنطرح تشكيل الحكومة على بساط البحث ونرسم الخطوط الكبرى لما سنقوم به مع إسرائيل من الآن وحتى نهاية العام. نحن نرغب في هذا الشأن بإعداد خطة عمل معكم وسوف نعرضها على أمين بوصفها مخططاً لما بعد الحرب. وهنالك أيضاً اللجنة الثنائية الواجب تشكيلها.

قال شارون ملاحظاً:

- الحق إنّ اغتيال بشير كان نهاية حلم لكنني أرغب في العودة إلى مقترحات الشيخ أمين حين التقينا به. ينبغي في الواقع إنشاء هذه اللجنة العسكرية السياسية بين بلدينا. لكن لم يتم أي شيء. نحن نأخذ بعين الاعتبار وبكل تأكيد المشكلات التي تعيق عمله، لكن من الضرورة بمكان أن يبدأ الحوار. لقد رغبت في لقائه شخصياً لمناقشة المسائل المستعجلة المطروحة. وحتى الآن لم أتلقَّ جواباً. نحن نرغب بالنسبة إلى المقترحات التي قُدمت في «بيت المستقبل» أن تتحقق، لا سيّما إنّشاء القناتين للمناقشات. الأولى رسمية والثانية للعمل مع أمين بطريقة حميمية أكثر. لا يمكن الاستغناء عن قيام اتصال مباشر بينه وبيننا دون المرور عن طريق الأميركيين. وتوجه شارون بحديثه إلى أبو خليل قائلاً: بعد الدفن، سألتني لماذا تلحّون كل هذا الإلحاح؟ أنا سأعطيك الجواب: إن الأحداث مستمرة في التطور. ففي هذا الوقت يقوم فيليب حبيب بجولات مكوكية بين القاهرة وعمّان ودمشق وربما العربية السعودية. ينبغي أن نناقش بعض النقاط في ما بيننا قبل أن تُفرِط الأشياء في التقدم فنصير متأخرين. نريد أن نعرف ما وضع القوات اللبنانية على وجه الدقّة؟ ما مستقبلها؟ وهل سيجري حلّها؟ هنالك، من ناحية أخرى، مسائل ملحّة للمعالجة. لدينا في بعبدا مكتب شبه رسمي تابع لوزارة الخارجية[2]. نحن نرى أنّ هذه العلاقات الدبلوماسية ينبغي أن تستمر. نريد أن نعرف ما رأي الشيخ أمين بذلك. وأنا راغب في إيصال رسالة إليه عن طريقك أنت.

أخذ أبو خليل ورقة وكتب تحت الإملاء.

عليكم أن تدركوا أنّ الضغوط الداخلية والدولية تتلاشى بالنسبة إلينا لمجرّد أن يصبح أمن إسرائيل مهدداً. ولدينا توافق وطني حول هذه النقطة. لقد جرى لدينا نقاش داخلي حقيقي لمعرفة إن كان علينا الذهاب حتى بيروت أو لا، وإن كان لهدفنا أن يكون طرد الإرهابيين من عاصمتكم وإلى

---

(1) جنرال سنّي متقاعد، اشتهر بنزاهته ورصانته.

(2) كان المكتب بإدارة إسحق ليور من شهر أيلول/ سبتمبر 1982. وكان مسؤولاً عن لبنان في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية وسوف يصبح سفيراً لإسرائيل في مقر الأمم المتحدة في جنيف. وكان الإسرائيليون يعتبرون هذا المكتب سفارة غير رسمية من نمط المكتب نفسه القائم حالياً في الدوحة بقطر.

أين ينبغي علينا الذهاب في هذه الحرب. وأنتم تدركون أيضاً تمام الإدراك المشكلات كافة التي تطرحها علينا صحافتنا. أما بشأن المنطقة الحدودية بين 40 و50 كم، فإن موقف إسرائيل مختلف كلياً. فما من شيء يمكن أن يحصل دون موافقتنا. وحين يتعلق الأمر بأمننا فالضغوط الأميركية لا يبقى لها أي أثر علينا.

وقال شارون مشدداً على كل كلمة من كلماته، ينبغي لذلك أن يكون واضحاً .**نحن نعرف أنّ الرئيس أمين يجابه معضلات عديدة. فهنالك المسلمون السنّة، وأذكر أن الشيخ بشير حين رأيته لآخر مرة قد قال لي وهو خارج معي: «لم أقدم أي وعدٍ للمسلمين وقلت لصائب سلام: «لست مديناً لكم بشيء لأنكم لم تدعموني»** .هنالك أيضاً السوريون والعالم العربي والسعوديون وكلّ الذين تعتمدون عليهم لمساعدتكم. إنّ على الرئيس أن يفهم، مع كل الاحترام الواجب عليّ تجاهه، أنّ لديه مشكلة أخرى مع جار صديق: مع إسرائيل، إنّها مشكلة أمننا. وحين نتحدث عن ذلك فإنما نقصد به: التطبيع ومعاهدة سلام ومشكلات الجنوب. ما من أحدٍ يستطيع أن يفرض علينا شيئاً حين يتعلق الأمر بأمننا، خصوصاً حين نكون مقتنعين بأن أمننا متعلق بأمن لبنان. ولذلك نريد أن نبدأ بتطبيق القرارات التي سبق اتخاذها لنتمكن من حل هذه المسائل حلاً وديّاً. يؤسفني أنّ عليّ قول ذلك بكل هذا الوضوح لكن هذا هو الواقع.

رد أبو خليل:

– ينبغي حقاً أن تدركوا أن القوات اللبنانية فقدت زعيمها كما الشعب المسيحي أيضاً. فمن الصعب العثور على بديل. نحن اخترنا الشيخ أمين، لكن لسوء الحظ لمّا تحصلْ اتصالات حقيقية في ما بيننا. أنتم تريدون منا أن نكون وسطاءكم إليه. أما نحن فنبحث عن وسيط بيننا وبينه. لقد أخذنا على عاتقنا اتصالاتكم به ونريد الارتقاء بها إلى سويّة الاتصالات التي كانت قائمة مع بشير. لكنّ ذلك صعب جداً عليكم في الوقت الراهن، لأننا، نحن رفاق بشير، كنّا على علاقات سيئة مع أمين. لقد وقف يعارضنا طوال سنين. وليس ذلك عن قناعة، وإنّما لأنّه كان يرغب في لعبِ ورقةٍ أخرى. كان يفعل عكس ما يباشر أخوه فعلَه. من أجل ذلك تحديداً راهن على العرب والحوارِ مع المسلمين. ويَعتبِر أمين أننا قد تخلينا عنه وتبعنا بشير. فهو حاقد علينا. فيلزمنا تحطيم حواجز عديدة تفرّق بيننا منذ ذلك الحين. ولا بدّ لنا، في سبيل إسقاطها، من أن نظلّ على اتصال دائم معه. ولا يسعنا أن نصير أصدقاء له في 24 ساعة. إنّه يبذل جهوداً من ناحيته. لقد تعهّد أن يواصل الدرب الذي فتحه أخوه. ولا ريب في أنّه سيتخذ بعضاً منّا مساعدين. وقد تكون تلك حال زاهي (بستاني) وجورج (فريحة). نحن وإياه على صعيد واحد حول أشياء كثيرة لكن هنالك فوارق ضئيلة يلزمنا تسويتها يوماً بيوم. وليس لدينا من خيارات أخرى. إنّنا مرغمون على العمل مع أمين. ونحن بحاجة للوقت كي ننشئ تعايشاً حقيقياً، ومن أجل أن نكون قادرين على ملء الدور الذي تريدون منا أداءه. فينبغي أن تدركوا ذلك.

فتدخّل أرييل شارون قائلاً بلهجة تصالح:

– أنا صديق لكم.

فاستأنف أبو خليل القول:

– نحن نعمل حالياً مع الشيخ بيار حول كل ما يتعلق بإسرائيل. فهو بشأن هذه النقطة أقرب إلينا من ابنه. لقد كان على علم بكل ما بين بشير وبينكم.

في المساء علم زعماء الموساد الرئيسون واللبنانيون الثلاثة، أثناء عشاء مع وزير الدفاع، أنّ شفيق الوزّان عاد فاستلم مهماته، على نحو ما كان يرغب صائب سلام. أمّا اقتراح القوات اللبنانية المتعلق بأحمد الحاج فقد جرى استبعاده. لقد اكتشف في ذلك محللو الموساد برهاناً ملموساً على تحييد القوات اللبنانية، أو على فقدان تأثيرها على الرئاسة، والنتيجة هي ذاتها. وتساءلوا إن كانت «القوات» لا تزال قادرةً على ممارسة ضغط على الرئيس الجديد أو صار هذا الأخير سياسياً مغلول اليدين من قبل السنّة. إنّ إعادة الوزّان يمكن اعتبارها دليل ضعفِ القوات اللبنانية كما رئيسِ الدولة.

في اليوم التالي قال جوزيف أبو خليل لمناحيم ناڤوت (مندي)، في بيت الضيافة في المدراشا[1]، موضحاً:

– إنّ ما يعوزنا هو الزعيم. نحن نسعى لأن نتجمّع حول الشيخ بيار. فليكن هو زعيمنا. فيسعنا نحن، وأقصد بذلك مجموعة بشير، أن نحاول حينئذ تولّي الإشراف على حزب الكتائب.

فاستفسر ناڤوت مرتاباً:

– هل يسعكم حقاً تطوير تلك الآلة السياسية للتوصّل إلى مراقبة القرارات السياسية والتأثير على أمين؟

– الشيخ بيار يثق بنا، خصوصاً في شأن العلاقات مع إسرائيل. فنحن بالنسبة إليه نبثّ رؤى بشير في الحزب الذي سيمارس ضغوطاً على أمين. فقد بدأنا بقدومنا إلى هنا والشيخ بيار يغطينا.

لم يستطع جوزيف أبو خليل إقناع محاوريه. كان الإسرائيليون يشعرون بالارتباك، فالرئيس اللبناني أفلِت من بين أيديهم. وكانت إعادة انتشار القوة متعددة الجنسيات في بيروت تمثل كارثة حقيقية بالنسبة إلى تل أبيب. فهي، بدايةً، تسمح للأميركيين بفرض أنفسهم مادياً في لبنان. وهي من بعد تضعف عملياً موقفهم المسيطر، فتقطع بالتالي خطوط العمل التي ينبغي أن تؤدّي إلى اتفاقية سلام. وقد أعلن أمين الجميّل في بيروت أنه سيقوم بزيارة رسميّة للولايات المتحدة بدءاً من 17 تشرين الأول/ أكتوبر. وعلى الفور اكفهرّت وجوه الإسرائيليين. ينبغي إجراء مناقشة معه قبل سفره. لقد ألحّ مناحيم ناڤوت على القوات اللبنانية كي يستطيع أرييل شارون أن يراه قبل سفره إلى واشنطن.

---

(1) أكاديمية باللغة العبريّة، هي مقر الموساد في الضاحية الشمالية لتل أبيب على الطريق الرئيس المؤدية إلى حيفا مقابل «Country Club». وتعتبر رسمياً المقر الصيفي لرئيس الوزراء الإسرائيلي.

فسأله أبو خليل:

- من سيضمن سرّيّة هذا الاجتماع؟
- نحن، الموساد.
- لن تستطيعوا ضمان أي شيء ضماناً تاماً من بعد إفشاء سرّ اجتماع «نهاريّا».
- نحن نضمن ذلك! عليكم أن تأخذوا بعين الاعتبار اللقاءات الأخرى كافة التي ظلت سرّيّة.
- أنت تعظ مؤمناً. إنّما هو الذي ينبغي إقناعه.

كانت تل أبيب تنظر بارتياب إلى القفزات المفاجئة التي يقوم بها فيليب حبيب وموريس درابر من عاصمة عربية إلى أخرى. وكان الرجلان يوضحان هنالك أنّ الرئيس الأميركي عازم على التصرّف بحزم وبسرعة للدفع بإسرائيل وسورية والحكومات الأخرى المعنية للقبول بعملية انسحاب القوات الأجنبية من لبنان وإطلاقها قبل وقوع أحداث تتسبب باستئناف العنف. واستفاد الدبلوماسيان الأميركيان أيضاً من جولاتهما لسبر أغوار محاوريهم حول إمكانية تطبيق مخطط السلام الذي اقترحه رونالد ريغان. كانت الولايات المتحدة تعتبر أن استراتيجية مناحيم بيغن تتمثل في إعادة إحياء الأزمة اللبنانية وتعقيدها قدر الإمكان لتجميد كل مناقشة حول الضفة الغربية وغزة.

اشتدت حدة التوتر بين تل أبيب وواشنطن. فندد وزير الدفاع الإسرائيلي بالسياسة الأميركية: ليس لنا أن نخشى أن يكون الحق إلى جانبنا في وجه الولايات المتحدة ونحن نواصل سياسة قوة في لبنان. واتهم: الإدارة الأميركية بوضع العراقيل في وجه عقد اتفاقية سلام بين القدس وبيروت. وندد بعدئذ بـ: مقترحات السلام الأميركية الهادفة إلى إقامة دولة فلسطينية ثانية في الضفة الغربية مذكراً في المناسبة ذاتها بأطروحته الرامية إلى جعل الأردن دولة فلسطينية ما دامت تقطنه، حسب قوله، أكثرية من أفراد هذه الجماعة.

في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1982، قام لبنان بخطوة أخرى باتجاه واشنطن، فقد أعلن شفيق الوزّان قُبَيل منتصف الليل، وهو على الدرج الخارجي لقصر بعبدا، إثرَ مقابلة مع أمين الجميّل، عن تشكيل حكومة على الطريقة الأميركية. كان قوامها عشرة وزراء غير برلمانيين[1] من الذين لم يعملوا في السياسة حتى ذلك الحين البتة. وأوكلت حقيبة الخارجية، لأوّل مرة في تاريخ لبنان، لرجل لا يتكلم الفرنسية، هو إيلي سالم.

إيلي سالم من الروم الأورثوذوكس، وهو ابن شقيقة شارل مالك، وكان زميلاً جامعياً ل موريس درابر. لقد عاش طويلاً في الولايات المتحدة ودخل الأوساط السياسية الأميركية. ناهيك بأنّه، يوم تسميته، كان في واشنطن لمناقشة تفاصيل رحلة الرئيس إلى الولايات المتحدة.

---

(1) رجل صناعي واحد، وأربعة محامين، ومهندسان، ومعماري، واستاذ في العلوم السياسية، وطبيب.

جرى إدخال تجديد آخر من وحي الإدارة الأميركية: مجلس للأمن القومي. فأوكلت الرئاسة إلى وديع حدّاد، وهو بروتستاني من الشوف، هاجر إلى الولايات المتحدة مع بداية الحرب. وتابع هنالك دراسات معمّقة وعمل في البنك الدولي.

كان ذلك المجلس مؤلفاً حصراً من لبنانيين-أميركيين، تقيمُ أكثريّتهم في ما وراء الأطلسي. صار واضحاً الآن عزمُ أمين الجميّل على الاعتماد على الولايات المتحدة للخروج من الورطة. وقد قال أمين فيما بعد لقد اخترت (في شخص الولايات المتحدة) حليفاً يعتمد عليه، فليس له من مطامع في أرض بلادنا، وليكون درع حماية لنا في وجه بعض المطامع الإسرائيلية والسورية.[1] كانت المهمة الأولى التي أوكلت للحكومة الجديدة الحصولَ على انسحاب القوات الأجنبية من لبنان في أسرع وقت ممكن.

جاءت ردّة الفعل الإسرائيلية فورية. فقد جرى تكليف الموساد والشؤون الخارجية، من قِبَل مناحيم بيغن، عبر «سفارتهم» في بعبدا، بتطوير سياسة الأمر الواقع. كان المطلوب أساساً وضع عبّارات بين البلدين، ثم القيام بمضاعفتها، من أجل قيام حالة من الوقائع غير قابلة للقلب بسهولة. وجرى السعي الحثيث وراء الصلات الاقتصادية المؤدية إلى احتياجات أو المتحوّلة إلى تبعيات جزئية أو كلّية. وهكذا تمكنت السيارات اللبنانية، في غضون أيام قلائل، من الدخول إلى إسرائيل، وتضاعفت المبادلات التجارية والاقتصادية والسياحية والمصرفية والمالية بوتيرة مسعورة، وفُتِحت خطوط النقل البحري بين موانئ جنوب لبنان وشمال إسرائيل، وجرى تسهيل الاتصالات الجامعية والعلمية والثقافية. وبكلمة موجزة ومختصرة، جرى «تطبيع الوضع» سريعاً جداً.

وكان لذلك «التطبيع» في نظر تل أبيب هدفان اثنان. فكل «أمر واقع»، يشكّل من جهة، مغنماً أكيداً في مفاوضات محتملة مقبلة. ويبرهن من جهة أخرى، للرأي العام الإسرائيلي، على أنّ الحرب، على الرغم من صبرا وشاتيلا والتأخّر في عملية السلام، لم تكن عديمة النفع كما تؤكّد المعارضة العمالية.

قد عجّلت هذه الأخيرة في سبيل استبعاد حكومة بيغن وأخذ مكانها. فسعت إلى قلب الأكثرية البرلمانية عن طريق اجتذاب الأحزاب الدينية الصغيرة إليها، وهي التي تقلقلت بسبب قضية صبرا وشاتيلا. فركن شمعون بيريز ورابين، وهما اللذان يتجابهان منذ أعوام على زعامة الحزب، خلافاتهما جانباً. بل قاما بتوزّع الأدوار في حال تحقق لهما النصر: سيغدو بيريز رئيساً للوزراء، ورابين وزيراً للدفاع، وتوكل حقيبة الخارجية إلى أبا إيبان. وردّ التحالف الذي يقوده مناحيم بيغن، وقد تعرّض لهزّة شديدة بسبب عاصفة المذابح، بشنّ هجوم معاكس. ودخل المعمعة ديفيد ليفي،

---

(1) عدد مجلة «باري ماتش»، 24 شباط/ فبراير 1984.

نائب رئيس الوزراء، مندّداً بـ مناورات المعارضة الرامية إلى إسقاط الوزارة بمحاولتها كسب نواب يدعمون الحكومة.

أضحت واشنطن، بحدود منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1982، المكان المفضّل لعدد كبير من زعماء الشرق الأوسط .فإسحق شامير أولُ من قصدها، تلاه بعد فترة قصيرة أمين الجميّل ثم وفدٌ من الجامعة العربية على رأسه الحسن الثاني، ملك المغرب، وكان مقرراً قدوم الملك حسين، إلى الأردن، ليتكلّم عن محادثاته مع ياسر عرفات. والمنتظر أن يتحدّث الجميع عن سحب القوات الأجنبية من لبنان.

لكنّ الحكومة الإسرائيلية اتخذت زمام المبادرة، فيما كان إسحق شامير في الولايات المتحدة، في 11 تشرين الأول/ أكتوبر، بوضع برنامجاً زمني والشروط لسحب جيشها. كان ذلك النص المصنّف سرّياً[1]، والمؤلف من 8 صفحات، باسم تسويات الأمن في لبنان Security' arrangements in Lebanon، مرسوماً على خارطة ملونة، يفصّل مبدأ «الانسحاب مقابل اتفاقيات أمنية». وقد وَصَفت تلك الوثيقة، انطلاقاً من فكرة أنّ الاحتلال هو بهو السلام، شروط تطبيع العلاقات بين البلدين، والنقاط التي لا يمكن تجنّبها من أجل أمن إسرائيل. فينبغي أن يسبق رحيل قوات تل أبيب، خروجُ قوات جبهة التحرير الفلسطينية من شمال لبنان ومن البقاع. ثم ينبغي على إسرائيل الانسحاب إلى 45 حتى 50 كم شمال المطلّة بشرط أن يخلي السوريون مواقعهم في جبل لبنان. وأخيراً يغادر الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان نهائياً، بعد أن تضمن اتفاقيتان اثنتان، الواحدة بين لبنان وإسرائيل والأخرى بين لبنان وسورية، الانسحاب المتزامن للقوات السورية والإسرائيلية.

لقد ألحّ أرييل شارون، أثناء اجتماع الوزارة التي أقرّت ذلك النص، على الوفود المكلّفة في المفاوضات، أن تكون على مستوى وزاري وأن تجري المناقشات بالتناوب ما بين بيروت والقدس. وجرى تكليف أفراهام تامير بالذهاب إلى واشنطن وتسليم الوثيقة إلى إسحق شامير قبل بدء محادثاته مع الأميركيين. فكان على شامير أن يستخدمها لشرح موقف تل أبيب إلى وزارة الخارجية والپنتاغون ومجلس الأمن القومي ووكالة الاستخبارات، الـCIA .

في مساء 11 تشرين الأول/ أكتوبر، تناول مناحيم نافوت[2] طعام العشاء في بيت فادي أفرام، في برمانا. وكان على المائدة أيضاً كل من أبو خليل ونجم. فشرح للبنانيين الدور الذي تعْهَدُ به إسرائيل إلى الولايات المتحدة. قال :

- كان هدفنا، قبل عملية «سلام الجليل»، إشراك الولايات المتحدة في المسألة اللبنانية. وكان ظنُّنا آنذاك أنّ بوسع الأميركيين، سياسياً، أن يحلوا بطريقة مُثلى، محلّ السوريين. ثم تبيّن

(1) النص الكامل في الملحق 14.
(2) كان برفقة كل من ميكي أرمور (ماريون) وأمنون و باتريك.

لدينا أنّ لهم حدوداً وأنّهم لا يستطيعون تجاوزَها. فهم اليوم يعالجون هذه المشكلة، وغداً تظهر لديهم مشكلة أخرى، فينصرفون. أما نحن فمقيمون! سوف نكون، نحن وإياكم، في مواجهة سورية، لأنّها حربُنا معاً نحن الاثنين. لست أدري إن كان الشيخ أمين يعي ذلك. فلبنان بحاجة لدعم، بكل تأكيد، لكن ليس من البيت الأبيض فقط. ستكون زيارته للولايات المتحدة قصيرة. فينبغي لمطالبه أن تكون واقعية. هنالك مسائل كثيرة للتفاوض بشأنها.

فردّ أبو خليل قائلاً:

– لقد وضعنا أمين والشيخ بيار في مجريات محادثاتنا مع قادتكم. وأنا على ثقة، وفقاً لردود الفعل، من أننا سنصل إلى الصيغة التي تريدون. لكن لا ينبغي أن يكون الأميركيون معارضين لها.

فردّ مندي متعجّباً:

– لكن ليس ذلك الشأنُ شأنَهم!

– لا يسعنا استبعادهم نهائياً. زدْ أنّ أمين يرفض لقاء شارون. فهو يؤكد أنّ الطابع السرّي لذلك اللقاء ليس مضموناً.

فقدّم الرجل الثاني في الموساد عرضاً قائلاً:

– إذن هل يسعني أنا أن أقابله؟

فقال جوزيف:

– سوف نقوم بهذا الدور خيراً منكم. فنحن نعرف كيف نداوره في سبيل بلوغ النتائج التي نسعى وراءها. فلمَ تلحّون؟

– إنها مسألة ثقة بين حكومتنا وأمين. ألاّ يسعنا أن نراه من أجل إبلاغه برسالة أو كان لدينا مشكلة ما تقتضي حلاً؟

فحاول أبو خليل أن يراوغ قائلاً

– سوف نعود إلى ذلك.

فقال الإسرائيلي:

– انتبهوا، فمسألة الثقة هذه غاية في الأهمية! لأنهم لن يتفهّموا الأمر عندنا. فهنالك مسائل كما في الشوف. فكيف لكم أن تراقبوا منطقة الدروز وجماعة جنبلاط، من غير حوار. سوف تقوم هنالك مشكلة.

لم يكن التهديد مموّهاً. لكنّ ثقة فادي أفرام وزملائه جعلتهم لا يلقون إليه بالاً. والتقى مناحيم ناڤوت في اليوم التالي بجوني عبدو. كان جواب رئيس المكتب الثاني اللبناني هو جواب جوزيف أبو خليل نفسه. واصطدم ناوت بالمعارضة ذاتها مع بيار الجميّل حين زاره في مقرّ الكتائب المركزي. وبعد ذلك بيومين، توجّه كلّ من ديڤيد كيمحي وإسحق ليور، «سفير» إسرائيل في لبنان، وممثل

الموساد الدائم ليزوروا بدورهم والد الرئيس. فسلّمه > كيمحي نسخة من وثيقة ترتيبات الأمن في لبنان 'Security arrangements in Lebanon' قائلاً:

– طلب إلينا رئيس وزرائنا أن ننقل إلى أصدقائنا في لبنان هذا النص الذي أبلغنا الأميركيين به. ستجدون فيه المبادئ الأساسية للمفاوضات في ما بيننا. فلا يسعنا أن نخفي أنّ هدفنا الوصول إلى سلام مع لبنان. وقال بيغن إنّه لن يجعل اتفاقية السلام مشروطة بانسحابنا، وعلى الرغم من أنها أمنيتنا. نحن على استعداد لبدء المناقشات على الفور. تعرفون أنّ حدودنا كانت «الحدود الفضلى»[1] قبل الحرب. ونرغب في أن تظلّ كذلك. فينبغي الحفاظ على الأمور كافة الواقعة ضمن هذا المجال، من غير أن تكون هنالك اتفاقية رسمية.

فأجابه الأب الأكبر:

– ينبغي دراسة ما أتيتم على طرحه. فلو طلبتم اتفاقية منا الآن، ما استطعنا إعطاءكم إياها. فلا يسعكم أن تطالبونا بعقد السلام معكم وقيام الحرب مع العرب. إنّي موافق على الخطوط الكبرى لعرضكم لكنّي لست رئيس الجمهورية. وأمين منشغل كثيراً الآن بالإعداد لسفره.

– أنا أعرف أمين حقّ المعرفة. وليتكم تستطيعون دعوته إلى مقرّكم الآن عسى أن نلتقي.

فقال زعيم الكتائب:

– لقد فكّرت في الأمر أيضاً. ينبغي، بأي ثمن، وجود اتصال بينكم وبين رئيس الجمهورية. سوف أتولى ترتيب ذلك. لكن بينه وبينك شخصياً، هنا في بيتي. وينبغي الحفاظ على السر.

حين استلم الأميركيون الوثيقة، علت الابتسامة وجوههم. لقد قدّروا أنّ تل أبيب تقبل، عبر هذه البادرة، بأن تؤدّي واشنطن دور الوسيط المتميّز. فأبلغوا أمين من فورهم بالوثيقة التي كان قد جاءه بها فادي أفرام وأبو خليل من قبل. وقد أتاحت تسرّبات «غير منتظمة» للصحافة اللبنانية بالكشف عن خطوطها الكبرى. وردّت سورية ردّاً فورياً، بإفهامها > موريس درابر، الذي كان ماراً بدمشق، إنّ **على الإسرائيليين أن يكونوا المنسحبين أولاً من لبنان [. . .] فسوريا دخلت إلى لبنان بطلب من حكومته وبتخويل من الجامعة العربية، أما إسرائيل فقامت بغزوه [. . .] فليس هنالك إذن أي توازٍ بين الموقفين يخوّل إسرائيل تبرير مبدأ انسحاب متزامن.**

عندئذ رفض أمين الجميّل مقابلة ديفيد كيمحي ورفض الوثيقة الإسرائيلية مؤكّداً أنّ إرسال وفد لبناني إلى القدس للتفاوض، على نحو ما طالب به أرييل شارون، إنّما يُعتبر اعترافاً ضمنياً بهذه المدينة عاصمة للدولة العبريّة، في حين أنّ حرباً كلامية حادة قد قامت بين إسرائيل والبلدان العربية

(1) حدود إسرائيل الوحيدة المرسومة بموجب اتفاقية الهدنة الموقعة في آذار/ مارس 1948 في رودوس. أما كافة «حدود» الدولة العبريّة الأخرى (باستثناء حدودها مع مصر بدءاً من 1977) كانت آنذاك خطوط وقف إطلاق النار، وبعدئذ وقعت الأردن معاهدة سلام مع إسرائيل.

حول وضعها القانوني. كذلك كان الرئيس يرفض رفضاً تاماً التفاوض مع جيرانه الجنوبيين «وجهاً لوجه». كان يريد من الأميركيين «مساهمة تامة» في المناقشات، مقتنعاً بأنّ الأميركيين هم الوحيدون القادرون على ترجيح الكفّة في وجه الضغوط الإسرائيلية. إنّه الطريق المسدود.

سعى فيليب حبيب، وهو الملتزم بسياسة «الخطوة خطوة»، وراء العثور على مخرج مع حرصه أولاً على حل المسائل الشكلية. وعرض المبعوث الأميركي في إسرائيل شروط > أرييل شارون، باعتبارها نوعاً من الانتحار الدبلوماسي على الطريقة اليابانية بالنسبة إلى اللبنانيين. لكنّه اصطدم بجدار صلب. فقد ظل بيغن ووزير دفاعه في منتهى التصلب. ورجع حبيب إلى بيروت ليعلن قائلاً للرئيس اللبناني: **الإسرائيليون لا يمكن مقاربتهم. إني أضع نهاية لمهمتي فأنا عائد إلى واشنطن.**

تحول التوتر الكامن في الجبل الدرزي في الشوف بين الميليشيات الدرزية وميليشيات «القوات» إلى سلسلة من الصدامات في أقل من أسبوع. فقد تجابه الفريقان بسرعة قصوى باستخدام المدفعية والأسلحة الثقيلة في عاليه وقبرشمون. لقد تحققت «توقّعات» مناحيم نافوت. ولم تتدخّل وحدات الجيش الإسرائيلي المنتشرة في المنطقة إلّا بعد يوم من القتال. وصرح الجنرال عامير دروري قائلاً أمام كاميرات محطات التلفزة الإسرائيلية: **سوف يواصل جنودنا حماية القرى الدرزية من هجمات الكتائب.** أما وليد جنبلاط المقيم في باريس بعد أن غادر لبنان في 20 أيلول/ سبتمبر 1982، فرفض في مقابلة مع صحيفة يومية سورية **تلك الحماية المزعومة متهماً الإسرائيليين بتأجيج النار وزيادة حدة الانقسام الطائفي.** وهكذا فوحدهم الأشخاص الذين كان ذلك الرفض موجهاً إليهم قد علموا به. أما على الأرض فقد أكد عدة مسؤولين دروز من الحزب التقدمي الاشتراكي في منطقة عاليه أن الجيش الإسرائيلي اقترح عليهم إنشاء دولتهم الخاصة وأنهم رفضوا .**إنّ الدروز غير راغبين في ملاقاة مصير الدروز الفلسطينيين (الإسرائيليين) الذين اقتصر دورهم على أن يصبحوا مجرّد رجال درك داخل الجيش الإسرائيلي.** واستدعى أمين الجميّل السفراء الأميركي والإنكليزي والفرنسي ليطلب إليهم التدخل لدى تل أبيب، وأطلق فكرة قوة متعددة الجنسيات من 30 ألف رجل للحفاظ على الأمن فوق أرض الوطن كلها ريثما يعاد تشكيل الجيش اللبناني. لكن المسعى لم ينته إلى نتيجة.

غادر أمين الجميّل مطار بيروت يوم الأحد 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1982 على متن طائرة بوينغ 747 تابعة لطيران الشرق الأوسط قاصداً نيويورك في أول زيارة رسمية له، في حين أنّ مسلمي بيروت كانوا يحتفلون بعيد رأس السنة الهجرية 1401. أمّا في القدس فكانت لجنة كاهان تعقد اجتماعها العلني الأول في الجامعة العبريّة.

وقف الرئيس اللبناني وهو يرتدي بزة رمادية يلقي كلمته أمام جمعية العامة للأمم المتحدة.

كان خطاب أمين الجميّل الذي كتبه غسان التويني مؤثراً، وقد ألقاه بالإنكليزية دون أن يقرأ عملياً أي ملاحظات، واصفاً الحالة في بلاده .إنّ السلام في لبنان مقدمة للسلام في الشرق الأوسط، وباستقرار لبنان يتعلق استقرار المنطقة. فإذا ما غرق في الفوضى سيجرّ المنطقة معه [. . .] ومثلما نطالب نحن بالعيش بسلام وحرية فوق أرضنا، كذلك ينبغي أن يتمكّن الفلسطينيون من العيش بسلام وحرّية وأن يقرروا مصيرهم بأنفسهم فوق أرضهم في فلسطين [. . .] ونأمل أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون يوماً إلى تسوية تتيح لهم التمتع بمجموع الحقوق التي تنتهي إلى كيان وطني مستقل.

كان الرئيس اللبناني راضياً عن خطابه. وقدّر أنه قد حظي برضى تل أبيب - حتى فكر في أن يبعث إليهم بتسجيل للخطاب. لكن الجملة المتعلقة بحق الفلسطينيين في تقرير المصير أثارت سخطاً هائلاً في إسرائيل. فالوعود كافة التي تعهّد بها أمين الجميّل أمام شارون وشامير في بيت المستقبل، قبل انتخابه بيومين، أضحت هباءً منثوراً. وتوزعت صفحات الجرائد الأولى بين أعمال لجنة كاهان للتحقيق حول صبرا وشاتيلا ولغة الجميّل المزدوجة. كان حنق الإسرائيليين في ذروته. فمن المؤكد الآن بالنسبة إلى تل أبيب أنّ الرئيس اللبناني قد وقف دون قيد أو شرط مع مخطط ريغان. وبدأ الإسرائيليون الأكثر تأييداً للبنان يتساءلون تساؤلاً جدياً.

وقد أكد الجنرال أمنون ليبكنز[1] قائد كتيبة المدرعات في الجيش، المنتشرة في منطقة عاليه، أمام المسؤولين المحليين للقوات اللبنانية قائلاً إنّ ما قاله (أمين الجميّل) ليس على شيء من الفطنة. فهذا الرجل لا يحبنا، وأنتم، القوات اللبنانية، سوف تتعرّضون للتبعات.

وفي اليوم التالي حظر العقيد آرون قائد منطقة صوفر، على ميليشيات القوات، تفتيش وسائط النقل الدرزية المتوجهة إلى عاليه. وهكذا رأى المسيحيون بأمّ أعينهم أسلحة وذخائر تمرّ من أمامهم دون أن يقوَوْا على الرد [2].

استغلّ رونالد ريغان وجود أمين الجميّل في واشنطن لإطلاق المبادرة، لمفاوضاتٍ جديدة حول الشرق الأوسط ضمن أسلوب مفاوضات كامب ديفيد، التي آلت إلى توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل. كانت وزارة الخارجية الأميركية مقتنعة إضافة إلى لبنان ومصر وإسرائيل التي بوسع واشنطن إقناعها بكل يسر، بأنّ حكومة الأردن سوف تنضم إلى هذا المسعى. فقد أبدى الملك حسين ملك الأردن اهتماماً واضحاً بمخطط ريغان. يضاف إلى ذلك أنّ وزارة الخارجية كانت تأمل بالطلب إليه أن يمثل الفلسطينيين عند الاقتضاء لدى عقد القمة التي يتمناها ريغان. وعمان من ناحيتها

(1) سيصبح من بعد رئيس أركان الجيش الإسرائيلي باسم شاحاك.

(2) بول عنداري، حقيقة لا ترحم، بيروت 1985.

قد وضِعَت في مركز مخطط السلام ضمن الاقتراح الأميركي لإنشاء كيان فلسطيني مستقل في الأراضي المحتلة بالتشارك مع الأردن.

رفضت تل أبيب المبادرة رفضاً قوياً، مع التأكيد خصوصاً على أنّ العاهل الأردني سوف يغدو حصان طروادة للفلسطينيين، مع التظاهر باسترجاع الضفة الغربية وغزة ليقوم في وقت لاحق بالتخلي عنها للفلسطينيين. وصف مناحيم بيغن مخطط ريغان بأنّه هزءة قبل أن يضيف نحن لسنا بلداً تابعاً للولايات المتحدة. فليس لدينا الحق فقط بل الواجب أيضاً في رفض المقترحات المضادة لاتفاقيات كامب ديفيد. [. . .] فليس هنالك من سبب ولا من حاجة للسعي وراء حلول أخرى غير تلك التي فتحتها تلك الاتفاقيات. وهدد رئيس الوزراء الإسرائيلي في سبيل وضع حدٍ لاقتراح التقسيم الأميركية بضمّ الأراضي المحتلة دون قيد أو شرط[1].

فعلق شمعون بيريز قائلاً:

– تلك ستكون وصفة مضمونة لحرب لا نهاية لها، كما ستضع حداً لاحتمالات السلام. وما من أحد في العالم سيقبل بضمّ تلك الأراضي.

كان العماليون يساندون الخطوط الكبرى للتفاهم الإقليمي الذي اقترحته واشنطن. فالعقيدة التي يدافع عنها بيغن حول تمامية أرض إسرائيل، تعارضها العقيدة التي يدعو إليها كل من بيريز ورابين، والقائلة بالتمامية الأخلاقية للدولة العبريّة التي آن لها التخلي عن دور الشرطي بين سكان الأراضي المحتلة. لكنّ الكنيست قالت الكلمة الفصل بالتصويت بأكثرية 56 صوتاً ضد 50 على اقتراح بدعم الحكومة الإسرائيلية. فقد عاد بيغن ليشكّل مجدداً التحالف المقدّس حول شخصه.

ما إن سمع شامير، الذي كان في زيارة رسمية إلى كوستاريكا، بخطاب الرئيس اللبناني، حتى هرع إلى واشنطن. وطلب على جناح السرعة عقد لقاء مع جورج شولتز. كان السفير الإسرائيلي قلقاً. فليس من شأن التوافق التام لوجهات النظر بين أمين الجميّل ورونالد ريغان، إلّا أن يؤدي إلى نتائج سلبية بالنسبة إلى إسرائيل. وقد استقبله شولتز بابتسامة عريضة من الرضى. فقد وافق الجميّل على إعادة تفعيل اللجنة العسكرية الإسرائيلية اللبنانية المشتركة، التي أُنشِئت غداة الهدنة عام 1949، وعلى أن يعهد له بالمفاوضات حول الأمن في جنوب لبنان وحول ملف جلاء القوات الأجنبية. وازدادت ابتسامة شولتز تألُّقاً وهو يحيط شامير علماً بموافقة اللبنانيين على أن تكون الولايات المتحدة طرفاً معنياً في هذه اللجنة بحصّة كاملة. فالولايات المتحدة تنصّب ذاتها إذن، حَكماً، وتُعرِب عن رغبتها في أن تكون مصدراً لكل تسوية في لبنان كما في المنطقة.

فاعترض شامير على هذا التوزيع للأدوار بإلحاحه على ضرورة قيام مفاوضات شاملة،

(1) أمام اللجنة البرلمانية للشؤون الخارجية والدفاع في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1982.

وسياسية أساساً. لكن بلا طائل. فقد ردّ عليه شولتز قائلاً إن على إسرائيل أن تقبل بالفكرة لمصلحتها الخاصة، وإنّ بوسعنا نحن (الولايات المتحدة) أن يكون لنا أصدقاء آخرون، وشركاء آخرون غيرها في منطقة الشرق الوسط.

ولقد ألحّ أمين الجميّل على أن تكون المحادثات محصورة ضمن الوجوه التقنية للانسحاب الذي لا يمكن إتمامه إلّا على يد العسكريين في لجنة الهدنة المشتركة[1].

أما بانتظار التسوية الكاملة للمشكلة في المنطقة، وفاقاً لدعوة ريغان، فلا يسع الرئيس اللبناني أن ينساق نحو أي سلام منفصل قمين بإبعاد لبنان عن الأمة العربية.

منذ ذلك الحين وخوف الإسرائيليين الأكبر أن يروا أنفسهم مرغمين على مغادرة لبنان من غير الحصول على شيء يُذكَر. ولسوف تكون النتيجة التي لا يمكن تفاديها سقوط حكومة بيغن. فالخطاب الذي ألقي أمام الأمم المتحدة قد وجّه، سياسياً، ضربة عنيفة للثنائي شارون-بيغن. فقدّرا أنّ السلطة اللبنانية قد بددت عمداً مصداقيتهما في إسرائيل.

أما وأنّ الشيخ بيار لم يعد مرتاحاً للمسألة الإسرائيلية على نحو ما كانت في عهد بشير، فقد قررت القوات اللبنانية إظهار اختلافها عن الرئاسة بوضوح أكبر. وفي 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1982، توجّه وفد كبير من «القوات» إلى إسرائيل. فالتقى عملياً بالمسؤولين كافة عن الملف اللبناني في الموساد، وجرى اللقاء في أحد صالونات فندق كارلتون المطل على شاطئ تل أبيب. حاول الهاميسراد[2]، من دون جدوى، التقليل من مدى خطاب أمين الجميّل أمام هيئة الأمم المتحدة. كان مناحيم نافوت يقدّر أن «التطبيع» بين البلدين هو الوسيلة الأنجع لمعارضة النتائج السلبية وممارسة ضغط على السلطة التنفيذية اللبنانية. كان الإسرائيليون قد حظروا من قبل تصدير تفاحهم إلى لبنان كي لا يُلحِقوا ضرراً بالإنتاج المحلي. وكانت وكالات سفر من صيدا قد عقدت اتفاقيات مع وكالات إسرائيلية لتنظيم جولات سياحية في إسرائيل.

بل اقترح مندي قائلاً:

- أعتقد أنه من الملائم سياسياً فتح بيت لبناني في إسرائيل. ولسوف يؤدي دورَ مكتب تنسيق للتجارة والإعلام.

فواصل ريحايا ڤاردي، وهو «المنسّق المدني» من قِبَل الحكومة الإسرائيلية في الأراضي المحتلة من لبنان، الفكرة قائلاً:

- كان إنتاج البرتقال والليمون في جنوب لبنان يُصدَّر في العادة نحو العراق والبلدان العربية. وقد خشي مزارعوكم من أن نقوم بإغراق تلك السوق بمنتجاتنا. نحن لم نفعل ذلك، على الرغم من

---

(1) أمين الجميّل لآلان مينارغ. أيار/ مايو 1993.

(2) المكتب بالعبرية. لقب يطلق على الموساد.

قدرتنا على فعله، وأنّه ليمثّل صفقة تقارب 100 مليون دولار. نحن على استعداد لعدم الدخول إلى هذه السوق، بل لتمرير منتجاتكم إلى الأردن، إنْ لم تشأ سورية أن تجعلها تمرّ فوق أراضيها. ولن تكون هنالك أي مشكلة من جانبنا إذا ما تعاونت الحكومة اللبنانية. أما إذا راوغت، مثلما كانت الحال في قضية المخيمات (صبرا وشاتيلا) ، فلن نقدّم أي عون من جانبنا .

فسأل جوزيف أبو خليل، وقد بدا عليه الاهتمام:

- أتظنّون حقاً أنّ بوسعنا تمرير صادراتنا من التفاح عبر إسرائيل؟ وأضاف أنطوان نجم من ناحيته قائلاً:

- وفي شاحنات لبنانية؟ فالتفاح هو إنتاجنا الأهم وهو أساساً إنتاج المسيحيين في الجبل.

فتدخّل مندي قائلاً:

- بوسعنا تسوية ذلك، لكنّ مشكلتكم مع الدروز تسبّبت بشيء من التوتّر عندنا.

أكّدت أجهزة الاستخبارات في القوات اللبنانية أنّ وليد جنبلاط، أوعز لرجاله، من مكان إقامته، حيث لا يزال، في باريس، بأن يتصدّوا أولاً، ليزيلوا من بعد، زعامة آل أرسلان من عاليه. أما بعد قيام الجيش الإسرائيلي بطرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، فقد عاد الجنبلاطيون للانطواء في قوقعتهم. فأخذمجيد أرسلان[1] تدريجاً هيبة بين صفوف جماعته بمساعدة من «القوات». ثم انقلبت الآية من بعد موت بشير. فأضحت عاليه، وهي آل أرسلان، القطاع الذي تقع فيه يومياً صدامات مسلّحة.

وأوضح فادي أفرام الوضع قائلاً:

- كنا نضع جيشكم باستمرار ضمن مجريات الأمور على الأرض. لكنّ الاشتباكات الأخيرة سمحت للدروز الجنبلاطيين ببلوغ أهدافهم السياسية. لقد جمعنا الرئيس الجميّل، قبل سفره إلى الولايات المتحدة، مع ممثّليهم. وقد طالبوا في الاجتماع بإغلاق ثكناتنا في شوف بيت الدين وسوق الغرب وعاليه، وبإرسال الجيش اللبناني إلى كفرمتّى وكذلك برفع حواجزنا عن الطرقات. فرفضنا قائلين إنّا لن ننسحب إلّا بطلب من السكان المسيحيين. لكنّ الشيء الأهم في ذلك الاجتماع، أنّ جميع المسؤولين الدروز الحاضرين، قد أكّدوا أنّ إسرائيل طلبت إليهم حمل السلاح وإنشاء دولتهم المستقلة الخاصة، بدءاً بتشكيل جيش قومي درزي.

فسأل اردي بجفاء:

- ومن قال ذلك؟

- لا أعرف أسماء المشايخ كلهم. أعتقد أنه من باتر، الغزيزي، وقد أكّد أنّ الإسرائيليين

---

(1) إن أسرة الأمراء من آل أرسلان هي المنافس التقليدي والتاريخي لأسرة جنبلاط حول زعامة الطائفة الدرزية، رغم أنها أقل شأناً منها.

اقترحوا عليه الذهاب لجلب أسلحة من إسرائيل لحماية قريته. أما في كفرمتى فأطلق الدروز الجنبلاطيون النار وهم يحتمون وراء مدرّعاتكم. زدْ أنّ عناصر من إحدى وحداتكم أقاموا حاجزاً، فأوقفوا جنودنا في بيت الدين وطرحوا عليهم آلاف الأسئلة.

فسلّم اردي قائلاً:

– هذه مسائل قاسية وشاقة جداً. وسوف أوضح لكم كيف ننظر نحن إلى المشكلة. في لبنان 200 ألف درزي ينقسمون إلى ثلاث مجموعات: الذين في اليسار (جنبلاط)، لديهم أسلحة وقوة عسكرية. المتديّنون وعلى رأسهم أبو شقرا. التقليديّون وجماعة أرسلان، الذين لا يشكلون أي قوة. يعرف الفريقان الأوّلان علاقاتنا معكم حقّ المعرفة، فيحاولون إقناعنا بوضع حدٍ لها. ولا أعتقد أنّ السلاح يعوزهم. ووفقاً لما قال الدروز لنا، فإنّ فريقاً صغيراً فقط هو أصل المشكلات كافة. إنّهم يريدون إعطاءنا أسماءهم كي نتولى أمرهم، لكننا رفضنا. فعليهم هم القيام بذلك لأننا لا نعتبر أنفسنا جهاز شرطة. لقد زار دروز إسرائيليون دروزاً عندكم وأقنعوهم بأنّ رئيس الوزراء بيغن في جيبهم. فصدّقهم الدروز اللبنانيون. إنّ عناصركم يوقفون السيارات على حواجزهم، فيأمرون النساء بالنزول، وقد قيل لنا إنّهم أهانوا الشيخ محمد جواد وشتموه. فما إن تقع مشكلة في الشوف إلّا ويقوم الدروز عندنا بإحداث صخب كبير، لأنّ ذلك يمنحهم وزناً سياسياً في إسرائيل. فيعبّئون رؤوس الذين عندكم ويعِدونهم بدعم من إسرائيل. وهم يشكلون، من ناحية أخرى، القناة الإخبارية الرئيسة لوسائلنا الإعلامية بخصوص ما يجري في الشوف. فيؤكّدون إنّكم ترتكبون مجازر، وليس عندنا من يستطيع التحقق.

فقال أنطوان بريدي:

– صرنا نضع في اعتبارنا أنّه كلّما حصلت مشكلة من أي نوع ما مع الدولة اللبنانية، كانت لها نتائج سلبية على الأرض. فقد كنتم، لدى المصادمات الأخيرة مع الدروز، تسدّون الطرقات فتنزعون سلاح جنودنا وتوقفونهم. فنريد أن نعرف ما ينبغي علينا أن نقول لجنودنا الذين أصبحوا في ريبة منكم.

وفي المساء ذاته، كرّر اللبنانيون بطلب من الموساد، اتهاماتهم للتواطؤ الإسرائيلي الدرزي، في اجتماع عقِد في وزارة الدفاع، أمام الجنرالات رفائيل إيتان وموشيه ليفي وعامير درورى. وكان رفول مغتاظاً جداً، فقال ساخطاً:

– لم نعرض عليهم أسلحة. أؤكّد لكم أنّ قدرتنا على تحمّل هذا النوع من الاتهامات محدودة جداً! لا سيّما حين تصدر عن أمين الجميّل! لقد بدأ يتّهمنا بأننا مسؤولون عن مذابح المخيمات. سوف تترتب على ذلك نتائج وخيمة وتخلق مشكلة جديدة. وهل يسعكم من جهة أخرى أن تفسّروا لنا تصريحاته أمام الأمم المتحدة؟ نحن نأمل ألاّ يكون المقصود سوى مجرّد عملية دعائية وأن تكون نيّاته في الواقع مغايرة تماماً.

فسعى أبو خليل لأن يوضح قائلاً:

- ينبغي النظر إلى خطاب الشيخ أمين في مجمله. زِدْ أنّه يتضمّن الكثير من الأشياء الإيجابية. إنه يطلب السلام! فهو مرغم على تمويه فكرته الحقيقية ببعض الأقوال التي قد تبدو سلبية.

فقال إيتان بلهجة مخففة:

- هل هنالك خشية ما من أن تتصرّف حكومتكم ضدكم؟

فردّ أفرام مؤكّداً:

- كلاّ، على الإطلاق!

- حكومتكم تعرف أنّ لديكم أسلحة ومدافع ودبابات. ألا يضايقها ذلك فيما هي تعمد إلى نزع سلاح الميليشيات في الغربية؟ فأجابه أبو خليل:

- بلى، بكل تأكيد. ومن أجل ذلك طلب أمين إلى بعض كبار الضباط أن يدرسوا مع القوات اللبنانية مجريات منحها الصبغة الشرعية.

- إن كان الوضع هذا، فليس ما يضير أن نواصل ما باشرنا به معاً. أما إن كان غير ذلك، فما الحال آنذاك؟

فأكد أفرام قائلاً:

- إنْ لم تكن الحال كذلك، فسوف نفعل ما نشاء بقدراتنا. نحن لن نقبل أبداً بحلّ مؤسستنا التي استغرقنا سبعة أعوام في بنائها.

فواصل رئيس هيئة الأركان قائلاً:

- ينبغي أن نعرف لدى عودة أمين من الولايات المتحدة إن كان لا يزال يقبل باقتراحاتنا. وما لم يكن الأمر كذلك، فهو يعني أنّ لبنان والولايات المتحدة ضدّ إسرائيل. فهل يسعكم الاجتماع به ساعة تشاؤون؟

فردّ أبو خليل قائلاً:

- بكل تأكيد.

- هل تظنون أنّ بوسعنا عقد اجتماع سرّي معه، فور عودته، لمناقشة المواضيع كافة؟

- سوف نطلب ذلك؟

عاد في اليوم ذاته، وفد القوات اللبنانية إلى بيروت، وفي فمه طعم المرارة. وأثناء اجتماع عقدته القيادة في اليوم التالي، قرّر زعماء الميليشيا استغلال وضع التفوّق الذي هم فيه بأسرع ما يمكن، لأظهار تمايزهم عن الدولة اللبنانية والرئاسة. فقد أدركوا مدى أهمية علاقاتهم بالدولة العبريّة.

وفي نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1982، قرروا إقامة ممثلية لهم في إسرائيل، لا تقلّ حجماً عن

ممثليّتهم في واشنطن. ولسوف يكون أمراً مفعولاً، لكن في عام 1984 فقط. وكان للتأخّر في تنفيذ ذلك المشروع آثارُه الهامة على فهم المواقف الإسرائيلية من قِبل القوات اللبنانية.

لدى عودة أمين الجميّل من واشنطن، حطّ الرحال في باريس ثم في روما. كانت محادثاته مثمرة مع فرانسوا ميتران الذي عقد معه صلات سريعة جداً، بفضل علاقاته الشخصية مع فرانسوا دو غروسوفر، وهو أحد مستشاري ساكن قصر الأليزيه. وعقد الرئيس اللبناني مؤتمراً صحفياً في فندق مارينيي وإلى جانبه. . .وليد جنبلاط الذي عانقه الرئيس أمام الكاميرات. أما في لبنان، فكان قادة القوات اللبنانية أمام شاشات التلفزيون، وصدورهم تكاد تتفجر سخطاً وغيظاً.

وقد صرّح أمين الجميّل أمام الصحفيين قائلاً:

- لدينا، نحن الاثنين، مواقف أساسية متماثلة على الصعيد السياسي. ثم دعا الزعيم الدرزي علناً كي يعود إلى لبنان. وقد وصل وليد جنبلاط بعد ذلك بخمسة أيام إلى مطار بيروت.

توطّدت دعائم التيارات السياسية اللبنانية المعارضة لاتفاقية سلام مع إسرائيل، وازدادت قوة بشكل ملحوظ، في غضون الأسابيع التالية. ووضع وليد جنبلاط حداً لوجود الحركة القومية التي أنشأها أبوه. وكرّس نفسه للشوف الذي أحكم قبضته عليه. وقد صرّح وليد جنبلاط[1] فيما بعد، وابتسامة عريضة تعلو وجهه، قائلاً: **استعنت برجال الدين الدروز وخصوصاً بالشيخ طريف الذي يعيش في فلسطين (في إسرائيل)، وقد اتّصلت به عن طريق شيخ العقل هنا. وأتاح لي ذلك استخدام أبناء طائفتي هنالك لمعارضة سياسة شارون، بجعلهم يتظاهرون أمام الكنيست.** كذلك استفاد زعيم الحزب التقدّمي الاشتراكي من الدعم المادي الكبير الذي قدّمه له الاتحاد السوفييتي. ولسوف يقول[2] أيضاً: **كان الإسرائيليون على علم بأننا نتلقى أسلحة من سورية. كان جهاز الاستخبارات الإسرائيلي (آمان) يدع الأسلحة تمرّ. كان يفرض فترات هدنة، فكنا نستفيد منها، وكان على معرفة بذلك.**

في أول تشرين الثاني/ نوفمبر، قام أمين الجميّل بزيارة للمغرب. وقد استذكر رسمياً مع العاهل المغربي زيارة كلٍ منهما إلى الولايات المتحدة، والمشاركة المرتقبة لقوة مغربية قوامها 2000 جندي في القوة متعددة الجنسيات، ضمن إطار زيادة مهمة تلك القوة. وكان للرئيس اللبناني أيضاً، أثناء إقامته في المغرب، لقاء سري جداً مع أبي إياد (صلاح خلف)، الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية. وكان الرئيس اللبناني قد سعى وراء الدخول في اتصال معه، أثناء توقفه في روما، لكن دون طائل. ولقد طلب إلى نمر حماد، ممثل المنظمة الفلسطينية في إيطاليا إعلامه بذلك. ولقد حصل الاتصال.

---

(1) من وليد جنبلاط لآلان مينارغ، أيار 1992.

(2) المصدر السابق نفسه.

كان موريس درابر من جانبه، يضاعف الجولات المكّوكية ما بين تل أبيب وبيروت، وفي حقيبته الجلدية ملف «سحب القوات الأجنبية من لبنان». وما كان اللبنانيون ولا الإسرائيليون على استعداد لتغيير حرف واحد من اقتراحات كلٍ منهما. كانت الدولة العبريّة لا تتزحزح عن موقفها حول المناقشات على المستوى الوزاري، وبالتناوب ما بين بيروت والقدس. ولبنان لا يتراجع عن إعادة العمل بلجنة الهدنة من أجل مناقشات عسكرية في الناقورة فقط، وهي مدينة حدودية بين البلدين.

في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، قام أفنير أزوالي (فيليب)، ممثل الموساد المقيم، بزيارة للكتائب والقوات اللبنانية للإعراب عن استياء الحكومة الإسرائيلية الشديد:

- فعلنا كلّ الذي رغب إلينا المسيحيون أن نفعله. ومع ذلك فإنّ الرئيس، وهو عضو في الكتائب، يحيطنا علماً بأنّ ضابطاً فقط في الجيش اللبناني سوف يكون محاورنا في الناقورة. ولم يصدر حتى الآن أدنى تصريح من شأنه تطمينا أو تهدئة السخط الذي استبدّ بحكومتنا. وكُثُرٌ في إسرائيل، هم الذين يتساءلون لِمَ فعلنا ذلك. عليّ أن أقول لكم إنّه لن تكون هنالك مفاوضات من دون وزير. وإن لم تكن هنالك مفاوضات، فلن يكون انسحاب إسرائيلي وبالتالي انسحاب سوري. حين ترغبون في التحدّث إلى أعدائكم، المغاربة[1] أو الفلسطينيين، تبعثون برئيسكم. أما للتحدّث إلينا، باعتبارنا أصدقاءكم، فترسلون ضابطاً عادياً. إن ذلك لا يُصدَّق! بل بدأ بعضهم عندنا يقول هازئاً: خضتم الحرب لتتفاوضوا مع موظف؟ سوف نبدأ باتخاذ إجراءات أحادية الجانب، سواء راق ذلك حكومتكم أم لا. ومنها على سبيل المثال، فتح حدودكم في وجه منتجاتنا.

كان لتلك الأقوال دويّ طبول الحرب. ولقد نُقِلت على الفور إلى أمين الجميّل.

---

(1) قام أمين الجميّل قبل ذلك بأيام بزيارته الرسمية الأولى للمغرب.

4

القوات اللبنانية عند مفترق الطرق

كان يتراءى لأمين الجميّل، على الدوام، أنّ الإسرائيليين يكرهونه كرهاً شخصياً. فضاعف الاتصالات والمساعي حيال تل أبيب في وقت مبكر جداً.

وتوجّه إليها في الأشهر الأولى من عام 1976، فاستُقبِل آنذاك من قبل ديفيد كيمحي في منزله. ولم تكن تلك المساعي لتروق أخاه الذي فرض أن تكون اتصالات الإسرائيليين كافة بالكتائب عبر قناته هو فقط[1] أمين من بعد سعياً أخرق، ليتجاوز ذلك، لكن دون نتيجة تذكر.

ثم قادته رغبته، في معارضة بشير والتمايز عنه، إلى اتخاذ مواقف مؤيدة تأييداً واضحاً للعرب. فأقام علاقات مستمرة مع الفلسطينيين. وبذل كل طاقته، عام 1978، أثناء الحصار السوري للأشرفية، الذي جابهه بشير ورجاله، لتحييد المتن عبر الاتفاق مع دمشق وسعى إلى جعل حزب الكتائب يدين المواقف التي اتخذها أخوه. أما فيما بعد، فقد أدلى عام 1980، بتصريح عنيف ضد إسرائيل وفي مصلحة دولة فلسطينية. وقد ردّت تل أبيب رداً قاسياً. فبادر أحد أصدقائه أيام الجامعة، هو سامي مارون، يحذّره من مغبة نتائج مثل تلك الأقوال على مسيرته السياسية. فقام سامي مارون، بطلب من أمين – وبفضل علاقاته ببول فنكلر، مدير صحيفة فرانس سوار – بنشر تكذيب من بضعة أسطر في الصحيفة الفرنسية. وبعث أمين بنسخة من المقالة إلى تل أبيب كي يتبرّأ من المسؤولية.

أما في الوقت الراهن، فما كان من الرئيس اللبناني، والقلق يساوره من تصاعد الصدامات المسلّحة في الشوف، والقوات اللبنانية تضغط عليه ليبدأ مفاوضات مع الإسرائيليين، سوى العودة، في الأيام الأولى من تشرين الثاني/ نوفمبر 1982، ليستعين مجدداً بسامي مارون.

قال له:

– هيا تفاوَضْ مباشرة وبالسرّ مع الإسرائيليين. ينبغي العثور على مكان محايد. إيّاك والذهاب

(1) العودة إلى كتاب آلان مينارغ، أسرار حرب لبنان، الجزء الأول، م س، 2005.

إلى القدس. ينبغي التوصّل لأن تكون المحادثات على مستوى سفير لا على مستوى وزير. أما إن جرى بحث التطبيع، فليكن تدريجاً، لكن من بعد انسحابهم[1].

تعارف أمين الجميّل وسامي مارون على مقاعد الدراسة في الثانوية اليسوعية في جمهور. وأضحى سامي مارون، العقلاني والبراغماتي، رجل أعمال من أول طراز في مجالات عدّة. وقد جعلته مهنته يفقد تلك الروح المغرقة في العاطفية، والتي تميّز المسيحيين اللبنانيين في أغلب الأحيان. وسبق للرجلين أن عملا معاً. فقد قبل الرئيس سركيس، عام 1980، بتشكيل مجلس وطني للتجارة الخارجية، بناء على اقتراح من مارون، لسد الفراغ في غياب وزارة التجارة. ومن الطبيعي أن توكل إليه رئاسة المجلس، فأوكل أمر الجانب القانوني للمحامي بيار الجميّل.

كان سامي مارون مقتنعاً بأنّ إسرائيل لم تأتِ إلى لبنان بناء على طلب المسيحيين، كي تكسر رأس السوريين، مثل أبٍ يتوجّه إلى المدرسة، بناء على طلب ابنه، ليوجّه صفعة إلى تلميذ صغير يغيظ ابنه في الصف .الحال في الأعمال، مثلها في السياسة حيث لا هدية، بل كل شيء له ثمن[2]. كان اللبنانيون يريدون انسحاب الإسرائيليين. ينبغي والحال هذه بحث الثمن معهم. وكان الوقت ملائماً. فالإسرائيليون أنفسهم راغبون في الانسحاب، إذن لا مناص من إجراء تخفيض على الأسعار المعلنة. كان هامش المناورة واسعاً في الجانب اللبناني فليس أمام الرئيس عملياً أية معارضة. كان نبيه برّي يمدّ يده للسلطات طالباً لرجال حمايته وسائقيه رخصاً لحمل الأسلحة، أما وليد جنبلاط فعاد توّاً من منفاه الاختياري في باريس بطلب من أمين شخصياً. لا بدّ إذن من ضرب الحديد ما دام حامياً.

لم يلاقِ مارون كبيرَ عناء في إقامة صلة سرية مع «الذين جنوباً». فهو في مجال الأعمال على صلة مع يهود فرنسيين وإنكليز وأميركيين، منذ سنين عديدة. زدْ أنّ «سفارتهم» في بعبدا، لا تبعد 500 م. عن منزله، وكان في ميسوره «لقاؤهم» في حفلات الاستقبال التي تطبع بطابعها الحياة الاجتماعية للبرجوازية البيروتية. فسبق له أن صادف مناحيم ناڤوت مرّات عدّة، لكنّه كان يعرف على وجه الخصوص ديڤيد كيمحي. لقد أمضى الرجلان في باريس، في السبعينيات، ساعات وساعات يناقشان الوضع في لبنان وهما يرتشفان كأساً من النبيذ.

أما الإسرائيليون، فقد فُتِنوا من جانبهم بذلك الشخص «الذكي والمثقف وبتصرّفاته الرائعة[3]». فكانت متعة حقيقية لديڤيد كيمحي أن يراه «يدخل الحلبة» مزداناً باسم المبعوث رمزاً لاسمه. وباشر سامي مارون من جانبه محادثات سرّية جداً.

تمفصلت المحادثات حول نصّ تسويات الأمن في لبنان الذي أقرّته الحكومة الإسرائيلية في

---

(1) من سامي مارون لآلان مينارغ.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) ديڤيد كيمحي، الخيار الأخير، منشورات أبناء تشارلز سكربنر، 1991.

11 تشرين الأول/ أكتوبر. وكان الهدف (الذي رفعه الطرفان) يتمثّل في الوصول إلى وثيقة توجيهية مماثلة تقوم مقام أساس لوفود البلدين الرسمية كي تكون المحادثات الشكلية أقصر ما يمكن، وبالتالي تجنب الوقوع هدفاً لإعلام مفرط[1].

فشكّل أمين الجميّل، من أجل متابعة تلك المحادثات، خليّة أزمة مكوّنة من مستشاره الأمني، وديع حدّاد، ومن رئيس المكتب الثاني مستقبلاً، الجنرال سيمون قسيس ومن غسان التويني ووزير الخارجية إيلي سالم[2]. وطالب الرئيس اللبناني بعقد لقاء مع صديقه «السمسار»، على نحو ما أطلق عليه فكاهةً، قبل كل محادثة وبعدها.

كان الوفد الإسرائيلي تحت إشراف أرييل شارون، ويتألّف من ديڤيد كيمحي للشؤون الخارجية، أڤراهام تامير لوزارة الدفاع[3] مناحيم ناڤوت مدير الموساد المساعد. وانضم إليهم فيما بعد أوري لوبراني.

وكان العمل الأول للمبعوث ومحاوريه، وضع قائمة تضم «نقاط التوافق». وقد تطلّب ذلك عدّة اجتماعات.

والتهب جبل الشوف التهاباً مباغتاً. فالنار الكامنة تحت الرماد على شكل عمليات خطف واغتيالات توقّدت على شكل قصف مدفعي ومعارك منتظمة في 2 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1982. فالتهبت قرى كفرحيم وبريح ومنطقة عاليه. وفي 4 تشرين الثاني/ نوڤمبر، عند الضحى، دعا رفائيل إيتان، يصحبه عامير دروري ورئيس عملياته أوري ساغي، زعماء القوات اللبنانية العسكريين، للمجيء والاجتماع بهم في مركز القيادة في عاليه «سعياً وراء فهم» أسباب هذا التفجّر من العنف.

فأوضح لهم فادي أفرام حقيقة الموقف:

– نحن نسيطر على عناصرنا، أمّا هم فلا. إنّما هم الذين فتحوا النار في كفرحيم.

– إنّ إحدى المشكلات المطروحة، هي مسألة الحواجز على الطرق. فلمَ تريدون الإبقاء عليها مثل حاجزكم على جسر القاضي؟[4]

فأبدى أفرام استغرابه:

– لكنّكم أنتم الذين أقمتموه، وأنتم كنتم فيه! وطلبتم منا أن نأخذ مكانكم هنالك.

فقال إيتان متلعثماً:

---

(1) من سامي مارون لآلان مينارغ.

(2) لقد كذب هذا الأخير مشاركته عضواً في هذه الخلية، نافياً على هذا الأساس شهادات أخرى مماثلة.

(3) مقرب جداً من أرييل شارون، وهو في واقع الأمر يده اليمنى «للمهمات الخاصة». وفي حين كان الإعداد للاجتياح الإسرائيلي للبنان قائماً على قدم وساق، نظّم سرّاً عملية انقلاب في إيران لمصلحة ابن الشاه، وقام في تشرين الثاني/ نوڤمبر 1982 برحلة سريّة إلى تشاد لتدبير لقاء بين سيّده والرئيس حسين هبري بقصد توقيع اتفاقية عسكرية سرية سيقوم بيغن بإلغائها فور علمه بها.

(4) جسر على نهر الدامور، في الوادي على الطريق الواصل بين عاليه ودير القمر.

– سنعود إليه متى سحبتم جنودكم.

وعقّب إيلي وزّان قائلاً:

– وما إن تُحَلّ المشكلة، إلّا ويسحبون من قبعتهم شيئاً جديداً. فالمسألة تراوح مكانها. ولن ننتهي منها أبداً!

– ناهيك بأنها ليست مجرّد مشكلة حاجز. فالدروز يريدون أن نغادر عاليه والشوف.

واعترف إيتان قائلاً:

– الأرجح أنّ تلك المطالبة تندرج ضمن قرينة انسحابنا. ولسوف يكون عليكم أن تواجهوا عودة السوريين إلى هذه المنطقة. فهم سيؤكّدون أن الوضع كان هادئاً أيام تواجدهم هناك. أمّا الخطر الحقيقي فهو أنّ الأميركيين لن يفهموا ذلك. لذا فإنّي أنصح الجميع ببقاء كلٍ في مكانه دون خلق مشاكل.

فذكّره أفرام قائلاً:

– موقفنا واضح في هذا الشأن. فنحن لا نتحرّك. لكن إذا ما هوجمنا فسوف نردّ رداً عنيفاً. لأننا إذا ما انسحبنا، فسوف ينسحب المسيحيون أيضاً.

وسأل عامير درورري:

– ماذا سيحدث بعد انسحابنا؟ وأية قوة سوف تملأ الفراغ إذا ما غادرنا غداً؟

فقال فادي أفرام بإلحاح:

– نحن لا نريدكم أن تنسحبوا. فالوجود الإسرائيلي كان ضمانة وجود القوات اللبنانية. ولم تشأ هذه القوات التحرّك من الشوف حفاظاً على الصلة الجغرافية والاستراتيجية بين القطاع المسيحي في الشمال وبين قطاع الجنوب المسيحي. بل قد يكون الأمر أيضاً لأنّ بشير طالب بذلك.

فردّ إيتان على أفرام قائلاً:

– لا بأس. لكن إذا ما وقعنا بين نارين فسوف نكون مرغمين على الانسحاب.

كانت العناوين الكبرى للصحف الإسرائيلية موزعة بين المثول المرتقب – بعد 48 ساعة – لمناحيم بيغن أمام إسحق كاهان، وبين «أعمال العنف» المتواصلة من قبل «الكتائب» في الشوف. مما يعني أنّ المسيحيين بقتالهم قد جمعوا كلمة جميع الناس... ضدّهم.

واستأنف رفّول قائلاً:

– نعلم حقّ العلم أنكم تقاتلون العدو ذاته الذي نقاتل. لست أدري ما هو مخبّأ في المستقبل. لكن هنالك شيء أكيد. إذا ما تواصلت الاشتباكات في الشوف، فإنّ الحكومة سوف تعطينا الأمر بالانسحاب. أمّا من ناحية أخرى، فهل تدرون ما يفعل الجيش اللبناني بأسلحة الفلسطينيين والذخائر التي يجمعها من بيروت الغربية؟

فقال أفرام:

يقوم بإلقائها في البحر فنحاول أن نلتقطها خلسة.

كان السلاح الذي خلّفه الفلسطينيون في مخابئ تحت الأرض يُجمَع بالأطنان فيُحمَل على زوارق إنزال ويجري إغراقه على بعد 10 كم في عرض البحر. فكان الضباط القريبون من القوات اللبنانية، حين يُكلَّفون بالعملية، يحوّلون الشاحنات بين مكان الالتقاط والمرفأ ويسلّمون محتوياتها للميليشيات المسيحية، بموافقة المكتب الثاني.

قام أمين الجميّل بعد عصر اليوم ذاته باستدعاء الدروز[1] والمسيحيين[2] إلى القصر الرئاسي. فقبل أفرام وجنبلاط، الجالسين وجهاً لوجه في كنبات عميقة، بوضع حدٍ لتصاعد العنف في الجبل. ووعدا بإجراء مصالحات محلّية، وإزالة المظاهر المسلحة كافة، والقبول بتسيير دوريات مشتركة وإنشاء لجان مختلطة من شأنها تهدئة الخواطر. وكانت كلها أمنيات ظلت وصايا في غياب مناقشات سياسية. لقد سعى الرئيس لأن يؤثر على النتائج من غير أن يلامس الأسباب.

وأثناء ذلك الاجتماع، أثار أمين الجميّل ذهول القوات اللبنانية، حين استبعد سيطرة مجيد أرسلان التي فرضها بشير، وتصرّف كأنّ عودة وليد جنبلاط من منفاه الاختياري، يجعل منه المحاور الدرزي الوحيد للمسيحيين. لقد آلت محاولة استبدال زعامة وليد جنبلاط باليزبكية إلى فشل تام وذريع.

وجدت القوات اللبنانية ذاتها، منذ ذلك الحين أمام خيار بسيط، فهي إمّا أن تجد أرضية تفاهم مع جنبلاط، وإمّا أن تتخذ قراراً بالمباشرة بعمل عسكري واسع من أجل تحطيمه. أما الامتياز الذي تتمتع به القوات اللبنانية فهو حضورها العسكري المنظّم على الأرض. أما امتياز وليد جنبلاط فهو في نشأته السياسية في الشوف وفي شعور الدروز بأنّهم يدافعون عن «مربّعهم الأخير»، لأنّه لا ملجأ لهم سواه. ومن حينه يغدو كل اتفاق نافعاً له.

عزيمة وليد تهِن بسرعة. وليست له قامة خصم عنيد وصلب، وفقاً لما أكّد كريم بقرادوني، أثناء اجتماع قيادي في الكرنتينا لدى انتهاء اللقاء في بعبدا. وتوازن القوى اليوم في مصلحتنا، وهو يعرف ذلك. فعلينا إمّا أن نزعزع كيانه فنرغمه على الرحيل مجدداً، وإمّا أن نلوي عنقه. وإذا ما قررنا هذا الحل الأخير فينبغي أن نحيط الرئيس أمين علماً بالأمر. وينبغي للهدف أن يكون من بعد، خلق زعامات درزية متعددة، لا زعامة واحدة.

فتمتم أفرام قائلاً:

– لقد أسرّ إليّ أمين أنّ لوليد حضوره في المنطقة، وأنّ من المستحيل تجاهله. وأضاف بقرادوني بحركة من يده قائلاً: أمين قابل للتأثر. من الممكن النقاش معه لنوضح له أنّه لا ينبغي ترك

---

(1) وليد جنبلاط، ومجيد أرسلان.

(2) بيار الجميّل، كميل شمعون، وفادي أفرام.

هذه الفرصة المناسبة تمرّ. وليس لنا أن ننسى وجود خلافات كبيرة بين عائلتي جنبلاط والجميّل.

فقال زاهي بستاني:

- لا يمكن للحل الجذري أن يأتي إلّا عن طريق ضربة عسكرية تضمن الهدوء. إن نكنْ قادرين على ذلك، فهو الحل. ونحن في الوضع ذاته كما في 7 تموز/ يوليو 1980 [1]. فينبغي أن نستعد لذلك بانتظار الوقت الملائم.

لم يقدّر قادة القوات اللبنانية معيار الدعوة الموجهة من أمين الجميّل إلى وليد جنبلاط. ولم يُدخِلوا في حساباتهم الإعاقة الكبرى التي يمثلها الزعيم الدرزي بالنسبة إلى القوات اللبنانية عبر تجذّره الطائفي. لكن هنالك ما هو أهم بالنسبة إلى رئيس الجمهورية. ففي 8 تشرين الثاني/ نوفمبر، وأثناء اجتماع للمكتب السياسي لحزب الكتائب شارك فيه أمين الجميّل - وفي موقف أثار دهشة الجميع - قام كريم بقرادوني يؤنّبه:

- أنت لديك مشكلة لأنك خلفتَ بشير الجميّل ولم تخلف سركيس. لقد كان بشير رئيساً لكنه كان قائداً أيضاً. ونحن نطلب إليك أن تكون مثله. فليس هنالك ما يقال بشأن عملك رئيساً للجمهورية، لكن لا وجود لك بوصفك زعيماً للمسيحيين. كان المسيحيون يعرفون الخط السياسي الواجب اتباعُه والأهدافَ التي يرمون إلى بلوغها. أما معك، فالرؤية غير واضحة. فلا يسعك احتلال لبنان من الخارج.

فردّ أمين بلهجة جافة:

- سوف يسعدني أن أعرف كيف استطاع بشير الوفاء بالوعود كافة التي قطع. ربما حالفني الحظ في عدم خوض معركة انتخابية قبل انتخابي، فلم أقطع من وعد لأحد. أنا رئيس الجمهورية ومن واجبي أن أتواصل مع الجميع. فليس لأحد أن يُزايد عليّ عملي.

وتفارقوا مغتاظين.

هطلت على الجبل في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر أمطار غزيرة جداً. فبدت تلال الشوف المحيطة بقرية كفرنبرخ مكللة بنوع من القطن الرمادي الغامق، البارد والرطب. وفي حدود الحادية عشرة خرج من الكنيسة الصغيرة موكب جنائزي. كان الناس متوجهين لدفن رجل عجوز قضى نحبه بالأمس. وليس من سبب يفسّر انسحاب الجنود الإسرائيليين في الوقت ذاته، وهم الذين كانوا يعسكرون في البلدة. بعد ذلك بعشر دقائق، ولحظة وصول النعش إلى المقبرة، حصدت الموكب رشقات من الرصاص. اختلطت انفجارات قنابل هاون من عيار 60 مم، بأصوات رشقات أسلحة آلية، وارتفعت الأصوات بالعويل والذعر. فهرع عناصر ميليشيات القوات اللبنانية وأسلحتهم في

---

(1) العودة إلى كتاب آلان مينارغ، م س الجزء الأول، الفصل الثاني: عملية ألتالينا.

أيديهم. وفعلت الشيء ذاته دورية من رجال درك من قوات الأمن الداخلي، بعد أن نبهها صوت النيران. لكنّها أوقِفت عند حاجز للجيش الإسرائيلي وأرغِمت على العودة من حيث أتت. ولم يفصل الإسرائيليون بين المتحاربين إلّا مع حلول المساء. كانت حصيلة الهجوم الدرزي المباغت عشرة قتلى واثني عشر جريحاً وتسعة مخطوفين. كما جرى تدمير عشرين منزلاً أو إحراقها. وفي اليوم التالي دعا أمين الجميّل إلى اجتماع درزي ماروني جديد في بعبدا. فأوضح وليد جنبلاط أنّ ذلك الاشتباك نجم عن عملية ثأر محلية بين السكان. فالقرارات الحازمة لم تصمد أسبوعاً واحداً.

انزاحت سريعاً عناوين تلك المعارك لتفسح المجال أمام الإعلان عن وفاة ليونيد بريجنيف[1]، الذي جاء متأخراً لتنصيب خليفة له، لكن بشكل خاص بسبب «الاعتداء» على مركز قيادة الجيش الإسرائيلي في صور، يوم 11 تشرين الثاني/ نوفمبر.

تهاوى المركز بعد انفجار ضخم حوالى السابعة صباحاً. كانت طوابقه الثمانية تؤوي الشرطة العسكرية وحرس الحدود ومركز الاتصالات ومكاتب الحاكم العسكري. لقد انهار المبنى كأنه قصر من كرتون. كان يقع على طريق صيدا، عند مدخل المدينة الشمالي، وهو ملك رجل شيعي، مهاجر في إفريقيا، اسمه علي حجازي. وسبق أن استُخدِم مقر قيادة عامة لفتح بقيادة ياسر عرفات، قبل الاجتياح. وقد تلقت وكالة الصحافة الفرنسية في بيروت، بياناً مطبوعاً على الآلة الكاتبة يتبنى العملية، ويحمل توقيع «منظمة الكفاح المسلح». وبعد ذلك بساعات، أكّد مسؤولون فلسطينيون يعيشون متخفّين في العاصمة اللبنانية أن إحدى وحداتهم الانتحارية وضعت عبوة ناسفة في قفص المصعد. وقد عمل رجال الإنقاذ طوال يومين - بما فيهما يوم السبت، بعد الحصول على إذن خاص من الحاخام الأكبر - فاستخرجوا 28 جريحاً وجثث 75 جندياً إسرائيلياً و15 مدنياً فلسطينياً ولبنانياً قُتلوا في الانفجار. وأرسلت تل أبيب لجنة تحقيق إلى المكان لتحدّد بالضبط مصدر تلك الكارثة. وسعياً من الحكومة وراء تهدئة الرأي العام الإسرائيلي الذي فقد صوابه بسبب حجم الخسائر، مالت نحو الاعتقاد بانجراف في التربة نجم عن الأمطار الغزيرة أو بسبب انفجار قارورة غاز في قفص الدرج. وأكّد التحقيق وقوع الانفجار في قفص الدرج.

في اليوم التالي لتلك المأساة، عقدت الحكومة الإسرائيلية اجتماعاً طارئاً، بغياب مناحيم بيغن، الذي سافر إلى الولايات المتحدة قبل ساعات من وقوع الانفجار. فقد سرّب سيد البيت الأبيض، قبل ذلك بـ 24 ساعة، خبر عزمه على أن يطلب من بيغن «بكل حزم»، الكفّ عن إقامة مستعمرات يهودية في الأراضي المحتلة. بل أعلن عن تكليف فيليب حبيب بمهمة جديدة من أجل «تنسيق الجهود» الرامية لإحلال سلام عام في الشرق الأوسط ومن أجل الاستقرار في لبنان. ولسوف

---

(1) الواقعة قبل 24 ساعة.

يتولى ريتشارد فيربانكس مساعدة حبيب في الملف الأول وموريس درابر في الثاني، وسوف يتوجهون إلى الشرق الأوسط فوراً، بعد زيارة رئيس الوزراء. والواقع أنّ مناحيم بيغن، ما كاد يصل إلى الولايات المتحدة حتى قفل راجعاً. فزوجته المريضة، أليزا، قد قضت نحبها[1]. وقد وصل إلى القدس ليشهد فقط وضع امرأته في لحدها، على جبل الزيتون، غير بعيد عن قبرَيْ فاينشتاين وبارازاني، وهما اثنان من مقاتلي الأرغون، انتحرا في زنزانتهما عام 1947، قبيل أن تنفذ بهما السلطات البريطانية، حكم الإعدام لقيامهما بأعمال إرهبية.

كان مناحيم بيغن متأثراً جداً، وقد التزم بالعزلة«شيفا»، وهو الحداد اليهودي لمدة سبعة أيام. وتساءل المحللون الإسرائيليون، كلٌ بدوره، طوال سبعة أيام إن كانت سلسلة المآسي التي تعرّض لها وعاشها - صبرا وشاتيلا والهجوم العمالي والتفجير في صور ووفاة زوجته - ستترك آثارها على مواصلة نشاطاته السياسية.

قام أمين الجميّل، في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، بزيارة للمملكة العربية السعودية، هي الزيارة الرسمية الثالثة خلال سبعة أسابيع من توليه السلطة. وعقد الرئيس اللبناني ثلاثة اجتماعات مع الملك فهد بن عبد العزيز، أثناء إقامته التي استغرقت 36 ساعة. أما وهو الواصل الأخير إلى بلاط العظماء، فقد طلب من العاهل الوهابي العون والمشورة لا سيّما بشأن المفاوضات التي لا بدّ أن تبدأ حكماً مع تل أبيب. وكانت طريقة ذكية للحصول على الضوء الأخضر من السنّة. فاتصل فهد هاتفياً برونالد ريغان، بحضور الجميّل، ملحّاً على ضرورة الانسحاب الإسرائيلي من لبنان ومتعهّداً بممارسة ضغوط على دمشق للتوصل إلى انسحاب سوري. وقد ذكر البيان المشترك في ختام الزيارة بكل وضوح رفض لبنان لكلّ ما من شأنه المساس بالتضامن العربي وبدعم كفاح منظمة التحرير الفلسطينية، في سبيل عودة الشعب الفلسطيني إلى وطنه. وكرّر أمين العبارة ذاتها التي تفوّه بها أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. وأشارت الصحافة السعودية بوضوح، إلى أن الرئيس اللبناني كان ينبغي أن يعقد في الرياض لقاء مع ياسر عرفات. وقد أُلغي اللقاء في اللحظة الأخيرة، بداعي سفر الزعيم الفلسطيني إلى موسكو لحضور جنازة بريجنيف.

صرّ الأسرائيليون على أسنانهم، لا سيّما وأنّ جورج شولتز أكّد أنّ اتفاقية سلام بين إسرائيل ولبنان مرغوبة على أعلى مستوى، على الرغم من أنّه لا يزال مبكّراً الطلب إلى بيروت توقيع مثل تلك المعاهدة. واشتدّ سعير الصحافة الإسرائيلية. فكشفت لقاءات أمين الجميّل في المغرب مع أبي أياد، وأحاديثه الهاتفية مع حافظ الأسد، وعرّجت على خطابه في الأمم المتحدة وندّدت في مقالاتها كافة بجحود المسيحيين في لبنان. وأبدى المسؤولون الإسرائيليون، بمن فيهم الأقرب إلى

(1) نتيجة تعقيدات قلبية ذات صلة بإصابتها بالربو، وبواقع أنها رفضت التوقف عن التدخين بالرغم من مرضها.

«القوات» تشاؤماً عميقاً. فضاعفوا من التحذيرات الموجّهة إلى بيروت. لقد كلّف لبنانُ إسرائيلَ غالياً: أكثر من ثلاث مئة وخمسين قتيلاً، وأزمة سياسية عميقة مع حليفهم الأميركي، وأزمة أخلاقية داخلية تسعى لحنة كاهان لسد ثغراتها، وعزلة شبه تامة على الساحة الدولية. وتأتي لتتوّج ذلك كله، تقارير أجهزة الأمن السرّية الإسرائيلية، فتتحدّث عن عودة انبعاث لعدة خلايا سرّية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية. كان البعض قد بدأ ينادي بالعمل «على طريقة يتنام»، مطالباً بالانسحاب حتى خط 40 كم، أي إعادة التموضع عند الحدود التي يتطلبها حصراً أمن إسرائيل. ولزم الجيش الإسرائيلي الصمت، فيما أشتد أكثر فأكثر سعير الصدامات في الشوف. أما أرييل شارون، الذي كان يتابع عن كثب المحادثات بين سامي مارون والرباعي كيمحي وتامير وناوت ولوبراني، فظلّ وحده مطمئنّ البال.

في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، عاد إلى لبنان فيليب حبيب، الذي كان يجهل كل شيء عن ذلك الاتصال، سعياً وراء إطلاق محادثات رسمية بين الإسرائيليين واللبنانيين. وعرض، وهو الأمين لسياسة الخطى الصغيرة التي يعتمدها، قصر المناقشات على انسحاب الجيش الإسرائيلي وعلى تسويات أمنية.

لقي الاقتراح الأميركي صدى مناسباً في بيروت. ثم قصد فيليب حبيب دمشق حيث استقبله وزير الخارجية عبد الحليم خدام. وقد رفض هذا الأخير رفضاً قاطعاً، أي انسحاب جزئي أو متزامن للقوات السورية والإسرائيلية. وفي تلك الأثناء استرعى خدام نظر حبيب إلى أنّ مخطط ريغان، الذي هدفه النظري هو السلام في الشرق الأوسط، يلتزم الصمت التام حيال مصير مرتفعات الجولان التي احتلتها إسرائيل بعد حرب 1967 ثم ضمّتها إليها في 1980. كان فيليب حبيب لا يزال في دمشق حين قام عناصر الحرس الثوري الخمينيون الإيرانيون، القادمون في بداية حزيران/ يونيو إلى البقاع عبر دمشق **للكفاح ضد العدو الصهيوني**، بالهجوم على ثكنة الشيخ عبد الله التابعة للجيش اللبناني والتي تشرف على «بعلبك». وراقب جنود دمشق الذين يحيطون بالمدينة وضواحيها الموقف دون تتدخل. كانت الرسالة واضحة: **نحن أيضاً يسعنا القيام بدور سلبي**. لكنّها لم تفسَّر على ذلك النحو. وسلك فيليب حبيب درب القدس من غير أن يقابل حافظ الأسد. لقد قدّر المبعوث الأميركي أنه ينبغي أولاً تسوية مسألة صغيرة كالمكان الذي ستدور فيه المحادثات بين الإسرائيليين واللبنانيين. فاقترح خلدة، في جنوب بيروت بالنسبة إلى لبنان ومستعمرة «معالاي هاهاميشا» القريبة من القدس. فالتزمت الحكومة الإسرائيلية بتعنّت شارون ورفضت العرض الأميركي جملة وتفصيلاً. إنه الطريق المسدود. طريق مسدود يلائم وزير الدفاع كل الملائمة. لقد كان بحاجة للوقت ليصل بالمساومات السريّة مع المبعوث اللبناني إلى نتيجة مربحة.

كان سامي مارون يناقش وحيداً حيال الإسرائيليين وقد وصفه ديفيد كيمحي قائلاً: لم يكن

فكره ليتعطل قط، فهو يتفحص نقطة فيتناولها بالبحث من الأطراف كافة قبل استبعادها لتناول نقطة أخرى. كان في واقع الأمر مفاوضاً مثالياً[1].

فبعد أن يدرس «المبعوث» مع أمين الجميّل جدول أعمال اجتماعه، يصعد إلى حوامة إسرائيلية في «الزوق». ثم تأتي سيارة لاصطحابه من نقطة الهبوط – أرض عسكرية على العموم – لتقوده إلى مسكن أحد المفاوضين الإسرائيليين في الضاحية الشمالية من تل أبيب أو إلى المكان الرسمي «المقرّ الصيفي لرئيس الوزراء». وهنالك، في واحد من الأبنية الحديثة القابعة خلف الأشجار، يغلق الباب على نفسه في غرفة عادية مع محاوريه. وفي المساء، يسلك الدرب المعاكس فيتوجّه مباشرة إلى بعبدا ليقدّم تقريراً للرئيس. وبين مرة وأخرى كان ديڤيد كيمحي وأفراهام تامير ومناحيم ناڤوت هم الذين يقومون بالانتقال. ولدى هبوطهم من الحوّامة في الذوق، يتولى أمرهم رجال الموساد المقيمون فيقودونهم سرّاً إلى واحدة من شقق «المبعوث» غير بعيد عن صيدلية «برتي» في الأشرفية. وكان يصلها خط هاتفي مباشر مع القصر الرئاسي. وقد سعى جهاز الأمن[2] الذي يديره إيلي حبيقة، إلى وضعه على خط التنصت. وهكذا علمت القوات اللبنانية بوجود هذه «المفاوضات» التي لم يحدّثهم عنها الإسرائيليون ولا أمين الجميّل.

كانت المناقشات وعرة وصعبة .وقد أكّد مارون[3] **أنّها مساومة حقيقية. فالموقف الأساسي الإسرائيلي حول الاتفاقية الأمنية يتطلب تشكيل قوة خاصة في جنوب لبنان مكلفة بحماية حدودهم الشمالية. وهي قوة يمكن أن تكون لبنانية وقد تكون سورية كما قال أوري لوبراني بشيء من السخرية. يبقى تحديد تشكيلها وسلطتها. وشيئاً فشيئاً توصل لوبراني مع توالي الاجتماعات إلى الاقتناع بقبول فكرة وحدة محلية مشكلة في قسمها الأكبر من أعضاء جيش لبنان الجنوبي المدعمين ببعض الشيعة والدروز**[4].

أثارت مناقشات سامي مارون مع الإسرائيليين والتحوّل الذي اتخذته الأحداث في الشوف، قلق القوات اللبنانية. فجرت العودة مجدداً إلى دراسة موقف انكفاء جغرافي: «دولة للمسيحيين». فأكّد الجنرال إبرهيم طنوس[5] الذي كان يحضر المناقشات قائلاً: **ينبغي لطموحنا السياسي أن يظلّ الـ 10452 كيلومتراً مربعاً. لكن ينبغي أن نناقش في ما بيننا سراً فكرة إمكانية العودة إلى «العرين» في**

---

(1) ديڤيد كيمحي، كتاب الخيار، م س.

(2) جهاز المخابرات في القوات اللبنانية.

(3) من سامي مارون لآلان مينارغ.

(4) بدءاً من عام 1983 كان جيش لبنان الجنوبي مشكلاً بنسبة 75 ٪ من الجنود الشيعة الذين تدفع تل أبيب رواتبهم، فيما تستطيع عائلاتهم التوجه للعمل في إسرائيل.

(5) ضابط في الجيش اللبناني قاتل إلى جانب الميليشيات المسيحية في عامي 75 - 76 قبل أن يلتحق في الجيش ليصير بعد بضعة أشهر القائد العام للجيش للبناني.

حال الضرورة. فينبغي علينا تحديدها (الدولة) دون إعطائها هوية ورسم حدود أرض قابلة للدفاع عنها عسكرياً مع الارتكاز على السلسلة الغربية (جبل لبنان) . ويمكن أن يكون الحد الأدنى هو «العرين» الذي كان في أيدينا قبل دخول الإسرائيليين.

إنّ القوات اللبنانية في عدم قدرتها على إحداث انقلاب في الوجود الديموغرافي الإسلامي باشرت استكشاف الوسائل للتوصل إلى جعل المسيحيين الأكثرية لـ 100 عام في منطقتهم. فقرّرت وضع حد «للتسلل» وعمليات شراء الأراضي من قبل المسلمين. وسعت إلى إقناع المهاجرين بالرجوع إلى البلاد وإيقاف الهجرة بوسائل اقتصادية وبمخطط أمني مدعّم.

إنّ مؤسسة بشير الجميّل التي أنشئت بعد موت الرئيس المنتخب بقليل، وجدت ذاتها منوطاً بها القيام بدور مماثل لدور الوكالة اليهودية. ومن جملة ما ستقوم به تسهيل العودة إلى الوطن أمام الذين لجأوا إلى الخارج أثناء الحرب[1] . أمّا في الشوف فقرّرت القوات اللبنانية التخلّي عن الثكنات تدريجاً لإقامة مخططات دفاعية في كل قرية مسيحية بالاعتماد على السكان ودعمهم بوحدات صغيرة من الميليشيات. وجرى إرسال سمير جعجع إلى الجبل لوضع هذه الاستراتيجية موضع التطبيق.

دخل اللبنانيون الثمانية، الذين يتشكل منهم وفد القوات اللبنانية، باب فندق البلازا في تل أبيب بلباس مدني. ففي مساء 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982 غادروا الزوق في حوّامة حطت في شمال المدينة، ثم نقلتهم سيارات الموساد إلى المؤسسة الفندقية على شاطئ البحر.

وفي حدود الساعة التاسعة مساء وصل إلى الفندق كل من مناحيم نافوت (مندي) يصحبه أفنير أزوالي (فيليب) وسيمون المحلل صاحب السراويل الفضفاضة البنية اللون دائماً والذي كان يشبه سيرج غينسبورغ كثيراً، وزياما ديفون[2] . إلّا أن ديون لم يجتذب انتباه اللبنانيين بشكل خاص، على الرغم من أنّه الأكبر سناً في الفريق، والحاضر ضمن وفد الموساد للمرة الأولى. غير أنه كان بموقع عيني أوري لوبراني وأذنيه، وهو الذي بدأ يتولى بنفسه، شيئاً فشيئاً، كامل الملف اللبناني. لقد «نسي» مندي أن يقول لهم إنه سوف يغدو السيد الإسرائيلي الوحيد في لبنان تحت سلطة أريل شارون المباشرة. كان ديون، وقد تجاوز الستين، ذا مظهر شرقي جداً، فهو قصير القامة له صلعة محاطة بشعر أشيب وكان سفيراً لإسرائيل في عدة بلدان من أميركا اللاتينية قبل انتهاء حياته الدبلوماسية مديراً لقسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية. وما إن أحيل على التقاعد حتى أصبح المستشار المقرب جداً من أوري لوبراني فتبعه إلى كل من إيران وأثيوبيا. ومع أنه يجيد الإنكليزية

(1) سوف يقوم أمين الجميّل اعتماداً على حزب الكتائب بإلغاء هذا المشروع وجعل دور هذا الصندوق يتحول إلى مجرّد ذكرى وعون للأيتام ومنح دراسية للطلاب.

(2) زياما صاموئيل بالبولونية، مسقط رأس ديفون.

والعربية والفرنسية إجادة تامة فإنّه لم يتفوه بكلمة واحدة أثناء ذلك اللقاء مكتفياً بمراقبة أعضاء الوفد اللبناني والإصغاء إليهم.

انحصر النقاش أساساً بالإجراءات الواجب اتخاذها لمواجهة الحملة الصحفية المعادية للمسيحيين اللبنانيين والتي امتدت لتشمل وسائل الإعلام كافة في إسرائيل. لقد أخذ الموساد على محاوريه عدم القيام حتى الآن بإقامة لوبي في تل أبيب للدفاع عن مصالحهم. فكان جهاز الاستخبارات مرغماً على القيام سرّاً بالحد من نشاط الدروز الإسرائيليين لدى الصحفيين.

وفي صباح اليوم التالي، التقى فادي أفرام ورفاقه، مع ديفيد كيمحي والجنرال أفراهام تامير[1] في دار الضيافة التابعة للموساد. فذكر لهما الرجلان بالتفصيل، من غير الإشارة إلى مفاوضاتهما مع سامي مارون، الخطوط الدنيا التي لن تنزل تل أبيب إلى ما بعدها. وقال تامير مؤكداً: **لن نقبل بالوصول إلى نتيجة أقل من تلك التي حصلنا عليها مع مصر، وذلك قبل أن يعرض عليهم قائمة بالنقاط الواردة «في تسويات الأمن» التي صوتت عليها الحكومة في 11 تشرين الأول/ أكتوبر. وخلص تامير إلى القول ليس لاتفاقية أمنية أن تضع المسيحيين في حالة خطر، ضمن موقف لا يستطيع أحد أن يتوقع ما سيكون عليه المستقبل. لكن ينبغي للأقليات كافة أن تعيش.** لم يعترض أي أحد من محاوريه. غير أنّها المرة الأولى التي يشير فيها شخص رسمي إسرائيلي إلى الأقليات غير المسيحية إشارة واضحة.

أضاف كيمحي قائلاً:

– لست متشائماً بشأن هذه المفاوضات، لكنّ الجوّ السائد حالياً بين شعبينا جوّ خطر. إنّ العطف على لبنان الذي كان قائماً في إسرائيل قد اختفى تقريباً. فيجب علينا نحن وأنتم أن نتولى هذا التحالف وإلاّ فإنّ قسماً كبيراً من شعبنا سوف يطالب بالانتهاء من ذلك وإلى الأبد. قولوا لرئيسكم إنّ الدرب الذي يسلكه درب خطر لأنّ الإسرائيليين لا يفهمونه. أقول لكم ذلك بكل مودة وهنالك يومياً تهجمات سياسية ضدنا. إنّ هذا خطر جداً! إذا ما وقع صاروخ كاتيوشا على شمال البلاد كان ذلك كارثة سياسية بالنسبة إلى حكومتنا. ينبغي أن نعمل كل شيء لمنع المنظمات الإرهابية في لبنان من الاعتداء على إسرائيل.

انسحب المفاوضان. وبعد دقائق، وصل وزير الدفاع ومستشاره أوري دان. استقر الجميع حول مائدة بيت الضيافة في المدراشا. وألح شارون مرة أخرى على ضرورة إقامة محادثات مباشرة بين بيروت وتل أبيب من دون الأميركيين.

وأكّد قائلاً:

(1) يصحبه كل من: مناحيم نافوت (مندي)، وأفنير أزوالي (فيليب) وميكي أرمور (ماريون).

– لا يسعنا بعد كل ما تعرّضنا له من خسائر، أن نعود إلى وضع ما قبل الحرب. وجلّ ما يريده الاسرائيليون اليوم، هو أن ننسحب إلى خط الـ 45 كم وأن ندعكم تتصارعون في ما بينكم على قدر ما تشاؤون. ولسوف يرجع السوريون ولن يعود الرئيس الجميّل يخرج من قصر بعبدا. وإذا ما طلبتم مني اليوم أن أسدي نصيحة ما للحكومة، على نحو ما كنت أفعل قبل شهر، لرفضت. فهي قد لا تقبل بها. إنّي أحافظ على مواقفنا الحالية بكثير من المشقة ويجيبونني قائلين: **ألا فليأخذهم الشيطان.** سوف نكون مرغمين على اتخاذ بعض الإجراءات في جنوب لبنان لضمان أمننا. ليس من يقبل أن تتعرّض كريات شمونة[1] للقصف مجدداً. لقد أصدرت الأوامر لوحداتنا لتفادي التعرّض لخسائر أخرى. لقد قمنا بصرف الاحتياطيين ولم نحتفظ على الساحة إلّا بالعدد الضروري. إيّاكم والظن أنّا نفضّل الدروز! بل نحن، خلافاً لذلك، لا نحبّهم. وأقول لكم قول ودّ، إنّا قد نكون مرغمين، بسبب ما نتعرّض إليه من ضغوط، على عدم التفاوض إلّا بشأن احتياجاتنا، ويظل ما تبقّى من شأنكم أنتم. وفي كل يوم، يُقْدِم أمين الجميّل على أمر جديد. فهو يسعى إلى لقاء السوريين. ورغب في لقاء أبي إياد في روما، وكان هذا الأخير منشغلاً يوم كان هو في المغرب. الناس هنا على علم بذلك. . . ولم يعد بوسعي الدفاع عن تلك السياسة.

– فسأله فادي أفرام:

– وما تقترح؟

– ينبغي البدء بوضع حدٍ للمناورات! ولِمَ لا يسعنا الاجتماع في بيروت؟ ولِمَ لا تكون المفاوضات على مستوى وزاري؟ . . . يسعني أن أؤكّد لكم إنّا سنتفاوض رسمياً مع لبنان تفاوض حكومة لحكومة، وإلاّ فلن نتناقش.

– فسأل القائد الأعلى للقوات اللبنانية:

– وهل تظنون أنّ بداية المفاوضات الرسمية سوف تغيّر علاقاتكم بلبنان؟

فردّ مندي قائلاً:

– كلّ ما في الأمر أن نعرف إن كنّا سنفيد من العمل الذي قمنا به في لبنان. فينبغي لهذه المفاوضات أن تكون إيجابية وجادة وطبيعية. والمسألة الدرزية تندرج ضمن هذا الإطار.

– فأمّن شارون على كلامه:

– أشعر أنّ السرعة تعوزنا. فالوضع خطير جداً. وما عاد بوسعنا دخول بيروت بسبب القوة متعددة الجنسيات والجيش اللبناني. ولقد لمس المسلمون ضعف الرئيس الجميّل. والسوريون يتلاعبون. ومنظمة التحرير الفلسطينية تعمل تحت أغطية شتى. ولسوف يعملون شيئاً فشيئاً لحين أن

(1) بلدة صغيرة في شمال إسرائيل على مرمى من الأراضي اللبنانية وغالباً ما كانت هدفاً لراجمات الصواريخ الفلسطينيين من نوع «أرغن ستالين».

تجدوا أنفسكم مجدداً في وضع عام 1975. هنالك مسيحيون ومسلمون يوافقون على العلاقة مع إسرائيل. وليس على الرئيس الجميّل سوى الاعتماد عليهم.

– فباح أفرام قائلاً:

– لقد قال لي: إنّي ماض بعيداً، لكن بأقلّ خسائر اقتصادية ممكنة مع العرب.

– فثارت حفيظة شارون:

– لن تخسروا شيئاً لأنّ السعودية والخليج معنيّان بالاقتصاد اللبناني. وهل تظنّون أن بوسع الدول العربية الاستغناء عن 300 ألف لبناني يعملون فوق أراضيها؟ إنّهم بحاجة إليكم مثلما أنتم بحاجة إليهم، بل ربما أكثر. إنّ مشاعرنا حيالكم تتبدّد ساعة فساعة. وكلّ رحلة يقوم بها أمين، وكل واحد من خطاباته، وكل قبلة يمنحها لأبي إياد أو للآخرين، تزيد في تسريع هذا الواقع. فما تفعلون؟ لقد وقع لنا مئات الضحايا! لقد وقع لكم مئات الضحايا! فكفّوا عن تقبيلهم! وهل تظنون أنّ القبلات المتبادلة مع الفلسطينيين سوف تفيدكم؟

– والمسيحيون بدأوا يفقدون الصداقة التي كانوا يمنحونكم إياها بسبب مشاكل الدروز. إنّهم يتساءلون عمّا إن كنتم معنا أم ضدّنا. نحن لم نُصَب بمثل تلك الخسائر كلّها أيام السوريين. ولدينا معلومات تثبِت أنّ ضبّاطاً وجنوداً من الدروز الإسرائيليين يساعدون الدروز اللبنانيين.

– فردّ الوزير متعجّباً:

– هاتوا أعطونا أسماءهم! يمكن حقاً أن يكونوا من جنود الاحتياط. إنّ الدروز يخدمون في جيشنا منذ خمسة وثلاثين عاماً. وكثر هم الذين اليوم من قوات الاحتياط. ينبغي أن أطّلع على التفاصيل بأسرع ما يمكن. ولا مناص من معاقبتهم. نحن لن ندعم الدروز ضدّ المسيحيين أبداً.

فأضاف أفرام قائلاً:

– نحن متيقّنون من أنّ قسماً كبيراً من رجال جنبلاط ألعوبة في يد الإرهابيين.

فسأل شارون قائلاً:

– وما تقترحون؟

– ينبغي نزع سلاحهم. نحن نتكلّم عن الجنبلاطيين الذين تدرّبوا في سورية أو في روسيا. وبدأ المسيحيون يقولون إنّ الإسرائيليين لا يتولون حمايتنا ولا يدعوننا ندافع عن أنفسنا بأنفسنا. فما نفع الثكنة إن تكن عاجزة عن التحرّك؟ أنّ جثث الأشخاص التسعة الذين اختطفوا بالأمس في كفرنبرخ قد عُثِر عليها في بئر. وكان بينهم طفلان.

– أنتم تضعون في حسبانكم المعضلة التي تواجهني اليوم! أن أتوجّه إلى الكنيست لأوضح للنواب أنّ علينا نزع سلاح الدروز!

فصحح أفرام قائلاً:

– سلاح الحزب التقدّمي الاشتراكي، لا سلاح الدروز!

فأجاب شارون بحركة من يده:

– ليس هنا من يقيم فرقاً بين الاثنين. وهل أقع، فيما لو شئت إقناع حكومتي، على جملة واحدة تلفّظ بها الشيخ أمين تختلف عما يهرف به وليد جنبلاط؟ ولسوف يسألونني لِمَ علينا أن ندعم أمين الجميّل؟

– ولكن من أجل دعم المسيحيين!

فقال شارون مشدّداً القول:

– لن يكون لدينا مجدّداً، من يُقيم فرقاً. إنّ كل ما يعلمون هو أنّ هنالك رئيساً وحكومة يناصباننا العداء.

– والشيعة؟

– إننا ندعمهم على نحو ما كنّا ندعمكم في ما مضى. لقد زوّدناهم بأسلحة خفيفة في جنوب لبنان كي يبعدوا الإرهابيين الذي يريدون دخول قراهم. لكنّا لم نقم بتدريبهم هنا قط. لقد فعلنا ذلك حيال شيعة العراق أو إيران في ما مضى. لكنّا لم ندرّب شيعة لبنان البتّة! لم نقم بذلك ولن نقوم به أبداً!

التقى وفد القوات اللبنانية، بعد ظهر يوم 23 تشرين الثاني/ نوفمبر، بالمسؤولين العسكريين. كان مناحيم ناڤوت وأڤنير أزوالي يرغبان في العثور على حلّ للخروج من «ورطة الشوف». فقاما بتنظيم لقاء مع الجنرالين مناحيم آينن وأمنون ليبكنز[1] الذي كان يتولى قيادة وحدات الجيش الإسرائيلي على الأرض، والعقيد إريتس شايكي[2] الذي عُيّن لتوه مساعداً للجنرال ميثير داغان في ياكال وأيضاً مع الجنرال أوري ساغي، رئيس المكتب الثالث[3].

بادر أنطوان بريدي بشنّ هجوم على محاوريه:

– صعدنا إلى الشوف تحت حمايتكم. وشعر المسيحيون من بعد أنّهم هنالك في أمان. أما الآن فلا يسعهم أن يفهموا السبب الذي يجعلهم يخسرون في بحر أسبوعين، بوجودكم ومراقبتكم لكل شيء، خمسين قتيلاً بينهم نساء وأطفال كما في كفرنبرخ. إنّهم يطالبون بأن نقدّم لهم تفسيراً،

---

(1) سوف يعيّن على رأس جهاز آمان «المخابرات العسكرية» باسم أمنون شاحاك. سوف يترأس بهذه الصفة، بناء على طلب من وزير الدفاع اسحق رابين، في 16 أيلول/ سبتمبر 1988، وبالتعاون مع إيهود باراك، الذي كان آنذاك معاون رئيس أركان الجيش الإسرائيلي دان شمرون، العملية الهادفة إلى قتل أبو جهاد (خليل الوزير) في سيدي بو سعيد على بعد 40 كم إلى الشمال من تونس العاصمة. فتولى قيادة هجوم قوة الكومندوس من سايرت ماتغال من على طائرة بوينغ 707 تابعة لسلاح الطيران الإسرائيلي وتحمل لوحة مدنية رقم 4X.007.

(2) يعرفه زعماء القوات اللبنانية معرفة جيدة. فهو الذي كان مسؤولاً عن دورات «يوم» «دورات هيئة الأركان» التي يتبعها ضباط الميليشيا المسيحية في مستعمرة شيفاييم إلى شمال تل أبيب على طريق حيفا.

(3) مكتب عمليات هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي.

وأقول بصراحة إنّا لا نملك من جواب. لقد طلبتم إلينا القيام برفع حواجزنا، فقمنا بذلك وكانت خسارتنا خمسة قتلى.

فقال الجنرال آينن مستذكراً:

– كنتُ الداخل الأول إلى بيت الدين فقمتُ بطرد وحدة من الجيش اللبناني من ثكنتها، كي تتمكنوا من التمركز فيها. وقد نجم عن انتشاركم توتراً وقلقاً لدى الدروز. وسوف أسوق إليكم بعض الأمثلة. حين قامت قواتكم ببناء استحكامات في الثكنة، جاء الشيوخ يشتكون. وهاكم مثالاً آخر: كانت رغبة الدروز، في القرى المختلطة، أن يظلوا سادة المنطقة، فضيّق عليهم قدومكم إلى الشوف. فكان أمراً حتمياً أن يؤدي ذلك إلى تفجّر في الوضع. وقد أدركوا سريعاً جداً أنّ النظام الديمقراطي الإسرائيلي يتيح لهم أن يتصرّفوا فأفادوا منه. ومن ناحية أخرى فإنّ أمين الجميّل يعقد اجتماعات حول الشوف، ونحن لسنا مدعوّين لحضورها لكن علينا تنفيذ القرارات التي تُتخذ فيها من دوننا. بودّي أن أصف لكم كيف تقع الأحداث: إنّ اشتباكات كفرنبرخ قد بدأت في بريح. كنت أنا حاضراً. دخلت سيارة من عندكم إلى منطقة درزية عن طريق الخطأ. وخلافاً لما اتُّفِق عليه بين طائفتي القرية، حصل تبادل في إطلاق النار بين راكبي السيارة وحاجز درزي. فتدخّل بعض أفراد ميليشيا القوات اللبنانية. فوقع العديد من الدروز بين قتلى وجرحى. بل إنّ بعض الجثث كانت مشوّهة. فردّوا عبر مذبحة كفرنبرخ.

– إنّ الكثير من الأشياء التي تمّ الاتفاق عليها مع فؤاد أبو ناضر لم يجر تنفيذها. هاكم مثالاً: بعد أن تمّ الاتفاق بيني وبين فؤاد حول ما ينبغي عمله لتهدئة الوضع، جرى في اليوم ذاته تفجير ثلاثة مخازن يملكها دروز في عاليه. وأطلقت القوات اللبنانية النار على الدروز الذين طلبوا أن نتدخّل. فأصدرت الأوامر لدباباتنا بقصف كل منزل تنطلق منه عيارات نارية ولسوف أبقي عليها.

فقال فادي أفرام بمرارة:

– أرى وفق طريقتك في عرض الأشياء، أنّك تضع القوات اللبنانية والجنبلاطيين على المستوى ذاته، من غير أن تأخذ بعين الاعتبار تحالفهم مع السوريين والفلسطينيين. أنتم لا تأخذون بعين الاعتبار الوجه السياسي للأحداث. فهل تظنّون أنّ الشوف درزي؟

فحاول مناحيم آينن تجاوز ذلك بقوله:

– إنّه لأمر يستدعي إعمال الفكر فيه.

فذكّر قائد القوات اللبنانية:

– إنّها منطقة ذات أكثرية مسيحية.

فردّ الضابط الاسرائيلي قائلاً بهدوء:

– والدروز يعتبرون أنّها درزية. فلست أنا بالقاضي الذي يقرّر لمن تعود. لقد اتخذنا قراراً بعدم

السماح «للقوات» بالانتشار في الشوف بعد الآن. ولئن كان في نيتكم خوض معركة فيها، فإنّ حظوظكم بالنجاح ضئيلة، زد أنها، سياسياً، لا تستحق ذلك.

فأكّد أفرام قائلاً:

- إنّ منطقة الشوف هي الامتداد الطبيعي لمناطقنا نحو إسرائيل. وهي حيوية من أجل علاقاتنا بكم.

فأضاف أبو خليل قائلاً:

- أنا من الشوف. أما وودي الحاضر هنا فمن معاصر بيت الدين[1]. لبثنا سبع سنين غير قادرين على الوصول إلى بيوتنا. نحن لا نرغب في احتلال هذه المنطقة، نريد فقط أن نرجع إلى بيوتنا. أما في واقع الأمر، فالمسألة الحقيقية ليست هنا! ينبغي أولاً تحديد دور المسيحيين في لبنان. هل ينبغي إعطاؤهم نوعاً من التفوّق أم لا؟ ليس لنا أن ننسى أنّه لم يعد للمسيحيين في الشرق سوى هذا الجزء الصغير من الأرض، الذي هو لبنان. ولئن رغبت إسرائيل في بلد صديق، فينبغي أن يكون ذا أكثرية مسيحية.

فتدخّل أوري ساغي قائلاً:

- أنتم تعلمون حقاً أنّي لست سياسياً ولا رجل دولة. بودي فقط أن أقول لكم صراحةً إنّ ما يجري يضايقني. وإنّ قلبي، كما أكثرية الإسرائيليين، ميّال إلى القوات اللبنانية. لكنّ الكثير من الناس عندنا قد تأثروا بالأحداث الأخيرة. لقد وصلنا إلى نقطة جعلتنا نجد أنفسنا محاصرين بمشاكلكم الداخلية. عليكم العثور على حل كي تعيشوا في ما بينكم. فليست بنا من رغبة في أن نغدو شرطة الشرق الأوسط عامة، ولا لبنان خصوصاً. عليكم أن تفهموا وضعنا وألا تسيؤوا فهم كلامي. نحن راغبون في حلّ المشكلة اللبنانية على المدى الطويل. فلا تعقّدوا الأمور. أنا على علم بأنّ قائد الأركان[2] يدعمكم، فلا تنغّصوا عليه عيشه. ولئن استمرّ ذلك، فمن الممكن أن نكون مرغمين على الانسحاب من غير أن نكون بلغنا أهدافنا المشتركة. نحن أمام خيارين اثنين: إمّا أن نغادر لبنان على الفور، وإمّا أن نقوم بتسوية كل شيء بالقوة. فعليكم أن تختاروا، ونحن أيضاً.

وأضاف مندي:

- علينا أن نتخذ على الفور إجراءات عملية لمنع الوضع من التدهور أكثر. ولسوف نفكّر في التفوّق المسيحي لاحقاً.

فساق روجيه ديب ملاحظة:

- لو ترفضون فقط الكلام مع جنبلاط وتقولون ذلك علناً، فسوف يكون ذلك هاماً جداً من أجل إضعافه.

---

(1) قرية مسيحية في الشوف.

(2) رفائيل إيتان.

فقال مندي مبدياً تعجّبه:

- بكل تأكيد! فلا ينبغي فعل شيء لمساعدة جنبلاط عقاباً له على المواقف التي اتخذها أيام السوريين والفلسطينيين. . .

فقال مناحيم آينن مقاطعاً:

- أنا لست متفقاً مع مندي. إذ لا يسعنا قطع اتصالاتنا بجنبلاط. علينا التعامل مع الأطراف كافة الماثلة على أرض الواقع. فالوضع الراهن دعَم جنبلاط دعماً قوياً. إنّ ما جرى في كفرمتى وعاليه وبعورتا قد أعاد إليه الزعامة الدرزية. فينبغي عليّ، إن شئت وقف إطلاق النار، أن أتصل بالمسؤولين على الأرض، أي بالجنبلاطيين بالنسبة إلى الدروز.

فقال روجيه ديب متعجباً:

- إنّ حجة اتصالاتكم العسكرية بهم غير مقبولة. فأنت تدعّمون قوامهم السياسي.

وقال أفرام متوعّداً:

- لن نعتدي على أحد، لكن إذا اعتدى أحد علينا فسوف نردّ بقوّة. وهذه على كل حال هي طريقتكم أنتم.

تلك كانت المرّة الأولى التي يعبّر فيها ضباط كبار من الجيش الإسرائيلي، تعبيراً على تلك الدرجة من الوضوح، عن تقديراتهم للوضع في الشوف وعن منظورهم للدور الذي ينبغي أن يؤديه الدروز. فلم يعد المسيحيون حلفاء، بل مجرّد شركاء على الأرض مثلهم في ذلك مثل آخرين. بل الأسوأ أنّ الدروز، لا سيّما جماعة جنبلاط، قد أضحوا محاورين لا يمكن تجاوزهم، وأنّ الجنود الإسرائيليين يريدون خطب ودّهم. وهكذا فقد اصطفّ الجيش الإسرائيلي على نسق جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلي (آمان) حيال الكتائب. بل قال ذلك علناً. وبقي الموساد وحده يضعهم تحت جناحه. وكان موقف مندي يبرهن على ذلك. والمفارقة أنّ زعماء القوات اللبنانية لم يرغبوا في فهم ذلك، أو لم يخرجوا منه بأي استنتاج. والحصيلة واحدة. أما وقد غشّي على أبصارهم بفعل الدور السياسي الذي كان لهم أيام بشير، والذي كانوا راغبين في المحافظة عليه، فقد أضحوا مكفوفين. كانوا يتعلّقون تعلّقاً يائساً - وبلا طائل - بالإمكانات المزعومة حول تحسين العلاقات بين أمين الجميّل وتل أبيب.

ما إن عاد فادي أفرام إلى بيروت، حتى صعد، بطلب من الرئيس اللبناني، إلى بعبدا. وقدّم القائد العام للقوات اللبنانية، طوال أكثر من ساعتين، تقريراً لأمين، حول المحادثة التي قام بها توّاً. وذكر بالتفصيل ما ينتظر المسؤولون السياسيون والعسكريون من المفاوضات، لا سيّما من حيث شكلها، وهي هامة لمواجهة الرأي العام لديهم. ولفت نظر الرئيس، في حال فشل المحادثات، إلى مخاطر انسحاب إسرائيلي مبكّر وسريع حتى خط الـ 40 كم، الذي لن يتيح للبنانيين الوقت لتنظيم

أنفسهم من أجل سدّ الفراغ الذي سيخلّفه ذهاب الجيش الإسرائيلي. وألحّ أفرام أيضاً على أمين من أجل أن يستقبل مناحيم ناڤوت. فاصطدم برفض قاطع.

في يوم الأحد التالي، 28 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1982، دعا حزب الكتائب القاصي والداني في العالم المسيحي إلى كنيسة أنطلياس للاحتفال بالذكرى الـ 46 لتأسيسه. ووضعت الخطب المتتالية على قدم المساواة، الاحتلالات العسكرية للبنان، بما فيها الإسرائيلي، للمطالبة بانسحابها. وهو الموضوع الذي كان يفصّله أمين الجميّل منذ أيام عديدة، أمام زوار قصر بعبدا، والذي كانت تستأنفه الصحافة اللبنانية. أما فادي أفرام، فطالب في خطابه بإنهاء حالة العداء مع إسرائيل. [. . .]، وأكّد من أعلى المنصة قائلاً: **هنالك هذه المرة، غالب ومغلوب. فالغالب هو الخيار اللبناني والذين قاتلوا في سبيله. أما المغلوب فهي الأفكار المستوردة والذين أمّنوا لها غطاء معنوياً. [. . .]** ثم واصل قائلاً: **ولئن كنا نطالب ضمن هذا المجال بالتعامل مع إسرائيل على أسس واقعية، فذلك للأسباب التالية:**

– ضرورة إقامة علاقات خصوصية بين الأقليات كافة في الشرق الأوسط. فاللبنانيون هم في هذا المجال آخر شعب يقيم علاقات مع الإسرائيليين.

– الحاجة التي تجد بلادنا ذاتها فيها باتباع حركة السلام والتغيير حتى لا تدفع من بعد فاتورة السلام العربي الإسرائيلي.

– موقفنا لا يرتكز على مصلحة لبنان فقط، بل أيضاً على مصلحة دول الشرق الأوسط كافة لأنّ الحفاظ على حالة الحرب بين لبنان وإسرائيل من طبيعته تأخير انسحاب الأجانب من بلادنا [. . .]

قوبل خطاب فادي أفرام بأشكال شتى: غادر كميل شمعون الاحتفال متعلّلاً بموعد عاجل. لكنّ الحال لم تكن كذلك في تل أبيب. فقد تولى الموساد الردّ عليه مشيراً أنها المرة الأولى التي يقوم فيها زعيم مسيحي بالمطالبة علناً بإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل فيما هو يلمّح للسلام. واستطاع جوزيف أبو خليل أن يقدّر آثاره، بعد ذلك ببضعة أيام، حين استقبل استقبالاً حافلاً من قبل الصحافة الإسرائيلية. وقد قاده صحفي إسرائيلي، هو أوديد زاراي، من هآرتس، إلى النشرات الإذاعية والتلفزيونية. ولقد استغلّ إقامته أيضاً ليسعى وراء تحريك السبعة آلاف ماروني في إسرائيل لتحويلهم إلى مجموعة ضغط.

وعلى الرغم من رفض أمين الجميّل استقبال الرجل الثاني في الموساد، في لقاء على انفراد، على نحو ما كانت تقترح القوات اللبنانية، فقد عقد عدة لقاءات مع ديڤيد كيمحي وأوري لوبراني وأڤراهام تامير ومناحيم ناڤوت، ضمن إطار مناقشات سرّية تولى قيادتها سامي مارون.

جرى اللقاء الأول في الأيام الأخيرة من تشرين الثاني/ نوڤمبر 1982 في منزل مارون. وكان لقاء صاخباً. استقبل الرئيس اللبناني الإسرائيليين دون ابتسامة واحدة وبدأ الكلام وفي صوته رنّة

غضب[1]. فعبّر عن قلة ثقته بالدولة العبريّة ولامهم بسبب قائمة كاملة من الاعتراضات، مع التشديد على كل اعتراض بضربة من قبضة يده على الطاولة: تكلّم بيغن عنه مع الأميركيين بعبارات مشينة! شارون سخر منه مؤكّداً أمام عسكريين لبنانيين أنّه لا يستطيع أن يبسط سيادته إلّا على قصره! يسمح الإسرائيليون لأنفسهم بالقيام باتصالات مع مجموعات مسيحية أخرى! إنّهم يدعمون الدروز، بل يمدّونهم بالسلاح ليطردوا المسيحيين من الشوف! وكلّما واصل الرئيس اللبناني الكلام، اصطبغ وجهه بلون أرجواني وزادت حدة صوته.

وهتف في وجه محاوريه قائلاً:

– إن كنتم تريدون حقاً رؤية لبنان مقسّماً مع وجود عسكري إسرائيلي دائم على أرضه، فلِمَ لا تقولون ذلك علناً؟ فيسعني التوجّه حينئذ إلى الأمم المتحدة فأقول إنّ بلادي ترزح تحت احتلال أجنبي. قد لا أملك السلطة، لكن لي عنفواني ولسوف أدافع، عنه بكل ثمن.

ثم عاد الرئيس إلى هدوئه بالسرعة التي ثارت بها ثائرته. فطالب إسرائيل بأن تضع حداً للاتصالات التي تقيمها مع مختلف الأطراف الفئوية في لبنان، ولحملة التشهير الصحفية التي تُشَنّ عليه. وطلب من تامير ومن كيمحي العثور على حلّ لإيقاف المعارك بين الدروز والمسيحيين. ثم تناول جدول أعمال الاجتماع، فأكّد أنه على غير استعداد لأن يقبل من جانبه بإقامة المحطات الثلاث للإنذار المبكّر التي تطالب إسرائيل بإقامتها في الجنوب بعد انسحاب القوات الأجنبية كافة من لبنان. وأخيراً ذكّر أمين الجميّل بالطابع السري للمناقشات الدائرة، فقال:

– أخشى أن تقوم سورية، إذا ما علمت بالأمر، بالمطالبة بتسويات مماثلة في وادي البقاع. لا سيّما وأنّ لديها قوات محليّة تقف إلى جانبها. فبوسع تلك القوات أن تتصدّى بالسلاح لوحدات الجيش اللبناني التي ينبغي لها أن تنتشر على طول تلك الحدود.

أصغى الإسرائيليون الثلاثة للرئيس الجميّل صامتين. فلقد أدركوا يومذاك، وفي ذهنهم صورة أمين النفسية، التي رسمها، بطلب من الموساد، بروفسور يهودي أميركي، عالي المستوى، من جامعة هارفارد، إلى أي حدٍ لم يكن أمين الجميّل زعيماً طبيعياً على نحو ما كان أخوه[2]. فلقد بدا لهم عديم الاستقرار إلى حد كبير، في حين كان الوضع رجراجاً. وقدّر الإسرائيليون، من غير وضع وطنيته موضع أدنى شك، أنه على وعي كبير برفعة مستوى صورته بالنسبة إلى التاريخ، وأنّه ليس من شأن التعبير عن عنفوانه سوى التستّر على قدرات فكرية محدودة. وغدا الإسرائيليون مقتنعين بأنّ أمين عاجز عن الإحاطة بوضع بكامله، وأنّه غير قادر على الخروج بحصيلة جمعية لتركيبة عقلانية. فلقد فَقَدَ، خلال حديث، خيط أفكاره مرات عديدة. والمؤثّر في الأمر أنّه كان يعي ذلك بكل

---

(1) من ديفيد كيمحي لآلان مينارغ.

(2) المصدر السابق نفسه.

وضوح. وكان هذا على كل حال السبب في ثورات غضبه حين يقوم مستشاروه بـ«تصحيح» فكرته[1]. كان أخوه على هذا الصعيد مغايراً له كلّ المغايرة. زدْ أنّ بشير كان يتمتع بلدنية الذين يجيدون شرح أفكارهم شرحاً واضحاً ومتجانساً، وذلك ما لم يكن أمين بقادر عليه. ولقد أدّى وعي بِكْر آل الجميّل هذا الفارق، إلى ترسيخ بغضٍ شديد في نفسه حيال أخيه الأصغر. كما كان، إلى حدٍ كبير، السبب الكامن وراء رغبته في التصرّف على نحو مغاير وفي استبعاد المقرّبين من بشير، الذين من شأنهم القيام بمقارنات.

كان أرييل شارون مأخوذاً بذلك الفيض من الرومنطيقية المسيحية التي تجلّت لدى بشير، كما اعتنق تمام الاعتناق الأفكار التي كان يعبّر عنها بكل حزم التحالف المقدّس بين الأقوياء من أجل الحرية. إلّا أنّ صبرا وشاتيلا ومعهما المواقف التي اتخذها أمين علناً قد أرجعته بعنف نحو الواقعية والبراغماتية اللتين يزهو الإسرائيليون بهما. كان الوزير الإسرائيلي يعرف الدور السوري في لبنان، معرفة تامة. ولئن كان قد سعى إلى إلغائه، أو إلى الحدّ منه على الأقل في عهد بشير، فهو يواجه الآن نوعاً من يالطا بين أعداء.

كان سامي مارون يعي ذلك التطور. ولسوف يقول[2]لم أطلب إلى الإسرائيليين، في أي وقت من الأوقات، أثناء المحادثات التي أجريتها معهم، أن يقتلوا السوريين أو أن يدحروهم. وذلك لأنّ الإسرائيليين كانوا يتصلون بالسوريين اتصالات واهية، عن طريق الأميركيين. ولأنّي كنت مقتنعاً من بعد بأنّ الطرفين معاً قد توصّلا إلى توزيع للأدوار في لبنان عن طريق واشنطن. كانت المحادثات السرّية «رياضة بدنية حقيقية». ولئن لم تشأ إسرائيل التعبير عن الأمر صراحة، فإنّ الأولوية لم تعد قائمة لديها على اتفاقية سلام، بل على التوصّل إلى اتفاقيات تتيح لها أن تتولى تأمين أمنها بذاتها. إذ كان من شأن اتفاقية سلام، وفقاً للأصول الموجبة، أن ترغمها على الانسحاب انسحاباً كاملاً من لبنان، وأن تضع ثقتها في الجيش اللبناني، وهو ما ترغب في تفاديه، ما دام لم يُعَد تنظيمُه.

أصيب الشوف بالشلل التام في الأسبوع الأخير من تشرين الثاني/ نوفمبر 1982. فقد أُغلِقت طرق عاليه وضواحيها في وجه حركة السير. وتجاوبت في أرجاء الليالي الرشقات المتفرّقة وأصوات الانفجارات. ولم تفتح المتاجر أبوابها منذ منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر. وضاعف الإسرائيليون عدد دورياتهم على الطرق المقفرة من غير إدخال الطمأنينة إلى قلب أحد. وفي الأول من كانون الأول/ ديسمبر، استدعى أمين الجميّل إلى قصر بعبدا، كلاً من كميل شمعون ووليد جنبلاط وجوزيف أبو خليل وجوزيف الهاشم، سعياً وراء العثور على حلّ لذلك المأزق. فطالب شمعون والزعيم الدرزي بنشر الجيش في الجبل. وتشكّى جنبلاط بمرارة من تصرّف «القوات» حيال أعضاء طائفته.

---

(1) من سامي مارون لآلان مينارغ.

(2) المصدر السابق نفسه.

وأكّد قائلاً:

- ليس من حلّ عسكري. فالحل السياسي قمين وحده بوضع حدٍ للقلاقل. وينبغي للتنازلات أن تكون متبادلة من طرفنا وطرف القوات اللبنانية.

لم يوجّه الجميّل دعوة إلى «القوات» لحضور ذلك الاجتماع. وعلى الرغم من قرب أبو خليل إلى القوات اللبنانية، فقد رفض الكلام باسمهم. أما سعي الرئيس للقيام بدور الإنتماء المزدوج فلم يحقّق نجاحاً. وعليه فقد قرّر الجميّل دعوة الجميع، إلى اجتماع مساء اليوم التالي، بمن فيهم القوات اللبنانية.

لدى خروج جنبلاط من القصر الرئاسي، توجّه إلى منزله لاصطحاب زوجته جيڤير[1]، والذهاب للغداء في بيت صديقه، المحامي توما عريضة، المقيم في حيّ القنطاري في بيروت الغربية. وقد أقام عريضة ذلك الغداء بطلب من واحد آخر من أصدقائه، هو ميشال سماحة، ليتيح له اللقاء بالزعيم الدرزي سرّاً. كان سماحة، بوصفه عضواً في القوات اللبنانية، ويعمل مع إيلي حبيقة في جهاز الأمن، مكلّفاً بسبر غور جنبلاط حول بعض الحلول المتعلّقة بالشوف.

وكان، في الوقت ذاته، كل من فادي أفرام وفؤاد أبو ناضر ونازار ناجاريان (نازو)، وهو المنسّق لأنشطة «القوات» في الجبل، يستقبلون على مائدة الغداء في مطعم في الكرنتينا، الجنرال رفائيل إيتان الذي يقوم بجولة تفتيشية في لبنان. وأثناء الغداء، وجّه مناحيم ناڤوت، الذي كان يرافق رفّول، لومه للقوات اللبنانية بسبب حالة الحرب الدائمة مع الدروز.

فقال أفرام ببرود:

- أنت تتحدّث وكأننا الأصل في هذه المشكلة. أكرر لك القول إنّ جنبلاط هو الذي يعارض وقفاً لإطلاق النار.

فسأل إيتان قائلاً:

- جنبلاط هو المشكلة؟

- هو وميليشياته! إنّهم يتلقون أسلحة وذخائر، ويتدرّبون على أيدي الفلسطينيين. ولن يهدأ لجنبلاط بال قبل أن يصير السيد الأوحد على الساحة. فإما أن نغادر المنطقة، وإما أن يتمّ قهر جنبلاط عسكرياً.

- هل حاولتم أن تعقدوا معه اتفاقاً سياسياً؟

- بلى! لقد سبق أن اجتمعت معه في قصر بعبدا فطلب أن ننسحب من الجبل.

فسأل رفّول:

---

(1) التي طلّقها فيما بعد.

- وما تأثير الرئيس على جنبلاط؟
- تأثيره ضعيف!
- وما سيحصل إنْ غادرنا الشوف الآن؟
فقال أفرام مؤكّداً:
- سوف ينفجر الوضع وسيهاجموننا.
- وهل سيربحون؟
- لا أعتقد ذلك لأنّنا لم نستخدم حتى الآن طاقاتنا المخزونة كلها.
فردّ عليه رفائيل إيتان قائلاً:
- لا أعتقد، استناداً إلى منطقة الدروز التي أعرف، أنّ الأمر سيكون يسيراً وفقاً لما تزعمون. ينبغي أن تأخذوا بعين الحسبان، أنّ حكومتنا لن تمدّكم بالعون في مثل هذا الموقف.

في حدود الساعة الخامسة عشرة والنصف، خرج وليد جنبلاط من عند توما عريضة وجلس وراء مقود سيارته المرسيدس الرمادية المصفّحة ورقم لوحتها 27000. فجلست زوجته إلى جانبه وصعد رجلا الحرس الشخصي إلى المقاعد الخلفية. فناور ببطء ليخرج من مرأب المبنى الذي فيه منزل المحامي ليسلك شارع ميشال شيحا، ثم انطلق مسرعاً. وكانت سيارة حمراء من نوع فيات، متوقفة بعيداً قليلاً، بموازاة الرصيف، فانفجرت حين مرّ بقربها. إنّها أربعون كغ من الديناميت والهيكسوجين كانت مموهة تحت المقاعد وجرى تفجيرها عن بعد، مما أدى إلى تطاير ألواح الزجاج كافة في الشارع. واقتُلِعَت أشجار من جذورها. واشتعلت النار في تسع سيارات. واندفع شهود في المكان لاستخراج جنبلاط من المرسيدس وقد صدم إلّا أنّه أصيب بجُروح خفيفة في يده ورأسه وقدمه اليسرى، وأصيبت زوجته برضوض. أما أحد رجلي الحرس الذي كان قد أنزل الزجاج ليخرج من النافذة سبطانة سلاحه فقد قُتل على الفور ومعه اثنان من المارة. بينما أصيب الآخر وتسعة وثلاثون شخصاً بجروح. ونُقل الزوجان على الفور إلى قسم الإسعاف في المشفى الأميركي.

أعلنت الإذاعات عن الاعتداء في الدقائق التي تلت. فهرع الدروز بالعشرات إلى أمام المؤسسة الشفائية وهم يشدّون شعورهم ويجأرون صارخين: بالروح، بالدم، نفديك يا وليد. وعلى الفور اتصل جنبلاط من قسم الإسعاف متوجّهاً بتعليمات صارمة إلى المسؤولين في الحزب التقدمي الاشتراكي في الجبل لكي يفرضوا الهدوء. واتصل بالإذاعات، واحدة إثر الأخرى، مكرّراً أنه لم يصب بسوء، تهدئة للنفوس. ووجدت قوات الأمن، خارج المبنى، أكبر العناء في احتواء أنصاره الذين يريدون رؤيته بأي ثمن. اتصل نواب الجمهورية جميعهم بجنبلاط للاطمئنان إلى صحته. وأذاعت القوات اللبنانية بياناً «يدين الاعتداء» مؤكّداً على أنّ المقصود به محاولة لإثارة اضطرابات طائفية وإسقاط السعي وراء حل للمشكلة اللبنانية. وفي المساء ذاته، عاد جنبلاط وزوجته إلى مسكنهما في المصيطبة، الذي وضع تحت حماية مشددة من قبل رئيس الوزراء شفيق الوزّان.

قال له إيلي حبيقة عام 1986، أثناء «عشاء مصالحة» أقيم في دمشق بدعوة من نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام، بعد أن جرى طرد زعيم الاستخبارات في «القوات» من المعسكر المسيحي على يد سمير جعجع. وقد قصّ عليه إيلي حبيقة[1] بعدئذ بالتفصيل، كيف جرى ترتيب ذلك الاعتداء - وترتيب اعتداءات أخرى من بعد[2] - بفضل مساهمة غير مقصودة من ميشال سماحة. فقال وليد جنبلاط معلّقاً: **لو نجح في ذلك لكان أدّى عملاً رائعاً.** الأمر الأكيد أنّ القوات اللبنانية ما كانت ستزيل الدروز، لكن، والحق يقال، كان من شأن طائفة بلا زعيم أن تضيع بها السبل تماماً في تلك المرحلة الحرجة .**لبثت ثلاثة أسابيع بعد الاعتداء، لا أخرج إلاّ نادراً جداً. وكنت أتوجّه من وقت لآخر إلى المطعم معرّضاً الزبائن وأصحاب المطعم لأشدّ المخاطر، فقد كانوا يخافون أن ينتهوا بسببي**[3].

(1) إيلي حبيقة سوف يقتل في انفجار سيارة لدى مرور سيارته في بيروت في 24 كانون الثاني 2002.

(2) سيرد ذكر ذلك لاحقاً.

(3) من وليد جنبلاط لآلان مينارغ، 1992.

5

اتفاق بلا طائل

كانت شوارع بيروت الغربية فارغة. 1982 وظلت المخازن مغلقة، طوال نهار 2 تشرين الثاني/ نوفمبر، تعبيراً عن استنكار للاعتداء الذي استهدف وليد جنبلاط.

أما الشوف فقد التهب من ناحيته منذ الضحى. لقد تجابهت القوات اللبنانية المتمركزة في سوق الغرب وعناصر ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي بالأسلحة الثقيلة والمدفعية، من حين قيام الجنود الإسرائيليين المتمركزين في هذه المدينة بالانسحاب انسحاباً مباغتاً لسبب ظل مجهولاً.

في حدود الثامنة مساء افتتح «مؤتمر الجبل» في القصر الرئاسي. وجلس حول الرئيس اللبناني كل من كميل شمعون ووليد جنبلاط بيديه المضمدتين، وجوزيف أبو خليل عن القوات اللبنانية، وجوني عبدو ومعاونه ميشال حروق وكذلك جوزيف الهاشم رئيس قطاع الكتائب في الشوف. ومنذ البداية طالب شمعون مجدداً بالانتشار الفوري للجيش في الجبل. أما جنبلاط فردّ من جانبه أنّ من الضروري، بدايةً، العثور على اتفاق سياسي بين الأطراف المعنية كافة، وبادر قائلاً:

– سعى والدي إلى قلب الحكومة بالتحالف مع الفلسطينيين للتوصّل إلى نظام علماني وقد فشل. ونحن حاولنا مع السوريين وفشلنا. أما أنتم فنجحتم واستلمتم السلطة. ومن حينها وعملكم يلغي دوري في الشوف. لذلك السبب أضحى التفاهم السياسي ضرورياً.

جرت مناقشة اقتراح شمعون بالتفصيل. وبطلب من أمين، هتف جوني عبدو إلى وزارة الدفاع ليعرف عدد الرجال الجاهزين على الفور لتشكيل قوة ضاربة.

فجاء رد القائد الأعلى للجيش الجنرال إبرهيم طنوس مقتضباً:

– ثلاثة ألوية[1].

فأمر أمين الجميّل قبل إنهاء الاجتماع قائلاً:

---

(1) 1200 رجل.

- أمّنوا التنسيق مع الإسرائيليين وتقدّموا.

كان «الحياد الملتزم» للإسرائيليين قائماً وجاء لينضم إليه تحكيم الجيش اللبناني. واستعدت القوات اللبنانية لتعاون «إلزامي» مع هذا الجيش. وأعطيت تعليمات للرتب الدنيا من وحدات القوات اللبنانية المنتشرة على الأرض، لكن مع شيء من التحفّظ: ليس لشيء أن يمسّ نظامنا.

ترافقت هذه التعليمات بإجراءات ترمي إلى إنقاص مخاطر المجابهات مع الدروز. وقد لاحظ قائد القوات اللبنانية أنّ الأكثرية الساحقة من قتلاهم سقطوا أثناء التنقلات على طرق الجبل. فاتخذ قراراً بالاقتصار على استخدام السيارات والملابس المدنية. وخططت القوات اللبنانية للقيام بتوجيه «ضربة عسكرية كبرى» ضد الحزب التقدمي الاشتراكي. فأنشأت «قوة ضاربة خاصة»[1] وأوكل أمرها إلى نازار ناجاريان (نازو).

كان نازو شاباً جريئاً طويل القامة أسمر اللون منبسط الأسارير. وهو أرمني كاثوليكي انتمى وهو فتي جداً إلى قطاع الطلاب في حزب الكتائب وكان تعميده الناري الأول في عين الرمانة عام 1975. توجّه في العام التالي إلى لندن لتكملة دراساته العليا التجارية، رجع عام 1978 للقتال في مركز المدينة قبل أن يتولّى زعامة القوات الخاصة في الميليشيا المسيحية المتمركزة في ثكنة أدونيس. وعُيِّن عام 1981 مسؤولاً عن التأهيل العسكري للطلاب وتوجيههم السياسي. وكلّفه فادي أفرام بالتنسيق السياسي والعسكري في الشوف وفي جنوب لبنان في 4 كانون الأول/ ديسمبر 1982.

أعلنت إدارة ريغان، الراغبة في تقديم العون لأمين الجميّل، ما وصفه إسحق شامير مبادرة أميركية غير ودّية حيال إسرائيل، عن: تجميد معونة للدولة العبريّة قيمتها 475 مليون دولار[2]. وعلّق وزير الخارجية الإسرائيلي بقوله: تسعى واشنطن لإقناع الدول العربية بضرورة دعم مخططها للسلام، ثم أضاف بحدّة: إنّ هذه المحاولة لإضعاف إسرائيل تشكل خطراً على السلام في الشرق الأوسط. ولكي تعبّر تل أبيب عن أنّها لم تتأثر بذلك فقد أعلنت عن إنشاء 35 مستعمرة إسرائيلية جديدة في الأراضي المحتلة وأعادت تأكيد رغبتها في حوار مباشر مع الدولة اللبنانية من غير وساطة الأميركيين. وقد صرح يهودا بن ميئير، معاون وزير الخارجية الإسرائيلي، قائلاً: ينبغي أن نكون مستعدين لمجابهة مع واشنطن حول هذه القضية. فلا يسعنا القبول بالعودة إلى صيغة الاتصالات غير المباشرة في حين كنا قد أجرينا اتصالات مباشرة مع الحكومة اللبنانية.

وجاء حدث لا سابقة له: فأرييل شارون، وكان في زيارة للولايات المتحدة، لم يستقبله أيّ

---

(1) وحدة دقيقة التنظيم مشكلة من عناصر من آفاق تقنية مختلفة خاضعة لقيادة موحدة، وتضع معرفتها تحت تصرف المجموع لإنجاز مهمة محددة.

(2) تلقّت إسرائيل منذ عام 1948 10 ٪ من مجموع العون الأميركي المخصص للدول الأجنبية، وتلقت إسرائيل من مجموع 251 مليار دولار وزعتها الولايات المتحدة منذ 1952 مبلغ 23,3 مليار (منها 10 مليارات و200 مليون دولار على شكل قروض عسكرية وما يقرب من 7 مليارات هبات عسكرية) ولا يدخل في حسابها مبلغ 277 مليون دولار منحتها واشنطن لإسرائيل لمساعدتها على استقرار اليهود السو?يت في الدولة العبريّة.

رسمي أميركي. وكان قد قال قبل بضعة أيام من سفره من تل أبيب، إنّ زيارته زيارة خاصة. إلّا أنّه أضاف: ليس متوقعاً حتى الآن القيام بأي لقاء رسمي. أما أثناء «رحلتيه الخاصتين» السابقتين في 1982، فقد استقبل من قبل ألكسندر هيغ في شهر أيار/ مايو ثم من قبل جورج شولتز ووزير الدفاع غاسپار واينبرغر في شهر آب. وكان يأمل أن يكون الأمر كذلك هذه المرّة. لكن الإدارة الأميركية عبّرت عن سخطها. وخرج شارون عن طوره حين أعلن في نيويورك أمام الجمعيات اليهودية الأميركية: إن الولايات المتحدة الأميركية ترتكب خطأ جسيماً بمحاولة ربط مسألة لبنان بتسوية أكثر شمولاً لمشكلات المنطقة. أما في شيكاغو فقد أدان مخطط ريغان متهماً واشنطن بالسعي لإعادة تثبيت أقدام منظمة التحرير الفلسطينية التي أصيبت بضربة قاسية عبر الهجوم الإسرائيلي على لبنان. كما صرّح لدى مروره في العاصمة الفدرالية قائلاً: لن يكون أمام أمين الجميّل مزاولة الحكم إلّا في قصره، مثل سابقه، ما لم يوقّع اتفاقية سلام مع إسرائيل.

ومن غير أن يتولّى البيت الأبيض الرد، أعلن عن جولة جديدة يقوم بها فيليب حبيب في الشرق الوسط. وسرت إشاعات، تسرّبت إلى الصحافة بكل مهارة، أنّه يحمل في جعبته «صيغة» جديدة تتيح للمفاوضات أن تنطلق؛ إنّها «المحادثات عن قرب». سوف يقوم الأميركيون (وهو حبيب في هذه الحال)، بتنقلات مكوكية بين الوفدين المقيمين في المبنى ذاته من غير أن يرى أحدهما الآخر أو يبادله الكلام، أي مثلما كانت عليه الحال في رودس أثناء المناقشات حول الهدنة. كان ذلك الاقتراح يلائم أمين الجميّل كل الملاءمة. وشاع على الفور جوّ من التفاؤل في بيروت حيث أُعلن عن افتتاح المفاوضات المرتقب.

ولم يطلْ عمر ذلك التفاؤل. إذ غرقت طرابلس، عاصمة الشمال، في حرب عنيفة ومباغتة. فقد قُتل في غضون 24 ساعة، 18 شخصاً، وجُرح 90 آخرون في سلسلة من المعارك في الشوارع ما بين الفلسطينيين وبين منظمات لبنانية موالية لسورية. أمّا في الشوف، فغدت الصدامات يومية بين القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي. وأدى كمين في الدوّار الرئيس في عاليه إلى سقوط قتيلين وتسعة جرحى في صفوف المسيحيين. وردّت القوات اللبنانية بقصف مدفعي ضد الأحياء الدرزية في المدينة. أمّا منع التجوال الإسرائيلي، الذي أُعلِن في العشيّة ليسمح للسكان بالتموّن، فقد أُعيد فرضه. وتحدثت الصحف مفصّلاً، بما فيها الأكثر معارضة للقوات اللبنانية، عن السلبيّة المتواطئة التي تميّز بها موقف وحدات الجيش الإسرائيلي المنتشرة في المنطقة. والحال أنّه كان بوسع الدروز التنقّل على الرغم من حظر التجوال والعبور دونما اعتراض من المواقع الإسرائيلية. فالدروز لا يريدون أن يسمعوا بوجود للميليشيات المسيحية في الجبل. وقد أوضحوا الأمر للمسؤولين العسكريين الإسرائيليين قائلين: كنا، قبل وصولهم، نعيش مع المسيحيين ولم يكن هنالك من مشاكل. فقطعت ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي دروب التموين على القوات اللبنانية. ولم يعد بوسع هؤلاء بلوغ مواقعهم إلّا بمعونة من الإسرائيليين. وهي معونة. كان ينبغي التفاوض عليها كل مرة، وبقسوة.

مشت المرجعيات الدينية المسيحية على رأس تظاهرة سلمية أمام قصر بعبدا، احتجاجاً على «مذبحة الجبل». وأرسل فادي أفرام، في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1982، رسالة مستعجلة إلى الجنرال رفائيل إيتان:

1- تقع مواكبنا في كمائن على الدوام، وهي متوجّهة نحو بحمدون والشوف. ومكان وقوعها بين حواجزكم، بل أحياناً على أقل من مئة متر من مواقعكم. ولقد سقط لنا على هذه الطريق، في غضون الأسبوعين الأخيرين، سبعة قتلى وخمسة عشر جريحاً.

2- يحول الجيش الإسرائيلي دون اتخاذنا مواقع دفاعية أو مواقع حماية على تلك الطريق التي تضمن الأمن لمواكبنا. يقول ضباطكم إنهم سيضمنون الأمن. إلّا أنّ شيئاً لم يحصل حتى الآن، ولا يسعنا الاستمرار في تكبّد الخسائر دون القدرة على الدفاع عن أنفسنا.

3- نرجوكم إصدار أوامر صارمة لوحداتكم في هذه المنطقة للقيام بشيء ما في سبيل مراقبة هذه الطريق الحيوية، أو دعونا نحن نقوم بذلك. [. . .]

4- نحن بحاجة لأن نعرف نياتكم بشأن هذه المنطقة. وإن لم تعودوا راغبين فينا، فقولوا لنا. [. . .] فالمماحكات على الأرض وسلوك الجيش الإسرائيلي تخلّف أسوأ الآثار على معنويات المسيحيين. فأرجوكم القيام بما يسعكم لإيضاح هذا الوضع.

مع خالص التحيات.

يقتضي المنطق بعد إرسال مثل تلك الرسالة، أن تتوقع القوات اللبنانية انسحاباً، أو على الأقل، إعادة انتشار على مواقع مأمونة أكثر. لكن لم يحصل شيء من ذلك. لقد كان مغشّىً على بصرها بالمنظور الاستراتيجي لإنشاء «عمود فقري» بين القطاع المسيحي و«العرين» وإسرائيل. كان ينبغي لهذا المحور أن يتألف من قرى مسيحية تصل عاليه وجزين بدروب مأمونة وقابلة للاستخدام من قبل الجميع. وما كان بوسع أي مسؤول في القوات اللبنانية أن يواجه قراراً يمكن اعتباره هزيمةً أو انسحاباً. لقد شعرت القوات اللبنانية شعوراً مشوشاً بأن انسحابها من الشوف في وقت محدد سوف يؤدي إلى هلاكها لأنه لا يعود لديها أي دور تؤديه، وذلك ما سيبرر في الوقت ذاته عزيمة أمين الجميّل على حلّها. فكانت تتشبث تشبثاً أعمى بالتفاصيل كافة التي في مصلحتها مثل تسمية زاهي بستاني[1] على رأس الأمن العام والجنرال إبرهيم طنوس[2] قائداً أعلى للجيش اللبناني وجوني عبدو مستشاراً عسكرياً للرئاسة.

---

(1) ولد في صيدا في أيار/ مايو 1947، وهو ابن الرئيس الأسبق لمجلس الدولة، يحمل مؤهل من مدرسة معوضي الشرطة في سان سير، في مون دور قرب ليون (1977-79) وعلى الرغم من أنه لم ينتسب قط لحزب الكتائب فقد كان أحد أقرب المستشارين لبشير الجميل.

(2) إبرهيم يوسف طنوس، ولد في القبيات (في الشمال عام 1929) تخرج من الكلية الحربية عام 1953، وفقد عينه اليمنى أثناء مجابهة مع الفلسطينيين.

استدعى فادي أفرام المسؤولين في «القوات» بعد عصر يوم 15 كانون الأول/ ديسمبر 1982، لدراسة طريقة لوضع حد لحرب استنزاف كانت تضنيهم في الشوف.

وقدم إيلي حبيقة تحليلاً للوضع:

- إنّ ما يقع هو الإشارة الأولى لمعارضة في وجه الرئيس وحزب الكتائب. فليست المعركة، في واقع الأمر، بيننا وبين الدروز أو الحزب الاشتراكي بل بينهم وبين الرئاسة. فالدروز هم الآن الواجهة المعلنة للمعارضة الفلسطينية والسورية والشيوعية والاشتراكية. فالمفاوضات مع جنبلاط لن تؤدي إلى أي مكان ما لم تدخل ضمن مجال المناورة. فنحن الآن بصدد فقدان جميع حلفائنا في حين أنّهم يحققون كسباً جديداً. فيتوجّب علينا أن نعود فنحدّد مقصداً عسكرياً جديداً.

فردّ كريم بقرادوني قائلاً:

- أنا أقف مع هذه المفاوضات! وأخشى أن نكون بصدد خسارتنا لمعركة الجبل لمجرد أنّنا لسنا نحن الذين نقودها وأن لا رغبة لنا فيها. هنالك ثلاث أوراق أساسيّة ليست في أيدينا: الرئاسة والإسرائيليون والأميركيون. فلا تنسوا أنّ الجيش الذي سينتشر في الشوف هو بقيادة طنّوس. إن هذه المعركة هي حرب لبنان الجديدة، ترمي إلى السير بأمين الجميّل نحو الفشل وتحييد الحل الذي اقترحه الأميركيون.

فذكّر فؤاد أبو ناضر، قائد أركان القوات اللبنانية، قائلاً:

- يتمثل مقصدي الآن بكل بساطة في محاولة فرض تعايش في الشوف وعاليه. فالحزب التقدمي الاشتراكي يؤكد الآن أنّ الإسرائيليين حلفاؤه. أعتقد أنّ علينا الإعداد لعملية عسكرية كبرى. وينبغي لكل واحد منا أن يكون مكلفاً بجناح. وأخشى ألاّ يكون لدينا من خيار سوى التصرف بقوة.

كان لدى القوات أيضاً موضوعٌ آخر يشغل البال: إنّها مضاعفة الاتصالات الإسرائيلية بمجموعات مسيحية مختلفة. فلم تعقد «سفارتهم» فقط صلات مباشرة مع رجالات السياسة - كانوا يتصلون بالقوات اللبنانية لمعرفة السلوك الواجب اتباعه - لكن فوق ذلك عقد الموساد اتصالات مع المكوّنات المختلفة للقوات اللبنانية. فبعد عملية «ألتالينا» في 7 تموز/ يوليو 1980 و«إعادة توحيد البندقية المسيحية»، طالب بشير الجميّل الإسرائيليين بأنّ كل ما يتعلق بالاستخبارات يمرّ عبر القوات اللبنانية. ولقد قبل «الحليف الجنوبي» بذلك قبولاً رسمياً لكنهم حافظوا في الخفاء على «صداقات» مع مختلف المكوّنات المسيحية. وهكذا فإنّ حراس الأرز بقيادة المفتش السابق للأمن العام إتيان صقر (أبو أرز) كانوا دوماً مدعومين مالياً من قبل الإسرائيليين.

وقد وجه فادي أفرام رسالة إلى مناحيم نافوت (مندي) في 17 كانون الأول/ ديسمبر 1982 جاء فيها:

كان التعاون مع الدولة العبرية في ميدان الاستخبارات طريقة «التسديد ثمن» الأسلحة والذخائر

التي ترسلها تل أبيب للميليشيا. فلديكم اتصالات تتعلق بالاستخبارات مع جورج عدوان (التنظيم) وأبو أرز (من حراس الأرز) وكميل مكرزل (حزب الوطنيين الأحرار). نحن نقترح وضع هذه الصلات كافة ضمن أقنية الاستخبارات الرسمية للقوات اللبنانية. أي عبّاس (إيلي وزّان) للاستخبارات العسكرية وإيلي حبيقة للاستخبارات العامة والمسائل الأمنية ولا يسعنا القبول بأن تقوم أجهزة عديدة بالعمل في آن معاً، على الأرض ذاتها وحول المواضيع والأهداف ذاتها بصورة عامة.

وقد وصله الجواب بعد ثلاثة أيام تحت صيغة من الرفض:

ليس هنالك من تغيير في ثوابت نشاطاتنا واتصالاتنا التي أنت على دراية بها ومعرفة عميقة. لقد أعلمناكم بأنشطة مكتب الشؤون الخارجية ومخططاته لزيادة الاتصالات التي سوف تسهم دون شك في عملية التطبيع.

التوقيع: مندي.

هنالك إذن ضوء أحمر جديد قد أضيء في العلاقات بين «القوات» والإسرائيليين. إنّ القوات اللبنانية، وقد أُخِذت على حين غرّة، يخامرها الشعور الآن بتهميشها. لقد كانوا مقتنعين بأنّ موقف تل أبيب حيالهم يصدر صدوراً مباشراً عن المواقف التي يتخذها أمين الجميّل. وكان لدى بعض قادة الميليشيا الانطباع المزعج بأنّهم صاروا في أيدي الإسرائيليين واسطة ضغط على أمين الجميّل. ومع ذلك فقد سعت القوات للقيام بمحاولة أخيرة لاجتذاب أمين الجميّل إلى «الواقع». فاقترحوا على واحد من مقربيه هو جوزيف الهاشم، المسؤول عن قطاع الكتائب في الشوف، الذهاب إلى إسرائيل والاستعلام بنفسه عن مواقف الدولة العبريّة.

أقلع جوزيف الهاشم من الدامور في 12 كانون الأول/ ديسمبر بعد العصر، يصحبه كل من جوزيف أبو خليل وأنطوان نجم. وهبطت بهم الحوامة، من طراز «بل 212» فوق أرض مطار عسكري في الجليل حيث نقلتهم طائرة من طراز داكوتا إلى تل أبيب. وبعد أن وضع اللبنانيون الثلاثة حقائبهم الصغيرة في غرفهم في فندق البلازا، توجهوا للعشاء عند مناحيم نافُوت (مندي) في الضاحية السكنية الصغيرة من رامات هاشارون إلى الشمال من تل أبيب. وأثناء تناول الطعام، جهد جوزيف الهاشم لأن يشرح للمدير المساعد لجهاز الموساد، وللجنرال أهارون ياريڤ مستشار شارون، ولأڤنير أزوالي (فيليب) موقف الرئيس أمين الجميّل حيال المفاوضات. وشرح له ياري موقف إسرائيل. لقد بدا الجنرال الإسرائيلي، الذي قيل إنّه قريب إلى حزب العمال، أكثر تعلّقاً بافتتاح المفاوضات منه بشروط الأشكال التي يفرضها وزيره. وفي صباح اليوم التالي التقوا في دار الضيافة للموساد بكلّ من ريحايا ڤاردي وزياما ديڤون. فالأول جرى تعينه توّاً منسّقاً مدنياً للأراضي المحتلة في لبنان. فعرض جوزيف الهاشم وأبو خليل «مأساة» الجبل وأفاضا في شرح القرارات التي اتخذت في «مؤتمر الجبل» في بعبدا، قبل 11 يوماً.

وأوضح لهم جوزيف أبو خليل قائلاً:

– نحن لا نريد أن تنسحبوا من طريق بيروت–دمشق، لكن فقط من المناطق التي تقع فيها اشتباكات، فالجيش اللبناني سيأخذ على عاتقه مناطق المجابهة التي تسبّب لكم مشاكل داخلية مع الدروز، كما في بريح وكفرنبرخ وعين زحلتا. وتستطيع القوات اللبنانية تسوية أمورها مع الجيش لا سيّما وأنّ طنوس قد صار القائد العام. فنحن لم تعد بنا من رغبة بالتسبّب بمشكلة لكم.

فأجاب اردي من غير التزام:

– سوف ننقل مقتراحاتكم إلى سلطاتنا، لكن أذكّركم بأنّ الدروز يريدون انسحاب القوات اللبنانية من الأماكن التي دخلوها بعد 6 حزيران/ يونيو.

فصاح أبو خليل مستهجناً:

– ذلك غير ممكن! فإنْ ننسحب، ينسحب المسيحيون المقيمون هنالك أيضاً. فيصير الشوف منطقة درزية خالصة.

فأعلن ريحافيا اردي قائلاً بجفاء:

– سوف نتولى حمايتكم إن كان في بيروت حكومة قوية مستعدة لبدء المفاوضات معنا. فهل من الممكن حتى ذلك الحين إزالة أسباب التوتر؟ ينبغي على القوات اللبنانية أن تظلّ في ثكناتها فلا تغادرها. فيسعنا حين ذاك ممارسة ضغط على الدروز ويتحقق لنا السلام في المنطقة.

فتمتم أبو خليل قائلاً: لا بأس! إنّ ما يطلبه اردي أمر مضمون.

ذلك أنّ جملة الإسرائيلي الأولى قد أفحمته. إنّ «حلفاء الجنوب» ما كانوا يوماً على مثل هذه الدقة والوضوح في مساومتهم.

فاستأنف اردي قائلاً:

– ينبغي علينا التفاهم على أعلى مستوى. فليس هنالك من اتصال مباشر بيننا وبين السلطات اللبنانية. إنّها مع ذلك الطريقة الوحيدة للتخفيف من التوتر. لقد شنّت الطائفة الدرزية عندنا حملة قوية ضد حكومتنا. فمن الممكن استدعاء الكنيست لمناقشة هذه القضية. ويُخشى أن تطلب إلينا الانسحاب حتى الجنوب.

فلاحظ جوزيف الهاشم قائلاً:

– الوضع في الجبل مرتبط إذن بتقدم المفاوضات. لكن ما الذي سيجري من الآن وحتى ذلك الحين؟ هنالك مسيحيون يسقطون كل يوم في المناطق الواقعة تحت المراقبة الإسرائيلية.

فسأل المنسّق المدني مستنداً إلى ملفه:

– تقول استخباراتنا إنّ في الجبل 10000 درزي مسلح. فما العمل؟

فردّ الهاشم:

– هل تسمح لنا حكومتكم بتوقيف الذين يفتحون النار؟

فرد ڤاردي رافضاً:

- ليس لذلك أن يحل شيئاً!

فأضاف ديون:

- إنّ اتصالاً مباشراً على أعلى مستوى سوف يحل المسائل كافة. ولا تنسوا أنّ السياق السياسي هام جداً.

فوافق أبو خليل الذي لم ترقه صراحة محاوريه:

- لابأس سنقوم باللازم للإسراع ببدء المفاوضات بين البلدين. نقترح عليكم أن تقبل إسرائيل بألاّ تكون القدس مكان المفاوضات...

فقاطعه ڤاردي بإشارة حاسمة من يده:

- هذه القضية ليست استراتيجية بل تكتيكية.

فاستأنف أبو خليل قائلاً:

- أما بانتظار بداية هذه المفاوضات فينبغي تهدئة الوضع في الجبل حتى أقصى مدى. فتظل القوات اللبنانية في ثكناتها وتتخذ القوات الإسرائيلية المنتشرة في المنطقة الإجراءات الضرورية لمنع الاعتداءات.

فرد ڤاردي:

- ممكن! ممكن! لقد نسيت أنّ على القوات اللبنانية أن تستخدم كل سلطتها للضغط على أمين الجميّل من أجل أن يبدأ المفاوضات بأسرع ما يمكن.

فهتف أبو خليل، وقد اغتاظ إلى حد ما بسبب المساومة:

- سوف نقوم بهذه الضغوط. والمسيحيون كافة يريدون اتفاقاً مع إسرائيل. وقبل بضعة أسابيع لم يكن ذلك عامّاً مثل ما هي عليه الحال الآن. وقد قال الرئيس الجميّل رسمياً: **نحن حريصون على أمن الأمم كافة في المنطقة ونحن مستعدون لمفاوضات دونما تعقيد**. ولدى المسلمين أعلن كامل الأسعد رسمياً وقوفه إلى جانب افتتاح مناقشات. نحن أقمنا اتصالاً مع الزعماء السنيين لإقناعهم بأنّ هذا الاتفاق لا يمكن تفاديه. وليس لكم أن تنسوا أنّ السوريين لا يزالون في الشمال وفي البقاع. وذلك يعني أنّهم سيطالبون باتفاقية أمنية مع لبنان إذا ما وقعنا نحن اتفاقية معكم. وفضلاً عن ذلك سوف يُبقون على الإرهابيين الفلسطينيين والعراقيين في لبنان. فسهّلوا الأمور، ولا تتمسّكوا بشرط القدس.

وأضاف جوزيف الهاشم قائلاً:

- ولا تنسوا أيضاً أن السلطة اللبنانية تتفاوض مع إسرائيل لا مع سوريا. وهذه نقطة هامة. فأنتم الدولة الأقوى في المنطقة وقد تضايقتم بسبب بضعة آلاف من الدروز؟ أما نحن فلدينا مليون مسلم ونصف مليون فلسطيني ولدينا استراتيجياً الدولة الأضعف في العالم.

وأكمل أبو خليل كلامه قائلاً:

– وتريدون فوق ذلك أن نكون أبطالاً. نريد التعاون لحل مشاكلنا المشتركة وأنا أتوجّه إليكم برجاء: ينبغي على بيغن وشارون الحفاظ على كرامة الرئيس في تصريحاتهما. وليس لشارون أن يكرّر على الدوام: إمّا أن يوقع اتفاقية معنا، أو أنه سيحكم داخل قصره فقط.

فلاحظ ڤاردي قائلاً:

– لقد طلب جنبلاط أن يقابل شارون. نحن حلفاؤكم وليس لنا أي اتصال به.

– فليقابله.

– هل أنت موافق.

– نعم.

فأوعز ڤاردي إلى أحد أعضاء الموساد الذي كان يدوّن ملاحظات أثناء اللقاء قائلاً:

– دوّن ذلك. إذن على مراحل: مفاوضات واتفاق قبل كل شيء، ثم يتولى الجيش اللبناني الإشراف على الجبل وأخيراً يعود إليه المسيحيون.

فسأل أبو خليل قائلاً:

– وما العمل لحين عقد الاتفاق؟

فوعد مندي، وهو الرجل الثاني في الموساد، والذي لم يتفوّه بكلمة خلال المناقشة قائلاً:

– ستسعى القوات الإسرائيلية لضمان الأمن هناك.

فتوجّه أبو خليل بالرجاء إلى ڤاردي قائلاً:

– ابذلوا جهوداً لتهدئة الدروز فهم الذين قتلوا المسيحيين وطردوهم.

فأمّن المنسق المدني على كلامه وهو ينهض قائلاً:

– أنتم على حق.

تزعزعت ثقة اللبنانيين الثلاثة في داخلهم نتيجة ما سمعوا، فتوجّهوا إلى حيفا لقضاء فترة بعد الظهر في مركز الكنيسة المارونية حيث الأب حرفوش، سعياً وراء تنظيم لوبي مسيحي يكون مناقضاً للوبي الدروز. وكانوا يجهلون أنّ هنالك نصّ اتفاقية حول مجرى المفاوضات الرسمية التي أجراها سامي مارون يجري وضع اللمسات الأخيرة عليها بين اللبنانيين والإسرائيليين في الوقت ذاته في مقرّ الموساد.

جرت كتابة المشروع النهائي من هذه الوثيقة[1] ليلة 12 – 13 كانون الأول/ ديسمبر 1982. إنّ المهمة التي بدأها سامي مارون مع مطلع تشرين الثاني قد انتهت بعد 40 يوماً من المماحكات المريرة. فقد وضع الفريقان قائمة بالإجراءات كافة التي يريد الإسرائيليون اتخاذها حول مسائل

(1) انظر الملحق رقم 2.

الأمن. وبعدئذ حصل سامي مارون، وكان ذلك هو الجانب الأكثر حساسية، على أماكن محايدة للمفاوضات، وكذلك على وفود من مستوى سفير لا مستوى وزير. كما حصل «المبعوث» أيضاً على أن يكون التطبيع نتيجة للانسحاب وليس سابقاً له. جرى إقرار الوثيقة من قبل وزارة بيغن في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1982. وبقي من بعدُ، إعلانُها رسمياً. واستعجل شارون ممثليه. فقال لهم باختصار: ينبغي لكلّ شيء أن يكون ناجزاً قبل قدوم فيليب حبيب إلى إسرائيل. فقد أضحت تلك النقطة مصيرية بالنسبة إليه.

تدهورت علاقاته مع الأميركيين بعد رحلته إلى الولايات المتحدة. ومنذ رحيل الفلسطينيين عن بيروت نشأت بينه وبين فيليب حبيب ودرابر وليويس، السفير الأميركي في إسرائيل، كراهية متبادلة وكامنة. فالرجال الثلاثة كانوا يثيرون أعصابه[1]. فهم يواصلون، وفق تقديره، سياسةً مكرّسةً لحرمان الدولة العبريّة من مكاسب الحرب. فكانت لقاءاته في الغالب عاصفة وكان صمويل لويس يذكر وزير الدفاع بعبارات بعيدة عن الدبلوماسية. وهنالك سبب آخر يجعل شارون شديد الاستعجال: إنّها قضية صبرا وشاتيلا، أو تحقيق لجنة كاهان على القليل. فالصحافة الإسرائيلية والعالم السياسي وقفا ضدّه. والقضاة أفهموه لتوّهم أنّ «قرارات» يمكن أنْ تُتَّخذ بحقه. فكان يستعد للمثول مرة ثانية. وهو في أمسّ الحاجة لإعادة تلميع صورته. فلا يسع الاعتراف العام بنجاح على هذه الدرجة من الأهمية سوى الإبقاء عليه في منصبه ولفترة وضع بنود الاتفاق موضع التطبيق على أقل تقدير.

كان وزير الدفاع، أثناء الاجتماع الأخير بين سامي مارون والإسرائيليين قد سافر. فطُرِح عندئذ السؤال لمعرفة كيفية إعلام الأميركيين بوجود هذا النص.

كان اقتراح «المبعوث» اللبناني أنّ أفضل وسيلة هي الطريق الدبلوماسية، فكل واحد من الفريقين يقوم بذلك من جانبه. لكنّ شارون لم يجب. فهنالك فكرة تعتمل في رأسه.

وما إنْ علم شارون، أنّ فيليب حبيب سيصل إلى تل أبيب بعد ظهر يوم الخميس 16 كانون الأول/ ديسمبر 1982، حتى توجه صباحاً إلى بيروت بحجة القيام بجولة تفتيشية سريعة على الوحدات العسكرية الإسرائيلية في لبنان. واتصل وزير الدفاع، من المطار العسكري الموقت في الدامور حيث استقرت طائرته، بسامي مارون معلناً عن وصوله إلى لبنان ورغبته في التوقيع على النص بالأحرف الأولى مع رسميين لبنانيين. فهرع «المبعوث» إلى قصر بعبدا لإعلام أمين الجميّل قائلاً:

– شارون في الدامور. لقد جاء لتوقيع الوثيقة.

فأجاب الرئيس اللبناني وهو في غاية السخط:

---

(1) من ديفيد كيمحي لآلان مينارغ.

– لا يهمني الأمر ولا أريد أن أراه. إنّه لم يُعلِم الأميركيين مسبقاً بوجود الاتفاق السرّي، وكان عازماً على إعلان ذلك بصوته أثناء المرور المعلن لفيليب حبيب في بيروت. ورفض رفضاً قاطعاً أن يقوم موظف في القصر بإعلام الوزير الإسرائيلي بذلك. أما سامي مارون الذي لم يشأ أن يقوم باتصال مباشر مع الوزير الإسرائيلي فوق الأرض اللبنانية فقد بعث بسائقه إلى الدامور ليعلمه بأنه لن يكون هنالك من توقيع.

امتلأت نفس أرييل شارون سخطاً بسبب رفض استقباله على ذلك النحو، فرجع إلى إسرائيل ليشارك في محادثات بيغن وحبيب. ورفض المحيطون به الإجابة حول الأسباب الصحيحة لانتقاله إلى لبنان. فكان من نتيجة هذا الموقف توليد إشاعة غير مؤكدة حول لقاء جرى بين الوزير ورسميين لبنانيين. ولم يشأ شارون الردَّ على الأسئلة كافة حول هذا الموضوع. إلّا أنه قبل أن يركب السيارة للذهاب إلى مقر رئيس الوزراء، ذكر أن اتفاقاً مع بيروت هو موضع بحث.

قال للصحفيين: **لقد توصلنا إلى حلحلة ترمي إلى وضع صيغة للتفاوض المباشر بين الإسرائيليين واللبنانيين. نحن قريبون جداً من مناقشات حول مسائل ذات طبيعة سياسية وأمنية ومن شأن ذلك أن يفتح الطريق في مرحلة لاحقة نحو سلام مع بلد عربي آخر.**

لدى دخول شارون إلى رئاسة الوزراء، كان متهلّلاً. ففي الأمس فقط، أسرّ السفير الأميركي صاموئيل ليويس، قائلاً لرئيس الوزراء مناحيم بيغن، أثناء لقاء تحضيري للاجتماع مع فيليب حبيب، إنّ واشنطن قد عيل صبرها وهي تنتظر رؤية مفاوضات تبدأ حول لبنان. كان أريك (شارون) جليّ الابتسام وفي نظرته حيال فيليب حبيب شيء من الازدراء وهو يسمع رئيس الوزراء يعلن قائلاً:

– إنّ وزير الدفاع لديه شيء هام يبلغكم إياه.

فاستلّ شارون من جيبه، بحركة مسرحية، ورقة مطويّة أربع طيّات فبسطها على الطاولة أمامه متمهّلاً، وحدّق في عيون الأميركيين بكلّ ثقة، مؤكّداً لهم:

– لقد عقدنا مع اللبنانيين تسويات سرّية تحت عنوان «عناصر وخطوط توجيهية أساسية».

فشرح الوزير على مدى ثلاث ساعات بحالها، مفصّلاً نتائج المحادثات مع «المبعوث». فقد تفاهم الفريقان على الوصول بأسرع وقت ممكن إلى اتفاقية شاملة تتعلّق بتطبيع العلاقات بين البلدين، والمسائل الأمنية وانسحاب القوات الإسرائيلية. وسوف يتضمّن التطبيع إعلان انتهاء حالة الحرب بين لبنان وإسرائيل، وفتح الحدود ومكتب اتصال إسرائيلي في بيروت إلى حين توقيع اتفاقية سلام. أما على النطاق الأمني فجرى الاتفاق على ألاّ يُستَخدَمَ لبنانُ أبداً قاعدة لنشاطات عدائية أو إرهابية ضدّ إسرائيل، وأن تقام ثلاث محطات إنذار مبكّر إسرائيلية على أرض جنوب لبنان وأنّه ينبغي للقوات المحلية (جيش لبنان الجنوبي) أن تندمج في بنية عسكرية وطنية تناط بها مسؤولية الأمن في تلك المنطقة. وأوضح شارون بعدئذ أنّ انسحاب القوات الإسرائيلية سيتم بعد الانسحاب

الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية من شمال لبنان ومن البقاع، وعودة الأشخاص المفقودين، وأجسام الإسرائيليين والأسرى المعتقلين من قبل السوريين والفلسطينيين. ومن بعد، عقد اتفاقية بين لبنان وسورية حول الانسحاب المتزامن للقوات السورية والإسرائيلية. أمّا الوفدان الرسميان اللذان سيناقشان هذه النقاط كافة، فينبغي أن يتشكّلا من ثلاث شخصيات مدنية وثلاثة من كبار الضباط. أمّا الاتفاق النهائي فينبغي التصديق عليه من قبل الحكومتين.

لقد حقّق شارون فوزاً مطلقاً. فنجح في شيء، صرّح فيليب حبيب قائلاً عنه إنّه مستحيل، وبرهن على مرأى منه أنّ الأميركيين قاموا حتى ذلك الحين بعرقلة المباحثات المباشرة. أما فيليب حبيب، الدبلوماسي المحنّك، فكظم غيظه. لكنّ غضبه انفجر على مداه في اليوم التالي، 17 كانون الأول/ ديسمبر، لدى توقّفه في العاصمة اللبنانية. ولقد حطّت الطائرة التي كانت تقلّه هو ودرايبر، - وهو حدث استثنائي - على المهبط الخاص بجنود المارينز في مطار بيروت. فطلب على الفور مقابلة مع أمين الجميّل ومضى مندفعاً نحو القصر الرئاسي من غير أن ينتظر الجواب.

قال للجميّل بصوت جليدي:

- إن كنت عازماً على التعامل مباشرة مع الإسرائيليين فلن نساعدكم من بعد! ولسوف ندعكم وشأنكم. كان الرئيس الذي أحاط به كل من غسان التويني وإيلي سالم ووديع حدّاد ممتقع الوجه. إنّ حليفه يتهدده بالتخلي عنه. وكان سامي مارون، الذي وصل في تلك الأثناء بطلب من الجميّل إثر الإعلان عن قدوم الأميركي، يسمع صخب الأصوات من وراء الباب. وفاض بحبيب الغضب فكان يرفق أقواله بخبط على الطاولة:

- إن كنتم تنوون ممارسة السياسة من دوننا، فأنتم وشأنكم!

وخرج من المكتب الرئاسي كالإعصار فصفق الباب من ورائه وتوجّه إلى الخارج بخطى سريعة وهو ينظر إلى الأرض.

وحين وقعت عين أمين الجميّل على «المبعوث» صاح به صيحة من دهته داهية:

- ماذا فعلت. فالأميركيون ساخطون عليّ. لم يعد بوسعنا أن نوقّع، وإلاّ فسوف يتخلون عنا. لم أعد راغباً في سماع شيء عن هذه القصة! سوف ترمي بكل شيء! سوف توقف كل شيء! لقد جعلتني أخسر الأميركيين![1]

شكّل الاتفاق اللبناني الإسرائيلي القائم على عملية مفاوضات، نكسة مزدوجة لفيليب حبيب. هنالك فشله على الصعيد الشخصي، إذ إنّ شخصاً مجهولاً قد نجح في تجسيد ما عجز هو عن القيام به. فمنذ أن بدأ يجوب الشرق الوسط مخوّلاً بسلطات تامة من الرئيس الأميركي، وجد أمامه

(1) من سامي مارون لآلان ميتارغ.

حقيقة الحلول التي كان يسعى وراءها. فتلك التي وضعها آخرون شكّلت إهانة حقيقية لشخصه وبلاده، ما دام قد فقد زمام المبادرة. وبعدئذ فإنّ تفاهماً غير مراقب من قبل الأميركيين بين الدولتين العبريّة واللبنانية، يعرّض للخطر على صعيد سياسي وشامل، مخطط السلام الذي أطلقه رونالد ريغان، ومعه المصداقية كلها وعمل الولايات المتحدة في المنطقة.

أما بالمقابل فإنّ فوز أرييل شارون كان تاماً، فبعد أن طاردته الصحافة بسبب الحرب في لبنان ومذابح صبرا وشاتيلا بدا كل شيء يبتسم له. لكن ليس للنصر أن يكون كاملاً ما لم يغدُ معروفاً من قبل الجميع. فكشف على صفحات معاريف في 18 كانون الأول/ ديسمبر عن أنّ اتفاقاً جرى التفاوض عليه مع بعض اللبنانيين وأنّ الزعماء الأميركيين قد أحيطوا به علماً عشية قيام تلك المحادثات المباشرة فقط. لكن ليس بتفاصيل الأهداف الخاصة بإسرائيل والتي نواصلها في اتصالاتنا. وفي اليوم ذاته نشر القصر الرئاسي في بعبدا تكذيباً قطعياً لـ لقاء رسمي لشارون مع مسؤولين لبنانيين. فالرأي العام اللبناني لا يجهل شيئاً من الأهداف الحقيقية للدولة العبريّة حين تنشر مثل تلك الإشاعات. وفي منتصف الليل، أعلنت الإذاعة الإسرائيلية في نشرتها الأخيرة عن عزم أرييل شارون على أن يقدم إلى مجلس الوزراء في اليوم التالي اتفاقاً مبدئياً حول مسائل سياسية وأمنية توصّل إليها عبر اتصالاته في لبنان، بقصد موافقة المجلس عليها.

إنّ تأكيد وزير الدفاع على أنّ الوثيقة تربط الحكومتين، جعله ينال ضمانة وزارة بيغن في 19 كانون الأول/ ديسمبر. ولدى خروج الوزراء من الاجتماع كانوا يتألقون تفاؤلاً. فصرّح يوسف بورغ (وزير الداخلية) قائلاً: سوف تحصل إسرائيل عمّا قريب على السلام أمراً واقعاً. أما ديڤيد ليڤي (وزير العمران)، والأكثر شراسة في معارضته لشارون داخل المجلس، فقد اعترف: بأنّ خرقاً حقيقياً قد جرى إنجازه في المفاوضات.

بلغ السخط لدى أمين الجميّل الذروة. فالإسرائيليون لم يحترموا لمرة أخرى أيضاً وعدهم بالحفاظ على السر. فنسي الأسباب الحقيقية لرفضه النص، وركّز كل غضبه على استخفاف شارون مستخدماً ذلك لرفض الاعتراف بالاتفاقية ومستجيباً على ذلك النحو لمطالب فيليب حبيب.

وقد باح لأحد المقربين إليه قائلاً:

– كيف يسعني أن أثق بهم بعد اليوم حين يوجهون إليّ الطعنات على هذا النحو.

واستعرت حرب بيانات بين العاصمتين. فرفعت تل أبيب عالياً نجاحاً دبلوماسياً انتهى إلى «وثيقة شارون». فيما بيروت تندد قائلةً إنّها لم تسمع بمثل ذلك قط. وقد أضحى أمين الجميّل منذ ذلك الحين، وهو المرتاب جداً من قبل في الدولة العبريّة، مقتنعاً بأنّ الإسرائيليين أعلنوا عمداً عن وجود الاتفاق ليسبّبوا له حرجاً حيال المسلمين اللبنانيين.

في 21 كانون الأول/ ديسمبر تخلى الإسرائيليون فجأة عن مطلبهم برؤية المفاوضات تجري في القدس، لاقتناعهم بأن «نص شارون» سيستخدم أساساً لمفاوضات رسمية، وقبلوا بأن تجري

بالتناوب ما بين «خلدة» و«كريات شمونة». ثم أضافوا إلى اتفاقية 13 كانون الأول/ ديسمبر تقويم مقاييس للتطبيق[1]. كان الرئيس اللبناني مرغماً، على الرغم مما صدر عنه من تكذيب، على أن يأخذ بعين الاعتبار الاتفاقية التي تفاوض عليها سامي مارون. فالتخلي عن القدس مدينةً للتفاوض، على نحو ما طالب به الإسرائيليون حتى ذلك الحين، أتاح له أن يرفع لواء النصر. واستناداً إلى ذلك، استقبل أمين الجميّل في اليوم التالي رؤساء الوزراء السابقين كافة، وهم صائب سلام وأمين الحافظ وتقي الدين ورشيد الصلح وطبعاً شفيق الوزّان. كان راغباً في وضع أصحاب المقامات السنّة داخل المعمعة، كي لا يكون وحيداً أمام إسرائيل. أمّا وقد اغتبطوا لاستشارتهم رسمياً، فقد منحوه جميعاً «دعماً بلا تحفّظ».

بقيت أمامه مشكلة المساهمة الأميركية في هذه المفاوضات. فالجميّل حرص عليها حرصاً مطلقاً. واضطر الإسرائيليون للرضوخ. وقد فعلوا ذلك «بشكل تراجعي» بتأكيدهم على أنّ تل أبيب **لن تعارض حضورهم أثناء المناقشات لكن على ألاّ يمسّ ذلك طابعها الثنائي**[2]. وقد أشار اللبنانيون على لسان وزير الخارجية إيلي سالم إلى **اجتماع ثلاثي الأطراف**، لكن دونما إلحاح. لقد جرى تضييع وقت طويل في مجادلات مملة من كل صنف ونوع، أما الموقف على الأرض فيهدد بالانتكاس. وفرضت عليهم مضاعفة حالات الأمر الواقع من قبل الإسرائيليين انسحاباً بدأ يصير ملحّاً. ولا يسع هذا الانسحاب إلّا أن يكون نتيجة تفاوض. ومن جهة أخرى فإنّ الرئيس اللبناني، كان واعياً، أنّ هذا الانسحاب إن لم يحصل فسوف يتوجب عليه القبول، كما يقول شارون، برؤية سلطته محصورة في بيروت وضاحيتها.

ران الصمت على دور الولايات المتحدة، لكن ذلك لم يمنع شارون، في جلسة مجلس الوزراء في 26 كانون الأول/ ديسمبر، من تجديد هجماته على واشنطن متهماً إياها من جهة بأنّها مسؤولة عن التأخير الواقع في المفاوضات وبأنّها من جهة أخرى شجعت بيروت على عدم التصديق على وثيقة أنجز وضعها مع بعض الرسميين اللبنانيين. وقد أكّد قائلاً ببساطة: **لقد تراجع لبنان عن قراره بتوقيع ذلك النص، لكنه واصل تقديم دعمه له. لقد تضايقت بيروت من الانتقال المفاجئ من المرحلة السرّية للمفاوضات إلى مرحلتها الرسمية.**

بدأت المفاوضات الرسمية «للتطبيع، وتسويات الأمن وانسحاب الجيوش الأجنبية من لبنان» وفاقاً لتسمية تل أبيب في 28 كانون الأول/ ديسمبر 1982 في خلدة. إنّ هذا المكان المحدد الواقع على 12 كيلومتراً عند المدخل الجنوبي لبيروت قد اكتسحته المعارك في الصيف. هنالك بناء واحد فقط من سبعة طوابق لم يصب بكبير أذىً. إنّه فندق «ليبانون بيتش Lebanon Beach». فهذا البناء

---

(1) انظر الملحق رقم 2.

(2) من ديفيد كيمحي لآلان مينارغ.

المتواضع والمتهدّم قليلاً جرى تنظيفه وإعداده على نفقة الدولة اللبنانية لاستقبال المتفاوضين. كانت الطاولات في الطابق الثاني مصفوفة على شكل مثلث متساوي الأضلاع، ومغطاة بقماش أزرق، كي تكون جميع الوفود، بما فيها الوفد الأميركي، على سويّة واحدة في الحقوق وفي المساهمة. وقد وضعت تلك الطاولات في قاعة كبرى تطل نوافذها الزجاجية على مراكب الأسطول الأميركي السادس الراسي في عرض البحر.

خُصّص الطابقان الأرضي والأول للصحافة ولأجهزة الأمن. وأُعِدَّت غرفٌ في الطوابق العليا للمتفاوضين. أما ميليشيات القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي، التي تتقاسم القطاع، فقد تلقت الرجاء بالانصراف.

كان اللبنانيون أول الواصلين[1] يقودهم السفير أنطوان فتّال وهو صديق لعائلة الجميّل. وقد واجهوا لدى نزولهم من السيارات مطراً خفيفاً تدفعه ريح باردة وتعثروا في مشيتهم لبضعة أمتار في الوحل قبل دخولهم الفندق. كانت الأعلام الثلاثة: الإسرائيلي والأميركي واللبناني، تخفق للمرة الأولى جنباً إلى جنب. أمّا القادمون ثانياً فهم الإسرائيليون. إذا حطت بهم مروحيات على أرض المطار ونقلتهم سيارات الليموزين السوداء التابعة للجيش اللبناني حتى الفندق. نزل الوفد الإسرائيلي[2] محاطاً بكوكبة من الحرس الشخصي بلباسهم الكامل، وقد وضع كل عضو سماعة صغيرة في أذنيه ودخل بقيادة ديڤيد كيمحي. وخلافاً للبنانيين، حيّا أعضاء الوفد بمودة الصحافيين الذين كانوا يتزاحمون في البهو. وكان آخر الواصلين الأميركيون الثلاثة: موريس درابر مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط والعقيد كولنز وآلان كريتشكو.

تفجرت منذ البداية، ومع خطابات الافتتاح، مشكلة شكلية أظهرت الخلافات العميقة. فقد أوضح أنطوان فتّال قائلاً: **إنّ اتفاقية الهدنة لعام 1949 هي حجر الزاوية لموقفنا**. فرد عليه ديڤيد كيمحي: **إنّها لاغية وباطلة**. فأوضح له الحكم موريس درابر: **ضرورة التعايش بين بلدين جارين**. ثم تبلور الخلاف حول تنظيم جدول الأعمال. فقد وضع اللبنانيون الانسحاب الإسرائيلي على رأس الأولويات. لكنّه يعتبر شيئاً متمماً بنظر ممثلي الدولة العبريّة، لأنّ التطبيع بالنسبة إليهم يحظى بالمكانة الأولى. ثم افترقوا دون تراجع قيد أنملة.

ما إن انتهى هذا الاجتماع الأول حتى قرّر أمين الجميّل إرسال ثلاثة وفود برلمانية، تمثل الطوائف كافة، إلى العواصم العربية، المعنية أقلّ من غيرها بالوضع، أي تلك البلدان الواقعة خارج

---

(1) كان الوفد اللبناني مشكلاً من: أنطوان فتال (المدير العام السابق للشؤون الخارجية اللبنانية)، أنطوان بارود رئيس مجلس الدولة، السفير ابراهيم خرما، الجنرال عباس حمدان، العقداء سعيد قعقور ومنير رحيّم، وجورج حرّوق، وفوزي أبو فرحات.

(2) كان الوفد الإسرائيلي مشكلاً من: ديڤيد كيمحي المدير العام للشؤون الخارجية، صاموئيل ديفون السكرتير العام المساعد لقسم الشرق الأوسط، إسحق ليور "السفير" الإسرائيلي في بيروت، إيلياكيم روبنشتاين المستشار القانوني في وزارة الخارجية، آڤي بنزر الناطق باسم وزارة الشؤون الخارجية، يحيابيل ياتيف ويائير ألغوم وعبيد تابور مستشارون في الوزارة نفسها، والجنرالات أڤراهام تامير وأوري ساغي وعاموس غيلبوا، والعقداء زوريخ وزينغر وأبراهام ليف.

نطاق المجابهة. أما بالنسبة إلى البلدان الأخرى، وهي دمشق وعمّان والقاهرة والرياض، فقد أقام معها اتصالات على أعلى مستوى وبتواتر أكبر. لقد سعى اللبنانيون، بوضعهم المناقشات ضمن اتفاقية الهدنة، للحصول على إعفاء عربي من تهمة فتح حوار مع إسرائيل. وكان على المبعوثين البرلمانيين أن يوضحوا أنّ المفاوضات ذات طابع قانوني فقط وأنّها لن تغيّر في شيء من علاقات لبنان بتل أبيب، التي ستظل مماثلة لعلاقات الدول المعادية لإسرائيل.

6

بيروت الكبرى

نظر فادي أفرام بابتسامة إلى ميثير داغان الجالس قبالته، وهو يشعل سيجاراً. فقبل فترة قصيرة، تولّى داغان، الذي رُقّيَ إلى رتبة جنرال قبل بضعة أسابيع، إدارة البنية الإسرائيلية الجديدة في لبنان: الياكال[1]، التي سوف تُناط بها العلاقات الإسرائيلية مع مختلف الطوائف اللبنانية.

وكان ميثير داغان[2] قد عرض أمامه في الجولان، في شهر آذار/ مارس 1982، مناورة قامت بها كتيبته المدرّعة بعد تجهيزها بالدبابة الحديثة جداً، الميركاا. وطوال فترة العرض، وداغان يدخّن السيجار تلو الآخر، من نوع رخيص الثمن، فيسمّم الجو. وفي شهر حزيران/ يونيو، أخبر داغان أفرام بأنّه يخضع لعلاج الوخز بالإبر كي يتوقّف عن التدخين. ومن الجلي أنّ ذلك لم يحقّق النتيجة المرجوّة.

كان داغان بقامته القصيرة، مربوعاً جداً، ومنطلقاً، يحبّ المزاح ويتكلّم العربية بطلاقة، فيمثّل في نظر القوات اللبنانية النموذج الأمثل للضابط الإسرائيلي. ولقد شارك في العديد من الوفود العسكرية التي جاءت إلى لبنان، قبل 6 حزيران/ يونيو، للإعداد لعملية «سلام الجليل» فربطته علاقات ودّية مع العديد من كوادر الميليشيا. ومن بين هؤلاء فادي أفرام وفؤاد أبو ناضر وإيلي حبيقة.

وضمن هذه الصفات، ظنّت كوادر الميليشيا المسيحية أنّ تعيينه، بهذه الصفة، إنّما يشكّل متنفّساً حقيقياً. فرأى فيه القادة المسيحيون ذاك الذي سوف يعيد للأشياء توازنها. لكنّهم وقعوا في خطأ فادح.

---

(1) يخيدا كيشوك ليباتون (وحدات الاتصال الإسرائيلية في لبنان) كان مكلفاً بالقيام بالاتصالات والتعامل مع المدنيين في منطقة الاحتلال الإسرائيلية. وكان مديرها ميثير داغان أشبه في الواقع بحاكم عسكري، وكان معاونه المقدم إيرتس شايكي، أما ممثل جهاز آمان في الياكال فهو روفن إيرليخ.

(2) الجنرال ميثير داغان، الذي مارس حياته في ظل أريل شارون، سوف يجري تعيينه على رأس الموساد بعد انتخاب أريل شارون رئيساً للوزراء في عام 2000.

قدّم فادي أفرام لداغان، أثناء اجتماع في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1982، شرحاً مقتضباً للوضع كله وللمواقف المبدئية للقوات اللبنانية. وعاد فأوضح أنّ مشكلة الجبل سياسية أكثر مما هي عسكرية وأنّ السوريين والفلسطينيين إنّما يستخدمون الدروز «غطاء».

فقال عامير دروري الذي كان يحضر الاجتماع:

– نحن متفقون مع نظرتكم. لكنّ المشكلة أنّ الدروز مسلّحون ومنظّمون.

فقال أفرام موجّهاً كلامه إلى داغان:

– سوف يستمرّون ما داموا يملكون حرية العمل. وسوف يستكينون حين نقوم بقمعهم. فينبغي أن يفهموا أنّكم إلى جانبنا.

حين خرج قائد القوات اللبنانية من المقرّ الإسرائيلي، توجّه إلى القصر الرئاسي في بعبدا. فاستقبله الرئيس أمين الجميّل على الفور .

وكان حفياً به. ثم أعلن بلهجة فرحة عن قراره بإنشاء غرفة سوداء، أي مجموعة عمل تضم أصحاب قرار من «القوات»، تعمل في ظل كرسي الرئاسة. فقبل أفرام بحماس. فهذه «الغرفة السوداء» فكرة متكرّرة لدى «القوات». ومنذ انتخاب أمين الجميّل راودهم الأمل في أن يحيطوه بالمستشارين، لا سيّما الذين كانوا يعملون مع أخيه. ثم أعلن الرئيس باللهجة ذاتها:

– ينبغي للجيش أن ينتشر في القطاعين الإسلامي والمسيحي من بيروت، ضمن إطار تولي شؤون المدينة من قبل الدولة. ولسوف يؤدي ذلك إلى انسحاب القوات اللبنانية، لكن يمكن لثكناتها ومراكز قيادتها أن تظلّ في مكانها.

فردّ عليه أفرام قائلاً بجفاء:

– ذلك يعني نهاية القوات اللبنانية. فليس في ذلك ضربة قاصمة فقط لمعنويات عناصرنا وإنّما سيسهم ذلك أيضاً في تضييق حرية تنقّلنا.

فأكّد له الجميّل قائلاً بلهجة مطمئنة:

– كلا، فالجيش لن ينتشر إلّا لمدة خمسة عشر يوماً.

فأجابه قائد القوات اللبنانية قائلاً:

– لا مجال للحديث في ذلك.

فقال الرئيس بلهجة مصالحة:

– إنْ رفضتم فالجيش لن ينتشر. أنا لن أثير نزاعاً مسيحياً داخلياً.

كان فادي أفرام مرتاباً. فما إن خرج من القصر حتى اتصل بقائد الجيش. فوعد الجنرال طنّوس بمحاولة إقناع الجميّل بالتخلي عن المشروع أو بتحديد الطلب الرئاسي، ليقتصر على الأكثر على انسحاب وهمي للميليشيا المسيحية من بيروت الشرقية. ثم مضى أفرام مندفعاً بعد ذلك إلى بيت بيار

الجميّل. فنصحه رئيس الكتائب، مع اعترافه بأنّ وجود القوات اللبنانية حيوي في بيروت الشرقية، «بالتفاهم مع أمين» وتفادي الدخول في نزاع مع الدولة. كذلك طلب رئيس الجمهورية، في الساعات التي تلت، العون من أبيه. فتلقى الجواب ذاته:

– أنا مع مبدأ انتشار الجيش، لكن هنالك القوات اللبنانية، فتفاهم مع فادي.

وازداد أمين إلحاحاً، واضعاً في المقدّمة «الضغوط الدولية والإسلامية». لكنّ پيار الجميّل لم يعدّل موقفه.

كانت «القوات» مقتنعة بأنّ «تلك الضغوط» ليست سوى اختلاق. فقبل ذلك بأيام، التقى ألفريد ماضي، الرئيس السابق لمكتب الكتائب والقوات اللبنانية في واشنطن، بصائب سلام الذي لم يشر إلى المسألة قط. أمّا مركز وكالة الاستخبارات الأميركية في بيروت، فقد أعرب من جانبه، قبل ذلك بأيام، عن أنهّ يعتبر وجود القوات اللبنانية في بيروت «هاماً جداً».

التقى رئيس فرع المركز الأميركي، كينيث هوسّ، وهو خلف جاك أوجينو (الصيني)، بإيلي حبيقة. كان ذلك الاستئناف للحوار بين مركزَيْ الاستخبارات، بعد فترة طويلة من الصمت، ذا دلالة بحدّ ذاته. ومضى كينيث هوسّ إلى ما هو أبعد:

– طلبنا إلى الرئيس الجميّل عدم نشر الجيش في بيروت الشرقية وعدم إضعاف قدرة القوات اللبنانية.

وبعد ذلك الإيضاح، عرض على إيلي حبيقة العون، بدعم عن طريق تزويدهم بالعتاد وتدريب الكوادر.

يضاف إلى ذلك أنّ هذا المشروع الرئاسي بإعادة نشر الجيش اللبناني في المنطقة المسيحية جاء في وقت بداية نمو تقارب سنّي وشيعي ودرزي نمواً متساوقاً في بيروت الغربية. وقد أقلق ذلك الرئيس الجديد للأمن العام، زاهي بستاني. فقال لفادي أفرام:

– إذا ما استمرّ ذلك فلن يعود أحد قادراً على مواجهته. ولدي انطباع بأنّنا لن نعود قادرين، في غضون أسبوعين، على التوجّه إلى ذلك الجزء من المدينة.

كان انتشار الجيش في منطقتهم، يعني بالنسبة إلى القوات اللبنانية، مرحلة إضافية لوضعهم على المحك. فقرّروا معارضته بالسبل كافة. أما مشروع شرعنتهم فقد سقط سقوطاً نهائياً في غياهب التاريخ.

دعي أفرام وأبو ناضر من قبل الإسرائيليين عشية عيد الميلاد. كان الجنرال دروري قد أقام مقرّ هيئة أركانه في دارة فخمة تعود لأمير سعودي، مقابل كلية اليسوعيين في الدامور، حيث يمكن الإشراف منها على بيروت كلها. فأبلغهم ميئير داغان، أثناء الاجتماع، أنّ كتيبة مدرّعة تمركزت على طول طريق دمشق.

– لا بدّ من تهدئة الوضع في فترة الأعياد على القليل. ولقد قمت بطرد واحد من ضباطي كان يتعاون مع الدروز ويجتمع بهم على الدوام.

فأجابه فادي أفرام قائلاً:

– نحن لا نقوم حتى الآن بغير الردّ. وهذا ما لا يروقني. بوسعنا أن نكون مرغمين على اتخاذ زمام المبادرة. ناهيك بأنكم أنتم الذين علّمتمونا هذا النهج. لا يسعنا القبول بأن نظلّ محاصرين فلا نقوم بغير الردّ. علينا أن نسحق رأس الأفعى. فإلى جانبهم الآن عناصر من عند محسن إبرهيم[1] ومن الإرهابيين.

– ماذا يسعنا أن نفعل لتهدئة الوضع؟

فقال اللبناني:

– أن تسحقوا الرأس.

فسأل داغان:

– رأس من على سبيل المثال؟

سوف يعطيكم حبيقة التعليمات اللازمة، زِدْ أنّه يريد أن يراكم.

فأوضح الجنرال حقيقة الوضع قائلاً:

– يسعني أن أمارس ضغوطاً عليهم، لكن لست بقادر على وضعهم في السجن. ولن يسمح لي أحد بذلك، ما لم يكن لدينا براهين على أنّهم يعملون ضد إسرائيل. فمن ذا الذي يدفع بهم، حسب رأيك، إلى التصرّف هكذا؟

فقال فادي أفرام:

– مروان حمادة هو الذي يقوم بدور الوسيط بين محسن إبرهيم ووليد جنبلاط. وقد عاد منير الصياد[2] إلى بيروت كما أنّ إبرهيم قليلات[3] لن يتأخّر في ذلك. كذلك فإنّ الحزب القومي السوري يعمل من قبرص حيث تقع قاعدته.

فقاطعه ميئير داغان بحركة من يده. ثم استدار صوب أمنون، ممثل الموساد الدائم الذي كان يدوّن وقائع الحديث، فطلب إليه مغادرة القاعة. وعلى الرغم من أنّ أمنون فوجىء بذلك الطلب إلّا أنّه وضع القلم من يده وخرج. وحين أُغلِق الباب التفت داغان محدّقاً في وجه اللبنانيّين الاثنين:

---

(1) محسن ابراهيم زعيم منظمة العمل الشيوعي في لبنان. وهي حركة من أقصى اليسار، ذات نزعة قتالية متطرفة ومنتشرة في الأوساط الشيعية في جنوب لبنان. وكانت هذه الحركة هي بوتقة كافة التجارب اليسارية النظرية والتطبيقية.

(2) منير الصياد، زعيم الاتحاد الاشتراكي العربي. حركة تحت رعاية ليبيا نشأت في 18 آذار/مارس 1974، إثر انشقاق في صفوف الناصريين «المرابطون».

(3) إبرهيم قليلات، زعيم حركة الناصريين المستقلين «المرابطون»، أنشأت عام 1958، ولاقت دعماً قوياً من قبل «فتح» التي كانت تريد إنشاء زعامة جديدة للبيروتيين بدل الزعامات القديمة التقليدية والمتحفظة حيال المقاومة الفلسطينية.

– ولِمَ لا تتولّون أمرهما. لو كنت مكانكم لقضيت على مروان حمادة ثم على وليد جنبلاط. فأقترح عليكم التفكير في ذلك.

شالوم، سلام، أهلاً وسهلاً، مرحباً بخير الجيران. لئن كان أنطوان فتّال، رئيس الوفد اللبناني والأعضاء المرافقين، قد دُهِشوا في 30 كانون الأول/ ديسمبر 1982، وهم يقرأون تلك اللافتات، فإنّهم لم يُظهِروا شيئاً. كانت مرفوعة فوق المسار الواصل بين مكان هبوط حوّامة بوما[1] التابعة للجيش اللبناني، التي أقلّتهم حتى المركز الثقافي بيت إدلشتاين في كريات شمونة حيث من المقرّر أن تجري الجولة الثانية من المفاوضات. كان تلاميذ فتيان قد تجمّعوا، في طقس بارد، على أرصفة مسار العربات، ملوّحين بأعلام لبنانية وإسرائيلية، وهم يرددون: **فلنسِرْ معاً نحو السلام**. لقد استُقبِل الوفد القادم من بيروت استقبالاً حاراً من قبل سكان كريات شمونة. ولدى ترجّلهم من السيارة أقبل عليهم حاخام فقدّم لهم الخبز والملح، وهو رمز الضيافة التقليدي، ثم استمطر البركة الإلهية على البلدين. وقام أطفال بإطلاق حمامات. لقد انقضت خمسة أعوام بالتمام والكمال على افتتاح الحوار الرسمي الذي انتهى بمعاهدة سلام مع القاهرة، وها هم مفاوضون من بلد عربي آخر يُستَقبَلون في الدولة العبريّة بحماس يتناقض مع الجوّ الذي ساد في خلدة، قبل ذلك بثلاثة أيام.

كانت بعثة تحضيرية قد جاءت قبل 48 ساعة إلى كريات شمونة، مؤلفة من ضباط لبنانيين، وهي أول مرة تلامس فيها آلية عسكرية عربية – حوّامة – الأرض الإسرائيلية. أما تلك المدينة، وهي رمز الهجمات الفلسطينية، فهي المدينة الرئيسة في إصبع الجليل، وكان اختيارها مقصوداً من قبل الدولة العبريّة للحديث فيها عن السلام. وجرى من أجل المناسبة إحضار 600 أصٍّ من الأزهار من تل أبيب. ووضعت طاولة بيضوية الشكل وسط قاعة الرقص في مركز بيت إدلشتاين الثقافي.

اغتاظ أنطوان فتّال بعض الشيء من تزاحم الصحفيين الذين «تجاوزوا»[2] جهاز الأمن الإسرائيلي، فرفض الإدلاء بأي تصريح سياسي واكتفى بالإشارة إلى أنّ **إله إبرهيم وإسحق ويعقوب هو نفسه إله الجميع**.

كان أنطوان فتّال، لزمن طويل، سفير لبنان في الفاتيكان. وهو سرياني كاثوليكي، صديق لعائلة الجميّل، ومولود في مصر. إنّه ذو وجه رصين، وقد اشتُهِر بنزاهته ووطنيته وشمول علمه بشأن العالم العبري. فقد درس العبريّة القديمة «كي يقرأ الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية» وهو صاحب كتاب حول وضع غير المسلمين في البلدان الإسلامية، يُعتبَر مرجعاً دائماً.

وقف ديفيد كيمحي ليعلن أمام الكاميرات والميكروفونات قائلاً: **لا كاتيوشا بعد اليوم على كريات شمونة**. ثم استدار صوب فتّال، مشدّداً على الضرورة القصوى للتوصّل إلى

---

(1) حوّامة بمحرك مزدوج، حاملة ضخمة من صناعة فرنسية.

(2) إيضاح أعطاه الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية.

علاقات«طبيعية»مع لبنان. فالكلمة المحرّمة، الكلمة التابو، قد جرى التلفّظ بها حتى قبل البدء بالمناقشات. والتعليمات التي أعطاه إياها مناحيم بيغن كانت إلزامية. فلا يمكن التوصّل إلى حلٍ من دون تطبيع صريح وفعلي. ولم يكن رئيس الوزراء الإسرائيلي راغباً في تكرار «الخطأ» الذي ارتُكِب مع مصر. وهو يقدّر أنّ تعميةً ما قد وقعت عليه عن طريق الأميركيين، بسبب نقص في الاحتياطات أثناء المناقشات مع القاهرة. والواقع أنّ النصّ قد سمح للمصريين، لمجرد اختفاء أنور السادات، بالبقاء على مسافات فاصلة مع الدولة العبريّة وإحلال «سلام بارد»، يقتصر عملياً على المناقشات الدبلوماسية وحدها. فكانت تل أبيب تريد إذن أن تعرف معرفة دقيقة ما العلاقات المحدّدة بدقة التي يريد لبنان إقامتها مع إسرائيل قبل المناقشة بانسحاب جيشها[1].

كان جدول الأعمال النقطة الوحيدة التي جرت مناقشتها في تلك الجلسة. واقترح فتّال أن تُدعى «كتلة واحدة». فسوف يجري ترقيم نقاط المشكلة ومظاهرها المختلفة على قائمة دون إقامة أي اعتبار لتسلسلها، فتغدو شكلاً من «مخلوطة»[2] يجد أخيراً فيها كل طرف بغيته. لكن الاقتراح رُفِض من قبل كيمحي الذي التزم بالترتيب المثبت في الوثيقة التي تفاوض «المبعوث» بشأنها.

ودسّ الإسرائيليون ضمن وفدهم، كما هي عادتهم دوماً في ذلك النوع من المفاوضات، اختصاصيين في السلوك البشري وعلماء نفس، تكون مهمّتهم رسم صور لمحاوريهم، وتحديد شكلهم السياسي، وطرائق العمل ونقاط التباعد الفكرية أو السياسية في ما بينهم. ولدى الاجتماع الأول في خلدة، أدى مساعدو كيمحي دورهم بامتياز، فجلسوا وراء «المعلّم»، وكانوا يمرّرون له بين وقت وآخر ورقة كتبوا عليها كلمة أو اسماً ليقوم بتسريبها ضمن كلامه، حتى يتمكّنوا هم من ملاحظة ردود فعل اللبنانيين. لقد قرأ كيمحي، قبل التوجّه إلى كريات شمونة، خلاصة الاجتماع الأول في خلدة. وكانت الملاحظة حول أنطوان فتّال مختصرة جداً: **هذا الرجل قطعة حقيقية من الجليد**. وما أمكن تكميلها في الجلسات التالية[3].

كانت المحادثات مريرة، تقطعها أحاديث على انفراد بين رئيسَيْ الوفدين ومشاورات هاتفية مع أمين الجميّل ومستشاريه. قُدّم الطعام للمتفاوضين - كان قوامه طبق من الكبد والهليون ولحم اللسان المدخّن والشرحات المشوية - في حدود الواحدة بعد الظهر في فندق الشمال المواجه للمركز الثقافي. واستؤنفت المساومات بعدئذٍ، من دون إحراز أي تقدم، فظلّ كل طرف ثابتاً على مواقفه.

كان فادي أفرام وجوزيف أبو خليل وليد فارس (وودي)، يجتمعون مع إدارة الموساد في تل

---

(1) هذا الموقف سوف تعتمده إسرائيل مجدداً أثناء المحادثات مع سوريا في عامي 1993 -1994.

(2) طبق لبناني تقليدي يتكون من تشكيلة من البقول والخضار.

(3) من ديفيد كيمحي لآلان مينارغ.

أبيب، التي وصلوا إليها مساء اليوم السابق في حوّامة. أمضى اللبنانيون الثلاثة ليلتهم في فندق هيلتون وكان لهم موعد مع أرييل شارون بعد الظهر. وجرت جلسة تحضيرية لذلك اللقاء في حدود الثالثة من بعد الظهر في أحد صالونات الفندق مع ناحوم أدموني (بيتر) ومساعده مناحيم نافوت (مندي)، وأفنير أزوالي المسؤول عن الملف اللبناني وسيمون ييغال المحلل الذي يشبه سيرج غينسبورغ.

قدّم لهم أفرام عرضاً حول الوضع في الشوف وحول عودة الفلسطينيين والسوريين إلى حلفائهم في بيروت. ولقد أسف أسفاً مريراً للتغيير الذي طرأ على موقف الإسرائيليين حيال «القوات». قال لهم:

– كان لدينا قبل الحرب إستراتيجية ومخططات مشتركة. كان لدينا في الواقع حلف حقيقي مقدس. أما اليوم فلم يعد قائماً بيننا حتى التقييم المشترك. بل إننا لم نتوصّل إلى إقناعكم بشأن مشكلة الجبل.

فردّ عليه بيتر قائلاً:

– وهل من الممكن فصل الوضع في الجبل عن الوضع العام؟ ينبغي على الرئيس الجميّل أن يتخذ قرارات، فلا يفعل، أو أنّه يغيّرها كل يوم.

طرح المسؤولون في الموساد على اللبنانيين أسئلة عديدة حول تزوّد الدروز بالأسلحة، وحول سلطات زاهي بستاني في وظائفه الجديدة، وحول الأمن العام وإعادة بناء الجيش اللبناني، قبل الرجوع إلى الشوف.

وناحوم أدموني قائلاً:

– هل تعتقدون أنّ مشاكل الجبل تتعلق بقرار مركزي؟

– تمام الاعتقاد!

فقال رئيس الموساد:

– يقدّر عسكريون أنّها مشاكل محلية من دون أي تأثير خارجي.

فأقر أفرام بذلك:

– هذا صحيح بالنسبة إلى البعض منها. لكن أنتم تعلمون أنّها موجهة من الخارج. زد أن قواتكم قد أسرت عضواً من منظمة التحرير الفلسطينية!

– أنتم قابلتم ميثير داغان، فما رأيه بذلك؟

– لا شيء حتى الآن، لكن ينبغي أن يدرك أنّها مسألة سياسية.

فقال أدموني بإلحاح:

– من الأهمية بمكان أن يفهم داغان هذا، إذ لا ينظرون عندنا إلى الوضع في الشوف على ذلك النحو.

فقال قائد القوات اللبنانية بحدة:

– لكن ما الذي ينبغي عمله لنجعلكم تفهمونه؟

– ينبغي عليكم أن تزوّدونا بمعلمات دقيقة حول منظمة التحرير الفلسطينية وأن تستخدموا وسائل الإعلام. إن كان بوسعكم أسر عنصر من عناصر محسن إبرهيم، على ألاّ يكون درزياً، فسوف يكون ذلك أمراً حسناً جداً، وعليكم أن تبرهنوا أنّ هذه المسألة تستجيب لتوجيهات مركزية.

– أنا لا أفهم ذلك، فقبل يومين أوقف جنودكم مقاتلاً من منظمة التحرير الفلسطينية في الجبل. وإحدى دورياتكم وقعت في كمين... فقاطعه ناحوم أدموني (پيتر) قائلاً:

– ظنّ الدروز أنّنا من القوات اللبنانية.

فواصل أفرام قائلاً:

– ...إبرهيم قليلات سوف يعود من باريس. ووليد جنبلاط يدعم اتصالاته بالسفارة السوڤييتية.

– هذه معلومات هامة وعلينا أن نضع مخططاً مع زاهي بستاني لمواجهتها.

فقال مناحيم نافوت:

– إنّ الوضع سيتحسن الآن ما دامت المفاوضات بدأت في كريات شمونة.

فرد أفرام باحتجاج:

– لا ينبغي أن تجعلوا تحالفكم مع المسيحيين مشروطاً بعلاقتكم مع الدولة اللبنانية.

فردّ مندي متعجباً:

– لكنها مسألة مترابطة. فحين تكون علاقاتنا سلبية مع الدولة اللبنانية، يظنّ الدروز أنّ لديهم حرية الحركة على الأرض فيفعلون. لو كنا نستطيع نحن وأنتم وأمين الجميّل أن نجتمع، لكان بوسعنا حينئذ أن نحدّد كيف نصد عناصر جنبلاط وكيف نضربهم. وكان من شأن الوضع أن يكون مختلفاً اختلافاً تاماً.

فتدخّل جوزيف أبو خليل قائلاً:

– أنتم تريدون بهذه الطريقة ممارسة ضغط على السلطة اللبنانية. لكن ليس للسلطة اللبنانية من وجود! إنّ ما جرى في الشوف قد أضعفنا، وليس من يحسب لنا حساباً لأنّ إسرائيل قد تخلّت عنّا. بدأ المسلمون الذين قبلوا بفكرة معاهدة سلام بالارتداد على أعقابهم. والخوف يخامر حلفاءنا في بيروت الغربية فهم يشكّون في قوتنا. هل أنتم راغبون في التوصّل إلى اتفاقية مع لبنان؟ ينبغي أن تعرفوا أنّ ذلك منوط بموقف المسيحيين. إنّ أمين بحاجة لدعم المسيحيين لمجابهة رئيس الوزراء شفيق الوزّان.

فأكّد ناحوم أدموني قائلاً:

– وبعض الأشخاص في إسرائيل مقتنعون بأنّكم إذا انسحبتم من بيت الدين فالوضع سوف يهدأ. لكن ما يشغلني شخصياً، أنّكم تعتبرون أنّه لم يعد هنالك من تعاون في ما بيننا.

فقال فادي أفرام:

- ذلك هو الواقع! ولدينا العديد من الدلائل عليه: الصدامات في الجبل، وتوقفنا عن تلقّي العتاد...

فقاطعه رئيس الموساد قائلاً:

- أما عن العتاد، فتلك حكاية أخرى. إنّها مسألة الحالة السيّئة للموازنة الإسرائيلية. سوف تلتقون بعد قليل بأرييل شارون، فحدثوه في الأمر، وينبغي أن يكرّر أبو خليل على مسامعه ما قال الآن.

وصل وزير الدفاع بابتسامة عريضة، إلى فندق هيلتون في حدود السادسة والنصف مساءً، يتبعه أوري دان. فاتّخذ مكاناً على المائدة القائمة وسط الصالون وتوجّه إلى أفرام سائلاً:

- كيف حالكم؟

خيتسي، خيتسي[1].

شنّ وزير الدفاع هجوماً فورياً، ومدّ يده إليهم بوثيقة من سبع صفحات مطبوعة بالإنكليزية ومرفقة بخارطة دُوِّنت عليها ملاحظات.

قال:

- أرى ضرورياً أن تكون المفاوضات بدأت وأن تعلموا إلى أين وصلت المناقشات المباشرة مع الشيخ أمين. هاكم هذه الوثيقة[2]. إن كان الشيخ أمين يريد الوصول إلى نتيجة فينبغي أن يتعهّد بالعمل وفق هذا النص غير الرسمي ما دام قد رفض توقيعه في اللحظة الأخيرة. ينبغي عليه توجيه وفده وفقاً لبنودها. من الأهمية بمكان أن تتصلوا مباشرةً بأمين حتى تعرفوا كيف ينوي التقدّم في التفاوض. إنّ في ذلك مصلحة للجميع من إسرائيليين ولبنانيين وأميركيين، لا سيّما وأنّ هؤلاء لا يدركون حقيقة ما يجري. وأحرص من ناحية أخرى على أن أكرّر على مسامعكم أنّنا لن نغيّر سياستنا حيال المسيحيين والموارنة والقوات اللبنانية. لكن لدينا مشكلة داخلية خطيرة جداً. كان رأينا العام ينتظر النتائج فقلنا له إنّ هنالك اتفاقية مكتوبة. وما لم تتجسد عملياً فسوف تكون متاعبنا كبيرة جداً.

فردّ عليه أفرام قائلاً:

- يسعدنا أنّكم توصلتم إلى اتصال مباشر مع الشيخ أمين حتى وإن لم يكن بوساطة منّا. أمّا بشأن الوضع على الأرض فإنّ حلفاء منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين يعيدون تشييد البنى التحتية في بيروت ويستخدمون الصدامات في الجبل لممارسة ضغوط سياسية. نحن على علم بأنّكم تواجهون مشكلة في التدخل هنالك بسبب الطائفة الدرزية الإسرائيلية. لكن ينبغي أن تعلموا أنّ

---

(1) بين بين، بالعبرية.

(2) راجع الملحق رقم 2.

مصادر إطلاق مدفعيتهم تقع في حمّانا التي يشرف عليها السوريون وقد التقى مروان حمادة بياسر عرفات للحصول على دعم بالرجال والسلاح والذخائر . . .

لم يمتنع شارون عن إبداء ملاحظة مرفقة بابتسامة :

- كان الشيخ أمين في المغرب ليلتقي مع أبي إياد وقد عانقه.

فقاطعه فادي أفرام قائلاً :

- هذه مسألة أخرى، وأنتم تعلمون ذلك جيداً. إنّ موقفنا السياسي يزداد كل يوم ضعفاً. أقترح عليكم دراسة مخططات تضع جنبلاط وأصدقاءه خارج نطاق القدرة على الإزعاج. لقد كان ذلك موضوعاً ضمن مخططاتنا في العام الماضي. لقد لاحظ السكان المسيحيون أنّا لم نعد نمسك بالوضع.

فقال وزير الدفاع بمرارة :

- ينبغي عليّ في سبيل حل هذه المعضلة أن أرسل بالجنود الاحتياط إلى لبنان. ولا يسعني القيام بذلك، في حين يقوم التويني وصائب سلام بمهاجمتنا دونما توقف.

فبادر فادي أفرام إلى القول :

- نحن لا نطلب إليكم القدوم للقتال. لكن فلنتصرف معاً على الأرض . . .

فقاطعه مناحيم ناڤوت قائلاً :

- يسعنا أن نطوّر سياسة مشتركة وأن نخطط للدفاع عن مصالحنا. لكن لن يكون هنالك من نتائج ما لم تحرز المفاوضات تقدماً.

ومن جديد كانت الصفقة واضحة. لكن لم يشأ اللبنانيون سماعها وكأنّ تلك الكلمات لا تتوصل للدخول إلى أذهانهم. واستأنف فادي أفرام الكلام متجاهلاً ملاحظة ناوت تجاهلاً كلياً :

- فلنفعل شيئاً ما يبرهن على أنّنا متضامنون معاً. فيسعنا حينئذ أن نمارس ضغوطاً عكسية على مروان حمادة وصهره (زوج شقيقته) غسان التويني والآخرين.

فقاطعه شارون قائلاً :

- أعتقد، في سبيل البدء، بضرورة إقامة صلة بأسرع ما يمكن مع زاهي بستاني لمقاتلة الإرهابيين الذين رجعوا إلى بيروت. فهل جرى تدعيم للجيش اللبناني؟

- يلزمه بعض الوقت. هنالك مشروع قانون دفاعي ينبغي أن يركّز سلطات القرار بيد القائد العام.

فتدخل جوزيف أبو خليل قائلاً :

- إنّ وضع المسيحيين في لبنان هو الذي ينبغي تدعيمه. والقوات اللبنانية لم تعد تؤدي الدور الذي كانت تؤديه قبل شهرين فقط. فهي لم تعد تتمتع بالوزن السياسي ذاته بسبب أحداث الشوف،

التي لا تملك حرية التصرف بها وفق ما تريد. وهي تفقد يومياً ما بين 4-5 عناصر. فقدنا حتى الآن 85 قتيلاً في الكمائن.

فرد شارون قائلاً:

- وكم عدد الدروز؟ فما من أحد يعدّهم! ولو صرح الرئيس أمين تصريحاً علنياً أنه مع إسرائيل، لتغيّر الموقف كله!

فاغتاظ أبو خليل وهو يقول:

- فلنكن واقعيين. لا بد للشيخ أمين، كي يقدر على الإدلاء بمثل هذا التصريح، من أن يتخلّص بادئ الأمر من الضغوط التي يتعرّض لها. وينبغي أن نكون أقوياء لكي ندعمه. وإذا ما خرجت القوات اللبنانية منتصرة من معركة الجبل فسوف تلقي بوزنها على الرئيس فيستطيع فادي حينذاك أن يذهب ليراه فيطلب منه ما يريد.

فضرب الوزير بقبضة يده على الطاولة قائلاً:

- ينبغي للمفاوضات أن تتقدّم. ينبغي للرئيس الجميّل على القليل، أن يصادق على الاتفاقية التي أقمناها معه وأن يوقّع عليها. عليه أن يعطي توجيهات للوفد اللبناني فليس من حلول أخرى. لقد وصلنا إلى خط أحمر.

- تقولون إنّكم وصلتم إلى خط أحمر، والشيخ أمين يؤكّد الشيء ذاته. هنالك إذن سوء تفاهم بين شعبينا.

فقال شارون بصوت خافت:

- لم يعد بوسعنا أن نفعل شيئاً. ولسوف نفقد كل شيء بسبب تصرفات أمين. فماذا طلبنا إليه باستثناء فتح الحدود والتطبيع؟ عليه أن يصرح بأنّه مؤيّد للاتفاقية، وسوف نزيح الدروز في 24 ساعة. الرأي هنا لا يشمل الخلافات القائمة بين المسيحيين .حدّاد مسيحي. وفرنجية مسيحي. وشمعون والجميّل من المسيحيين. ينبغي أن أقول لكم بصراحة إنّ البعض في إسرائيل يؤكّد أنّه ربما كان علينا التعاون مع الدروز. فوليد جنبلاط يبعث إليّ برسائل طالباً أن أقابله. لكنّي لن أفعل ذلك.

فقال أبو خليل بلهجة تراضٍ:

- نحن نفهم أنّكم تتعرضون لضغوط، لكنّ الشيخ أمين عندنا يتعرّض لضغوط المسلمين والاحتلال السوري والاحتلال الفلسطيني، وبقايا الإرهابيين ورواسب الدولارات السعودية والليبية. ولئن كانت حكومة بيغن لها حدودها فحكومة الشيخ أمين لها حدودها أيضاً. فإذا ما استمرت الأشياء على هذا النحو فسوف نصل إلى القطيعة. وينبغي أن نتجنبها.

فقال شارون ساخراً وهو يُلمِح إلى طلب القوات اللبنانية الدائم:

- ماذا تقترحون؟ نزع سلاح الدروز؟

فرد أبو خليل متجاهلاً الملاحظة:

– ينبغي دراسة الوسائل لتوسيع حقل عمل الرئيس الجميّل وعملكم. ولئن لم نتوصل إلى استعادة الأمن في الشوف وعاليه، ولم يشعر المسيحيون بأنّ القوات اللبنانية مدعومة دوماً من إسرائيل، فإننا ماضون نحو النكسة.

وعاد شارون يلح:

– الأولوية هي الرئيس! طالبوا بالوصول إلى اتفاقية. أبعدوا المسلمين من حوله. لا تخافوا من الدروز فنحن هنا. المشكلة هي التفاوض وكل شيء من بعد يغدو سهلاً.

قال فادي أفرام:

– كان بعض المسيحيين قد وضعوا في الحسبان القدوم لتمضية عيد الميلاد في القدس. فلم يستطيعوا القدوم وهنالك شعور بالمرارة...

فصاح وزير الدفاع:

– أية مرارة؟ يريدون أن نقاتل من أجلهم كل يوم؟ بودنا أن نسمع الرئيس يقول إنّنا سوف نصل إلى السلام. وعمّا تكلم أنطوان فتّال؟ عن هدنة 1949! نحن في كانون الأول/ ديسمبر 1982!!! اقرأوا صحف اليوم لتروا. لا نريد أن يقول الرئيس سوى جملة واحدة: **سوف يحل السلام مع إسرائيل ذات يوم والمفاوضات سوف تقود إلى التطبيع**. جئتم لتقولوا لنا إنّ علينا أن نفعل شيئاً كي تكونوا أقوياء ومن بعد سوف تتكلمون مع الرئيس. هذا مستحيل! على الرئيس أن يفهم أنّا إذا ما انسحبنا فسوف تواجهون حدّاد في الجنوب، والسوريين في البقاع وحمّانا والجبل، وإرهابيي جبهة التحرير الفلسطينية في بعلبك وطرابلس، والدروز في الشوف. وأنتم في جونيه وبعبدا. بيروت سوف تقسّم. ولسوف تصيرون بحاجة إلى مركب للذهاب إلى الدامور، لأنّ الطريق سوف تنقطع. هاكم ما سيصير إليه لبنان. كل شيء بين أيديكم الآن، فإلامَ تظنّون أنّ بوسعنا البقاء حول بيروت؟ لشهرين أو ثلاثة؟ سوف يتوجّب علينا الانسحاب فتصبحون محاصرين. صدقوني أنه سيلزم الانتظار طوال جيلين لكي نتمكن من القيام مجدداً بما قمنا به.

فالتفت أبو خليل نحو مواطنيه قائلاً بصوت متشائم:

– إنّ الجنرال يعظنا بما نحن مقتنعون به فلنواصل المفاوضات ولنرَ إلى أين ستؤدي. وليكن ما يكون! لسنا وحدنا المسؤولين عن مستقبل المسيحيين! سوف ندرس إمكانية سحب قواتنا من الجبل وليتولَّ أمين الجميّل المسؤولية. نحن لسنا بآلهة. فهنالك شمعون وبيار الجميّل والأب نعمان. فليأخذ كل واحد نصيبه من العبء. ولسوف يؤدي ذلك إلى كارثة لأنّ الشيخ أمين سوف يرتمي في أحضان المسلمين والفلسطينيين والمسيحيين.

ثم استدار صوب شارون ليضيف:

– كنّا مخمّد بينكم وبين أمين. لكن المبدّد انكسر. فالقرار السياسي اليوم بين يدي أمين. وإذا ما خسر فادي المعركة في الجبل. . . فلست أدري. . . قد يكون ذلك ما يتمناه أمين. . .

فقال مندي باندفاع:

– لم يضع كل شيء. وعليكم الاستمرار مع داغان. إن تكن لديكم مطالب محددة فأعطونا إياها لنتمكن من دراستها. سوف نواصل عمليات التدريب لكي يفهم اللبنانيون أنّنا معكم. والدروز يعرفون من ناحيتهم تمام المعرفة أنّ الأسلحة تأتي من هنا.

– هذا خطأ نحن نشتريها الآن من البرتغال.

في لحظة الانصراف، طلب فادي أفرام الاجتماع على انفراد بوزير الدفاع الإسرائيلي فانعزل الرجلان في زاوية من الصالون.

قال قائد القوات اللبنانية لائماً:

– أنتم تضعوننا مع أمين في السلة ذاتها. نحن نتعهد بتحقيق مشروع بشير. لقد وقعتم اتفاقية مع أمين وهذا حسن جداً. لكن ما الذي سيحصل إن وقعتم في طريق مسدود والطريق يؤدي إلى صراع؟ إنّما خيارنا يقع عليكم أنتم لا على أمين. فأنتم ضمانة المسيحيين. وإن كان في منظوركم شيء ما للمستقبل فنحن نريد المساهمة فيه.

فسأله شارون:

– والشيخ بيار؟

– تساوره على الصعيد المسيحي المخاوف ذاتها مثلنا. لقد قال إنّكم ضمانتنا، فلا تنسوا أنّ رئيس الجمهورية ابنه. وفي الساعة الموعودة سوف نكون معكم.

في المساء ذاته، وفيما كانت ريح وزخات من المطر تهزّ الحوّامة الإسرائيلية التي حملت اللبنانيين الثلاثة وهي لا تزال على ربع ساعة من الزوق، كان فؤاد أبو ناضر رئيس قيادة القوات اللبنانية يدخل البهو الكبير للقصر الرئاسي. فقد طلب إليه خاله، أمين الجميّل، أن يحضر اجتماعاً يضم من حوله كلاً من الجنرال إبرهيم طنّوس وبطرس خوند (پيدرو) ورئيس مجلس الأمن في حزب الكتائب.

كان خوند، الموظف السابق في مصرف كريدي ليوني التجاري، قصير القامة، ربعة، ذا شعر قصير أجعد ووجه مدموغ كوجه«مغوار»يخطه شاربان كثيفان وقد ناهز الأربعين. أما وهو المنتسب قديماً إلى حزب الكتائب، فإنّه غير خاضع لسلطة پيار الجميّل ولا حتى لابنه أمين. وقد «ورث» من هذه الوظائف التي تسنّمها من قبل بشير، أنه في 13 أيلول/ سبتمبر 1982، حين انتخب فادي أفرام قائداً عاماً للقوات اللبنانية، رفض تكديس المنصبين على نحو ما فعل بشير.

– أنا متضايق جداً بفعل عرقلة السلطة الناجمة عن مشكلة انتشار الجيش في بيروت الكبرى. وأنتم تعرفون مشاعري فأنا مرتبط بكم، حزباً وقواتٍ لبنانية، ارتباطاً أخلاقياً ورفاق سلاح.

فأبدى فؤاد أبو ناضر دهشته قائلاً:

- لقد قيل لي إن هذا الاجتماع سوف يتناول صعود الجيش إلى الشوف وعاليه. وأنا مندهش جداً إذ نتعرّض لموضوع بيروت الشرقية.

فرد الجميّل قائلاً بجفاء:

- لن يكون من جيش في الجبل قبل دخوله إلى بيروت، فالأمر يتعلق بطلب دولي لا بطلب محلي فقط.

فتدخل بطرس خوند بعد أن تنحنح:

- يا شيخ أمين طلبنا إليك مراراً عديدة وبإلحاح أن تتبنانا على نحو يجعل منك قائد العسكريين وأن تفعل ما تعتبره ضرورياً. أصدر أمراً! ادخل إلى الشرق! لكن نريد بالمقابل، ذخائر وطريقاً إلى الشوف وضمانات. وبوصفنا مقاومة مسيحية فأنت زعيمنا . . .

فقاطعه أمين بصوت قوي:

- أنا لست ضعيفاً! وأنا قادر تماماً على اتخاذ قرار! وإضافة إلى ذلك أعتبر نفسي قائدكم العسكري. أنا رئيس الجمهورية وأستطيع أن أعلن عن نفسي زعيماً للكتائب.

فقال أبو نادر:

- لسوف يُطرَد المسيحيون من الجبل ما لم ينتشر فيه الجيش.

فرد الرئيس مؤكداً:

- لدي مخطط للجبل. ولسوف تصعد في ما بعد وحدات خاصة إلى الشوف وعاليه.

فرد قائد هيئة أركان القوات اللبنانية قائلاً بحذر:

- سوف ندرس ذلك.

فهتف خوند مستدركاً كلامه الذي لم يفهم جيداً:

- أنا لن أعارض ذلك. استخدم القوات اللبنانية بالغطاء الذي تريد، أما أنا، قائد مجلس أمن الكتائب، فأقول لك: أصدر الأوامر التي تبدو لك ضرورية.

انتهى النقاش بموعد شكلي ضربه أبو ناضر وطنّوس لدراسة التبعات المترتّبة على اقتراحات الرئيس.

إنّ القوات اللبنانية التي انحدرت إلى مستوى ميليشيا حزب بسيطة، حتى لو كان حزب الكتائب، قد أحيطت علماً، وبمباركة من خوند، بانتشار الجيش في المنطقة المسيحية.

لدى وصول فادي أفرام إلى مكتبه، وجد على طاولة عمله ملاحظة شاملة مقدمة من جهاز استخبارات القوات اللبنانية. كانت تحت عبارة «سري جداً» وتتعلق ببيروت الكبرى:

إنّ دراسات مخطط الانتشار كافة قد انصبّت كلها على وحدة من الجيش اللبناني: إنّها الكتيبة

الثامنة المجهزة بوحدات من القوة العسكرية الفرنسية. [. . .] ويرمي هذا المخطط إلى تدعيم السلطة المركزية انطلاقاً من العاصمة لكي ينتشر فيما بعد انتشاراً تدريجاً باتجاه مختلف مناطق أرض الوطن. وسوف تكون المهمة الحفاظ على الأمن العام والحفاظ على طرق المواصلات بين المدن وجمع الأسلحة الفردية الخفيفة. أما الأسلحة الثقيلة والمظاهر المسلحة فينبغي أن تختفي وتنسحب خارج حدود«بيروت الكبرى». وهذا المشروع ينبغي أن يتبناه المكتب السياسي لحزب الكتائب يوم 31/ 1/ 1983 القادم.

كانت الملاحظة تقدر أيضاً النتائج المترتبة، على المدى القصير والمتوسط، على نشر الجيش في بيروت الشرقية:

سوف تغدو القوات اللبنانية منذ ذلك الحين محرومة من رئتها الأساسية على الرغم من الإبقاء على المجلس العسكري في الكرنتينا.

1- على الصعيد المالي، إلغاء الأرباح الصادرة عن الحوض الخامس في ميناء بيروت الواقع ضمن الانتشار، ثم من بعد شطب الضرائب التي تُجنى من بيروت وضاحيتها، والتي تمثل ثلاثة أرباع المصادر، نظراً للكثافة السكانية والأعمال التجارية والمكاتب والصناعات والمؤسسات من الأصناف كافة.

- إذا ما تناقصت الموارد المالية، فإنّ المناطق الأخرى من نهر الكلب إلى جسر مدفون سوف تخضع لفرض ضرائب إضافية، مما سيؤدي إلى تذمّر السكان، ما لم يجرِ التقليل من الأجور بالنسبة ذاتها. وبالتالي التقليل إلى حد كبير من كتلة القوى المقاتلة التي يجب الحفاظ عليها.

- إذا ما جرى إنقاص حجم القوات اللبنانية فلن تعود موضع مصداقية ولن تستمرّ قوة رادعة على أرض الواقع، إضافة إلى التذمر الذي ستضاعفه خيبة أمل العناصر.

2- إنّ القوات اللبنانية، بانسلاخها عن الشوف وحرمانها من الخصوم، سوف تفقد الشرعية التي تراكمت وخرجت بها من الحرب الأهلية في عامي 1975-1976، ومن المواجهات ضد قوى الاحتلال السورية.

3- إنّ استحالة التواصل على الصعيد العسكري بين مناطق كسروان ومنطقتي عاليه والشوف، سوف تقلل إلى حد كبير قدرتنا على المناورة، سياسياً وعسكرياً معاً.

بعد ظهر اليوم التالي، وهو يوم عيد رأس السنة، استدعى القائد العام «للقوات» قادة الميليشيا كافة. فكانوا جميعاً[1] حاضرين في الساعة المحددة.

---

(1) فادي أفرام، أنطوان بريدي (توتو)، إيلي وزّان (عبّاس)، أنطوان نجم (نبتون)، أسعد سعيد (هايّي)، كريم بقردوني، نازار ناجاريان (نازو)، ألفريد ماضي، بطرس خوند (بيدرو)، سمير جعجع (الحكيم)، مسعود الأشقر (بوسي)، روجيه ديب، إيلي الزايك، إيلي حبيقة (H.K) أسعد شفتاري (آسو).

وقد أكد أفرام قائلاً بصورة قاطعة:

- مشكلة بيروت الشرقية واضحة بالنسبة إليّ. فما من أحد يطلب انتشار الجيش في منطقتنا كما يزعم الشيخ أمين. لا على الصعيد الدولي ولا على الصعيد المحلي. إنّه يريد فقط أن يحمل عبء هذه العملية على عاتقه الشخصي. لو كان من شأن هذا الإجراء أن يساعده حقاً، أو أن يكون نافعاً للمسيحيين، فأنا موافق. لكن ينبغي أن نعرف أنّ نشر الجيش في الأشرفية يعني إغلاق قسم كبير من وجودنا. فلا أستطيع القبول بذلك آخذاً بعين الاعتبار انعكاس النتائج على المسيحيين.

فأضاف إيلي حبيقة قائلاً:

- إنّي أعارض انتشار الجيش. فهو من ناحية سينتشر بكل قوته ووسائله كافة ولسوف يستحيل عليه فعل ذلك في مكان آخر، ومن ناحية أخرى فإن سبعين بالمئة من عناصره معارضة لنا.

فسأل أنطوان نجم:

- وإذا ألحّ أمين الجميّل؟

فطمأنه أفرام قائلاً:

- لن يكون هنالك انتشار بالقوة في بيروت الشرقية.

فقال كريم بقرادوني:

- أنا أيضاً أعارض ذلك. إنّ أمين يتصرّف على الدوام ضمن منطق خلافه مع بشير وهو يريد تسوية حسابات. إنّه لا يتصرف بوصفه رئيساً مسؤولاً عن دولة وعن الشعب المسيحي. ولا طائل وراء دراسة هذه المسألة دراسة عميقة معه. علينا التذرّع بالصبر وكسب الوقت. فأنا أتوقّع أن يطلق حملة من ضغوط عديدة ومتنوّعة لمحاولة تفتيتنا.

فأعرب إيلي الزايك، وهو أحد المقربين من الرئيس، عن أسفه قائلاً:

- ليس كريم على حق حيال أمين فأنا مقتنع قناعة شخصية بأنّ لديه مخططاً.

ومن بعد قيامهم برفض الطلب الرئاسي وبأن يتحالفوا مع پيار الجميّل وحزب الكتائب، مضى كل واحد منهم لقضاء سهرة عيد رأس السنة.

في هذا اليوم الأخير من عام 1982 كانت عملية «سلام الجليل» قد كلّفت الجيش الاسرائيلي 368 قتيلاً و2383 جريحاً. فيما تكلّفت إسرائيل 3 مليارات دولار في حربها على لبنان.

7

أكل العنب أم قتل الناطور؟

دعا وليد جنبلاط على الغداء في مطعم «مندَرين» في بيروت الغربية احتفالاً ببدء عام 1983 في الأول من كانون الثاني، الأميركيين موريس درابر وروبرت ديلون، ومستشاره مروان حمادة مع صهره غسان التويني، منسّق المفاوضات الإسرائيلية اللبنانية مع أمين الجميّل. ودار الحديث أثناء الغداء حول الحوار بين تل أبيب وبيروت - الذي سيعقد الاجتماع الثالث منه في الغد في خلدة. وقد ألحّ الأميركيّان لإجراء تقارب بين الزعيم الدرزي والرئيس اللبناني. لكن ظل جنبلاط ثابتاً لا يتزحزح. وأثناء تناول القهوة، أحيطت سفارة الولايات المتحدة علماً بالقدوم المرتقب لشارون إلى بيروت حيث ينبغي أن يعقد مؤتمراً صحفياً.

لدى خروج وزير الدفاع من الاجتماع الأسبوعي للوزارة الإسرائيلية في الصباح ذاته كرر هجومه على واشنطن مؤكداً أن: **الولايات المتحدة مسؤولة عن الموقف الصلب الذي يعتمده لبنان** وذلك قبل أن يذكر بأنه يعتبر أن الوفد الأميركي إلى المفاوضات الإسرائيلية اللبنانية هو مجرد«مدعو«ثم أن يخلص إلى أن واشنطن **تحرص على أن تتابع (عبر هذه المفاوضات) الأهداف المرسومة في مخطط ريغان.**

لقد سعى درابر للإفادة من وجود شارون في العاصمة اللبنانية كي يقابله. نهض الرجال الخمسة من على المائدة في مطعم «مندَرين». لقد توقّف المطر، لكنّ ريحاً جليدية كانت تهب على بيروت. هنالك موجة من البرد تغطي لبنان منذ 24 ساعة. فطرقات الجبل مقطوعة بسبب الثلج، وطرقات الوادي غارقة تحت برك واسعة من المياه.

تبادل اللبنانيون والأميركيّان التحية على الرصيف ورجال حرسهم الشخصي يحيطون بهم، من غير أن ينتبهوا إلى سيارة حمراء فاقعة اللون مصفوفة أمام مدخل المطعم تماماً. لقد كانت ملأى بالمتفجّرات أما الرجل الذي كان على سطح مجاور، وهو يمسك بيده جهاز الإيعاز عن بعد لتفجير تلك الآلة الجهنمية فقد راقب المجموعة تفترق دون أن ينفّذ الأمر. لقد صرح إيلي حبيقة قائلاً لوليد

جنبلاط، أثناء عشاء المصالحة بين الرجلين الذي أقامه في دمشق عام 1986 وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام[1]لقد ألغيت الأوامر في اللحظة الأخيرة لأنّ ديلون ودرابر قد خرجا معك في الوقت ذاته. كذلك باح له قائد جهاز الأمن أن اعتداءً آخر قد نُظّم ضده بعد ذلك ببضعة أسابيع على شكل قذيفة مضادة للدبابات على مسار الدامور-كفرحيم، والذي لأسباب مجهولة، لم يعمل أثناء مرور سيارته. إنّ «نصائح» ميثير داغان قد جرى الإصغاء إليها.

على الرغم من أن عناصر الميليشيا المسيحيين والدروز كانوا حالياً مشغولين بالكفاح ضد الثلج والبرد، أكثر منهم بالقتال، فإنّ الوضع في الجبل ظل متوتراً. فعواء الأسلحة يُسمع بانتظام في التجمّعات السكنية مثل عاليه، أو على «خطوط الجبهة» مثل تلك التي تفصل بين سوق الغرب وعيتات. لقد أنجز قائد «القوات» في مطلع كانون الثاني/ يناير إعادة تنظيم الانتشار العسكري في الشوف. إنّه يرتكز من الآن فصاعداً على الدفاع عن القرى المسيحية اعتماداً على سكانها. وجرى إنشاء ثلاث مناطق. فتولّى سمير جعجع إدارة المنطقة الشرقية (صوفر-عاليه-بيت الدين) . وأوغوستين تيغو (ولقبه تيتو) منطقة الوسط (عاليه-سوق الغرب-الشويفات) أمّا جو إدّه، وهو الرجل الذي تولى إدارة المقاومة في زحلة،[2] فقد عُيِّن مسؤولاً عن المنطقة الجنوبية التي تبدأ من خلدة لتصل إلى صيدا.

إنّ المعضلة الأولى التي توجّب عليهم مواجهتها هي فقدان«الحافز» لدى المسيحيين المقيمين في الشوف. إذ كان عدد كبير منهم من أنصار كميل شمعون وحتى أعضاءً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي. أما الصعوبة الثانية، وليست أدنى من تلك، فكانت عزم أمين الجميّل المعلن من جديد، لجعلهم يُخلون بيروت الشرقية، وعلى استعادة الحوض الخامس من مرفأ العاصمة.

كان ذلك الرصيف البحري يقع مباشرة وراء مقرّ القيادة العامة للقوات اللبنانية فيتيح للتجار أن يستوردوا البضائع وأن يدفعوا للميليشيا المسيحية (ضريبة تقل بمقدار 40 ٪ عن رسوم الجمارك المحدّدة من قبل الدولة) وكان هذا «الاقتطاع» يشكل 80 ٪ من عائدات «القوات».

في 4 كانون الثاني/ يناير 1983 استدعا أمين الجميّل فادي أفرام. فتوجّه هذا الأخير إلى القصر الرئاسي بصحبة أنطوان بريدي (توتو) وفؤاد أبو ناضر. كان بريدي المفتش العام للقوات اللبنانية، ويُعتبَر بهذه الصفة، الرجل الثاني في «القوات»، لكن بصورة غير رسمية. أما تسميته في منصب المسؤول عن منطقة الأشرفية (بدلاً من جان نادر الذي قتل في الاعتداء على بشير) فقد أسبغت عليه هيبة سياسية واسعة لا جدال فيها. وهو على صلة قوية جداً بأفرام. إذ قام الاثنان، ضمن سرية تامة، فأعدّا معاً المخطط (م) ، وهو الوجه اللبناني لعملية «سلام الجليل».

---

(1) من وليد جنبلاط لآلان مينارغ.

(2) مراجعة الجزء الأول من أسرار حرب لبنان، المكتبة الدوليةLibrairie Internationale - بيروت، 2005

كان فؤاد أبو ناصر، رئيس أركان الميليشيا، زوج أخت فادي أفرام، وهو خصوصاً حفيد پيار الجميّل. فكان أفرام يحرص حرصاً مطلقاً على إشراكه في المناقشات مع خاله أمين.

يتمتّع فؤاد، بوصفهعضواً في العائلة، بوزن لا ينكر ضمن صفوف القوات اللبنانية. وكان يعارض معارضة تامة كل تباعد بين حزب الكتائب والميليشيا المسيحية ويفعل كل شيء في سبيل تقاربهما.

استقبلهم أمين الجميّل بابتسامة عريضة وباح لهم وهم يتناولون القهوة - وأبو ناصر يشرب الشاي - بأنه قد توصل إلى اتفاقية مكتوبة مع شارون في إشارة منه لأول مرة للنص الذي تفاوض عليه سامي مارون في تشرين الثاني/ نوڤمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1982. وقد أكد لهم قائلاً:

- كان لهذه الاتفاقية أن تظل سراً، لكن شارون أذاعها على الملأ فتعرضت لضغوط كبيرة من قبل العرب. فلن أستطيع مواصلة النقاش معهم على الرغم من أن الأميركيين يدفعون بي إلى ذلك.

فذكره فادي أفرام قائلاً:

- حين جاء شارون إلى هنا في كانون الأول/ ديسمبر 1982، قال لنا إنّ عملية «سلام الجليل» سوف تتم بمشاركتنا أو من دوننا. ولقد ألحّ على واقع أنّ هذه العملية سوف تفرض علينا بعض الأشياء. وأنّه لم يعد بوسعنا الأداء على عدة مسارح. وأنّ علينا أن نتخذ موقفاً واضحاً حيال إسرائيل.

استبعد أمين الجميّل الملاحظة بحركة من يده، ثم تصدى لموضوع انتشار الجيش اللبناني في بيروت الشرقية وهو يوضح مطولاً أنّ هذا القرار صادر عن (إلحاح دولي) من غير أن يذكره بالاسم.

فسأله فادي أفرام:

- هل ينبغي للجيش أن ينتشر من بعد في مناطق أخرى أم أنّ الهدف من هذه العملية مقتصر فقط على أنْ يحل محل القوات اللبنانية؟

فثارت ثائرة الرئيس من غير أن يجيب عن السؤال:

- لا تعاندوا لأنكم ستصبحون عائقاً كما كان الفلسطينيون.

ثم طالب بإيضاح مكتوب لمواقف القوات اللبنانية، ووضع حداً للقاء.

ما إن عاد قائد «القوات» إلى مكتبه حتى طلب إلى إيلي حبيقة مضاعفة الاتصالات مع الضباط المسيحيين داخل الجيش والحرص على تسمية المقربين إلى القوات اللبنانية في مناصب مفصلية.

في الأيام الأولى من كانون الثاني 1983 أنجز الإسرائيليون توزيع وحدات ياكال. لم يكن مساعد داغان سوى العقيد إريتس شايكي الذي تعرفه كوادر القوات اللبنانية حق المعرفة. فهم جميعاً تقريباً قد اتبعوا في مستعمرة شيفاييم، إلى الشمال من تل أبيب على طريق حيفا، دورات القيادة العليا للعلوم العسكرية «پوم[1]»، التي كان يتولى بنفسه قيادتها. وهو ناحل إلى حدّ الهزال، ذو قيافة

(1) هي دورات تدريب وتأهيل اتبعها زعماء الميليشيا المسيحية كافة، فنشأت بفعلها روابط وثيقة جداً بين المدرّبين والمتدرّبين.

شرقية مضحكة، تزيدها اكتمالاً لغته العربية الممتازة، وكان أشيب الشعر. ولقد خلّف أطيب الأثر في نفوس عناصر الميليشيا كافة الذين مرّوا تحت إمرته.

كان الياكال منقسماً إلى قسمين اثنين: جنوب لبنان، وهو القطاع ذو الحساسية الخاصة بالنسبة إلى الإسرائيليين، وقطاع الشوف. وكان ذلك التقطيع يعتمد على واقع دقيق جداً بالنسبة إلى تل أبيب.

أمّا وأنّ الجنوب ذو أكثرية شيعية، فإنّ منهج ياكال قد وضع في الحسبان ترجيح الإبقاء على «منطقة أمنية» في ما وراء حدود الدولة العبريّة يكون لجيش لبنان الجنوبي بقيادة المقدّم حدّاد، دور خاص يقوم بأدائه في حال فشل المفاوضات. ولم يعد الإسرائيليون يثقون كثيراً بفضائل الحوار. أما الشوف، فيظل من ناحيته ورقة سياسية حيال السلطة اللبنانية. وما كان في نية الإسرائيليين البقاء فيه بأي ثمن من الأثمان. أما مسؤول ياكال في الشوف فهو العقيد الركن إميل شربيط، وهو رجل شديد السمرة، يتقن العربية والفرنسية إتقاناً تاماً. ولقد أقام هيئة أركانه في قرية ضهور عبادية.

استقبل قادة القوات اللبنانية بتفاؤل نبأ تعيين داغان وشايكي على رأس ذلك التنظيم.

لكنّهم غيّروا رأيهم بسرعة قصوى، بدءاً من يوم 6 كانون الثاني/ يناير.

ففي ذلك النهار، استقبل فادي أفرام وهيئة أركانه في الكرنتينا، كلاً من داغان وشايكي وشربيط وأمنون، وهو ضابط الاتصال التابع للموساد، والمكلّف بتدوين محضر الاجتماع. وقد أعلن الجنرال الإسرائيلي قائلاً:

- سوف أقول لكم بعض الأشياء التي لن تروقكم، ثم نقوم بمناقشتها.

وشرح لمحاوريه المصعوقين، طوال عشرين دقيقة، أنّ إعادة النظر في دور وليد جنبلاط في الشوف لم يعد ضمن جدول الأعمال. أما وأنّ الهدف الرئيس للزعيم الدرزي يتمثّل في تغيير النظام السياسي اللبناني اعتماداً على الحزب التقدمي الاشتراكي فإنّ الإسرائيليين غير معنيين بالأمر مطلقاً. وأضاف داغان يقول:

- ومن جهة أخرى فإنّ هذا الحزب يتوافر لديه المال. وإذا ما استمرّ الوضع الراهن على حاله، فإنّ الدروز سوف يتفاهمون مع الشيعة، وذلك ما ينبغي تفاديه بأيّ ثمن.

بذل الجيش الإسرائيلي وأوري لوبراني ما يُقدَّر بكنوز من الأناة والدبلوماسية لإقامة اتصال بين مسؤولي ياكال والدروز اللبنانيين، فالتقريب ما بينهما.

كان أوري لوبراني، وهو الرجل الذي «تفاوض» مع سامي مارون حول اتفاقية 13 كانون الأول/ ديسمبر 1982[1] لا يفكّر إلّا في مصالح إسرائيل حتى لو اضطره الأمر لأن يطأ جسد

(1) العودة للفصل الخامس من هذا الجزء: القوات اللبنانية عند مفترق الطرق.

أبيه أو أخيه[1]. ومنذ حوالى شهرين، وهو يعمل في الظلّ على الملفّ اللبناني.

ثم واصل ميئير داغان القول:

- لقد توصّلنا إلى تحالف مع الدروز. وأضاف مؤكّداً للتخفيف من وقع كلامه: صحيح أنّه ليس على الدرجة ذاتها من قوة تحالفنا مع الموارنة! كما عملنا صادقين، كلّ ما وسعنا، لتقريبكم منهم أيضاً. لكن من غير فائدة تُرتجى. إيه! ألا ليت أمين كان أكثر تعقّلاً! ألا ليت الأميركيين لم يمضوا الوقت في دسّ أنوفهم في ما بينهم! إذن لكان الأمر مختلفاً. فالدروز يعتبرون في الوقت الراهن، أنّكم عازمون على مواصلة المعارك، وإنّ تسمية سمير جعجع قد أقلقتهم. أما بعد، فأنا أكلّمكم بوصفي ممثلاً لدولة إسرائيل: لا تسحبوا قواتكم من الشوف! بل لا تفكّروا في ذلك! لقد جئنا بكم إلى هنالك، فعليكم البقاء فيه. لكنني أقترح عليكم أن تبادروا إلى رفع مراكز مراقبتكم كافة عن الطرق. وأوقفوا سريعاً كل ما من شأنه أن يكون سلبياً بالنسبة إلى الدروز. إنّ أوامر حكومتنا بسيطة: ينبغي إعادة الهدوء إلى الشوف.

أما إميل شربيط، مسؤول ياكال في منطقة الشوف والمعروف بقربه الشديد من الدروز، فأضاف قائلاً من غير أن يطرف له جفن:

- لا ينبغي للدروز أن يُدلوا بتصريحات ضدنا، فنحن نسعى لأن نجعل منهم أصدقاء. ولست أعتقد أنّ ذلك ممكن تماماً في الوقت الراهن، غير أنّه يقوم بتهدئتهم على القليل.

كان محدّثوه مصعوقين ومذهولين، فلم تبدر عنهم أية ردّة فعل. وقام أبو ناضر بمحاولة فقال:

- جعلنا ممثلكم في إسرائيل نسمع، بصورة غير رسمية، أنّ المفاوضات بين بلدينا إذا لم تنجح، فسوف يكون هنالك سلام متقطّع يؤدي إلى إقامة كانتون درزي وكانتون مسيحي وكانتون شيعي...

فقاطعه ميئير داغان قائلاً بجفاء:

- لا أذكر أنّ مناقشة من هذا النوع جرت بحضوري. فلا علم لي بذلك!

ثم انتقل، دونما تمهيد، إلى ذكر الوضع في جنوب لبنان حيث صار الشيعة أكثر فأكثر تقبّلاً للأفكار التي طوّرتها الحركات الإسلامية الأصولية المدعومة من إيران.

فأكّد الجنرال الإسرائيلي قائلاً:

- إنّ حركة أمل[2] تعتقل الأصوليين وتسلّمنا إياهم.

فعلّق إيلي حبيقة قائلاً بارتياب:

---

(1) أحد أعضاء الوفد الإسرائيلي لآلان مينارغ.

(2) حركة أمل، حركة المحرومين، وهي الذراع المسلح للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.

– أشكّ في أن تكون لديهم القدرة اللازمة للقيام بعمل مُجْدٍ.

كانت الطائفة الشيعية، التي تشكّل القسم الأكبر من سكان الجنوب، والتي ظلّت مهملة لأسباب اقتصادية وسياسية، في حالة من التغيير التام. فزعماؤها التقليديون، وهم أساساً آباء الأسر الكبيرة[1]، ارتكزوا على ولاء انتخابي. وفي عام 1969، جاء رجل دين إيراني، هو القائد الفاتن للجماهير، الإمام موسى الصدر، ليؤسّس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، فيكون رأس حربة للنهضة الشيعية. فيبدأ بالتلاشي والاضمحلال، عهد الأسر الكبرى في هذه الطائفة، الغارق في سبات عميق من الظلامية الإقطاعية.

بعد ذلك بشهور، وُلِدت حركة أمل بطريقة غامضة، حين كان الإمام الصدر بين أنصاره في بعلبك، في يوم غبطة وفرح، فأعلن قائلاً: إنّما السلاح زينة الرجال. وأضحت تلك الميليشيا بسرعة، مستقلّة سياسياً. فلم تنخرط بتلك الصفة في المعارك الأولى من الحرب اللبنانية. فاتخذت أمل دوراً تجميعياً لصفوف الشيعة ودور الوسيط لمطالب الطبقات المعدمة. وسارت في تلك الأثناء بكل نشاط، على خطى أحزاب اليسار اللبنانية في تجنيد أنصارها. فصار الحزب الشيوعي سريعاً خصمها الرئيس. ونجمت عن ذلك احتكاكات عديدة بين الحزب الشيوعي وأمل، في جنوب لبنان وفي ضاحية بيروت.

وعلى أثر «اختفاء» الإمام موسى الصدر في ليبيا، في 30 آب 1978[2]، أعلنت أمل الحرب على الجماعة الإسلامية الليبية وعلى أنصارها في لبنان، مما نجم عنه صدامات عنيفة مع المنظمات الفلسطينية والمحلية التي كانت تقيم علاقات ودّية مع طرابلس الغرب[3]. فاستُبدِل بالإمام الصدر على رأس الحركة نائب البقاع حسين الحسيني. ولم تكن حركة أمل بالحزب المنظّم والمتجانس، بل خليطاً عجيباً تتعايش داخله، جماعات وعشائر ومجموعات ضاغطة. فكانت قيادتها موضع تنازع دائم ما بين ميل حازم نحو الصدام وميل آخر يمثّل أقليّة تدعو إلى الحوار. أما وأنّ حسين الحسيني من هذه الفئة الأخيرة، فقد استقال ليخلي المكان لمحام هو نبيه برّي[4].

انطلق برّي بادئ الأمر في عملية إعادة بناء، متخذاً من القرى قاعدة للحركة. وتوجّه من بعد نحو مجابهة مباشرة مع الحركة الوطنية اللبنانية[5] والمقاومة الفلسطينية. كان تحليله بسيطاً: إنّ

---

(1) آل الخليل، آل عسيران، آل الأسعد، آل الزين.

(2) قتل على يد أجهزة الاستخبارات الليبية على أثر زيارة رسمية إلى طرابلس. أنظر للكاتب نفسه، دموع الغضب، منشورات رونيسانس 1991، طبعة ثانية 2005.

(3) سعت سوريا عام 1981 إلى وساطة تقوم على تقديم هبات ليبية لحركة أمل لكن دون فائدة.

(4) انتخب وأعيد انتخابه رئيساً لمجلس النواب.

(5) الحركة الوطنية اللبنانية مشكلة من 17 حزباً ومنظمة يسارية برئاسة وليد جنبلاط. (الحزب التقدمي الاشتراكي، الحزب الشيوعي اللبناني، منظمة العمل الشيوعي في لبنان، الحزب السوري القومي الاجتماعي، حزب البعث الموالي للعراق، حركة الناصريين المستقلين، حزب البعث الموالي لسوريا، الحركة الديمقراطية اللبنانية، الاتحاد الاشتراكي العربي، المنظمة الناصرية، =

تدهور الوضع في الجنوب وفي لبنان عامة يقع على عاتق الفلسطينيين وعاتق اليسار (إسرائيل لم يرد ذكرها) . كان لا بد إذن من مقاتلتهم. فمن يسعه أن يقدم له المساعدة الفضلى؟ إنّها سوريا. فقام بتطوير اتصالات حميمة مع دمشق إلى حد صار يُعتبر في ما بعد واحداً من المرتكزات السورية في لبنان.

لئن كانت القوات اللبنانية قد حافظت، عاطفياً، على كامل الودّ حيال «العائلات الشيعية التقليدية القديمة» التي دعمت بشير الجميّل أثناء الانتخابات الرئاسية، فإنّ الإسرائيليين ولا سيّما أوري لوبراني، وهم الأكثر براغماتية، قد قرروا من جانبهم المراهنة على الورقة الشيعية الجديدة. ذلك أنّ أمل، من ناحية أولى، حركة حسنة البناء، لا سيّما في الجنوب. ولأنها لم تكن، من ناحية أخرى، معاديةً للدولة العبريّة، من غير أن تقول ذلك بصورة حاسمة. ناهيك بأنّ الشيعة استقبلوا الجنود الإسرائيليين استقبال محررين، ناثرين عليهم الرز والأزهار في الأيام الأولى من عملية «سلام الجليل». وإنّ العديد من أعضاء هذه الطائفة كانوا يقيمون أحسن العلاقات التجارية سراً مع إسرائيل. ولقد بدا لهم برّي «قابلاً للكسب» على الرغم من أن تأثيره في الجنوب لم يكن كافياً للسماح بمراقبته.

كانت ملاحظات التقييم المتعلقة به توضح أنّه خدم في الجيش الأميركي، وأن زوجته الأولى وأولاده يقيمون في الولايات المتحدة، حيث له مصالح مالية. كذلك فإن محمد غدّار، وهو أحد المسؤولين العسكريين في حركة أمل، قد اتبع في الفترة الأخيرة، دورة مشاة في «فورت بيننغ»، ولم يكن وحيداً. إذن كان بوسع الميليشيات الشيعية في حركة أمل أن يصبحوا حلفاء.

لكنّ الصعوبة الوحيدة تمثلت في التوصل إلى التفريق «ما بين القمح والزؤان». فقد كان الموالون لإيران والخمينيون، يعادون إسرائيل عداء شرساً. وهم بقيادة منشق عن حركة أمل، اسمه حسين الموسوي، الذي احتفظ لنفسه برصيد أكيد داخل حركته الأصلية.

إنّ الخمينيين، الذين لُقّبوا سريعاً بحركة أمل الإسلامية، فيما أطلقوا هم على أنفسهم اسم حزب الله[1]، قد ظهروا للمرّة الأولى في بعلبك في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982. كان المطر ينهمر مدراراً، حين عُلِّقت صورة آية الله الخميني ولافتة تقول المقرّ العام لعشاق الشهادة على واجهة دارة أنيقة مبنيّة بالحجر المنحوت وراء سوق الخضار. ومنذ ذلك الحين يقف أحد حراس الثورة الإيرانية بشكل دائم وبيده كلاشنيكوف خلف جدار من أكياس الرمل، فيتولى حراسة المدخل. ففي بداية شهر حزيران/ يونيو، وفي الساعات التي تلت دخول الجيش الإسرائيلي إلى لبنان، قدم من طهران

---

* الأمواج العربية، اتحاد قوى الشعب العامل، قوات ناصر، منظمة الحزب الديمقراطي الكردي-الجناح اليساري، حزب العمل الاشتراكي العربي، جبهة المسيحيين الوطنيين.

(1) حركة أمل الإسلامية اتخذت اسم حزب الله عام 1985.

400 عنصر من حراس الثورة «پاسداران» لمقاتلة العدو الصهيوني وقوفاً إلى جانب السوريين والفلسطينيين. وهم لم ينخرطوا في أيّة معركة لكنهم شكلوا نواة المدربين في معسكر للتدريب قرب بريتال، وهي قرية الموسوي، على بعد حوالى 20 كم إلى الجنوب من بعلبك. كان 200 شيعي لبناني يتبعون بانتظام التدريب على الأسلحة تحت قيادة ضباط إيرانيين والذين في كل مساء يعبرون الحدود للذهاب والنوم في قرية الزبداني السورية. إنّ تمويل هذا التشكيل كان مضموناً عن طريق سفير الجمهورية الإيرانية الإسلامية في دمشق، علي أكبر منتظري، وهو الأب المؤسس لحزب الله الإيراني[1]. إنّ «العمل الحربي» الوحيد الذي قامت به ميليشيات أمل الإسلامية قد جرى في 21 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1982 عشيّة عيد الاستقلال في لبنان. فقد احتلوا «سراي» بعلبك لينتزعوا الأعلام اللبنانية وصور الرئيس الجميّل ثم فعلوا الشيء ذاته في شوارع مركز المدينة وهم يطلقون النار في الهواء. وقد أوضح حسين الموسوي، بعد بضع ساعات، قائلاً ببساطة:

– إنّ صور أمين الجميّل قد جرى توزيعها توزيعاً استفزازياً وقد أزعج هذا التصرّف شباناً حساسين اتخذوا مواقع في المدينة للتعبير عن رفضهم لرئيسٍ ما لا تزال ميليشياته ظاهرة في كل مكان[2].

وقد أكد داغان لمسؤولي القوات اللبنانية قائلاً:

– إنما ينبغي مقاتلة هؤلاء وإزالتهم.

كانت المفاوضات الثلاثية الأميركية اللبنانية الإسرائيلية في نقطة الصفر. فهي تصطدم دوماً بمسائل جدول الأعمال، وظل ديڤيد كيمحي وأنطوان فتّال ثابتين على مواقفهما منذ البداية. ويقوم الأميركيون بدور الحكم فيقترحون «حلولاً» ليقوم الطرفان الآخران باستبعادها على الفور.

كانت واشنطن تحرص حرصاً مطلقاً على الإقلاع سريعاً بهذه المحادثات. فقد كانت تناط بها في واقع الأمر المصداقية الأميركية التي لا يستغنى عنها لإطلاق مخطط ريغان للسلام. فقد استقبل الرئيس الأميركي على التوالي الملك الأردني والرئيس المصري سعياً وراء إقناعهما بقبول رؤيته للأشياء دون نتيجة تذكر. إنّ فقدان الولايات المتحدة لقدرة الحصول على «ليونة» إسرائيلية في المناقشات مع اللبنانيين، كانت تردعها عن الانخراط بصورة أكبر. وعاد فيليب حبيب، الذي كان رأسه لا يزال مكللاً بهالة النجاح الذي حققه قبل خمسة شهور مع رحيل الفلسطينيين عن بيروت، ليحمل من جديد عصا «الترحال من أجل السلام». وقد استُقبل مجدداً في إسرائيل. وفي 10 كانون الأول/ ديسمبر 1983، وهو يوم وصوله إلى القدس، ظهرت الصحيفة اليومية هآرتس بعنوان: **الأميركيون يعقدون المفاوضات.**

---

(1) سوف يغادر هذا المنصب ليصبح وزير الداخلية مرهوب الجانب في الحكومة الإيرانية، وقد اشتهر بعمليات التطهير الدموية التي قادها ضد «أعداء الثورة» ولأصوليته المتعنّتة.

(2) من حسين موسوي لآلان مينارغ.

وفيما كانت طائرة مبعوث رونالد ريغان تحط في مطار اللد في تل أبيب، كان ديفيد كيمحي، رئيس الوفد الإسرائيلي للمفاوضات، يدخل بيت بيار الجميّل في الدورة بضاحية بيروت الشرقية[1]. وكلما جرى لقاء بينهما، ذكّره الرئيس أولاً بأن الكتائب كانت لها علاقات مع نواة الدولة العبريّة في زمن الهاغانا، وأنه قد لعب شخصياً مباراة بكرة القدم في إسرائيل في ذلك العهد. ثم انتقل الرجلان، من غير تمهيد، إلى صلب الموضوع. وقد أكّد الزعيم الأكبر قائلاً لكيمحي:

– لا يسعكم مواصلة العيش على هذا النحو، والسلاح في أيديكم. سوف تحتاجون إلينا. سوف يأتي وقت يتوجّب عليكم فيه الانفتاح على المسلمين.

– ونحن مثلكم، فهنالك أشياء لا يسعنا القبول بها.

فردّ عليه الإسرائيلي قائلاً:

– إنّما على الرئيس أمين أن يقرّر هل ينبغي أن يظلّ لبنان تحت الإملاءات العربية أو أن يكون له خط سيره المستقل. فأنت تعلم حق العلم، أنّ المشكلة الحقيقية ليست في وضع جدول الأعمال! نحن لا نريد للبنان العودة إلى الوراء. فسوف يكون ذلك كارثياً بالنسبة إليكم وإلينا. . .

فقاطعه رئيس الكتائب قائلاً:

– لقد بدأ المسلمون (اللبنانيون) يعانون من خيبة أمل في العرب.

– . . . نحن نريد التوصّل مع لبنان إلى اتفاقية لا تكون آليةً ولا جافّة. فهي لن تؤول إلى شيء دون حُسن جوار ودون تطبيع. علينا الإفادة من هذه الحرب. لقد دفعنا ثمناً عالياً جداً ووقع مئات القتلى. ونحن لا نريد لهذه التضحيات أن تكون بلا طائل. ففي الأسبوع الماضي اكتشفنا في الجنوب صاروخ كاتيوشا مصوباً نحو إسرائيل. ومن حينه ونحن نرى أنّ التسويات الأمنية لا تكفي. يلزم أكثر.

فوافق بيار الجميّل قائلاً:

– أفهم ذلك كله وأنا متفق معكم. إذا ما صادفتم معضلة، فأطلقوا إليّ إشارة استغاثة (SOS) وأنا سأفعل الشيء ذاته.

– لديّ تحديداً إشارة صغيرة. ينبغي على أمين أن يكون حاسماً.

فأكد له والد الرئيس قائلاً:

– إنّه أكثر تصميماً مما تظنون.

– إنّ التطبيع الذي نطلبه منكم شديد الأهمية.

فقبل الشيخ بيار بذلك وقال:

– نحن بوسعنا أن نحققه لكن ليس بصورة رسمية، ولا تنسَ أنّ لدينا هنا عدداً غير محدود من الأشخاص يهتمون بهذه الحكاية، في حين أنّ رأساً واحداً عندكم يتخذ القرارات.

---

(1) كان يرافقه فادي أفرام، وإسحق ليور "السفير" الإسرائيلي في لبنان، وأمنون من الموساد.

– نحن ندرك أنّ المفاوضات تتقدم ببطء، لأنّ لبنان يريد أن يثبت للعرب أنّه تحت الضغط وأنه يسعى للخروج من هناك، لكن لا بد من اتخاذ القرارات ذات يوم.

لم يكن كيمحي مقتنعاً. وهو يعرف ذلك. إلّا أنه كرر رسالته على مسامع كميل شمعون والأب بولس نعمان دون تحقيق نجاح أكبر. فقد اقترح عليه فادي أفرام مجدّداً أثناء لقاء طويل، أن تقوم الدولة العبريّة بالتمييز بين السلطة وبين القوات اللبنانية. ولقد أصغى الإسرائيلي بانتباه من غير أن يتخذ موقفاً.

بدأت «القوات» تعي شيئاً فشيئاً أنّها تحت خطر كبير بأن تدفع ثمن سلامٍ يجري التوقيع عليه بين بيروت وتل أبيب. ذلك أنّ الصِلات التي ستنشأ عن ذلك بين الحكومتين سوف تحكم عليها بتهميشٍ دائم وبالتالي بنهاية علاقاتها مع إسرائيل. وفضلاً عن ذلك، فإن توقيع تلك الوثيقة ستجعل لبنان يخسر بحكم الأمر الواقع جزءاً من أرضه لا يزال تحت الرقابة السورية. أي البقاع الذي سيصير، بردّة فعل، «ملحقاً» من قبل دمشق. وكانوا يعرفون، بخلاف ذلك، أنّ المفاوضات إن لم تؤدِّ إلى نتيجة، فإنّ الميليشيا لا تعود تمثل ورقة رابحة بيد الإسرائيليين. ولسوف يفضّلون الالتفات نحو «شركاء» من شأنهم أن يقدموا لهم دعماً مجدياً في «المنطقة الأمنية» في جنوب لبنان.

رغب الجنرال داغان أن يفرض في الشوف توازناً عسكرياً بين الحزب التقدمي الاشتراكي والمسيحيين. فبدأ بمنع هؤلاء من القيام بأيّة حركة. في 9 كانون الثاني/ يناير 1983، توافر لسمير جعجع الوقت الكافي فقط لإقامة مركز قيادته في دير قرية عين تراز الصغيرة على سفح الجبل وتوزيع مقاتليه الـ 400 على ديري الكحلونية وسير[1]. وبدأت من حينها طلقات نار متفرقة وقصف مدفعي مروراً بكمائن. إنّها حرب استنزاف حقيقية يتجابه فيها مع الدروز. وكان هذا التكتيك غير ملائم له بواقع ابتعاده عن قواعده الخلفية وبسبب مصاعب التموين الناجمة عن ذلك.

لقد اكتشف قسم الاستخبارات العسكرية في القوات اللبنانية أنّ 12 بطارية من صواريخ سام 5 وحوالى 50 شاحنة من عتاد التصويب مرتبطة بهذه الأسلحة قد جاءت من ميناء نيكولايفي الاتحاد السوفييتي، وأنزلت على أرصفة ميناء طرطوس السوري بين 13 و15 كانون الثاني/ يناير 1983. إنّ هذه البطاريات، ولكلّ واحدة ستّ منصّات، قد نصبت على الفور في مناطق الضمير في شمال دمشق، وشنشار بالقرب من حمص، والسويداء غير بعيد من الحدود الأردنية، وتدمر[2].

إنّ السوفييت الذين ظلّوا على تكتمهم الشديد منذ غزو لبنان، قد رجعوا إلى مسرح الأحداث وبكل عنف.

لقد جاء إلى بيروت محمد عظيموف، عضو مجلس السوفييت الأعلى ورئيس أكاديمية العلوم

(1) وحدات الاستخبارات والهندسة.

(2) ملاحظة الحصيلة رقم 64، التي وضعتها وحدة الاستطلاع والتوثيق التابعة للمكتب الثاني للقوات اللبنانية والمصنفة سري للغاية.

في طاجكستان، ليؤكد أنّ الاتحاد السوفييتي ما غادر الشرق الأوسط قط، كي يعود إليه. وقد باح عظيموف لرئيس الوزراء اللبناني قائلاً: يأخذون علينا عدم تدخلنا أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان، ولو فعلنا ذلك لوقعت حرب نووية.

لقد جرى تصنيف هذا التصريح من قبل أجهزة الاستخبارات الغربية من بين أهم المواقف المتخذة من قبل الاتحاد السوفييتي حول الشرق الأوسط. . .بل إنّ له قيمة التهديد لأنه يتضمّن في حال وقوع أفعال خلافية مباشرة في المنطقة بين الدولتين العظميين. فسوف يكون هنالك نزاع بالضرورة. [. . .] ومن شأن ذلك أن يعني أيضاً أنّ الاتحاد السوفييتي سيمضي حتى النهاية في قراراته في المنطقة. قد أشارت إلى ذلك كله ملاحظة شاملة صدرت عن جهاز استخبارات «القوات».

حصل الإسرائيليون و الأميركيون سريعاً على تأكيد بانتشار الصواريخ وتلقى السوريون في تلك الأثناء عتاد اتصالات للتراسل عبر الأقمار الصناعية وعربات شلترز المجهزة بالحواسيب. وواقع الأمر أنّ الاتحاد السوفييتي إضافة إلى بطاريات سام قد زوّد دمشق بالاتصال المباشر بوسائله العسكرية الأكثر تقنية والقادرة على إجراء الاتصال بين هيئات الأركان الكبرى من موسكو إلى دمشق بالاستعانة بالتجهيزات في منغوليا وأفغانستان وألمانيا الشرقية. وكان ذلك لا يزيد ولا ينقص عن المعادلة لـ«C3I»[1] الأميركية التي استخدمها الإسرائيليون من أجل (رؤية) الطيران السوري والتشويش عليه وتدميره.

إنّ النظام السوفييتي الموضوع تحت تصرف دمشق قوامه حبكة أقمار صناعية للتعرف الفوتوغرافي والاستكشافات الالكترونية والإنذار والاتصالات والملاحة المنتشرة في الفضاء على ارتفاع أكثر من 100 كم عن الأرض. وقد كان منبسطاً على وجه الأرض السورية عبر التواصل مع طائرتين من نوع توبولي 126 TU (MOSS) – وهي المعادل السوفييتي لطائرة البوينغ أواكس D137EC – التي طلبتها دمشق عام 1981.

وقد علق الجنرال الفرنسي جورج بوي، الاختصاصي الدولي بجغرافية السياسة والإستراتيجية العسكرية قائلاً: إنه الدليل على انخراط سوفييتي إلى جانب سورية وهو بالتأكيد على الدرجة ذاتها من الضمانة والكثافة كمثل وقوف الولايات المتحدة حيال إسرائيل. ثم أضاف قائلاً: (إنّ الأميركيين يعتقدون أنّ الشبكة التي وضعها الاتحاد السوفييتي في سورية، تتيح للجنرالات في موسكو بتوجيه العمليات الجوية في الشرق الأوسط. وقد أضحى السوريون على هذا النحو في موقع التغيير الحربي، فهم لن يقاتلوا بعد اليوم قتال عميان ولن يكونوا مكشوفين من بعد. سوف يقاتلون على قدم المساواة.

---

(1) قيادة واتصال وتنسيق واستخبارات.

إنّ هذه الصواريخ سام 5 يقوم على خدمتها خبراء سوفييت،[1] وقد صرح الجنرال رفائيل إيتان قائلاً لصحفي أميركي استعجل بنشر الخبر، إنّها تمثل تهديداً للأسطول السادس الأميركي في البحر الأبيض المتوسط على قدر تهديدها لإسرائيل. إنّ القائد الإسرائيلي الأعلى قد (زرع اللغم) على هذا النحو العلني ليرغم الولايات المتحدة على الرد. ولقد نجح في ذلك. إذ أصدر الپنتاغون، في الساعات التي تلت أمراً بتزويد الدولة العبريّة بالمعلومات كافة التي بحوزة الأميركيين حول العتاد السوڤييتي المنتشر في سورية، ليتيح لها دراسة الإجراءات المضادة. إنّ التحالف الاستراتيجي بين واشنطن وتل أبيب قد تجسد من جديد بالرغم من الخلافات حول الملف اللبناني. أمّا وقد حصل إيتان على ما كان راغباً فيه فقد عمل على التخفيف من التوتر.

– إن صواريخ سام 5 لا تشكل قوة ردع. وسوف نردّ على عمليات الإطلاق كافة الموجهة ضدنا.

كان وقع (قضية سام 5) على الصعيد العام وقعاً مدهشاً. لكنّ التحليلات كافة لأجهزة الاستخبارات الغربية أوضحت بجلاء ظهور خطر رئيس. فهي لم تقدر إلّا أن تقوم تل أبيب، التي لا يسعها السماح ببناء قواعد صواريخ سام 5 في سوريا، والتي سوف تقلل بشكل كبير من التفوق الإسرائيلي، إلّا الدفع بالدولة العبريّة للقيام بعمل وقائي وإرسال طيرانها لتدميرها. حينذاك سوف تنساق سورية القويّة بالدعم السوڤييتي، إلى الرد. مما سيؤدي إلى تفجير حرب صاعقة أو محدودة بهدف إعادة التوازن الاستراتيجي إلى المنطقة. إنّ وجود الدولتين العظميين على خشبة المسرح ذاتها، وإلى هذا الحد من التجاور، يمثّل خطراً برؤية هذه الحرب، التي تبدو محدودة للوهلة الأولى، تفيض كثيراً عن حدودها.

خرجت المفاوضات الإسرائيلية اللبنانية من الطريق المسدود كأنّما بعملية سحريّة. فقد جرى إنجاز جدول أعمال بسهولة مدهشة، كما نُظِّمت المقترحات الإسرائيلية واللبنانية كافة، بما فيها النقاط المتنازع عليها، تنظيماً بسيطاً ضمن الوثيقة ذاتها (دون الحرص على تراتبية هامة) . وكانت تلك هي (المخلوطة) التي اقترحها أنطوان فتّال.

في 17 كانون الثاني/ يناير 1983 أقبل أڤنير أزوالي رئيس فرع الموساد في لبنان، ليحيط فادي أفرام علماً بتغيير جذري في موقف تل أبيب حيال أمين الجميّل. إنّ الإسرائيليين، بعد التدخل السوڤييتي إلى جانب دمشق، لا يقبلون بمرور الاتصالات مع الرئيس اللبناني عبر الأميركيين فقط، بل يقبلون فوق ذلك بالتخلي عن صيغة اتفاقية سلام لمصلحة صيغة (إنهاء حالة الحرب) بين لبنان وإسرائيل.

---

(1) 1200 عسكري سوڤييتي (تقنيون للصيانة، واستخدام الأسلحة، ومدربون، ومستشارون من كافة الأصعدة) وصلوا إلى سوريا مع ذلك العتاد رافعين مجموع العسكريين السوڤيت العاملين في هذا البلد إلى 4500 عنصر.

ثم عاد مسؤول الموساد ليقول لزعيم «القوات»:

- إلّا أننا نتوقع مع ذلك نشوء مصاعب، لا سيّما بشأن محطات الإنذار المبكر التي نطالب بوضعها على الأرض اللبنانية وبشأن عملية التطبيع.

وسلم أيضاً إلى أفرام رسالة من أرييل شارون:

العزيز فادي

أبعث إليك بهذه الرسالة لأحيطك علماً بأن [...] مسألة تموين القوات اللبنانية قد جرت مناقشتها على أعلى المستويات السياسية، وأنه قد اتخذ قرار بمواصلتها وفقاً لطلباتكم. ولدي رغبة في الإشارة إلى أنه لم يخامرني أدنى شك (في هذا الخصوص) في أي وقت من الأوقات. القوات اللبنانية هم حلفاؤنا في لبنان. [...] نحن على استعداد لمواصلة تزويدكم بالسلاح مع الأمل في أن يواكب زيادة قوتكم، تحسن بالاستقرار الداخلي في لبنان وأنّ الأخطار السابقة سيجري استبعادها. نطلب إليكم أيضاً بذل الجهود الممكنة كافة للحيلولة دون عبور الأسلحة والإرهابيين في الأراضي الواقعة تحت سيطرتكم.

مع المودة وأفضل الأمنيات لشخصكم وأصدقائكم كافة على أمل رؤيتكم عما قريب.

التوقيع غاسبار[1]

أما على الأرض فقد حرص الياكال على إقامة اتفاقية بين «القوات» والحزب التقدمي الاشتراكي. لكن ذلك لم يرق عناصر الميليشيا المسيحيين. وكان أن قام أيضاً وبروح من المعارضة ثلاثة من قادتهم في منطقة الشوف هم: **أوغوستين تيغو (تيتو) وسمير جعجع وجو إده، إضافة إلى المنسّق لميليشيا الجنوب نازار ناجاريان (نازو) وإيلي حبيقة وفؤاد أبو ناضر وفادي أفرام باستقبال ميئير داغان ورون إيرليخ في 20 كانون الثاني / يناير 1983 في مقرّ هيئة الأركان العامة في الكرنتينا.**

كان رون إيرليخ يعتبر (أكاديمياً) في الاستخبارات. فهذا القائد في جهاز آمان، وهو طويل القامة أشقر يضع نظارتين ويتكلم ببطء واتزان، يتمتع أثناء المناقشات بخصوصية تدوين الملاحظات من غير أن يحول عينيه عن الشخص الذي يكلمه. وبما أنّه اختصاصي في قضايا الشيعة والدروز فقد جرى تجنيده بوصفه ضابط استخبارات في هيئة أركان ياكال.

منذ البدء اشتكى اللبنانيون بسبب توقيف عنصرين من ميليشياتهم في الجبل على يد جنود دروز في الجيش الإسرائيلي. فطمأنهم داغان إلى أنّه قد جرى توقيف الجنديين وأنّ الدروز الإسرائيليين الآخرين وعددهم ثمانية في مركز الشوف سوف يُنقلون إلى إسرائيل. وأشار نازو مرة أخرى إلى أنّ أسلحة وذخائر قادمة من المناطق السورية كانت تصل إلى الحزب التقدمي الاشتراكي

(1) الاسم الحركي لأرييل شارون في رسائله السرية إلى القوات اللبنانية.

مروراً عبر الخطوط الإسرائيلية. وطالب باتخاذ الإجراءات اللازمة لكن من غير الإشارة إلى الملاحظة رقم 71 المصنفة (سري جداً) من قبل القسم الاستراتيجي في المكتب الثاني للميليشيا والتي سلمت إليه في اليوم السابق:

إنّ الوحدات السورية لا تزال حاضرة في المتن الأعلى في مواجهة الوحدات الإسرائيلية من غير وقوع أي حدث حربي على هذه (الجبهة) منذ اتفاقية وقف إطلاق النار في 11 حزيران/ يونيو 1982.

إنّ العلاقات بين سورية وإسرائيل ترتكز على مواقف متماثلة. فالبلدان يلجآن إلى شروط الأمن لتبرير تدخلاتهما في لبنان ويغدقان دعماً هاماً على الفصائل اللبنانية القريبة إليهما والتي تخدم مصالحهما. فيحتجّ السوريون بأنّ البقاع استراتيجي لأمنهم، وتبرّر إسرائيل من ناحيتها أنّ وجود قواعد الانطلاق الفلسطينية في لبنان يعطيها حق المراقبة، ناهيك بحق التدخل. إنّ هذا التفاهم بين البلدين يكمن في الموافقة الضمنية التي أعطاها إسحق رابين للتدخل السوري عام 1976. هذه الموافقة التي جرى التأكيد عليها فيما بعد عبر وساطة الولايات المتحدة في شخص جوزيف سيسكو (1978) تنجز نوعاً من يالطا بين أعداء، وترسم مسبقاً عدداً من (الخطوط الحمر): ليس لسورية أن تتدخل إلى الجنوب من نهر الليطاني، ولا أن ترسل طيرانها إلى المجال الجوي اللبناني ولا أن تنصب صواريخ ضد الطيران في لبنان. ووفقاً للاتفاقية ذاتها فإنّ الرقابة على قمم جبل لبنان من شأن المسيحيين وإنّ سورية تمتنع عن قصف ميناء جونيه.

كانت إسرائيل تتدخل كلما جرى تخطي هذه الخطوط الحمر من قبل دمشق: تدخل طيرانها فوق مرتفعات صنين أثناء معركة زحلة وتدمير بطاريات سام 6 التي نصبت آنذاك في البقاع.

إنّ هذا التقاسم للأدوار بين دمشق وتل أبيب كان حينها شبه رسمي. في تشرين الأول/ أكتوبر 1980 كتب الجنرال أهارون ياريف، مدير معهد الدراسات الإستراتيجية في تل أبيب، تقريراً جاء فيه **إنّ سلسلة من التسويات الضمنية بين إسرائيل وسورية قد جرى عقدها منذ غزو لبنان من قبل سورية عام 1976، وتقوم على حدود لا ينبغي تجاوزها من قبل هذا الفريق أو ذاك. وقد برهنت التجربة أنّ كل واحد من الفريقين حريص على ممارسة رقابة صارمة على أنصاره، بحيث لا يصل أبداً إلى انهيار الوضع انهياراً لا يقبل الإصلاح.** ويخلص التقرير استناداً لهذا التأكيد إلى **أنّ إسرائيل قد نجحت في وضع قواعد اللعبة في لبنان وجعل سورية تعترف بمصالحها الإستراتيجية بما يتعلق بمستقبل هذا البلد. وإنّ دمشق لن ترد من جانبها قط، لا على الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان في 1978 ولا على قصف الطيران الإسرائيلي لبيروت وجنوب لبنان في تموز/ يوليو 1981 وزحلة في ربيع 1981.**

وقد أوضح ميثير داغان قائلاً لمحاوريه:

– لقد قبل الدروز تقريباً بكل ما اقترحتم وسوف نقوم في غضون أسبوع بوضع اللمسات

الأخيرة على دراسة الاتفاقية، وبعد ذلك بيومين نقوم بتوقيعها. وقد قبل جنبلاط بها. وإنّي راغب في أن أقول لكم من جديد إنّا لسنا وسطاء في ما بينكم وبينهم. فنحن نراهن على أوراقكم ونمارس ضغوطاً لكي يقبلوا بها. إنّا نعمل من أجلكم لا من أجلنا.

فردّ فؤاد أبو ناضر قائلاً:

- نريد خصوصاً أن تمارسوا الضغوط الضرورية للسير بهذه الاتفاقية. وينبغي أن نبدأ في الأسبوع القادم الاتصالات مع الدروز. فمن الذي سيوقع من جانبهم؟

فرد الجنرال الإسرائيلي بلهجة مصالحة:

- ومن تريدون أن يوقع هذا النص.

فقال تيتو:

- وليد جنبلاط.

فوافق داغان قائلاً:

- لا بأس. لكنهم سوف يطالبون بأن يقوم پيار الجميّل بالتوقيع من جانبكم.

فقال أبو ناضر مجادلاً:

- سوف يطالبون بتوقيع فادي أفرام. لكن هل أنت واثق من أنّ وليد جنبلاط سيوافق على التوقيع؟

فردّ داغان بهيئة الواثق:

- يسعنا أن نمارس بعض الضغوط.

كان القلق يساور أمين الجميّل. فهو لم يتوصّل إلى تقدير المستوى الدقيق لوقوف الأميركيين إلى جانبه. وقد اغتاظ كثيراً من تدخل واشنطن بشأن ضرورة الحفاظ على قدرة القوات اللبنانية. ومن حينها ووزارة الخارجية تبدو له محافظةً على دعمها، بل مشددةً عليه. بل كان فيليب حبيب صريحاً جداً وهو يستقبل في 22 كانون الثاني شارل مالك، وهو العقل الدبلوماسي للقوات اللبنانية.

- تعطي الولايات المتحدة مهلة شهرين للمفاوضات الثلاثية كي تصل إلى غايتها. وإلاّ فسوف تسحب أيديها من مسألة لبنان. ولن يعود الجيش اللبناني قادراً على استعادة بنيانه.

عندئذ سأله الدبلوماسي القديم:

- إلّا أنّها كارثة! فمن ذا الذي سيتولى حمايتنا؟

فقال مبعوث ريغان:

- إنّها القوات اللبنانية، مثلما كانت تفعل من قبل.

نُقِلت هذه الأقوال للرئيس. فشعر حيالها بسخط شديد. فـ«القوات» لا تكفّ عن فرض ذاتها عليه. وهي تضغط عليه بشدة لتحسين علاقاته مع الدولة العبريّة. فكان أمين يرفض. وكان واثقاً من

حصوله على موافقة الأميركيين حول هذه النقطة بل على دعمهم. وقرّر أمين أن يحطّم مقاومة القوات اللبنانية بسلطته.

كان البوح الذي أدلى به فيليب حبيب إلى شارل مالك حاسماً، ضمن خيارات القوات اللبنانية. وجرى تكليف روجيه ديب بإعداد نصّ يفصّل موقف القوات اللبنانية. ثم قُدِّم باللغة الفرنسية إلى قادة القوات في 23 كانون الأول/ ديسمبر 1983 تحت عنوان: «رؤية شاملة لمستقبل العلاقات مع إسرائيل ومستقبل القوات اللبنانية». وتقترح الوثيقة على الرئيس اللبناني **الاعتراف بضرورة الحفاظ على القوات اللبنانية من أجل الابقاء على التوازن مع المسلمين في حالة الرجوع إلى الصيغة السياسية لعام 1943، وللإبقاء عليها بديلاً للجيش في حال استمرار الأزمة أو استحالة إعادة تنظيم الآلة العسكرية للبلاد في سبيل أن تصبح نواة الدولة المسيحية ضمن فرضية حدوث انقلاب في الوضع السياسي والجغرافي.**

أحيط پيار الجميّل علماً بمضمون الرسالة حتى قبل أن يتلقاها. فانتقل على الفور إلى الهجوم. كان فادي أفرام قد طلب موعداً مع پيار الجميّل ليقدّم له الوثيقة قبل أن يسلمها للرئيس. وحين وصل إلى منزل «الرئيس» حوالى الساعة الثامنة مساء، كان أمين هناك. وقام رئيس الجمهورية، بحضور والده، على مدى أربع ساعات، وهو محمرّ الخدّين، بإفراغ جرابه وبحركات عصبية.

– مضى شهر أو شهران من حين أن قدمت لكم الاقتراح بنشر الجيش في بيروت الكبرى. فلم أحصل على أي جواب. وعليّ التصدي لألف مشكلة تضعونها أمامي يومياً! حواجز شرطتكم العسكرية! صور بشير الملصقة حتى أبواب القصر! قوى الأمن الداخلي المعتدى عليها من قبل «عناصر» پوسي[1]! فكيف تريدون للدولة أن تظلّ واقفة على قدميها إن لم تنتشر؟ المرفأ! فنتكلم عن المرفأ! كيف سأدفع رواتب الموظفين إذا لم يكن للدولة من مدخول؟ لقد بدأنا ننفق من احتياطياتنا من الذهب. أوجدوا لي وسيلة لتسوية نفقات الدولة. ليس مقبولاً أن أتمكّن من الحكم في بيروت الغربية فقط. أذكركم بأنّي قادم من الكتائب وأنّي ابن پيار الجميّل. ليس مقبولاً ألاّ يقوى الجيش على الإشراف على بيروت الشرقية.

فسأله أبوه:

– ماذا تريد على وجه الدقة؟

– سلّموا إليّ كل شيء.

فأجاب فادي أفرام بلهجة جافة:

– إنّ إغلاق الحوض الخامس في ميناء بيروت[2]، في حين أنّ الضرائب لا يمكن جبايتها من

---

(1) مسعود أشقر المسؤول العسكري في الأشرفية.

(2) حوض المرفأ احتل بكامله من قبل الميليشيا المسيحية منذ عام 1975، إن الرسوم المستوفاة جزافاً على عمليات الاستيراد والتصدير كانت إحدى المصادر الرئيسة لعائداتهم.

مرافئ صيدا وطرابلس وصور، لن يحل المشكلة. وإنّ ذلك لن يزيد في موارد الدولة. أمّا نشر الجيش في بيروت الشرقية وخروج وحداتنا إلى الشمال من هذه المنطقة، فسوف توجه ضربة قاسمة إلى مصداقيتنا. وإذا كانت القوات اللبنانية لم تعد ضرورية لضمان أمن المسيحيين. . .

فهتف أمين قائلاً:

- ألديكم ثقة بي؟ سوف أتكفّل بذلك. إنّ الجيش سيتكفّل بذلك. . .

فردّ أفرام، وقد بات مقتنعاً الآن بأنّ الرئيس لم يعد راغباً بوجود «القوات»:

- ليس للجيش من وجود! وأنت تعرف ذلك حق المعرفة.

فقال أمين:

- سوف أكون مع طنّوس ضمانة المسيحيين!

- وماذا سيحل بالقوات اللبنانية؟

- سوف تعود ميليشيا على نحو ما كانت في 1975.

- أنت إذن لم تعد بحاجة إليها؟

فقال الرئيس، من غير أن يردّ مباشرةً على السؤال:

- مضى شهر ونصف وأنا أطلب إليكم أن تسلموني بيروت. وأن تقوموا بتخفيضات على الموازنة. كان خطأً من جانبكم أن تقوموا ببنائها مثل جيش. كان عليكم البقاء ضمن إطار الميليشيا. وإذا ما استمر الوضع فسوف أكون مرغماً على الاستقالة فأتولى وظيفة رئيس مجلس أمن الكتائب.

كان ابتزاز الاستقالة موجهاً إلى والده أكثر مما هو إلى قائد القوات اللبنانية. فردّ پيار الجميّل على الفور:

- سيكون ذلك كارثياً.

فاقترح فادي أفرام قائلاً:

- سوف أعطيك الجواب في غضون 48 ساعة.

- لا بأس، سوف أقبل بالانتظار قليلاً. لكن لا تُدخلني في مجادلات بيزنطية. فإمّا أنكم تثقون بي، أو لا. ثم أضاف أمين متوجّهاً بالكلام إلى أبيه، ليشير إلى أنّه غير مغتاظ من الرجال الذين يقودون القوات اللبنانية: أما فيما يتعلّق بي، فسوف أضع ثقتي، لاحقاً، في كلٍ من فادي (أفرام) وفؤاد (ابوناضر) وتوتو (أنطوان بريدي).

عرف قائد «القوات»، أنّه ينبغي دوماً إعطاء الانطباع لبيار الجميّل بأنّه يظلّ المعلّم المطلق، وأنّه، من ناحيته هو، لن يكون حاسماً على كل حال، فاستدار صوبه بدوره قائلاً:

- لست مقتنعاً كل الاقتناع بعروض الشيخ أمين، أمّا إذا كانت هذه مشيئتك، فسوف أُنفِّذ.

فأجابه الأب الأكبر من غير أن يتّخذ موقفاً:

– ناقش هذه القضية مع أمين.

في مساء اليوم التالي، دعا فادي أفرام إلى مكتبه مسؤولي القوات اللبنانية كافة والأمين العام لحزب الكتائب[1] لتحديد موقف نهائي. وافتتح النقاش المناضل الفعّال في صف أمين، جوزيف أبو خليل، فقال:

– إنّ الرئيس في وضع دراماتيكي. وعلينا القيام بخطوة في اتجاهه. فينبغي أن نقول له إنّا قررنا أن نعطيه ما يطلب. وينبغي أن نمنحه ثقتنا وعيوننا مغمضة.

فقاطعه فادي أفرام قائلاً:

– هنالك قرارات عملية ينبغي اتخاذها: هل نقبل بنشر الجيش في بيروت الشرقية أم لا، وبتسليم الحوض الخامس للدولة، وبنقل قواتنا إلى الشمال من الجديدة وبحلّ قواتنا بوصفها جيشاً نظامياً متكامل البناء؟

فسأله أبو خليل:

– وما تريد؟ هل هو إعلان الحرب على أمين؟

– ليس من يتكلّم عن الحرب! لكنّ الشيخ بيار لا يريد الحسم.

فتقدّم جوزيف سعادة بلهجة مصالحة:

– هذه المسألة سيجري حلّها عاجلاً أم آجلاً. فليست القوات اللبنانية إلّا شيئاً عابراً في حياة اللبنانيين. أما الحزب، فهو سيبقى. فلننظر إذن في طريقة عملية لإقناع الشيخ أمين بنشر الجيش من غير المساس بالقوات اللبنانية.

فذكّره أنطوان بريدي قائلاً:

– قال لنا أمين قبل ثلاثة أسابيع إنّه لن يعاند. بل طلب إلينا أن نقدّم إليه كتاباً فيه رؤيتنا للأشياء. فقمنا بإعداد وثيقة في هذا الشأن، أما الآن فلم يعد راغباً في مناقشتها.

فقال أبوخليل ملحاً:

– علينا أن نغيّر موقفنا. كان بشير يحتكر الزعامة المسيحية. أما نحن، فليس لنا الحق في ذلك. ولسوف تؤدي هذه القضية إلى حلّ القوات اللبنانية بسبب انتفاء سبب وجودها. فلو كنا قادرين على الدفاع عن المسيحيين من دون أمين الجميّل، فلا بأس! أما والحال ليست كذلك، فلنتصرّف بموجبها. علينا أن نوحي للرئيس بالثقة. علينا أن نكون متواضعين حياله، لأنّه متكبّر.

فقال بريدي بلهجة استفزاز:

– أنا لديّ الحل. فليقمْ فادي أفرام، على الفور، بحلّ القوات اللبنانية.

(1) جوزيف سعادة، الأمين العام للكتائب، زاهي بستاني، جوزيف أبو خليل، ألفريد ماضي، أنطوان نجم، كريم بقرادوني، أنطوان بريدي، بطرس خوند، إيلي حبيقة، فؤاد أبو ناضر، روجيه ديب.

فقال كريم بقرادوني:

– نحن لا نزال في خانة الانطلاق مع أمين. على الرغم من أن أكثرية الموجودين هنا بذلوا جهوداً كبرى لتقريبنا منه. فلنكن واقعيين .أمين لا يريدنا، هذا واضح! فما من أحد يطلب إليه نشر الجيش في بيروت الشرقية. ذلك أنّه، هو، الشخص الوحيد المتمسك بذلك. ألا يستطيع ممارسة سلطته إلّا علينا؟ إنّه في واقع الأمر يريد رؤوسنا.

فأوضح أبو ناضر قائلاً:

– أعتقد أنّه لم يستطع أو لم يعرف كيف يتجاوز واقع أنّ «القوات» إنّما هي بشير.

فأبدى إيلي حبيقة ملاحظة وهو يقول:

– إن لم يعد للقوات اللبنانية من وجود، فالإسرائيليون لن يساعدوا المسيحيين أبداً. وينبغي على الجيش، وفقاً لقول سيمون قسّيس، أن يشكل أربعة ألوية جديدة. فكل ما أمكن عمله حتى الآن هو تسمية قادة الأفواج الأربعة.

فأشار فادي أفرام قائلاً:

– لقد عبّر أمين للمرة الأولى عمّا يفكر فيه حقّاً. فهو لم يعد راغباً في القوات اللبنانية. إنّه لا يثق بنا، حتى لو قال إنّ له ثقة بالبعض منّا. فيا جوزيف (أبو خليل)، إن كنت تعتقد بأنّ أمين يثق بك فأنت على خطأ. وسوف يكون لنشر الجيش انعكاسات سلبية جداً على عناصرنا. إنّي فيما يخصّني لأرفض ذلك. وهذا ما سأقول له. أما بشأن الحوض الخامس، فلندرس كيف يسعنا تأمين دخل من 30 مليون ليرة[1] شهرياً لسير عملنا. وإذا لم نجدها فلا يسعنا القبول بتسليمه إياها.

ووافق الجميع.

طلب فادي أفرام في حدود التاسعة صباحاً من يوم 25 كانون الثاني/ يناير 1983 أن يستقبله بيار الجميّل لإحاطته علماً بالمواقف التي اعتمدتها القوات اللبنانية في اليوم السابق.

اعترف الزعيم المسيحي العجوز بالحقيقة:

– ذلك صحيح، فالثقة ليست قائمة بينكم وبين أمين. إنّها مخلفات الماضي. فوجود «القوات» بوصفها جسماً متكاملاً إنّما هو ضرورة. ونحن لا ندري إلى أين نحن ذاهبون وهي تشكل الضمانة لنا. أنا أعي أنّ انتشار الجيش سوف ينسف معنويات جنودكم. أما قضيّة الحوض الخامس. . . فكيف ستفعلون لمواجهة نفقاتكم إذا ما أغلقناه؟ لكن ينبغي على أمين في الوقت ذاته تسوية نفقاته! إمضِ لرؤيته هذا المساء. ناقش الأمر معه. توافقوا على مسألة الحوض الخامس. عُدْ إلى بيتي إنْ لم تسِر الأمور كما ينبغي. إنّي مسرور لأنّك أنت الذي تتعامل مع أمين. أنا أعرف أنّك تعي المصاعب كافة. ومهما يقع، فلا تقطع العلاقات به.

---

(1) 14 مليون دولار عام 1983.

لم يقم الرئيس الأكبر، مثلما كان فادي أفرام يتوقع، باتخاذ أي قرار. ولم يتجلَّ عبء غياب بشير على العلاقات بين پيار الجميّل والقوات اللبنانية على مثل تلك الدرجة. عند المساء استقبل أمين القائد الأعلى للميليشيا. فجلسا وجهاً لوجه إلى مائدة صغيرة مربعة في مكتبة الطابق الأول من القصر الرئاسي، فالرجلان لا يقيمان كبير وزن للشكليات البروتوكولية.

وبدأ أفرام على الفور قائلاً:

– هنالك معضلتان. واحدة أساسية والأخرى ذات بعد محدود. تكمن المشكلة الأساسية في فقدان الثقة المتبادل، ولهذا السبب أنت لم تعد تريد الحفاظ على كيان عسكري متكامل ومتجانس. أمّا المشكلة المحددة فتتعلّق بنشر الجيش في بيروت الشرقية وبإغلاق الحوض الخامس. أقترح عليك اجتماعاً مع واحد من خبرائك ليحدد كيف تستطيع تأمين تمويلنا. ولسوف نقوم من ناحيتنا بتقليص للعديد من النفقات. فلن يشكّل إغلاق الحوض الخامس، ضمن هذه الشروط، من معضلة. أمّا بشأن نشر الجيش في بيروت الشرقية، فسوف تكون له انعكاسات خطيرة جداً. ونحن في حالة استنفار دائم منذ حزيران/ يونيو الفائت. أما هذا الانتشار فسوف يرغمنا على الانتقال في وقت لا ندري فيه إلى أين نذهب. . .

فقاطعه أمين بعصبية قائلاً:

– هذا حسن جداً. إنّي لأعرف الآن ما تريدون. فجوابكم واضح. وأنا أشكركم! وأعرف الآن ما ينبغي عليّ عمله. سوف أعمل على عقد اجتماع للمكتب السياسي لحزب الكتائب من أجل اتخاذ قرار.

كان أمين يتحكّم بالمكتب السياسي تحكّماً تاماً. وإنّ قراراً تتخذه تلك السلطة العليا في الحزب، سوف يُفرَض دون كبير مشقة على «القوات»، التي عناصرها في أكثريتهم العظمى أعضاء في الكتائب.

فردّ أفرام قائلاً:

– إنّه لبعيد عن التصوّر أن ينشأ نزاع في ما بيننا. وإنْ لم تكونوا بحاجة لهذا الجسم العسكري، فقولوا.

فاحتجّ الرئيس قائلاً:

– إنّني محاصر من قبل الأميركيين فما عاد بوسعي الاستمرار على هذا النحو.

إلا أنّ ما قام بتقديمه تبريراً يتناقض تناقضاً صارخاً مع الكلام الذي قاله فيليب حبيب لشارل مالك قبل ذلك بثلاثة أيام.

سعى أمين الجميّل، قبل استدعاء المكتب السياسي، أن يلجأ إلى تحكيم أبيه، على نحو ما فعل فادي أفرام من قبل. فبعث بمستشاره لشؤون الأمن، وديع حدّاد، وبرئيس المكتب الثاني،

العقيد سيمون قسّيس، للمرافعة في مصلحة نشر الجيش، أمام بيار الجميّل. لكن ما إن وصلا حتى اتصل الرئيس الأعلى هاتفياً بفادي أفرام، طالباً إليه الحضور للانضمام إليهما. فقدّم قسّيس وحدّاد عرضاً بأطروحة الرئيس اللبناني.

فسألهما الرئيس الأعلى، مستشهداً بالمثل الشعبي:

– أتريدون عنباً أم قتل الناطور؟ إذا ما قمنا بحلّ القوات اللبنانية الآن فسوف نقضي على الناطور. ولسوف يوجّه الجيش في بيروت الشرقية طعنة معنوية إلى «الشباب».

فسأله سيمون قسّيس قائلاً:

– ما المشكلة الكامنة وراء تحريك «الشباب»؟ فالجندي لدينا يمكن أن يكون في مركز الفياضية، ويسعنا أن ننقله إلى بعلبك.

فتدخّل فادي أفرام قائلاً:

– أنت تعرف أنّ ذلك ليس بالشيء ذاته...

فوافق بيار الجميّل قائلاً بلهجة حاسمة:

– ذلك صحيح!

فرضخ العقيد الذي لم يشأ أن يجابه الرئيس الأب، قائلاً:

– أوكي! أوكي! (OK! OK!)

فأضاف زعيم حزب الكتائب قائلاً:

– لا رغبة لنا في أن نتنازع مع أمين. وينبغي علينا، حسب رأيي، أن نحافظ على القوات اللبنانية.

لقد سُمِع الدافع. وأدلى الأب الأكبر برأيه في نهاية الأمر. غير أنّ فوز أفرام لم يعمّر طويلاً. فقد أطلق أمين ماكينة الحزب باستدعاء المكتب السياسي للكتائب إلى بيته في سن الفيل بعد ظهر 28 كانون الثاني/ ديسمبر. أما الحدث الفائق الندرة، فتمثل في طلب بيار الجميّل إلى فادي أفرام – الذي لم يكن عضواً في المكتب السياسي – بأن يرافقه. وقبل افتتاح الجلسة، وضع أمين على الطاولة أمامه بكل أبّهة، آلة تسجيل صغيرة. وهي طريقة مثل غيرها ليقول للحاضرين إنّه سيتذكر في المستقبل المواقف التي سيتخذونها. ثم انطلق في حوار ذاتي طويل تناول فيه دوره في الحزب. فأخذ على الكتائب عدم مساعدته ناهيك عن إزعاجه في أداء وظائفه على نحو ما تفعل القوات اللبنانية. وأكّد أنه الهدف لضغوط أميركية قويّة من أجل بسط سلطته على بيروت الكبرى بمجموعها وطالب باتخاذ قرار حاسم. وبادر أعضاء المكتب السياسي فيما بعد إلى الكلام بالتوالي، ليشيروا إلى جدوى عمله ويعلنوا أنّهم إلى جانب مقترحاته. وسعى فادي أفرام من غير طائل لإعطاء وجهة نظر القوات اللبنانية لكنه كان معزولاً عزلةً تامّةً. أما بيار الجميّل فكان كما هي عادته آخر المتكلمين. فتفادى

المجابهة المباشرة مع ابنه وأعلن قائلاً: إن المكتب السياسي لحزب الكتائب يقرر إعطاء الرئيس أمين الصلاحية المطلقة.

لقد قرر فادي أفرام، لدى الخروج من الاجتماع، أن يستقيل من وظائفه كافة. وقدّر أن هذه القضية تمحورت حوله، وأنّ بوسع شخص آخر أكثر قرباً إلى بيار الجميّل أو إلى الحزب، أن يتوصل إلى العثور على حل. ولم يشأ على كل حال أن يتحمّل المسؤولية لحلّ القوات اللبنانية، في حين أنه، قبل أقل من أربعة أشهر جرى انتخابه على رأس هذا التنظيم من أجل ذلك تحديداً.

8

مشروع القانون رقم 10

بينما «نصح» الجنرال ميثير داغان القوات اللبنانية، في 6 كانون الثاني/ ديسمبر 1983 قائلاً:

لا تسحبوا قواتكم من الشوف! بل لا تفكّروا في ذلك! نحن جئنا بكم، فعليكم البقاء هنالك، فقد طلب إليهم قبل ظهر 25 كانون الثاني أن يسحبوا سمير جعجع، القائد الجديد لمنطقة بحمدون وإخلاء النقاط الضعيفة من دباباتهم.

كان جعجع يتسبّب بالخوف للدروز، فبعد قتل طوني فرنجية عام 1978 وزوجته وابنته الصغيرة البالغة خمسة أعوام من عمرها وقرابة الثلاثين من الحرس الشخصي في أهدن، على يد مجموعة مغاوير من القوات اللبنانية التي يقودها[1]، فإنّ برودته وحس التنظيم لديه كانا أساس ما اشتهر به من قسوة وعدم رحمة. ولقد وزّع قواته توزيعاً منهجياً من مركز قيادته في عين تراز، على قرى المنطقة التي كان يتولّى أمرها[2]. لم يكن ذلك يروق الجميع لا سيّما عدداً كبيراً من سكان الشوف المسيحيين الذين لبثوا في أماكنهم. فاقترح عليهم داغان قائلاً: **ظلّوا في الأماكن من الجبل التي يسعكم البقاء فيها ومواصلة النموّ طوال أعوام. أمّا المناطق التي لا حظّ لكم بالبقاء فيها نهائياً فما الذي يدعوكم للقتال، غادروها نهائياً. عصفورٌ في اليد خير من عشرة على الشجرة! لا تنسوا ذلك.** كان رئيس ياكال يشرح بوضوح، ولأوّل مرة، فكرة تقاسم الشوف بين المسيحيين والدروز. فلاقت اقتراحاته قبولاً بارداً. وقد ردّ عليه نازار نجاريان قائلاً بلهجة عدائية:

- ما هي المناطق التي ليست، حسب رأيكم حيوية بالنسبة إلينا والتي يتبغي إخلاؤها؟ فردّ الإسرائيلي:

- إنّما عليكم أنتم أن تقرّروا. أنتم الآن في الشوف، مقبولون بأسلحتكم ووحداتكم. لكن هل

---

(1) العودة إلى كتاب الأسرار، تمت الإشارة له سابقاً.

(2) مراجعة الملحق رقم 2.

يسعكم، إن انسحبنا نحن من المنطقة، أن تتصدَّوا للسوريين؟ وللجيش اللبناني؟ إنّ الاتفاقية التي نقوم بإعدادها لوقف إطلاق النار بينكم وبين الدروز، سوف يجري توقيعها. وسوف يسود الهدوء من بعد طوال أسبوعين أو ثلاثة. لكنّ وجود قواتكم، ضمن انتشارها الحالي، سوف يكون مصدر نزاعات جديدة حتى وإن وقعنا مئة اتفاقية. ولا تظنوا أنّا سنعمل على نزع سلاح الدروز. نحن لا نرضى بأن يُجرح جنودنا في معارك في ما بينكم. وأنا لا أعتقد، كي أكون صريحاً جداً معكم، أن في وسعكم المحافظة على الجبل كله، حتى بوجود دباباتكم ومدفعيتكم وجنودكم.

فردّ عليه نجاريان وهو يكظم غيظه بمشقة قائلاً:

- اسمع يا داغان موقفك ليس شديد النزاهة. فنحن لا يسعنا أن نفهم إنْ كنتم معنا أو ضدّنا. أعتقد على كل حال، في ما يتعلق بي، أنّ الحل الأمثل «للقوات» هو أن ننسحب من الجبل. وهكذا فسوف تتحملون المسؤولية كلها بشأن ما سيقع. فإن يمُت مسيحي واحد تكنْ تلك مسؤوليتكم.

فاغتاظ الضابط الاسرائيلي:

- لكن ما السبب؟ أنتم في موقع قوة في بعض الأماكن. فلا ينبغي على وجه الخصوص أن تنسحبوا انسحاباً تاماً.

كان من شأن انسحاب القوات اللبنانية من الشوف أن يلغي إمكانية رئيسة للضغط على أمين الجميّل. لكنّ ذلك الانسحاب كان سيعني أيضاً نهاية سريعة جداً للميليشيا المسيحية. وكانت «القوات» مقتنعة أنّ من شأن قدرتها وحدها أن تفرضها على الدروز وأن ترغمهم على احترامها. أمّا هذه القدرة فهم يملكونها. إذن سوف يظلون في الجبل.

بموازاة هذا «التغيير في الخيار العسكري» من قبل ياكال، مهّد الموساد «لانعطاف سياسي». لقد بدأ مناقشات مع جماعة شمعون.

رجع داني شمعون إلى بيروت بعد وقت قصير من موت بشير، فتحادث مطوّلاً مع إسحق ليور، السفير الإسرائيلي «المقيم» في بيروت. لقد سُحِر الدبلوماسي بالقامة الرياضية، والكلام الواضح وأطروحات التفاهم الوطني المتطورة لدى ابن الرئيس السابق للجمهورية. زد أنّ وزن «عائلته»، خصوصاً بالنسبة إلى الموارنة من مقاطعته في الشوف، وهي المنطقة الفائقة الحساسية بالنسبة إلى الإسرائيليين، تجعل من داني محاوراً مهماً بنظر تل أبيب. وقد باح ليور بمكنونات صدره للموساد. فشاطره الرأي كل من مناحيم ناڤوت (مندي) وأڤنير أزوالي (فيليب) معتبرين أن شمعون الابن قد «استعاد الحق» في الطموحات السياسية. رغب الإسرائيليون آنذاك في القيام بدور توحيدي بين المسيحيين. وأحاطوا فادي أفرام علماً بنيّتهم فثارت ثائرته:

- نحن لا نسمح بوجود أصوات نشاز في العالم المسيحي. وسوف نتصرّف بقوّة وحزم لمنع كل انقسام!

فتراجع مندي أمام ما اعتبره تهديداً أكثر منه إنذاراً:

– لسنا راغبين بأن نكون مسؤولين عن أشياء مماثلة. لكن عليكم العثور على صيغة جديدة لتجميع المسيحيين المؤمنين بأهميّة إسرائيل.

أدرك قائد القوات اللبنانية على نحو مشوّش، أنّ وجود بديل مسيحي «للقوات» قد بات أمراً واقعاً لدى الإسرائيليين. فتساءل بعض المسؤولين في الميليشيا، ردّاً على ذلك، ما إذا كان تقاربٌ مع أمين الجميّل أكثرَ أهميةً بالنسبة إليهم. لا سيّما وأن خلافاتهم مع الرئيس اللبناني كانت تدور تحديداً حول العلاقات مع الإسرائيليين. لم يكن عددهم كبيراً في سبيل الإقناع. فواصلت «القوات» «العمل» مع الدولة العبريّة بقصد «الحفاظ على دعمها».

كان أمين الجميّل لا يزال على الدوام، معارضاً معارضةً شرسة لكل لقاء مع رسميٍّ إسرائيلي، حتى في الخفاء. وكان بموازاة ذلك، يسعى، اعتماداً على الأميركيين، للتقدّم في المفاوضات، «من غير أن يثير ثائرة العرب». أما قناعته بأنّ له رصيداً ما في الشرق الأوسط، فجعلته لا يدرك كيف أنّ دولاً، مثل العربية السعودية، التي يقيم معها أطيب الصِلات، لا تستجيب لالتماساته. كان يبعث بانتظام مرسلين إلى العواصم. فيصغي الجميع إليهم بانتباه، دونما زيادة. وبدأ ذلك التلكؤ العربي يثير قلقه.

ذكّره الإسرائيليون من جانبهم، عبر قنوات مختلفة، أنّهم «مستعدون لدعمه». بل أكّدوا له أنّ العالم العربي إذا ما أغلق حدوده في وجهه، فسوف يساعدونه على تنمية اقتصاده. ولم يردّ أمين عليهم البتة. فجاء شارون إلى بيروت في 27 كانون الثاني 1983 سعياً وراء إقناعه.

كان فادي أفرام بانتظاره في مركز قيادة الجنرال دروري في الجمهور. فتوجها بادئ الأمر، تحت مطر غزير، تحيط بهما كوكبة من سيارات الحماية، إلى منزل بشير الجميّل بالأشرفية. فقد حرص شارون على تحية أرملته سولانج. ثم توجّها للغداء في جل الديب، في مطعم سمكة الباشا المشهور بأسماكه، بصحبة أعضاء مجلس قيادة القوات اللبنانية[1]. وأثناء الطعام، أحاط شارون فادي أفرام علماً، وكان جالساً إلى جواره، بأنّ الإسرائيليين توصّلوا إلى إقامة صلات جادة مع أعضاء ذوي مهابة وتأثير من الجماعة الشيعية في جنوب لبنان. كذلك أحاطه علماً بتساؤلاته ومخاوفه المتعلقة بمستقبل «القوات». كان يخشى أن يتوصّل أمين الجميّل باستبدال بضعة أشخاص إلى استمالة الميليشيا.

فسأله مناحيم ناڤوت الذي كان برفقة شارون:

– هل يسعنا أن نكون واثقين من ألاّ نقع ونحن ندعمكم في فخ أمين؟ علينا التأكّد من ذلك مئة بالمئة!

[1] هيئة عليا، دون سلطة كبيرة باستثناء السلطة التمثيلية، تضم ممثلين عن كافة المكونات السياسية للقوات اللبنانية.

فأضاف الوزير:

- لدينا في واقع الأمر شكوك. نحن لا نشك فيك شخصياً فلنا بك ثقة مطلقة. لكن هنالك سؤال يطرح ذاته: هل القوات اللبنانية ستتحالف مع أمين الجميّل؟ إنّا نفكر في ذلك أكثر فأكثر. أمّا بشأن الجنوب، فالأمر مختلف. إنّه الأكثر أهمية بالنسبة إلينا. إنّ سعد حدّاد هو نحن. ودور داغان أن يقيم فيه قوةً يوثق بها.

لقد عرض الإسرائيليون على القوات اللبنانية أن تكون جزءاً منها، لكن تحت إمرة سعد حدّاد. وقبلت «القوات» بذلك وإنّما تحت رايتها فقط. فرفض داغان وبقيت الأشياء عند ذلك. التفت الياكال حينئذٍ صوب الشيعة بشيء من النجاح وازداد حجم صفوف جيش لبنان الجنوبي.

استأنف أرييل شارون الكلام متوجّهاً به إلى فادي أفرام:

- إنْ كان رئيسكم خائفاً فلن يصير رئيساً للجمهورية. ينبغي عليه أن يعرف أنه يستطيع الكلام مع من يريد سواء وافق درابر أم لم يوافق. لقد قال لنا فيليب حبيب قبل أربعة أيام أنّ أمين لم يعد راغباً في انسحابات سورية وإسرائيلية متزامنة على نحو ما كان متفقاً عليه. وهو يريد الآن انسحاباً أحادياً من جانبنا. فكان ردّنا أنّا لا ننوي التشبّث، إلّا أننا لا نعرف ما الذي سيقع فيما بعد!

بعد أن وضع أرييل شارون باقة أزهار على قبر بشير، توجّه إلى منزل بيار الجميّل بالدورة. وقد تولى ناوت أمر الترجمة من العبريّة إلى الفرنسية بين الوزير ورئيس حزب الكتائب، من غير أن يقوم هذه المرة «بتلطيف» أقوال الرئيس الأعلى على نحو ما فعل بشير قبل ذلك بعام، في 12 كانون الثاني 1982[1]. وقد ألمح الإسرائيلي، منذ البداية، إلى ذلك الحوار مذكّراً بأنّه قد دار حول إمكانيات تحقيق أحلامهما المشتركة بطرد الإرهابيين والسماح للبنان باسترجاع حريته. وقد أشار إلى أنّ الحرب كلّفت إسرائيل خمس مئة قتيل وألفين وخمس مئة جريح بهدف إنشاء لبنان مختلف. وأضاف شارون آسفاً:

- لم نتوصل على الرغم من ذلك إلى التحاور مع الرئيس أمين، إلّا عبر الأميركيين. لقد عملنا سراً مع أمين طوال عدة أسابيع لإعداد وثيقة 14 كانون الأول/ ديسمبر التي توجب أن تكون أساس المفاوضات. وتوصّلنا إلى اتفاق على المبادئ، إلّا أنّه رمى به جانباً بعد تدخل الأميركيين. نحن لسنا ضدّهم. ونقبل بأن يسهموا في المناقشات، لكن ليس لهم أن يحلوا محلنا في الاتصالات المباشرة في ما بيننا. ونحن بمرورنا عبرهم لن نصل إلى أي نتيجة. والآن سوف يمضون إلى حد ممارسة ضغوط لكي ننسحب من لبنان حتى قبل التوصّل إلى اتفاق أو إلى تسويات أمنية. ونحن نتعرض أيضاً لضغوط من الشعب الإسرائيلي الذي لا يستوعب أن نتمكن من إقامة علاقات مع حكومة لبنانية

(1) راجع أسرار الحرب، مرجع تمت الإشارة له سابقاً.

تتخذ موقفاً ضد إسرائيل. فلِمَ يعتمد وفدكم إلى المفاوضات ذلك الموقف السلبي؟ إنّ أمنيتنا الوحيدة هي أن تكون لنا علاقات طيبة مع لبنان حر، نظيف من الإرهابيين كافة.

فسأله بيار الجميّل:

- ما النقطة الرئيسة التي كنتم متفقين حولها في تلك الوثيقة والتي تعرقلت في المفاوضات؟

فرد ناوت:

- إنّه التطبيع.

فأوضح الرئيس الأعلى بعد أن هز رأسه موافقاً:

- نحن نعاني من المشكلات ذاتها التي منها تعانون. لقد عملتم طوال ألفي عام للرجوع إلى أرضكم لأنّكم شعرتم بأنّكم غرباء في أي مكان كنتم فيه. فنحن نعاني من المشكلة ذاتها. إنّا نعيش وسط 140 مليوناً من العرب. . .

فهتف شارون بحركة من عيل صبره:

- ونحن أيضاً!

فواصل بيار الجميّل قائلاً:

- أنا أعرف، لذلك أتكلّم بوصفي وطنياً. لا أرغب في العودة 6000 عام إلى الوراء، بل 400 فقط. كنا جزءاً من الإمبراطورية العثمانية حيث كان يُعتَبَر كل الذين من غير السنّة، مواطنين من الدرجة الثانية. ونجحنا على الرغم من ذلك في أن نجعل من جبلنا ملاذاً للمضطهدين كافة. كان بلداً لليهودي والمسيحي كما للملحد. حين كان المتعصّبون المسلمون يريدون اضطهاد اليهود، كنّا ننزل إلى الشارع، لا للدفاع عن اليهود بل عن الحريّة. في أي بلد من العالم العربي يشعر اليهودي أو المسيحي أنه في بيته؟ لبنان وحده يحمل هذا الطابع. أرجو أن تفهمني جيداً. لقد نجحنا في أن نجعل من لبنان بلداً للحرية، إلى حين وصول الفلسطينيين. وبدلاً من أن يعمل هؤلاء الفلسطينيون من أجل فلسطين، صاروا طابوراً خامساً. هنالك اليوم حرب نفسية بين العرب وإسرائيل، ونحن بين الاثنين! نحن لم نخض الحرب، لا ضدكم ولا ضدهم! فلا ترغمونا على خوض حرب ضد العرب!

فهتف أرييل شارون، الذي كان يزداد غيظاً مع مواصلة مندي ترجمة أقوال محدّثه:

- نحن لم نربح شيئاً من لبنان ولا نريد أن نأخذ منه شيئاً.

فاستأنف بيار الجميّل قائلاً، من غير أن يضع في حسبانه على ما يبدو الغيظ الذي استولى على الوزير:

- شنّينا الحرب على الفلسطينيين طوال ثماني سنوات بدلاً عنكم. لقد تخلّى العالم كله عنّا. وجئتم أنتم وهدفكم معكم. إنّه حقّكم في حماية أنفسكم. ولبنان يريد السلام معكم ومع العرب. والآن سوف أتكلّم في السياسة: لقد بنيتم بلدكم بشجاعة مع الأميركيين والبريطانيين. أنتم لا تنسون

الذين ساعدوكم، لكن يثبت لنا أنّ الوضع ليس على ما يرام بينكم وبين الأميركيين. أنا أعتقد أنّ الكلمة الأخيرة لكم. يقولون إنّ إسرائيل هي ولاية من الولايات المتحدة، أما أنا فأرى أنّ أميركا هي ولاية من إسرائيل. وأشعر أيضاً بأنّكم تقتربون من المسلمين الذين في بلادكم. ذلك أنكم لن تتمكنوا، عاجلاً أم آجلاً، مثل حالنا، من مواصلة العيش غرباء في العالم العربي. يمكن للبنان أن يكون واحداً من خيرة حلفائكم. كما يسعنا أيضاً أن نقوم حيالكم بدور الوسطاء. وينبغي أن نعرف أنّ بلدينا على نحو ما هما قائمان عليه سيظلان جارين إلى الأبد.

فقد شارون كل برودة أعصابه. ولقد بذل، بكل تأكيد، جهداً لعدم مقاطعته. فأجاب بلهجة خشنة:

– أشكرك على طرحك. سوف أسعى لأن أتوقّف بإيجاز حول بعض النقاط الهامة التي أثرتها. أنت قلت إنّا غادرنا بلدنا وأنّا رجعنا إليه. نحن لم نغادر أرضنا البتّة! لم يكن لنا كيان سياسي، لكنّنا لم نغادر البلاد قط! لقد ظلت الطائفة اليهودية مقيمة على الدوام فوق أرضها! أمّا بشأن اقتراحك بأن تكونوا وسطاءنا مع العرب، فنحن لا نريد فتح جسور معهم! نريد السلام معكم فقط ونريد أمننا! جئت اليوم لرؤيتكم، يحدوني الأمل بالعثور على صلة بيننا وبين الرئيس أمين. فالوضع الذي نحن فيه نتيجة مباشرة للمواقف المتّخذة من قبله ومن قبل حكومته.

– ما المواقف المتخذة؟

– أمام لبنان اليوم، فرصة متاحة لن تتكرّر في هذا الجيل. لقد منحناه فرصة دفعنا ثمنها غالياً. وأنا أقول لكم، قول صديق يحبكم من كل قلبه، إنكم على وشك إضاعة تلك الفرصة. فنحن إن لم نتوصّل إلى اتصال مباشر مع الرئيس أمين، فسوف ننسحب إلى خط قريب من الدامور ونوقف كل تفاوض مع الحكومة اللبنانية. إنّ رئيساً يخشى إقامة علاقات ليس جديراً بأن يكون رئيساً! إنّ سياسة لبنان لا يجري تقريرها في الرياض أو في دمشق، بل في بيروت!

وأحس بيار الجميّل بنفاد صبر محدّثه، فقال وهو ينظر إلى ناوت:

– أعتقد أن الجنرال لم يفهمني. فنحن لسنا طائفة واحدة. وليضع نفسه مكاننا! أنتم لا يسعكم أن تعرفوا كم كان من الصعب اجتماعنا معكم هنا في هذا اليوم...

فكانت لهجة شارون قاسية:

– إنّه لشرف كبير بالنسبة إلينا أن نلقاكم. لو كان بشير على قيد الحياة، لفعلنا أشياء كثيرة. فأنا واثق من أنّه لو كان هنا لاستقبلني في القصر الرئاسي، ذلك أنّه كان شجاعاً. إنّ ما أريد هو اتصال مباشر مع الرئيس أمين، من دون حبيب ولا درايبر.

– لا يسعكم أن تعرفوا كم من مرّة سعيت لترتيب ذلك. لكن لو حصل هذا مرة واحدة، لانفجر لبنان. وإذا ما استقال رئيس الوزراء الوزّان، فما من مسلم سيرضى بأن يخلفه.

فردّ الوزير الإسرائيلي صارخاً تقريباً:

- فليستقل! هنالك القوات اللبنانية! هنالك الشيخ بيار...!

- لن يكون لبنان من بعد ما هو عليه...

فكرّر شارون مشدداً على كلماته:

- إن لم نحصل على اتصال مباشر مع الرئيس فسوف نسحب قواتنا حتى الدامور وسوف نغادر الشوف. ولا يعود من شيء ذي أهمية في نظرنا.

فقال پيار الجميّل مدافعاً:

- ماذا كنتم ستفعلون مكاننا؟

- لقد سبق أن فعلنا فكلفنا ذلك 500 قتيل و2500 جريح.

فاحتجّ الرئيس الأعلى موجهاً كلامه إلى مندي، الذي كان يعرفه خيراً من شارون، قائلاً:

- نحن وقع لنا 5000 قتيل! وفقدنا من عائلتي أنا 5 شبان! ولكن ما حقيقة هذه الطريقة؟... ما لم نفعل هذا فسيحصل ذلك... ما الذي سيحصل؟ لبنان سوف ينفجر! إنّ الجنرال يطلب منّا أشياء لا يسعنا القيام بها. سوف تقع مذبحة بين المسيحيين والمسلمين... وبعدئذ لن يكون هنالك من لبنان!!!

فاعترض الوزير قائلاً:

- يعرف كثير من المسلمين أنّ إسرائيل لا تشكل خطراً.

- اسمح لي أن أقول لك إنّ معلوماتكم خاطئة على الرغم من أنّ أجهزة استخباراتكم هي من بين الأكثر فعاليةً. هنالك أسباب نفسانية ليست مكتوبة. وإن كنتم ستفعلون ما قلتموه فلن يبقى هنالك من لبنان.

فأعلن شارون قائلاً بوضوح:

- سوف نفعل ذلك. ومع الأخذ بعين الاعتبار مشكلة أمننا في الجنوب، فسوف ننشئ هنالك قوة عسكرية حول سعد حدّاد ونظل هناك. سوف نواصل أيضاً دعم القوات اللبنانية، لكن إذا تحالفت مع سياسة الرئيس أمين فسوف نكفّ عن مساعدتها!

فتمتم پيار الجميّل منذهلاً:

- لا يسعني التصديق أنّ هذه سياسة إسرائيل.

فأكّد وزير الدفاع قائلاً:

- رويت للقوات اللبنانية ما وضعي حيال حكومتي وحيال الرأي العام في إسرائيل. وهذا الاجتماع يحزنني لا سيّما وأنّي عرضة للنقد بسبب الدعم الذي أقدّمه لكم.

- وماذا تريدنا أن نفعل؟

– نريد اتصالاً مباشراً مع الرئيس!
– القضية إذن مسألة حياة أو موت.
فأعلن شارون قائلاً:
– هذا الاجتماع يسبّب لي الكثير من الألم بعد تلك الأعوام وتلك الجهود كلّها. نحن لا نطلب إحلال السلام، نطلب فقط مجرّد اتفاق. ونحن في نقطة لا يسعنا التقدم من بعدها.
فردّ بيار الجميّل مدافعاً:
– ولكنكم تتفاوضون الآن! ولا يسعكم أن تعرفوا كم بذلنا من جهود لإطلاق هذه المفاوضات.
فقال مندي شاكياً:
– نحن في هذه المفاوضات لا نزال عند هدنة 1949 في حين أننا في العام 1983.
– قضية حياة أو موت؟ ليس ذلك من شيمكم! ناقشوا الأمر معنا .أمين ابني. يمكنني الذهاب لرؤيته، لكنني لست مقتنعاً.
فردّ مندي مستذكراً:
– كان موافقاً على وثيقة 14 كانون الأول/ ديسمبر كلها. ثم غيّر رأيه من بعد أن قابل الأميركيين والسعوديين.
فصاح بيار الجميّل قائلاً:
– وتريدون منا أيضاً أن نقاتل أميركا والعربية السعودية والعرب؟
فأعلن شارون وهو ينهض قائلاً:
– أنا أعتذر. لكنّ هذا الاجتماع عملية تفتيت حقيقية للقلب بالنسبة إليّ.
فسأله الرئيس الأعلى بقلق:
– وماذا تريدون من أمين أن يفعل؟
فأجابه شارون واقفاً وبنبرة لا تنازل فيها:
– نريد اتصالاً مباشر مع الرئيس من دون أي وسيط! لا درابر، ولا حبيب! ومن الممكن الحفاظ على السر.
– كل شيء يُعرَف في لبنان! أتريدون لنا الدخول في حرب ضد المسلمين؟
فأعلن الوزير الإسرائيلي وهو يتّجه صوب الباب قائلاً:
– شكراً على استقبالكم، لكن عليّ الانصراف.
فنهض الشيخ بيار مذعوراً. وكانت نظرته القلقة تستقر على شارون ثم أفرام ثم مندي على التوالي طلباً للمساعدة. ثم قال:

- لا أريدكم أن تتصرفوا بهذا الانطباع.

فاستدار شارون وقد أصبح لدى الباب:

- جئنا إلى لبنان من أجل أن يكون حرّاً، لا عبداً لعرفات أو للعرب أو لآخرين.

- لكن لن يبقى هنالك من لبنان! سوف يغدو إمارة.

فردّ شارون بعنف، قبل أن يتجاوز الباب:

- نحن لم نذهب لعناق أبي إياد! لقد ذهب أمين فعانق ذاك الذي قتل أخاه وابنة أخيه. ليس هذا لبنان الذي قاتلنا من أجله.

وسعى بيار الجميّل ليقول في محاولة أخيرة فيما واصل محدّثه هبوط الدرجات من غير أن يستدير:

- لا أريدكم أن تذهبوا هكذا. لا تفعلوا ذلك! إنّها لكارثة وسوف تقع! ليست القوة كل شيء.

بعد ذلك بيومين، استيقظت الأحياء المسيحية وسط الليل على مطر منهمر من صواريخ غراد وكاتيوشا، وقد أُطلِقت من المتن الأعلى الواقع تحت إشراف السوريين. ولم تقم «القوات» بالرد. فبعث فادي أفرام برسالة إلى تل أبيب.

أحيطكم علماً بأنّ الأشرفية والجديدة والدورة وبرمّانا قد تعرّضت للقصف يوم الأحد في 30 كانون الثاني/يناير في الساعة الثانية (قبل الفجر). إنّه تطوّر خطير جداً. أما في حال جرى قصفنا مرة ثانية في الشوف، فسوف نرد بعنف على المختارة وبعقلين. مع التحيات. لاري[1].

فقال أرييل شارون بعد أن قرأ النص:

- فليتدبّر اللبنانيون أمرهم مع السوريين، ما دامت البطاريات الدرزية تطلق من أرض تقع تحت إشراف دمشق. فلندع للرئيس الجميّل استخدام علاقاته الطيبة بدمشق.

أما في اليوم التالي، فردّ الجنرال ميثير داغان رداً موارباً على فادي أفرام، حين سأله عن الموقف الإسرائيلي مستقبلاً، في حال وقوع عمليات قصف مماثلة:

- نحن نعتبر عمليات القصف السورية كافة كأنها موجهة ضدنا، وسوف نردّ عليها. ولقد جعلناهم يفهمون ذلك.

- متى؟

- مرات عديدة!

لكن بعد ذلك ببضع ساعات - وعلى مثل ما صارت إليه الحال بشكل منتظم من بعد - ظلّت المدافع الإسرائيلية صامتة فيما كانت مدافع السوريين تقصف بيروت. لقد ذكر داغان «عمليات

---

(1) الاسم الحركي لفادي أفرام أثناء المفاوضات مع الإسرائيليين.

القصف السورية»، لكنّه اعتبرَ أنّها «ليست سوى درزية» وأنّها تدخل ضمن اعتبارات «السياسة الداخلية اللبنانية».

كانت العلاقات بين «القوات» وأمين الجميّل تقارب القطيعة على الدوام. أما الإعلام الإسرائيلي عن الانسحاب من الشوف فوضع القوات اللبنانية في موقف حرج. كان إيلي حبيقة يخشى فوق كل شيء أن يتخذ أمين مبادرة القطيعة مع الميليشيا. فمن شأن مثل ذلك القرار الرئاسي تهميش «القوات» أمراً واقعاً في العالم المسيحي. فقرر رئيس جهاز الأمن في القوات اللبنانية، بالاتفاق مع فادي أفرام، البحث عن تحالفات. والأمر المفارق أنه فكّر على الفور بسوريا. كان ينبغي بادئ الأمر تفهّم دمشق والتوصّل إلى قراءة ما وراء غشاوتها. فسعى لتلقي دعوة ذات مساء إلى بيت صديقه ميشال سماحة.

لقد تعارف الاثنان في الجامعة. كان ميشال سماحة رئيس طلاب الكتائب. ولمّا كان ذا نزعة عروبية تامة، فإن إيلي حبيقة الذي وصل أخيراً إلى إدارة جهاز الاستخابارت والأمن في «القوات»، قد طلب إليه إقامة علاقات مع «العرب»، أي مع الفلسطينيين وبصورة عامة مع الفئات من اليسار اللبناني الموالية لسوريا. أما في صيف 1982، فقد سرّب من بيروت الغربية، بالاتفاق مع بشير الجميّل، وعلى الرغم من وجود الإسرائيليين، كوادر أبو جهاد، الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية، والذين كان بعض منهم طلاباً معه في الجامعة الأميركية في بيروت. فقادهم إلى طرابلس، في شمال لبنان، بعد أن جعلهم يعبرون حاجز البربارة الذي كان يشكل الحدود الشمالية «للقطاع المسيحي» بفضل ورقة عبور موقعة بيد بشير الجميّل نفسه. كان ميشال سماحة الشخص المكروه أكثر من قبل بيار الجميّل والمحافظين في صفوف الكتائب وقناة المحادثات السرية مع «الطرف الآخر» من القوات اللبنانية.

وقد قال له حبيقة في ذلك المساء:

– إنّ وضعنا مع الإسرائيليين في أسوأ حال. فهل تعتقد أنّ من الممكن العثور على انفتاح مع السوريين؟

في اليوم التالي، اتصل سماحة بعاصم قانصوه، زعيم حزب البعث السوري في لبنان[1]، ليسأله عن كيفية الوصول إلى دمشق الرسمية، من غير أن يوضح له الأسباب بدقة. فقال له قانصوه إنّ السبيل الأجدى إلى حافظ الأسد إنّما يمرّ عن طريق أخيه رفعت[2] الذي يقيم هو معه أطيب العلاقات. وقبِل هذا الأخير بأن يستقبل ميشال سماحة سرّاً. فسافر سماحة بالمركب[3] إلى لارنكا

(1) كان هنالك أيضاً حزب البعث العراقي التابع لبغداد والذي سيستخدمه مسيحيون فيما بعد للحصول على أسلحة.

(2) خلاف عميق انتهى بقطيعة نهائية بين الشقيقين بنهاية شباط 1984. اختار رفعت الأسد ماربيلاّ في إسبانيا مكاناً لمنفاه حيث كان لا يزال مقيماً حتى مطلع 2006.

(3) كان مكار بيروت لا يزال مغلقاً وكانت قبرص الوسيلة الوحيدة للبده بالسفر.

(قبرص)، ليجعل انتقاله بعيداً عن عيون الموساد اليقظة، ثم صعد في الطائرة إلى روما. فاشترى في إيطاليا بطاقة على الخطوط الهندية إلى نيودلهي عبر دمشق. ونزل لدى توقف الطائرة. هنالك وجد بانتظاره ستة رجال جسام، ببزّات سوداء. واصطحبوه إلى فندق الشيراتون حيث تلقى تعليمات مشددة بعدم مغادرة غرفته على الإطلاق، ذلك أنّ الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجية، نزل في الفندق ذاته، وفي الوقت عينه تقريباً، عن طريق المصادفة المحضة.

جرى اللقاء مع «الأخ» بعد ساعات قلائل. فأصغى إليه رفعت باهتمام ثم قال له ببساطة:

– كل شيء ممكن، حتى الاتصالات السرّية، لكن بعد قطيعة تامة ورسمية مع الإسرائيليين.

وجاءت عودة ميشال سماحة إلى لبنان عن أقصر الطرق. فقد صعد بعد اللقاء مباشرة، في مرسيدس سوداء معتمة النوافذ قطعت مسافة الـ90 كم التي تفصل ما بين العاصمة السورية وقريته، جوار، التي تحاذي خط النار الفاصل بين الميليشيات المسيحية والقوات السورية المتمركزة في لبنان، فوق بكفيا. وكان سكان القرية ذاهلين، وهم يرونه ينزل من المرسيدس، متضايقاً لكن باسماً، تحت الأنظار الحذرة لرجال الحرس الذين كانوا يرافقونه.

كان الشرط الذي وضعه رفعت الأسد لفتح حوار، غيرَ مقبول على الإطلاق من فادي أفرام. إلّا أنّ هذا الأخير رضي مع ذلك بمواصلة الاتصال بدمشق. وبعد ذلك بعشرين يوماً، سلك ميشال سماحة مجدداً طريق دمشق، وكان هذه المرة بصحبة پول هاريس، أمين صندوق القوات اللبنانية، وأحد المقرّبين من إيلي حبيقة. ولقد أمضيا الليل عند رفعت الذي أجريا معه محادثات مطوّلة، من غير إحراز أي تقدّم.

أرغمت ضغوط الأب وعمليات القصف، الرئيس أمين على الرجوع عن قراره بعدم مقابلة الإسرائيلي. فاستقبل مناحيم ناڤوت سراً في منزله في سن الفيل. وحتى القوات اللبنانية لم تُحط علماً بالموضوع. تطرّق الرئيس إلى متاعبه مع محدثه بشأن جعل المفاوضات مقبولة لدى العرب. أما بشأن اتفاق مشترك، فقررا إدارة شؤون علاقاتهما بتمهّل أكبر. فقررت تل أبيب، تأكيداً للحدث، وعلى الرغم من غيظ مناحيم بيغن، أن تدع المفاوضات تجري بهدوء وأن تتجمّل بالصبر.

بقي على الرئيس اللبناني تسوية «مشكلة بيروت الكبرى». فقام وفد مؤلف من مسؤولين من «القوات» ومن حزب الكتائب[1] بمناقشة مفصّلة مع رجال الرئيس، لانتشار الجيش اللبناني وقضية استرجاع الدولة للحوض الخامس. كان هامش المناورة لدى فادي أفرام يضيق أكثر فأكثر. وكان عليه في الوقت ذاته أن يوهم الإسرائيليين بأنّه لا يزال قابضاً على زمام سلطة حقيقية، وإلاّ فهو يخشى أن

---

(1) يتألف من: أنطوان بريدي (المفتش العام للقوات اللبنانية)، إيلي الزايك (مساعد القائد العام للقوات)، جوزيف أبو خليل (المدير العام لجريدة العمل الناطقة باسم حزب الكتائب)، بطرس خوند (رئيس المجلس العسكري للكتائب)، ديب أنسطاس (قائد شرطة حزب الكتائب).

يقللوا من وسائل دعمهم للميليشيا. فبعث برسالة إلى الموساد يزعم فيها أنّه يحدّ من قرارات أمين الجميّل.

الموضوع: وضع القوات اللبنانية في علاقاتها بالرئيس أمين الجميّل.

[. . .] إنّ الإجراءات المتخذة من قبل الرئيس أمين الجميّل تعني عملياً منع القوات اللبنانية من أن يكون لها خيار سياسي أو رأي مخالف لرأي الرئيس، وكذلك إغلاق ثكنات القوات اللبنانية في بيروت الشرقية. وبعد التفكّر في الأمر طوال الساعات الـ 48 الأخيرة، رأيت النتائج السلبية الناجمة عنها، خصوصاً في علاقتنا التي نعتبرها، كما تعلمون، علاقة حيوية، فاتخذت القرارات التالية:

1-نرفض إغلاق ثكنات القوات اللبنانية.

2-نرفض الكفّ عن نشاطنا السياسي ونستمر في الاتجاه الذي سلكنا حتى الآن.

3-في حال رغب الجيش اللبناني في الدخول إلى بيروت الشرقية، فلن نقف له معارضين ما دام ذلك لا يؤثر على وجود القوات اللبنانية.

مع التحيات. لاري.

في 31 كانون الثاني/ يناير 1983، في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، بدا أمين الجميّل لطيفاً بشوشاً واثقاً من ذاته مشدوداً داخل بزته ذات اللون الأزرق الداكن وهو يستقبل على باب مقره الخاص في سن الفيل، الوفد المشترك من القوات اللبنانية والكتائب بقيادة كل من أنطوان بريدي (توتو)، ووديع حدّاد مستشار الأمن القومي، والجنرال إبرهيم طنوس القائد العام للجيش، والعقيد سيمون قسّيس رئيس المكتب الثاني، وزاهي بستاني مدير الأمن العام الذي كان ينتظرهم في الصالون. فأكد أمين بلهجة مصالحة وتصريح تمهيدي أنّ «القوات» جزء لا ينفصل عن السلطة وأنّ في نيته تشكيل فريق عمل معها. بل عرض أن يدرس مع فادي أفرام تسمية عدد من أعضاء القوات اللبنانية في المناصب الإدارية العليا. وكذّب تكذيباً قاطعاً أن يكون على علاقات سيّئة مع الإسرائيليين، مؤكّداً، من غير الدخول في التفاصيل، أنه «غالباً» ما كان يجتمع بهم:

- أعرف حق المعرفة ديفيد كيمحي الذي كثيراً ما تناولت معه طعام الغداء. ثم أضاف برباطة جأش نحن، استراتيجياً، مع إسرائيل.

لم يكن هنالك حسب قول الرئيس من شيءٍ جاد يعكّر جو المفاوضات الثلاثية وأن موقفه من أكثر المواقف صلابة. وأشار بإصبعه إلى الصورة المهداة من رونالد ريغان والمعروضة فوق خزانة في الصالون وقال بابتسامة عريضة: تلك هي ضمانتي.

كان أنطوان بريدي، الجالس قبالته مكتئب الوجه، فهو لم يسامح أمين البتة على المظهر الرائق الذي بدا به علناً يوم موت بشير في حين كان هو ذاته غارقاً في دموعه. وقد تولى الكلام بنبرة هجومية.

- أنت لم تعش مع القوات اللبنانية. وأنت لا تعرف تطلّعاتها. انقضت ثمانية أعوام وهي على نزاع معك، لأنّها عاشت إلى جانب بشير، الخلافات التي كانت تفرّق بين الأخوين. وأنت تريد الآن، بين ليلة وضحاها تحقيق انصهار. هذا أمر مستحيل! ولا يسعنا التثبّت من أن نظامك يندرج في استمرارية السابق. نحن قريبون منك أنا وفؤاد (أبو ناضر) وإلياس الزايك وفادي (أفرام)، ولكن ليس ذلك بكافٍ. نحن نريد أن تكون موضع استحسان الجميع أما الحال فليست كذلك. وعلى الرغم من أنّه ليس للقوات اللبنانية أي ثقة بالجيش، فقد أعددنا لك، على الصعيد العملياتي، كل ما طلبت منّا حتى لا نُتّهم بالمراوغة.

فردّ أمين بلهجة ودّية من غير أن يستثار بلهجة محدّثه، قائلاً:

- لكن يا توتو نحن المنتصرين!

- حقاً! لكن كيف؟

- لأنّ واحداً من الكتائب وصل إلى سدّة الحكم. فما اقتراحاتكم؟

- ستكون لك بيروت الكبرى! أما بشأن الحوض الخامس فقد أجرينا دراسة مالية لاحتياجاتنا مرتكزين على ميزانية العام الفائت. لقد بلغت نفقاتنا الوظيفية 40 مليون ليرة لبنانية شهرياً[1] والحوض الخامس يعود علينا بثلاثين مليوناً منها. نحن نريد أن تضمن لنا تعويضاً مالياً شهرياً بـ 23 مليوناً... فقاطعه أمين قائلاً بجفاف:

- لا أستطيع إعطاءكم هذا المبلغ! ينبغي عليكم أن تجدوا وسيلة للقيام بعصر للنفقات. فواصل البريدي قائلاً، من غير أن يقيم اعتباراً للمقاطعة...

- لدينا، من ناحية أخرى، التزامات حيال التجار. فنحن بحاجة لفترة انتقالية لسدادها.

فقال الرئيس متعجباً:

- أنا لم أقل إنّي أريد استعادة الحوض الخامس على الفور.

- خذ ما تشاء من الوقت، لكن عليك أن تضمن تمويلنا لا سيّما وأنّنا نحوّل مبالغ كبيرة لحزب الكتائب.

كان أمين الجميّل في موقع يسمح له بأن يعرف ذلك حق المعرفة. إنّ قسماً كبيراً جداً من تمويل الحزب كان يأتي من «القوات». فقد أسس بشير تلك العلاقة المادية بعد عملية «ألتالينا» في 7 تموز/ يوليو 1980 من أجل أن «يفرض» بالمقابل، حرية مناورة أكبر.

وأضاف توتو:

- أما بشأن ثكناتنا، فنريد أن تظل حيث هي ونطلب منكم أن تتركوا لنا مكاناً للتجمع.

(1) 17,4 مليون دولار أمريكي. (حوالى 16 مليون يورو).

فقبل الرئيس قائلاً: **لا بأس في ذلك**، مثيراً دهشةً كبرى لدى بريدي، الذي كان يتوقع معارضة أكبر.

عشيّة ذلك اليوم، كان أمين الجميّل قد باح لكميل وداني شمعون، في اجتماع ضمّه معهما قائلاً: **ينبغي حلّ القوات اللبنانية.**

فرد عليه «الأسد العجوز» قائلاً:

– كان ينبغي القيام بذلك منذ زمن طويل.

إنّ انتشار الجيش اللبناني في بيروت الشرقية – وبالتالي سحب القوات اللبنانية منها –، الذي ذُكر على صدر الصفحات الأولى في الصحف المحلية كافة منذ عدّة أسابيع، كان يلائم آل شمعون كل الملائمة لإعادة الانطلاق بحزبهم. كان فادي أفرام قد اطمأنّ إلى إخلاص أنصار شمعون الذين كانوا في صفوف الميليشيا فتوجّه إلى منزل «الأسد العجوز» ليذكر على مسامعه كلاماً في غاية الوضوح: **جئت أطلب دعمكم في الخلاف الذي يجعلنا نجابه أمين، وأحيطكم علماً بأنا سوف نتصدّى لكل من سيسعى للوقوف في وجهنا فنزيحه من طريقنا.** أما بصيغة أخرى فهو يعني ألاّ تتدخلوا في ذلك.

أثارت الأزمة مع أمين مخاوف حقيقية في صفوف «القوات». فقد خشي الأكثر تشاؤماً عدم توافر وسائل العمل على الأرض، في المدى القصير. واعتبروا أن جعل الرئيس «ممول القوات» بديلاً للحوض الخامس، إنمّا يعني منحه الوسيلة الفضلى لمراقبتهم. يضاف إلى ذلك، أنّ كل مجابهة معه أو مع الحزب، في حال الشدّة القصوى، ستكون مستحيلة للسبب الوجيه أنّ القيادة العسكرية الفعلية للميليشيا، أي هيئة الأركان، كانت بقيادة فؤاد أبو ناضر وإيلي الزايك، وكلا الاثنين قريب جداً من الكتائب[1]. على كل حال، كانت محاولة القيام بعملية انقلاب، خارج نطاق البحث بالنسبة إلى فادي أفرام. فهو يفضّل الاستقالة.

أما المتفائلون – وهم الأكثر عدداً – فكانوا يعتبرون أنّ أمين «سوف يسلب» شيئاً فشيئاً من أفرام معاونيه الأكثر وفاءً عن طريق تعيينات «مجزية» داخل دوائر الدولة العليا، مما يؤدي إلى هشاشة وضعه.

وقد علّق أنطوان نجم الذي كان يشارك في هذا التعليل الأخير قائلاً:

– نحن مصابون بمرض. إنّه الالتباس والازدواجية. وهو مرض ينتقل وراثياً داخل الحزب. فنحن مقبلون على الذوبان، كما الملح والسكر في الماء.

كان الوزراء في القدس، يتناوبون على توجيه النقد المكشوف للولايات المتحدة، واتهامها

---

(1) في 10 تشرين الأول/ أكتوبر وبدعم من أمين الجميّل قام الاثنان بإزاحة فادي أفرام عن طريق انقلاب داخلي انتهى بانتخاب فؤاد أبو ناضر قائداً عاماً للقوات اللبنانية.

بـرغبتها في أن تسرق من إسرائيل الثمار السياسية للحرب اللبنانية. وكان أرييل شارون، كعادته، أكثرهم عنفاً. فقد صرّح في نشرة تلفزيونية قائلاً: **ليست وحدة الأراضي اللبنانية هي ما يريد الأميركيون، وإنّما أن يبينوا لملك الأردن أنّ باستطاعتهم أن يجعلونا نحني ظهرنا، وبالتالي أنّ من مصلحته الانضمام للمفاوضات ضمن إطار مخطط ريغان لأن بوسعهم إرغامنا على مغادرة الضفة الغربية وغزة.**

كذلك هدد وزير الدفاع الإسرائيلي بسحب جيوشه من لبنان سحباً مباغتاً وحتى 25 كم من الحدود وترك الدروز والقوات اللبنانية وجهاً لوجه في الجبل ما لم تحرز المفاوضات المتعلقة بالتطبيع تقدماً. فوجه شارون نصيحته: **ينبغي على لبنان أن يستهزئ بالضغوط العربية. فالسوريون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ما دمنا نحن هناك والفلسطينيون خرجوا من وقت طويل. لقد آن الأوان لأن تتوافر للبنان الشجاعة على أن يقوم وحيداً بالخيار المعروض عليه.**

لقد جرت ضمن هذا الجو الجولة الحادية عشرة من المفاوضات الثلاثية الإسرائيلية – اللبنانية – الأميركية في ناتانيا، وهي منتجع بحري صغير إلى الشمال من تل أبيب، يطلق عليه «باريس الصغيرة»، لأنّ سكانها – وهم يهود من شمال إفريقيا – يتكلمون الفرنسية لغة رئيسة. وقد وصل الوفد اللبناني إلى هنالك، في صبيحة الأول من شباط/ فبراير 1983، في حوّامة يوما تحمل شعار الأرزة الحمراء على أرضية بيضاء. كان من الصعب في ذلك الطقس السيّىء تبيّن ناشرات الدخان الحمراء التي كانت تحدد «منطقة الهبوط». لم يكن المطر والريح وحدهما من أسباب الاستقبال القاتم الذي أعدّ لهم. ذلك أنّ عبارات شارون القصيرة قد كهربت الجو. فكان ذلك أبعد ما يكون عن زمن لافتات الترحيب وتلاميذ المدارس المحتشدين على مسار الاجتماعات الأولى. لقد فرضت السياسة قوانينها فقامت بطرد الرموز.

جرى وضع اليد على فندق «دان» من أجل المناسبة، وهو فندق باذخ من 15 طابقاً على شاطئ البحر، ويحظى بحراسة خفيّة. انقسم المتفاوضون إلى لجان فرعية. تولّى الجنرال عباس حمدان والعقيد رحيّم والجنرال الإسرائيلي أفراهام تامير، صديق شارون الشخصي، والعقيد الأميركي كولنز لجنة شؤون الأمن والانسحاب. فصعدوا ليغلقوا على أنفسهم باب الجناح 703 من الطابق السابع للمبنى. أما الجناح المجاور 702، فضمّ السفير إبرهيم خرما وموريس درابر وديڤيد كيمحي الذين تصدوا لمسألة «التمثيل الإسرائيلي الدائم في لبنان». واكتفى أنطوان فتّال وإيلياكيم روبنشتاين من جانبهما بتبادل وجهات نظر عامّة داخل الجناح 701.

كان التقدّم الوحيد في المفاوضات، الذي جرى إحرازه في نهاية النهار، يتعلق بالتسمية الرسمية «للسفارة» الإسرائيلية في بيروت. فقد قبل ديڤيد كيمحي بصيغة «لجنة اتصال»، على نحو ما فرض إبرهيم خرما، لكنه طلب بالمقابل الحصانة الدبلوماسية لأعضائها. فرفض خرما بانتظار

التوجيهات من عاصمة بلاده. وحالت العاصفة دون إقلاع الحوّامات فاضطر اللبنانيون لقضاء الليل في المكان.

كانت حوّامة أخرى، لكنها هذه المرة مدموغة بنجمة داوود، قد أقلّت في الليلة ذاتها مجلس قيادة القوات اللبنانية كله، فوصل سراً إلى القدس للبرهان على وحدة مكوّناته المسيحية.

ما إن وصل أعضاء المجلس إلى المدينة المقدسة، حتى توجهوا إلى وزارة الخارجية. فأوضحوا لإسحق شامير، بالفرنسية، وهم يشدّدون واحداً إثر الآخر، على تماثل نظرتهم، الوضع الحساس الذي يمرّون فيه. وقد عبّروا عن أمنيتهم في رؤية الإسرائيليين يعملون أياً كانت الظروف، على تلاحم السلطة اللبنانية والشعب المسيحي.

فردّ عليهم شامير قائلاً:

– ينبغي لاستقلالكم أن يُبنى، لا حيال إسرائيل فقط، بل حيال العرب أيضاً.

كان يشير إلى «النظرة الدينية» التي تحملها الدولة العبريّة حيال جارها الشمالي. ففي 27 شباط/ فبراير 1954 كتب بن غوريون يقول: **إنّ إنشاء دولة مسيحية (في لبنان) لشيء طبيعي. فله جذور تاريخية وسوف يلقى الدعم من قوة كبيرة في العالم المسيحي الكاثوليكي والبروتستانتي على حد سواء. [. . .] إنّ هذا الإنشاء، في الوقت العادي، شيء شبه مستحيل التحقيق بسبب غياب مبادرة المسيحيين وشجاعتهم قبل كل شيء. أما في أوضاع الفوضى والاضطرابات والثورات والحروب الأهلية، فالأمور تتغير ويستطيع الضعفاء اعتبار أنفسهم أبطالاً. [. . .] أعتقد في الوقت الراهن أنّ (هذا الهدف) مهمتنا الأساسية، أو واحدة من المهمات الأساسية لسياستنا الخارجية على الأقل**[1]. وبعد ذلك بـ 29 عاماً، كان إسحق شامير لا يزال يمضي في السياسة الخارجية الإسرائيلية ضمن ذلك المنظور.

أمّا المسؤولون الأميركيون فكانوا من جانبهم ينظرون إلى الأشياء نظرة سياسية أكثر: إنّ تسوية الحرب في لبنان – وهو دولة عربية في نظرهم – ينبغي أن يشكل أساساً لحل شامل لمشكلة الشرق الأوسط. وهم، في هذه النقطة، يختلفون اختلافاً كليّاً عن مشاريع إسرائيل. ذلك أنّ تل أبيب تنوي التقدم نحو السلام، مرحلة فمرحلة، وبلداً بعد بلد[2].

لدى مغادرة اللبنانيين وزارة الخارجية، توجّهوا في حوّامة كبيرة إلى مزرعة أرييل شارون في شمال النقب.

وكان في انتظارهم هنالك، إضافة إلى المضيف، كل من رفائيل إيتان، وعامير دروري، ويوشع ساغي رئيس جهاز آمان، وأفنير أزوالي، وريحايا ڤاردي «المنسّق المدني» في الأراضي

---

(1) مقتطف من مذكرات موشيه شاريت.

(2) ذلك ما توصلوا إلى فرضه على واشنطن مع حكومة إسحق رابين العمالية بدءاً من عام 1993.

اللبنانية تحت الاحتلال الإسرائيلي. كان جو الاجتماع مطبوعاً بطابع الحنين إلى عهد بشير. فكاد يتخذ، لبضع دقائق، مظهر تجمّع للقدماء. قدم فادي أفرام لشارون صورة ضخمة لبشير الجميّل. ثم توجّهت ليلي، زوجة الوزير، فدعت الجميع للانتقال إلى المائدة لتناول «الغداء وقوفاً» فيجري في أثنائه استذكار الحاضر والمستقبل القريب.

شرح اللبنانيون لمضيفهم أنّ أمين قد «تراجع» بقبوله بأن تحتفظ القوات اللبنانية بثكناتها في بيروت الشرقية.

فعلّق وزير الدفاع قائلاً:

– سيكون انكفاؤكم إلى خارج بيروت خسارة كبرى بالنسبة إليكم. وذات يوم ستوقفكم القوى متعددة الجنسيات عند إحدى نقاط المراقبة. ربما هم الأميركيون أو الفرنسيون أو الإنكليز. فما ستفعلون حينئذ؟ هل سيقع اشتباك؟ كلا! سوف تستسلمون وتطأطئون الرؤوس! إن أمين لذكيّ. فهو لن يذهب حد النزاع بينكم وبين جيشه. لكنه يستعدّ لذلك مع القوى متعددة الجنسيات. سوف تصطدمون بهم. وتصابون، خطوة إثر خطوة، بالاختناق. نحن نعرفكم جميعاً. أنتم شجعان وأذكياء. وقد تعلمتم أن تعيشوا مع المأساة. لكن ما لم تتوصلوا إلى التعايش معاً والبقاء متحدين، فتلك ستكون نهايتكم.

فأكد أفرام قائلاً:

– أنذرتُ السفير الفرنسي[1] أنّه إذا ما تعرّض لنا أحد في بيروت، فسوف تحصل اشتباكات. لقد أنذرتُه صراحةً. وطلبنا توّاً من شامير أن يدعمنا بشأن هذه النقطة لدى الأميركيين.

فقال شارون:

– لن يعمل الأميركيون من أجلكم أبداً! أما نحن فيهمّنا أن يظلّ لكم كيانكم وأن تدافعوا عن أنفسكم. وإن لم يعد للقوات اللبنانية من وجود، فعليكم أن تواجهوا على المدى الطويل خطر التلاشي. إن إعادة بناء قوة مماثلة سوف يتطلّب أعواماً. وهيئة أركانكم هي رمز المقاومة المسيحية. فلا تأملوا في دعمنا إذا ما قدّرنا أنّكم على وشك التلاشي. وإذا ما خرجتم من بيروت، وما عاد بوسعكم التجوال فيها، فذلك سوف يعني بالنسبة إلينا أنّه لم يعد لكم من وجود. ليس من يأتي لدعم الخاسرين وأنا أكرّر القول لكم، لن نقوى على مساعدتكم إذا ما ساندتم سياسياً تياراً معادياً لإسرائيل.

فأكد فادي أفرام قائلاً:

– سوف يستمرّ خط بشير مهما يكن الثمن. كذلك أحطنا الأميركيين علماً بأنّا سوف نجابه الجيش إذا ما بدا ذلك ضرورياً.

---

(1) بول ـ مارك هنري.

أخفت النبرة الواثقة التي تكلّم بها أفرام، مشقّة تسوية النزاع بين القوات اللبنانية وأمين الجميّل إلى حدٍّ لا بأس به. كان بشير الجميّل يعالج بمفرده هذه المشكلات الداخلية. وما من أحد بين مساعديه تلقن الطرق والأساليب الحساسة، وأقلّهم أفرام، العسكري. فقرّر أن يستقيل، من غير أن يحيط أي شخص بالأمر علماً، في حال أضحى الخلاف بين الميليشيا والجيش اللبناني، أو القوة المتعددة الجنسيات، غير قابل للتفادي.

عند عصر ذلك اليوم، حطّت الحوّامة بأعضاء مجلس القيادة في «المقرّ الصيفي لرئيس الوزراء». وغادر ديڤيد كيمحي ناتانيا – حيث أعمال اللجان الفرعية تسير ببطء – كي يلتحق بهم. وقد روى لهم بالتفصيل للمرة الأولى تقدم المناقشات مع الوفد الذي يقوده أنطوان فتّال. وفي تقديره أن المفاوضين اللبنانيين كانوا متميزين، إذا ما نظر إليهم فردياً، لكن كانوا يعانون، بوصفهم وفداً، من مشكلة عسيرة الحل: لم يكن لديهم أي توجيه من بيروت، فكان عليهم على الدوام الرجوع إلى قصر بعبدا، حيث غسان التويني ووديع حدّاد وشفيق الوزّان وأمين الجميّل، «المزوّدون بنصائح الأميركيين»، يملون عليهم سلوكهم.

فيما كان كيمحي يتابع المباحثات مع اللبنانيين، أعلن بيان صادر عن لجنة كاهان أنّ الحكومة (الإسرائيلية) لن تستطيع الاطلاع على تقرير اللجنة إلاّ قبل الصحافة بساعة فقط. فسعى شارون على الفور، لكن من غير أن يُفلح، في «تحطيم» الصدمة الدراماتيكية للبيان بتسريبه عن طريق موجات الإذاعة أنّ حوالى عشرة من الزعماء المسيحيين قابلوه في اليوم ذاته في مزرعته حيث أقاموا. . . لم يجر الكشف عن هوياتهم، لكنّ الصحفي أوضح أنّه أثناء تلك المحادثات التي شارك فيها رفائيل إيتان وعامير دروري، أعرب ذلك الوفد عن مخاوف المسيحيين حيال التهديدات الموجهة إلى لبنان وعن اتخاذه موقفاً لمصلحة اتفاقية سلام مع إسرائيل.

لم يُحَط الوفد اللبناني، الذي كان مقيماً في قدس أقداس الإعلام والاستخبارات الإسرائيلية، علماً، لا بإعلان لجنة كاهان، ولا بتسريب الخبر المتعلّق به. وكرروا وهم جالسون إلى المائدة، في دار ضيافة الموساد، على مسامع ناحوم أدموني (پيتر) مدير الهاميسراد[1]، ما سبق أن قالوا لشامير وشارون حول وضعهم في بيروت.

فوعدهم پيتر قائلاً:

– نحن لن نتخلى عنكم. قولوا لنا ما ينبغي أن نفعل كي يكون الجميع على علم بالأمر. لكن لا تنسوا ما قال تشرشل: إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم. الأميركيون لهم أهميتهم فعلينا أن نكلمهم بالصوت ذاته. وعلينا أن ننسّق في ما بيننا بشأن الموضوع الذي سنكلمهم عنه،

---

(1) مكتب (بالعبرية)، تسمية متعارف عليها للموساد.

وتوقيته. إنّهم ضعفاء لأنّهم يستخلصون في أغلب الأحيان من الأحداث استنتاجات مغلوطة. فهم مقتنعون، على سبيل المثال، أنّ انتشار الجيش في بيروت الشرقية شيء حسن، لكنّهم لم يفكروا في انعكاساته. فينبغي علينا أن نوضحها لهم من غير كذب ولا مناورة، لأنّهم سيفقدون الثقة. لكن لسنا مرغمين على أن نقول لهم كلّ شيء، وينبغي أن نعرف أنّ الرئيس الجميّل واقع وقوعاً تاماً تحت تأثيرهم.

فأضاف مناحيم ناقوت:

- إنّ ما يقوم به أمين حيال القوات اللبنانية ليثير قلقنا. فوجود القوات اللبنانية ضمانة لأمننا.

فاستأنف أدموني القول:

- هنالك دوماً عناصر جديدة في وضع من الأوضاع. إنّ عودة السوفييت إلى المنطقة بصحبة صواريخهم، تغيّر الموقف السوري تغييراً كبيراً بالنسبة إلى الأميركيين. فهم الآن يراقبون دمشق بنظرة مختلفة وينظرون إلينا، نحن وأنتم، بتقدير أكبر. ينبغي علينا أن نشرح لهم أنّكم أنتم وحدكم القادرون على الحيلولة دون عودة الفلسطينيين.

فأكد أفرام قائلاً:

- ذلك ما نسعى للقيام به.

قال بيتر:

- أنا في هذه الحال، على اتفاق معكم حين تقولون إنّكم بحاجة لنصر في الجبل. فلندرس طريقة التوصّل إلى ذلك. غير أنّا نلحّ على أن يقع ذلك من غير انعكاس سياسي سلبي (التلميح واضح إلى صبرا وشاتيلا) . وسوف نسعى بانتظار ذلك إلى قطع الإمدادات عن الدروز. فهم الآن في وضع صعب وسوف نواصل الضغط عليهم.

لدى عودة أعضاء الوفد إلى بيروت، لم يعيروا انتباهاً فورياً للعناوين الكبرى في الصحافة المخصصة «للقاء الزعماء المسيحيين والإسرائيليين»، ولا للمقالات التي عالجت تسريبات شارون. إلّا أنّ ذلك لم يغب عن نظر أمين الجميّل.

أعرب كريم بقرادوني، في الثاني من شباط/ فبراير، أثناء لقاءٍ مع الرئيس الجميّل، عن قلق «الشباب» من الميليشيات. وقد أكد له المحامي الأرمني قائلاً: **أنت لا تجيد التعامل معهم. إنّهم لا يعرفونك، لقد أعطاهم بشير، من جانبه، أملاً كبيراً وحققه لهم. لكن لا تعتقد خصوصاً أنّ بوسعك تطويعهم. إنّهم أكثر اتحاداً في ما بينهم مما تظن. وما تقوله للواحد منهم ينتقل فوراً للآخرين. حتى إنّ الذين تعتبرهم من «العائلة»[1] سيكونون الأكثر تشدداً. فكن حذراً حتى لا يكون الانتشار هو آخر شيء تحققه في ولايتك.**

(1) إشارة إلى ابن اخته فؤاد أبو ناضر، وصهر هذا الأخير فادي أفرام.

لقد بُلِّغَت الرسالة على أحسن وجه. فانخرط أمين من فوره في حملة من العلاقات العامة. وفي حدود الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، كان أمين الجميّل أمام ثكنة القوات اللبنانية في فرن الشباك، يحفّ به عدد من الحرس الشخصي الذين تربّوا في الولايات المتحدة. فتقدّم من غير إعلام مسبق، بشعره القصير ونظارتين شمسيتين على عينيه، وسماعتين غاية في الصغر في أذنيه. كان يرتدي بزّة رسميّة ويضع ربطة عنق وينتعل حذاءً لمّاعاً. توجّه إلى عناصر الميليشيا المنذهلين قائلاً: إنما أنا واحد منكم. وددت القدوم بلباس الميدان الأخضر، لكنني لا أستطيع ذلك، فأنا الرئيس. أريد أن تكونوا معي في السلطة. ثم فعل الشيء ذاته في ثكنة الأشرفية فثكنة المدفعية. وكان يكرر على مسامع الذين يصادفهم، وابتسامة عريضة تعمر وجهه:

– بما أنّي واحد منكم، وأنّي في السلطة، فأنتم فيها معي.

لقد لاقى نجاحاً أثار فضول «الشباب» وإدهاشهم. وسأله أحدهم لِمَ لمْ يفعل شيئاً حتى الآن. فردّ عليه الرئيس قائلاً:

– لا أستطيع أن أفعل من نفسي شيئاً. ولا يستطيع أحدٌ أن يطلب مني شيئاً، ما دام الإسرائيليون على أرضنا.

في الرابع من شباط/ فبراير، قام كلّ من فؤاد أبو ناضر، القائد العام للقوات اللبنانية، والقائد العسكري لميليشيا منطقة الأشرفية، مسعود أشقر (پوسي)، بمقابلة الجنرال طنّوس، لوضع التفاصيل المتعلقة بدخول الجيش اللبناني إلى منطقتهم. فسلّموه مخططاً وخرائط وصوراً منسوخة، إضافة إلى قائمة بأسماء الضباط الذين لا ترغب القوات اللبنانية في رؤيتهم فوق «أرضها». وحين أمسك طنّوس بالوثائق أبدى عجبه فقال بإطراء:

– إنّا لَنكتشف كل يوم المزيد من قدراتكم التنظيمية، فليس من أحد بيننا قادراً على القيام بمثل هذا العمل.

كان المخطط يرتئي نشر ثلاث كتائب من اللواء الثامن الذي يقوده العقيد عون – المدعّم على الأرجح بعناصر فرنسية من القوة متعددة الجنسيات. ولا يمكن وضع مراكز مراقبة إلّا على الجسور فوق نهر بيروت، كما لا يسع الجيش أن يتمركز داخل الأحياء المسيحية. وبالمقابل، تتعهّد القوات اللبنانية بإزالة المظاهر المسلّحة كافة من داخل تجمّعاتها كما من خارجها. وسوف يقيم ضباط اتصال تابعون للميليشيا في مراكز قيادة كتائب اللواء الثلاث، ليتاح لهم الالتحاق بالثكنات المختلفة وبالجبهات في الجبل. كما يحظّر على الجيش الدخول إلى منطقة الكرنتينا، حيث مركز هيئة أركان القوات اللبنانية. ويصدق القول إنّ ذلك الانتشار رمزي أكثر منه مجدياً.

فقبل الجنرال طنّوس به مثلما هو ووعد قبل الانتشار، ببناء جسر معدني على النهر ليمرّ من فوقه طريق يؤدي إلى الكرنتينا، وهو سيكون مخصّصاً للقوات اللبنانية فقط. وكانت مهلة ضرورية

لبنائه فأرجئت العملية إلى حينها. أما بشأن استرجاع الدولة للحوض الخامس، فقد أعلن أمين الجميّل أنّ ذلك لن يتمّ قبل أن يتمكّن من تأمين التعويضات المالية التي طلبتها «القوات».

وساور الإسرائيليين القلق، فطلبوا إيضاحات. كانوا يخشون من مضايقات فعلية من احتكاكهم على الأرض ب«الكتائب». زدْ أنّ الجيش الإسرائيلي بحاجة لحرية الحركة للوصول إلى مراكزه المتقدّمة في المونتي فيردي والمرفأ. وفي 7 شباط/ فبراير، شرح فؤاد أبو ناضر وأنطوان بريدي للجنرال إيتان وهيئة أركانه، مستعينين بالخرائط، المدى الحقيقي للانتشار والإمكانات المتاحة أمام وحدات الجيش الإسرائيلي، لاستخدام الطرق العسكرية المخصصة للميليشيا والخالية من كل وجود للجيش اللبناني. وقد أوضح بريدي قائلاً:

– سيظلّ قلب بيروت الشرقية ومركزها تحت إشرافنا نحن. لقد قطع لنا بذلك عهداً الشيخ بيار وأمين. ولن يُصار إلى القيام بشيء من شأنه إضعافنا. فسأله رفّول مرتاباً:

– وهل لديكم من ثقة بهما؟

– لا يسعنا أن نفعل غير ذلك.

كان الإسرائيليون أبعد ما يكونون عن الانعطاف الذي اتخذته الأحداث. فكانوا مقتنعين بأن بيار الجميّل يؤمّن الحماية لابنه على حساب الميليشيا المسيحية.

انهمر في اليوم ذاته مطر من الصواريخ من نوع BM 21 [1] على الأشرفية. فبعث أفرام برسالة لاسلكية إلى شارون:

من غاسبار إلى لاري[2].

– مستعجل جداً:

أ– في الخامسة والنصف من هذا المساء قُصِفت منطقة الأشرفية بالكاتيوشا. جاءت عمليات الإطلاق من حمّانا، تحت الإشراف السوري. سقط قتيلان و20 جريحاً.

ب– الهدف هو الإبقاء على توتر يحول دون وضع اللمسات الخيرة على اتفاق مع الدروز نقوم بإعداده مع داغان.

ج– نعتبر هذا التطور خطيراً جداً. لدينا وعد منكم بأنّ قواتكم سوف تردّ على مصادر النيران، في حال قصف بيروت الشرقية من مناطق تحت الإشراف السوري. لقد تعرّضنا للقصف على مرحلتين اثنتين، والجيش الإسرائيلي لم يتدخل.

د– مع أطيب التحيات.

فردّ شارون شارحاً سلبية جنوده:

---

(1) راجمة صواريخ متعددة ذات 40 سبطانة، مرفوعة على ناقلة من صنع سوفيتي.

(2) من فادي أفرام إلى شارون.

– كانت عمليات القصف تلك مسألة داخلية لبنانية.

أتاحت تلك السلبية، قيام الدروز، بعد ذلك بساعات، باستغلال المطر والضباب للاستيلاء على مواقع القوات اللبنانية التي تؤمن الحماية للحي المسيحي في عاليه. وقد حالت قوات الجنرال أمنون ليبكنز[1]، المنتشرة في القطاع، دون قيام الميليشيات المسيحية بإرسال قوات دعم إلى هنالك. وحين استطاع هؤلاء أخيراً القيام بهجوم معاكس، انسحب الدروز، لكن بعد أن فخخوا المكان بالمتفجرات. فوقع عشرون قتيلاً في صفوف المسيحيين. كانت الضربة عنيفة جداً نفسياً ومعنوياً، لا سيّما وأنّ شارون كان في اليوم التالي قاطعاً أكثر في كلامه:

– لا يسع إسرائيل الاستمرار في ضمان الأمن في الشوف ما لم تحصل بالمقابل على تنازلات وعلى شيء من المرونة على مائدة المفاوضات.

لم تستطع القوات اللبنانية، وقد أصدرت أمر استنفار فورياً، للقيام بالهجوم المعاكس على عاليه، من أن تجمع سوى حفنة من المقاتلين. فما من أحد بات راغباً في الصعود إلى الجبهة، وحين يرضى «الشباب» بحمل السلاح فذلك فقط لمدة 48 أو 72 ساعة. أمّا وقد ضللهم التلاعب الإسرائيلي، فقد فضّلوا استئناف دروسهم أو البحث لأنفسهم عن عمل. فلم تؤدّ ضربة الدروز وخصوصاً «السلبية المتعمّدة» لجنود تل أبيب إلّا زيادة الأوضاع خطورة.

أما بشأن المفاوضات، فقد أدلى ديفيد كيمحي بتصريحات تتعارض تعارضاً كليّاً مع تصريحات وزير الدفاع. وقد توجه رئيس الوفد الإسرائيلي مباشرة إلى الكرنتينا لدى انتهاء جلسة من المباحثات في خلدة، إلى الجنوب من بيروت، ليتناول فنجاناً من الشاي في مكتب فادي أفرام. فباح له بأنّ المحادثات أحرزت تقدماً جيداً. ولم يبق سوى تسوية المسائل – الشائكة – بشأن جنوب لبنان ودور قوات الطوارئ الدولية (اليونيفل)[2]. لم يكن الإسرائيليون راغبين بوجود القبعات الزرقاء حول المخيمات الفلسطينية في صور وصيدا. وأكّد كيمحي قائلاً: **إنّ الإرهابيين يختبئون للعمل من ورائهم.**

فأعرب فادي أفرام عن دهشته، بعد أن أصغى إليه صابراً:

– هنالك شيء لا أفهمه. فأنت وشامير تؤكدان أنّ المفاوضات تسير على خير ما يرام. أما شارون والموساد ورفول، فيقولون لنا، من جانبهم إنّها لا تتقدم بل إنّها كارثيّة.

فباح له كيمحي وهو يبتسم:

– عليك أن تدرك أنّا، نحن أيضاً، نخوض حرباً بين اليهود. ونحن أيضاً لدينا مثلكم مشاكل

---

(1) قائد وحدة مدرّعة منتشرة شمالي الشوف وسوف يعين قائداً للمنطقة الشمالية من إسرائيل في 15 آذار/مارس 1983، وقائد الأركان العامة في الجيش الإسرائيلي في كانون الثاني 1995 باسم> < أمنون شاحاك.

(2) قوة فصل تابعة للأمم المتحدة في لبنان، نشرت بين المقاتلين الفلسطينيين وإسرائيل بعد أحداث 1974.

داخلية. فنعتبر أنّ إذاعة شارون لوثيقة 14 كانون الأول/ ديسمبر[1] كانت خطأً فادحاً. وأنّ تأكيدات شارون حول المفاوضات لا يشاركه فيها بيغن. ناهيك بأنّ هذا الأخير لم يتخذ موقفاً حتى الآن. فصمته يعني أنّه راضٍ عن المحادثات ومقتنع بأنّها ستقود إلى اتفاق.

– هنالك أزمة ثقة بين المسيحيين والإسرائيليين. وأنا الآن في معرض فقدان مصداقيتي كلها حين أدافع عنكم. إنّ المسيحيين يردّدون قولي سائلين لِمَ يسمحون بنشوب الحرب في الجبل؟.

فوعد كيمحي قائلاً:

– إنّ الأمر خطير! وسوف أوصي بإصدار تصريح حول هذه النقطة.

– التصاريح لا تكفي. نحن بحاجة لشيء ملموس على الأرض. فهل أنت واثق من أنّ تحالفنا لا يزال صامداً؟

– أجل، وأنا لم أكن مطلعاً على ما أوضحت لي. سوف أعمل على إرساله. لا يسعني أن أفعل شيئاً على الصعيد العسكري، لكن سأعمل على إرساله.

أغرق نشر تقرير لجنة كاهان، في 8 شباط/ فبراير 1983، إسرائيل في أزمة لا سابقة لها. فقد كتب القضاة قائلين: **لقد ثبت لدينا أنّ وزير الدفاع يتحمّل مسؤولية شخصية، وأنّ من الملائم أن يستخلص بنفسه النتائج منها. أما بشأن رفائيل إيتان فجاء إنّه مسؤول بتقاعسه عن أداء الواجب وبما أنّه سينتهي من مهمته في نيسان/ أبريل 1983، ومع الأخذ بعين الاعتبار أنّ احتمال تمديد تلك المهمة ليس وارداً، فلا مجال للتوصية بأي شيء كان يتعلق بتمديد مهامه. ولمّا كان مألوفاً في إسرائيل، الاحتفاظ برؤساء الأركان في وظائفهم إلى ما بعد التاريخ المحدد، فإنّ تلك التوصية عقوبة حقيقة. أما يوشع ساغي المتهم بالتخلف عن مقتضيات واجبات وظيفته فقد دعا القضاة إلى إعفائه من منصبه رئيساً للاستخبارات العسكرية.** بل إنّ قائد الميدان، الجنرال عاموس يارون، لم يجر توفيره: **نوصي بألا توكل إليه أية قيادة طوال ثلاثة أعوام.**

تفجّر شعور بالمرارة القوية ضمن محيط يوشع ساغي وأجهزته. كان جهاز آمان قد تلقى رشقة من الضربات المتواترة لدى نشر تقرير أغرانات حول مظاهر الإهمال في حرب تشرين 1973[2]. أما تقرير كاهان فأشار إلى عدم الكفاءة المدهشة بالإدارة العسكرية الإسرائيلية.

تولّت الصحيفة اليومية باللغة الإنكليزية جيروزاليم بوست الدفاع عن آمان: **كان رأي رئيس الاستخبارات العسكرية موضع تجاهل دائم ضمن ميدان التعاون بين القوات الإسرائيلية والفصائل اللبنانية، ولم يعد يرى بتأثير هذا الواقع من ضرورة للتعبير عن آرائه [. . .] لقد أصيب الجيش**

---

(1) العودة للفصل السادس من هذا الجزء.

(2) أوصى تقرير أغرانات بإقالة زعيم جهاز آمان آنذاك الجنرال إيلي زايرا.

برضوض لكن عليه أن يتجاوز ردود فعله حيال الظلم الذي لحق بضباط هم موضع إعجاب واحترام. . .

ومنذ ذلك الحين جرى، ضمن الأوساط العسكرية، تقييم «الفصائل المسلحة الكتائبية» بعصابات من القتلة بلا دين ولا إيمان. كانت المعارضة المتكتمة ضد المسيحيين منذ صبرا وشاتيلا قد أصبحت مكشوفة أكثر. وقد بلغت ذروتها في الصيف التالي.

بعد بضع ساعات على نشر ذلك التقرير، صرّح الناطق باسم البيت الأبيض في واشنطن قائلاً أمام الصحفيين:

– لست أرى من سبب يدعو إلى تأخير المفاوضات حول الانسحاب الإسرائيلي من لبنان بتأثير الوضع الداخلي الإسرائيلي.

وزاد رونالد ريغان في عمق الطعنة حين أضاف: إنّ دوام بقاء القوات الإسرائيلية في لبنان يضعها الآن تقنياً في وضع جيش احتلال. ولم تشأ الولايات المتحدة أن تدع أمام بيغن أيّة فرصة لالتقاط الأنفاس حول هذا الملف.

لم تدم الجولة الثالثة عشرة من المحادثات الثلاثية التي جرت في ذلك اليوم في بيتش أوتيل في خلدة سوى 75 دقيقة ولم يصدر عنها أي بيان. وتلقى ديڤيد كيمحي أثناء الجلسة أمراً بالرجوع إلى تل أبيب للتشاور.

ظلّ الوضع السياسي في إسرائيل، طوال 48 ساعة، من أكثر الأوضاع تشوّشاً، فطالبت المعارضة، بضجّة وإلحاح، أكثر الأوضاع تشتتاً.

تطبيق استنتاجات التقرير. على أقل تقدير. ولم يشأ مناحيم بيغن سماع كلام عنها. لأنّ أخذها في عين الاعتبار إنّما يعني بالنسبة إليه تجريم الدولة العبريّة.

.وقد أوضح مناحيم نافوت الأمر لبيار الجميّل في 10 شباط/ فبراير قائلاً:

– إنّ تقرير كاهان يخلق ارتباكاً سياسياً كبيراً.

جاء الرجل الثاني في الموساد إلى بيروت «ليعاود الكلام» مع الرئيس الأعلى حول مسألة بيروت الكبرى. وقد نصحه قائلاً:

– ينبغي الحفاظ على القوات اللبنانية بوصفها كياناً عسكرياً وسياسياً. نحن نعتبر أنّها ضمانة لنا ولأمننا. ولن يكون للاتفاق بين لبنان وإسرائيل من قيمة دون القوات اللبنانية والمسيحيين.

فأجاب الأب الأكبر للكتائب قائلاً:

– سوف أطمئنك، فما من أحد سيمسّها بسوء. إنّ ابني أمين لا يريد إعلان الحرب على أحد، خصوصاً عليكم أنتم. فهو أولاً لا يستطيع ذلك، وثانياً لا يريد ذلك، كما أنّ هذا ليس في مصلحته.

جرى في اليوم ذاته، وبعد 4 اجتماعات فوق العادة لمجلس الوزراء مثلت ما مجموعه 12

ساعة من المناقشات المريرة، إقرار إعلانات لجنة كاهان بنسبة 16 صوتاً ضد 1 (هو صوت شارون) . ولقد ظلّ وزير الدفاع يواصل الإعلان عن عزمه على عدم ترك الحكومة إلّا بشرط أن يطلب منه بيغن ذلك صراحةً.

في اليوم التالي وأثناء الجولة الـ14 من المحادثات في كريات شمونة، جرى التطرّق للمرة الأولى من قبل أنطوان فتّال، لبرنامج الانسحابات المقبلة استناداً إلى خرائط قدمها الجنرال كولينز من الوفد الأميركي. لقد زادت الولايات المتحدة من ضغطها.

بعد ذلك بيومين جاء رفائيل إيتان إلى لبنان. وقد استقبل على العشاء كلاً من فادي أفرام وفؤاد أبو ناضر وإيلي حبيقة وأنطوان بريدي ونازار ناجاريان في دارة الموساد في طبرجا. كان لدى الإسرائيليين انطباع بأنّ أمين الجميّل انتزع تنازلات من الميليشيا في مسألة انتشار الجيش في بيروت الشرقية. وقد صرح لهم قائلاً:

- نحن قلقون. أبقوا عيونكم مفتوحة. إن كان هنالك من اتفاقية بين إسرائيل ولبنان وقمنا بالانسحاب، فلن يسعكم التصرف من بعد كما في السابق. نحن نعرفكم منذ زمن طويل ونستطيع التحدث إليكم بصراحة. هل هنالك ضغوط داخل «العائلة» لإرغامكم على القيام بما لاتريدون فعله؟

فردّ فادي أفرام دون التوقف عند التلميح إلى صلة النسب التي تربطه، وكذلك أبو ناضر، بالرئيس. قائلاً:

- هنالك ضغوط من الأطراف كافة، فإذا ما مسّت قدرتنا الدفاعية فسوف نقاتل.

كان من شأن عناية رفّول وإلحاحه في الدفاع عن مواقف «القوات» السياسية أن هدّأت بعض الشيء من روع فادي أفرام وفريقه. لكن هؤلاء كانوا لا يزالون يجهلون أنّ الياكال سبق أن اتخذ القرار بترك المسيحيين وشأنهم لمصلحة الشيعة والدروز في سبيل «تهدئة» جنوب لبنان. وقد أسرّ مناحيم ناڤوت قائلاً فيما بعد[1]لم تكن المسألة مسألة عواطف أو سياسة عليا بل مسألة جدوى. ولم يتبادر لثانية واحدة إلى ذهن المسؤولين في القوات اللبنانية أنّ الجيش الإسرائيلي كان بحاجة إليهم خصوصاً ليضمن - لبعض الوقت أيضاً - مسارات على الطرق حول بيروت مأمونة أكثر «سياسياً» وعسكرياً، وفضلاً عن ذلك كان وجودهم في الشوف يمثل قبل كل شيء «زرّاً» يضغط عليه الإسرائيليون ليمارسوا ضغوطاً على أمين الجميّل - وذلك على الأقل ما كانوا يعتقدون. ما من أحد من القادة المسيحيين الجالسين حول طاولة المفاوضات في ذلك المساء قد راودته أدنى فكرة في أنهم قد يكونون ألاعيب في أيدي «خمسة أو ستة من المسؤولين» الإسرائيليين الذين تحدّث عنهم العقيد إيلي غيڤا بعد صبرا وشاتيلا.

(1) من مندي لآلان مينارغ، كانون الأول 1993.

كان مناحيم بيغن قاطعاً «على طريقة سليمان» من أجل حل الأزمة السياسية في إسرائيل. فاضطر بحزن عميق لأن يرضخ لإيعازات اللجنة والوزارة. واضطر شارون لترك وزارة الدفاع، لكنّه ظل في الحكومة وزيراً بلا حقيبة، كما بقي في اللجنة الوزارية (المكلفة بتغطية المفاوضات) وفي لجنة 13 (لجنة الدفاع). وكان حسب رأي بيغن ليس وارداً الاستغناء، في المسألة الأمنية، عن التجربة العميقة لوزير الدفاع السابق. وبالمقابل، فإنّ أرييل شارون لم يعد يحالفه أي نجاح كما في الماضي بشأن الملاحظات والتقييمات والاستعلامات لجهازي آمان والموساد، مما أدى إلى تهميشه، شيئاً فشيئاً، حيال الملف اللبناني.

تلا رحيلَ شارون عن وزارة الدفاع توقيعُ وقف إطلاق نار بين القوات اللبنانية والدروز. وتوضح الوثيقة، المؤلفة من 20 نقطة، أنّ دولة إسرائيل أحد الأطراف المعنيّة بالاتفاقية ومسؤولة بالتالي عن تطبيقها. فكان على القوات الإسرائيلية أن تعاقب بقسوة كل مخالف. لكنها ظلت على كل حال حَكماً للردود المناسبة وفقاً للظروف. وقد أوضح فادي أفرام في مؤتمر صحفي أنّ تلك الاتفاقية تختلف عن الاتفاقيات الأخرى كلها من حيث أنّ الإسرائيليين معنيون مباشرةً وأنهم وقعوها معنا. فإذا ما قام الطرف الآخر، هذه المرة، بخرق الاتفاقية فسوف يلقى جزاءه على يد الإسرائيليين.

قامت القوات اللبنانية وفقاً للمخططات التي سُلّمت للجنرال إبرهيم طنّوس، بسحب عدد من الوحدات «سحباً علنياً» من بيروت الشرقية في 14 شباط/ فبراير 1983.

كان المقر العام للقوات اللبنانية في الكرنتينا يؤوي سرية حماية وفريق مغاوير. وتشاء المفارقة، في الليلة السابقة، أن يبدأ «الانسحاب» بوصول وحدة ميكانيكية، متمركزة في أدونيس سرّاً إلى المقرّ العام. ومع شروق الشمس، شهدت الصحافة، التي جرى استدعاؤها أصولاً، مجهّزة بالكاميرات وآلات التصوير وهي تقف أمام البوابة الكبرى، «الرحيل» المتدرّج لهؤلاء العناصر من الميليشيا مع عتادهم. لقد سلكوا، على شكل أرتال، الأوتوستراد نحو الشمال. حين أصبحت القوافل، بعد 4 كيلومترات على سوية نهر الموت، غادرت الطريق الرئيسي «تفادياً للتسبب باختناقات»، لتسلك طريقاً عسكرياً أكثر تكتماً لا يستطيع أن يسلكه أي صحفي. وواقع الحال أنها ما إن أضحت خارج حقل الرؤية، حتى رجعت نحو الكرنتينا بمحاذاة البحر ودخلت إلى المقر العام الكبير من الخلف لتخرج منه مجدداً من الباب الكبير أمام عدسات الكاميرا. لقد قامت، على هذا النحو، بثلاث دورات صغيرة، وأضحى الجميع مقتنعاً بأنّ القوات اللبنانية قد أنقصت أعدادها إلى حد كبير.

صدر في المساء ذاته، وفي حدود العاشرة ليلاً، المرسوم الاشتراعي رقم 10 الذي سمّي «مهمات فوق العادة موكلة للجيش اللبناني» يحمل توقيع أمين الجميّل، وجرى إلصاقه على مدخل رئاسة الجمهورية. وعلى ذلك أصبح موضع تنفيذ على الفور بموجب تقليد إداري يعود تاريخه للباب العالي، وقد أهمل تطبيقه منذ أكثر من 70 عاماً ليوضع موضع التنفيذ مجدداً بداعي المناسبة.

لقد استخدم أمين الجميّل كامل الصلاحيات التي منحه إياها البرلمان، لـ 6 أشهر، في جلسته بتاريخ 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982، فأوكل لجيشه المهمات الأمنية كافة من غير أن يعلن حالة الطوارئ. لقد مُنِح الجنرال إبرهيم طنّوس صلاحيات واسعة جداً. فوضِعت تحت إمرته الأجهزة العسكرية للدولة كافة، مع الدرك، والشرطة، وحتى الدفاع المدني. فأصبحت قواته مخوّلةً بالتفتيش، وإلقاء القبض، والتوقيف، ومراقبة الموانئ والمنافذ الحدودية، واستدعاء المخالفين كافة للمثول أمام المحاكم العسكرية.

وفي حدود الساعة الواحدة من صبيحة اليوم التالي في 15 شباط/ فبراير، أنزلت ناقلات عسكرية عشرات الجنود بلباس الميدان عند بعض المفارق. وفي غضون ساعات، اتخذ ما يقرب من 3800 رجل مواقع من الأشرفية إلى الدورة، ونهر الموت والحازمية. ورُفعت لافتات تذكّر الميليشيات بحظر التنقل مع حمل السلاح. وفي حدود الساعة الواحدة بعد الظهر، كان 6000 عسكري منتشرين في بيروت الكبرى. وظهر أمين الجميّل بلباس عسكري، ضارب للخضرة، ليقوم شخصياً بمراقبة العملية، يصحبه القائد العام للجيش. وبعد ذلك بأربعة أيام، كانت دوريات مشتركة مؤلفة من القوات المتعددة الجنسيات والجيش اللبناني تتجول في الشوارع ببطء.

إلاّ أنّ القوات اللبنانية لم تغادر منطقتها على الرغم من كل شيء. فسيارات الجيب أعيد طلاؤها بلون مدني. وحلّت كمية ضخمة من المعاطف والسترات الرمادية التي اكتشفت في داخل مخزن أحد تجار الجملة، محل الثياب العسكرية. وجرى إخفاء الأسلحة تحت لوحات المتن في السيارات. أما المسار «المخصص» فلم يكن يستخدم إلّا ليلاً. لقد كانت «القوات» هنالك على الدوام، لكن أمين الجميّل حقق تقدماً هاماً بفرض نفسه على الميليشيا المسيحية فرضاً علنياً وصارخاً. تلك كانت المرة الأولى التي تأخذ فيها الدولة على عاتقها إجراءات قسرية وتقبل بها.

9

تبديل الشريك

ناء صدر الشرق الأوسط بكتلة من الهواء البارد بدءاً من منتصف شباط/ فبراير 1983. وقَطَعت الطرقَ الجبلية رياحٌ عنيفة تجاوزت سرعتها مئة كم في الساعة رافقها برَد وثلوج بدءاً من ارتفاع 800 م. في حين غمرت السهول الساحلية أمطار غزيرة وسيول. فغرقت في ميناء صيدا باخرة محمّلة بالإسمنت اسمها «غولد فيش وَنّ»، ترفع العلم اليوناني، أما في عرض البحر المواجه لبيروت، فجرى في اللحظة الأخيرة إنقاذ طاقم سفينتين تجاريتين بتدخّل حوّامات من الأسطول الأميركي السادس.

سُمِح للجنرال داغان بإجراء اتصالات مع الفصائل الكتائبية ليتحدّث إليهم عن «الملف الشيعي». دخل رئيس ياكال[1] إلى مكتب فادي أفرام، في الطابق الأول من القيادة العامة في الكرنتينا، في الحادية عشرة والنصف من 17 شباط/ فبراير. فخلع داغان معطفه الواقي وكان يقطر ماء. أضيئت المصابيح في الحجرة لتطرد الظلمة التي تسببت بها غيوم سوداء تكاد تلامس السطوح. فيما تُوالي حبات كبيرة من البرَد النقر على زجاج النوافذ. اتخذ الإسرائيليون مكاناً لهم على جانب من الطاولة بمواجهة زعماء «القوات»[2]. فأحاطهم داغان علماً بعزمه على مضاعفة الاتصالات مع الشيعة في جنوب لبنان. فأبدى فريق أفرام دهشته من تسلل الأصوليين الإسلاميين إلى تلك الطائفة.

فأوضح الإسرائيلي قائلاً:

– نحن متفقون جميعاً على القول إنّ الخمينيين أعداءٌ لنا. وإنّ حسين الموسوي وأمثاله هم الألدّ. فينبغي على كل حال اتخاذ إجراءات ضدّهم. لكنّ الحال ليست كذلك مع حركة أمل. فليس

---

(1) كان يصحب داغان بالإضافة إلى معاونه إيريتس شايكي، كل من: المسؤول عن القطاع الجنوبي وروفن مرحاف المسمّى روبرت وهو عنصر قديم في الموساد، وأمنون ممثل الموساد المقيم في طبرجا وهو رجل التقارير لكافة اجتماعات القوات اللبنانية مع الإسرائيليين.

(2) فادي أفرام، إيلي حبيقة (HK) ألفريد ماضي، نازار ناجاريان (نازو)، أنطوان نجم، إيلي وزان (عبّاس) ووليد فارس (وودي).

زعماؤها في الجنوب على اتفاق مع قيادتهم في بيروت. فقد بلغ علمنا أنّهم يرون من الضرورة اتخاذ موقف إيجابي أكثر حيال إسرائيل. صحيح أنّه قد لا يحالفنا الحظ في شراء نبيه برّي، لكنّ ممثليه في الجنوب لا بأس بهم، وهم يرون الأشياء على غير ما يراها. لقد ذهب مسؤول أمل في قرية الغازيّة، محمد غدّار وشقيقه إلى الولايات المتحدة. وأدليا هنالك بتصريحات في مصلحتنا. إنّهما يحتلان مواقع قيادية هامة داخل الحركة فيمكن أن يكون لذلك نفعه الكبير. أما من ناحيتنا، فلا ريب في أنّ علينا أن نناور حتى نضع الشيعة في الجنوب تحت إشراف المسيحيين.

كانت القوات اللبنانية ترتاب في الشيعة من حركة أمل. وكانوا يفضّلون التعامل مع الزعماء التقليديين في الطائفة. فقد برهن هؤلاء على تعاطفهم بدعمهم الفعّال لبشير. فاقترح إيلي حبيقة الاعتماد عليهم. وقال:

- فلننشئ قوّة عسكرية تضمّ إسرائيل والقوات اللبنانية وسعد حدّاد وكامل الأسعد. إنّ كامل الأسعد يفضل التعاون معنا تعاوناً مباشراً في الجنوب على التعاون معكم ليتفادى وقوع مشاكل مع بيروت. أمّا على الأرض فسوف يعمل معكم مباشرةً.

فقبل داغان وقال:

- نحن موافقون على المبدأ. لكن علينا أن نقابله. وما جرى بشأن تحالف قواتكم مع قوة سعد حدّاد؟

فردّ فادي أفرام بتهرّب:

- فلنحدد موعداً في الأسبوع القادم لدراسة هذا الملف.

كان الإسرائيليون قد اقترحوا مرات عديدة القيام بصهر جيش لبنان الجنوبي والقوات اللبنانية في قوة واحدة تحت قيادة سعد حدّاد. وقد عارضها أفرام معارضةً تامّة، لكنه تصرّف على نحو يحول دون أن يعرف داغان، وذلك بالامتناع عن الردّ بنعم أو لا. كان أحد أعضاء الوفد اللبناني إلى المفاوضات الثلاثية قد اجتذب انتباهه النتائج الناجمة عن مثل ذلك التحالف، وانعكاسها على شرعنة القوات اللبنانية، التي كان فادي أفرام حريصاً عليها دون ما عداها. وقد وعد قائد القوات اللبنانية بمناقشة الأمر مرّة أخرى مع أمين الجميّل.

كانت عاصفة الثلج والبرد غير مسبوقة في ذاكرة الناس. وقد فتح فادي أفرام على الصفحة الأولى من صحيفة لوريان لوجور، في 19 شباط/ فبراير 1983، وهو متوجّه مع الوفد إلى منزل الرئيس اللبناني، ليطالعه خبر المسافرين الذين ماتوا برداً: 14 شخصاً في ظهر البيدر، و12 شخصاً في البقاع.

بدأ أمين الجميّل بتوجيه الشكر إلى قادة[1] الميليشيا، مؤكداً بثبات وقائلاً: على الانضباط

(1) فادي أفرام، ألفريد ماضي، أنطوان بريدي (توتو)، إيلي حبيقة (HK) وإيلي وزان (عباس).

الذي برهنتم عليه لدى انتشار الجيش في بيروت الشرقية. فالمراقبون الدوليون كافة أعربوا عن رضاهم بشأن ذلك الموضوع.

ثم واصل أمين كلامه قائلاً:

- أنا مقتنع بأنّ صفحة جديدةً في علاقاتنا قد فتحت. ويلزمنا تحديد الأهداف للمستقبل. أما في واقع الأمر فليس هنالك سوى هدفٍ واحد: الشعب المسيحي وأمنه، ولدينا ثلاثة محاور لبلوغه. الأول هو الدولة عبر التعيينات التي جرت أو التي ستجري. والثاني، طبعاً، هو القوات اللبنانية التي ينبغي أن تظلّ مثلما هي، والتي ينبغي تدعيمها لحين خروج الأجانب كافة من لبنان. والهدف الثالث أخيراً هو حزب الكتائب. إنّه حالياً في وضع بائس، فهنالك تباعدٌ ما بين القوات اللبنانية والكتائب. وجاءتني معلومات ترمي للبرهان على أنكم نأيتم عنها.

فعارضة أفرام قائلاً:

- ليس ذلك صحيحاً. لكنّ قيادة الحزب متصلبة، فلم يعد مقبولاً أن يقتضي تغييرُ مسؤول فيها انتظار موته.

فاعترف أمين الجميّل بذلك على الفور مثيراً ذهول محدّثه، الذي توقع أن يراه يدافع عن الحزب، إذ قال:

- أنتم على حق. إذ ينبغي للأمين العام أن يكون ديناميكياً أكثر.

- نحن لا نتمنى سوى ذلك في سبيل أن نقوى على العمل معاً. آمل أن نكون قلبنا الصفحة حقّاً، وألاّ تظلّ هنالك من مشكلات.

فطمأنه أمين قائلاً:

- يمكنكم الاعتماد عليّ... وينبغي العمل على ذلك بتكتم وسريّة كما فعل العلويون، حتى نستطيع القيام بالتعيينات التي ستسمح لنا بالإمساك بالدولة من الداخل. أما بشأن الحزب فسوف نلجأ إلى القيام بثورة. الحزب أساسي. ولسوف يكون قاعدتنا الرئيسة للمستقبل.

تصلّب الإسرائيليون في مواقفهم أثناء المفاوضات الثلاثية. فكانت الجلسة الخامسة عشرة من المناقشات، في 15 شباط/ فبراير، حواراً أحادي الجانب، بشكل خاص، من قبل ديڤيد كيمحي الذي طالب بوضع خمس «محطات إنذار» على الأرض اللبنانية، قوامها 150 رجلاً. وينبغي أن تكون مخصصة للكشف عن كل حركة معادية للدولة العبريّة[1]. فأصغى أنطوان فتّال بأناة، ثم رفض ما تمّ طرحه في هذا الخصوص. وكان هو من تكلم في اليوم التالي، بلهجة هادئة، فوضع النقاط على الحروف.

---

(1) كان الإسرائيليون يريدون وضعها في كفرمشكي وصور وصيدا والنبطية وجزين. وإن جدوى مثل تلك المحطات لم يجر إثباتها عسكرياً قط، نظراً لوسائل المراقبة الجوية والصور الفضائية. لكن هذه المحطات شكّلت دوماً بالنسبة إلى المفاوضين الإسرائيليين نقاط ارتكاز للحصول على شيء آخر.

– هنالك موضوعان اثنان، لا يمكن قيام أي تفاهم بشأنهما: مسألة نقاط المراقبة الإسرائيلية في لبنان، ووجود قوات الطوارئ الدولية والقوة متعددة الجنسيات في بيروت، أو جنوب لبنان أو أية نقطة أخرى من الأرض اللبنانية.

هنالك ثلاثة من رجال القانون[1] يحضرون للمرة الأولى المباحثات في جولتها السادسة عشرة ليضعوا كتابةً، وبالصيغة المناسبة، مسوّدة اتفاقيّة محتملة. وللمرة الأولى أيضاً أثارت تلك المفاوضات ردود فعل معادية في لبنان وفي العالم العربي. فقد أعلن وليد جنبلاط أنّه ضد عقد اتفاقيات جديدة مع إسرائيل، وأنّ على لبنان التمسك باتفاقية الهدنة لعام 1949 التي سوف تجدّد من قبل مجلس الأمن. وطالب تجمّع العلماء بالإجماع بالوقف الفوري للمفاوضات اللبنانية الإسرائيلية. وضاعفت العربية السعودية من المضايقات الإدارية على المسيحيين اللبنانيين الذين يطلبون تأشيرات دخول إلى المملكة الوهابية. كذلك أغلقت الرياض حدودها أمام بعض السلع القادمة من لبنان لتحول دون تسلل منتجات إسرائيلية[2] إلى سوقها. فقد اتخذ هذا القرار من قبل لجنة خاصة من وزارة المالية السعودية على أثر مقالات في الصحافة الكويتية حول اكتشاف فواكه ومنتجات مصنعة في إسرائيل، في أسواق الخليج. فجرت إعادة المنتجات المشتبه بأمرها، أما التي ثبت مصدرها الإسرائيلي فقد صودرت وعوقب مشتروها. وكان رد الكويتيين عنيفاً جداً حيال تلك الاكتشافات، فبعثوا إلى الكتائب برسالة شفوية ذات مغزى: أنتم تخدعوننا، فها قد انقضت ثماني سنوات وحزب الكتائب وبيار الجميّل يخدعاننا. لقد اعتقدنا أنّ علاقاتكم بإسرائيل نتيجةُ ظروف عابرة. لكن ظهر لنا أنها بالنسبة إليكم مسألة استراتيجيه لا تكتيكية. إذ لن يبقى أي مسيحي في العالم العربي من الآن وحتى أعوام، بل لن يبقى في لبنان من مسيحيين. أنتم فقدتم العرب وأنتم مكروهون. إنكم تراهنون على إسرائيل. ومثلما قلبنا سوريا ضدكم، سوف نقلب إسرائيل ضدكم. ولسوف يدرك الإسرائيلي أنّ «الجسر» هو السني لا المسيحي. نحن لن نتخذ إجراءات فورية ضدكم، لكننا نعرف إلى أين أنتم ماضون. ونحن على علم باجتماع الشيخ بيار مع شارون.

أمّا المفارقة، فبقاء الرئاسة اللبنانية متفائلة، بل التصريح بحصول خطوات متقدمة كبرى في المباحثات الثلاثية. وكان وديع حدّاد، رئيس مجلس الأمن القومي، يؤكد أنّ كل شيء على ما يرام. بل يبوح لمن يرغب في الإصغاء إليه بأنّ السوريين قد قبلوا، نتيجة ضغوط سعودية، بتوقيع وثيقة يتعهدون فيها بالانسحاب مقابل معونة بالدولارات. ويضيف بما يشبه الاغتباطبل إنّ دمشق قبلت بانسحاب متزامن مع الإسرائيليين.

---

(1) نبيل معماري (لبنان)، باول هاير (الولايات المتحدة)، إيلياكيم روبنشتاين (إسرائيل).

(2) فروج، بيض، صيصان، آلات حاسبة، آلات تصوير، أحذية، ألبسة، مجوهرات، وبسكويت.

ولئن كانت تلك هي النيّة السورية التي جرى التعبير عنها، فإنّ نصوصاً مكتوبة بهذه الصيغة لم تُوَقّع قط، بل الصحيح خلاف ذلك.

انتقل المفاوضون، وقد غيّروا موضوع مناقشاتهم، إلى شروط الأمن في جنوب لبنان. اقترح الإسرائيليون إقامة ثلاث مناطق عسكرية موازية للحدود الشمالية. تستند المنطقة الأولى إلى الخط الفاصل بين البلدين، وتكون ذات تنظيم دقيق، بعمق 18 كم، يتولّى مسؤليتها حاكم عسكري هو غير سعد حدّاد على الأرجح، لكن على رأس قوات تابعة لهذا الأخير. أما المنطقتان الأخريان، واللتان تضم حدودهما الشمالية منطقتي الدامور وجزين، فتخضعان لنظام أكثر ليونة.

كان على المخيمات الفلسطينية في جنوب لبنان أن تنتقل إلى البقاع. أما المنطقة الأمنيّة الأقرب إلى إسرائيل فينبغي أن تكون محظورة عليهم تماماً. لقد رفض أمين الجميّل، نزولاً عند نصائح غسان التويني وبإلحاح منه، ترحيل الفلسطينيين. فينبغي على قوات الطوارئ الدولية (اليونيفيل) أن تتولى وحدها مهمّة حماية أولئك الناس.

عاد الرئيس اللبناني، وهو يستقبل وفداً من القوات اللبنانية في 22 شباط/ فبراير 1983، ليكرّر القول: **كل شيء في المفاوضات على خير ما يرام**، وأضاف قائلاً: **نحن نتوجّه صوب الحل. فالأزمة اللبنانية انتهت. والولايات المتحدة تواصل دعمنا**، من غير أن يثير أدنى ردّة فعل لدى محاوريه. لقد جاؤوا للتحدّث إليه بشأن الجنوب وبتمويل التعويض عن مصادرهم المالية من المرفأ، وهم يريدون الحصول على جواب. فأكّد لهم قائلاً:

– قيل لي عن مشروع تحالف بين قسم من جنودكم وقوات سعد حدّاد، إنّ ذلك لخطير جداً. فالإسرائيليون يريدون إعادة تعويمه لاستخدامه ورقة ضغط. ليس من ضرورة تدعو للرضوخ على ذلك النحو، لا سيّما وأنّ الدولة سوف تدخل إلى الجنوب في غضون شهرين[1]. قوموا بوضع سيناريو، وتظاهروا بالسير أكوإقامة التنسيق الذي يطلبون منكم، وحافظوا في هذا الوقت على بنيتكم التحتيّة في تلك المنطقة.

ثم استدار الرئيس نحو إيلي حبيقة، الذي رافق فادي أفرام، ليضيف قائلاً:

– عليك أن توقف نشاطاتك في الجنوب. إنّها تثير صرخة استنكار عامّة لدى العرب.

كان جهاز الأمن الذي يديره إيلي حبيقة قد باشر عدداً من «الأعمال» ضد الفلسطينيين وحلفائهم. ولم يتزحزح حبيقة مخلّفاً «فراغاً» في المناقشة.

سبق لقائد «القوات» أن طلب مرات عديدة من إيلي حبيقة وضع حد «لانحرافات» رجاله في الجنوب. ويقطع زعيم جهاز الأمن، كل مرّة، عهداً بالتدخّل دونما زيادة. بل إنّ أفرام طالب مرّةً بأن

---

(1) لمّا تنتشر هنالك في خريف 2005، بعد مرور خمسة أعوام على الانسحاب الكلي للقوات الإسرائيلية من جنوب لبنان.

ينقل إلى بيروت أحد الرجال الأكثر «نشاطاً» واسمه يوسف حدّاد، إذ كان قد عاث فساداً في منطقة صيدا. لكنّ إيلي رفض، فأثار ذلك بروداً بين الاثنين. كان أفرام يعي أكثر فأكثر أنّ الجانب الأساسي من نشاطه الآن يتمحور على إدارة حجوم المصالح الشخصية المعارضة لأركان الميليشيا ومن بينهم: حبيقة، جعجع، ومؤيدو الكتائب، إلخ . . . وأنّه لم يعد حقّاً قائد القوات اللبنانية.

وضع أفرام نهايةً للصمت الذي ساد، سائلاً الرئيس اللبناني عمّا ينوي أن يفعل في جبل الشوف. فردّ أمين بلهجة قاطعة:

- ينبغي للجيش اللبناني أن ينتشر هناك، لكنّ الإسرائيليين لمّا يقبلوا بذلك. أنا أحاول أن أتفق مع الأميركيين بشأن هذا الموضوع. وآمل أن يتمكنوا من ممارسة الضغط على تل أبيب.

ثمّ أعلمهم الرئيس أنّه عثر على تمويل للتعويض على مداخيلهم عن طريق الحوض الخامس. واستغلّ ذلك ليطلب إليهم إغلاق مكاتبهم في الخارج لتقليل النفقات. لكنّ رفض أفرام كان قاطعاً. فتلك الممثليات تسمح لهم بمواصلة اتصالات رسمية مع الشتات اللبناني، وخصوصاً علاقات شبه رسمية مع بعض المطابخ الحكومية.

كانت المحادثات، بخلاف ما أكّد الجميّل، قد تجمّدت تماماً حول مسألة محطات الإنذار المبكر وحول حرية تنقل البضائع. وقام فيليب حبيب بجولة مكّوكية جديدة بين بيروت وتل أبيب على الرغم من الطقس الرديء.

تمّ في 23 شباط/ فبراير انتشال 60 قتيلاً من معبر ضهر البيدر. فبعد أن حوصروا بالثلج داخل سياراتهم تدفأوا بتشغيل المحرك ثم هلكوا اختناقاً بغاز العوادم. وقد كشف تقرير التحقيق أنّ الملح المخصص لإزالة الجليد عن الطرقات قد جرى بيعه بالتواطؤ مع ضباط سوريين، وأنّ عربات إزالة الثلج التابعة لوزارة الأشغال قد جرى تأجيرها من قبل الموظفين بعيداً عن مكان استخدامها بوصفها آلات للتسوية. وهنالك 135 جندياً سورياً متمركزين في جبل تلّة الطامة المشرف على اليمّونة قريباً من أرز عيناتا قد ماتوا برداً، وبعض منهم داخل دباباتهم. لم يحصل قط منذ عام 1928 أن تدنى ميزان الحرارة إلى تلك الدرجة المنخفضة. ففي الأردن وتركيا وسوريا امتد غطاء من الثلج بسمك 7 أمتار في الجبل و4 في السهل فسد الطرقات وأوقف القطارات في السهل وعزل مئات القرى عزلاً تاماً، أما الموتى فما عاد ممكناً حصر عددهم.

استقبل فادي أفرام ميثير داغان ليحيطه علماً برفضه دمج قواته في جيش لبنان الجنوبي. فهو لا يستطيع الانفصال حتى عن قسم بسيط من وحداته، بسبب الوضع العسكري، بصرف النظر عن أمنيات الرئيس اللبناني. لقد تطوّر منذ معارك عاليه واقع مفاجئ وخطير لإنهاء النفير المعنوي بين صفوف الطائفة المسيحية ولدى القوات اللبنانية. لم يحصل قط لإعادة افتتاح المدارس والمصانع، أن كان لها مثل ذلك التأثير المباشر على عدد الاحتياطيين الذين يمكن تجنيدهم. كان ذلك الواقع

مثيراً للقلق، لا سيّما وأنّ 75 بالمئة من وحدات الميليشيا تتألف من احتياطيين. فحالة التعب التي يعاني منها «الشباب» على الجبهات، الذين من الصعب الاحتفاظ بهم أو استبدال مجموعات «طازجة» بهم، تُضافُ أيضاً إلى الشعور بالإرهاق. زد أنّ أهداف التوجه للقتال أو أسبابه، لم تعد شديدة الوضوح كما كانت في عهد بشير. وأيضاً أضحت مشكلات الانضباط أكثر فأكثر عدداً.

كان نظام القوات اللبنانية لا يزال قائماً، غير أنّ الفراغ الذي خلّفه موت بشير الجميّل لمّا يجرِ ملؤه. فمنذ اعتلاء أمين الجميّل سُدّة السلطة، لم تعد الميليشيا تُعتَبَر الممثل الوحيد للمسيحيين، على الرغم من جهود فادي أفرام. فالرئيس الجميّل استأثر بهذا الدور إلى حدٍ بعيد وعقد عزم الكتائب على استرجاع المكانة التي صادرها منه بشير، وفق اعتباراته. وأمّا حزب الوطنيين الأحرار، بزعامة داني شمعون، فلم يكن بدوره بعيداً عن مثل هذا الزعم.

لقد استطاع الإسرائيليون، البراغماتيون، من غير إظهار ذلك علناً، الخروج بالعبر اللازمة، لا سيّما وأنّ «الاتصال بالشرعية السياسية» كان هدفاً هاماً في سياستهم. وواقع الحال هو نفسه مع الولايات المتحدة أو فرنسا. فدعم هذه الدول الذي جاء مع انتخاب بشير، انتقل إلى أمين انتقالاً طبيعياً جداً.

كان قادة القوات اللبنانية أبعد ما يكونون عن مشاطرة رئيس الجمهورية ورئيس حكومته تفاؤلهما العلني حول النهاية «السعيدة» للمفاوضات والانسحاب الإسرائيلي. وكان على «القوات» أن تقرّر خياراً. فالاختيار على الورق، أمره يسير نسبياً. فهي إمّا أن تبقى على حالها بتشكيل وحدة قوامها 400 إلى 500 من خيرة عناصرها، فتنضوي تحت لواء الجيش، لكن، ليأتي عليها حين تتلاشى فيه تماماً. وإمّا أن تَحُلَّ فتضع مقاليد العالم المسيحي نهائياً بين يدي أمين الجميّل. هذا، ما لم يقع اختيارها على طريق ثالث: أن تقوم بالردّ، فتفرض ذاتها على الرئاسة فرضاً عسكرياً وسياسياً.

استدعى فادي أفرام، في 26 شباط/ فبراير مسؤولي القوات اللبنانيةكافة للتداول في الأمر. أما وهم على قناعة بأنّ «السلطة الشرعية» ليست ذات مصداقية، وأنّ المسيحيين يتوقّعون أن يقوم فيهم رجل ليقول: **أنا أستلم الحكم**، فقد انحازوا إلى الحلّ الثالث فكلّفوا فادي أفرام بأن يحيط أمين الجميّل بالأمر علماً.

وصل موشيه أرينز إلى تل أبيب، في ذلك اليوم عينه 26 شباط/ فبراير، قادماً من واشنطن. كان مناحيم بيغن قد عينه قبل ذلك باثني عشر يوماً، وزيراً للدفاع بدلاً من شارون. لقد أعطي رسمياً مهلة اثني عشر يوماً ليقوم بالتزامات الوداع في العاصمة الفيدرالية، أما في واقع الأمر، فالاستخبارات وأجهزة الأمن الإسرائيلية بحاجة لأسبوعين اثنين كي تقوم بتحقيق واسع جداً يتناول إمكانياته وعلاقاته بابنه وأخيه. فالأول قد أودع السجن عام 1973 لرفضه خوض القتال ضد مصر،

أما الآخر، الذي كان يعيش في الولايات المتحدة، فمناهض للصهيونية علناً. وأعطت الأجهزة الضوء الأخضر أمام تعيينه، بعد قناعتها من «تكتّم» الطرفين.

موشيه أرينز من مواليد 1925 في كفونو[1] بليتوانيا. هاجرت أسرته إلى الولايات المتحدة بعد ذلك بأربعة عشر عاماً، عشية الحرب العالمية الثانية. انتمى إلى منظمة «بيتار»[2] الصهيونية ثم تطوّع في الجيش الأميركي عام 1944. أما بعد عودته إلى الحياة المدنية، فاستأنف دراسته الجامعية، وصار عام 1947 رئيس منظمة «بيتار» الأميركية. وفي العام التالي «صعد» أرينز إلى فلسطين لينخرط في حرب الاستقلال. ثم رجع عام 1951 إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراساته مهندساً في الملاحة الجوية. ولدى رجوعه إلى إسرائيل، انخرط بقوة في صف بيغن وانتُخب للمرة الأولى نائباً عن حزب الليكود عام 1974[3].

كان من تشدّده حول مسائل الأمن والتشبث بالأراضي، أن صوّت في 28 أيلول/ سبتمبر 1977، ضد اتفاقيات السلام مع مصر، التي جرى التفاوض بشأنها حتى النهاية في كامب ديفيد، علماً بأنّ حزبه قد تبنّاها. وأوضح موقفه آنذاك بأنّ هذه الاتفاقيات، في نظره، سوف تمضي بإسرائيل نحو القيام بتنازلات كبيرة عن الأراضي مرّات أخرى. عُيّن سفيراً في واشنطن عام 1982 يوم كانت العلاقات الإسرائيلية الأميركية في أدنى مستوياتها، وذلك راجع إلى حدّ كبير إلى الإلحاح الذي أبدته واشنطن على رؤية إسرائيل تنسحب من لبنان. وها هو يترك منصبه من غير أن يتمكّن من تحسينها.

قبل أيام من مغادرته واشنطن، أكّد وزير الخارجية جورج شولتز على أنّ التماس إسرائيل الإبقاء على قوة مسلّحة في لبنان، أمر لا يتساوق كثيراً مع فكرة السيادة اللبنانية. فردّ أرينز بجفاء قائلاً إنّ الولايات المتحدة هي الرابح الرئيس من غزو لبنان. لكنّ البعض في الإدارة الأميركية يرغب على الفور، في نيل نصيبه من الأرباح، في ما هم يقومون بإرهاقنا. فلديهم نظرة مثالية حول موضوع الحل السريع عن طريق مفاوضات أضحت معقدة بسبب عدد الأطراف المساهمة، وغياب الاتفاق بين المسؤولين اللبنانيين. أما بشأن انسحاب الجيش الإسرائيلي، فأضاف يقول: انتظرنا طوال 35 عاماً (إحلال السلام مع جيراننا العرب) ونحن مستعدون للانتظار عاماً آخر.

من نافلة القول أن يُستقبَل تعيينه في وزارة الدفاع، استقبالاً بارداً في واشنطن. وعلّق الناطق باسم وزارة الخارجية على ذلك قائلاً: كان أرينز دوماً واحداً من الصقور ونحن لا نظنّ أنّ من شأن

(1) كفونو: الاسم الروسي لمدينة كوناس، والتي تعتبر حالياً المدينة الثانية في ليتوانيا.
(2) منظمة صهيونية للشبيبة قومية متعصبة.
(3) انسحب موشيه أرينز من الحياة السياسية الإسرائيلية في 25 حزيران/ يونيو 1992 بعد الهزيمة القاسية التي مني بها حزبه قبل ذلك بيومين في الانتخابات التشريعية.

تعيينه تحسين علاقاتنا بإسرائيل. أمّا في بيروت، فأثار وصول أرينز إلى وزارة الدفاع ردّة فعل غريزية. والمدهش في الأمر أنّ الكل كان يخشى من أن يكرّس الوزير الإسرائيلي الجديد نفسه لتحسين العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة، وذلك على حساب العلاقات مع لبنان.

ما إن هبط الوزير الجديد من الطائرة في مطار اللّد، حتى قال مؤكّداً: **سوف تبقى السلطات اللبنانية عاجزة لزمن طويل عن تأمين إحلال النظام في جنوب بلادها من غير معونة إسرائيل.** ثم أضاف: إنّ العلاقات الطيّبة بين الحكومتين هي حجر الأساس لبعث الاستقرار في لبنان. وهكذا يكون قد أعطى نغمة عمله المستقبلي.

استلم أول وزير دفاع في تاريخ إسرائيل، لم تكن العسكرية مهنته في الحياة، مهمة عمله في 27 شباط/ فبراير 1983، في الحادية عشرة صباحاً. كان متجهّم القسمات، لا يعلو وجهه أثر ابتسامة، وهو يصغي لبضع كلمات من شارون، فيصافح بعض الأيدي ويأتي في خطاب موجز على ذكر زميله الأميركي غاسپار واينبرغر، مستحضراً مصالحه القديمة مع البلدان العربية. وأكّد قائلاً: **إنّ واينبرغر لا يعتقد، بخلاف هيغ، أنّ إسرائيل ورقة استراتيجية رابحة.** ثم أضاف منتقداً وزارة الخارجية الأميركية: **إنّ أكثر من عشرين موظفاً في تلك الوزارة، يسعون إلى توجيه السياسة الأميركية نحو وجهة في مصلحة العرب، إمّا لأنهم قد عملوا في البلدان العربية، أو لأنهم راغبون في تعيينهم في المنطقة.**

وقد ردّ عليه واينبرغر ردّاً غير مباشر مذكّراً بنصب الصواريخ سام 5 في سوريا **إن انسحاباً إسرائيلياً من شأنه تخفيف الضغط السوفييتي في الشرق الأوسط.** فهذا الانتشار، بالنسبة إلى وزير الدفاع الأميركي، يزيد «بالتأكيد» من خطر نشوب حرب جديدة في المنطقة. وقال مؤكّداً: **إنّ وجود الخبراء السوفييت في سوريا، يثبت أنّ هذا البلد ليس سوى مركز متقدم للإمبراطورية السوفييتية.** إنّها كلمات مبطّنة ذات خلفية للتذكير بالتزام النظام. فإسرائيل بحاجة للولايات المتحدة للتصدي للقوة السوفييتية، ولا ينبغي لها بشكل خاص أن تنسى ذلك.

كان القرار الأول للوزير الجديد أن يستبدل بيوشع ساغي، المُقال من قبل لجنة كاهان، الجنرال آري بينتوف على رأس الاستخبارات العسكرية.

كانت القوات اللبنانية في بيروت، على استعداد لإخلاء الحوض الخامس. فتوجّه فادي أفرام وأنطوان بريدي (توتو) المفتش العام للميليشيا، والمكلف أيضاً بالشؤون الخارجية، إلى منزل الرئيس الجميّل في سن الفيل، لإحاطته علماً بالأمر. وألحّ بريدي على العفو الذي ينبغي أن يفيد منه التجار الذين استخدموا ذلك الرصيف طوال أعوام ليدخلوا بضائع إلى لبنان، إدخالاً لا شرعياً، وهم يدفعون للقوات اللبنانية «ضريبةً» تعاقدية أقل بكثير من الرسوم الجمركية. فقبل أمين بكل شيء كما أعطى موافقته على منح حسم مناسب للوهلة الأولى، يشمل الحقوق المذكورة كي يسمح

للمصدرين بتخزين بضاعتهم. كما اتفقوا على طريقة المدفوعات الشهرية التي ستسددها الرئاسة مستقبلاً للميليشيا من أجل التعويض عن الخسائر المالية الناجمة عن إعادة تسليم الميناء. فبادر قائد الميليشيا إلى القول:

– إن القوات اللبنانية سوف تنصهر وفقاً للمنحى الذي تسلكه الأشياء. فليس لنا أن ننتظر تلاشيها. فلنتخذ القرار بحلّها. وتولوا أنتم مسؤوليتها كاملة.

فردّ أمين الجميّل محتجّاً:

– إن حلّها لأمر غير معقول. فهي الضمانة الوحيدة التي بحوزتنا. ولئن كنّا بحاجة طوال عشر سنين للاطمئنان إلى عدم وجود خطر، فينبغي علينا أن نحافظ عليها طوال عشر سنين. علينا أن ننشئ تكتلات قوامها 1000 أو 2000 أو 3000 رجل من المهنيين الذين نحتفظ بهم. ولسوف أتولى تمويلهم الضروري، حتى لو كان سيدوم عشرة أعوام.

فسأله أفرام، الذي أدهشه العرض على قدر ما أثار ريبته:

– هل يسعك حقاً ضمان ذلك؟

– إذا ما أنقصتم عدد الرجال وضغطتم النفقات بعد الانسحابات الإسرائيلية والسورية، أقول أجل، أستطيع القيام بذلك. وإذا ما تمّت الانسحابات وتوصل الجيش إلى الانتشار على مجموع الأرض، فسوف ندرس إمكانية الشرعنة الفورية لوحدةٍ كبيرة من لواء، في كتلة متجانسة قوامها 1200 رجل، مع ضباطهم وثكناتهم.

لم يكن أمين يقوم هنا إلّا باستئناف أحد مشاريع أخيه. بل كان لهذا اللواء أن يشكل بنظر بشير الحرس الجمهوري.

وواصل الرئيس قائلاً: سأقوم بإنشائه بمرسوم خاص وأعتقد أن بوسعي القيام بذلك من غير تمثيل المسلمين فيه. ويسع القوات اللبنانية، حتى ذلك الحين، البقاء على ما هي، أي جسماً عسكرياً يتّخذ جانبية خفيضة (low profile) إذ ليس هنالك عمليات عسكرية. فعليكم تدعيم هذا الجسم. ولسوف أعطيكم كل ما تحتاجون من تجهيزات، وعلى مجلس القيادة بالتوازي، أن يظلّ قائماً رسمياً فعليكم أن تتماسكوا.

– والحزب؟

– سوف ألتقي بالأمين العام[1]. فعلينا القيام بفرض رأينا بالقوة.

لم يقم أفرام بأي تعليق، ورجع إلى الكرنتينا. إنّ فرض الرأي بالقوة داخل حزب لأمرٌ طوباويٌّ تماماً. أما بشأن «القوات»، فسوف يتولى أمين الآن أمر تمويلها. ولم يعد مستعجِلاً تواريها

(1) جوزيف سعادة.

ما دام تولى قيادتها المباشرة. زد أنّ حلّها سيجعله مكشوفاً تماماً، وعارياً حيال «الغربية»[1]. صار هامش المناورة ضيّقاً جداً في وجه فادي أفرام ومحدوداً زمنيّاً. ونظراً للقوات الاحتياطية التي جرى تشكيلها فهو يستطيع الصمود ثمانية أشهر أخرى، بشرط ضغط النفقات وتجنّب كلّ مجابهة، أي كل استهلاك للذخائر والمال.

في الأول من آذار/ مارس قبلت القوات اللبنانية، وهي في تلك الحالة الذهنية، بالعرض الإسرائيلي لتوقيع اتفاقية أمنية درزية-مسيحية. فدعا أمنون ليبكتز، قائد قوات الجيش الإسرائيلي في عاليه، الطرفين للاجتماع حول طاولة واحدة في مقرّه العام المتقدم. وطلب إلى الحزب التقدمي الاشتراكي تسهيل رجوع المسيحيين المقيمين في الحيّ الغربي من عاليه.، فاضطر الدروز للرضوخ، على الرغم من بعض التحفّظات. جرى نقل الخبر، على الفور، على الموجات الإذاعية كافة. فقرّر مسيحي من عاليه، اسمه إيلي خوري، العودة إلى المكان على الفور ليرى حال منزله الذي هجره أثناء المعارك قبل شهر. فكان أن اختطف من قبل عناصر الحزب التقدمي الاشتراكي وهو على درب العودة. ولم تتأخّر القوات اللبنانية في الردّ. ففي الساعات التي تلت، اختُطِف، بدافع الانتقام، ثلاثة دروز عند حاجز ضهر الوحش، بينهم الشيخ محمد أبو ناصيف.

شجب الحزب التقدمي الاشتراكي تصرّف القوات اللبنانية، فأعلن حالة الطوارئ، وأحاط الإسرائيليين علماً بأنّه غير مسؤول عن الأحداث اللاحقة. فاتصل الإسرائيليون «بالقوات» على الفور لتنظيم تبادل الرهائن. فحصل ذلك في اليوم التالي بعد الظهر، فجاءت مدرّعةٌ إسرائيلية تحمل إيلي خوري المصاب بصدمة حقيقية إلى ما وراء الخطوط المسيحية. ورجعت المدرعة نحو عاليه حاملة درزيين في حالة مزرية وجثة الشيخ الذي قتل بضربة على رأسه. وما إن أدخلت الجثة إلى مشفى الإيمان في عاليه حتى انطلقت تظاهرة من مئتي شخص لتحرق دارةً في الحي المسيحي في غرب المدينة. وسعياً من قوات الأمن الداخلي (الدرك اللبناني) لتفادي الموجة التقليدية من العنف ضمن حالة من هذا النوع: الاختطاف والاختطاف المعاكس، أقامت نقاط مراقبة عند مداخل عاليه على الطرق الرئيسة. لكنّ الإسرائيليين ألزموها برفعها.

في اليوم التالي قطع الجنود الإسرائيليون طريق صيدا بيروت وأعادوا نحو الجنوب السيارات المتوجّهة إلى العاصمة، مؤكّدين للسائقين أن الوضع متوتر جداً بعد اغتيال وليد جنبلاط[2]. سرت إشاعة موت الزعيم الدرزي في الشوف بسرعة قياسية مثيرةً الذهول والغضب. فالوضع الشديد التوتر أساساً إثر اغتيال الشيخ الدرزي، تدهور بسرعة كبرى. ولزم مرور أكثر من 24 ساعة ومداخلتين إذاعيتين من قبل وليد جنبلاط لإعادة الهدوء.

---

(1) غرب بيروت: منطقة نفوذ الأحزاب الإسلامية واليسارية.

(2) الذي كان موجوداً في عمّان في ذلك اليوم.

جاءت تلك الخديعة الإسرائيلية في اللحظة الحرجة من دخول المفاوضات الثلاثية في طريق مسدود. كان فيليب حبيب، الموجود في القدس، موضع قطيعة علنية من قبل الرسميين الإسرائيليين الذين ظلّوا طوال 48 ساعة «لا يستطيعون استقباله». فاضطرّ لاستخدام التهديد بالعودة إلى الولايات المتحدة كي يفتح أمامه باب إسحق شامير. وكان الحوار عقيماً.

أثارت، إعادة الحوض الخامس للدولة، قلق الموساد. فقد تساءل قسم الاستخبارات الإسرائيلي كيف ستتمكن القوات اللبنانية – التي هي تحت حمايتهم – من مواصلة العيش ماليّاً. كذلك لم يرقها البتّة عدم إعلامها بالمناقشات التي جرت في هذا الشأن بين الرئاسة والميليشيا، لتطّلع على النبأ في نهاية المطاف عن طريق الصحف. فتوجّه في السابع من آذار/ مارس، أفنير أزوالي (فيليب) ، رئيس قطاع لبنان، لمناقشة الأمر مع فادي أفرام، في بيروت. قدّم له هذا الأخير عرضاً لمحادثته الأخيرة مع أمين الجميّل مبدياً دهشته من موقف الإسرائيليين حيال «القوات» في الشوف وجنوب لبنان.

وتوجّه إلى أزوالي سائلاً:

– طلبَ مسؤولُكم العسكري في مجدليون إلى جو إدّه أن يُغلق ثكنته. فما معنى ذلك؟

– لست أدري. إبعث برسالة في هذا الشأن إلى رفّول من غير أن تذكر أنّي طلبت إليك ذلك. لا ريب في أنّ المسألة ذات علاقة بحدّاد والجيش الجنوبي.

أحاطه أفرام علماً كذلك بالاتفاق مع أمين الجميّل حول الحفاظ على تدريب الميليشيات، واستغل ذلك ليندّد بارتفاع أسعار العتاد العسكري، لا سيّما الذخائر المشتراة من إسرائيل.

فردّ عليه الإسرائيلي قائلاً:

– أريد أن أكون صريحاً معك، قمْ بشرائها من مصدر آخر.

كانت طائرة البوينغ 727، البيضاء ذات الذيل الأحمر الذي يحمل علامة طيران الشرق الأوسط، جاثمةً ساكنة، مثل يعسوب ضخم تحت النور البرتقالي للمصابيح الكاشفة. وتبعثر جنود مسلحون من حولها، حتى حدود الدوائر المضاءة. كانوا يروحون ويغدون وهم أشبه بجماعة من النمل، من غير أن يعرفوا تماماً حقيقة ما يفعلون. إنّها الساعة الثانية صباحاً. ما أن انتهت الاستعدادات الأخيرة للرحلة الخاصة المتجهة إلى نيودلهي، حتى أقبل الوفد اللبناني[1]، بقيادة رئيس الوزراء شفيق الوزّان، وحفنة من الصحفيين المرافقين، ليصعدوا قاصدين قمة دول عدم الانحياز. كانت الصحافة طوال الأسبوع السابق قد أعلنت عن رفض أمين الجميّل التوجّه إلى هنالك، وعلّقت على الرفض بطرق شتى. ما كاد المسافر الأخير يشد حزام الأمان حتى أقبلت ست

---

(1) حوالي عشرة أشخاص.

من سيارات الرانج رور فتوقفت بغتةً وسط صرير عجلاتها عند أسفل السلّم، وترجلت كوكبة من رجال الحرس الشخصي بالبزّات الرسمية وأيديهم على السلاح، ليتّخذوا موقعهم في مواجهة الزوايا المظلمة في حين كان أمين الجميّل يتبعه جان عبيد وغسان التويني يصعدون السلّم سريعاً ويتوارون داخل الطائرة.

شرح الرئيس للمسافرين، المذهولين من حضوره المباغت، بدءاً بشفيق الوزّان، أنّه قرّر حضور القمّة، لكنه لم يعلم أحداً بذلك لأسباب أمنيّة. وإذا تركنا جانباً الوقع الإعلامي الذي سيثيره سفره غير المتوقع، فإنّ الرئيس اللبناني قد استجاب في اللحظة الأخيرة لغسان التويني، الذي أقنعه بضرورة الذهاب، فيتولى شخصيّاً الدفاع عن قضيّته أمام رجال الدولة، في ذلك التجمّع المتنافر من أمم العالم الثالث، والتي تمثّل نصف سكان المعمورة تقريباً [1].

ما إنْ وصل اللبنانيون إلى الأراضي الهندية، حتى اصطُحِبوا إلى قصر المؤتمرات حيث كانت تنعقد جلسة الافتتاح. كان أولَ شخص يصادفه أمين الجميّل، لدى دخوله المبنى، هو ياسر عرفات. فتوجّه الزعيم الفلسطيني ببزته العسكرية الزيتية، وفي نطاقه مسدسه من طراز «ب 38»، بقبضته المرصّعة بالصدف، وهو يعتمر كوفيته التقليدية، ماداً ذراعيه نحو الرئيس اللبناني. احتوى كل منهما الآخر بين ذراعيه. اعتذر ياسر عرفات لعدم استطاعته تهنئته لدى انتخابه. فشكره أمين الجميّل وطلب إليه تسهيل مهمة حكومته بسحب القوات الفلسطينية من لبنان. فأكّد له «الختيار»، [2] وهو يضع يده على صدره، أنّه سيسعده إصدار أمر بذلك فور تلقي طلب رسمي: إن كان من شأنه المساهمة بانسحاب القوات الإسرائيلية وتسهيل التعريف والتطبيق لنظام يشمل الفلسطينيين المقيمين في لبنان ويتناول مسألة منحهم بطاقة عمل.

بعد أن ألقى الرئيس الهندي زايين سينغ خطاب الترحيب، توجه راجياً المدعوين الخروج إلى الحديقة الكبرى حيث تنتظرهم وجبة خفيفة يصحبها موسيقى الفالس من فيننا. لم يطل الأمر بالجميّل للعثور على الرئيس السوري حافظ الأسد بين الجمهور. فتقدم لتحيّته. إنّه لقاؤهما الأول منذ تسلمه سدّة الرئاسة. ما أن استطاع الرئيسان مغادرة مكان الاستقبال دون الإخلال بقواعد البروتوكول، حتى توجها في السيارة ذاتها، إلى فندق الشيراتون حيث ينزل الاثنان معاً. وأثناء الطريق روى الأسد منشرحاً وبتفاصيل ممتعة، بعض الطرائف التي وقعت لرؤساء الدول والحكومات لدى وصولهم إلى الهند.

كان يجري في الوقت ذاته، مع أخذ فارق التوقيت في الاعتبار، أي مع بزوغ أولى أضواء الفجر التي تصبغ بيروت باللون الأحمر، ووسط الطرطقة التقليدية التي تحدثها بعض المجنزرات

---

(1) إيلي سالم، العنف والدبلوماسية في لبنان، منشورات تاوريس، لندن 1995.

(2) لقب يطلق على ياسر عرفات.

على الممر الفسيح المرصوف، دخلت عربات النقل المدرعة من طراز (113 M) التي ضمن حرم الحوض الخامس. تقدّم جنود يعتمرون البيريه تقدّماً بطيئاً وسلاحهم على مطوى الذراع، نحو المواقع التي غادرتها الميليشيا المسيحية قبل ذلك بدقائق. لقد استعادت الدولة سلمياً الإشراف على منطقة ساحلية قد فقدتها قبل ثماني سنوات. كان هذا الحوض الخامس قد عاد على القوات اللبنانية بمئتي مليون ليرة لبنانية[1] في عام 1982 فقط. أصدر الجنرال إبرهيم طنّوس، قائد الجيش اللبناني، وتنفيذاً للسلطات التي يمنحه إياها المرسوم الاشتراعي رقم 10، أمراً بإغلاق المرافئ غير الشرعية كافة التي ازدهرت على الساحل اللبناني بمجموعه، والحظر الصارم على استيراد بضائع ومواد من مصدر أجنبي دون الخضوع للجمارك. لكن الجيش لم يكن يراقب سوى ميناء بيروت. فالسواحل الشمالية والجنوبية من واجهة البلاد البحرية، غير خاضعة له مطلقاً، وما كان لهذه الاجراءات أي أمل في التطبيق الفعلي خارج حدود الحوض الخامس. فكان أن بدأت بذلك ثروة المرافئ اللاشرعية الأخرى.

لم يحضر أمين الجميّل مناقشات الجمعية العامة لقمة عدم الانحياز، أو حضر النزر اليسير منها. كان مشدوداً على الدوام في بزته الزرقاء الغامقة، وحمرة خفيفة تصبغ خدّيه كما الحال في كل مناسبة كبرى، يحيط به رئيس وزرائه شفيق الوزّان ومستشاره غسان التويني، وهو لا يني يجوب الممرّات بخطى قصيرة متربّصاً المناسبة لفتح حوار مع هذا أو ذاك من زعماء الدول أو الحكومات الحاضرين إلى دلهي. ولم يكن وحيداً في سلوكه ذاك. فالرئيس المصري حسني مبارك استغل المناسبة للخروج من حالة النبذ التي أصابته منذ توقيع معاهدة السلام مع الدولة العبريّة، وذلك بلقاء زملائه العرب. وهكذا كان للرئيس المصري لقاءات غير رسمية فتحادث مع الملك حسين، ملك الأردن[2]، وأمراء الكويت وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة ومحي الدين معروف نائب الرئيس العراقي. كذلك كانت للرئيس الجميّل أحاديث طويلة، وقوفاً، مع أنديرا غاندي ومبارك وبطرس غالي والزعماء العرب. كما أجرى وزير الخارجية اللبناني، أثناء خطاب كاسترو الذي لا ينتهي، لقاءً مع زميله السوري عبد الحليم خدام، وقد أمسك هذا الأخير، وهو بادي الانشراح، بذراع إيلي سالم وباح له قائلاً: **سوف تسعى إسرائيل إلى فرض شروط غير مقبولة على لبنان** ثم نصحه قائلاً: **ضعوا كل شيء على عاتق سوريا في سبيل أن ترفضوا**. وأخيراً أضاف يقول: **نحن على كلّ حال نتمنى لكم النجاح بشرط ألاّ تجني إسرائيل أي ربح من هذه المسألة، واستخدموا سوريا مرّة أخرى أيضاً كي ترفضوا القيام بتنازلات**. والتقى الجميّل مرّةً ثانية حافظ الأسد الذي دعاه مع مقربيه الرئيسين إلى غداء عمل في فندق الشيراتون. ولقد اصطحب الرئيس السوري، كما حال الكثير من

(1) ما يعادل في حينه حوالي 50 مليون دولار أمريكي.

(2) والذي التقى به سرّاً، مرتين في مصر منذ العام 1978.

الزعماء العرب، الطاهي وطعامه وشرابه. وتلا الطعام لقاء رئاسي ثنائي دام 45 دقيقة. ثم توجّه أمين الجميّل لحضور جلسة الجمعيّة بكامل هيئتها لإلقاء خطاب تمحور حول المفاوضات مع إسرائيل. فمرّ خطابه مروراً عابراً تماماً.

بدأ الجميّل يومه التالي، 10 آذار/ مارس في نيودلهي، بلقاء جديد مع الرئيس الأسد دام 90 دقيقة. ولدى خروجه من الجناح الرئاسي باح للصحفيين، وابتسامة عريضة تملأ وجهه، عن يقينه بأنّه سيرى في الأيام القليلة القادمة شكلاً من التفاهم المتبادل لمصلحة لبنان وسوريا. وينبغي للتقارب بين مواقف البلدين أن يُحدِث أثراً فورياً وملموساً على بعض المسائل التي تفرّق بيننا حالياً.

أمّا الرئيس السوري فصرّح من جانبه للصحافة بأنه كان سعيداً جداً بلقاء الرئيس الجميل. وأنا كما تعلمون أعرفه حقّ المعرفة وعلى اطلاع على المواقف التي اتخذها أثناء أحداث لبنان. إنها مواقف رجل حكيم. أما محادثاتي معه فكانت أخويةً ونابعة من القلب في آن معاً. ولسوف تزيد بالتأكيد من متانة العلاقات بين سوريا ولبنان، ونحن واثقون بواقع أنّ تعاوننا سوف يتحسّن في المستقبل.

إلا أنّه لم يقم بأي تلميح إلى المحادثات الثلاثية. وفي اليوم ذاته رفضت الصحافة في دمشق كل تطبيع بين لبنان والدولة العبريّة.

لم يكن حافظ الأسد، مثله في ذلك مثل مناحيم بيغن، ليرضى، وبدافع أسباب متعارضة كل التعارض، سماع شيء عن انسحاب جيشه من لبنان. فسوريا ترى في ذلك ورقة هامّة لدفع الأميركيين نحو اعتبارها محاوراً لا يُستغنى عنه، وأن تحصل بالمقابل على الجولان الذي تحتله إسرائيل منذ 1967. زد أن وجود جيش إسرائيلي في لبنان يتعرّض لعمليات فدائيّةٍ عديدة – وبعضها بقيادة أجهزته السريّة – يشكّل بالنسبة إليه ورقةً رئيسةً رابحة في محادثاتٍ محتملة.

وما كان الإسرائيلي من جانبه يريد أن يرى تقدّم مخطط السلام الذي اقترحه رونالد ريغان والذي سوف يتيح في النهاية حكماً ذاتياً للفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وما دام الأميركيون يسعون لإخراج الجيش الإسرائيلي من لبنان فإنهم لا يستطيعون التصدّي لملف آخر. كما لا يستطيعون خصوصاً مطالبة إسرائيل بالتنازل حيال المواضيع كافة فيغدو ضمن هذا الإطار، كل تأخير في تطبيق اتفاق حول انسحاب الجيوش الأجنبية من لبنان مكسباً إضافياً. زد أنّ أكثرية الزعماء الإسرائيليين مقتنعون بأنّ السوريين لن ينسحبوا[1].

كانت الولايات المتحدة متيقنةً بخلاف ذلك من أنّ العكس هو الصحيح. فكان الأميركيون على يقين من أنّ جنود دمشق سوف يغادرون لبنان بشرط أن تقوم الدولة العبريّة بالخطوة الأولى، على الرغم من أنّ فيليب حبيب لم يحصل من سوريا قط على تعهّد واضح حول هذه النقطة.

(1) وقد انسحبت القوات السورية من لبنان في نيسان/ أبريل 2005 بعد ضغط فرنسي أمريكي ومن مجلس الأمن أيضاً.

دعا جورج شولتز الوزيرين الإسرائيلي واللبناني للقدوم والتباحث في واشنطن. وهي المرّة الأولى التي يدخل فيها وزير الخارجية الأميركي حلبة المساومات الشاقة بشأن عمليات الانسحاب. وقد أعلنت وزارة الخارجية الأميركية، ضمن عزمها الظاهر على «خرق الأبواب»، عن أنّ الوزيرين الاثنين «يستطيعان» حضور محادثات ثلاثية مع شولتز على أثر سلسلة من اللقاءات المنفصلة: أميركية–إسرائيلية وأميركية–لبنانية. فسارعت تل أبيب إلى الترحيب بالمبادرة الأميركية، مضيفةً أنه ينبغي للمحادثات، على هذا الصعيد من المفاوضات، أن تكون مباشرة وعلى مستوى عال جداً، وأنّ اللقاء بين الوزيرين يفرض ذاته فرضاً.

فردّت بيروت بجفاء أنه ليس موضع بحث أن يجلس لبنان في صف «كامب ديڤيد» جديد. بل أضاف إيلي سالم قائلاً إنه لا يسع لبنان أن يفتح حدوداً مع إسرائيل ليغلق حدوداً أخرى مع 22 بلداً عربياً. وقد أثارت هذه الجملة الصغيرة غضب كيمحي، فعبّر عنها بجفاء في اليوم التالي أثناء الجلسة الـ 21 من المحادثات الثلاثية.

خرج رئيس الوفد الإسرائيلي للمرة الأولى عن وقاره الأسطوري، وهو يشير إلى أنّه لم يعد هنالك من ضرورة لمواصلة المفاوضات إنْ كان موقف لبنان الرسمي هو ذاك الذي عبّر عنه وزير الخارجية اللبناني. وقال متعجباً:

– ينبغي للحدود أن تفتح. إنّ ذلك ليبرهن على أنّنا تجاوزنا حالة الحرب وباشرنا حالة السلام. فليست غاية إسرائيل ذات طبيعة اقتصادية على الإطلاق. وإنّ حجم المبادلات التجارية بين بلدينا يمكن تحديده باتفاق مشترك[1].

فردّ أنطوان فتّال قائلاً بكل هدوء:

– لم أتلقَّ أي تعليمات لإثارة هذه المسألة.

فنهض كيمحي وغادر الاجتماع معتذراً وكان رسمياً مغتاظاً جداً. أمّا في واقع الأمر فقد توجّه إلى مطار اللدّ للالتحاق بإسحق شامير ورفائيل إيتان وأفراهام تامير، فصعدوا في إحدى طائرات العال ووجهتهم واشنطن.

مرّ إيلي سالم وحاشيته في باريس للوصول بطائرة كونكورد إلى واشنطن. لم يكن ضمن وفده أي لبناني سنيّ[2] أمين الجميّل، الحريص على تمثيل طائفي كامل، هتف لرئيس الوزراء السابق صائب سلام راجياً منه الالتحاق بوزير الخارجية بأقصى سرعة ممكنة[3].

---

(1) وصلت قيمة التبادل التجاري بين إسرائيل ولبنان إلى ما يقارب 18 مليون دولار وذلك في شهر واحد فقط، كانون الثاني 1982.

(2) غسان التويني (روم أرثوذكس) مستشار رئيس الجمهورية، وديع حدّاد (بروتستانتي) رئيس مجلس الأمن الوطني، العميد عباس حمدان (شيعي)، العقيد منير حكيّم (ماروني) وهؤلاء هم أعضاء الوفد اللبناني للمفاوضات الثلاثية، والعقيد سيمون قسيس (ماروني) مدير المكتب الثاني.

(3) العنف والدبلوماسية م س.

كان إسحق شامير ومعاونوه أول من استقبلهم جورج شولتز في 13 آذار/ مارس 1983. وقد صمد الوزير الإسرائيلي، طوال اللقاء الذي دام أربع ساعات ونصف، في وجه مطالب وزير الخارجية الأميركي بالانفتاح لا سيّما بشأن العلاقات بين لبنان وإسرائيل وكذلك التسويات الأمنية في الجنوب. فحجّة شامير كلها تكمن في موضوع واحد. ليس الجيش اللبناني بقادر على أن يغطي تغطية مجدية كامل الأرض اللبنانية ضمن مستقبل فوري. فعلى الجيش الإسرائيلي إذن أن يظل مقيماً في جنوب لبنان.

وجرى استقبال إيلي سالم ووفده المكتمل بدورهم. قال الوزير اللبناني، لبنان لا يرفض السلام، وإنه مستعد لقبول كل مبادرة لا تسبّب صدمة للبلدان العربية التي يقيم معها علاقات وثيقة، وقد رفض سالم الأقوال الإسرائيلية برمتها فأعلن قائلاً: **إنّ الجيش اللبناني قادر في الساعة الراهنة على مراقبة كامل الأرض، والشعب متحدٌ حول جيشه الذي يتمتع مثلما تتمتع الحكومة، بتوافق وطني لا يتزعزع.** ثم قدّم مثالاً حول السهولة التي انتشرت بها وحدات الجيش اللبناني في بيروت الكبرى.

تناول البحث بعدئذ إمكانية ضمّ سوريا إلى المفاوضات. كان الأميركيون منقسمين حول هذا الموضوع. فـجورج شولتز وهو ميال إلى تناول السياسة السورية في لبنان من وجهة نظر دولية، يظنّ أنّ على اللبنانيين أولاً الحصول على نتائج من مناقشاتهم مع إسرائيل قبل التوجه نحو السوريين. أما فيليب حبيب فيطلب، بخلاف ذلك، أن يبدأ اللبنانيون سريعاً جداً محادثات مع دمشق:

– عليكم أن تقولوا لهم ما يكفي بحيث لا يستطيعون أن يقولوا لكم فيما بعد إنّهم لم يكونوا على علم بالأمر.

جرى في النهاية توافق بين الأميركيين واللبنانيين على عدم قول شيء للسوريين. ولم يقم شولتز بأيّ تعليق. فهو يعرف الوضع معرفةً تامة. و لقد صرح في المساء ذاته، في مقابلة مع **الواشنطن بوست**، قائلاً: لديّ نوع من الشعور بالإحباط حيال بطء المفاوضات حول لبنان. ويصحّ أن أقول إنّ ذلك ليس بالسرعة التي كنت آمل. هذا، وليس الوقت عاملاً حيادياً في مثل هذا الوضع. ولئن مرّ الوقت من غير تحقيق شيء ذي بال، صار هنالك خطر من رؤية الأشياء تتدهور. وأنا أفكّر أساساً في أنّه قد آن أوان التحرّك. ولا أريد أنّ أحدّد تاريخاً بعينه، حداً فاصلاً، لكنّي أعتقد أنّه قد جرت مفاوضات كثيرة، ولست أدري إن كان لوقائع أخرى أن تتدخّل أيضاً.

في صباح اليوم التالي دعي إسحق شامير من قبل البرنامج المتلفز «صباح الخير يا أميركا» فعاود الشرح والإقناع. وأضاف وهو يسترجع علناً حججه حول عجز الجيش اللبناني عن مراقبة كامل أراضيه: **إنّ إسرائيل ترغب حقاً في الجلاء عن لبنان**، ثمّ أضاف مؤكداً أمام الكاميرات بلهجة بوح بالأسرار: **نحن لا نريد إلحاق أي أذى بهذا البلد. وليس المقصود أن نفرض وجوداً عسكرياً**

إسرائيلياً فرضاً دائماً. لكن لبضع سنين، ولنقل لسنتين أو ثلاث. فبودّنا الحصول على بعض التسويات، والتعاون معاً إذ يستطيع اللبنانيون والإسرائيليون منع عودة الإرهابيين.

أصبحت القضية منذ ذلك الحين مفهومة. وقد أقنعت تلك المقابلة، التي جرى إعدادها بكل عناية من قبل أجهزة الوزير الإسرائيلي، المشاهدين الأميركيين وبالتالي زعماءهم. وبقي العمل على التقدّم بالملف. فتضاعفت الاجتماعات طوال يومين في 14 و15 آذار/ مارس، بين اللبنانيين والأميركيين من جهة وبين الإسرائيليين والأميركيين من جهة أخرى. وجرى استقبال إيلي سالم وصائب سلام في المكتب البيضوي في البيت الأبيض من قبل رونالد ريغان. وسعى اللبنانيون جاهدين إلى مسح الظل الذي نشره شامير على جيشهم لكن دون جدوى.

اقترح جورج شولتز ومن في محيطه، تعويضاً عن «نقص الاستعداد» لدى الجيش اللبناني زيادة عدد الوحدة الأميركية في القوة المتعددة الجنسيات. فأشار الإسرائيليون لمحاوريهم، عَرَضاً، دون إبداء رفض قاطع، إلى مصاعب سياسية داخلية يُخشى أن تتعرّض لها السلطة التنفيذية الأميركية. ما كان بوسع رونالد ريغان أن يرسل قوّةً مسلّحةً إلى الخارج – هو في هذه الحال لبنان – دون أخذ رأي الكونغرس، إلّا لمدة 90 يوماً، بشرط ألاّ تكون هناك معارك. أمّا بشأن وحدات المارينز المشاركة في القوة متعددة الجنسيات، فالسلطة التنفيذية الأميركية كانت تلجأ، ضمن هذا السياق، إلى عمليات الاستبدال التزاماً بالفترات الزمنية (ما من وحدة مكثت في لبنان ما يزيد عن 90 يوماً)، كي لا تكون ملزمة بالردّ على الاستجوابات الملحّة في مناقشات الكونغرس. لكن الإدارة الأميركية كانت تعي أنّ الوضع إذا ما تدهور إلى حدّ الدفع بجنود المارينز إلى المعركة، أو إن كان ينبغي زيادة عددهم، فإن الكونغرس يغدو لديه الحق في رفع لواء «العمل الحربي» الذي ينصّ حرفياً على التزام البيت الأبيض بالحصول على موافقة أعضاء الكونغرس على كل فعل حربي. وواقع الحال أنّ هؤلاء ما كانوا ليوافقوا البتة حتى ذلك الحين، ولأسباب انتخابية بحتة، على إرسال الأبناء إلى أراضٍ أجنبية.

تمّ تجاوز الاقتراح الأميركي بسرعة كبيرة. وجرى في اليوم ذاته، فيما كان يتجاوب بين أرجاء الصحافة اللبنانية صدى تدعيم محتمل للقوة متعددة الجنسيات، أن أصيب بجروح أربعة عشر من قوات المارينز والقوة الإيطالية، في أقل من 12 ساعة، في ثلاثة اعتداءات منفصلة بالقنابل اليدوية، وقعت في حيّ الأوزاعي الشيعي الملاصق لمطار بيروت. فلم يعد من حينها أمرُ تدعيم الوحدة الأميركية موضع بحث.

قبل أن يغادر إسحق شامير العاصمة الفدرالية، وهو الذي حظي بخمس جلسات عمل مع المسؤولين الأميركيين بينها إحدى عشرة ساعة من المحادثات مع شولتز ومعاونيه ونصف ساعة مع رونالد ريغان، صرّح لرجال الصحافة الذين تجمّعوا حوله قائلاً: **تظلّ المقترحات التي عُرِضت علينا غير كافية، ونحن بانتظار مقترحات أخرى.**

فيما كان الجنرال رفائيل إيتان المرافق لشامير يستعدّ للصعود إلى الطائرة للعودة إلى تل أبيب، علِمَ عبر برقية إحدى وكالات الأنباء أنّ معاونه الجنرال موشيه ليڤي قد جرى تعيينه توّاً خليفةً له في منصب القائد العام لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، وأنّ القرار اتُخِذَ من قبل الحكومة بالإجماع.

كان موشيه ليڤي، وهو متزوج ويبلغ الـ 47 وأبٌ لخمسة أولاد، أول ضابطٍ من اليهود السيفاراد[1] في تاريخ الجيش الإسرائيلي يتسلّم ذلك المنصب. كان ديڤيد بن غوريون مؤسس الدولة العبريّة قد صرّح ذات يوم أن تعيين يهودي من السيفاراد في منصبٍ عسكريٍّ رفيع سيكون البرهان القاطع على نضج إسرائيل. لقد ولد عام 1936 من أبوين من أصل عراقي، ونشأ في حيّ متواضع في تل أبيب تسكنه أسر يهودية من أصول شرقية. كان موشيه ليڤي يحمل في الجيش لقب «موشيه فا خيتسي» (موشيه ونصف) لأنّ طوله يتجاوز المترين، وهو أصلع، شغوف بكرة المضرب وله شهرةٌ خاصّة بافتقاره إلى العقلية السياسية الشمولية خلافاً لسابقه.

كان ذلك الاختيار وهو بداهةً برغبةٍ من موشيه أرينز، على حساب الجنرال أڤيغدور بن غال، الذي كان يتطلّع إلى ذلك المنصب. كان بن غال، ولقبه يانوش، صديقاً شخصيّاً لبشير الجميّل الذي عرفه يوم كان قائداً للجبهة الشمالية عام 1976. وقد رفض منصب ملحق عسكري في إحدى السفارات الكبرى حين عُرِض عليه تعويضاً فاستقال من الجيش.

عَلِمَ أڤراهام تامير، في الوقت ذاته، وعبر البرقية ذاتها، وهو الذي كان بدوره عضواً في الوفد إلى واشنطن، أنّ جهاز الأمن الوطني الذي كان يديره في وزارة الدفاع قد جرى حلّه. لقد كان هذا الجهاز مكلّفاً أصلاً بدراسة المشاريع التكتيكية والاستراتيجية التي تهمّ الدفاع وتحليلها. ففي كانون الثاني 1982 عيّن شارون على رأسه صديقه تامير، وقد اتّخذ هذا الجهاز تحت تأثير تامير، وعلى مرّ الشهور، حجماً ضخماً، توسعاً في المهمات وزيادة عدد العناصر، حتى أصبح مكلّفاً بالأكثرية الساحقة من الملفات العسكرية والسياسية المتعلقة بالدفاع. وكان يتولى من الناحية العمليّة جملة من المهمات المنسوبة نظريّاً إلى هيئة الأركان. وقد أشار موشيه أرينز قبل ذلك بأيام إلى إجراء تعديل في الوزارة. لكن ما من أحد كان يظن أنّ ذلك سيبلغ تلك الأهمية لا سيّما وأنّه يتناول أڤراهام تامير.

قام موشيه أرينز بعد ذلك بأيام باستبدال عامير دروري المقال من قبل لجنة كاهان، وتسمية أمنون ليبكنز قائداً للمنطقة الشمالية من إسرائيل مع مساعدَيه: العقيدان غازيت وكنعان، والرائد بن آبو ضابط استخبارات. كما تغيّر أيضاً ممثل وزارة الخارجية في بعبدا، فإسحق ليور استبدل به بروس كاشدان وهو في الثلاثين من العمر وميزته الأساسيّة ارتداء الجينز الباهت ولحية كثّة ونظرة تختفي على الدوام خلف نظارتين شمسيتين.

أمّا وأنّ الإدارة الأميركية لم تعد قادرة على إرسال إمدادات إلى لبنان لسد العجز لدى الجيش

(1) الجالية اليهودية الشرقية.

اللبناني، فلم يعد لديها من وسيلة سوى تطوير هذا الجيش وتدريبه وتدعيمه لجعله موضع مصداقية. لكنّ ذلك يتطلّب عوناً كبيراً لا يمكن منحه إلّا انطلاقاً من اندماج لبنان اندماجاً كلّياً في السياسة الخارجية الأميركية على نحو ما هي عليه الحال بالنسبة إلى إسرائيل أو مصر. وقد أشار نيكولاس فليوتس، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط في 19 آذار/ مارس، إلى حاجات لبنان المشروعة بإعلانه عن افتتاح عمل مستعجل يجري إسناده إلى ميزانية 1983، وتبلغ قيمته 251 مليون دولار[1].

صدر ذلك المبلغ عن خلاصة دراسة تعود إلى عام 1978. ويؤكّد ذلك النص أنّ لبنان بحاجة إلى سبعة ألوية قوامها 43 ألف رجل. وسبق للإدارة الأميركية أن جهّزت أربعة منها وكانت بصدد تجهيز الخامس بمبلغ مئة مليون دولار من مجموع المبلغ المنظور، أما المبلغ المتبقي فيستخدم لإطلاق المراحل الأولى من إنشاء اللواءين الأخيرين.

وتلقى الجيش اللبناني تحت عنوان «إعادة بناء»، 34 دبابة من نوع (M48-A) من صنع أميركي، (قديمة عفا عليها الزمن، لا تتناسب وطبيعة الأرض، وخصوصاً بسعر باهظ) قيمتها 32 مليون دولار مع 25 مليوناً قيمة ذخائر وقطع غيار وتكاليف شحن لقوات مدرعة من طراز (M113). وهنالك ثماني مجموعات من الخبراء العسكريين، يبلغ تعدادهم النهائي 74 من ذوي القبعات الخضراء، بقيادة العقيد توماس فينتل، كان موجودين على الأراضي اللبنانية لتدريب الجنود.

حين علم الكونغرس بالنبأ، طلب تقريراً جديداً حول قدرات الجيش اللبناني. فقُدِّم إليه في 22 آذار/ مارس. وقد جاء فيه:

الجيش اللبناني في وضع مزرٍ [. . .] ووجوده الأساسي على الورق [. . .] ويقدّر معظم المراقبين أنه بحاجة لعامين من التدريب ولتجهيز خمسة ألوية من القوات المسلحة اللبنانية، وهو الحد الأدنى للإشراف على البلاد إشرافاً فعلياً [. . .] إنّ نصف عدد الجنود مقيمون في بيوتهم أو غير فاعلين [. . .] وهم مسلمون في غالبيتهم، زِد أنّ الجهود المبذولة لتجنيد مسيحيين كانت إلى حدٍ بعيد غير مثمرة [. . .] وإنّ عدّة فصائل من الميليشيا المسيحية أقدر بكثير في القتال من الجيش النظامي. وليس الجيش جاهزاً لأداء دور مرجّح في كفة الحفاظ على الأمن على حدود لبنان الجنوبية بعد خروج الجيوش الأجنبية من البلاد.

ثم يخلص التقرير إلى:

لقد راهنت الحكومة اللبنانية بأوراقها كافة على الولايات المتحدة وعلى هذه المعونة التي تلتزم بطلبها، مغلقة بتلك الطريقة على نفسها الباب ضمن تصوّر لا تقوى الإدارة الأميركية على مراقبته من بعد أو على تطويره لأنه تصوّر يتعلّق، وهنا المفارقة، بها هي.

---

(1) مبلغ ممنوح إلى لبنان بشرط استخدامه لشراء عتاد وتجهيزات وأسلحة أمريكية.

قام الديمقراطيون الأميركيون بتجاوز هذا التقرير ليقودوا حملة ضدّ السلطة التنفيذية. وقد هتف ممثل ولاية ميريلاند، كلارنس د. لونغ، رئيس اللجنة الفرعية التقنية في الكونغرس، صارخاً وسط الاجتماع: **إنّ لبنان أشبه ما يكون بجحر خلد. وإنّ تاريخ الصراعات التي تدور فيه، تكشف عن أنه من غير المعقول تبديد أموال على شكل معونة يمكن لها أن تؤول على الأقل إلى بيروقراطية معدية (...) وإنّ لبنان لَفي حالٍ جيدة تثير الدهشة (برغم الحرب) ومن الخطأ تقديمه بلداً خارجاً ممزقاً من الأزمة. وإنّه لممّا يثير الذهول التثبّت من أنّ الركود الاقتصادي الذي تصفه به الإدارة المركزية لا يحول بين اللبنانيين وبين امتلاك احتياطي يبلغ خمسة مليارات دولار.**

لم يكن ريغان وحيداً في مواجهة معارضة برلمانية شديدة البأس. فقد انتخب الكنيست بالاقتراع السري، وبأكثرية 61 صوتاً ضدّ 57، حاييم هرتزوغ رئيساً لدولة إسرائيل، لخمسة أعوام. فكانت الهزيمة موجعة جداً للتحالف اليميني، بزعامة رئيس الوزراء الإسرائيلي، مع أنّه تحالف يضمّ الأكثرية، لا سيّما وأنّ عدداً من نواب التحالف استغلوا سرّية التصويت لمنح صوتهم لمرشح المعارضة. وتنهّد مناحيم بيغن حين بلغه النبأ قائلاً بالفرنسية **إنّها الحياة.**

كان الرئيس السادس للدولة العبريّة، حاييم هرتزوغ، في السابعة والستين من العمر. وهو صهر (زوج شقيقة) أبا إيبان، حقوقي ودبلوماسي، وابن حاخام إيرلندي يحمل وسام فارس من الإمبراطوية البريطانية. أما وهو رائد في الجيش الإنكليزي، فقد قام على رأس وحدته بأسر الألماني هيانريش هيملر. فعاد عليه ذلك الإنجاز العسكري بحمل وسام نبيل من قبل التاج البريطاني. وحين صعد إلى إسرائيل أيام حرب الاستقلال، انخرط في الهاغانا، فحمل لقب ڤيڤيان، وهو لقب حافظ عليه طوال فترة رئاسته للمخابرات العسكرية بعد الاستقلال. أما بعد إحالته على التقاعد، فكان يدير مكتباً كبيراً للمحاماة، ويرئس مجلس الإدارة للعديد من الشركات الإسرائيلية.

10

«ولسوف نضغط عليه فنعتصره اعتصاراً»

توقف حافظ الأسد سرّاً في موسكو، لدى ذهابه إلى نيودلهي، للمشاركة في قمة دول «عدم الانحياز»، ولدى عودته منها، توجّه في مروره الأول بالشكر للقادة السوفييت، على إرسال صواريخ سام 5، واقترح عليهم إجراء تعديل على معاهدة الصداقة والتعاون التي تربط ما بينهما منذ 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1980. ثم قام بالتوقيع عليها لدى عودته. وكانت تلك الإضافة تبسط حماية موسكو، وفق بعض الظروف، على جنود دمشق فوق أرض لبنان، والبالغ عددهم 50 ألفاً.

طلب فادي أفرام مقابلة وزير الدفاع الإسرائيلي الجديد، بقصد إقامة اتصال شخصي معه ومن أجل «جسّ النبض». فجرى اللقاء في 25 آذار/ مارس 1983. إذ بدأت في الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم، سلسلة اجتماعات مع الموساد بادىء الأمر، كما جرت به العادة، قبل أن يقابل الرسميين. لقد أبدى أفنير أزوالي (فيليب)، وهو رئيس مكتب لبنان، ومعاوناه[1] اللذان رافقهما للمرة الأولى ممثلان لجهاز آمان[2]، اهتمامهم بردّة فعل أمين الجميّل، حيال مواصلة تل أبيب دعم القوات اللبنانية دعماً فاعلاً، في حال اتفاق بين إسرائيل ولبنان.

قال له أفرام:

– الرئيس على علم باجتماعنا. وهو يعرف كذلك موضوع محادثاتنا. وإنّ علاقاتنا، ضمن الفرضية التي طرحتَها، سوف تندرج ضمن إطار الاتفاق، كما أنّ التعاون بين أجهزة استخباراتنا سوف يتواصل سراً.

بدأت القوات اللبنانية تعيد هيكلة أقسامها ضمن ذلك الاتجاه. فجرى تكليف إيلي وزّان (عبّاس) بكل ما يقع ضمن حقل الاستخبارات العسكرية. أما جهاز الأمن، بقيادة إيلي حبيقة، فكان عليه رسمياً أن يهتمّ بالاستخبارات الخارجية وأن يجمّد أقسامه «العسكرية والداخلية»[3]. كانت

---

(1) عاميرا وميخا.

(2) العقيدان يوحاف غولان وأورنس.

(3) في واقع الأمر أن حبيقة حافظ على بنيته كاملة ولم يحدث أي تغير في وظائفه.

إعادة الهيكلة تلك ترمي في الواقع إلى تقليص احتكار إيلي حبيقة لمجموع استخبارات القوات اللبنانية، وبالتالي تقليص سلطته عليها. ولقد أنشأ في واقع الأمر نظامه الخاص داخل القوات اللبنانية وهو يتصرّف بحرية داخل قيادتها. لقد تولّى زاهي بستاني بنفسه، من مركزه مديراً للأمن العام، الاستخبارات الداخلية. لم يكن التعاون مع أقسام الأمن الإسرائيلية مسألة استراتيجية بالنسبة إلى «القوات» فقط، بل كانت أيضاً المعيار لعلاقاتها مع الدولة العبريّة. وكان يجري أيضاً الإعداد لدورات تأهيل يقيمها الموساد لمصلحة عناصر عباس. واعتبر أفرام أنّ ذلك غير كاف فتشكّى من تدني كثافة العلاقات بين القوات والإسرائيليين.

فقال أزوالي موضحاً:

– من الطبيعي أن يقل بعد الحرب حجم علاقاتنا. لكن يسعني أن أشهد بأنّه لم يُتَخَذ من قرار بهذا الصدد. وذلك عائد أساساً إلى واقع أنّ الكثير من الأشياء كانت قائمةً قبل الحرب وأثناءها، لكن لم يعد لها بعد الحرب من وجود. إنّه تطور طبيعي أو هي بالأحرى عودة إلى الوضع الطبيعي. ناهيك بأنكم لم تعودوا، بوصفكم قوات لبنانية، ما كنتم من قبل. إنّ «التنظيم» و«حراس الأرز» اللذان هما دوماً في مؤسستكم لم يعودا أيضاً إلى ما كانا عليه. والوطنيون الأحرار، حزب شمعون، لهم الآن سياسة متميّزة عن سياستكم. إنّ الرئيس أمين هو زعيم البلاد والحزب. ذلك كله يعني وجود وقائع جديدة. فتدريب رجالكم معطى تقني، لكن قرار القيام به، من ناحيته، معطى سياسي. سوف نعرض اقتراح انسحابنا على الحكومة اللبنانية. وهو لا يتضمن أي وجود إسرائيلي في الجنوب. ولسوف يلغي ذلك كل تبرير للوجود السوري. نحن بحاجة لشهرين، وفقاً لرئيس أركاننا، لتحقيق هذا التحرك. لكن ما سيحصل إنْ وضع السوريون شروطاً لانسحابهم أو رفضوا الانسحاب؟ وما ستفعل السلطة اللبنانية؟

فأكد أفرام قائلاً:

– إن كانت هنالك اتفاقية، فالجيش والفرنسيون سينتشرون في الشوف.

كان أمين الجميّل قد طلب من باريس نشر الوحدات الفرنسية، المشاركة في القوة متعددة الجنسيات في الشوف، إلى جانب الجيش اللبناني. وجرت اتصالات بهذا الشأن مع السفير الفرنسي في بيروت[1].

وذكّره أزوالي قائلاً:

– سبق لجنبلاط أن أعلن أنّه لن يقبل بنشر الجيش اللبناني.

فأكّد أفرام قائلاً:

---

(1) وضعت فرنسا شرط موافقة كافة الأطراف الممثلة على الأرض، فرفض الدروز ولم يحصل بالتالي أي انتشار فرنسي في منطقة الشوف على الإطلاق.

- لقد صادق الرئيس على أنّ الجيش سيذهب إلى هنالك، وبالقوة إذا ما دعت الضرورة.

فأسرّ له أڤنير أزوالي:

- يمكن لتحسن علاقاتنا مع الدروز، أن يسهل تقارباً ما بينهم وبينكم، لكن ليس لنا من ثقة بجنبلاط.

وسأل المقدم غولان قائلاً:

- كيف ترون موقف السوريين في حال اتفاق بين لبنان وإسرائيل؟

فهزّ أفرام رأسه بإشارة نفي:

- لن ينسحبوا.

أنضمّ ناحوم أدموني (پيتر) رئيس الموساد وپاتريك، مدير فرع لبنان في الموساد، إلى الفريق بحدود العاشرة والنصف، من بعد انسحاب ضباط جهاز آمان. فأوضح پيتر للبنانيين أنّ وزير الدفاع الجديد يعتبر بلدهم واحداً من ملفاته الأكثر أهمية.

- أعتقد أنه لأمر هام لكم أن توضحوا موقفكم معه قبل أن يتخذ قرارات. فيمكن للوزير أن يسألكم لِمَ لا نجتمع مع أمين.

فذكّره فادي أفرام قائلاً:

- تعلمون حق العلم أن أمين ليس بشير. ولن تتوصّلوا معه أبداً إلى مثل ما توصلتم مع أخيه. كما لا يسعكم التصرّف مع أمين بمثل ما كنتم تتصرّفون مع بشير. ولن تتحدثوا إليه بشان القوات اللبنانية، كما كنتم تفعلون مع بشير. كان بشير زعيمنا، أما هو فليس كذلك. يريد أمين لنفسه أن يكون رئيساً لكل لبنان فيتصرّف وفاقاً لذلك. وليس عقد اجتماع بينه وبين أرينز سوى مسألة ثقة في ما بينكم وبينه.

- لدينا اتصالات معه، لكن ليست على المستوى الوزاري مثلما نريد. أما من ناحيتنا، نحن في الموساد، فقد قابله مندي مرتين. كانت سياستكم واضحة في عهد سركيس، وكنا نعرف مع من نتكلم. أما اليوم فموقفكم قد تغيّر، وأنتم تساندون الرئيس أياً تكن سياسته.

فصحح فادي أفرام قائلاً:

- ليس الوضع كذلك تماماً. فلنقل إنّ هنالك خطاً أحمر وإنّا لن نتجاوزه.

وكرّر على مسمع محدثه أنه على استعداد لدعم أمين الجميّل ما دامت سياسته لا تمس وجود القوات اللبنانية ولا علاقاتها مع إسرائيل. وسعى لإقناعه بأنّ «القوات» في وضع معقّد وهشّ. فعليهم الحفاظ على توازن بين الإسرائيليين وأمين، من غير الوقوع تحت وصاية هذا الطرف أو ذاك.

فاقترح أدموني قائلاً:

– سوف أضع فرضية بالارتكاز على مسألة حدّاد. فما الذي سيحصل إذا طلب إلينا الرئيس أمين الكفّ عن التحدث إلى فادي أفرام؟

– إنه الخط الأحمر الذي أتيت على ذكره.

– المشكلة أن أمين يلعب لعبة مزدوجة. فماذا لو طلب إليكم غداً تسليم أسلحتكم؟

– إنّه أيضاً خط أحمر.

التقى اللبنانيون، من بعد، ومعهم أدموني وأزوالي بموشيه أرينز، ورئيسي الأركان الجديد والقديم، الجنرالين موشيه ليفي ورفائيل إيتان[1]. صُدِم فادي أفرام ورفاقه على الفور بالمظهر البروتوكولي جداً للقاء. فكان كل واحد في مكانه المخصص، وظل فيه. أمّا جوّ المودّة والراحة الذي كان يسود أيام شارون فقد أخلى المكان لتزمّت يثير الدهشة. وزير آخر، ومظهر آخر. كان وجه أرينز وقيافته ونبرة صوته، على درجة من البرودة إلى حدٍ بدا معه تبادل التحية التقليدية ذا نغمة ناشزة لخلوّه من أي حرارة، مقارنة مع ما استذكره من لقائه مع بشير الجميّل، في بداية أيلول/ سبتمبر 1982.

بادر قائلاً:

– إننا البلدان الغربيان الوحيدان في المنطقة. من الممكن نشوء اتفاق بيننا يؤدي إلى انسحاب القوات الأجنبية كافة من لبنان. هذا احتمال! لقد قلت لفيليب حبيب إنّ السوريين إذا ما قبلوا بالانسحاب، فذلك لأنّ جيشنا على بعد 20 كم من دمشق وليس لاعتبار آخر. أما بشأن المفاوضات، فلن أدهشكم إن قلت لكم إني غير راضٍ. أنتم تعلمون أنّه ليست لنا من أطماع باحتلال أراضٍ في بلدكم. نحن نريد مغادرة لبنان! فكل ما له اعتبار في نظرنا، هو عدم رجوع منظمة التحرير الفلسطينية بعد خروجنا. إنّ في ذلك نهاية لبنان. وطالبت فيليب حبيب بإلحاح للحصول على الضمانات الضرورية بشأن هذه النقطة. نحن نعرف منظمة التحرير الفلسطينية حق المعرفة، ولأجل ذلك نطالب بالإبقاء على حدّاد وبمكتب اتصال وتعاون مع الجيش اللبناني. فلم نتوصّل حتى الآن إلى اتفاق بهذا الصدد. ورئيسكم يرفض ما هو ضروري لنا كما هو ضروري لكم: الأمن في جنوب لبنان. فمن شأن ذلك أن يؤدي إلى توترات وأن يرغمنا على البقاء في لبنان.

كانت نبرة الوزير على الرتابة نفسها. ثم واصل قائلاً:

– إنّ حبيب وريغان وأميركيين آخرين ساذجون جداً بشأن حقيقة الموقف. فهم لا يدركون أن تُبنى علاقتنا على مصالح مشتركة. وأعتقد أنّ ذلك سيظل صحيحاً في المستقبل. إنّ أمين يخرج من صفوفكم. فأتمنى أن تتحدثوا إليه وأن توضحوا له أنّ ما نريد ليس في مصلحتنا فقط وإنما لمصلحتكم أنتم أيضاً.

---

(1) كان حاضراً أيضاً عامير دروري رغم أنه سيستقيل من مهماته قائداً لعملية «سلام الجليل». ومبير داغان قائد «الياكال» وجنرالان من مكتب الوزير.

أوضح فادي أفرام بإيجاز أنّ «القوات» تعاني من بعض المشكلات مع أمين الجميّل وأنّها تسعى إلى حلّها. فالرئيس يلقى الدعم من الولايات المتحدة التي لها تأثير كبير عليه.

فردّ موشيه أرينز بنبرة أكاديمية:

– من الأهمية بمكان ألاّ يكون لديكم في لبنان إدراك مغلوط للأشياء. فالأميركيون لا يستطيعون أبداً أن يفرضوا علينا ما نعتبره في غير مصلحتنا. لديّ الانطباع أنّ السلطة لديكم مقتنعة بأنّ الأميركيين قادرون على حل مصاعبكم الداخلية بعد انسحاب القوات الأجنبية. إلّا أنّهم لن يفعلوا ذلك! وليس السبب أنّهم لا يملكون الوسائل، بل لأنهم لا يفقهون في الأمر شيئاً. فكل ما يقومون به الآن موقت ولن يدوم. نحن لن نرغم أحداً على اللقاء بنا، لكنّا نعتقد أنّ ذلك سيحل الكثير من المعضلات في المفاوضات الدائرة.

– يخشى الرئيس عدم الحفاظ على سريّة مثل تلك الاجتماعات. . .

فقاطعه الوزير نافياً بحركة من يده:

– يكمن الخطر على استقلال لبنان من ماضي البلاد السياسي ومن وضعها الداخلي. الأمر الهام بالنسبة إلينا أن تكون لنا علاقات حسنة مع أمين الجميّل. فلا يسعنا أن نكون معكم على أحسن ما يرام وأن نكون في وضع سيّئ معه.

فأكّد أفرام قائلاً:

– إنّ الإشراف على الجبل حتى الحدود الإسرائيلية ذو أهمية استراتيجية بالنسبة إلينا. ولقد لاحظنا ضمن هذا السياق، أنّ قوات سعد حدّاد تتألف من كثير من الشيعة. أما وأنّ الخمينيين يبسطون نفوذهم بسرعة نحو الجنوب فلا يسعنا أن نعرف إن كان بوسع سعد حدّاد أن يتصدى لهم[1].

فردّ أرينز قائلاً:

– إنّما هذا خطأ، فالجنوب قريب منّا. ونحن لن نسمح بوجود خمينيين في تلك المنطقة. ولئن كنّا متمسكين بسعد حدّاد فذلك لأننا نستطيع العمل معه. وأنتم عليكم التعاون معه. نحن بحاجة لهذا الآن، قبل وضع اللمسات الأخيرة على الاتفاقية، ليكون كلّ شيء جاهزاً ساعة انسحابنا.

أوضح القائد العام، للقوات اللبنانية، لوزير الدفاع أنّه بحاجة لإسرائيل للحفاظ على قدرته العسكرية أيّاً كان الوضع في لبنان. فقبل أرينز بذلك من حيث المبدأ لكنه أعاده إلى أمين الجميّل: من الملائم مناقشة ذلك مباشرة مع الرئيس. وذلك يعني بصيغة أخرى، أنّه موافق إن كان بوسعه هو، أي أرينز، لقاء أمين الجميّل.

---

(1) إن جيش لبنان الجنوبي الذي جرى اختراقه بالعمق من قبل حزب الله، سوف يتفجر أثناء الانسحاب الإسرائيلي النهائي من جنوب لبنان في أيار عام 2000.

وأعلم اللبنانيون محدثيهم، كأنما عَرَضاً، بأنّ ميشال سماحة أقام اتصالاً مع رفعت الأسد شقيق الرئيس السوري. لقد كلّف أفرام HK بسبر أغوار دمشق للتحقق من أنّ أمين الجميّل يقول الحقيقة حين يؤكد أن سوريا تنظر بعين الرضا للمشاورات مع الدولة العبريّة. فأعرب الإسرائيليون عن شديد اهتمامهم وتمنوا أن يظلوا على اطلاع على تتطور تلك المبادرة.

كان ميشال سماحة وكريم بقرادوني رجلا الاتصالات مع السوريين، فالأول، كما رأينا، لمصلحة «القوات»، والثاني لمصلحة «الشرعية»[1]. وسبق أن قاما في حزيران/ يونيو 1976، وقبل شهر من سقوط المخيم الفلسطيني في تل الزعتر[2]، بتنظيم رحلة سرّية جداً لبشير الجميّل إلى دمشق - وهي الرحلة الوحيدة التي قام بها على كل حال. لقد انتقلوا[3]، عند هبوط الليل، في حوّامة سورية يقودها العقيد محمد الخولي. وقد استقبلوا في مطار المزة استقبال وفد رسمي: ثلة عسكرية أدت التحية مع الموسيقى. أمضى بشير ورفاقه الليل في نادي الضباط في قلب دمشق. واستقبلهم في اليوم التالي وزير الخارجية عبد الحليم خدام، ورئيس هيئة الأركان حكمت الشهابي، والعقيد علي دوبا[4]، وناجي جميل، ضابط الاتصال «منظم الرحلة» عن الجانب السوري. كان لدى عبد الحليم خدام هدفان اثنان باستقباله الزعيم الشاب لميليشيا الكتائب. أن يقيم من ناحية تفاهماً استراتيجياً معادياً للفلسطينيين بين طليعة جيش لبنان العربي[5]، التي اختارت العمل إلى جانب سوريا، وبين الضباط المسيحيين في الجيش اللبناني القريبين من رجال الميليشيا بقيادة بشير. كان للاثنين كليهما حسابات ينبغي تصفيتها مع الفلسطينيين. فالتفاهم إذن كان ممكناً. وقد شرح المسؤولون العسكريون السوريون لضيوفهم، على خريطة أمامهم، وجود مخرّبين على جانبي خطوط الجبهة في البقاع، أما المخرّبون فهي الصفة التي كانت تطلق على المقاتلين الفلسطينيين.

وقد طلبوا إلى الضباط الذين برفقة بشير وهم يشيرون إلى مكان وسط الخطوط السورية:

- خذوا حيثيات هذه النقطة. وحين نبعث إليكم نحن برسالة مرمزة، ترسلون من جانبكم رداً بالقذائف. فيصير لدينا على ذلك النحو مبرر لمهاجمة المخربين.

---

(1) العودة إلى كتاب أسرار حرب لبنان الوارد ذكره سابقاً.

(2) الملاحظة السابقة نفسها.

(3) كان مع بشير الجميّل بالإضافة للاثنين اللذين قاما بالتنظيم، كل من جوني عبدو والضباط في الجيش المقربين منه: فارس ماضي فؤاد شهاب.

(4) العقيد علي دوبا قائد الوحدات السورية المنتشرة في البقاع، وقد لقّبه اللبنانيون «الجزار» بسبب أساليب البطش التي كان يستخدمها. لقد اتبع دورة أركان في الكلية العسكرية في باريس حيث تميّز بالحري كل صباح لمدة ساعة كاملة فوق رمل مضمار الخيل، حاملاً على ظهره كيساً من الحجارة بوزن 40 كغ.

(5) طلائع جيش لبنان العربي، ضباط أكثرهم من سلاح الطيران مقربون من دمشق قاموا بعملية انشقاق واحتلوا قاعدة ريّاق الجوية في البقاع. منهم: فهيم الحاج محمود مطر ميشال معيكي عدي بستاني إبرهيم شاهين (قائد منطقة البقاع) والملازم جميل السيد الذي كان مدير الأمن العام من 1998 حتى 2005.

أما الهدف الثاني للسوريين فهو سياسي أكثر. إنّه يهدف إلى إعادة وصل لبنان وصلاً نهائياً بالعالم العربي، أيّاً تكن السلطة القائمة. ولم يكن هنالك من عائق قط في ما يتعلق بالمسلمين اللبنانيين، إلّا أنّ الحال لم تكن كذلك مع المسيحيين. وأثناء الاجتماع قام العقيد ناجي جميل، وهو ضابط الاتصال السوري مع المسيحيين، باصطحاب بشير على حدة:

– نحن على علم بأنكم تلقيتم الكثير من الأسلحة، لكن من دون ذخائر. ويسعنا أن نزودكم بها إذا ما شئتم.

لكنّ بشير ظلّ ثابتاً لا يتزحزح. لقد أعطاه الإسرائيليون في واقع الأمر سلاحاً مصرياً جمعوه من سيناء أثناء حرب الستة أيام وأعادوا إصلاحه. إلّا أنّ تل أبيب ظلّت شديدة التقييد على الذخائر، فكانت ترسل ما يكفي للاستمرار بالقتال، لكن ليس بكميات كافية لمعركة حاسمة. وعليه فإنّ العرض الذي قدمه له ناجي جميل كان مغرياً جداً. أمّا الثمن فقد أوصله إليه عبد الحليم خدام بعد ذلك ببضع ساعات. لقد اقترح على زعيم الميليشيا المسيحية الحفاظ على الطابع العربي للبنان[1].

وما إن عاد بشير إلى بيروت حتى قال لأحد المقربين من أبيه:

– أنا لا أستطيع أن أقدم بنفسي هذا العرض للبابا[2]، فهل يسعك القيام بذلك؟

كان جواب پيار الجميّل الرفض القاطع. وقد تردّد الوفد اللبناني على دمشق مرتين خلال صيف 1976، بقيادة ميشال سماحة وكريم بقرادوني لكن من دون بشير، سعياً وراء متابعة الطلب السوري، لكن دون جدوى.

كانت المحادثات التي قام بها زعماء الميليشيا مع الإسرائيليين، أبعد ما تكون عن طمأنتهم. فبعد ذلك بأيام، جاءت رسالة من تل أبيب تطالبهم بمتابعة نتائج محادثاتهم مع السوريين. فقرّر أفرام صمّ أذنيه دون ذلك، وعدم إحاطتهم بشيء علماً، مستقبلاً. أرسل الموساد في 29 آذار/ مارس 1983، غيزي التسافريري[3] لرؤية رئيس جهاز الأمن. كان غيزي (الذي تقدّم باسمه من دون كنيته) من أصل مصري. وكانت لهجته تدل على ذلك حين يتكلم العربية. وهو في الخمسين من عمره، قصير القامة، أسمر اللون، مرح وميّال للطرائف، وقد قصّ كيف أنّه كان في طهران مع لوبراني وناوت، لدى نهاية عهد الشاه، وكيف أنّه كان آخر من غادر المكتب في طهران حتى أنّه أطفأ الأنوار قبل خروجه. وقد قال لحبيقة:

– عليك أن تقابل رفعت الأسد سريعاً وتتعرّض معه لإمكانية أجراء اتصال بنا. فليس من يعرف ما يمكن أن يحصل. وكل موافقة من جانبه تمثّل تعهّداً هاماً.

---

(1) سيكون ذلك هو الطلب الدائم من النظام السوري للمسيحيين اللبنانيين. وحين جرى طرد إيلي حبيقة عام 1986 من المنطقة المسيحية على يد سمير جعجع لجأ إلى دمشق ونشر بياناً يعترف فيه «بعروبة» لبنان واستطاع أن يستقر في زحلة في البقاع التي كانت عسكرياً تحت قيادة العقيد جميل السيد.

(2) هكذا كان يشير بشير الجميّل إلى أبيه وهو يتحدث مع المقربين إليه.

(3) سوف يجري تعيينه من بعد مستشاراً لرئيس الوزراء للشؤون العربية.

فأوضح له حبيقة الأمر قائلاً:

- يعاني رفعت من ألم في ظهره. فلم يستطع ميشال سماحة مقابلته في رحلته الأخيرة إلى دمشق. لقد تحدّث إليه هاتفياً فقط. وكان مرتقباً في حال اجتماعه به على انفراد، وبعد بحث وضع المسيحيين، أن يفتح معه سماحة الموضوع «الإسرائيلي»، قائلاً له إنكم أحطّمونا علماً بما شعرتم به من راحة. وأنتم تتثبّتون من المراحل التي قطعها رفعت لوصوله إلى سدّة السلطة، وإنّ لذلك أهميّته على صعيد المنطقة. وإنّكم أبديتم شديد الاهتمام بفتح صلة مع سورية في سبيل الوصول إلى السلام، من غير شرط مسبق.

فقال له غيزي:

- كان من المفضّل لو جرى اللقاء على انفراد معك أنت. ذلك هو رأي زملائي في المؤسسة[1]، لكنّ مقاربتك طيّبة.

فقال له حبيقة ضاحكاً:

- لو ذهبت إلى دمشق، لوضعني رفعت في سجن المزة[2]. لكن لا بأس، سوف أحاول حين تسمح بذلك حالته الصحية. إنّما تلزمني موافقة فادي.

سرت شائعات ملحّة تنسب ألم ظهر رفعت إلى سوء التفاهم ما بينه وبين أخيه. ورغب ميشال سماحة في الاطلاع على جليّة الأمر، لأنّ تلك الإشاعات إذا ما صحّت، فإنّ الاتصال الواهي بين القوات اللبنانية والسلطات السورية مهدّد بالذهاب إلى غير رجعة. وقابل في باريس رجل أعمال اسمه سليم حسن، وهو عسكري سابق من دورة العقيد علي دوبا. فطلب سماحة من حسن أن يتحقق من الشائعات. وبعد ذلك بأيام تحدّث رجل الأعمال إلى الرئيس السوري الذي أكّد له أنّه على علم بكل ما يجري أو يُقال باسمه في لبنان. فردد حسن الخبر على مسامع ميشال سماحة ناصحاً إياه بترتيب لقاء سرّي بين قادة مسيحيين ومسؤولين سوريين **في سبيل التعارف على القليل**[3].

سبق أن جرى مثل ذلك اللقاء لدى الزيارة الأولى التي قام بها حافظ الأسد إلى باريس في 16 حزيران/ يونيو 1976. واستغلّ الفاتيكان تلك الزيارة ليطلب من الحكومة الفرنسية بإلحاح السعي في سبيل قيام تقارب بين المسيحيين اللبنانيين ودمشق. وقد جرى أثناء تلك الرحلة عقد لقاء سرّي بين عبد الحليم خدام وشربل قسّيس، ورئيس المجلس الأعلى في الكسليك، الأب عمانوئيل خوري[4] والأستاذ في جامعة القديس يوسف بيار أنطوان كرم، في السفارة السورية في بولفار سوشيه. لكن دون نتيجة تذكر.

---

(1) الموساد.

(2) سجن سياسي معروف قرب دمشق.

(3) من ميشال سماحة لآلان مينارغ في تشرين الأول/ أكتوبر 2005.

(4) أحد أعضاء لجنة الحوار الإسلامي المسيحي في مجمع الكرادلة والمطارنة الكاثوليك في لبنان.

والتقى كل من ميشال سماحة وإيلي حبيقة وپول عريس بدورهم، بعبد الحليم خدام في باريس. فكان ذلك هو الاتصال المباشر الأول بين مسؤولين في أجهزة الاستخبارات والأمن التابعة لـ «القوات» وبين السوريين. ولم يكن لذلك اللقاء أي نتيجة فورية. لكنّه سوف يغدو هاماً، فيما بعد، بالنسبة إلى مستقبل إيلي حبيقة الشخصي.[1]

أضحت الاشتباكات الآن بين الميليشيات والدروز في الشوف أمراً يومياً. فالعسكريون الإسرائيليون المتمركزون في الجبل يصفونها بانتظام بـمشكلات لبنانية–لبنانية. كما كانت وحدات الجنرال أمنون ليبكنز المنتشرة على المرتفعات، لا سيّما بمحاذاة طريق بيروت–دمشق، تغضّ الطرف دون قوافل الأسلحة والذخائر التي يستقدمها الدروز من دمشق عبر وادي البقاع.

انطلق حزب وليد جنبلاط التقدمي الاشتراكي، في حملة حقيقية من العلاقات العامة مع إسرائيل. فزارتها عدة وفود بقيادة عاطف سلوم للقاء زعيم المعارضة العمالية شمعون پيريز، وكذلك وزير الدفاع السابق[2]، عازر وايزمن وعدد من النواب أيضاً. ولقد كانت مفوّضة أصولاً من الحزب التقدمي الاشتراكي لإقامة علاقات مضمونة مع الدولة العبريّة، بشرط انسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان. طلب عاطف سلوم من محاوريه بأن توضع منطقة الشوف تحت إشراف الحزب التقدمي الاشتراكي[3]. وقد صرح وليد جنبلاط قائلاً في حديث شخصي فيما بعد[4]: **بعد رحيل شارون من الحكومة، أصبح الضغط الإسرائيلي على الدروز خفيفاً أكثر.**

كان اللبناني الأميركي پول جريديني، وهو أحد مستشاري وديع حدّاد في مجلس الأمن القومي اللبناني، والذي جرى تعيينه من قِبَل أمين الجميّل، يتردّد في تلك الفترة بانتظام على واشنطن، حيث كان أيضاً مستشاراً في الپنتاغون. وأثناء إحدى إقاماته في العاصمة الفدرالية، في نهاية آذار/ مارس 1983، اتصل به واحد من أصدقائه، وهو يهودي أميركي، فطلب إليه لقاء الجنرال الإسرائيلي شلومو غازيت، المدير السابق للاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي. حصل اللقاء في فندق في نيويورك، ودام نصف ساعة وتلخّص في رسالة تُسلّم شخصياً للرئيس الجميّل: **سوف نضغط عليه ونعتصره في الشوف، حتى يعمل معنا، أو أن يصير مختار بعبدا**[5]. نقل پول جريديني الرسالة، مع تحليل جرى بناء على طلبه عن طريق كبار الضباط في الجيش اللبناني. وكانت تخلُص بصيغة أخرى إلى النتائج ذاتها التي في تهديد شلومو غازيت. فجرى رفض ذلك بازدراء من

---

(1) سمح له هذا اللقاء باللجوء إلى سوريا بعد ذلك بـ 4 سنوات، عام 1986، عندما طرد من الأشرفية من قبل سمير جعجع.

(2) والذي أصبح لاحقاً رئيساً للدولة العبريّة.

(3) صحيفة «هآرتز» آذار/ مارس 1983.

(4) من وليد جنبلاط لآلان مينارغ، آب 1992.

(5) من جريديني لآلان مينارغ، أيلول/ سبتمبر 1992: We will squeeze his boules in the Chouf until he works with us or becomes moukhtar of Baabda.

قبل وديع حدّاد وأمين الجميّل. وسعى جريديني لأن يوضح للرئيس، أنّ لبنان، خلافاً لما يظنّ هو ولما يزعم وديع حدّاد، ليس حيوياً في شيء بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فأخذه أمين الجميّل من ذراعه وقاده إلى أمام النافذة الزجاجية في مكتبه التي تطل على البحر. ودلّه بحركة عريضة من يده إلى سفن الأسطول السادس الراسية أمام بيروت وقال:

– هاك الأسطول الأميركي، فأنّى له أن يكون هناك لو لم يكن لبنان حيوياً بالنسبة إليه؟

فقال پول بإلحاح:

– إذا ما اتضح الخطر السوفييتي حقيقة واقعة، فسوف يرحلون على الفور.

فنهز أمين الجميّل بكتفيه وعاد إلى مكتبه.

بدا رونالد ريغان كأنّه يضع الحق بجانب الرئيس اللبناني بإعلانه، في 30 آذار/ مارس 1983 تعليق تزويد الدولة العبريّة بـ 75 طائرة مطاردة قاصفة من طراز F 16 التي كانت أوصت عليها ما دامت جيوشها لم تغادر لبنان. وقد استشهد الرئيس الأميركي، ليبرّر قراره ويجعله غير قابل للرد، بالنصّ التشريعي الذي يُلزمه بعدم تزويد إسرائيل إلّا بأسلحة تستخدمها حصراً في أعمال دفاعية. وأعلنت حكومة بيغن في ردّ فوري أنّ هذه الطائرات الـ 75، والتي اشترتها بـمليارين و700 مليون دولار ما كان لها أن تُسلَّم إلّا عام 1995، إلّا أنّ التعليقات في تل أبيب كانت معتدلة جداً. وقد باح موظف إسرائيلي رفيع المنصِب، طلب عدم ذكر اسمه، قائلاً أمام الصحافة: **إنه إجراء يبعث على الأسى. فهو يستند إلى فكرة مغلوطة أنّ القوات الإسرائيلية تحتلّ جزءاً من لبنان. إنّما إسرائيل دخلت لبنان بهدف دفاعيّ تحديداً ضدّ منظمة التحرير الفلسطينية، وهي لن تخرج منه إلاّ بعد عقد اتفاقية تضمن أمن حدودها الشمالية.**

في بداية نيسان/ أپريل، جرى تدوين «مسوّدة»[1] اتفاقية بين بيروت وتل أبيب، تدويناً كاملاً باستثناء بعض التفاصيل. وقد قرأها غسان التويني وشفيق الوزّان وإيلي سالم بكل تروٍّ نقطة فنقطة. وأحاطهم موريس دراپر علماً بأنّ النص، على مثل ما هو مدوّن، مقبولٌ من قبل المفاوضين الإسرائيليين. لكنّه أضاف أنّ هنالك بعض المشكلات مع «سياسيين» في تل أبيب. إنّ مناحيم بيغن وأرييل شارون لا يريدان الشيء ذاته. كان بيغن، وفقاً لقول دراپر، في مصلحة انسحاب سريع. فهو يوجّه لنفسه لوماً متزايداً على الخسائر التي وقعت والأخطاء التي ارتُكِبت طوال تلك الحرب في لبنان.

أما شارون فقد أضحى، من جانبه، عدوانياً أكثر ويريد أن يحصل على المزيد من لبنان من أجل أن يبرّر غزوه. وتبقى، أيضاً، مسألة تسوية وضع سعد حدّاد، والإشراف على جبل الباروك،

(1) بالإنكليزية في الأصل: «draft»

وهي أعلى نقطة في الشوف (2000متر) حيث يسع المرء «مراقبة» دمشق بالعين المجرّدة من فوق وادي البقاع وأخيراً دور اليونيفيل[1].

ضغطت موجة مباغتة من العنف على ضواحي عاليه، مهدّدةً اتفاقية أطلاق النار تهديداً جديّاً. فقد أمطرت القذائف بغزارة مواقع «القوات» في بحمدون والكحلونية، وجعلت أسلحةٌ أتوماتيكية من كفرشيما هدفاً لها. وتدخلت دوريات إسرائيلية، وفقاً للاتفاقية الموقعة، لكن بعد انتهاء كل شيء. وكل مرة يصلون فيها إلى المكان، يجدون أنّ المهاجمين قد اختفوا.

تشكّى بيار الجميّل من موقف الجيش الإسرائيلي لدى أڤنير أزوالي الذي جاء يزوره بعد ظهر يوم 5 نيسان/ أبريل[2]. وقد أكد لممثل الموساد قائلاً:

- إنّ ما يجري في الجبل يضايقنا كثيراً. لست أدري إن كنتم عازمين على التحالف مع الدروز، لكن احذروا، فليسوا هم بمخلصين ولا شرفاء.

شرح له أزوالي مطوّلاً أنّ الاهتمام، في إسرائيل، بقضية المسيحيين اللبنانيين يمضي متناقصاً. وقد باح للرئيس الأعلى قائلاً:

- إنّ حقيقة ما يجري على الأرض ليست بذات أهميّة، لأنّ الرأي العام لا يعيها. فنحن الذين نؤمن بكم، صرنا أقليّةً في إسرائيل. وما عاد من أحد يصغي إلينا. ينبغي الآن على أمين أن يقابل أحد الوزراء. فمقابلة مندي أو مقابلتي أنا لم تعد تكفي.

- أنا أستطيع أن أمارس ضغطاً على أمين.

- سيكون ذلك شيئاً ممتازاً. وأنا حزين لرؤيتي ذلك الحلم يتبدّد. فأنا، حين أسعى لإقناع الناس عندنا، لم أعد أجد التربة الصالحة كما في السابق. لا بدّ من إحداث صدمة نفسية مثل زيارة شبه رسمية. لقد قدم وفد درزي إلى إسرائيل للقاء رفائيل إيتان. فقوموا من جانبكم، بوصفكم كتائب، بتنظيم زيارة شبه رسميّة إلى بلدنا. لسوف يمنحنا ذلك حيوية لبضعة شهور، ويساعدنا كثيراً على الصعيد الداخلي مع النواب.

- فليأتوا إلى هنا. ولسوف نجمعهم مع المكتب السياسي ونستقبلهم في البيت المركزي.

- إنّها فكرة حسنة. فهل يسعكم توجيه دعوة لهم؟

فاستدرك بيار الجميّل قائلاً:

- من الأفضل القيام بذلك من دون دعوة. فليأتوا بمبادرة شخصية منهم.

ثم أضاف مستخدماً الخطاب بصيغة المفرد لإظهار ما يحمل من ودّ لمحدّثه: **أنا أثق بك، لأني أرى أنك تفهمني.**

---

(1) العنف والدبلوماسية في لبنان مذكر سابقاً.

(2) في منزله في الدورة، بحضور كل من فادي أفرام ووليد فارس (وودي).

فردّ عليه ممثل الموساد قائلاً:

- لست أنا من ينبغي إقناعه.

تلك كانت آخر مرّة يلتقي فيها الرجلان. إنّ أزوالي الذي كان يعمل على الملف اللبناني منذ 4 آب/ أغسطس 1981، قد استقال من مهماته بعد ذلك ببضعة أسابيع. فقد وضعت تغييرات التوجّهات لدى الزعماء الإسرائيليين معنى مهمته أمام امتحان عسير. وأحسّ بأنّه ليس على ما يرام داخل لعبة سياسية قوامها إحياء آمال مصطنعة لجذب اللبنانيين لاعتماد سياسة ملائمة لإسرائيل. ناهيك بأنّ بعض أصدقائه أكّدوا له ذلك حتى انصرف متقزّزاً من الدور الذي جعلوه يؤديه.

تواصلت المفاوضات الرسمية الثلاثية مرتين في الأسبوع، فيوم في لبنان والثاني في إسرائيل. وكانت جماهير الرأي العام اللبناني والإسرائيلي تتخيّل، بتأثير تقارير الصحفيين، أنّ المفاوضين يسبر بعضهم أغوار بعضهم الآخر بصورة دائمة حين لا يتبادلون كلمات لاذعة. أمّا في واقع الأمر فليس الوضع كذلك. كانت المحادثات تدور على أعلى سويّة من اللباقة أثناء الجلسات وأعلى درجة من التنوع في الممرات حين لا يكون هنالك شهود. وعلى ذلك، فقد استولت الدهشة على موريس درابر، قبل الجلسة السادسة عشرة، لمشاهدته وصول قالب ضخم من الكاتو وزجاجات شمپانيا على المائدة التي كانت تحمل الملفات. وقد ردد أعضاء الوفود الثلاثة أنشودة «سنة حلوة يا جميل happy birthday to you»، وأطفأ درابر الشمعة الوحيدة الموضوعة على القالب قبل أن يعلن قائلاً:

- تعلمون جميعاً ما الأُمنية التي تراودني يوم عيد ميلادي. ثمّ أغرق الجميع بالضحك وهم يرون رئيس الوفد الأميركي يقدّم لأنطوان فتّال القطعة التي تحمل الأمنيات بالعبريّة وإلى كيمحي القطعة المكتوبة بالعربية.

جرى في 7 نيسان/ أبريل، أثناء الاجتماع السادس والعشرين في خلدة، التخلّي عن عبارة «محطات إنذار» لمصلحة تعبير «تجمعات مراقبة» لبنانية-إسرائيلية-أميركية، نظراً لأنّ مهمتها تقوم فقط على مراقبة تطبيق إجراءات الأمن في جنوب لبنان. لقد كان التقدم هامّاً.

في اليوم التالي، 8 نيسان/ أبريل، كان اللقاء في كريات شمونة على وشك الإلغاء لأسباب تتعلق بالطقس. وقد كان مطر خفيف، ترافقه هبات ريح عاصفة، وغيوم منخفضة وثقيلة تخيّم على القسم الأكبر من لبنان. فاضطرّت الحوّامات، التي كانت تنقل أنطوان فتّال وزملاءه، للقيام بانعطاف كبير فوق البحر لتصل إلى هدفها. أما في المساء فظلّوا مسمّرين على الأرض بسبب طقس رديء جداً. وجّه الإسرائيليون، بتكتّم شديد، دعوة للوفد اللبناني لتناول العشاء في فندق البلازا في تل أبيب. كان ديڤيد كيمحي يسعى منذ أسابيع عديدة وراء مناسبة لدعوة زميله اللبناني.

أشار أنطوان فتّال، وهو جالس إلى المائدة مرتاحاً، إشارة موجزة إلى مصر وتاريخها من غير أن يقول إنه قد أقام في القاهرة مراسلاً صحفيّاً. كان لدى السفير اللبناني، في تلك الفترة، جارٌ في

الطابق ذاته، هو يهودي مصري اسمه لامبيرغ. وكان هذا الأخير يتولى، بوصفه مهندساً كهربائياً، الإشراف على المولدات الكهربائية في المدينة. وفي اليوم الأول من اضطرابات 1952، استولى الذعر على لامبيرغ، فدقّ على بابه راجياً أن يرافقه. كان عليه الذهاب لإحضار ابنته من المدرسة في الطرف الآخر من المدينة وكان خائفاً مما يجري في الشارع. فذهب فتّال بنفسه وأحضر الفتاة. فاعتبر لامبيرغ أنّ جاره قد أنقذ حياة ابنته. وفي كانون الثاني/ يناير 1982، علمت هذه الأخيرة من الصحف، لدى افتتاح المفاوضات الثلاثية، أنّ فتّال يرأس الوفد اللبناني. فبعثت إليه بكلمة تهنئة وأمل في تحقيق السلام، عن طريق وزارة الخارجية. واستعجل الإسرائيليون في معرض بحثهم عن صدعٍ في الكتلة الجليدية لمحدّثهم وهدونه، بتسليمه الرسالة، أملاً في ردّة فعل عاطفية. لكنّهم لم يحققوا أي مكسب يذكر. فقد قرأ فتّال الرسالة ثم دسّها في جيبه من غير أن يطرف له جفن.

أثناء العشاء في البلازا، جاءت بنت لامبيرغ، التي كانت مارّة من هناك «بمحض المصادفة»، لتلقي التحيّة على «منقذها». فكان فتّال مهذّباً دون زيادة أو نقصان. وساعة تناول القهوة، جاء إسحق شامير وزير الخارجية شخصياً، ليقوم «فقط» بتحيّة المتفاوضين. كان شامير يعرف أن فتّال يتكلم العبريّة بطلاقة. فتوجه إليه بالكلام بتلك اللغة قائلاً:

- أنت تتكلم العبريّة جيداً.

فردّ عليه فتّال قائلاً:

- وأنت أيضاً.

وذلك قبل أن يضيف:

- إلّا أنك تتكلمها بلكنة أجنبية قوية[1].

«تشبث» أنطوان فتّال، طوال تلك المفاوضات، بتوجيهات أمين الجميّل، على الرغم من أنّه أحياناً، كان في جلساته الخاصة ينتقد حالات التردّد لدى رئيسه وتغيير رأيه. كان الجميّل، لدى أصغر كلمة جديدة أو عبارة، بل الكلمة الأقل دلالة مما يثار في المناقشات، يعمد، قبل إعطاء موافقته، للحصول على موافقة رئيس وزرائه شفيق الوزّان. فهو يعتبر أنّ المفاوضات التي يقوم بها في إسرائيل عن طريق أنطوان فتّال، إنّما تجري باسم لبنان ووكالةً باسم العرب. وعليه فقد كان حريصاً على استشارتهم في كل مرحلة. وما كان ليتردّد في الرجوع عن مواقفه إنْ كانت ردود الفعل سلبيّة. فهو يريد قبل كل شيء أن «يتقاسم» المسؤولية حيال التنازلات التي لا يمكن تفاديها والتي سوف يقوم بها ليتحاشى نتائج محتملة على الصعيد الداخلي أو في علاقاته مع العالم العربي. وقد أدى هذا الارتخاء في القرار إلى إطالة كبيرة في المناقشات.

---

(1) كان إسحق شامير يتحدث بالعبريّة بلكنة بولونية واضحة.

وهكذا، فإنّ التقدّم الذي جرى تحقيقه حول «تجمعات المراقبة» تبعتها على الفور سلسلة اتصالات دبلوماسية بين بيروت وبعض العواصم العربية. وتوجّه غسان التويني إلى القاهرة وجان عبيد إلى دمشق. وفي اليوم التالي نشرت تشرين، الجريدة السورية الرسميّة، تعليقاً مثقلاً بالتهديد بقلم وزير الدفاع مصطفى طلاس: **إذا ما وقّع لبنان اتفاقيةً شبيهة باتفاقية كامب ديفيد، مرتهناً مصيره لدى الولايات المتحدة وإسرائيل، فلن نعود من بعد ملزمين بالتستّر على موقف السلطة اللبنانية. إذ سيكون هنالك خطر على لبنان وسوريا. فلبنان لن يربح شيئاً بوضع أوراقه كافة في أيدي الولايات المتحدة. وليست واشنطن على استعداد للتخلي عن إسرائيل لمصلحة لبنان أو على ممارسة ضغوط مجدية عليها على الأقل. [. . .] وباستطاعة لبنان المراهنة على أوراق دولية عديدة منها ضغوط الاتحاد السوفييتي. وما الذي يجعل اللبنانيين لا يرون إلاّ مظهراً واحداً من اللعبة، هو المظهر الأميركي؟ لِمَ لا يتوجّهون إلى القوى العالمية الأخرى؟ [. . .] إنّ الجيش السوري مصنّف بين الجيوش العشرة الأولى في العالم. ويسعنا القول في الوقت الراهن إنّه الجيش الأقوى في العالم العربي وإنّ الجيش الإسرائيلي لا يتفوّق عليه إلاّ في المجال الجوي. ونحن نسعى لإزالة هذا التفوق بمساعدة الاتحاد السوفييتي. وحين يتم التوازن في هذا الميدان لا يعود بوسع الجيش الإسرائيلي الصمود أمام الجيش السوري المتفوق عليه بالشجاعة والقيم القتالية.**

ولقد رافق تحذير دمشق هذا، علامة تعجب على الأرض. ذلك أن الاشتباكات المألوفة في الشوف، تحوّلت إلى معارك حقيقية منظّمة.

سعت القوات اللبنانية من ناحيتها لإقناع مسيحيي الشوف الذين هربوا من الجبل بالرجوع إلى مساكنهم. فكان ينبغي احتلال الأرض، وتشكيل تجمّع سكاني مدني لتبرير تسمية «منطقة مسيحية». لكن بلا طائل. وسمحت هذه النكسة للإسرائيليين بالتأكيد أنّ الجبل درزيّ حقاً ما دام المسيحيون لا يقيمون فيه. وأكّد ميئير داغان قائلاً: **هنالك عدم رغبة مسيحية في العودة**، فردّت عليه «القوات» بالقول: **لأنكم لا تقومون بحمايتهم ولأنكم تمنعوننا من القيام بذلك.** فكانت العلاقات بين قائد الياكال والميليشيات المسيحية تمرّ بمرحلة صعبة.

وفي 9 نيسان/ أبريل، ومع بداية النهار، جاء داغان يصحبه ريتشارد، المدير المساعد لمركز اتصالات الموساد في طبرجا، لزيارة قادة(1) القوات اللبنانية. فكرروا شكواهم. وقال فادي أفرام ساخطاً:

- **آمل أنّكم لا تزالون تقيمون فارقاً بين الدروز وبيننا.**
- **إن كنتم تظنون أننا نساعدهم فأنتم مخطئون.**

---

(1) بالإضافة لفادي أفرام حضر الاجتماع كل من: أنطوان بريدي (توتو) أسعد شفتري (آسو) إيلي وزّان (عبّاس) وليد فارس (وودي) .

فقال أسّو بلهجة عدائية :

- إنّهم يتلقون أسلحة من المتن فتعبر خطوطكم بسهولة. ولئن كان الجيش الإسرائيلي لا يتوصّل إلى مراقبة ذلك، فكيف تفعلون لحماية حدود إسرائيل الشمالية؟ أنا لدي الأسماء والكميات.

- أعطني المعلومات.

- إنّها مسبقاً بحوزة الموساد.

فأضاف أنطوان بريدي :

- لقد شاهد رجالنا في سوق الغرب جنوداً إسرائيليين يدرّبون ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي.

فردّ داغان صارخاً :

- هذا خطأ!

وذلك قبل أن يلتفت صوب ريتشارد (رجل الموساد) فيسأله إن كان على علم بشيء في ذلك الصدد.

فاعترف رجل الموساد قائلاً :

- لقد حصل ذلك، لكنّه من عمل عناصر معزولين جرى توقيفهم.

فأنكر داغان قائلاً :

- ذلك غير ممكن. ناهيك بأنّ سياستنا واضحة في هذا الشأن : لا ينبغي لأيّ درزي إسرائيلي أن يكون حاضراً في الشوف. ولو كانت بنا رغبة لتدريب الدروز عسكرياً، لاستطعنا القيام بذلك بطريقة سريّة جداً. إنّ كان هنالك جنود إسرائيليون دروز يدّربون ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي فزودونا بالمعلومات. سوف نضعهم في السجن. وسوف يحاكمون.

فأكّد فادي أفرام قائلاً :

- ذلك يجري أمام أعيننا بشكل مكشوف.

فكرّر قائد الياكال قائلاً :

- إنّ ذلك غير ممكن. وكان الجنود الآخرون سيتكلّمون عن ذلك! ليس لدينا، حتى الآن، أي تقرير بهذا الشأن. هنالك الآن أحد ما يقوم بتسميمكم. ليس لدينا أيّ قرار سياسي بمساعدة الدروز. لقد كنتم تحلمون! . . .

فردّ عباس بنبرة جافة :

- كلّا أنا لا أحلم أنا واثق من ذلك.

وظلّ ريتشارد مطرق الرأس ينظر محدّقاً في الورقة الموضوعة أمامه.

قبل ذلك بساعات، نُميَ إلى علْم قائد الاستخبارات العسكرية لـ «القوات» أنّ داغان قد جرى تلقيبه، من قبل الدروز اللبنانيين بـِ أبو جبل. كما ثبت لديه كذلك أنّ هؤلاء يستفيدون من تواطؤ الدروز الإسرائيليين في لواء غولاني المتمركز عند الخط الأول بمواجهة القوات الخاصة السورية في منطقة عين زحلتا.

وقد أكّد وليد جنبلاط فيما بعد قائلاً[1]: **قمنا في الواقع برشوة الجنود الإسرائيليين لتمرير الأسلحة. كنا نتلقى الأسلحة من سورية فيقوم الإسرائيليون بمساعدتنا: كانت أجهزة استخباراتهم العسكرية تفرض فترات مهادنة فنستغلها لتمرير الأسلحة. كانوا يعرفون ذلك حق المعرفة فيغضون النظر.**

لم تجرِ ممارسة الضغط الإسرائيلي في الجبل فقط. فقد أصدر الياكال أمراً بمنع ميليشيات القوات اللبنانية من التنقّل بأسلحتهم إلى جنوب النهر الذي يمرّ من صيدا. فحتى ذلك الحين، كان الجنود الإسرائيليون الواقفون على حواجز الطرق، يصادرون علناً أسلحة الميليشيات المسيحية، ثم يعيدونها إليهم سراً. ولم يقدّم داغان أي تفسير لذلك الإجراء.

في 10نيسان/ أبريل 1983، فجر الملك حسين، ملك الأردن، قنبلة دبلوماسية حقيقية، معلناً أنه سيدع من الآن فصاعداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، أمر تمثيل الفلسطينيين. فمنذ عدة أسابيع، والعاهل الهاشمي يتفاوض، بطلب من الأميركيين، مع منظمة التحرير الفلسطينية حول مساهمة مشتركة في مناقشات محتملة مع الإسرائيليين، ضمن إطار مخطط السلام الذي اقترحه رونالد ريغان. فقد أضحت واشنطن مقتنعة بأنّ وجوداً فلسطينياً ضمن وفد أردني يمكن أن يكون مقبولاً من تل أبيب[2]. لكنّ الملك اضطر للاستسلام حيال متطلّبات السلطة المركزية. **لقد ترك للسلطة المركزية الفلسطينية من بعد وللشعب الفلسطيني أمر تقرير مصيره بنفسه وطريقة تحرير أرضه.** فوجد مخطط ريغان ذاته بغتة عند نقطة البداية. أما إسحق شامير فعلّق، طرباً، بجملة واحدة ليس إلاّ: **لو رغبت الولايات المتحدة في رؤية النجاح يحالف سياستها، لسلكت خطاً سياسياً سليماً.** أما زعيم المعارضة العمالية شمعون بيريز، فتطلّع نحو المستقبل وهو يصرّح قائلاً إنّه مقتنع **بأنّ الأردن وإسرائيل سينتهي بهما الأمر إلى تشكيل حكومتين تفضلان خيار السلام على تفاهمات حول الأراضي. ولا يسع إسرائيل إحلال السلام على حدودها الشرقية من غير الأردن، التي لا أعتقد أن قدرها الإبقاء على حالة الحرب حتى قيام الساعة**[3].

---

(1) من وليد جنبلاط لآلان مينارغ، آب 1992.

(2) وهي الخطوط العريضة التي جرى تطبيقها لدى افتتاح محادثات مدريد عام 1993.

(3) سوف توقع اتفاقية السلام بين الأردن وإسرائيل (ويطلق عليها أتفاقية وادي عربة) في 26 تشرين الثاني/ أكتوبر 1994، واستكملت باتفاقية تجارية في العام 1996.

أما صحافة تل أبيب فسلمت من جانبها بفشل ريغان: **ستكون الإدارة الأميركية ملزمة الآن بإجراء مراجعة محزنة لسياستها. فالرئيس الأميركي ضاعف في الشهور الأخيرة من ضغوطه على إسرائيل أملاً في أن يؤدّي كل إظهار إضافي للعداء حيال إسرائيل إلى إقناع الملك حسين بالانضمام للمفاوضات. فأدت تلك السياسة الرامية إلى إرغام حكومة بيغن على الرضوخ، وإلى تسميم العلاقات الأميركية الإسرائيلية بدل أن تكون مثمرة. وبرهن رفض الملك حسين على ما كانت إسرائيل تعرف دوماً: لم يكن عدم انضمام الأردن للمفاوضات ناجماً عن التعنّت الإسرائيلي المزعوم، بل لأنّ الدول العربية أضعف من أن تقف في وجه المتطرّفين لديها.**

لم يكن لفشل المحادثات الأردنية الفلسطينية أن يمرّ من غير أن تكون له انعكاسات على لبنان. ومن ناحية أخرى فإنّ من شأن اتفاقية محتملة مع الدولة العبريّة أن تستهدف العرب، كذلك فإنّ دخول المفاوضات في طريق مسدود سوف تُترجَم، بصدامات على الأرض لا محالة.

انطلقت الولايات المتحدة، حيال هذه المخاطر، بالسرعة القصوى. فاشترك فيليب حبيب شخصياً بالمفاوضات في ناتانيا يوم 12 نيسان/ أبريل 1983. إذ وصل في حوّامة إلى المدن الساحلية الإسرائيلية على غير توقّع، فترأس الوفد الأميركي بدلاً من موريس دراپر، وقابل بتلك الصفة، أنطوان فتّال وديڤيد كيمحي، كلاًّ على حدة، قبل أن يشارك في المفاوضات.

وبالمقابل، بعث رونالد ريغان برسالة إلى حافظ الأسد، سعياً وراء الحد من تأثير رضوخ الأردنيين، فأكّد له فيها أنّ الولايات المتحدة تعتبر دوماً ضمّ الجولان غير شرعي بموجب قرار الأمم المتحدة رقم 242. وأحسّ مناحيم بيغن بـ «الخطر». فردّ على الفور وبجفاء قائلاً **إنّ الجولان إسرائيلي إلى الأبد وإنّه ما من شيء سيغير هذا الواقع.**

الواقع أنّ المسعى الرئاسي الأميركي باتجاه دمشق كان بلا طائل. وقد جاء الردّ في افتتاحية صحيفة تشرين السورية، وبقلم رئيس التحرير عميد خولي، وهو ناطق شبه رسمي باسم الدولة السورية، فكان غاية في الوضوح: **ينبغي على إسرائيل أن تدفع ثمن عدوانها، لا أن تحصل على تعهدات وضمانات. ولبنان هو الخاصرة الاستراتيجية والجغرافية لأمن سورية، ومدينة شتورة أقرب إلى دمشق من المدن السورية كافة. فمن المستحيل بالتالي فصل أمن لبنان عن أمن سورية ضمن حالة الحرب السائدة بين سورية وإسرائيل. [. . .] فمن الضروري القول بوضوح إن سورية ستجد ذاتها مرغمة، دفاعاً عن ذاتها ودفاعاً عن أمنها، أن تعلن أنّ أي مكسب تحققه إسرائيل مهما يكن، ومهما تكن المنفعة التي سترتد منه على لبنان، سوف يؤدي إلى البقاء على القوات السورية. [. . .] إن وجود القوات السورية هو حالياً الورقة الوحيدة التي بحوزة لبنان للحصول على الانسحاب الإسرائيلي. ولا مجال لأبسط حديث حول انسحاب القوات السورية من لبنان قبل انسحاب القوات الإسرائيلية كلها من الأراضي اللبنانية كافة، ذلك أنّ سورية ترغب في التأكد قبل كل شيء من جلاء الغزاة الإسرائيليين عن هذا البلد الشقيق.**

وفي سبيل أن تضع دمشق ذلك الكلام موضع التطبيق، بدأت بتزويد دروز الشوف بالمال والسلاح. فوصل العديد من الدبابات وقاذفات الصواريخ من صنع سوفييتي، الى حدود المنطقة التي يحتلها الإسرائيليون. وقد اعترض جنود الجنرال ليبكنز المنتشرون في الجبل، سبيل شاحنات تحمل قنابل من عيار 155 مم. إنّ وجود سلاح من هذا النوع في الشوف قمين بإحداث انقلاب في توازن القوى. فجاء ميثير داغان لرؤية فادي أفرام[1] وليعرض عليه فتح حوار مع المسؤولين الدروز. وأضاف:

- لقد جاء هشام ناصر الدين[2] مجدداً إلى إسرائيل. لكنّه لم يقابل أي شخصية رسمية. ولسوف تؤدون خدمة للدروز إذا ما تخلّصتم منه.

في 19 نيسان/ أبريل 1983، وغداة عيد الاستقلال في إسرائيل، جرت تسمية الجنرال ديفيد إيفري، القائد السابق لسلاح الجوّ، مساعداً للقائد العام للجيش الإسرائيلي. أما الجنرال إيهود باراك، رئيس قسم التخطيط الحربي[3] فاستلم إدارة جهاز آمان، وهو قسم الاستخبارات العسكري في الجيش الإسرائيلي، خلفاً ليوشع ساغي. أما الجنرال دون شمرون، قائد عملية عنتيبي، فجرى تعيينه لاستلام قيادة القطاع الشمالي بدلاً من الجنرال عامير درووري.

لقد أوقعت الحرب على لبنان، منذ 6 حزيران/ يونيو 1982، 664 قتيلاً في صفوف الإسرائيليين، و2509 من الجرحى.

---

(1) كان ذلك يوم 15 نيسان/ أبريل 1983 من الساعة 9,30 و 11,40 قبل الظهر، وبحضور كل من أنطوان بريدي (توتو) إيلي حبيقة (H.K) فؤاد أبو ناضر جو إدّة وليد فارس (وودي) والعقيد إريتس شايكي وأمنون (من الموساد).

(2) مقرب من وليد جنبلاط عضو في اللجنة المركزية للحزب التقدمي الاشتراكي، ومسؤول عسكري في الميليشيا الدرزية.

(3) في واقع الأمر القسم الفاعل من الاستخبارات العسكرية.

11

الفصل الثاني عشر ـ الاعتداء رقم 15334

المقرّ العام للقيادة الأميركية القائم في مبنى الطيران المدني من مطار بيروت الدولي في 18 نيسان/ أبريل 1983. الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

كان العقيد جيمس ميد قائد الوحدة الأميركية في القوة متعددة الجنسيات يرتدي سترته العسكرية المموهة محزوماً بنطاق شديد، وقد بدا بطيء الحركة على نحو ما يلائم الرجال الذين يعون قوتهم، وهو يستقبل في مكتبه المكيّف حفنة من الصحفيين الذين جرى انتقاؤهم بكل دقة. وقد أوضح قائلاً:

– إنّ الاعتداءات التي وقعت ضدنا وضد الفرنسيين والإيطاليين، قد جرت على يد فريق من المتطرّفين الشيعة الموالين لإيران وهم منشقون عن حركة أمل وفقاً للدلائل والمعطيات التي بحوزة أجهزتنا الأمنية. وتتميّز هذه الاعتداءات بعدم احترافيتها إلّا أنّ من الممكن أن تتكرر لأن هؤلاء المتطرّفين يريدون أن يغادر الأجانب كافة لبنان. وليس رجال المارينز في نظرهم كما باقي مكوّنات القوة متعددة الجنسيات سوى جيوش احتلال أجنبية.

كانت سيارة ليموزين سوداء مصفحة تخرج في الوقت ذاته ببطء من سفارة الولايات المتحدة، على بضع كيلومترات إلى الشمال في حيّ عين المريسة، تحفّ بها أربع سيارات، تكدّس داخلها رجالٌ مسلحون، وتسلك الكورنيش الذي يساير شاطئ البحر. كان على متنها فيليب حبيب وموريس درايبر القادمان في الصباح ذاته من اسرائيل، وكانا متجهين إلى قصر بعبدا بدعوة من الرئيس. لقد اضطر حبيب من أجل تلبية الدعوة، أن يلغي آسفاً اجتماع عمل كان مقرراً منذ عدة أيام مع السفير روبرت ديلون في مقرّ السفارة .فالجميّل متلهّفٌ لمعرفة تفاصيل محادثاته مع الإسرائيليين.

كان سبعة رجال بقمصان خفيفة وربطات عنق مرخيّة، جالسين حول طاولة في الطابق السادس والأخير من المبنى، في كافيتريا جرى حجزها للمناسبة وهم يصغون بانتباه لرجل ثامن وصل عشيّة ذلك اليوم من واشنطن. كانوا جميعاً رؤساء أقسام وكالة الاستخبارات الأميركية

(الـCIA) المقيمين في العواصم العربية. يُدعى الرجل المتكلم روبرت كلايتون إيمز (بوب)، ولقبه الكاوبوي وعمره 49 سنة، ويعمل مدير مكتب التحاليل للقسم المركزي للشرق الأوسط وجنوب آسيا. واشتُهِر بحسن مظهره الخارجي. فالنظارات الشمسية والحذاء طويل الساق والمظهر المسترخي ورباطة الجأش قد رسّخت أسطورته وموّهت واحداً من أفضل المحللين للشرق الأوسط بين رجال الاستخبارات الأميركية كافة. وهو أحد النادرين الذين يستطيعون، نهاراً وليلاً على حد سواء، الاتصال بوليم كيزي (المعلم الأكبر) لوكالة الاستخبارات الأميركية. لقد دخل روبرت إيمز منذ شهر أيلول/ سپتمبر ضمن الحلقة الصغيرة من المستشارين الذين يصغي إليهم جورج شولتز. أما الآن فقد استدعى مدراء المراكز في المنطقة ليدرس معهم بدقة تصاعد الأصولية الإسلامية (لا سيّما الشيعية) ومحاولة القيام بالتقديرات الأولية للخطر الإرهابي في المنطقة. ولدى انتهاء حديثه، أعطى بوب إيمز فترة استراحة لتناول السندويشات.

أعلن أحد الرجال السبعة وقد تجاوز الخمسين، ذو قامة متوسّطة وشعر أبيض، يضع نظّارتين من الصدف تزيدان في هيئته موظفاً صغيراً، عن عزمه على الذهاب لشراء سجائر. اسمه وليم باكلي، وهو مدير مركز الاستخبارات في لبنان، حيث وصل في نهاية عام 1982، لكي يدرس مع أشياء أخرى تدعيم أمن الرئيس اللبناني. أما وجوده في بيروت فصار رسمياً في الشهر التالي لدى تعيين سكرتير ثالث مكلف بالمسائل السياسية في السفارة. دخل المصعد ثم خرج من المبنى ماشياً وحيداً كعادته للذهاب إلى بائع صغير للخضار والتبغ.

أما تحته بطابقين فكان روبرت ديلون، في مكتبه المؤدي إلى الجهة الأخرى من المبنى وقد ارتاح من عمله، يستعد عاري الصدر لارتداء قميص قطني خفيف، ليذهب فيقوم بالجري الصباحي المعتاد، حين رنّ الهاتف.

كانت شاحنة من نوع GMC سوداء اللون تحمل اللوحة الرقم CD 21-104 [1]، ومخمّداتها مطموسة بحملها الثقيل المغطى بغطاء أسود، قادمة من خليج سان جورج، تتقدمها سيارة إسعاف، بمصباح الإنذار الدوّار، تفتح لها الطريق صاعدة الكورنيش البحري. ما إن وصلت على سوية السفارة الأميركية، حتى انعطفت انعطافاً مباغتاً نحو اليسار، فتخطت الرصيف الترابي الموجود والطريق المعاكسة للكورنيش، وانحشرت تحت قنطرة المبنى، قبل أن يتمكن رجال الحرس من الردّ. ثم تحولت إلى كتلة من النار.

لقد تلاشت بفعل الانفجار الدعائم الحاملة لبهو المدخل وانهارت الطوابق كلّها، بعضها فوق بعضها الآخر، مثل قصر من كرتون وعلى عمق 15 متراً. وبدافع شكل من التعاطف، انفجر في

(1) الرقم الأول هو لسفارة الولايات المتحدة، أما الثاني فهو يرمز إلى سيارة الدبلوماسي رقم 21 حسب الترتيب البروتوكولي.

الوقت ذاته، مستودع القنابل المسيّلة للدموع والمضادة للاضطرابات التي يحتفظ بها «رجال المارينز» في المبنى.

لم يتوافر لديلون الذي رفع السماعة توّاً الوقت للنطق بكلمة واحدة، فالانفجار الهائل ألقى به على الحاجز الذي انهار فوقه.

تطاير زجاج النوافذ ضمن دائرة بقطر كيلومترين. وقد أثارت الطوابق والجدران بانهيارها زوبعة من الغبار، امتزجت بالدخان الأسود بفعل الانفجار والغاز المسيّل للدموع، فلامست الأرض والواجهات وارتفعت على شكل كتلة من الفطر فوق المدينة.

لقد تلا فرقعة الانفجار الرهيب صمت ثقيل مذهل، لم يقطعه سوى تساقط شظايا الزجاج. ثم ارتفعت صرخة من بين الانقاض تلتها صرخة أخرى، وخرج بعض الأشخاص يتلمّسون طريقهم كالظلال وسط الظلام وأكوام الحجارة، وهم يسعلون ويبصقون بسبب الدخان والغبار. وأقبل بعض الجنود، الذين يتولّون الحراسة أمام السفارة الفرنسية القريبة، راكضين، فيما جاء آخرون في عربات عسكرية.

كان روبرت ديلون محصوراً تحت الركام عاجزاً عن الحركة. فالقميص الذي كان يوشك أن يرتديه لدى حصول الانفجار، أدّى إلى وقاية فمه من الغبار، لكنه في الوقت ذاته، أعاق ذراعيه عن الحركة. وسمع صوت سكرتيرته تناديه بقلق. ثم أضحت الأثقال التي جمدته أخف وزناً. وتمكن مساعده في النهاية من تخليصه وساعده على النهوض. لقد فكّر بادئ الأمر بوقوع هزّة أرضية. ظل عاري الصدر يسند المرأة الشابة. ثم تمكّن الرجلان من استخدام قسم من الدرج على ارتفاع طابقين، وأخيراً بعبورهم من النافذة، استطاعوا الخروج من بين الأنقاض. وحينذاك تحقق السفير الأميركي من ضخامة الدمار.

كان رتل من القبعات الفرنسية الخضراء ورجال المارينز منهمكين بتطويق المكان. وسيارات عديدة تحترق بفرقعة وهي تنشر دخاناً أسودَ كثيفاً. كانت أشلاء بشرية متناثرة على الأرض. وجرى نقل جثتين داميتين من رجال الحرس، أمكن التعرف عليهما من مزق ألبستهما الرسمية، لتمكين سيارات الإسعاف من الاقتراب. وبادرت مجموعات من الرجال برفع الأنقاض بالأيدي بانتظار قدوم الرافعات، التي جرى استدعاؤها من حقل عمل مجاور. ارتفعت حوّامات من على سطح حاملة الطائرات «غوادالكانال» الراسية قريباً، فحطت على الكورنيش في متوالية ثنائية، وأنزلت عدداً من الجنود، ثم ارتفعت بعد ذلك بثوان حاملة أوائل الجرحى. وكان من بينهم سكرتيرة فيليب حبيب، التي خرجت سالمة بأعجوبة مصابة ببضعة رضوض من تحت قطعة من جدار.

كان الرئيس الجميّل قد بدأ، في القصر الرئاسي، مع إيلي سالم وفيليب حبيب بتفحّص التصحيحات الجديدة على «مسوّدة»[1] الاتفاقية. حين قطع اجتماعهم ضابط ليعلن لهم بنبرة عصبية

---

(1) Draft بالإنكليزية في الأصل.

أنّ سيارة مفخخة قد انفجرت في السفارة الأميركية. وأراد فيليب حبيب على الفور إحاطة جورج شولتز علماً بأنّه لم يكن ضمن محيط الانفجار. فقد كان يخشى من أن تضعه الصحافة في عداد الضحايا. فتمتم ساخراً وهو يرفع سماعة الهاتف:

- إنّ ذلك سيروق لأشخاص كثيرين، وليس في نيتي أن أهبهم ذلك السرور.

وبعد محادثة قصيرة، وضع سماعة الهاتف ليتمتم مجدداً آمل أن يكونوا قد اعتبروا ذلك نبأً سعيداً[1].

تلقى حوالى خمسة عشر من الجنود أمراً بالتقاط الأوراق كافة، الرسمية أو غير الرسمية، التي تناثرت بفعل الانفجار حول الأنقاض التي يتصاعد منها الدخان وبوضعها في أكياس القمامة الزرقاء ليصار من بعد إلى ترحليها بواسطة الحوّامات. وكانت سفن البحرية الأميركية قد اقتربت من الشاطئ بأقصى سرعة.

رنّ جرس الهاتف في إدارة وكالة الصحافة الفرنسية. وسُمع صوت بالعربية، وبلهجة لبنانية، يتبنّى الاعتداء، الذي حمل اسم «عملية الفجر»[2] رمزاً، وذلك باسم منظمة الجهاد الإسلامي.

وصل الرئيس الجميّل إلى المكان وهو يقود سيارته. فأحيط على الفور بكوكبة من رجال الحرس. فقام بتحية السفير روبرت ديلون، الذي ارتدى في تلك الأثناء سترة أحد الجنود. أصغى الرئيس مذهولاً، للشروح التي قدّمها المسؤولون عن عمليات الإنقاذ. وأوضح له أحد الخبراء أنّ الشاحنة كانت تحتوي على ما يقرب من 150 كيلوغراماً من الهيكسوجين أي ما يعادل، من حيث قوة انفجار، 600 كيلوغرام من مادة الـ TNT، ودلّوه على ساعة حائط توقفت عند الساعة واحدة وأربع دقائق بعد الظهر. كان ذلك هو الاعتداء رقم 15334 منذ بداية الحرب في 1975[3].

توجه السفير الأميركي إلى مقرّه في اليرزة، الذي تحوّل بحكم الأمر الواقع إلى سفارة موقتة، ليدخل في اتصال مع واشنطن. فجرى إيقاظ رونالد ريغان وإحاطته علماً بما وقع في بيروت، عن طريق وليم كلارك، مستشاره لشؤون الأمن القومي.

لزم أكثر من أسبوع لانتشال جميع الضحايا من تحت الأنقاض (قرابة مئة جريح و69 قتيلاً). لقد فصل رأس الـCIA في الشرق الوسط عن جسدها، باستثناء وليم باكلي الذي نجا من الموت بسبب رغبته في التدخين[4]. وبدءاً من ذلك التاريخ، صارت الاستخبارات المركزية تنظّم ندواتها واجتماعاتها كافة في مقرّ لانغلي (ولاية فرجينيا).

---

(1) العنف والدبلوماسية في لبنان مرجع سبق ذكره.

(2) بالعربية في الأصل.

(3) المصدر: إحصائيات جهاز الأمن اللبناني.

(4) تم اختطافه على يد الجهاد الإسلامي في 16 آذار/مارس 1984 ومات تحت التعذيب بعد ذلك بعام. وقد تم تغيير كل إجراءات الحماية التي كان قد وضعها حول مقرّ الرئاسة في غضون 48 ساعة من اختطافه.

حطّت في مطار بيروت الدولي، بعد وقوع الاعتداء بخمسة عشر يوماً، طائرة نقل ضخمة تابعة لسلاح الطيران الأميركي. فرفِعت إليها بسرعة، سبعة عشر تابوتاً من الخشب البني، أُلصِقت فوقها صفائح دُوِّنت عليها بأحرف كبيرة سوداء أسماءُ الضحايا. ثم أقلعت على الفور.

كان في جملة ما حملت معها ترجمات الرسائل القادمة من طهران إلى مقر السفارة الإيرانية في دمشق والتي التقطتها «الآذان الكبرى» لأجهزة الاستخبارات الأميركية، المقيمة على ظهر البواخر في عرض سواحل بيروت، فقد اعترضتها عبر الأقمار الصناعية، وتوصّلت إلى فكّ رموزها. توافق إحدى تلك الرسائل على صرف 25 ألف دولار (مقابل هجوم) على مكان غير محدّد في النص. وواحدة أخرى تطلب إلى سفارة إيران تقديم دعمها لإيرانيين اثنين ينبغي مرورهما عبر دمشق للذهاب إلى بيروت. قامت السفارات الأجنبية الواقعة في غرب المدينة بترحيل مقراتها بسرعة إلى الأحياء المسيحية.

أثبت التحقيق أن حسن يحيى وهو واحد من الحرس الشيعة للسفارة الأميركية في بيروت، عضو في (لواء الجهاد الإسلامي) [1] – أنشئ عام 1972 على يد ياسر عرفات بناءً على طلب الأميركيين – كان يقود الشاحنة الانتحارية. لقد ولد في رشاف عام 1965 في حاضرة في جنوب لبنان.

بعد ذلك بعشرة أعوام في أول أيار/ مايو 1993 نسقت محكمة بيروت العسكرية، بناءً على التماس سرّي من الحكومة اللبنانية، ملفّ (هجوم على سفارة الولايات المتحدة في 18 نيسان/ أبريل 1983) مع الإعلان في حيثياتها أنّ (هذه الجريمة السياسية تقع تحت حكم قانون العفو). إنّ قرار الاتّهام الذي كان قد جرّم حسين صالح حرب وسامي محمود الحجة ومحمود موسى ديراني ومحمد نايف جودة ومحمد حسن حرب وعلي مصطفى حيدر قد جرى إلغاؤه.

في الأسبوع الذي شهد الاعتداء أحيت سورية باحتفالات كبرى جلاء قوات الانتداب الفرنسية عن سورية عام 1946. جرى تنظيم مسيرات في أنحاء البلاد كافة حول شعار (مواصلة الكفاح حتى جلاء الاحتلال الصهيوني عن فلسطين). وألقى الأمين القومي المساعد لحزب البعث زهير مشارقة خطاباً جاء فيه: **إنّ سورية تعارض الحلول الانهزامية كافة**. لقد أصابت جملة زهير مشارقة أو الاعتداء (ما لم يكن الاثنان معاً) الهدف، في القصر الرئاسي في بعبدا. لقد فقد أمين الجميّل على نحو مباغت ثوابته. وإضافة إلى ذلك قد أدرك الرئيس، مثل الكثير من زعماء العالم العربي، أن شاحنة الـ GMC التي دمرت السفارة الأميركية قد ألحقت أيضاً ضرراً كبيراً بصورة أميركا الفائقة الجبروت. ولم تشأ واشنطن ممارسة أعمال انتقامية بسبب العجز عن تحديد المذنبين بدقة. لم

(1) العودة إلى كتاب أسرار حرب لبنان، آلان مينارغ، الجزء الأول، الفصل 12.

تستطع الولايات المتحدة أن تعاقب ذاك الذي رفع يده عليها وكان ذلك في الشرق الأوسط دليل ضعف.

في 23 نيسان/ أبريل 1983 وبعد خمسة أيام عن الانفجار عاد الرئيس اللبناني، في خطاب مذاع على الأمة إلى مكاسب المفاوضات. وقد أعلن قائلاً:

إن كل اتفاقية بين البلدين ينبغي أن تؤكد بوضوح على الانسحاب الكلّي (الإسرائيلي) من الأراضي اللبنانية كافة وإنّا لنفضّل عدم توقيع الاتفاقية على أن نتنازل عن حقوقنا لأي قوة مسلحة أجنبية فوق أرضنا. [. . .] لقد دخل الإسرائيليون إلى لبنان بحجة تأمين حماية.الجليل أما اليوم فهم يطالبون بشيئين اثنين: أولاً إقامة علاقات طبيعية مع لبنان أي علاقات مماثلة لتلك التي تقوم بين فرنسا وبلجيكا على سبيل المثال. ومن ثم، بعض الضمانات على الحدود التي لا يمكن الحصول عليها، حسب رأيهم إلاّ عبر الإبقاء على وجود عسكري إسرائيلي، يتوجّب على لبنان الاعتراف به شرعياً بإشراك الجيش اللبناني فيه. حين صاغت إسرائيل هذين الطلبين كانت تعرف مسبقاً أنها لا تستطيع بلوغ غاياتها بسهولة فجرى اللجوء إلى وسائل شتى للقيام بضغط، لكنّهم اضطروا للتفاوض مع الدولة اللبنانية، التي تمسك وحدها بحق تقرير المصير. [. . .] الكل يعرف ما موقفنا: رفض التطبيع لكن العمل بقصد إنهاء حالة الحرب. أمّا بشأن قضية سعد حدّاد فنحن نعتبر أن الأمر يتعلق بقضية داخلية بحتة نستطيع تسويتها حين تتوافر بعض الظروف. لكنّا لن نقبل بحل يُفرَض علينا لا سيما وأنّ كان يتضمن مساً بمعنويات الجيش أو بكرامته، أو كان من شأنه منعه من القيام بالتزاماته. وإنّ من الصعب من ناحية أخرى إقناعي بأنّ أمن إسرائيل يقوم على عاتق شخص بمفرده مهما كانت قدراته. إنّ لبنان لن يقبل أيضاً مبدأ الدوريات المشتركة أو شروطاً أخرى تسيء إلى السيادة وإلى الكرامة اللبنانية.

كان هناك غضباً عارماً في إسرائيل. ولم تجد الصحافة كلمة قوية تكفي للنيل من أمين الجميّل فعمل مردخاي بن بورات، وهو وزير بلا حقيبة وأهارون أوزان وزير الشؤون الاجتماعية بإدراج الانسحاب الجزئي وأحادي الجانب للجيش الإسرائيلي حتى نهر الأولي، في جدول أعمال الحكومة الأسبوعي، أما أريل شارون فكان له تعليق موجز لكنه يتميز بالضراوة: **مع مضاعفة التصريحات من هذا النوع لن يعود أمين الجميّل رئيساً إلاّ على بعبدا وربما على بيروت الشرقية إذا ما حالفه الحظ.**

جرى التصويت على الانسحاب حتى الأولي من قبل مجلس الوزراء في 25 نيسان/ أبريل. لكن لم يُنشَر علناً. وكان على جورج شولتز أن يأتي للمرة الأولى في زيارة رسمية لإسرائيل بعد ذلك ببضعة أيام. وقد رغب الوزراء في سماع كلامه قبل الإعلان عن قرارهم.

لم تكفّ موجة الإسرائيليين (المعادين للبنان) عن التعاظم. كانت تتألف من أولئك الذين يؤكدون بصورة مكشوفة، وعلى مستويات الحكومة والإدارة كافة، على أنّهم أصيبوا بالقرف وأن

الكيل طفح بهم. كانت النواة الصلبة لهذه (المدرسة) تقع وسط الجيش. فالمداخلات المتزايدة في بريد القراء في الصحف والافتتاحيات وفي الاجتماعات العامة، تحثّ الحكومة على التخلي عن فكرة جعل لبنان، البلد العربي الثاني في توقيع اتفاقية السلام مع الدولة العبريّة. لقد كان مستشارو الحكومة مجمعين إجماعاً شبه تام على مخطط يتوجب على تل أبيب بموجبه أن ترضى بالأهداف المبدئية لعملية «سلام الجليل». وإنّ قوات سعد حدّاد سوف تتكفل بأمن لبنان الجنوبي مع مساعدة محدودة من القوات الإسرائيلية الخاصة. أما الذين تحالفوا (مع هذه الحركة) فكانوا يعبّرون قبل كل شيء عن خيبة أمل عميقة ونوع من الغضب ضد المسيحيين اللبنانيين وخصوصاً (الفصائل الكتائبية)، التي كانوا يلومونها على جحودها وفقدانها الإحساس وعلى روحها الفردية المتطرّفة. أما (اللوبي المؤيّد للبنان)، فكان على رأسه رجال مثل ديڤيد كيمحي ومناحيم ناوت (مندي) وأڤنير أزوالي. فكان هؤلاء يطلبون من جانبهم أن تؤخذ بالاعتبار حدود الهامش اللبناني في المناورة ونظامه (الخاص) في العالم العربي. وكانوا ينادون (بالصبر) و (التفاؤل) حيال قدرات الزعماء اللبنانيين على أن يفهموا أنّ بلدهم، خارج نطاق التعامل مع إسرائيل، ليس له أي أمل في أن يصير قوياً وديمقراطياً ومتحرراً تماماً من (الإرهابيين).

لكنّ هاتين (المدرستين) تلتقيان حول نقطة واحدة فبعد رفض الملك حسين ملك الأردن الانضمام إلى مخطط ريغان، وخصوصاً بعد الاعتداء على السفارة، فإنّ السلطة التنفيذية الأميركية باتت بحاجة لتحقيق نجاح في لبنان.[1] وعلى ذلك كانت تنتظر زيارة جورج شولتز بحذر.

لقد لعب جنبلاط بشيء من النجاح ورقة الدفاع عن طائفته باستخدام السكان الدروز في فلسطين (إسرائيل)، لكي يتصدّى لسياسة شارون «المعادية للدروز». واعترف فيما بعد قائلاً: **عملنا بادىء الأمر على تنظيم تظاهرات أمام الكنيست. فلجأتُ في سبيل ذلك إلى المشايخ ولا سيما الشيخ أمين طريف[2]، وشيخ العقل اللبناني[3]. ثم واصل تلك «التقنية» بإجراء اتصالات مع المقرّبين من موشيه أرينز. وأحاط تل أبيب علماً، قبيل عيد النبي شعيب في الجليل، بأنّ لديه رسالة هامة يريد إبلاغها لـ«السلطات» الإسرائيلية. فمنح أرينز إذناً بدخول وفد درزي من 1300 شخص قدموا من حاصبيا والشوف للمشاركة في الاحتفالات.**

يحيي ذلك العيد الذي يعود إلى أكثر من مئة عام، ذكرى النبي شعيب، وهو حمو موسى ومؤسّس الديانة التي يعتمدها الدروز. وكان للاحتفالات أن تدوم أربعة أيام، فتبلغ ذروتها في الصلاة الجماعية التي تقام عند قبر النبي شعيب، قرب طبريا.

---

(1) قصة نجاح success story .

(2) توفي في 4 تشرين الأول/أكتوبر 1993.

(3) من وليد جنبلاط لآلان ميناري. أيار 1992.

اندسّ بين صفوف الحجاج عدد من الشخصيات القادمين باسم وليد جنبلاط، ليعرضوا على المسؤولين الإسرائيليين، بصراحة وصدق، مخططاً لإنشاء كانتون درزي (دويلة). وهكذا أحاط جنبلاط تل أبيب علماً بأنّه أضحى «مرهقاً» من نظام أمين الجميّل «المسؤول» عن القلاقل كافة في الجبل. فبات راغباً في إنشاء دولته الخاصة التي تضم الدامور ومنفذاً على البحر، فأهميته مصيرية لحياة الدولة. وأثار المشروع شغف المحدثين الإسرائيليين.

بدأت تنمو في إسرائيل، من حينها، فكرة كونفيدرالية كانتونات أو فيدرالية (دويلات) في لبنان، قائمة على أساس طائفي. وبدأ وضع مبدأ التقطيع قيد الدرس. فوُضِعت مسوّدة أولى لأربعة كيانات متميّزة: كانتون شيعي في الجنوب مرتبط ارتباطاً قوياً بالدولة العبريّة، وكانتون درزي في الشوف، وكانتون ماروني-سنّي ورابع روم أرثوذكسي-سنّي. أما حدود الاثنين الأخيرين فيجري تحديدها لاحقاً. ويدير كل واحد من هذه الكانتونات شؤونه المحلية ويكون له ممثلون على الصعيد الفيدرالي مع سلطات محدودة ورمزية. وتتقاطع هذه «الفكرة» مع مفهوم «العرين» الذي فكّر فيه أنطوان نجم في حال انكفاء دفاعي للطائفة المسيحية. ودعا الموساد وفداً من «القوات»[1] للقدوم إلى تل أبيب للتشاور. وجاءت حوّامة لنقله من عند محطة الزوق الكهربائية مساء يوم 25 نيسان/أبريل. فأمضى الوفد الليلة في فندق رمادا كونتيننتال في تل أبيب والتقى في حدود العاشرة من صباح الغد بمناحيم ناوت وفريقه[2] في قاعة اجتماعات في المبنى.

اعترف فادي أفرام قائلاً:

– ليس سيناريو حكومة مركزية قوية، تغطي مساحة 10452 كم[3] ومدعومة من الأميركيين، في مصلحتنا على المدى الطويل. وضع بشير نصب عينيه الـ 10452 كم، لكنّه فكّر أيضاً في «عرين» مسيحي بديلاً في حال الخطر. فإنْ لم تجرِ الانسحابات، ترجعْ القوات اللبنانية إلى أكبر قسم ممكن من الأرض المسيحية مع بنية تحتية ملائمة. نحن نقوم الآن بإعداد مخطط لبلوغ ذلك وندرس الحدود الأرضية لهذا الكيان، القابلة للدفاع عنها. أنا لا أقول بدولة مسيحية، بل دولة ذات أكثرية مسيحية. وعلينا في سبيل ذلك، أن نسترجع الشمال المسيحي. أمّا الاتصال الذي حاولنا أن نقيمه مع رفعت الأسد فيندرج في هذا السياق. وجرت محاولة تقارب أخرى معه، بمبادرة منه، ووساطة عاصم قانصوه[4] تقوم على أساس تفاهم علوي-مسيحي. بل هنالك بحث عقد اجتماع معه في مكان ما في الجبل. وسوف تكون الفكرة قيام دولة علوية في سورية حليفة للمسيحيين. إلّا أننا نعتبر

(1) فادي أفرام إيلي حبيقة أنطوان بريدي أنطوان نجم وليد فارس.
(2) عاميرا (قسم التنسيق)، ميخا (محلل في قسم التحري)، سيمون بيغال (محلل)، أمون (قسم الإرسال للموساد في لبنان).
(3) المساحة الكلية للبنان.
(4) الأمين العام لحزب البعث في لبنان. الموالي لسوريا.

الإبقاء على حدود مشتركة بيننا وبينكم مسألة حيوية. ومن هنا كانت العلاقات مع الدروز تتسم بالأهمية. فيسعنا التوصّل معهم لاتفاق حول أن تُسنَد إليهم وظائف عليا على الصعيد المركزي. وهذا ما يريدون على أي حال. أما على الصعيد العسكري فنحن بصدد إنشاء قوة عسكرية قوامها 3000 رجل، مجهّزة بأفضل الأسلحة. فتكون مقيمة في مناطقنا وتشكل قوة الصدم بيد السلطة.

فقال مندي مخففاً من قوة الحديث:

– يبدو ضئيلَ الاحتمال في نظري، تفكيرُ العلويين في الوقت الراهن، بالتخلّي عن دمشق. ولست أفهم إلحاح رفعت الأسد على التصدي لذلك الآن. قد تكون هنالك أسباب أخرى. فأنا لا أعتقد أن يكون أساس هذه القضية مسألة علوية. فالوجود السوفييتي في سورية، وتغيير النظام في روسيا والوضع في العالم العربي، أعطت السوريين انطباعاً بأنّ الوضع في مصلحتهم. إنّهم يشعرون بقوّتهم، فقد يكون ذلك هو الباعث على دعوتهم. أما المسألة الكبرى الراهنة فهي التالية: هل سينسحب السوريون من لبنان؟ لقد فكّرنا، مثلما فكّر الأميركيون، في أنّهم إنْ وجدوا وسيلة للحفاظ على وجود سياسي، من غير ضرورة الإبقاء على وجود عسكري، فسوف ينسحبون. ونحن أيضاً، نرغب في التحدث إلى السوريين. فليس المكان بذي أهمية، وليست المسألة سوى مسألة أمنية.

فأكّد فادي أفرام قائلاً:

– لا أعتقد بوجود بديل في حال انسحاب سوري. فالرئيس اللبناني يعتمد على الأميركيين. وكانت لي بالأمس محادثة هاتفية مع بوب باسيل، رئيس الجامعة الأميركية اللبنانية. فأكّد لي أنّ واشنطن يمكن أن ترضى بنصر دبلوماسي مع انسحابات جزئية. فينبغي للأجزاء المحررة، في هذه الحال، أن تكون مسيحية.

فقال الرجل الثاني في الموساد:

– إنّ ميلاً جديداً نحو انسحاب وحيد الجانب، بدأ يبصر النور بشكل جاد عندنا.

غير أنّه لم يُحِط محدّثه علماً بأنّ الحكومة الإسرائيلية قد اتخذت ذلك القرار.

وقال إيلي حبيقة مستفسراً:

– ألديكم معلومات حول المعونة العسكرية السورية للدروز؟

– ليس من شيء محدّد.

دعا مندي بعد ذلك زعماء القوات اللبنانية للغداء في دار الموساد للضيافة. ففوجئوا، لدى دخولهم الصالة، بوجود رجل ذي جسامة، ينظر إليهم جالساً، وابتسامة صغيرة على شفتيه: إنّه أوري لوبراني. فعرفوا فيه للمرة الأولى الرجل الذي كان، منذ عدة شهور، يعمل على لبنان في الظلّ. وأومأ داعياً إياهم للجلوس. لقد جرى توّاً تعيين لوبراني رسمياً، من قبل أرينز، «منسّقاً

للشؤون اللبنانية كافة». سبق أن كان السفير الإسرائيلي «شبه الرسمي» في إثيوبيا ثم في إيران حيث كان مناحيم ناوت مساعداً له. ثم استقال إثر عودته من طهران، لينخرط في مجال الأعمال ممثلاً لشركات أجنبية في إسرائيل. أما أرينز، الذي كان يعرفه حق المعرفة، فقام باستدعائه وفرضه فرضاً على كل من مناحيم بيغن وإسحق شامير. كان لوبراني معروفاً بذكائه العملي المجرّد من كل حسٍّ عاطفي. فهو الذي «قارب الدروز» ودرس فكرة الكانتون الدرزي عن كثب. وذلك ما كان الزعماء المسيحيون يجهلونه.

– أنا سعيد بالتعرّف إليكم، لا سيّما وأنّي في بداية مهمّتي (نسي أن يوضح أنّها «رسمية»). فماذا بودّكم أن تسمعوا، لو كنتم أنتم مكاني؟

فأجاب أفرام بحذر:

– إنّما نودّ بشكل خاص أن نصغي إليك.

– جرى تعييني للقيام بتنسيق كل شيء. لقد كنت مستشار بن غوريون لشؤون الشرق الأوسط، ثم مدير مكتب رئيس الوزراء، فسفيراً في أوغندا وغيرها. بعد ذلك أرسلتني غولدا ميئير إلى إيران. وانسحبت من بعد، للعمل في الشؤون الخاصة، إلى حين أن عاد رئيس الوزراء فاستدعاني.

– أهلاً بك في الغاب اللبناني.

– لقد زرت لبنان ثلاث مرات. لا أعتقد أنّه غابة. فهو بلد جميل جداً.

أوضح له قائد القوات اللبنانية، أثناء الطعام، لِمَ يعتبر نزاع الشوف نزاعاً خاطئاً. واقترح أفرام على لوبراني التدخّل للتقريب بين المسيحيين والدروز. فألقى لوبراني بعض الأسئلة دون الغوص عميقاً. ثم تحوّل الحديث نحو الشيعة وحجمهم الديموغرافي، ونحو سعد حدّاد وضعف الجيش اللبناني.

فقال مبدياً دهشته:

– تقصد أن تقول لي إنّكم ملزمون، مع كل الدعم الذي قدّمه الأميركيون للجيش، بالحفاظ على قواتكم إذا ما دعت الضرورة؟

فرد إيلي حبيقة قائلاً:

– إنّ إعادة هيكلته عمل سياسي قبل كل شيء. فليس لهذا الجيش أي قدرة عسكرية حقيقية.

فسلّم المنسّق الجديد قائلاً بابتسامة خفيفة:

– هل تعتقدون أنّا نقوم بعمل غير صحيح؟ فنحن لسنا بملائكة.

المفارقة في الأمر أنّ أي واحد من محاوريه لم يُثِر قضية تسليح الدروز عن طريق سورية. فقد ألحوا على ضرورة الإبقاء على العلاقات بينهم وبين الدولة العبريّة، وعلى انسحاب الجيش السوري، ولو كان جزئياً.

وقال له فادي أفرام:

– لئن احتفظوا بمنطقة الهرمل حيث السكان كلّهم مسلمون، فلن يسيئنا ذلك.

فطلب إليه لوبراني تكرار جملته التي تصبّ تماماً في ملفّ «الكانتونات».

– إنّ ما تقول لـعظيمُ الأهمية. فهو العودة إلى الفكرة الفرنسية حول «لبنان مسيحي صغير». وإنّ ذلك لحسنٌ في رأيي.

ثم خلُص لوبراني إلى القول: **أنا منفتح على الأفكار كافة ولمّا أقرر ما السبيل الذي سوف أسلك. وبودي إقامة أفضل صلة ممكنة بين إسرائيل ولبنان. وأعتقد أنّ لبنان سوف يكون الأفضل بين جيراننا. فمصيرنا هو ذاته، وعلينا أن نتصرّف بهدي من مصلحة الأجيال القادمة.**

قام مندي، بعد العصر، بمرافقة اللبنانيين الأربعة إلى وزارة الدفاع حيث كانوا على موعد مع موشيه ليڤي القائد الجديد لأركان الجيش الإسرائيلي وعدد من ضباطه[1]. دار الحديث أساساً، وهو لم يستغرق أكثر من ساعة، حول تنظيم دورات تدريبية للميليشيا المسيحية وتزويدهم بالعتاد، لكن باستثناء قذائف المدفعية. فقد سقط بعضها «فوق رؤوس» الجنود الإسرائيليين أثناء المعارك بين المسيحيين والدروز في الجبل ولم يلقَ ذلك أيّ قبول في إسرائيل. ثم جرت من بعد إعادة وفد «القوات» إلى الزوق داخل حوّامة.

في اليوم التالي، وصل جورج شولتز الذي لوحته الشمس، 27 نيسان/ أبريل 1983، إلى تل أبيب، وهو يرتدي بزّة رمادية بلون فاتح. وما كاد يقطع مسافة الـ 72 كم، التي تفصل مطار بن غوريون عن القدس، حتى استقبله مناحيم بيغن. دام اللقاء مع رئيس الوزراء ساعة ونصف الساعة. وكانت المسألة التي جرى بحثها خصوصاً تتعلّق بالوجود السوري في لبنان والوجود السوڤييتي في سورية. وقام مناحيم بيغن باستدعاء اثنين من «المومونى»[2]، وهما: ناحوم أدموني رئيس الموساد، وإيهود باراك، الرئيس الجديد لجهاز آمان، ليشرحا لمحدّثه، مستعينين بالخرائط، مكان مواقع صواريخ سام 5. وكشف رجلا الاستخبارات للزائر الأميركي، عن وجود أربعة آلاف خبير سوڤييتي في سورية. كما أكّدا أنّ بحوزتهما براهين على أنّ طيارين سوڤييت يتولّون قيادة الحوّامات المتخصصة بالحرب الإلكترونية. وقدّما له إيضاحات دقيقة حول نشاط القوات السورية في لبنان والدعم الذي يقدّمه لها السوڤييت. وأخبرا أيضاً وزير الخارجية الأميركي بالأنباء التي تبرهن على الضغوط التي تمارسها دمشق على بيروت من أجل «عرقلة» المفاوضات، إضافة إلى نصّ صادر عن

---

(1) الجنرال أوري ساغي قائد المكتب الثالث، الجنرال ديڤيد إيڤري مساعد ليڤي، العقيد يوحاڤ غولان قائد جبهة شمال الشوف في عاليه، والجنرال فورمان قائد الإمداد.

(2) تعني بالعبريّة: المكلف بالحمل. لقب ابتدعه بن غوريون ولم يتم الاعتراف به رسمياً وكان يطلق على الذين يديرون أحد أقسام الاستخبارات الثلاثة (الموساد، وآمان، والشين بيت).

دمشق يوضح أنّ سورية تريد عقد اتفاقية دفاع سورية-لبنانية مشتركة تشترط أيضاً أن يكون تدريب الجيش اللبناني في سورية[1]. أصغى جورج شولتز بكل انتباه، ودوّن ملاحظات من غير أن يدلي بأي تعليق. وتوجّه، وهو خارج من عند رئيس الوزراء، إلى مقر نظيره الإسرائيلي. فقام شولتز وشامير، بتعداد النقاط المختلف عليها كافة في المفاوضات، طوال ثلاث ساعات كاملة، لم تقطعها سوى استراحة قصيرة لتناول السندويش. ولم يكن في تلك النقاط ما يمثل صعوبة حقيقية.

وبعد أن أمضى شولتز ليلته في فندق الملك داود، في غرفة تطل على أسوار القدس القديمة، توجّه إلى بيروت.

هبطت طائرة البوينغ الأميركية على المهبط رقم 18 من مطار بيروت الدولي في الساعة الحادية عشرة، وسط إجراءات أمنيّة لم يسبق لها مثيل. لقد وُضِع جنود المارينز كافة «الذين يضبطون المنطقة» في حالة استنفار قصوى، بينما كان يحوم فوق رؤوسهم عدد كبير من حوّامات الهجوم، من التي على ظهر الحاملة «غوادالكانال»، وكأنّها تؤدّي رقصة باليه جوية. لقد استخدم وزير الخارجية، على كل حال، واحدة منها للذهاب من المطار إلى مقرّ السفير الأميركي في اليرزة. وقادته بعدئذ من هنالك، سيارة مصفحة، إلى القصر الجمهوري، القريب جداً، في حدود الواحدة والنصف ظهراً، حيث ينتظره على غداء عمل الرئيس أمين الجميّل ومساعدوه. وكان صوت قصف مدفعي يسمع من بعيد. بل إنّ بريق القذائف كان مرئياً فوق عاليه وسوق الغرب. وسأل شولتز أثناء الغداء، من الذي سيوقّع عن الجانب اللبناني على الاتفاقية بين بيروت وتل أبيب. وأضاف قائلاً:

- يصرّ الإسرائيليون على أن يوقّع على النص وزراء خارجية البلدان التي شاركت في المحادثات.

فردّ وزير الخارجية اللبناني، إيلي سالم، مبدياً تعجبه:

- ليس ذلك موضع بحث! ليس الأمر اتفاقية سياسية، ولا معاهدة سلام، فسوف يوقّعها بالتالي رسميّون ذوو صلاحية مطلقة.

- ولِمَ لا يكون التوقيع على مستوى الوزراء؟

- لأننا لا نرغب في أن يقول أحد ما إنّا نوقع معاهدة مع إسرائيل أو إنّا التزمنا بعملية سلام معها. فنحن مع الاتفاق لكن لسنا مع معاهدة تكون بعض بنودها معادلة للاعتراف بالدولة العبريّة. فإلحاح إسرائيل لمصلحة اعتراف مباشر ليس مقبولاً.

كان جورج شولتز يظنّ بكل ثقة أنّ الرئيس الأسد سيقبل بالاتفاقية. فأضاف يقول: **سوف نتفاوض مع سوريا. فلدينا عليها، من التأثير، أكثر مما يبدو. وللسوفييت تأثير عليها أيضاً، لكنهم لا**

---

(1) وقد تم التوقيع على هذا الاتفاق الثنائي في شتورة عام 1992.

يستطيعون أن يُملوا عليها سياستها. وإن كان لأحد من تأثير على الأسد، فتلك هي البلاد العربية. سوف نعمل ضمن هذا الاتجاه. أنا لمّا ألتقِ الأسد، لكن سأقوم بذلك عمّا قريب. أعتقد أنّ بوسعي العمل معه. سوف نوضح ذلك للسعوديين وهم سيقومون بمساعدتنا. (1)

أمضى وزير الخارجية فترة بعد الظهر في مواجهة الحلول حول النقاط المتنازع عليها. ثم استقل الحوّامة للذهاب إلى المطار. وفيما كانت تحط أمام طائرته البوينغ البيضاء، التهب الخط الممتد في أعالي الشوف، من عاليه إلى سوق الغرب، كأنّما تحية لرحيله. فاندفع جهاز الأمن يستعجل الرحيل وانتُزِعت الطائرة من على الأرض وسط هدير محركاتها النفاثة باتجاه تل أبيب.

التقى مجدداً في اليوم التالي، متسلّحاً بالنتائج التي حصل عليها في بيروت، بمناحيم بيغن ثم بالزعماء الإسرائيليين على مدى 4 ساعات ليشطب النقاط السوداء الأخيرة من اتفاقية أضحت عملياً مبرمة.

وصفت صحيفة تشرين في دمشق، وهي التي تعكس المواقف الرسمية، رحلة جورج شولتز بـ «العدائية». **إنها لن تؤدي إلاّ إلى خيبات [. . .] وعلى ذلك فإنّ سوريا لا تشعر بأنها معنية بهذا الزائر ولا بزيارته [. . .] فسوريا متمسّكة بإيقاف الضغوط التي تفرض على لبنان تسويات تحمل مسّاً بسيادته وكرامته. وإذ نضع في اعتبارنا أنّ الصلات اللصيقة، بين سوريا ولبنان، عضوية واستراتيجية وتلامس المصير المشترك، فلا يسعها أن تكون موضوعاً لأي مساومة أو أي نقاش.** أما الإذاعة الرسمية فانبرت تقول: **لم يعد بعيداً الوقت الذي ستطالب فيه إسرائيل بتسمية رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة والوزراء اللبنانيين.** (2)

لقد تعهدت سوريا العمل وانتظرت أن يحين الوقت، واعيةً لإحاطتها بكل شيء وبمتطلباتها في أذهان اللبنانيين.

تجمّع عدّة مئات من المدنيين المسيحيين في 29 نيسان/ أبريل أمام مركز القيادة الإسرائيلي في بحمدون وقطعوا الطريق الدولية احتجاجاً على قيام الدروز بفتح طريق يؤدي إلى قرية الغابون، في حين كان محظوراً عليهم الذهاب إلى عاليه. وقد طلب مسؤول محلي من القوات اللبنانية إلى العقيد الإسرائيلي بالتدخل. فردّ عليه قائلاً:

- إنّما على رئيسكم أن يفتح هذه الطريق.

كان عناصر الميليشيا من الحزب التقدمي الاشتراكي قد تمركزوا في اليوم السابق، في بناء ما كان ينبغي أن يحتله أحد من الأطراف، بموجب اتفاق وقف إطلاق النار الموقّع بضمانة إسرائيلية. أما القوات اللبنانية التي طالبت برحيلهم فقد جاءها الرد القائل:

---

(1) العنف والدبلوماسية في لبنان، م س.

(2) وهذا تقريباً ما ظلت تفعله سوريا حتى عام 2005.

- لماذا لا تعطونهم وزارة في الحكومة؟

عندئذ فتح رجال الميليشا المسيحيون النار على الدروز، وبعث فادي أفرام برسالة إلى مندي:

عاجل جداً.

من فادي أفرام إلى مندي

أ- إنّ موقف الجيش الإسرائيلي ووضعه في منطقة عاليه قد خلفا شعوراً بالمرارة والمباغتة لدى السكان المسيحيين في المنطقة. فالجهود كافة التي بذلناها أخيراً لتبديد الشعور بأنكم تساعدون الحزب التقدمي الاشتراكي قد نسفت يوم أمس.

ب- كشف بتوقيت الأحداث:

- قام (المقدم) إميل شربيط من القيادة العامة (للجنرال) أمنون (ليبكنز) باستدعاء فؤاد أبو ناضر، في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، ليخبره بأنّ الدروز سيبدأون في صباح الغد وفقاً لأوامر الجنرال دروري، بشق طريق بالبلدوزرات، تصل عاليه بقرية الغابون.

- ذهب فؤاد في الليلة ذاتها للقاء أمنون. ورأى أنّ الرأي الصائب هو شقّ طرقات تصل القرى الدرزية في ما بينها والقرى المسيحية في ما بينها. فمن شأن ذلك التخفيف من التوتر وهو ما نصبو إليه. وطلب فؤاد من أمنون تأخير البدء بأعمال الدروز لإعطائنا الوقت لنبدأ بأعمالنا على طريق سرجبال-دير القمر.

- فأجابه أمنون أنه سيعطيه الجواب غداً صباحاً.

- فوجئنا في الصباح برؤية الدروز وقد بدأوا الأعمال تحت الحماية الإسرائيلية ودون تلقّي الجواب حول طريقنا من سرجبال-دير القمر.

- بدأت قواتنا بإطلاق النار لتوقيف الأعمال.

- اجتمع فؤاد مع أمنون في المساء. فأكّد هذا الأخير أنّ الجنرال دروري أصدر الأوامر بمواصلة الأعمال في صباح الغد وأنّنا إذا ما حاولنا إيقافها فسوف يقوم الجيش الإسرائيلي بطردنا من المنطقة.

وقد تضمنت أوامر دروري أيضاً:

- إننا نستطيع البدء بشق طريق بين المشرف وجسر القاضي (هذه الطريق تمرّ بالقرب من قرى درزية وليست مأمونة بالنسبة إلينا).

- أما بشأن الطريق بين سرجبال-دير القمر، فليس الجواب بالنفي، لكنّه يتطلب مزيداً من الدراسة (إنّما هذه هي الطريق الحيوية التي نريدها نحن).

ج- أستحلفك ببذل ما تستطيع مع العسكريين لإعطائنا الإذن ببدء الأعمال على طريق سرجبال-دير القمر، وأن يضمنوا لنا عدم قيام الدروز بإطلاق النار على بلدوزراتنا.

د- صدّقني: ليس هذا هاماً فقط من وجهة النظر العملية وإنّما من أجل معنويات السكان أيضاً. فينبغي للناس أن يروا أنّكم تدعموننا على أرض الواقع. إنّ ما شاهدوا بالأمس كان طعنة رهيبة لمعنوياتهم ولثقتهم بكم. إنّا نفقد مصداقيتنا لدى السكان المسيحيين حين نحاول الدفاع عنكم.

هـ- تتطلّب طريق عاليه-الغابون من يومين إلى ثلاثة أيام من العمل. في حين أنّ الطريق بين سرجبال-دير القمر تتطلب ثلاثة أسابيع على وجه التقريب. ونحن نحتاج لإشراف منكم طوال فترة الأعمال كلها.

و- أعلن عن أسفي لإزعاجكم بمثل هذه القضية، لكن صدقوني، إنّها قضية هامّة.

ز- مع أطيب التحيات.

ووقع الجواب بعد ساعات قلائل:

إلى فادي أفرام من مندي،

1-علمت بقضية الطرق يوم أمس واستلمت رسالتك اليوم. أعرب لك عن أسفي لكن ذلك لا يخدم أهدافنا المشتركة.

2-انتهيت توّاً من مناقشة طويلة مع الجنرال دروري وطلب إلى أمنون (ليبكنز) أن ينقل إليك مضمونها.

3-سيجتمع الجنرال دروري معكم غداً في 30 نيسان/ أبريل. سوف يشرح لكم بالتفاصيل كافة، آخر التطورات الجديدة التي تسبّبت بهذا التوتر الجديد. فهنالك، حسب قول دروري، مشكلات في تنفيذ الاتفاق. ويؤسفني أن يكون ذلك جزئياً نتيجة خطأ منكم. فاستحلفك أن تبذل ما تستطيع لتصحيح ذلك.

4-يدعم الجنرال دروري أهدافنا دعماً تاماً وهو يودّ مساعدتكم قدر المستطاع، كما سيقول لكم بنفسه يوم غد. طُلِب إليه مساعدتكم على شق الطريق بأسرع ما يمكن وأن يتأكد من اتخاذ الدفاعات الضرورية كافة.

5-طلبت إلى أمنون البقاء باتصال مباشر معكم لضمان أفضل تنسيق وتفادي سوء التفاهم.

6-لا ترددوا بالاتصال بنا لكل مشكلة وفي كل وقت.

أفضل التحيات.

عقد الاجتماع بين عامير دروري وفادي أفرام وفؤاد أبو ناضر مثل ما أعلن عنه في 30 نيسان/ أبريل في مقر القائد الإسرائيلي المقيم، غير بعيد عن مدرسة الجهمور. وجّه عامير دروري اللوم للبنانيين الاثنين على فتح النار. وألحّ على الضرورة «المطلقة» لتهدئة المنطقة. فأشار أفرام إلى الطابع الحيوي لفتح الطريق إلى دير القمر. فوعد الجنرال الإسرائيلي بدراسة المسألة دراسة جدية.

لكن الطريق لم تشق على الإطلاق.

قبل ذلك بساعات ومع بداية النهار، هبطت طائرة جورج شولتز في بيروت، وسط الإجراءات الأمنية ذاتها التي جرت قبل ثلاثة أيام. وبدا وزير الخارجية على الفور بدراسة المحاضر الرسمية كافة للمناقشات الثلاثية مع أمين الجميّل. وعلّق موظف رفيع المستوى كان حاضراً بقوله: **هذا يذكرني بالمخاض الذي يسبق الولادة.** مع حلول المساء، وعلى الرغم من 9 ساعات من العمل، لمّا تنتهِ الدراسة. فقرّر شولتز قضاء الليل في العاصمة اللبنانية والانتهاء في صبيحة الغد. تناول العشاء في مقر الرئاسة، وأخلد إلى النوم بعد انتصاف الليل بنصف ساعة تقريباً. ما إن أطفئت الأنوار في الطابق الذي يقيم فيه، حتى انفجر صاروخان من نوع «كاتيوشا» عيار 122 مم ومن صنع صيني، في حديقة مقرّ السفير الأميركي حيث جرت استضافته.

ألمحت صحيفة «تشرين» السورية، في عددها الصادر في اليوم التالي، إلى الصاروخين، فأكدت قائلة: **إن كل مسؤول أميركي، يزور المنطقة، بحاجة لسماع قصف المدافع لتذكيره بما يجري.**

12

اتفاقيات 17 أيار/مايو

توجّه إلى دمشق، في 2 أيار/ مايو 1983، كل من وزير الخارجية اللبناني إيلي سالم، وجان عبيد، مستشار الرئيس اللبناني للشؤون السورية، والعميد عباس حمدان، عضو الوفد اللبناني للمحادثات الثلاثية، على متن حوّامة من نوع پوما، تابعة للجيش اللبناني[1]. فقد طلب إليهم أمين التوجه لإحاطة الرئيس السوري علماً بمضمون الاتفاقية واستطلاع رأيه.

إنّ الإعلان سهل، إنّما الإنجاز صعب. كان يخامر الرجال الثلاثة، طوال فترة الطيران التي استغرقت نصف ساعة للوصول إلى العاصمة السورية، توجّس دفين يتعذّر تعريفه. كان عبد الحليم خدام ينتظرهم في مطار المزّة. فجعل سالم يصعد إلى جانبه في سيارته المرسيدس المصفّحة بأبوابها المبطّنة من الداخل بأسلحة من صنع سوفييتي. ففيها ما يكفي لمقاومة حصار. ذلك أنّه نجا من عدة اعتداءات، فحرص من حينها على تنظيم حماية نفسه ومن معه[2].

قاد الوزير السوري زميله اللبناني إلى عند الأسد على الفور. وبعد تبادل التحيّات المعهودة، انفرد إيلي سالم في حديث طويل. فوصف مختلف نقاط الاتفاق وصفاً مفصّلاً وشدّد على المطالب الإسرائيلية التي رفضها اللبنانيون. وأصغى إليه الرئيس السوري بكثير من الانتباه، فكان يقاطعه للاستيضاح حول تفصيل أو مسألة، وغالباً ما يكون ذلك حول نقاط ذات طبيعة أمنية أو عسكرية. وحين أوضح له سالم أنّ النص يضع خاتمة لحالة الحرب، قاطعه الأسد قائلاً:

– هل ينوي لبنان الانسحاب من حلف الدفاع العربي؟

– كلا، بكل تأكيد.

تمهّل الرئيس السوري بضع دقائق، قبل أن يردّ بابتسامة جذابة وبكثير من البشاشة قائلاً: وجهة نظرنا مختلفة عن وجهة نظركم. وانطلق من بعد في عرض تاريخي طويل قبل أن يقول

---

(1) العنف والدبلوماسية في لبنان م س.

(2) العودة إلى الفصل الثاني من كتاب أسرار الحرب اللبنانية، الجزء الأول، آلان مينارغ، 2004.

موضحاً: لقد حررنا سوريا من العثمانيين ثم من الفرنسيين من غير جيش قوي. ولدينا الآن جيش قوي جداً فيسعنا القيام بما هو أكثر. إنّ التحرير قضية شعبية. فهي تتعلّق بالوقت وتتطلّب تضحيات. فالاتفاقية المعروضة عليكم تثبيت لزعامة بيغن وتعويض عن مغامرته في لبنان. فليس بوسع إسرائيل البقاء في لبنان إلى ما لانهاية. فانتشار قواتها مكلف واقتصادها على حافة التصدّع. وليس انسحابنا بمشكلة، لكن لا يمكن بأي حال أن يُقرَن بالانسحاب الإسرائيلي.

نحن لن نحاور إسرائيل. ولا يمكن لانسحابنا أن يتم إلّا ضمن سياق قرار الأمم المتحدة رقم 425[1]. وإذا ما حققت إسرائيل مكاسب في لبنان، فالجيش السوري لن ينسحب. لقد قطعنا علاقاتنا مع مصر لأنّها وقّعت اتفاقية سلام مع إسرائيل، فلا يسعنا أن نقطعها مع مصر ونبقي عليها معكم.

كان حافظ الأسد مبتسماً بل باشّاً. وتذكّر إيلي سالم وهو يصغي إليه قول المتنبي:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنّنّ أنّ الليث يبتسم

التقى اللبنانيون الثلاثة من بعد بمسؤولين سوريين آخرين. وقد لامهم الجميع على المفاوضات، أي على التنازلات. أما عبد الحليم خدام فكان الأكثر مباشرة ونطق بكلمة لا خمس مرات:

- لا مجال، أولاً، للبحث مع سوريا القبول بإعلان انتهاء حالة الحرب بين إسرائيل ولبنان. فليس ذلك من اختصاص بيروت وحدها، ولا بدّ من قرار يجرى اعتماده بهذا الشأن في جامعة الدول العربية. وثانياً: المبدأ ذاته بإجراء مفاوضات مع إسرائيل «في ظلّ الاحتلال والبندقية» مبدأ مرفوض، لأنه يكرّس خللاً في ميزان القوى. ثالثاً: إذا رغب اللبنانيون على الرغم من ذلك في إجراء محادثات، فينبغي لذلك أن يظلّ محصوراً فقط ضمن إطار اتفاقيات الهدنة لعام 1949. وما كان للاجتماعات أن تتم إلّا على حدود الناقورة، لا في لبنان ولا في «فلسطين المحتلة». رابعاً: إن كان ينبغي التماس العون الأميركي، فليس لذلك أن يكون إلّا بشأن تطبيق القرارين 508 و509 الصادرين عن مجلس الأمن الدولي. إنّ لبنان صاحب حق معترف به في القانون الدولي، وينبغي تكريسه عبر الوقائع.

فالمسائل الفائضة عن إطار الانسحاب الإسرائيلي ليست قابلة للبحث إلّا بعد ذلك الانسحاب. وخامساً وأخيراً: إنّ سوريا على استعداد للانسحاب من لبنان، لكن بعد رحيل آخر جندي إسرائيلي، وبعد أن يلتمس رئيس الجمهورية اللبنانية ذلك رسمياً. لقد دخلت سوريا إلى لبنان «بطلب من السلطات الشرعية في هذا البلد» ولا يسعها الخروج منه إلّا بدعوة منها.

وعبثاً حاول إيلي سالم أن يكرّر على مسامع محاوريه أنّ النصّ ليس سوى استمرار في هدنة 1949، وأنّ لبنان لن يوقّع أبداً اتفاقية تهب إسرائيل مكاسب، لكن لم يصغِ إليه من أحد.

---

(1) القرار 425 للأمم المتحدة طلب انسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان دون شروط، صدر عام 1982.

إنّ سوريا التي ظلّت حتى ذلك الحين بمعزل عن المحادثات، قد ألقت بأوراقها الآن على المائدة وبينها الورقة الفضلى: ليست في وضع يسمح لها بشنّ الحرب، لكن بوسعها أن تعرقل السلام.

كانت نتيجة المحادثات في خلدة ونهاريا هامة بالنسبة إلى الإسرائيليين، لكنّ الأهمية الأكبر في نظرهم تتمثّل في تجسيد الاتفاقية على أرض الواقع. وقد توجّه أوري لوبراني[1] إلى هيئة أركان «القوات» في الكرنتينا ليحلل مع فادي أفرام ومساعديه المباشرين[2] الأسباب الكامنة وراء الصّدامات بين القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي، التي تلهب الشوف بصورة منتظمة. وقد ربطها قائد الميليشيا بعوامل عديدة متلازمة: عزم وليد جنبلاط على أن يفرض نفسه على المسرح السياسي. الأخطاء التي يرتكبها بعض من عناصره، وأصلهم من الشوف، بحقّ الطائفة الدرزية، بعد عودتهم إلى الجبل الذي طُردوا منه في 1975-1976، وخشية الدروز من أن يُصار إلى «رميهم في البحر» وتحالفهم مع جنبلاط، والمحاولات المتكرّرة والفاشلة التي قامت بها «القوات»، في سبيل «فسخ» تأثير جنبلاط السياسي عن الطائفة الدرزية، عن طريق الترويج لزعامات أخرى.

وسعت القوات اللبنانية، في معرض جهلها التام بالاتصالات الوثيقة ما بين الزعيم الدرزي وإسرائيل، لا سيّما مع أوري لوبراني نفسه، إلى التقليل من دور جنبلاط.

فقال لوبراني ملاحظاً:

– لديه الكثير من السلاح والعديد من الرجال، فهو قوي. وإنّ إضعافه ليتطلّب الكثير من الوقت والجهد. فلِمَ لا تتفاهمون معه؟

– أنا لا أعارض ذلك. أمّا على المدى الطويل، فلا بدّ من استبعاده، لأنّه، تاريخياً، كان على الدوام شريكاً لسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، ولسوف يظل كذلك.

– أنتم إذن لا تفكرون في إمكانية التوصل إلى تحالف مع جنبلاط. لكن ما سيحصل في سوق الغرب[3]، إذا ما قمنا بسحب قواتنا التي تفصل بينكم وبينهم؟

فردّ فادي أفرام دونما تردّد:

– معارك عنيفة. لكنني أريد التأكيد على نقطة تتعلّق بالتوازن بيننا وبين الدروز...

فقاطعه لوبراني قائلاً:

---

(1) كان برفقة لوبراني كل من المقدم روفن إيرليخ (من آمان)، والعقيد إيريتس شايكي (الياكال)، وأمنون (الموساد).

(2) أنطوان بريدي (توتو) الرجل الثاني في القوات اللبنانية، وأسعد شفتري (آسو) مساعد إيلي حبيقة في جهاز الأمن، ووليد فارس (وودي) ضابط الاتصال مع الإسرائيليين.

(3) بلدة تمتاز بموقع استراتيجي تقع على تلة تشرف من ناحية على الشوف ومن ناحية أخرى على السهل الساحلي لبيروت.

– كلا! ليس المراد الإبقاء على التوازن، بل ليس من توازن ممكن بين طائفة تمثل 6 بالمئة من عدد السكان وطائفة أخرى تمثّل نصف عددهم. نحن نسعى فقط للحفاظ على الهدوء.

فأعرب أفرام عن أسفه قائلاً:

– المسيحيون متنبّهون إلى أدقّ التفاصيل. فنحن نسعى إلى إقناعهم بالعكس لكننا ننتهي إلى فقدان كل مصداقية.

– هل يسعك أن تقدّم لي أمثلة؟

– فيما كنا نطلب، في الأسبوع الفائت، فتح طريق بين اثنتين من قرانا، أحاط الجنرال أمنون ليبكتز، قائدَ هيئة أركاننا علماً، بأنّ الدروز سوف يفتحون طريقاً، أما نحن فقد منعنا من فتح طريقنا.

– لقد فهمت.

– يسعني أن أضرب لك أمثلة عديدة من النوع ذاته. ولا يسع المسيحيين أن يفهموا كيف يسعكم التحدث إلى المتعاونين مع السوريين والفلسطينيين.

– أنت تعرف أنني إسرائيلي، وأقرأ الصحافة اللبنانية التي تصفنا بأننا ألدّ أعداء لبنان.

في صبيحة الخامس من أيار/مايو، انهمر مطر من القذائف على بيروت الشرقية والجبل. واندفع الناس إلى الملاجىء لدى سماع الانفجارات الأولى. ومع ذلك فقد جرى رفع ثمانية قتلى و25 جريحاً. كما أُصيب المحيط الأميركي للقوة متعددة الجنسيات من غير وقوع ضحايا. أما الإسرائيليون فلم يطرف لهم جفن. فأمر فادي أفرام بالرد، وبعث برسالة إلى موشيه أرينز، قال فيها وهو يشعر بأنه جُرح في قلبه:

يتوافق تدهور الوضع في عاليه والشوف، وقصف بيروت وجونيه والمناطق المسيحية الأخرى من قبل السوريين والحزب التقدمي الاشتراكي، وحركة الوحدات العسكرية السورية على الطريق بين البقاع وعيون السيمان، مع التطور الإيجابي للمحادثات. والواضح أنها ردود سلبية سورية على الاتفاق بين إسرائيل ولبنان. إنّ ذلك ليوضح التنسيق الوثيق القائم بين السوريين والحزب التقدمي الاشتراكي. ونأمل أنكم ستدركون الآن ما نقول لكم حين نؤكد أن الحزب التقدمي الاشتراكي، وهو يعمل بتوجيهات سوريا، يستخدم الطائفة الدرزية ليسبغ على هذا النزاع مظهر مجابهة مسيحية درزية. ونحن نقدّر أنّ السوريين سوف يدخلون مباشرة مجال تصعيد العنف باستخدام حلفائهم المحليين ومنهم الحزب التقدمي الاشتراكي. ونأمل أن هذا الوضع الجديد سيجعل الجيش الإسرائيلي، الذي هو الصديق وهو العدو، يحزم أمره، وأن تكون ترجمة ذلك على أرض الواقع. ويسعكم أن تظلوا على ثقة من أنّ القوات اللبنانية ستظلّ أقرب الحلفاء إليكم على نحو ما كانت على الدوام.

مع أطيب التحيات.

قدم الجنرال ميئير داغان لرؤية فادي أفرام بعد الظهر، من أجل الاصرار على ضرورة عودة الهدوء إلى الشوف. فلفت قائد القوات اللبنانية نظره إلى أنّه كان يردّ على الضربات التي يتلقاها، ليس إلاّ. وأسرّ له أنّه تمّ التقاط رسائل درزية لاسلكية تبيّن أنّ هنالك هجوماً قيد الإعداد على قرية المطلّة المسيحية، الواقعة بين الشوف والبحر.

فردّ عليه الجنرال الإسرائيلي مؤكّداً:

– لا تقلق. سوف يأخذ الجيش الإسرائيلي الاجراءات الضرورية كافة. وسوف تتوجّه دبابات إلى المكان. فلن يكون هنالك من هجوم!

انتاب جهاز التنصّت العسكري لدى «القوات» نوع من الغليان العنيف في فترة العصر. لقد تمّ قبل أيام قلائل «خرق» الرموز التي يستخدمها الدروز، من غير أن يحيط أحد الإسرائيليين علماً بذلك. وكلّما تواصل قدوم الرسائل جرى حلّ رموزها. وكانت كلها تتعلّق بأوامر لتمركز وحدات قتالية حول المطلّة.

كانت تلك البلدة المسيحية الصغيرة معشّشة في التلال من إقليم الخروب، على تخوم المنطقتين الدرزية والسنّية. وكانت تعبرها الطريق الوحيدة المعبدة المتوجّهة من قلب الشوف إلى صيدا. كانت المطلّة حتى ذلك الحين بمعزل عن المعارك التي نشبت بين «القوات» والحزب التقدمي الاشتراكي، إذ تقع أقرب قرية درزية إليها على عدة كيلومترات. ولقد جرى تأهيل شبابها وتدريبهم من قبل الميليشيا ليشكّلوا لواء حماية ذاتية.

كان ذلك التجمّع السكاني الصغير، وفقاً للرسائل اللاسلكية الملتقطة، موضع حصار من ثلاث جهات بثلاث سرايا من المشاة وسرية دعم نارية، لديها دعم مدفعي. فقرر فؤا أبو ناضر التوجّه إليها بحراً مع وحدة من النخبة للدعم. ومع حلول الليل، أبحر رئيس الأركان على متن زورق حربي سريع انطلق من الحوض الخامس من ميناء بيروت الذي جعلت منه القوات اللبنانية قاعدتها البحرية. وبعد أقل من ساعة من الإبحار، والمصابيح كافة مطفأة، نزل ورجاله على رصيف تفريغ الفيول للمحطة الكهربائية للجيّة، الذي كان يقوم مقام مرفأ لوجستي للقوات اللبنانية. وصلوا إلى القرية المهددة في حدود الحادية عشرة ليلاً من غير أن يتم اكتشافهم.

كان من مصلحة الميليشيا المسيحية، في واقع الحال، الحفاظ على الهدوء في تلك المنطقة تفادياً لقيام نقطة مجابهة جديدة، بعيدة عن قواعدها الخلفية. لقد دخلت هيئة أركان «القوات»، مع حلول الليل، في اتصال مع مكتب الموساد في طبرجا، وطلبت أن تتوجّه وحدات إسرائيلية إلى المكان لحماية البلدة. ووصل الرد الإسرائيلي على التلكس في الثانية صباحاً: لا تقلقوا، سوف يهتم الجيش الإسرائيلي بالقضية، فلن يقع شيء أبداً.

أما من الناحية العملية، فقد كشف جهاز التنصّت، في اللحظة ذاتها، صدور الأمر الموجّه

إلى الميليشيا الدرزية ببدء الهجوم. فأحيط فؤاد على الفور علماً بالأمر. وساعدته تلك الاعتراضات اللاسلكية طوال الساعات التي تلت على استباق الأحداث.

في الساعة الرابعة من فجر يوم 6 أيار/ مايو 1983، بدأ الدروز هجومهم على ثلاثة محاور. ولئن كان أحد المحاور الثلاثة مجرّد تحويل انتباه (كان أبو ناضر يعرف ذلك)، فقد شكل الاثنان الآخران الجهد الرئيس. انتشر الهجوم الذي قام به ما يعادل سريتين قتاليتين نحو وسط البلدة قدوماً من حيّ الشريفة في شحيم، بقصد احتلالها، وباتجاه طريق الجليلية-المطلة انطلاقاً من تلال حصروت بقصد قطعها.

لقد أخذ المقاتلون المسيحيون في بادئ الأمر، على حين غرّة، بسبب الملابس العسكرية الإسرائيلية التي ارتداها الدروز بقصد تحويل الانتباه. وقد توصّل هؤلاء إلى التسلل حتى المقبرة قبل أن يتحقق المسيحيون من غلطتهم فيفتحون النار. وقصف المهاجمون أثناء تقدمهم نحو طريق الجليلية-المطلة، المركز الإسرائيلي القائم غير بعيد عن البلدة. فغادره الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يشغلونه متدافعين سعياً وراء ملجأ خلف خطوط القوات اللبنانية. فاحتل الدروز المركز دونما عناء، وقاموا بتكديس محتوياته كافة في سيارتي جيب من نوع ويليس كانتا في المكان، قبل أن يتواروا وسط الظلمة.

شنّ فؤاد أبو ناضر هجومه المعاكس انطلاقاً من تلال الجليلية حيث قام سراً بتركيز تعزيزاته ليتدبّر على ذلك الأساس أمر الدروز من الخلف. ولقد بوغت رجال الحزب التقدمي الاشتراكي فتراجعوا بحالة من الفوضى تاركين العديد من القتلى والجرحى على أرض المعركة. وتحوّلت المعارك من بعد إلى حرب مواقع تدعمها المدفعية حتى طلوع النهار.

سعت هيئة الأركان في الكرنتينا يائسة وراء الحصول على تدخل من تل أبيب لوضع حد للمعارك. ولقد تدخّل الجيش الإسرائيلي في واقع الأمر بإرسال دبابات إلى مواقع مدفعية المسيحيين لمنعهم من استخدام مدافع بعيدة المدى. فهدّد فادي أفرام، وقد استبدّ به السخط، بالقيام بهجوم انتقامي على مدفعية الدروز الواقعة على مئة متر تقريباً من مركز قيادة الجنرال أمنون ليبكنز في عيتات. قد انتشر الإسرائيليون في تلك المنطقة فسهّلوا وصول التعزيزات الدرزية نحو عيتات. لم يسبق قط أن شعرت «القوات» مثل ذلك اليوم بمدى الحقد الذي يحمله حيالهم الجنود الإسرائيليون المقيمون فوق تلك الأرض. لقد دفعوا غالياً جداً وبالجملة، ثمن عدم مشاركتهم في عملية «سلام الجليل»، وثمن تقرير كاهان، وخصوصاً ثمن مواقف أمين الجميّل المعارضة لإسرائيل وتعهّده بـ «مواصلة الخط السياسي» لأخيه.

في يوم 6 أيار/ مايو ذاك، عقد مجلس الوزراء الإسرائيلي اجتماعاً بكامل أعضائه مع بداية النهار. كان أربعة وزراء في زيارة رسمية خارج البلاد، فجرى استدعاؤهم على جناح السرعة، فكان

لديهم الوقت الكافي للوصول فقط. وعلى أثر ثماني ساعات من المناقشات، التي كان بعضها حامي الوطيس، جرى اعتماد الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية بالأكثرية إلّا صوتين، صوت يوفال نيمان وصوت أرييل شارون اللذين اعتبرا أن نتيجة المفاوضات لا تستجيب لمتطلبات أمن إسرائيل.

بعد الظهر، تقدّمت وحدة مشاة من الجيش الإسرائيلي تقدّماً بطيئاً باتجاه المطلّة لتتمركز فيها. وسعى عناصر ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي استغلال وصولهم ليحققوا مكسباً على الأرض. ولقد عارضهم رجال الميليشيا المسيحية بشراسة. وجرى تبادل لإطلاق النار دام ثلاث ساعات قبل أن يقرّر جنود تل أبيب وضع حد لها.

استدعى فادي أفرام أمنون، وهو الممثل الدائم للموساد في لبنان ليعلمه بغضبه، قائلاً له:

- لم تعد لنا من ثقة بكم ولا أي ثقة بداغان.

وقرر قائد القوات اللبنانية الذهاب إلى المطلّة. فالمعارك توقفت لكنّ الوضع ظلّ شديد التوتر. فطلب إعداد زورق سريع ورجا أمنون أن يرافقه.

فقال له ضابط الاتصال وليد فارس (وودي):

- ينبغي أن نحيط الإسرائيليين علماً بذلك.

فرفض فادي أفرام قائلاً:

- لا وقت لدينا، فنحن ماضون على الفور.

اندفع باتجاههم زورق حربي من البحرية الإسرائيلية بأقصى سرعة وفتح عليهم النار قبل أن يتمكنوا من التعريف بأنفسهم. ولم توقع عملية الاعتراض أي ضحية. فقدّمت البحرية اعتذاراً لقائد القوات اللبنانية العام، لكنّ تل أبيب قررت، وهي مغتاظة، أن تستدعي أمنون[1].

أوقعت المعركة ثلاثين قتيلاً وأربعين جريحاً لدى الدروز، وثلاثة قتلى وعشرة جرحى في صفوف القوات اللبنانية. أمّا الأوراق التي وجدت على جثث مقاتلي الحزب التقدمي الاشتراكي فأشارت إلى أنّ هؤلاء جاؤوا من قرى الشوف كافة تقريباً، وبعض منها بعيد كل البعد عن المطلّة. لقد تمّ إذن التخطيط لذلك الهجوم والإعداد له وتنفيذه بموجب قرارات من القيادة المركزية لحزب وليد جنبلاط، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتعلّق الأمر بمبادرة «محليّة». وكان ذلك هو النصر الحقيقي الأول (والوحيد) للقوات اللبنانية على الدروز.

ما إن عاد فادي أفرام إلى الكرنتينا حتى أخذ يبعث بالرسالة تلو الرسالة إلى إسرائيل احتجاجاً على موقف الجيش الإسرائيلي ومذكّراً بضرورة تحديد من هم الأصدقاء حقاً ومن هم الأعداء. كما أحاط تل أبيب علماً بأنّ سوريا تقوم بنشر مقاتلين فلسطينيين على الجبهات كافة. وتقدّم بتشخيص قائلاً: ينبغي أن تتوقعوا تدهوراً في الوضع، لا سيما يوم توقيع الاتفاق.

---

(1) تطلب الأمر تدخل فادي أفرام لرفع العقوبة.

في اليوم التالي، وصل الجنرال ميثير داغان إلى الكرنتينا يرافقه معاونوه[1]، لبحث الوضع. فصُدِم بالوجوه المتجهّمة لزعماء «القوات»[2].

وما إن جلس زعيم ياكال إلى مائدة المفاوضات حتى بادر قائلاً:

– هنالك أشياء نرغب في إيضاحها.

فردّ عليه فادي أفرام بلهجة عدائية قائلاً:

– ونحن أيضاً. وبداية أضع في متناولكم رسائل الإيعاز كافة التي أرسلها الحزب التقدمي الاشتراكي قبل الهجوم على المطلّة وبعده.

– أود أن أوضح ما قد قلت لكم بشأن قواتنا الموجودة في المطلّة. فما كنا نعرف أنها ستكون غير كافية . . .

فقاطعه أفرام قائلاً:

– هل وقع هجوم عليها؟

– أجل. وقع في صفوفنا قتيل، وأخذوا من عندنا سيارتَيّ جيب. قلت لكم إني سأرسل دبابات. كانت تلك الدبابات في الواقع، على الطريق. لكنها لم تصل لسوء الحظ في الوقت المناسب فدفعنا الثمن، إذ سقط واحد من جنودنا. ويشكو الدروز مؤكّدين أننا ساعدناكم. لقد التقطنا أحد عشر من قتلاهم، ولا يزال ستة وعشرون مفقودين.

لقد أثار الإعلان عن خسائر الدروز حركات من الغضب والتهديد بالتظاهر لدى الطائفة الدرزية الإسرائيلية. وتوجّه مساء اليوم ذاته إلى تل أبيب، وفد درزي لبناني لاتهام السلطات بأنها دعمت الميليشيات المسيحية عسكرياً. فلاقى أذناً صاغية لدى الصحافة التي بدأت للمفارقة بحملة صغيرة تتهم القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي معاً.

وتدخّل نازار ناجاريان وهو يلوّح بورقة هي رسالة لاسلكية تحمل قائمة أسماء قائلاً بجفاء:

– سقط لهم ثلاثون قتيلاً. وهذا ما بعثوا به هذا الصباح.

– كانوا في وحدات نظامية من حيث التنظيم والتجهيز وطريقة العمل. زد أنّهم كانوا يرتدون بزات عسكرية إسرائيلية.

فعارضهم إريتس شايكي قائلاً:

– لم يكن لديهم من عتاد إسرائيلي!

فأشار داغان إلى معاونه بحركة تهدئة من يده وقال:

– كانت النتيجة في مصلحتكم، وهذا شيء ممتاز. ولو شئنا مضايقتكم لمنعناكم من استخدام

---

(1) العقيد إريتس شايكي وروڤن إيرليخ والعقيدان المسؤولان عن صيدا وصور وأمنون من الموساد.

(2) فادي أفرام أنطوان بريدي (توتو) أسعد سعيد (هابي) نازار ناجاريان (نازو) وليد فارس (وودي) وإيلي حبيقة .(H.K)

مرفأ الجيّة. ونحن، بخلاف ما تؤكّدون، لم نقم بمساعدة الدروز. وقد قتلنا ثلاثة منهم أخيراً وجرحنا عشرة من أجل تهدئة الوضع. أما من جهة ثانية فقد وقع قتيل في صفوفنا يوم أمس في عيتات، بفعل قنبلة إسرائيلية أطلقتموها على مركز قيادة أمنون ليبكنز.

فردّ فادي أفرام معارضاً بحزم:

- نحن لم نقصف مقرّ قيادة أمنون، فقطع المدفعية الدرزية كانت محيطة بالموقع. هل تعلم بأن قاذفة صواريخ كانت قائمة على بعد مئة متر من مقر قيادته وتقوم بقصفنا؟ إنّ أمنون نفسه قد قال لنا ذلك.

فوافق داغان قائلاً:

- ربما، فهو يعرف عن ذلك أكثر مما أعرف. إلّا أنّ مشكلة المطلّة لمّا تجد حلاً. فهي على طريقهم إلى الجنوب انطلاقاً من بعقلين. . .

فقاطعه رئيس القوات اللبنانية قائلاً:

- لقد احتلّت دباباتكم مواقع مدفعيتنا!

- ذلك أنكم كنتم تقصفون بعقلين!

- بكل تأكيد! كانت هنالك BM 21 [1] تقصف مواقعنا!

وسأل إيلي حبيقة قائلاً:

- لِمَ لمْ يأتِ الجنرال أمنون ليبكنز معك لإيضاح ذلك كله؟

فوافق رجل الموساد القادم برفقة داغان قائلاً:

- كان علينا في الواقع أن نعقد اجتماعاً مع أمنون ليبكنز.

فصوّب إليه الجنرال الإسرائيلي نظرة صارمة وواصل القول:

- ينبغي في الواقع أن نناقش المسألة، فليس لسوء تفاهم أن يقوم بيننا. وحين قلت لكم إنّ قواتنا ستكون حاضرة، فقد كنت أعتقد حقاً بأنها ستكون كافية. وحين طلبت إرسال تعزيزات، لم أوضح مدى حجمها، فاعتقد الضابط المكلّف بذلك أنه سيكون في المكان ما فيه الكفاية. أما الهدوء السائد هنالك الآن فمرده إلى أننا قمنا بتجميع قوات في المنطقة وأنذرنا الدروز. أما مسؤولهم العسكري هشام ناصر الدين، فأصدر الأوامر لتهدئة الوضع.

فعاتبه فادي أفرام قائلاً:

- وفوق ذلك أنتم تدينوننا. لقد قال لنا مندي إنّ عامير درووري وأوري ساغي يوجّهان اللوم إلينا.

---

(1) راجمة صواريخ ذات أربعين سبطانة محمولة على شاحنة. من صنع سوفيتي.

– كلاّ، فذلك ليس صحيحاً!

– لقد وقعت أحداث كثيرة عندكم أثناء هذه المعارك: فدباباتكم اجتاحت قواعد مدفعيتنا: وحواجزكم أعاقت سيارات الإسعاف عن نقل جرحانا. . .

فهزّ داغان رأسه وقال مقاطعاً فادي أفرام:

– سوف أتأكّد من ذلك! ولأضعنّ المسؤولين في السجن إن كان ذلك صحيحاً. فهذا غير مقبول.

– فسأل أفرام بطريقة ماكرة:

– كيف استطاعوا التحرّك بخمسمائة رجل لشنّ ذلك الهجوم من غير أن يلحظهم الجيش الإسرائيلي؟

– لم أعلم أنهم كانوا خمسمائة!

– لا بأس، لنفرض أنّهم ليسوا سوى مئة. فكيف جاؤوا، ومن أين؟

وساد صمت قصير ثم استأنف داغان قائلاً:

– لا أدري. سوف أستعلم لأعرف كيف استطاعوا تجميع كتيبة، وفقاً لما تقول. وسوف أرى من المسؤول. أعطوني قائمة أسماء القتلى.

فأعطاه نازو القائمة التي كانت أمامه. فقرأها داغان بتمعّن، ثم أضاف:

– أؤكّد لكم أننا نعاملكم معاملة مختلفة عن الدروز. . .

فقاطعه أفرام بلهجة حاسمة:

– كنت أعتقد أن الوضع كذلك. أما الآن فلم تعد لدينا من ثقة بكم.

فقال داغان محتداً:

– ولِمَ لا تذكرون الهجمات الدرزية التي حلنا دون وقوعها على سوق الغرب وأماكن أخرى؟ قلت لكم إنني سأقوم بالتحقيق في قضية المطلّة.

– المطلّة ذات أهمية بالنسبة إليهم بوصفها طريقاً إلى البحر، لكنّ أهميتها تكمن خصوصاً في أنّ تلك القرية واقعة في إقليم الخروب في منطقة سنّية. كان السنّة يترقبون ليروا من سينتصر. لو أننا خسرنا المعركة، لبدأوا على الفور بالتعاون مع الدروز. وكان بعضهم بين المهاجمين، لأنّ ثلاثة منهم قد قُتِلوا. وكان من شأن ذلك أن يقطع صلتنا بجزّين، أي بالجنوب وبالحدود الإسرائيلية، مع كلّ ما يستجرّ ذلك علينا من مسائل. ولئن دخلت الطائفة السنّية المعركة، فإنّ لبنان كله سيتقلقل.

فغمغم الجنرال الإسرائيلي قائلاً:

– تظنّ الأطراف اللبنانية أننا سنقوم بالانسحاب جزئياً بعد توقيع الاتفاقية، فتحاول تحسين مواقعها على الأرض. فهذا ما يقوم به الدروز. وهذا ما يشرع الشيعة بالقيام به. ونحن قلقون جداً لدى

رؤيتنا قيام نشوء تعاون في ما بينهم بدعم سوري. ولسوف يشكّل ذلك خطراً حقيقياً عليكم. وها هم الخمينيون يعادونكم ويعادوننا أيضاً. زد أنّ 90 بالمئة من الشيعة هم تحت التأثير السوري وتمويلهم إيراني. ولسوف يشكلون خطراً على الجميع. ولا ريب في أنّ ذلك ما يجري حبكه في دمشق بين الشيعة ووليد جنبلاط.

فسأل أفرام قائلاً:

– ما مصدر تموينهم؟ فقد كانوا في حالة من العوز قبل فترة قصيرة.

– جاءهم عن طريق بيروت عبر صوفر. فقد حصلنا على معلومات مفادها أنهم تلقّوا عوناً في ذلك المجال من ضباط في الجيش اللبناني. وينبغي الحفاظ، مهما كان الثمن، على وقف إطلاق النار، إلى حين توقيع الاتفاقية على الأقل.

حين انتهى الاجتماع بين داغان والقوات اللبنانية، كان شولتز يهبط في دمشق. وقد صرّح من قبل أمام الصحفيين الذين كانوا يرافقونه قائلاً إنّ رئيس الدولة السوري سوف ينتهي به الأمر إلى القبول بواقع الاتفاق في الأسابيع المقبلة. وإنّ ما سيفعل، هو القول الفصل في نهاية المطاف.

حين توقفت طائرة البوينغ البيضاء على الطريق الجانبي المجاور للمهبط، علت البسمة وجه وزير الخارجية وهو يلمح من نافذة الطائرة، فرقة الموسيقى العسكرية أمام قاعة الشرف. ولئن كان هذا هو الاستقبال المعدّ له، فهو يعني أنّه ليس كل شيء سلبياً. لكن حين صار عند أسفل السلّم، لم يتزحزح أي من الموسيقيين من مكانه. فتجهّم وجه شولتز على نحو مفاجئ. من الواضح أنّه ليس المقصود بذلك. كانت الموسيقى العسكرية تنتظر في واقع الأمر وزير خارجية ألمانيا الشرقية التي كانت طائرته حينها على وشك الهبوط. كذلك كان وزير الخارجية الأميركي يجهل أنّ الصحف السورية الصباحية لم تتضمّن أية إشارة لزيارته. وقد استقبله زميله عبد الحليم خدام الذي تحفّظ دون التفوّه بأي ترحيب تقليدي. بل إنّ الوزير السوري وقف بشكل ظاهر متراجعاً عدة أمتار، حين أدلى شولتز رسمياً، وفقاً لما هو معمول به، ببضع كلمات أمام الصحفيين الذين كانوا يرافقونه، لأنّ زملاءهم المحليين لم يتلقّوا دعوة من السلطات السورية.

كان الاستقبال لدى رئيس الدولة باهتاً.

وعلّق حافظ الأسد، بعد أن أطلعه الوزير الأميركي على مضمون الاتفاق، قائلاً:

– إنمّا المراد بذلك صك خضوع. فهذا المشروع يناقض المعاهدات والوثائق العربية كافة التي التزم بها لبنان. وهو ينسف الصلات القومية كافة بين لبنان والبلدان العربية. فلا يسع سوريا أن توافق على كل ما يتضمّن مساً باستقلال لبنان وحريته ومصالحه وبأمن سوريا ومصالحها، وبالتالي بأمن الأمة العربية ومصالحها.

وفيما كانت المحادثات بين الرجلين جارية في قصر الضيافة بدمشق، كانت بيروت الشرقية

والأشرفية تتعرّضان لقصف عنيف أوقع 26 قتيلاً وما يقرب من مئة جريح. وقد اضطر الجنرال إبرهيم طنّوس قائد الجيش اللبناني، أن يهتف مرّتين إلى زميله السوري اللواء حكمت الشهابي طالباً إليه العمل على إسكات المدافع التي تقصف انطلاقاً من منطقة تخضع لسيطرته.

وغادر جورج شولتز دمشق بالسرّية التي وصل بها إليها، متوجّهاً إلى جدّة. وانجلت الغشاوة عن عيني وزير الخارجية الأميركي، فصرّح للصحفيين قائلاً: **على لبنان أن يقرر التفاوض بوسائله الخاصة بشأن خروج الجنود السوريين والمقاتلين الفلسطينيين من أراضيه.**

وصل ميئير داغان[1] في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي إلى مركز قيادة القوات اللبنانية من غير إعلان مسبق.

وأعلن قائلاً لفادي أفرام[2]:

– إنّ الحزب التقدمي الاشتراكي، مدفوعاً على الأرجح من قبل السوريين للعمل ضد الاتفاق الثلاثي، قد حرّك ميليشياته عسكرياً. وهم مستعدون للقتال.

فردّ أفرام قائلاً:

– ذلك ما قلنا لكم منذ أسابيع. أنتم تحاولون تهدئة الوضع بوسائل تكتيكية، في حين أنّ المسألة أخطر من ذلك بكثير وهي سياسية. وأعتقد أنهم سوف يستمرّون.

– أعرف أننا لا نستطيع حل المسألة بإجراءات تكتيكية، لكنني لست أنا الرئيس أمين لأمنح الدروز ما يطلبون سياسياً.

– وماذا عن السوريين؟

فأكّد رئيس ياكال قائلاً:

– ليس هنالك سوى وسيلة واحدة للضغط عليهم، وذلك بقصفهم. لكني لا أعتقد أننا نتوجّه ضمن المدى المنظور نحو هذا الحل. فليس لنا من مصلحة، بعد الاتفاق مع لبنان، في شنّ حرب على سوريا. وبالمقابل فإنّ ما يسعنا القيام به الآن، إنّما هو الحد من الأسباب التي تدفع بالطائفة الدرزية، بوصفها كذلك، إلى القتال. فما الذي ينبغي عمله حسب رأيك؟

فاقترح فؤاد أبو ناصر قائلاً

سحب أسلحتهم الثقيلة.

فأنكر داغان قائلاً:

ليس لديهم من أسلحة ثقيلة في المنطقة التي تحت سيطرتنا.

---

(1) مع روفن إيرليخ إريتس شايكي وريتشارد (من الموساد).

(2) حضر اللقاء كل من: أنطوان بريدي (توتو) نازار ناجاريان (نازو) المسؤول عن الجنوب، فؤاد أبو ناصر قائد هيئة الأركان، ووليد فارس (وودي).

فأكد فادي أفرام قائلاً:

- لديهم أسلحة ثقيلة! فاستخباراتنا تقول إنّ لديهم مدفعية ثقيلة في بعقلين. ثم أضاف قائد القوات اللبنانية متهدداً:

- نحيطكم علماً بأننا، إذا ما تعرّضنا للقصف، فسوف نردّ من غير أن نفرّق بين المناطق التي تحت إشرافكم أنتم وتلك التي يشرف عليها السوريون.

وبعد ذلك بساعات قلائل، وقبل أن يغادر ضابط إسرائيلي نهائياً مركزه في الشوف، نصح أحد أصدقائه من القوات اللبنانية، يقيم في القطاع ذاته، بمغادرة الجبل قبل فوات الأوان. وأكّد له قائلاً: إنّ الدروز هم الأقوى، وسوف يحتلّون المنطقة.

أمّا وقد ضاق فادي أفرام ذرعاً بموقف الجيش الإسرائيلي، والتعاون الجليّ بين الدروز ودمشق، فقد بعث برسالة إلى الموساد:

من فادي أفرام إلى بيتر

إنّ التطوّر السريع للوضع السياسي في هذه الأيام الأخيرة، وخصوصاً بعد فشل زيارة شولتز لدمشق، يتجسد اليوم على الأرض.

لقد ازدادت كثافة عملياتُ القصف السورية انطلاقاً من منطقة حمّانا وحتى من جرد العاقورة، ووقع القصف على مناطقنا فور معرفة نتائج زيارة شولتز. وأظنّ أن التعاون بين السوريين والحزب التقدمي الاشتراكي واضح في نظر الجميع الآن. لقد نمي إلى علمنا أن وليد جنبلاط لا يزال اليوم في دمشق. فنتوجّه إليكم برجائنا لاتخاذ موقف واضح حيال الحزب التقدمي الاشتراكي. ونحن نرى الأولوية في تركيز عملنا على الحزب التقدمي الاشتراكي والسوريين.

نتوجّه إليكم بالرجاء الحار كي تعملوا مع قيادة أركان الجيش الإسرائيلي على تغيير موقف قواتكم في الميدان، لإعادة خلق الجو والتعاون اللذين كانا قائمين بيننا. فقد مرت العلاقة بيننا أخيراً في مرحلة من التدنّي. ونعتقد أنّه قد آن الأوان لإعادة الأشياء إلى سبيلها القويم. ونحن في أمسّ الحاجة إلى ذخائر مدفعية، إذ إننا نتبادل القصف المدفعي مع السوريين والحزب التقدمي الاشتراكي منذ ثلاثة أيام. ونحتاج إلى ذخائر من عيار 130 و 155 مم.

نحن نعتقد أنّ الوضع مستمرّ في التدهور وينتابنا القلق بشأن زحلة. أما وأنّ النيّات السورية صارت الآن واضحة، فآمل أن نتمكن من العمل معاً بفاعلية أكبر وعلى المستويات كافة.

مع التحيات الخالصة.

وكان أوري لوبراني هو الذي تولى الردّ في اليوم التالي:

رداً على رسالتكم بتاريخ 8/ 5.

إنّ ملاحظاتكم واقتراحاتكم موضع اهتمام كبير. نحن نتابع التطورات ساعة فساعة، وعلى

صلة بتدهور الوضع في هذه الأيام الأخيرة في بيروت ومحيطها وفي جونيه والشوف. وتبذل قواتنا ما في وسعها لاحتواء الأعمال العدائية. واسمح لي أن انتهز هذه المناسبة لأشكركم على حرارة ضيافتكم، لدى زيارتي الأخيرة إلى بيروت قبل أيام. كما بودي البقاء على اتصال بكم بشأن المواضيع التي سبقت الإشارة إليها ومواضيع أخرى ذات فائدة مشتركة.

أما واقع قيام لوبراني بالردّ بدلاً من ناحوم أدموني، فذو دلالة على التغييرات التي طرأت في تل أبيب بشأن الملف اللبناني. ولئن واصل الموساد «معالجة» أمر القوات اللبنانية، فإنّ مرسل الملاحظات والقرارات صارت من الآن فصاعداً بين يدي رجل واحد: أوري لوبراني. أما «القوات» المحصورة بضيق داخل مشكلاها السياسية والعسكرية، فلم تلحظ ذلك التغيير على الفور. أما أجهزة الاستخبارات للقوات اللبنانية، فتحصل على كم متزايد من المعلومات حول الجهود التي تبذلها دمشق لتدبير تحالف «لبناني»، ضد الاتفاق الثلاثي. ويضم التحالف كمال جنبلاط وسليمان فرنجية الحزب الشيوعي اللبناني وحزب البعث الموالي لسورية.

اتخذ الدروز إذ ذاك مبادرة سياسية. فأكدوا على أنّ الأزمة اللبنانية مردّها قبل كل شيء عدم المساواة في الحقوق والسلطات بين الطوائف المختلفة. فطالبوا بمساواة اللبنانيين أمام القانون وتقدموا بعشرين مطلباً تتراوح ما بين إنشاء مجلس شيوخ يكون رئيسه درزياً، وأن تتقلّد تلك الطائفة مناصب من الفئة الأولى في تراتبية الدولة مروراً بإعادة تقسيم انتخابي يمنحهم دائرة خاصة بهم. وعلى الرغم من أن هذا النص يستجيب لدى قراءته الأولى مع حرص على توزيع سياسي أفضل بين الطوائف، إلّا أنّه يحتوي مع ذلك على المنكّهات كافة التي يُستَشَمّ منها إقامة فيدرالية أو شبه فيدرالية. أما إجرءات الأمن التي دعت إليها (نزع سلاح السكان ودمج الميليشيات في الجيش) فبدت كأنها بإملاء من الإسرائيليين لأنها تستجيب لرغباتهم.

لقد وضع ذلك البيان الذي خُتِم بتوقيع وليد جنبلاط محاطاً بتوقيع كل من شيخ العقل أبو شقرا والأمير مجيد أرسلان، حداً لآمال «القوات» في شق صفوف الدروز أو إيجاد زعامة جديدة لهم.

جادل العماليون في إسرائيل، وقد ملأتهم استطلاعات الرأي المؤيدة نشاطاً، في الوثيقة الإسرائيلية اللبنانية مع إبراز الرفض السوري للانسحاب من لبنان. وقد أعلن شمعون بيريز أنّه لن يصوّت على مشروع الاتفاق إذا ما عُرِض أمام مناقشة برلمانية. كما ارتفع التوتّر السياسي عدة درجات حين أكّد موشيه أرينز أنّ السوريين يستعدون للحرب وأنّ قائد الأركان الجنرال موشيه ليڤي صرح لإحدى الإذاعات قائلاً إنه: لا يستبعد إمكانية مجابهة مباشرة مع دمشق.

وهزّ شبح الحرب الشعب الإسرائيلي. فجرى جدل صاخب في الكنيست. وقد صاح إسحق شامير من على المنصة قائلاً بصوته الأجش:

- ليست معاهدة سلام بين البلدين، لكنها تضمن انتهاء حالة الحرب وتتكهّن بقيام تدابير لمنع الأعمال العدائية ضد إسرائيل انطلاقاً من لبنان. ومشروع الاتفاق هذا هو البرهان الملموس على أنّ إسرائيل مستعدة للقيام بجهود استثنائية للتقدّم بعملية السلام والحوار في منطقتنا.

فردّ عليه شمعون بيريز وهو في مقعده، قائلاً بسخرية:

- إنها الحرب الأولى التي تخوضها إسرائيل ضد عدو، الفدائيين، سينتهي باتفاقية مع بلد ليس عدواً، هو لبنان.

تفادت حكومة بيغن، بأغلبية صوتين اثنين، تصويتاً على سحب الثقة. ولدى مغادرة القاعة، صرّح أرييل شارون أمام أجهزة الإعلام قائلاً إنّ على الجيش الإسرائيلي إخلاء منطقة الشوف بأسرع ما يمكن، مؤكداً أنّ هنالك العديد من الخلافات بين الطوائف. وإنّ على الجيش اللبناني الانتشار هنالك مع عناصر القوة متعددة الجنسيات بقصد تحرير الجيش الإسرائيلي من ذلك العبء.

بدأ احتمال ذلك الانسحاب يسبب قلقاً للمسيحيين في بيروت. فقد وجدوا أنفسهم بغتة أمام خطر وجودهم وحيدين في مواجهة السوريين. وقد توجّه بيار الجميّل، مثلما فعل كميل شمعون قبله بساعات قلائل، بالسؤال إلى مناحيم ناوت (مندي)، لدى مروره في 10 أيار/ مايو 1983 في العاصمة اللبنانية:

- هل ستدافعون عنا، في حال قيام السوريين بمهاجمتنا؟

وكان ردّ مساعد رئيس الموساد قوله:

قلنا لكم في ما مضى إننا سنساعدكم في حال قيام السوريين بمهاجمتكم. أما اليوم فالوضع مختلف. والأمر منوط بالرئيس الجميّل. إن يقلْ لنا أن نفعل ذلك، نفعلْه.

كان أمين الجميّل، من ناحيته، مغتبطاً فرحاً. وحين باحت له قيادة «القوات» بتوجّسها، رفض ذلك بحركة من يده قائلاً: الوضع ممتاز والتطورات الأخيرة جيدة جداً. والمعنويات في مستواها الأعلى. سوف نعطيكم كل ما أنتم بحاجة إليه من أجل التمسك بالجبل. فطلبوا ذخائر. وباح لهم الرئيس وهو يرافقهم إلى الباب، قائلاً بنبرة واثقة: أما بشأن سوريا، فإمّا أنها ستوافق على التفاوض بشأن انسحابها، أو تتخذ موقفاً سلبياً. وسوف تكون أولويتنا في هذه الحال تحرير الشمال، واستعادة الأراضي اللبنانية.

في 12 أيار/ مايو، هتف أمين الجميّل لحافظ الأسد معلناً عن وصول وزير خارجيته إلى دمشق. كان الرئيس اللبناني حريصاً جداً على القيام بمحاولة جديدة لدى السلطات السورية. لم تكن تراود إيلي سالم أية أوهام بذلك الشأن بعد زيارته إلى دمشق قبل عشرة أيام. وقطع هذه المرة الدرب براً. فكان عبد الحليم خدام ينتظره على باب مكتبه، بابتسامة عريضة، فاتحاً ذراعيه وعيناه تلتمعان. وقال عبد الحليم خدام، بعد أن عانقه وأمسك به من ذراعه:

- أهلاً وسهلاً بك.

ثم أضاف بصوت هادئ:

- نحن السوريين على استعداد دائم لاستقبالكم بشرط أن تتخلوا عن هذه الاتفاقية. أنت كنت أستاذاً في الجامعة؟ أليس كذلك؟ عُدْ إليها، فذلك أفضل بكثير بالنسبة إليك.

فتمتم اللبناني مرتبكاً:

- لا بأس، أنا راضٍ بهذه الحال.

فواصل الوزير السوري مازحاً وهو يدور حول مكتبه ويشير إلى سالم بالجلوس:

- مشكلتك صغيرة على كل حال. أما المعضلة الخطيرة فهي حال رئيس المجلس الإسلامي الأعلى. فكيف سيوقع تلك الاتفاقية؟ قل لي؟ ينبغي على الوزّان[1] أن يتذكّر كم مرة جلس على هذه الكنبة. وينبغي أن يتذكّر أقواله هنا، وما كان يقول لنا. وأن يقارن ذلك بما يفعل اليوم. فيا للمسكين! وكامل الأسعد[2]، كيف حاله؟

- إنّه في أحسن حال. هنالك إجماع كلّي حول الاتفاقية في لبنان.

- كامل الأسعد يشبه كامل مروّة[3] أو السادات[4]. فهذان الآخران كانا يعتقدان أنّهما يتمتعان بالإجماع. أما اليوم فهات من يعرف بأي نار يحترقان.

- إذن ليس ما يروقك في هذه الاتفاقية؟

- أعوذ بالله! فكل بند من بنودها يسبب صدمة. أنتم تريدون إذن وضع سوريا والعالم العربي ممن لا علاقة له بإسرائيل في وضع من التباغض. لا تزال هنالك طرق مفتوحة باتجاه بيروت ولسوف تغلقها الاتفاقية إغلاقاً نهائياً.

منذ البداية، كانت اللهجة غاية في الوضوح. وأخرج سالم من جيب سترته الداخلية كدسة من الأوراق ليقرأ على محاوره النص المعقود مع إسرائيل مفصّلاً.

فقال له الوزير السوري:

- هاتها، فالأمر يكون أسهل.

فردّ سالم وهو يركّز نظره على الاتفاقية:

- كلا، بل أفضّل أن أقرأها عليك.

لكنّ خدام انتزعها منه بحركة مباغتة. وعاد للجلوس متجهّم الوجه، ثم انحنى جانباً ليأخذ بعض الأوراق من درج مكتبه.

---

(1) شفيق الوزان رئيس الوزراء.

(2) كامل الأسعد رئيس المجلس النيابي.

(3) صحفي لبناني اغتيل في الستينيات.

(4) الرئيس المصري اغتيل في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1981.

- لِمَ لم تشأ أن تعطيني إياها؟ إنّها في مكتبي منذ عدة أيام .

وحين وصل في قراءته إلى المقطع المتعلّق ب«إنهاء حالة الحرب»، أُصيب خدام بذهول متكلَّف :

- يا إلهي! إنهاء حالة الحرب! ماذا فعلتم؟ هذا أسوأ من كامب ديڤيد!

لدى الخروج من الوزارة، بعد ذلك بساعات، توجّه عبد الحليم خدام نحو الصحفيين الذين كانوا بانتظاره. وقال وهو ينظر في عدسات الكاميرات :

- إنّها اتفاقية سيئة، وقد رفضناها شكلاً ومضموناً.

وما كاد إيلي سالم يتمتم قائلاً : **كلا! كلا، يا أبو جمال . . .**[1] حتى تمّ جرّه نحو مرسيدس خدام التي نقلتهما إلى القصر الرئاسي. لم تكن تعنيفات خدام لتساوي شيئاً مقارنة بما صدر عن الرئيس حافظ الأسد.

كان الحديث مع الرئيس السوري، في واقع الأمر، حديثاً طويلاً جداً من طرف واحد. أعاد الأسد، على مدى ساعتين وأكثر، سرد تاريخ العلاقات «الأخوية» بين دمشق وبيروت واستعرض قائمة شاملة بالتدخلات السورية لمصلحة لبنان. وأدان الاتفاقية .**إن وقّعتم، فليكن الله في عونكم، لكنّي أعتبر هذه الاتفاقية معاهدة مسيئة للبنان وسورية والعالم العربي. إن كنتم راغبين في علاقات جيدة معنا، فينبغي تحديد ذلك في اتفاقيات مكتوبة، لا في كلمات معسولة متبادلة بين حافظ الأسد وأمين الجميّل أو بين الأخ إيلي وإخوانه في سوريا. فالأشخاص يذهبون ويجيؤون أما الكتابات فباقية.**

وخلص الأسد إلى استبعاد كل إمكانية في رؤية أصغر جملة من النص توضع موضع التنفيذ. أما سائق وزير الخارجية اللبناني فسمع معلّمه يقول بكلّ وضوح، وهما في السيارة على طريق العودة: **كان الله في عون لبنان.**

في صبيحة اليوم التالي، وبعد التاسعة بقليل، اجتمعت الحكومة اللبنانية في القاعة الكبرى لمجلس الوزراء في القصر الرئاسي، لدراسة الاتفاقية وإقرارها. وفي الساعة ذاتها تماماً حطّت حوّامة نقل كبرى من صنع سوفييتي وتابعة للجيش السوري، في زغرتا، مقرّ رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية، مثيرة زوبعة كبرى من الغبار. ونزل منها كل من وليد جنبلاط وصديقه ومستشاره الوزير السابق مروان حمادة، والأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي، والأمين العام لحزب البعث اللبناني الموالي لسورية عاصم قانصوه، ومحمود عبد الخالق رئيس مجلس الأمناء في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وجمهرة من الصحفيين السوريين من

(1) أبو جمال: كنية وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام.

الإذاعة والتلفزيون. والتقى السياسيون الخمسة القادمون من دمشق برئيس الوزراء السابق رشيد كرامي القادم من الجارة طرابلس إلى منزل سليمان فرنجية. لقد أطلقت سوريا المعارضة اللبنانية «التي تخصّها هي». عقد هؤلاء اجتماعهم الأول، بتحريض من يتو عرّابهم السوري، ليُصار في نهايته الإعلان عن ميلاد الجبهة الوطنية ضد «سياسة الاستسلام» الحكومية. إلّا أنّهم اصطدموا بمسائل أساسية ومشكلات شخصية. فاكتفوا بعد ثلاث ساعات من المجادلات، باعتماد نص يفصّل اعتراضاتهم على الاتفاق اللبناني الإسرائيلي. ولدى الرجوع من زغرتا، «دُعيَ» وليد جنبلاط وعاصم قانصوه وجورج حاوي، ليشرحوا لحافظ الأسد السبب الذي أدى إلى فشل الاجتماع.

أما الحكومة اللبنانية فأقرّت بالإجماع، وفي غضون دقائق، الاتفاق الثلاثي.

وبعث أمين الجميّل، سعياً وراء معارضة النداءات القومية التي أطلقها الرئيس السوري، بوزرائه إلى العواصم العربية. فأعربت كل من الجزائر وقطر والإمارات العربية والمغرب والكويت، عن تأييدها العلني للبنان دونما تحفّظ. أما العربية السعودية فأعربت فقط عن «تفهّمها». أما الهدف الأساسي بالنسبة إلى الرئيس اللبناني فقد تحقق، إذ إنّ العالم العربي لم يولِه ظهره.

حصلت الأجهزة الأمنية لدى «القوات» على دلائل عديدة تشير إلى قيام دمشق بوضع مخطط يهدف إلى منع توقيع الاتفاقية. فاجتمع في بيروت، يوم 15 أيار/ مايو، زعماء القوات اللبنانية[1]، مع ميئير داغان وميكي أرمور (ماريون)، أفنير أزوالي (فيليب) في قسم الموساد في لبنان[2]، لتدارس المدى الحقيقي للتهديد. ونشرت دمشق على طول الجبهة جنوداً سوريين وفلسطينيين مع كميات كبرى من الذخائر.

وتساءل داغان بقلق:

– هل يمكن ألاّ توقّع حكومتكم الاتفاقية؟

– ليس الرئيس من نوعية الرجال الذين يتراجعون.

– وماذا لو لم يقبل بها البرلمان؟

– ليست موافقته ضرورية للتوقيع.

كان النواب بأكثريتهم حاضرين في بيروت. وقد تعرّض المقيمون أو القادمون من مناطق تحت الإشراف السوري لضغوط شديدة. ولم يعتقد الإسرائيليون باحتمال وقوع عملية عسكرية سورية كبيرة، حتى بطريقة غير مباشرة. لكن هنالك احتمال وقوع عمليات قصف قوية أو استخدام

---

(1) فادي أفرام أنطوان بريدي (توتو) المفتش العام، إيلي وزّان (عبّاس) رئيس الاستخبارات العكسرية فؤاد أبو ناضر رئيس هيئة الأركان، إيلي الزايك رئيس العمليات، ونازار ناجاريان (نازو) مسؤول عن الجنوب، أسعد سعيد (هابي) أسعد شفتري (آسو) معاون إيلي حبيقة، وكذلك وليد فارس (وودي) ضابط الاتصال مع الإسرائيليين.

(2) يصحب كل من عامير درووري وروفن إيرليخ.

سيارات مفخخة. وكانت قيادة الجيش الإسرائيلي تعي أنّ السلطة السياسية الإسرائيلية قد وضعت حدوداً متشددة لأعمالها في حال حصول تدخّل سوري. أي أنّ الإسرائيليين، بعبارة أخرى، لن يحرّكوا ساكناً ما لم يجرِ اتخاذهم هدفاً مباشراً وعن عمد. ولقد نقلوا إلى الشوف وحدات جديدة. ونشرت الميليشيا المسيحية وحداتها خلف مواقع الجيش اللبناني، وتم قيام تنسيق بين الطرفين. ولقد تلقى الجيش أوامر بالتصدي لكل اعتداء سوري أو فلسطيني. لكن يستحيل عليه التدخل في نزاع بين طرفين لبنانيين، أو ذي مظهر مماثل.

قال رئيس الياكال:

– الأمر الأساسي أن تكون أعصابكم متينة وأن لا تُستَجرّوا نحو معارك. ويسعكم أن تكونوا واثقين من أنّه لن يقع شيء في الشوف.

– وهل ستتدخّلون إذا ما هوجمت زحلة؟

– قلت لكم إنّ لدينا مشكلات داخلية. فلا تردّوا على الاستفزازات. وما هي احتمالات الانسحاب السوري؟

– ليس هنالك من احتمال!

– أين هو جان عبيد؟

فقال فادي أفرام ساخراً:

– في الخارج.

كان عبيد قد أقنع الرئيس بأنّ سوريا في جيبه، ثم سافر في إجازة.

في اليوم التالي اجتمع البرلمانيون الإسرائيليون واللبنانيون كل من طرفه للإدلاء بآرائهم حول نص الاتفاقية الثلاثية. كان النقاش في القدس ماراتونياً، إذ دام ثماني ساعات قبل التصويت. فقد غادر العديد من النواب قاعة المجلس كي لا يكونوا ملزمين بالتصويت ضدّه. وكان أرييل شارون أول المغادرين، لأنّه لم يشأ التصويت على مشروع قرار يتضمن حرباً كان هو صانعها الرئيس. وكانت نتيجة التصويت 57 لمصلحة الاتفاق، و6 أصوات معارضة وامتنع 5 عن التصويت.

أما في بيروت فقد عبر 80 نائباً من بين مجموع 91 يتألف منهم مجلس النواب، إجراءات أمنيةٍ استثنائية للوصول إلى قصر منصور، المقرّ الموقت للبرلمان، الواقع غير بعيد من المتحف، وهو نقطة اتصال الأطراف بين شرق المدينة وغربها. ونزولاً عند اقتراح من الزعيم السنّي صائب سلام، جرى التصويت على مذكرة بـ 74 صوتاً ضد صوتين اثنين[1] وامتناع 4 [2] عن التصويت. والمذكرة

---

(1) نجاح واكيم (روم أورتودوكس عن دائرة بيروت)، وزاهر الخطيب (سنّي من الشوف).

(2) رشيد الصلح (سنّي من بيروت)، ألبير منصور (روم كاثوليك من البقاع)، حسين الحسيني (شيعي من البقاع)، وعبد المجيد الرافعي سني من طرابلس.

تقدم دعماً تاماً لمساعي الحكومة في سبيل الحصول على تحرير التراب الوطني وانسحاب الجيوش المحتلة ولم يتضمن النص أيّة إشارة مباشرة إلى الاتفاق الثلاثي، فالمجلس النيابي لا يستطيع التصويت على نص ليس من اختصاصه، لكنه كان تحت نظر كل واحد من النواب. وقد نُقِلَ على الفور إلى رئيس مجلس الوزراء للتأشير عليه، ثم بعد بضع ساعات إلى رئيس الدولة لتصديقه. وما من أحد في ذلك النهار كان يراوده الشك في أنّ أمين الجميّل لن يوقع أبداً نصّاً وافق عليه البرلمان ووقعت عليه الحكومة.

أما في دمشق، فقد أكّد عبد الحليم خدام في حديث إذاعي قائلاً: نحن نرفض أن يتحوّل لبنان إلى قاعدة موالية لإسرائيل. لقد اعترفت سوريا عام 1943، بالدولة اللبنانية بناء على مبادئ وعلى تعهد بأنّ لبنان لن يسمح لأي طرف ثالث بإلحاق الضرر بسوريا. فحين يتحوّل الاحتلال الإسرائيلي إلى وجود فعلي سياسي واقتصادي يقبل به لبنان، فإنّ الأسس ذاتها التي قام عليها لبنان سوف تتزعزع، وبالتالي فإنّ العلاقات السورية اللبنانية ستتدهور تدهوراً خطيراً. وقامت تظاهرات «عفوية» ضد الاتفاقية في المناطق كافة التي يحتلّها السوريون. أمّا محطة الاتصالات الدولية اللبنانية عبر الأقمار الصناعية في العربانية، وهي واقعة في إحدى تلك المناطق فقد «أصابها توقف مفاجئ» وأصبحت الاتصالات الهاتفية مع الدول العربية ملزمة بالمرور عبر الكابلات البحرية عن طريق أوروبا وحتى أميركا الشمالية. وقال موظف سوري رفيع المستوى لبعض الصحفيين: إنّ سوريا لن تسحب قواتها من لبنان حتى لو طلبت الحكومة اللبنانية منها ذلك. واستدعت ليبيا سفيرها من بيروت وأبعدت الدبلوماسي اللبناني المقيم في طرابلس، ثم طلبت رسمياً من الجامعة العربية أن تطبّق على لبنان العقوبات الاقتصادية المطبّقة على مصر منذ توقيعها لمعاهدة السلام مع الدولة العبريّة. لكن خلافاً لما قد جرى بعد اتفاقيات «كامب ديڤيد»، حظي النص الإسرائيلي اللبناني بدعم واضح من عدّة بلدان عربيّة. وقدّرت بيروت أنّ هذه الواقعة تعطي وحدها قيمةً نسبية لتصريحات دمشق وتهويلات طرابلس.

وفي اليوم التالي 17 أيار/ مايو 1983، وقّع أنطوان فتّال، وديڤيد كيمحي، وموريس درايبر نص الاتفاقية بالعربية والفرنسية في الساعة العاشرة صباحاً في فندق «بيتش» في خلدة، ثم بالعبريّة والانكليزية في الواحدة إلّا ربع ظهراً في قاعة الاحتفالات في بيت إدلشتاين في كريات شمونة. إنّها بضعة خطوط بالريشة في أسفل الصفحة تحت أصوات أزرار آلات التصوير وتصريحات مقتضبة من جانب وآخر، من غير مظاهر غبطة، ومن غير شيء مقنع. ومصافحات متحفّظة وابتسامات مغتصبة، جرى تصويرها بكل عناية. وكل شيء اتصف بعلنيّةٍ اصطبغت بالخطورة، وكأنّ الموقعين لم يتوصلوا هم أنفسهم إلى تصديقها.

تركت صور المناسبة في إسرائيل أثراً كبيراً في النفوس. فقلّة هم، من الصحفيين كما من

الرسميين، الذين كانوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً، بدعم المسلمين في لبنان وبوحدتهم على النحو الذي جرى التعبير عنه أثناء تصويت البرلمان. وكان الإسرائيليون يخشون، حتى اللحظة الأخيرة، أن يلاقي أمين الجميّل مصاعب ضخمة، وأن تنقسم البلاد انقساماً دائماً. لقد ظهر لبنان الرسمي بمظهر وحدة من حيث الواجهة على الأقل، والمفارقة أنّ إسرائيل هي التي كانت منقسمة. فكان بعضهم يرى أنّ الاتفاقية منصفة جداً للطرفين، وأنّ لبنان لو قبل بالمطالب الإسرائيلية الأوليّة، لشكّل ذلك على الأرجح نهاية سيادته. وكان هؤلاء يرون أن على اللبنانيين والإسرائيليين الدخول بأقصى سرعة في محادثات لتنسيق الجهود وتطبيق الاتفاق ضمن أقصر فترة، لإعادة رفع صورة لبنان في إسرائيل.

أمّا بالنسبة إلى الآخرين فلم يكن لتلك الاتفاقية من معنى، وأنّها لا تمثّل ضمن مستقبل قريب سوى مصدر نزاعات أكثر تعقيداً بكثير. ويقدّرون أن الجيش اللبناني لا يتمتع بالقدرة والتصميم القيادي الضروري، والذي لا يُستغنى عنه، لمنع منظمة التحرير الفلسطينية من التسلل إلى جنوب لبنان. وكانوا مقتنعين، إضافة إلى ذلك، أنّ سوريا لن تنسحب.

لقد دامت المفاوضات زمناً طويلاً، أربعة شهور ونصف. ولم تكن الأولويات هي ذاتها بالنسبة إلى كل وفد من الوفود. فقد سعى الأميركيون قبل كل شيء إلى إطلاق عملية تسوية شاملة لأزمة الشرق الأوسط ضمن إطار مخطط السلام الذي اقترحه رونالد ريغان. ومنذ ذلك الحين أصبحت القضية اللبنانية بسرعة كبرى، وكان ذلك أمراً متوقعاً، العربة الأخيرة في القطار الأميركي. وضاعت أشهر بحالها في السعي وراء تجنيد الملك حسين، ملك الأردن، الذي كان من جانبه ينتظر قبول ياسر عرفات بقيام «كونفيدرالية أو فيدرالية مع الأردن». وليس في واشنطن من وضع في الحسبان أنّ مخطط السلام هذا، ما كان يقدّم حصراً أيّ شيء لدمشق، ولا حتى استعادة الجولان جزئيّاً، وأنّ سوريا لا يسعها سوى المعارضة.

وما كان بوسع الإسرائيليين أن يقبلوا بالأهداف الأميركية. وإنّ تل أبيب في عزمها على معارضة المقاصد الأميركية قد أفسحت المجال، بكل وعي، أمام نشوء تواطؤ، بطيء ومنهجي وموضوعي، بين سوريا وإسرائيل فوق الأرض اللبنانية، للتسبّب في فشل مخطط ريغان.

كان على أرض لبنان، يوم توقيع الاتفاقية الثلاثية في 17 أيار/ مايو 1983، ما يزيد قليلاً على 100 ألف جندي أجنبي ينتمون إلى 16 جنسية مختلفة: كان يُقدَّر عدد الجنود الإسرائيليين بـ 25 ألفاً (كانوا 100 ألف في بداية الاجتياح). وكان تعداد الجيش السوري يصل إلى 40 ألفاً (ربع المجموع العام). ويكتمل العدد بقوات اليونيفيل، فالحرس الثوري الإيراني والقوة متعددة الجنسيات. وينبغي أن يضاف إلى هذه الأعداد ما يقرب من 15 ميليشيا لبنانية من شتى الحجوم، ليتمكّن المرء من تكوين فكرة عن هشاشة السلطة اللبنانية وبعدها عن الاستقرار.

13

«وضعنا أقدامنا في مياه باردة»

بدءاً من يوم 18 أيار/ مايو 1983، غداة توقيع الاتفاق الثلاثي، طلب أمين الجميّل من فيليب حبيب «مقاربة» السوريين من أجل «فتح حوار حول سحب قواتهم من لبنان». فرفضت دمشق بكل بساطة أن تستقبل المبعوث الأميركي الخاص. ولا يمكن أن يكون هنالك من رفض - بل من امتهان - أشدّ وضوحاً.

لم يكن بوسع الرئيس حافظ الأسد، وبلاده ترفع أبداً لواء القومية العربية وهيبتها، أن يقبل باعتباره شريكاً من المرتبة الثانية في قضيّة يَعتبِر أنّها تمسُّه هو بالدرجة الأولى. كان جميع المراقبون المطّلعون كافة عزم الرئيس السوري، الذي عبّر عنه مراراً وتكراراً، على إعادة رسم خارطة الشرق الأوسط للأعوام العشرين أو الثلاثين القادمة، وطموحه في أن يضع سوريا في مركز تلك الخارطة. كانت قوته - وسلطته أيضاً - تكمنان أساساً في غياب زعامة عربية حقيقية. لم يُقِم أمين الجميّل وفيليب حبيب وبكل سذاجة، تماماً كالثنائي بيغن-شارون، كبير اعتبار للمبدأ الذي فرضه حافظ الأسد منذ ارتقائه سدّة الحكم: «يمكن للحرب في الشرق الأوسط أن تنشب من دون سوريا، أمّا السلام فلا يمكن إحلاله من دونها»، لا سيّما حين تكون معنيّةً مباشرةً.

كان حافظ الأسد، البراغماتي جداً، والذي يعي حدوده، يعرف أنّ الزمن يعمل لمصلحته. فلا يسع الإسرائيليين البقاء في لبنان إلى ما لا نهاية. ومنذ ذلك الحين، وهو «يمسك بالطرف الرابح» فلا يتزحزح. وظل ينتظر 329 يوماً قبل أن يُلقي بأوراقه الرابحة.

كان التحليل السوري بسيطاً: واشنطن هي الحلقة الأضعف بين الأطراف المعنية كافة في اتفاقية 17 أيار/ مايو. يتناول التحليل الفترة الزمنية أولاً. فالانتخابات الرئاسية الأميركية و«ثمن الديمقراطية» يجعلان رونالد ريغان أكثر هشاشة، كلما توالى مرور الأيام. يضاف إلى ذلك، وهنا تكمن المفارقة، أنّ تصميم رئيس الإدارة الأميركية على مواصلة السير قُدُماً لوضع مخططه للسلام موضع التنفيذ، يجعله سريع العطب. وإنّ عزمه المعلن على تدوين ذلك في قائمة «النجاحات» أثناء

رئاسته، أفسح المجال أمام حافظ الأسد ليجد الفرصة مناسبة للحصول على بعض «التسويات» بين الأميركيين والسوريين على حساب اللبنانيين والإسرائيليين.

أمّا من الجانب الإسرائيلي، فهنالك تيّار فكري بدأ يحظى ببعض التأثير في الأوساط العليا. فهو يتناول الطرح الذي يرى أنّه ليس على إسرائيل الإلحاح على انسحاب سوري تام من لبنان. لكن أن تفضّل عليه البحث عن تسويةٍ ترتكز على درجة من الوجود السوري «القادر» على حفظ النظام في لبنان، و«الذي سيكون التعايش معه ممكناً». فكانت دمشق تتابع بصمت واهتمام تطور هذه الفكرة في الصحافة الإسرائيلية، التي لم تكن إلّا لتروقها.

لقد خففت إسرائيل منذ توقيع الاتفاقية، وبأمر من موشيه أرينز، من الضغط الذي كان يمارَس على الرئيس الجميّل. فقد وُضِع حدّ للهجمات الإعلامية عليه. ونشأ موقف أكثر مصالحة حياله عبر أجهزة الاتصالات في تل أبيب. وقد صدرت تعليمات إلى المسؤولين السياسيين والعسكريين الذين يتولون الملف اللبناني «لتفادي المسّ بالرئيس». فلم يعد هنالك من موقف إسرائيلي ينتقد سياسته.

كان للتوقيع نتيجة فورية تمثلت في انتعاش العلاقات بين الدولة العبريّة والقوات اللبنانية. فمنذ وصول أرينز، في منتصف نيسان/ أبريل، جمّدت وزارة الدفاع في تل أبيب كل شكل من العون العسكري للميليشيا المسيحية دون إخطارها.

أما في 20 أيار/ مايو فقد توجّه الجنرال ميثير داغان[1] إلى مقرّ قيادة فادي أفرام في الكرنتينا، ليحيط هيئة أركان «القوات» علماً بالاستعدادات الجديدة التي قرّرتها تل أبيب على أثر الاتفاق الثلاثي. وكان كعادته، واضحاً. فطلب إنشاء لجنة مستعجلة تضم إسرائيليين والقوات اللبنانية والجيش اللبناني لدراسة الإجراءات الواجب اتخاذها، في حال انسحاب جزئي للجيش الإسرائيلي. وأكّد قائلاً: من الأهمية الكبرى بمكان تنسيق هذه الحركة في ما بيننا. تاركاً لما لم يُقَل قيمة إنذار. أمّا بشأن الجنوب، فأعاد تأكيد عزم إسرائيل على عدم القبول إلّا بميليشيا واحدة بين نهر الأوّلي والحدود الإسرائيلية اللبنانية، ألا وهي ميليشيا سعد حدّاد. وعلى ذلك فإنّ تنقلات القوات اللبنانية في هذه المنطقة ينبغي أن تلتزم بقواعد جديدة. فالتنقلات التي كانت تتم عبر البحر ينبغي أن يسبقها «إعلام» ينقل إلى البحرية الإسرائيلية قبل 24 ساعة محدّداً أيضاً نقطة الإبحار. وأضاف موضحاً: نحن نفضّل أن تتم ليلاً. وينطبق الإعلام المسبق ذاته على التنقلات البرّية التي ليس لها أن تتم إلّا بملابس مدنية وفي سيارات مدنية تصحبها مرافقة «سريّة» إسرائيلية.

وألحّ رئيس الياكال على هذه النقطة قائلاً:

– من الأفضل أن نرافقكم لتفادي كل سوء تفاهم عند حواجزنا. ونريد أيضاً أن نعرف عدد

---

(1) كان مع ميثير داغان كل من روفن إيرليخ ضابط الاستخبارات العسكرية (آمان) الاختصاصي بالشؤون الدرزية والشيعية في الياكال، وميكي أرمور (ماريون) رئيس قسم لبنان في الموساد.

السيارات والمسافرين، ومن المفضّل أن تكون ليلاً أو في الصباح الباكر، إنّ كان ذلك ممكناً.

فردّ فؤاد أبو ناضر بجفاء:

– نحن لسنا بحاجة لمرافقتكم.

إذ كان لديه، مثله في ذلك مثل كل اللبنانيين الحاضرين، الإحساس المراوغ بأنّه قد جرت إزاحتهم الآن، بعد توقيع الاتفاق، نحو المقاعد الجانبية.

جاء في اليوم التالي دور أوري لوبراني الذي قام بزيارة مقرّ هيئة أركان القوات اللبنانية. بدا في منتهى الراحة، والبسمة تعلو شفتيه، وهو يطلب بعض المرطبات قبل أن يحتل مكانه على مائدة الاجتماع، يحيط به مستشاره السياسي، السفير السابق صاموئيل ديون، وروفن مرحاف، وهو عميل سابق في الموساد انتقل إلى وزارة الخارجية، وميكي أرمور.

كان الدروز المقيمون في إسرائيل، والذين يخطب ودَّهم حزبُ وليد جنبلاط التقدمي الاشتراكي، يثيرون «صخباً هائلاً». فهم ينادون بعودة لوبراني إلى مقرّه، في كل ساعة من الليل والنهار لإحاطته علماً «بمذبحة». ويهتفون إلى رئيس الوزراء في بيته ومكتبه، ويتصلون برجال السياسة والصحفيين والنواب لإطلاق صيحات الإنذار ونداءات الاستغاثة لمصلحة أبناء جِلدَتهم، ومن غير ربط الأقوال في غالب الأحيان بالأفعال. بل أصبح بعض زعمائهم اختصاصيين في ميدان الاتصالات أمام الميكروفونات الإذاعية وكاميرات التلفزيونات للتنديد «بالفظائع التي يتعرّض لها دروز الشوف». ولا يمرّ يومٌ واحد من غير قيام تظاهرة ما، في هذا المكان أو ذاك، من إسرائيل. فقرّر المسؤولون الإسرائيليون، وقد استبدّ بهم الغيظ، القيام بشيء ما للحدّ من موجة الاحتجاج تلك.

وقد اقترح أوري لوبراني قائلاً:

– ينبغي إضعاف سلطة وليد جنبلاط. علينا الانتهاء منه! لقد قال لي الذين رأوه أخيراً إنّه يقدّم نفسه بصفته الزعيم الدرزي الوحيد. ينبغي انتزاع هذه الفكرة من رأسه. ونحن سوف نعمل ضمن هذا الاتجاه!

فقال نازار ناجاريان متعجّباً:

– مضت ثمانية شهور ونحن نحدثكم في ذلك الشأن من غير أن تقوموا بخطوة على أرض الواقع! بل إنّ بعض ضباطكم هنالك يقومون بعكس هذا تماماً. قد تكون التصريحات في الإذاعة والتلفزيون مثيرة للاهتمام، لكن تفوقها في الأهمية أفعال جنودكم في الجبل. إنّ سلوككم معاكس تماماً للسياسة التي أتيتم على عرضها أمامنا.

فاعترف المنسّق الإسرائيلي في لبنان بذلك اعترافاً غير مباشر وهو يقول:

– هذه المسألة بالنسبة إلينا فائقة الحساسية.

تقدّم صاموئيل ديون باقتراح قائلاً:

– فليقم جورج بشير[1] بإذاعة أخبار من راديو مونتي كارلو حول انقسامات في صفوف الدروز وانشروا إشاعات تقول إنّ زعامة وليد جنبلاط لم تعد متينة.

فقال لوبراني زاعماً:

– لست شديد الاطلاع على المسألة الدرزية، لكنّي أعرف أن فيصل أرسلان ليس قادراً على تولي الزعامة. علينا التفكير للعثور على الشخص الذي ينبغي أن يصير زعيماً لهم. فلدينا الآن الوسائل لخلق شيء ما، جديدٍ لدى الدروز.

كان لوبراني يعي تماماً أنّ الوضع أكثر تعقيداً مما كان يُذكَر. ذلك أنّ جنبلاط يحمل بيده ورقة رابحة جداً: إنّها إخلاص الدروز، الذين ليسوا ميالين للتخلي عنه، لا سيّما وهم يعرفون أنّ الجيش الإسرائيلي سوف ينسحب من الشوف. فمنذ بضعة أيام وإذاعة صوت إسرائيل العربية تعلن عن إعادة انتشار الجنود الإسرائيليين على خط دفاع جديد بمحاذاة نهر الأوّلي، على سويّة صيدا. وكان جنبلاط يستخدم ذلك «التهديد» بمهارة، فيلوّح به أمام أبناء طائفته واعداً إيّاهم بحماية من السوريين، وذلك هو الأمر الأكثر مصداقية، لا سيّما وأنّ الصدامات بين الدروز والقوات اللبنانية إلى ازدياد، وأنّ قوات دمشق تعسكر على بضعة كيلومترات من هنالك، في صوفر وحمّانا.

استرعى فادي أفرام انتباه لوبراني إلى أنّ التصريحات شبه اليومية للمسؤولين الإسرائيليين حول الانسحاب لا تؤدي إلّا إلى تدعيم سلطة جنبلاط. فوعدَ منسّق العمل الإسرائيلي في لبنان بالعمل على «تجميد» كل خبر يتعلق بهذا الموضوع[2]. وتمثّلت خشية «القوات» في أن ترى السوريين، بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي، يستخدمون الوسائل ذاتها كما في عام 1975، أي العمل على اضطراب الوضع عبر حلفائهم المحليين، ثمّ التدخّل من جانبهم بهدف «تهدئة الأوضاع».

وقدّم فادي أفرام اقتراحاً قائلاً:

– علينا منذ الآن أن ندرس ما سيكون عليه دور القوات اللبنانية في هذه الحال. ذلك أن أيدي الحكومة والجيش سوف تكون مغلولة.

فردّ عليه لوبراني قائلاً:

– بودّي أن أقول لك شيئاً يصدر عن اتفاق 17 أيار/ مايو. لقد كانت لنا قبل الحرب اتصالات

---

(1) صحفي لبناني قريب جداً من القوات اللبنانية، والمراسل في لبنان للإذاعة الفرنسية باللغة العربية رايو مونتي كارلو الشرق الأوسط.

(2) بعد ذلك بخمسة أيام أعلن إسحق شامير عن وضع مخطط مستعجل لانسحاب جزئي ووحيد الجانب للجيش الإسرائيلي في لبنان حتى نهر الأوّلي «في حال أصبح واضحاً أن سوريا لن تسحب قواتها».

بكم وكنا ننسّق أفعالنا معكم فقط. أمّا الآن، فلدينا اتفاق مع الدولة اللبنانية تضمنه الولايات المتحدة. فعلينا التصرّف بحذر شديد. نحن نعرف حق المعرفة من هم حلفاؤنا في لبنان، وعلينا القيام بلعبة مزدوجة. ينبغي أن نكون مطمئنين إلى أننا، ونحن نناقش الأمور معكم، لا نُلحِق أي ضرر بالرئيس الجميّل من جهة، وأنّه، من جهة أخرى، يمنح موافقته لكل ما نقوم به معكم. إنّ بيغن يلحّ على ألاّ نقوم إلّا بما يلائم الدولة اللبنانية.

– نعتقد أنّ السوريين سوف يتصرفون بشكل مباشر عسكرياً، وبشكل غير مباشر بممارستهم الضغط على السنّة ورئيس الوزراء. وسوف يسعون إلى زعزعة الاستقرار في البلاد عن طريق ممارسة الضغوط والاغتيالات.

فوافق المنسّق قائلاً:

– أنا أعتقد مثلما تعتقدون، فينبغي معارضتهم وحماية الأهداف المحتملة مثل أنطوان فتّال. كما ينبغي أيضاً الالتفات صوب العراقيين. إنّهم يستطيعون القيام بأشياء كثيرة ضد السوريين. فعليكم بناء جسور تواصل معهم.

فسأله أفرام مندهشاً:

– أنتم تعتقدون أنّ من الممكن تحويل أنظارهم بقلاقل داخلية عندهم أو مع العراق؟

– فكّروا في الأمر وأعطونا شيئاً ملموساً بهذا الشأن.

ظلّت مسألة أساسيّة تشغل بال «القوات»: ماذا سيفعل الإسرائيليون لو قام السوريون، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بمهاجمتهم أو بالهجوم على زحلة. لقد سبق لهم أن درسوا ذلك السيناريو الذي لم يعد يتعلّق الآن بالقوات اللبنانية وحدها، بل أيضاً بالدولة اللبنانية على وجه الخصوص. إلّا أنّ مسؤولي الميليشيا المسيحية كانوا راغبين في أن يعرفوا إنْ كان بوسعهم الاستفادة من استئناف المعونة العسكرية الإسرائيلية. إذ تنقصهم على سبيل المثال قذائف من عيار 130 مم لحماية زحلة.

– أنا أعرف ذلك، لكن ينبغي بعد توقيع الاتفاق، الحصول على موافقة رئيسكم.

بعد ذلك بـ 24 ساعة، في 21 أيار/ مايو 1983، تدهور الوضع في الشوف تدهوراً مباغتاً وكأنّما قد جرى عن قصد. لقد قُتِلَ مزارع درزي، وهو يحرث حقله، بانفجار لغم قديم. فقام أخوه أبو صالح، وهو رجل دين متعصّب، يثير النعرة المذهبية ثأراً له. واجتاحت الجبل موجة من عمليات اختطاف المسيحيين. أما الذين حاولوا المقاومة فقد قتلوا على الفور. وأقدم المسيحيون على عمليات اختطاف مماثلة وبالفظاعة ذاتها. وفي بضع ساعات جرى اختطاف ما يقرب من مئة شخص في الجانبين. فعمد الإسرائيليون إلى إغلاق الطرق كافّة في الجبل. وطالبت القوات اللبنانية بلقاء مستعجل مع رئيس الياكال. وجرى تحديد موعد اللقاء لاسلكياً صباح اليوم التالي في مقر الموساد في طبرجا إلى الشمال من جونيه.

استقبل ميثير داغان ورون إيرليخ، اللذان وصلا في حوّامة، فادي أفرام وأنطوان بريدي وفؤاد أبو ناضر ونازار ناجاريان. وقبل الدخول إلى المنزل الأبيض الذي يعلوه هوائي بُنِيَ بمحاذاة الشاطئ، طلب أفرام من المسؤول الإسرائيلي أخباراً عن الجبل.

– جرى اختطاف 85 درزياً. ونعتقد بوقوع 9 قتلى من المسيحيين و14 درزياً. المسألة الهامّة الآن هي وضع حدّ لذلك كلّه. عليكم وضع قائمة بأسماء المخطوفين الذين في أيدي المسيحيين وأن تضمنوا بقاءهم على قيد الحياة. قوموا بإصدار بيان بالإذاعة للتأكيد على أنّكم ستفعلون كل شيء في سبيل تحريرهم.

– إنّ ذلك قد تمّ. فمن يتولى القيادة الآن في المنطقة التي وقعت فيها أعمال الاختطاف؟

فأكّد داغان قائلاً:

– ليس الحزب التقدمي الاشتراكي، إنّهم رجال الدين. وسوف نسعى هذا المساء لاسترداد الإشراف على المنطقة. لا أدري إن كنّا سنتوصّل إلى ذلك. فهل لديكم معلومات عن المكان الذي يُحتجز فيه الرهائن المسيحيون؟

– الأرجح في كفرحيم.

– إن كنتم متأكّدين من ذلك فإنّ بوسعنا إرسال وحدة إلى هناك للاطمئنان إلى سلامتهم. سوف نسعى إلى تهدئة الوضع، وحاولوا من ناحيتكم الاتصال بشيخ العقل. نحن سنفرض حظر التجوال. ينبغي أن نعرف أين يَحتجِز الدروز رجالكم. وأنا أعرف أنكم حالياً أكثر انشغالاً بما يجري في الجبل لكنّي راغب في استغلال الفرصة لمناقشة نقطة هامّة معكم: إنّه لمن الأهميّة الكبرى والإلزام أن تتوجهوا بمبادرة للتقارب مع نبيه برّي.

كان الإسرائيليون يدفعون بالقوات اللبنانية لإقامة اتصال مع الشيعة. وقد باح داغان قائلاً: نحن نمرّ بفترات حساسة للغاية. كان الشيعة يتعرّضون لضغوط إيرانية سورية قوية. وكان نبيه برّي المسيطر على حركة «أمل»، أي على غالبية الشيعة، مستعداً، حسب أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، لإجراء لقاء مع «الجانب الرسمي»، والمقصود بذلك فادي أفرام وبيار الجميّل أو الرئيس. ولم يكن رئيس الياكال، ولوبراني ومندي يرون في ذلك سوى الخير. وكان المقدّم الأميركي ريتشارد هيغينز، قائد قوات لجنة الهدنة[1]، والذي مركزه في صور قد دبّر الاتصالات الأولية بين الإسرائيليين والمسؤولين المحليين، ثم الوطنيين في حركة «أمل»[2].

---

(1) منذ عام 1948، جرى نشر ما يقرب من 100 مراقب عسكري تابعين للجنة الهدنة الدولية على حدود إسرائيل كلها، لمراقبة وقف إطلاق النار وتطبيق اتفاقيات الهدنة العامّة، والإحاطة بالأحداث المعزولة ومنعها من التحوّل إلى نزاعات واسعة. وكانت أوّل عمليّة للحفاظ على السلام تقوم بها الأمم المتحدة. ولا ينبغي الخلط بينها وبين اليونيفيل وهي قوة فصل تابعة للأمم المتحدة في لبنان، والتي مهمّتها مماثلة تقريباً لكن بلغ تعداد عناصرها عدّة آلاف من القبعات الزرق.

(2) ريتشارد هيغينز: اختطف في 17 شباط/ فبراير 1988 من قبل فريق ينتمي إلى حركة المستضعفين (أصوليين شيعة موالين لإيران)، وعثر عليه مشنوقاً في 30 تموز/ يوليو التالي.

كان الشيعة الموالون لإيران يرتابون في نبيه برّي، لأنّه عاش في الولايات المتحدة أولاً، ولأنهم كانوا يشكّون، من جهة ثانية، في محافظته على صلات مع الأميركيين، على الرغم من أنّه توصّل إلى زعامة «حركة المحرومين» بفضل دعم من ياسر عرفات. إلّا أنّ الموالين لإيران ما كانوا المسيطرين على الساحة. وسعى الإسرائيليون بالوسائل كافة لفصل الجنوب عن التأثير السوري. فاعتمدوا، في سبيل ذلك، على المسؤولين عن الأمن الذين عيّنهم برّي وساعدوهم، وهم: داود داود في صور، محمود الفقيه في النبطية، وخصوصاً أبو حسن السبيتي، المسؤول في المنطقة[1]. لقد توصّلت حركة أمل إلى السيطرة على الشيعة سيطرة تامّة في تلك المنطقة، وفي بيروت التي نجحت في فصلها فصلاً تامّاً، بالتنسيق مع إسرائيل من أجل تفادي انتقال مشاكل الجنوب نحو العاصمة والعكس صحيح.

– إنّ المبادر الأول باتجاه برّي سيكون هو الرابح. وأجهزتنا جميعها متّفقة حول هذه النقطة. والأمر المثالي أن يتدخّل الرئيس بنفسه تدخّلاً سريعاً كي يتفادى وقوف برّي في صف جنبلاط.

فقال فادي أفرام:

– سبق أن التقى جان غانم بواحد من ممثليه واسمه عاكف حيدر.

– هذا هو الرجل الثاني في حركة أمل، رئيس المكتب السياسي.

– وينبغي أن يلتقي قريباً بحسن هاشم.

– إنه الرجل الثالث.

– وينبغي عليّ أنا، وفقاً لقول جان غانم، أن ألتقي بنبيه برّي في نهاية هذا الأسبوع أو بداية الأسبوع القادم.

كانت تل أبيب مقتنعة، مثلها في ذلك مثل الشيعة الخمينيين، بأن برّي قد احتفظ بعقلية أميركية، من غير أن يعرف أهميتها. أمّا اليقين الوحيد لديهم فهو أن برّي قد عاد توّاً من الولايات المتحدة حين استلم زعامة أمل. وإنّ بعض الرجال من كوادره قد جرى تأهيلهم أيضاً في ما وراء الأطلسي.

وأكّد ميثير داغان قائلاً:

– إننا ندفع بالشيعة إلى فتح حوار معكم. وقد قلت لهم إنّ حلفاءهم الطبيعيين في لبنان ليسوا السوريين ولا الدروز، إنّما هم المسيحيون والسلطة. وإنّ التقارب بين غدّار وإلياس كسّاب[2] لشيء

---

(1) هؤلاء الثلاثة قتلوا في آب/ أغسطس 1988، من قبل فرقة مغاوير من حزب الله، في كمين نصب في الأوزاعي (ضاحية بيروت الجنوبية) فيما كانوا عائدين من اجتماع مع نبيه برّي. وكانوا قبل ذلك بعدّة أشهر قد قاموا بتشكيل ميليشيات حركة أمل ضد الحركات الموالية لعرفات (من فلسطينيين وأحزاب يسارية مثل الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي، والعراقيين)، ثم في آذار/ مارس 1988 ضد حزب الله.

(2) مسؤول حزب الكتائب في جنوب لبنان.

حسن. لكن ينبغي أيضاً الارتقاء بتلك العلاقات إلى مستويات رفيعة أكثر، مثل بيار الجميّل أو أنت، على سبيل المثال.

في اليوم التالي عمل الإسرائيليون على تحرير 91 درزياً و35 مسيحياً كان جرى اختطافهم. واتّهم الناطق العسكري باسمهم الدروز، بأنّهم الأصل في موجة الاختطاف هذه وظلّ الوضع في الجبل على درجة قصوى من التوتر.

ضاعف أمين الجميّل من عقد الاجتماعات لتدارس أفعال السوريين وردود أفعالهم المحتملة. وشارك القائد العام للقوات اللبنانية في بعض منها. كان في نيّة الرئيس بسط سيطرته على المنطقة الشمالية دون إراقة دماء، ضمن فرضية انسحاب قوات دمشق. أمّا إذا رفض السوريون الانسحاب، فهو يفكّر في ممارسة ضغوط سياسية على دمشق، باللجوء إلى وسائل الإعلام كي تطالب مطالبة علنية برحيل الجيش السوري. ولم يكن يُستبعَد احتمالُ مجابهة عسكرية؛ فيفضّل أمين الجميّل في هذه الحال، أن تكون مع الجيش اللبناني لا مع «القوات»، خصوصاً إذا انخرط حلفاء سوريا اللبنانيون في اللعبة. وأحاط أفرام علماً بنيّته نشرَ الجيش على جبهة كسروان وعلى الساحل عند حدود القطاع المسيحي. فوقف قائد القوات اللبنانية معارضاً الفكرة. فهي تعني ضمنيّاً فقدان الإشراف على حاجز البربارة، على الطريق الساحلية بين بيروت وطرابلس. فهذا الحاجز، الذي يؤمّن «ضريبة» على السلع كافة التي تعبره، يشكّل مصدر دخل لا يمكن إغفاله. أمّا من جهة أخرى، فلم يكن لدى مسؤولي الميليشيا أيّ ثقة بفاعليّة الجيش. كان أمين الجميّل يتصرّف وكأنّ الجيش ذو قدرة حقيقية مجدية، وذلك ما كانت القوات اللبنانية تجادل فيه، لأنّه جيش مختلط. وكان أفرام يخشى فوق كل شيء أن يتفكك الجيش مجدداً إذا ما اصطبغت المجابهة المرتقبة بالطائفية.

ثم اقترح فادي أفرام على الرئيس إنشاء غرفة عمليات عسكرية مشتركة بين الجيش والقوات اللبنانية، لكن أمين الجميّل رفض. فما كان للشك والريبة المتبادلين أن يسهما في أي تقارب.

توجّه وليد جنبلاط إلى باريس ليلتقي هنالك، قبل ظهر يوم 24 أيار/ مايو، بفرانسوا دو غروسوفر[1] أحد المستشارين المقرّبين من فرانسوا ميتيران، وكلود شيسّون وزير الخارجية الفرنسي. وقد أطلعهما الزعيم الدرزي على توجّساته حيال تطبيق اتفاقية 17 أيار/ مايو. وبسط أمامهما قائمة بالصدامات اليومية التي تقع منذ عدّة أسابيع. وأكّد جنبلاط أنّه ليس لديه أيّ ثقة بالجيش اللبناني الذي يعتبره مأجوراً لدى «الجميّل وطغمته». فاقترح عليه الفرنسيان أن يبذل كل جهد لعقد حوار مع الرئيس اللبناني.

بعد ذلك بساعات أكّد إيلي حبيقة أثناء اجتماع ضم قادة القوات[2]، وميثير داغان ورون إيرليخ، وأمنون في مكتب فادي أفرام في الكرنتينا قائلاً:

---

(1) صديق حميم لأمين الجميّل.

(2) فادي أفرام إيلي حبيقة نازار ناجاريان أسعد سعيد إيلي وزان ووليد فارس (وودي).

– إنّ للمصريين ضلعاً في محادثات جنبلاط في باريس. ولقد سَألَنا الفرنسيون إن كان بوسعهم تدريب عناصر فريد حمادة في الشوف[1].

فهدد الجنرال الإسرائيلي قائلاً:

– إن يفعلوا ذلك في حال وجودنا، نطلِق النار عليهم وعلى الدروز. ونحن نعرف أنكم على علاقات طيبة مع الفرنسيين.

فأجاب فادي أفرام مع حركة بيده:

– هنالك حالات بين يسر وعسر. أمّا الآن فهم يريدون إغلاق إذاعتنا في باريس. فعمّ يبحث الدروز في فرنسا؟

فردّ رئيس الياكال مؤكّداً:

– إنّهم يسعون وراء ممارسة ضغط على حكومتكم. زد أنّ الفرنسيين يعرفون أنّهم قد ينتشرون في الشوف لدى انسحابنا. فعليهم التفاهم مع الدروز. أمّا نحن فعلينا أن نحضّر على استعجال مخطط تنسيق لذلك الانسحاب. وأنا لا أقول إنّه سيقع غداً. لكننا لن نمكث في منطقة ليس لنا أيّ مصلحة عسكرية فيها.

– كم تعطي الحكومة الإسرائيلية من الوقت للحكومة اللبنانية قبل سحب قواتها؟

فقال الجنرال الإسرائيلي:

– ذلك مرتبط بعوامل عديدة، فقد يقع بعد سنة كما بعد أسبوع. لكنّ الأكيد أنّه سيقع. وينبغي لنا الاستعداد له منذ الآن.

كان على الجيش اللبناني، ضمن الخطوط العريضة، أن يسدّ الفراغ الذي سيخلّفه انسحاب قوات الجنرال أمنون ليبكنز من الجبل. وما كان لذلك أن يتم دون تنسيق مفصّل. كان ينبغي أيضاً استكمال الدور الذي سيناط بالقوات اللبنانية، والمناطق التي ستلحق بها. أمّا الانسحاب فيواجه في الوقت الراهن على مراحل.

قال داغان بإلحاح:

– علينا منذ الآن، أن نتدارس ذلك كلّه في ما بيننا، نحن وأنتم والجيش اللبناني. ولئن لم نفعل ذلك فسوف ينشأ وضع شديد الصعوبة على الساحة.

فأبدى أفرام أسفه قائلاً:

– لم ندرك أنّ هنالك ذلك الاستعجال كله.

---

(1) قامت الإدارة العامة للأمن الخارجي (DGSE) في نهاية الأمر وعلى مدى أسابيع عديدة بتدريب مقاتلين دروز تابعين لفريد حمادة ابن شيخ عقل الدروز السابق، الذي كان من الكتائب والجيش اللبناني. وكان ذلك أيضاً بالنسبة إليها مهمّة استخبارات حول ما يجري حقيقةً في الشوف.

- لكن انتبهوا! لا أودّ أن تخلصوا إلى أنّ إعادة الانتشار سوف تتم غداً صباحاً. إنّ انسحابنا سوف يحصل رسمياً بعد انسحاب السوريين والفلسطينيين. ولئن فضّلتم أن نناقش الأمر مباشرةً مع الجيش اللبناني عبر قنواتنا الرسميّة، فنحن على استعداد لذلك.

- أنا أُفضّل أن أسأل الرئيس.

أعطت الرسالة التي أطلقها وليد جنبلاط في باريس حول فقدانه الثقة في الجيش الوطني اللبناني أُكُلَها. فقد عيّن أمين الجميّل الجنرال الدرزي محمود طيّ أبو ضرغم قائداً أعلى للقوة التي ستنتشر في الجبل بعد انسحاب الإسرائيليين. كان ينبغي لهذه الوحدة، المؤلّفة من ثلاثة ألوية، أن تكون مهمّتها الإشراف على المدن والقرى حول عاليه وفي الشوف. أما عناصر القوة المتعددة الجنسيات - والتي ستحدد جنسيتها فيما بعد - فسوف تكون «مكلّفة» بـ «الطريق الدولية» بيروت-دمشق. وكان على الوحدة التي يقودها أبو ضرغم أن تقوم أيضاً بجمع الأسلحة الثقيلة ضمن إطار عمليّةٍ تشمل الأرض اللبنانية كلّها، وأن تحرّر الأشخاص المخطوفين، وأن تفكّك حواجز الميليشيات على الطرقات، وأن تسمح بالحفاظ على غرف عمليات الأحزاب السياسية وأن تقوم بالمصالحة الشعبية في قرى المنطقة وبلداتها.

ما كان للحملة الدعائية التي رافقت هذا المشروع، والتي احتلّت الصفحات الأولى في الجرائد، أن تشيع الطمأنينة في النفوس، بل العكس هو الصحيح. فقد ألّهبت عمليات قصف عنيفة قمم الشوف وكنست ساحل المتن الشمالي. وأعلن الحزب التقدمي الاشتراكي أنّه يطالب «بحلٍ نهائيّ» للنزاع في الجبل عبر تبنّي «المطالب الدرزية المقدَّمة لرئيس الجمهورية».

سارعت سوريا لإحضار أربع كتائب مدرّعة جديدة، مجهّزة بصواريخ مضادة للدروع، نحو شتورة والبقاع وأقامت محطّتي رادار، واحدة في عيتا الفخّار إلى الجنوب من وادي البقاع، على بعد كيلومتر واحد من الحدود السورية، والأخرى في تمنين غير بعيد عن قاعدة صواريخ مضادة للطائرات. أمّا وقد شوهد جنودٌ بلباس عسكريّ سوفييتي في المنطقة، فقد توجّه الموساد، في 27 أيار/مايو 1983، إلى القوات اللبنانية طالبين معلومات على جناح السرعة. ونظّمت «القوات» أيضاً، استجابة منها لطلب ذلك الجهاز الإسرائيلي، لقاءً بين الرائد سعد حدّاد وبيار الجميّل. جرى ذلك اللقاء في 29 أيار/مايو، في منزل «البطريرك» (أي بيار الجميّل) في الدورة بحضور الجنرال ميثير داغان[1]. وقال والد رئيس الجمهورية وهو يبتسم ببشاشة:

- لا تخشَ شيئاً يا سيدي الرائد، فربّنا لبناني. إنّه لبناني يهودي. إنّ الله سيخلّصنا. ها قد مضت عشر سنوات ونحن على الصليب. وكلّما ظننا أنّ الأمر قد انتهى، جرى استئناف على نحو أشدّ. لقد ظننّا أنّا مع توقيع الاتفاقية سننعم بالسلام. لكن ليست الحال كذلك لسوء الحظّ.

(1) حضر أيضاً فادي أفرام، أنطوان بريدي (توتو)، وليد فارس، أمنون وهو أحد ممثلي الموساد في لبنان.

– قلت منذ البداية إنّه ينبغي قبل كلّ شيء الاتفاق مع السوريين.

– ذلك ما قمنا به. كنّا نبقي السوريين على اطلاع بكل ما يجري. فكانوا موافقين. وتعاونّا مع الأميركيين ووضعنا أرجلنا في مياه باردة.

فأكّد سعد حدّاد قائلاً بقوّة:

– لا تجيدُ الولايات المتحدة ممارسة الضغط إلّا على إسرائيل. وتريد اجتذاب سوريا إلى صفّها. إنّهم لا يفكّرون إلّا بمصالحهم. وأنا لم أتصرّف إلّا في سبيل لبنان. لولا الإسرائيليون ما بقي أي مسيحي في الجنوب. ويعرف السوريون حق المعرفة، أنّهم، حتى لو احتلّوا البلد بكامله، سيظلّ هنالك أحدٌ ليتكلّم باسم لبنان.

– لقد اتّخذتَ موقفاً بطوليّاً.

– جرى تعييني في الجنوب من قبل القائد الأعلى للجيش. فكنت مرغماً، على الذهاب إلى هنالك، على أن أسلك الطريق البحرية من مرفأ جونيه إلى ميناء حيفا. كان بوسعي أن أفعل مثل باقي الضباط الذين جرى تعيينهم في الجنوب، فلم يلتحقوا بمقرّاتهم. لكنّ مصلحة البلد شاءت أن أتصرّف على هذا النحو. كان كل شيء منظّماً مسبقاً لدى وصولي إلى الجنوب. وأنا لم أفعل سوى تطوير الوضع القائم مع إسرائيل. إنّي أعمل من أجل لبنان لا من أجل إسرائيل.

فأكّد زعيم الكتائب قائلاً:

– نحن في الوضع ذاته. لقد ساعدَنا الإسرائيليون على الصمود. وما من أحدٍ سواهم ساعدنا، لا العرب ولا الأوروبيون ولا أحد.

– وما العمل الآن لإخراج السوريين؟ وماذا إن لم يقبلوا؟

– ينبغي على الأميركيين والإسرائيليين مساعدتنا في ذلك.

– يؤكّد الإسرائيليون ضرورة قيام تنسيق بهذا الشأن.

فردّ الجميّل قائلاً:

– هنالك لجنة فتّال–كيمحي.

فتدخّل ميئير داغان قائلاً:

– هنالك الكثير من المسائل التي تستدعي مستويات أخرى من التنسيق. فلدينا من الناحية العملية تنسيق إجمالي، لكن علينا أن نواجه مسائل عمليّة عديدة في القريب العاجل. فإذا ما أغلقت الحكومة السورية حدودها، وجب الاستعداد لجعل بضائعكم الموجّهة إلى العالم العربي تمرّ عبر إسرائيل. وعلينا كذلك أن ننسّق لانتشار الجيش اللبناني في الشوف.

فقال بيار الجميّل متعجّباً:

– أنا مندهشٌ لعدم قيام مثل هذا التنسيق مع إبرهيم طنّوس حتى الآن.

واستأنف الجنرال الإسرائيلي يقول:

– إنّي على درايةٍ بذلك، لكنّ ما جرى حتى الآن ليس كافياً. لم تُعقَد سوى ثلاثة اجتماعات مع الجنرال طنّوس، فيلزم أكثر. وزيادةً على ذلك فإنّ التنسيق العملي غير قائم.

استدار پيار الجميّل نحو فادي أفرام:

– لِمَ لا يقوم بالتنسيق معك؟

فردّ قائد القوات قائلاً:

– ليس هذا، في واقع الأمر، بالتنسيق المباشر.

– ولِمَ لا يجتمعون مع طنّوس، مثلما يجتمعون معنا؟

فقال داغان:

– طنّوس يرفض ذلك.

فخلُصَ پيار الجميّل إلى القول:

– إنّ الأسرار معكم لا تُصان البتّة.

أصبحت شعبية العمل العسكري الذي نفذته إسرائيل في لبنان في حالة سقوط حرّ. فإذا كان 84 ٪ من الناس الذين جرى استطلاع آرائهم، في حزيران/ يونيو 1982، وجدوا الحرب مبرّرة، فإنّ نسبة هؤلاء هبطت إلى 61 % في كانون الثاني 1983، ثمّ إلى 51 % في نهاية آذار/ مارس. كذلك فإنّ الأكثريّةَ بين الإسرائيليين (48 % ضد 44) كانت تعتبر أنّ اتفاقية 17 أيار/ مايو لا تضمن السلام لمنطقة الجليل. وتبيّن أنّ الوزن السياسي لحزب الليكود قد تأثّر تأثُّراً جاداً بفعل ذلك. وعليه فقد شرعت الحكومة تنظر باعتبار متزايد للتظاهرات ونظرة قلق للأقلية الدرزية في بلادها. وصار كبيراً عدد المسؤولين الإسرائيليين والأميركيين الذين يعتقدون اعتقاداً متزايداً بأنّ وليد جنبلاط وطنيٌّ لبنانيٌّ وقومي حقيقي. لقد فرض الزعيم الدرزي مع توالي الأسابيع فكرة أنّ كل اتفاق حول النزاع في الشوف لا يمكن أن يتم إلّا بمساهمته وموافقته. لقد أضحى عنصراً أساسياً في الوضع. وذهب بعضهم إلى حدّ التأكيد أنّه لو لم يكن هنالك هذا الافتقار الحقيقي في التواصل بينه وبين أمين الجميّل لما أصبح جنبلاط «أداةً في يد السوريين»، متناسين بذلك أنّ الاتصال الجغرافي المباشر للمنطقة الدرزية اللبنانية مع المنطقة التي تسيطر عليها دمشق في لبنان، قد أرغمته على الوقوف وقوفاً كاملاً مع سياسة حافظ الأسد، في سبيل بقائه وبقاء طائفته. إنّ «الافتقار إلى التواصل» قد نجم عن ذلك ولم يكن هو الأصل. لكنّ الإسرائيليين يعتبرون على الرغم من كلّ شيء أنّ الفجوة التي تفصل بين الطائفتين في الشوف يمكن ردمها. وأنّ الأمر سيكون سهلاً حسب ظنّهم، لا سيّما وأنّ الدروز يعون أنّ الكلفة الواجب دفعها ستكون ثقيلة من بعد، أيّاً كان الحل. فقرر المسؤولون الإسرائيليون عن الملف اللبناني إجراء تقارب بين الطائفتين قبل انسحابهم.

في 6 حزيران/ يونيو 1983، وهي ذكرى بدء الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وجّهت صحافة تل أبيب نقداً شديداً لنتائج الحرب. فأبرزت الصحف اليومية كافة على صفحتها الأولى الكشف البشري: 570 قتيلاً[1] و2717 جريحاً في صفوف الجيش الإسرائيلي. ثم تولّت المعارضة مواصلة انتقادات الصحف. فطالبت بإجراء نقاش وتصويت في الكنيست حول انسحاب أحادي الجانب على مراحل وإنشاء لجنة برلمانية للتحقيق في الطريقة التي أُدير بها النزاع. وأقبل جنرالات متقاعدون للإدلاء بدلوهم. فقدّر أفيغدور بن غال، الذي تولّى قيادة محور الخرق في البقاع أنّ المعارك ضد السوريين كان ينبغي دعمها منذ الأيام الأولى باندفاع استراتيجي نحو الشمال بمحاذاة الحدود اللبنانية السورية، واضعةً نصب أعينها إزالةَ مواقع اللواء السوري الأول بهدف تجاوز محور طريق دمشق بيروت للسيطرة على المنطقة ما بين زحلة ورياق. وكان بن غال يعتبر على هذا الأساس ومعه آخرون أن أرييل شارون ارتكب خطأً استراتيجياً ضخماً بتأجيله المعركة مع السوريين إلى وقتٍ لاحق. لولا ذلك لاختلفت نتيجة الحرب، حسب رأيه، اختلافاً جذرياً.

وخلافاً لذلك، فإنّ ثلاثة من رؤساء الأركان الإسرائيليين السابقين وهم إسحق رابين، حاييم بارليف وموردخاي غور، وكلّهم أعضاء فاعلون في حزب العمال، قد أكّدوا أنّه لم تكن هنالك أيّة مصلحة في مقاتلة الجيوش السورية وأنّه كان للعملية في لبنان أن تقتصر على تدمير البنى التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية في الجنوب. كما أكّدوا أنّه لو جرى تفادي تلك المجابهة، لصار ممكناً فتح حوار مع دمشق حول خطوط حمر جديدة في لبنان. وإنّ وضعية الانتظار للجيش السوري طوال الساعات الـ 48 الأولى من الحرب تدعو للاعتقاد بأنّ تلك الإمكانية كانت معقولة لا سيّما وأنّ السوريين، حسب رأيهم، سيكونون راضين بالتخلّص من الفلسطينيين الذين يعارضونهم في لبنان.

لاحظ كاتبو الافتتاحيات، في يوم الذكرى هذا، أنّ خلفاء أرييل شارون «يسعون سعياً محموماً» وراء طريقة سريعة واقتصادية تمكّنهم من الانسحاب من المستنقع اللبناني، «من غير إعطاء الانطباع بأنّ إسرائيل مُنيت بهزيمة منكرة». ووقفت الشبكات التلفزيونية في صفّهم. وصعد على خشبة الشاشة الصغيرة كل من كان صوته رسمياً أو شبه رسمي، بل حتى من الناس البسطاء، من أجل تحليل «الأغلاط» المرتكبة أو جلائها أو تشريحها ونزع الغطاء عنها. كان التلفزيون، الذي أطلق عليه أعضاء الليكود اسم «عشّ المعارضة»، يعرض كل مساء جنازات الجنود المقتولين في لبنان. وهي مواكب جنائزية يستخدمها أنصار السلام استخداماً منتظماً للتظاهر ضد الحرب. وكانت تلك الحركات السلموية أبعد ما تكون عن الهامشية أو عدم التأثير. فكثيرون هم الجنود الذين رفضوا الخدمة في لبنان على الرغم من الملاحقات القضائية التي أثيرت ضدهم. كانت حركة «أمّهات ضد

(1) 45 منهم قتلوا في حوادث سير.

الصمت» تقوم بانتظام، بتوزيع عشرات الآلاف من المناشير الداعية إلى «عودة الجيش الإسرائيلي إلى داخل البلاد» في شوارع تل أبيب. أما حركة «السلام الآن»، فينظّم أنصارها يومياً تقريباً، مسيرة أمام مقرّ رئيس الوزراء. وصار العسكريون يخشون أكثر فأكثر من أن تنتشر في الدولة العبريّة «أعراض يتنام» على نحو ما كان في الولايات المتحدة. ولئن كان ردّ إسحق شامير عنيفاً حين وقف ليصرخ أمام الميكروفونات: إن المعارضة مسؤولة عن تلاشي التعبئة في البلاد وعن وقوع الضحايا في لبنان بسبب انتقاداتها المتواصلة التي تضعف الموقف الإسرائيلي على الساحة الدولية، وتعطي العدو انطباعاً بأنّ البلاد منقسمة على نفسها، فإنّ مناحيم بيغن قد تأثّر بذلك أشدّ التأثر. فالتزم، وهو حزين، بصمت مدهش حيال ذلك الجدال الذي لم تعرف البلاد قط مثيلاً لحدّته من قبل.

فرض أوري لوبراني، منذ استلامه مقاليد منصبه قبل ستة شهور، ما جرت تسميته بـ «نظرية البيانو». لِمَ نقتصر في عزفنا على نغمة واحدة (القوات اللبنانية) حين تكون بمتناولنا لوحة مفاتيح كاملة؟ فالحوار السرّي الذي فتحه منذ البداية مع وليد جنبلاط، صار منتظماً وكثيفاً. لقد سعى وراء الحصول من الدروز على حظر دخول «الإرهابيين» الفلسطينيين إلى منطقتهم ومنعهم من الوصول إلى الجنوب. وأعلن وزير الدفاع، موشيه أرينز على الملأ، أنّه راضٍ عن الطريقة التي التزم بها وليد جنبلاط للوفاء بتعهداته. لكنّ معاهد الدراسات الاستراتيجية في إسرائيل، مثل معهد يافا، كانت ترى أن الضغط السوري سوف يدفع بالدروز، بمجرّد انسحاب الجيش الإسرائيلي إلى جنوب نهر الأولي، إلى غضّ الطرف حيال تجدد «النشاط الإرهابي».

انطلق أوري لوبراني في سياسته التوازنية وهو يعي ذلك الخطر ويرغب في التقليل من شأنه. كان حريصاً على اللعب بورقتين في الوقت ذاته: فلديه من جهة شراكة متقاربة مع القوات اللبنانية، ولديه الحفاظ على «اتفاقية وِدٍّ» مع وليد جنبلاط من جهة أخرى، ثم أضاف إلى ذلك هدفين اثنين: التوصّل إلى تفاهم مع أمين الجميّل، والعناية بعلاقاته مع حلفاء شيعة في جنوب لبنان. وإنّه لبرنامج مترامي الأطراف.

أما بشأن الشيعة، فقد جرت بكل سرّية دراسة متأنية لإسقاطات عدة، من قبل استراتيجيين إسرائيليين، تناولت العون الواجب تقديمه لهم كي يُقيموا، بحكم الأمر الواقع، كانتوناً لطائفتهم في جنوب لبنان، يكون مماثلاً في نمطه لما يمكن للدروز أن يقيموا في الشوف. وعلى كل طرف من الاثنين التعهّد بإيقاف تسلل «الإرهابيين الفلسطينيين» واستباق كلّ عمل عدائي حيال إسرائيل. وكان متعهّدو تلك «الكيانات الطائفية» يظنّون أنّ الدولة العبريّة، إذا ما حافظت على علاقاتها التقليدية مع العناصر المسيحية في منطقتي المتن وكسروان، فسوف تتوصّل إلى إنشاء تحالف ثلاثي بوصفها شريكاً مستقلاً مع كل واحد منهما. ولسوف تقوم إسرائيل آنذاك مقام عامل وساطة وعنصر مصالحة. ويسع سورية، ضمن هذه الفرضية، أن تقوم من جانبها بدور مماثل في شمال البلاد. وعلى ذلك

فسوف تسلك تل أبيب ودمشق سياسات متوازية قائمة على علاقات مع عناصر طائفية مختلفة واقعة ضمن دائرة نفوذها الخاصة، ويقع الكل تحت المظلة الشرعية لنظام الجميّل. صحيح أنّ المشروع الذي كان يقطّع لبنان، تقطيعاً رسمياً، إلى قطع عديدة قد حُفِظ بكل عناية في أحد أدراج وزارة الدفاع، من حين توقيع اتفاقية 17 أيار/ مايو. لكنّه ظلّ راسخاً رسوخاً قوياً في بعض الأذهان.

استغل وليد جنبلاط التوجّهات الأميركية الطيبة حيال طائفته، وجهود المصالحة الإسرائيلية، فأوعز عن طريق حزبه، في 8 حزيران/ يونيو 1983، بنشر قائمة من عشرين مطلباً سياسياً من «شأن تلبيتها من قبل السلطة اللبنانية» تسوية أزمة الجبل. وتضمّنت القائمة، إضافة إلى المطالبات التقليدية بوقف إطلاق النار، المطالبة بتحرير جميع المعتقلين، وإغلاق الثكنات العسكرية غير الشرعية. وطالبت تلك الوثيقة أيضاً بالكفّ عن الملاحقات القضائية كافة ضد الأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم ذات لون سياسي منذ عام 1975 ودفع تعويضات وفوائد مستحقات للجبل. وتطالب بإنشاء قسمين إداريين، بمراسيم قوانين، وتعيين قائد لواء عملياتي درزي للجبل وقائد شرطة درزي إضافة إلى إعادة تحديد أهليات المجلس العسكري وتخصيص حصة ثابتة للدروز تبلغ خمسة وعشرين بالمئة في صفوف الكلية العسكرية[1].

طلب الجنرال ميثير داغان وفريقه تنظيم لقاء مع قادة القوات اللبنانية للبحث في مقترحات الحزب التقدمي الاشتراكي. أما وأنّ على الجنرال أمنون ليبكنز، قائد القوات الإسرائيلية في شمال صيدا، التوجّه إلى ذلك الاجتماع، فقد سلكت سيارته من نوع رانج روفر، بلونها الطحيني، الطريق اللوجستية المخصصة لـ «القوات» منذ كانون الثاني، ضمن مخطط بيروت الكبرى. ولما كان السير قليلة الكثافة، بعد مفترق غاليري سمعان، فقد زاد السائق من سرعته على نحو مباغت. وكان في ذلك إنقاذ لحياته. فقد مرّت سيارة الجنرال وهي في أقصى سرعتها، إلى جانب سيارة مرسيدس متوقّفة عند الجانب الأسفل من الطريق، فانفجرت لدى مرور السيارة الأولى من سيارتي الحماية من نوع جيب. وقد قتل اثنان من ركابها على الفور. أما السائق ورجل درك لبناني من قوات الأمن الداخلي، كان ينظّم حركة السير، فقد أصيبا بجروح بالغة. وتولّى ليبكنز بنفسه توجيه حماية الموقع وعمليات الإسعاف قبل أن يرجع إلى صيدا حيث مركز قيادته.

بدأ الاجتماع في الكرنتينا بين داغان وأفرام[2] متأخراً عدة ساعات على أثر ذلك الاعتداء.

أحضر الإسرائيليون معهم الملف الدرزي. وأخبروا محدّثيهم بأنّ أمين الجميّل يتحدّث إلى جنبلاط عبر إحدى قناتين: الجيش اللبناني أو المكتب الثاني. ويؤكّد رئيس كل واحدة من القناتين للرئيس، وهما: الجنرال إبرهيم طنّوس بالنسبة إلى الجيش والعقيد سيمون قسّيس بالنسبة إلى

---

(1) كانت الطائفة الدرزية حينها تمثل 6% من إجمالي عدد السكان

(2) حضر أيضاً إيلي حبيقة نازار ناجاريان فؤاد أبو ناضر وليد فارس وروفن إيرليخ.

المكتب الثاني، استناداً إلى علاقات طيّبة جداً وشخصية مع ضباط دروز، أنّ بوسعهما التوصّل إلى نتائج.

كانت إحدى خصائص لبنان دوماً، الحفاظ على حوار بين المتخاصمين عبر شخص ثالث وسيط، حتى وهما في ذروة خلافاتهما. فهنالك بانتظام أخ أو ابن عم أو حتى صديق من أيام الطفولة «في الجانب الآخر».

أكّد الجنرال الإسرائيلي لفادي أفرام أنّ هذه «الحوارات» ليست بذات نفع بسبب حجم الأزمة التي تفرّق بين الدروز وبين السلطة والقوات اللبنانية. وكانت تل أبيب تتصرّف، في واقع الأمر، على نحو يحافظ على التوازن بين القوى القائمة في الجبل، بما يمكّنها من السيطرة على الوضع سيطرة تامة.

توجّه داغان بالسؤال إلى زعيم الميليشيا المسيحية:

– ما نوع الحل الذي عنه تبحثون: التفاوض أم القتال؟

فردّ على أفرام مبتسماً:

– دعونا نصعد بدباباتنا إلى الشوف، ويسعنا عندها أن نحلّ المشكلة.

ثم أضاف سائلاً بلهجة جادة:

– من هو الذي ينبغي علينا أن نتفاوض معه لدى الدروز؟

– مع جنبلاط، لسوء الحظ. ولا يعني ذلك أننا معه، إلّا أنّه زعيمهم. فعلينا أن نتعامل معه على هذا الأساس.

فردّ فؤاد أبو ناضر قائلاً بجفاء:

– لو انّكم تصرّفتم منذ البداية تصرّفاً مناسباً وفقاً لما كنتم تؤكّدون لنا، لكانت هذه القائمة من المطالب تملأ صفحة واحدة بدلاً من اثنتين. فمن الواضح الجليّ أنّكم تتمنون أن يحقّق الدروز مكسباً.

فأقرّ ميئير داغان بذلك قائلاً:

– تلك المسألة لا تعنينا! لكنّا نتحسّس وضع الدروز لأنّ لدينا منهم. وذلك على كل حال ما يجعلنا نسمح بأن يقوم أحد الأطراف بالإخلال بالتوازن العسكري. ولو رغبنا في تطبيق حل بسيط في الشوف، لطلبنا منكم أن تغادروا تلك المنطقة، وعندها تستقر الأمور.

فقال نازار نزاريان:

– اعترفوا على الرغم من كل شيء بأنّ ذلك ليس في مصلحتكم؟

فقال له الجنرال الإسرائيلي زاجراً:

– أنا لم أقل إنّ ذلك في مصلحتنا.

فاستأنف فؤاد أبو ناضر قائلاً:

- تقولون دوماً إنّ الحزب التقدمي الاشتراكي هو العدو، فلِمَ لا تتصرّفون على هذا الأساس؟ إنّ هشام نصر الدين[1] لا يكفّ عن توجيه التهديدات ضدنا وضدكم منذ توقيع اتفاقية 17 أيار/ مايو. لكنّ الجنرال ليبكنز يواصل استقباله والتحدث إليه. وتقولون لنا في كل اجتماع إنكم ستغيّرون موقفكم عسكرياً حيال الدروز، لكن لم يقع أي تغيير.

فأضاف أفرام قائلاً:

- كان ممكناً صنع شيء ما، بعد معركة المطلّة، لكنّكم واصلتم مساندة وليد.

فرد داغان مراوغاً:

- تتوافر لدينا اليوم، على ما أعتقد، الفرصة لبلوغ أهدافكم. وذلك ما دعاني للحضور اليوم مع هذه الوثيقة. إنّ سلوك طنّوس وقسّيس، ساعياً كل منهما إلى حلّ المشكلة من ناحيته لن يعود بأية نتيجة. فمن الحكمة أكثر المرور عن طريقنا.

فقال أبو ناضر بنبرة حاسمة:

- أعتقد أنكم جئتم متأخرين جداً.

في 9 حزيران/ يونيو 1983، أحاطت تل أبيب، على نحو مباغت، كلاً من واشنطن وبيروت علماً، بعزمها على حل مشكلة الجبل اللبناني «خلال مهلة قصيرة» عبر انسحاب جزئي يقوم به الجيش الإسرائيلي، ويمكن أن يأتي ذلك في نهاية شهر تمّوز/ يوليو. إلّا أنّ الإسرائيليين خففوا من وقع كلامهم مؤكدين أنهم لن يبادروا إلى مثل ذلك الانسحاب إلّا بالتنسيق مع الولايات المتحدة ولبنان.

لم تُعِر بيروت، العالقة في معضلات سياسية داخلية، القرار الإسرائيلي، إلّا اهتماماً ضئيلاً. فحزب الكتائب والقوات اللبنانية والرئيس منخرطون في حملة انتخابية لتعيين مكتب سياسي جديد. وخاضت القوات اللبنانية معركة محمومة للدخول دخولاً قوياً إلى ذلك التنظيم بقصد معارضة سلطة أمين الجميّل داخله، أو التخفيف من غلوائها على الأقل. أما الرئيس فألقى من ناحيته بكل ثقله في الميزان مستخدماً بمرح المكانة التي تمنحه إياها وظيفته الرئاسية ليؤثر على بعض أعضاء الهيئة الانتخابية.

في التاسعة من صباح 13 حزيران/ يونيو 1983، اجتمع 80 عضواً من أصل 85 يتألّف منهم «برلمان» الكتائب، في مقرّ الحزب، في الصيفي، على حدود مركز المدينة المقفر والمحزّز بشظايا حرب تقارب العشرة أعوام. اختار الاقتراع الأول رئيس الكتائب. حصل بيار الجميّل المرشّح عن

(1) المسؤول السياسي في الحزب التقدمي الاشتراكي.

ولاية جديدة على مجموع الأصوات باستثناء ورقة واحدة بيضاء، هي ورقته هو. لقد اتخذ تلك العادة في التصويت وفي الإعلان عنها منذ عام 1936. وجاء من بعد انتخاب أعضاء المكتب السياسي العشرة. كان هنالك اثنان وعشرون طامحاً. حصل مرشحان فقط من القوات اللبنانية على 44 صوتاً، أي الحد الأدنى الضروري للنجاح، وهما: ألفريد ماضي وسمير جعجع. وقد جرى الإعلان عن نجاح الأول بفعل قِدمه في الحزب. أما كريم بقرادوني، الذي عقدت عليه القوات اللبنانية آمالاً واسعة، فلم ينل سوى 41 صوتاً. كانت الهزيمة قاسية. وبعد انتهاء الاقتراع اندفع فادي أفرام إلى بيت پيار الجميّل ساخطاً.

– لن أكون صادقاً مع نفسي ما لم أحطك علماً بما نحسّ به. إنّ خيبة أملنا هي على مستوى عمليات التدخّل غير الديمقراطية التي أثقلت الاقتراع.

فردّ عليه الأب الروحي قائلاً بجفاء:

– لم يتدخّل من أحد. وأنا التزمت بحدود الاستقامة. فلم أقم بأي شيء.

– لقد وقفتَ في وجه كريم بقرادوني وسمير جعجع. إنّ التخلي عن سمير جعجع على ذلك النحو لغلطٌ كبير. كان يسعكم في الحزب أن تراقبوه. ولسوف يؤدي سقوطه إلى مشكلات. وسترون ما سيفعل. كما لم تكن سلمى مطر[1] وكلّ من سليم رعيدي وأمين الجميّل، راغبين في انتخاب كريم[2]. بل سمح سكرتيرك لنفسه بالقول إنّ النتائج كانت «انتصاراً للشرعية». فهل نحن خارج حدود الشرعية؟ إنّها أقوال غير مقبولة. هل نحن ضد الشرعية؟

– هذه غلطتك أنت، لِمَ لمْ تقل لي شيئاً؟ أين سمير؟ أريد أن أتحدث إليه. وأين كريم؟ لا يسعنا أن ندع الموقف على هذا النحو. إنّها لكارثة. ولا بدّ من حلّ هذه المعضلة. تعالوا إلى بيتي. اصطحب من تشاء.

توجّه كريم بقرادوني وحده تلبية لدعوة پيار الجميّل الذي استقبله بهذه الكلمات:

– إن كنت تظن أنّي عملت ضدك... فسوف أنتحر! أخطر ما في الأمر أن يراودكم الظنّ أنّي لست نزيهاً.

– لا أظنّ أنك تدخّلت تدخّلاً مباشراً، لكن فعل آخرون ذلك باسمك.

– من؟

– سليم رعيدي.

فأطلق پيار الجميّل رشقة من الشتائم بحق رعيدي وطلب حضوره على الفور. وما إن دخل الرجل القاعة حتى سأله الأب الروحي قائلاً:

---

(1) السكرتيرة الخاصة لپيار الجميّل. وذات نفوذ كبير لأنها قريبة جداً من زعيم الحزب.

(2) سينتهي الأمر بكريم بقرادوني بأن ينتخب رئيساً للكتائب سنة 2001.

- هل طلبتُ إليك أن تعمل ضد كريم؟

فتدخّل المحامي الأرمني قائلاً:

- ليس هذا بالسؤال المناسب. بل هل عملت ضدي؟

فأجاب رعيدي دونما تردّد:

- أجل. أجل، لأنّ أعضاء القوات اللبنانية جميعاً ضدّ پيار الجميّل، وضدّ مجلس أمن الكتائب وضدّ الحزب. فمن الطبيعي أن أقف منهم موقف المعارض.

- وهل كانت لديك قائمة بالمرشحين تقوم بعرضها على أنّها قائمة پيار الجميّل؟

صبّ الرجل جام غضبه على كريم قائلاً له إنّ ذلك لا يعنيه، وإنّها مسألة داخلية تخصّ الحزب.

قام پيار الجميّل فعانق بقرادوني، قائلاً:

- أنت تعرف أنّي أعتبرك مثل ابني. فأريدك إلى جانبي، وينبغي أن تأتي.

فأجابه المرشح التعيس الحظ قائلاً، وهو يتوجّه صوب الباب:

- ما عليك، وأنت بحاجة إليّ، سوى أن ترسل فتطلبني.

بعد ذلك بأيام، وقف پيار الجميّل ساخطاً، لدى اجتماع المكتب السياسي الجديد، فتولى الكلام في افتتاح الجلسة قائلاً:

- أريد، قبل التعرّض للمواضيع السياسية، مقاربة شؤون داخلية في الحزب والانتخابات الأخيرة. يظنّ بعضهم أنّي قد تدخّلت في تلك الانتخابات. إنّهم أناس بلا ضمير. فالذي يشكّ ليس من الكتائب! وأنا لا أقبل بذلك. ومثل هذا لمّا يقع في تاريخ الحزب. وأنا أتوجّه بالكلام إلى القوات اللبنانية لأنّهم ليسوا جميعاً من الكتائب. فبينهم بكل تأكيد أشخاص يتلاعب بهم السوريون والإسرائيليون. إنّ الذين يتقوّلون على الحزب هكذا ليسوا من الكتائب! إنّهم كلاب! لم أعد بحاجة للقوات اللبنانية. فأنا الزعيم الوحيد.

وهبّ أعضاء المكتب السياسي واقفين يصفّقون.

لكن جرى سريعاً إخماد الأزمة بين «القوات» والكتائب.

شرع الموالون لسورية من معارضي نظام أمين الجميّل، ومعهم رشيد كرامي، رئيس الوزراء السابق، ووليد جنبلاط زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي، ورئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية، بدراسة مشروع سياسي قدّمه لهم عبد الحليم خدام ورئيس هيئة الأركان حكمت الشهابي. ويقوم على إنشاء تجمّع يضم المعارضين كافة، وعلى عملية انصهار بين ميليشياتهم. ولسوف تشكّل تلك الحركة الأساس لسلطة مستقلة ذاتياً تنافس سلطة الشرعية[1] في المناطق الواقعة تحت السيطرة

---

(1) تعبير عام شائع الاستخدام في لبنان ويعني رئاسة الجمهورية.

السورية. وستوكل إليها مهمات تشمل الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية. كما سيتم قيام إدارة محلية في شمال لبنان وفي البقاع وفي قسم من جبل لبنان. سوف تتشكل قاعدته من مجالس شعبية محلية يكون على قمّتها مجلس مركزي رئاسي ذو رأسين اثنين: فرنجية وكرامي. سوف يتولى جنبلاط مهمات القائد العسكري العام جامعاً ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي (الدروز)، وحزب البعث الموالي لسوريا، والحزب السوري القومي الاجتماعي، ومنظمة العمل الشيوعي اللبنانية (حزب لينيني)، والحزب الشيوعي اللبناني (ماركسي)، والحزب الديمقراطي العربي (قومي علماني)، والاتحاد الاشتراكي العربي (اشتراكي علماني). أمّا ميليشيات المردة (مارونية تابعة للرئيس السابق سليمان فرنجية) وميليشيا أمل الإسلامية (شيعية دينية) وميليشيا حسين الموسوي: فلن تكون داخلة ضمن ذلك الانصهار. وسوف يجري تكليفها بحفظ «الأمن» في مناطقها وهي على التوالي: لبنان الشمالي بالنسبة إلى المردة، والبقاع الشرقي بالنسبة إلى أمل الإسلامية. وسوف يتمّ تأمين التمويل لهذا التجمّع من ضرائب مباشرة على المواد الاستهلاكية وعلى المعاملات الرسمية. وبالنسبة إلى قوّة إرسال الإذاعة التي أقامتها ميليشيا سليمان فرنجية فسوف ترفع إلى 100 كيلو واط وتصبح إذاعة التجمّع الرسمية. وقد أرسلت مختلف الحركات والأحزاب السياسية المعنية بمبعوثين تلو آخرين إلى نبيه برّي زعيم حركة أمل كي ينضمّ إليهم. لكن دون جدوى.

في صباح 15 حزيران/ يونيو 1983، سار موكب مهيب من المتظاهرين لحركةٍ جديدةٍ مسالمة «الأهل ضدّ الصمت»، وهم يرفعون لافتات تطالب بانسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان، واجتاح الموكب شارع بلفور حيث يقع المقرّ الرسمي لمناحيم بيغن. واخترق وفدٌ حاجزاً من رجال الشرطة بخوذاتهم كانوا يحرسون المقرّ ليمضي فيضع، بين يدي رئيس الوزراء، عريضة تحمل 10 آلاف توقيع. فرفض بيغن استلام الرزمة السميكة من الأوراق وطلب إلى المحتجّين وضع حدٍ لتلك التظاهرات التي تضعف موقف إسرائيل.

لقد جاءت هذه الحركة الجديدة غير السياسية لتنضم إلى سبع حركات أخرى غير برلمانية[1] كانت تعبّر في الشارع، تعبيراً يومياً، عن معارضتها لبقاء الجيش الإسرائيلي في لبنان. ومنذ شهر وتظاهرةٌ رمزيّة تقف بالتناوب أمام مقرّ رئيس الوزراء حول يافطة يدوّن فيها يومياً كشفٌ بالخسائر الإسرائيلية. أمّا في اليوم التالي فقد رفض الكنيست، على أثر نقاش صاخب جداً، بأكثرية 59 صوتاً ضد 56 وامتناع واحد عن التصويت، طلباً عماليّاً لتشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في الحرب على لبنان.

ما كان ذلك «الانتصار» الذي حققه الليكود ليخفي المصاعب التي يواجهها مناحيم بيغن

---

(1) حركة «السلام الآن» وحركة «هنالك حدّ» (العسكريون الاحتياط)، الجنود «ضد وسام الحرب»، لجنة «ضد الحرب في لبنان» (أقصى اليسار)، «الإسرائيليون ضد الاحتلال»، الحركة الدينية «المسالمة» التابعة للحاخام آبيتاي، وحركة «شرقيون من أجل السلام».

داخل أكثريّته ذاتها. فشريكا الليكود الآخران وهما حزب حيروت والحزب الليبرالي يمرّان في مرحلة حرجة. إنّ القائدين التاريخيين لحزب حيروت، إسحق شامير وأريل شارون، المعتبرّين من المتطرّفين، صارا يلاقيان معارضةً شديدة داخل صفوفهما الخاصة. وقد أضيف إلى ذلك السيطرة على الشارع وكآبة اجتماعية حقيقية أثارها إضراب عن الطعام قام به أطباء الخدمات الصحية العامة لمساندة مطالب برفع الرواتب.

أمّا زعماء القوات اللبنانية، الذين أثار قلقهم المنحى الذي اتخذته الأحداث في إسرائيل والاتساع الذي شمله انتشار الإشاعات حول الانسحاب من بيروت، فقد طلبوا من الموساد أن ينظّموا لهم لقاءات في تل أبيب. كانوا يأملون في الحصول على جواب واضح من السلطات الإسرائيلية، يتعلّق، على الأقل، بتاريخ إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي. فنقلتهم حوّامة مع حلول الظلام في 20 حزيران/ يونيو 1983، من محطة الزوق الكهربائية إلى تل أبيب. أمضوا ليلتهم في فندق دان، على شاطئ البحر. ولدى استيقاظهم، وصلتهم عبر الصحافة مفاجأة غير سارّة، تمثلت في نشر عناصر من تقرير النائب العام العسكري أسعد جرمانوس، حول مذابح صبرا وشاتيلا. لا وجود لأيّ دليل على أن قيادة حزب الكتائب وقيادة القوات اللبنانية كانتا على علم بما قد جرى [. . .] وخلُصَ التحقيق كذلك إلى أنّه لم يصدر أي أمر من هاتين القيادتين إلى مقاتليهما لدعم العمليات التي كانت تجري في المخيمات أو المساهمة فيها. واعتبر اللبنانيون أنّ يومهم بدأ بدايةً سيّئة. وأنّ هذا النص قد ظهر في وقت غير مناسب على الإطلاق. وقد أكّد التقرير أنّ المذابح وقعت دونما شك بيد عناصر حدودية وعناصر أخرى قد عانت الكثير من أعمال الفلسطينيين في بحر السنين السابقة.

المدهش في الأمر، أنّ هذا الموضوع لم يجر التعرّض له أثناء حديثهم الأول مع أوري لوبراني[1] قُبيل الظهر في إحدى قاعات الاجتماعات في الفندق، تحت حماية سريّة لرجال بملابس مدنيّة وشعر قصير جداً.

قدّم اللبنانيون وصفاً دراماتيكياً للطريق المسدود السياسي والعسكري الذي يعرّض المناطق المسيحية لعمليات قصف يومية. واعتبروا أنّ مستقبل لبنان يتقرّر إلى حدٍ كبير في غضون الأسابيع القادمة. وجرى أيضاً طرح مشكلة الاتصال الأرضي بين «القوات» والدولة العبريّة مروراً بالشوف، والذي كانت لدى القوات اللبنانية العزيمة المطلقة على إنشائه منذ الصعود إلى الجبل. كان ذلك الاتصال المباشر بالنسبة إليهم هدفاً استراتيجياً. وتتمثّل فكرتهم في تجسيده عملياً، على الرغم من

---

(1) كان برفقة أوري لوبراني الجنرال مئير داغان وأوديد ييغال مقدم من جهاز آمان، وأورين شور عميد محلل في جهاز آمان، ومناحيم ناڤوت (مندي) من الموساد، وأمنون ممثل الموساد الدائم في لبنان، پاتريك مسؤول قسم التحليل عن ملف لبنان في الموساد، ميخا محلل في الموساد، وميكي أرمور (ماريون) رئيس قسم لبنان في الموساد.

الانسحاب الإسرائيلي المعلن، إمّا عبر تفاهم سياسي مع الدروز، أو عبر بناء طريق عسكرية على سفح الجبل وفوق القمم، تكون خارج مرمى مدافع الدروز. يبقى العائق الوحيد وهو وليد جنبلاط. وكان الحل الأول أو الآخر بحاجة لدعم من الإسرائيليين. فكان هؤلاء حاسمين: لا مجال لبحث ذلك. أما وهم يستحضرون الأحداث السياسية اللبنانية الأخيرة، فكانوا حاسمين بشأن الموقف السوري:

– لن ينسحبوا. وإنّ هذا الموقف لديهم متصلّب جداً. وهم لا يناورون ولا يكذبون حين يقولونه. ولسوف يستخدمون حلفاءهم المحليين لإنشاء ما باتوا يسمّونه لبنان الحر. وسيسعون من بعد إلى إثارة القلاقل في المناطق التي تحت سيطرتنا والتي تحت سيطرتكم. وإنّ الموقف الإيجابي الذي سلكوه حيال السنّة والشيعة يخفي رغبتهم في رؤيتكم ترحلون.

فتوجه أوري لوبراني إلى رئيس جهاز الأمن قائلاً:

– وما رأي إيلي بذلك؟

فأكّد حبيقة قائلاً:

– ذلك هو رأيي أيضاً. فالرئيس عانى الكثير من المتاعب ليضمن قدوم النواب السنّة لدى موافقة البرلمان على الاتفاقية.

ثم أوضح مبتسماً أنّه قد توجّب عليه استخدام بعض «الأساليب» لإرغامهم على الحضور. وها قد شرعوا بالتخلّي عنه.

فسأله الإسرائيلي:

– وما سيكون موقف نبيه برّي؟

– يواجه برّي معضلات عديدة، لا سيّما على الصعيد الداخلي في حركة أمل. ولديه الكثير من الطموح مثل وليد جنبلاط. إنّه راغب في إنشاء منظومة سياسية جديدة تكون بديلة لصيغ 1943[1] التي استبعدت طائفته عن السلطة التنفيذية. إنّ الشركاء الحقيقيين للمسيحيين هم الشيعة لا السنّة. وبرّي لديه مطالب سياسية. أما مشكلته فهي أنّه ما من أحد يتحادث معه. وهو يتساءل في هذا الوقت، ما إذا كان يحقق ربحاً أكبر بانضمامه مباشرة إلى صفوف المعارضة وأداء الدور ذاته الذي يقوم به وليد جنبلاط.

فتدخّل ميثير داغان قائلاً:

– لا أرى الوضع بالطريقة ذاتها. فالشيعة، لا سيّما جماعة برّي، يتطلّعون إلى تفاهم أفضل مع الحكومة اللبنانية. وهم يريدون المضيّ حتى النهاية. فأعتقد أن حكومتكم لا تقوم بما يكفي

---

(1) صيغة 1943 تفاهم دستوري شفوي بين زعماء الطوائف الدينية أُقِرّ في عام 1943 ويقسّم السلطة ووظائف الدولة الكبرى بين الموارنة (رئاسة الجمهورية) والسنّة (رئاسة الوزراء) والشيعة (رئاسة البرلمان).

لاجتذابهم. وسوف أضرب لكم مثالاً على ذلك: المقدم علي عاشور، شيعي، وقائد الشرطة في جنوب لبنان، استُبدل به ضابط مسيحي.

فاستأنف حبيقة قائلاً:

– كنت أفكّر مثلك، لكنّهم بدأوا يتغيّرون. فقبل يومين، وأثناء مأدبة إفطار في القصر الرئاسي، جرى بثّ خطاب المفتي[1] على موجات الإذاعة والتلفزيون في حين لم يجرِ بثّ خطاب «محمد مهدي شمس الدين»[2]. وقد أثار ذلك سخط نبيه برّي. فأعتقد أنّ هنالك اتفاقاً بين الرئاسة والمسؤولين السنّة على استبعادهم. إنّ أمين يراهن مراهنة تامّة على السنّة في بيروت. وهنالك كلام عن قانون إيجارات جديد يسمح للمالكين بطرد المستأجرين الذين لا يدفعون الإيجارات. وإذا ما جرى تطبيق هذا القانون، فإنّ الشيعة كافة من جنوب لبنان، الذين طُرِدوا من أماكنهم بسبب الحرب والبؤس والذين لجأوا إلى ضاحية بيروت الجنوبية فاحتلّوا أبنية بحالها يملكها السنّة بشكل رئيس، سوف يجرى إجلاؤهم. وذلك يطرح مشكلة كبرى على نبيه برّي. فهو يعتبر، بحق أو بغير حق، أنّ مشروع القانون موجّه إليه مباشرة. ولسوف يعارضه.

فقدّر داغان قبل مواصلة كلامه أنّ:

– الحكومة سوف تستخدم الدبابات والجيش لفرضه، وإذا ما تدخّل الجيش فسوف تنقسم بيروت مجدداً.

وهنا سأل العقيد أورين شور، رئيس قسم المعلومات في جهاز آمان[3]، قائلاً على نحو مباغت:

– هل لديكم اتصالات برفعت الأسد أو بمسؤولين سوريين آخرين؟

كان في السؤال إشارة إلى الاتصالات التي قام بها ميشال سماحة، وهو أحد عناصر إيلي حبيقة، مع شقيق الرئيس السوري. فتدخّل ميكي أرمور، وهو رئيس قسم لبنان في الموساد، قائلاً بلهجة عنيفة وبالعبريّة، في حين كانت المناقشة كلها بالإنكليزية:

– لا نريد الكلام في ذلك الآن. لديهم اتصال، لكنّنا لا نريد مناقشة ذلك ضمن هذا الإطار.

علت البسمة وجوه اللبنانيين. لكنّ ماريون، وهو خير ممثل للموساد، كان ظهيراً لرجال قسمه. فالحديث يدور حول معلومات سياسية لا تمتّ للمعلومات العسكرية بصلة. وعاد أورين شور للكلام لكن ضمن ميدانه:

– ما ستفعلون لو انسحبنا من عاليه أو من الشوف؟

---

(1) أعلى سلطة دينية لدى السنّة.

(2) نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى.

(3) الاستخبارات العسكرية (أنظر الفصول السابقة).

– الأمر كله منوط بانسحابكم. وإلى أي حد هو انسحاب جاد؟

فقاطعه لوبراني قائلاً:

– لماّ يُتخَذ من قرار. لكنّه سيقع في غضون أسبوعين وحتى ثلاثة أشهر.

أما ميثير داغان فأضاف:

– ينبغي التوصّل إلى اتفاق بهذا الشأن بيننا وبينكم وبين الدولة والدروز. عليكم دراسة المطالب الدرزية وإيجاد حل. أعتقد أن من الممكن الوصول إلى اتفاق معهم على الأرض، حتى لو لم يكن جنبلاط موافقاً علناً، فالمشكلة الحقيقية هي في معرفة كيفية اجتذاب الدولة نحو المفاوضات.

فقال حبيقة:

– لا أعتقد أنّ الدولة اللبنانية سوف تقبل بالعمل بإشراف عرّاب إسرائيلي. ولسوف تكون بداية ممتازة جداً إذا ما توصلنا إلى اتفاق مع الدروز وتمكنّا من تطبيقه، على الرغم من معارضة جنبلاط.

فأكّد داغان قائلاً:

– أعتقد أنّ الدروز مستعدون الآن للاتفاق. وهم يضربون عرض الحائط بمعارضة جنبلاط الذي يعيش في باريس غارقاً في الويسكي والكونياك. أنا أعرف أنكم أنتم، لن تكونوا عائقاً أمام مثل ذلك الاتفاق، لكن كيف السبيل إلى أقناع الدولة؟

فوعده حبيقة قائلاً:

– سوف نحاول على الرغم من أننا لسنا متفائلين. لكن إذا ما انسحبتم وعاد السوريون ومنظمة التحرير الفلسطينية، فما سيكون ردكم؟

فردّ لوبراني قائلاً، من غير إعطاء مزيد من التفاصيل:

– سوف نحاول منع ذلك عبر تسويات مع الدروز قبل تحرّكنا. زد أنّ الجيش اللبناني سيكون حاضراً.

ثمّ هنّأ الإسرائيليون محاوريهم على الحملة الصحفية التي أطلقوها في إسرائيل بقصد تحسين صورتهم. ولقد توجّه إلى لبنان قرابة خمسة عشر صحفياً. وقابلوا، وهم تحت رقابة مشدّدة، عدداً من المسيحيين المؤيّدين للدولة العبريّة. كان الموساد من جانبه، يدرس بعمق إنشاء محطّة جديدة للإذاعة والتلفزيون تكون استوديوهاتها في موناكو أو في لندن، من غير طاقم إسرائيلي، ويكون جهاز إرسالها على سفينة راسية عند حدود المياه الإقليمية اللبنانية. على بعد 12 ميلاً من بيروت[1].

وفي حدود الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم في 21 حزيران/ يونيو، جاء بعض

---

(1) كانت كلفة المحطة باهظة. فلم تر النور قط.

عناصر الموساد فاصطحبوا اللبنانيين إلى وزارة الدفاع في تل أبيب للقاء قائد الأركان للجيش الإسرائيلي موشيه ليڤي[1].

لقد أوضحوا للعسكريين الإسرائيليين، وهم مرتبكون، أنّ استبدال ميليشيات القوات اللبنانية من قبل الجيش عند مواقع قمم عيون السيمان، عند أعلى جبل لبنان، يتم دورياً. ففي كل عام ومع ذوبان الثلوج، يستعيد الجيش السيطرة على القمم التي يتخلّى عنها للميليشيات مع بداية الشتاء. ولقد راقبت هيئة الأركان الإسرائيلية هذه التحرّكات عن كثب، إذ إنّه قبل ذلك ببضعة أسابيع، قام لواء حطين الفلسطيني[2] بالتمركز في مواجهة تلك المواقع على السفوح الغربية من الجبل. فقد خشيت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، التي لا تثق بقدرة الجنود اللبنانيين، من أن يعجزوا عن ترجيح الكفّة إذا ما صعد الفلسطينيون لمهاجمتهم. وقد أعرب الجنرال موشيه ليڤي عن دهشته لعدم القدرة على التوصّل إلى تنسيق انسحاب الجيش الإسرائيلي من الشوف مع القيادة العسكرية اللبنانية.

– غير أنكم فعلتم شيئاً مماثلاً في كانون الثاني الماضي، لدى انتشار الجيش في بيروت الشرقية.

– الأمر مختلف، وما كان ذلك سوى سيناريو يقصد به خداع المعارضة في بيروت الغربية دون نتائج عسكرية حقيقية. أمّا هنا، فإذا ما انسحبتم وظل اللواء الثاني والستون السوري في ضهور الشوير، فهنالك خطر حقيقي. فأنتم تضعون فرضية حول نيّات السوريين الحسنة. . .

فقاطعه ليي قائلاً:

– أنا متأكّد من أنكم سوف تواجهون المتاعب. إلّا أننا سننسحب شيئاً فشيئاً ومن منطقة إثر أخرى. إنّ بقاءنا في لبنان لن يرغمهم على الخروج. فها قد مضى عام على وجودنا من غير أن يتحرّكوا. وإذا ما مكثنا، فسوف نتعرّض لضغوط أكبر وقد يكون علينا الانسحاب بتنسيق أقل.

– فليجرِ انسحابكم بأقلّ أضرار ممكنة.

فتدخل مندي قائلاً:

– أعتقد بوجود اتفاق حول هذا الموضوع. وضيوفنا يرغبون بألاّ يُلحِق انسحابنا ضرراً بوجود القوات اللبنانية في الشوف وعاليه.

فقال إيلي حبيقة:

– مع ذلك ستظلّ هنالك مشكلة: إنّها الصلة الأرضية بيننا وبينكم. فسوف يكون تأمينها صعباً.

---

(1) كان حاضراً كل من: إيهود باراك رئيس جهاز آمان (الذي صار فيما بعد خليفة موشيه ليڤي ثم وزيراً للشؤون الخارجية)، أوري ساغي رئيس المكتب الثالث (اللوجستي) بهيئة أركان الجيش، ومناحيم ناڤوت (مندي) ميكي أرمور (ماريون) وأمنون والثلاثة من الموساد.

(2) لواء مشكّل من المقاتلين الفلسطينيين تحت إشراف سوري.

فأبدى رئيس الأركان دهشته قائلاً:

- لماذا؟ فالجيش اللبناني سينتشر على طول الخط في مواجهة السوريين. وإضافة إلى ذلك فهنالك العلم الفرنسي للقوة متعددة الجنسيات. فلن يقوم السوريون بالتصدي لهم.

فأكّد حبيقة قائلاً:

- سوف يستخدمون وسائل أخرى. وسيقوم حلفاؤهم اللبنانيون بتمرير العناصر والعتاد. وسوف ينشأ خلل في غير مصلحتنا. وسنفقد الاتصال المباشر مع الجنوب. هذا ما لم يقم منذ الآن تنسيق بيننا، لشقّ دروب جديدة، وإنشاء مناطق تحت سيطرتنا في الشوف. وأنتهز الفرصة لأشكركم على دورات التدريب التي تقترحون علينا. إلّا أنّي أودّ أن أطلب إليكم تمويلها لأنّها باهظة بالنسبة إلينا. وهنالك أيضاً مسألة الذخائر من عيار 130 مم.

- لماذا، فهل تريدون قصف السوريين؟ سوف نعطيكم هذه الذخائر، لكن كونوا حذرين لدى استخدامها. وتجنّبوا خصوصاً أن تجرحوا جنودنا. ذلك سيكون مؤسفاً جداً.

مع حلول المساء، وفي حدود الساعة السابعة، جرى اصطحاب مسؤولي «القوات» إلى مقرّ الموساد للقاء ناحوم أدموني (بيتر)، ومناحيم ناڤوت (مندي)، وميكي أرمور (ماريون).

وقد باحوا لهم بأنّهم أضحوا أقلّ فأقل إيماناً بلبنان الـ 10452 كيلومتراً مربعاً[1] الذي يجهد أمين الجميّل في الدفاع عنه. فالوضع المثالي بالنسبة إلى القوات اللبنانية الآن، هو في العودة إلى فكرة العرين الأولى، على نحو ما حدّده بشير الجميّل، والممتد من الشمال المسيحي حتى الحدود الإسرائيلية مروراً بجزين. بل وُضِعت خريطةٌ قبل انتخاب بشير في حال لم يكن الرئيس المسيحي المنتخب رجلاً قوياً، فينبغي له أن يكون بشكل إلزامي رجل وفاق، وأن يكون رئيساً حَكَماً لا رئيساً زعيماً. وقد انتُخِب أمين الجميّل مثلما انتخب أخوه، يحدوه الأمل في أن يكون رئيساً زعيماً. لكن ما كان بوسع أمين أن يكون «سوى» رئيس حَكَم، نظراً لرؤيته السياسية، القائمة أساساً على صيغة 1943.

وأكّد إيلي حبيقة قائلاً:

- إنّ لبنان أصغر بأكثرية مسيحية لأكثر أمناً بالنسبة إلينا. فالجيش اللبناني يتكوّن بنسبة 60 إلى 70 % من المسلمين ونحن لا نعتقد بأنّ هذا الجيش قادر على التصدّي لمشكلة داخليّة شيعيّة خمينيّة على سبيل المثال.

فأقرّ بيتر قائلاً:

- ليس لبنان بكامله مع سيطرة مسيحيّة بالأمر الواقعي. فأمامكم احتمالان اثنان، إمّا أن

---

(1) تعبير يعني كامل الأرض اللبنانية، للتعارض مع «العرين» المسيحي في عهد بشير الجميّل.

تفسحوا المجال أمام أمين الجميّل وتتركوا الأشياء تتطوّر، وإمّا أن تتصرفوا سرّاً إذ لا يسعكم مجابهة أمين.

– نحن لا نريد مجابهته لكنّ تدهور الوضع يمكن أن يرغمنا على ذلك باختيارنا لبنان أصغر وبأكثريّةٍ مسيحيّة.

– وماذا يعني ذلك جغرافيّاً؟

– الحدّ الأقصى من الأراضي ذات الأكثريّة المسيحيّة: من جنوب طرابلس مروراً عبر ريّاق وانتهاءً بحدودنا معكم.

فأبدى رئيس الموساد اندهاشه:

– وبذلك تكون لديكم أكثريّة مسيحيّة؟

فردّ حبيقة مؤكّداً:

– أجل وبنسبة 70 %. ويسعنا التوصّل إلى اتفاق مع الدروز. فنحن نعلّق على ذلك أهميّةً كبرى لأنّ مستقبلنا منوط به.

فتمتم ناحوم أدموني، الذي كان يضع في ذهنه مخطط الكانتونات الطائفيّة في لبنان، والذي قامت أجهزته بإعداده:

– إذن سيكون ذلك ممكناً.

– أعتقد أنّه سيكون ممكناً عرض وجهات النظر هذه على رفعت الأسد مع الاعتماد على العلويين.

فحذّرهم مناحيم ناڤوت قائلاً:

– سوف يقوم باستخدامكم، فهو علويّ، لكنّه أيضاً شقيق الرئيس السوري. وسوف يدخل في نقاش معكم ليسبر أغواركم بقصد الحفاظ على المصالح السوريّة في لبنان.

– هدفنا حماية المسيحيين. فلبنان الحاليّ سيجعل منّا مواطنين من الدرجة الثانية. وأمين قلق بشأن المسيحيين، لكنّه يعتقد على الدوام أنّ صيغة 1943 والتحالف مع السنّة شيءٌ حسن. وهو يرغب في اتخاذ النظام العلوي في سوريا مثالاً يحتذى.

فقال بيتر ناصحاً:

– حافظوا على قواكم وابعثوا في الوقت ذاته بعناصر إلى الكليّة العسكرية. ويتراءى للأميركيين أنّهم سيتمكنون من إخراج السوريين من بلادكم. لست أدري على أي أساس يقيمون قناعاتهم. فهم يؤكّدون أنّ السعوديين والجزائريين سوف يتصرّفون تصرفاً مجدياً أكثر. أمّا نحن فلا نظن ذلك. فالسوريون يعتبرون أن وجودهم في لبنان يشكّل ورقة هامّة لممارسة ضغط على العالم العربي.

فسأل حبيقة قائلاً:

– أليس موضع اعتبار أنّ دمشق على مرمى مدافعكم؟

فردّ أدموني مبتسماً:

– يظنّ السوريون أنّ جيشهم الآن جيش قوي. وقد استعادوا الثقة بقدرتهم العسكرية. وهم ربما، لا يخشون مدافعنا. زد أنّهم يقرأون صحفنا، ويعرفون وضعنا الداخلي. فهم لن ينسحبوا. أمّا الأمل الوحيد الباقي فهو أن يدفع انسحابنا الجزئي ومن جانب واحد بالبلدان العربية إلى الضغط على السوريين كي ينسحبوا تفادياً لقيام إسرائيل باحتلال جنوب لبنان احتلالاً نهائيّاً.

فقال إيلي حبيقة متذمّراً:

– وما الذي سوف يجري إنْ لم يتمّ ذلك؟

– سوف نحافظ على جنوب لبنان قوي. ونرغب في تعاونكم. فربّما نتوصّل إلى الصيغة التي تدعوننا إليها. لكن ينبغي عليكم القيام بتنازلات للدروز في لبنان الصغير. إنّ شرطنا هو وجود جنوب لبنان قادر على ضمان أمننا. عليكم اتخاذ الإجراءات لعرقلة عودة الفلسطينيين. فهل لديكم اتصالات مع شخصيّات أو جماعات في طرابلس؟ إنّ تمركز عناصر عرفات في تلك المدينة صار كبيراً.

فأقرّ حبيقة قائلاً:

– أجل لدينا.

– هل يسعكم أن تجعلوهم يحضرون إلى جونيه كي نلتقي بهم؟

– ذلك ممكن. لقد طلبوا إلينا أن نساعدهم، وذلك ما لا يسعنا القيام به، لنقصٍ في الوسائل.

فباح رئيس الموساد قائلاً:

– نحن مستعدون لمساعدتهم بواسطتكم. قولوا لنا من هم. ونحن على استعداد لذلك لأننا نريد خلق معضلات أمام السوريين.

رجع مسؤولو القوات اللبنانية في المساء ذاته إلى لبنان في حوّامة. وتوجهوا في اليوم التالي، يصحبهم فؤاد أبو ناضر، إلى مقرّ الرئاسة لإطلاع أمين الجميّل على الرغبات الإسرائيلية. كان الرئيس، الذي مازال منتشياً بنجاحه في انتخابات المكتب السياسي، منطلقاً وبشوشاً. وقد ألحّ على ضرورة إقامة علاقة جادّة بين الرئاسة و«القوات». وأكّد لهم بثقة جعلتهم جامدين كالثلج ليس لي من أحد سواكم، ولا يسعني الاعتماد على البروستاتيين (العجزة) في المكتب السياسي. وكان يرى أنّ هنالك احتمالَ 50 % بانسحاب السوريين. كما أقرّ على الدوام باعتماده اعتماداً قويّاً على المسؤولين الأميركيين في سبيل الحصول على رحيلهم، واستبعد المطالب الإسرائيلية للتنسيق من أجل انسحابهم من الجبل.

14

تحولات

قطع جورج شولتز، وزير الخارجية الأميركية، عهداً على نفسه، بعد أن اكتوى بآثار رحلته الأخيرة إلى دمشق وحديثه الطويل والمرهق مع حافظ الأسد، بألاّ يقع في الفخ من بعد، بل هو أكّد، مراراً وتكراراً، عدم قبوله القيام بجولة جديدة في الشرق الأوسط ما لم تكن حظوظها في النجاح واضحة.

لم يعد لبنان يمثّل في نظر الخارجية الأميركية «الخطوة الأولى» نحو حلٌ لأزمة الشرق الأوسط. كان بشير الجميّل قد اعتمد اعتماداً قوياً على الفكرة القائلة إنّ بلاده هي نقطة تلاقي المشكلات كافة في المنطقة ليجتذب واشنطن إلى دعمه. واستطاع أن يكون مقنعاً بمساعدة اللوبي اليهودي، وهذه حقيقة، فصار لبنان واحداً على رأس أولويات الولايات المتحدة. أمّا أخوه أمين فكان مبهوراً بفكرة أنّ الأميركيين يدعمونه دعماً شخصياً لأنّ اتصالاته بالعالم العربي أفضل من اتصالات بشير، وأنّ ذلك في تقديره، يتناغم كل التناغم مع مخطط ريغان للمنطقة. وكان، وهو يرمي إلى الحفاظ على ذلك الدعم وتطويره، يراهن على سجل «الأخوّة المسيحية». إلّا أنّه لم يسلّم قط – بل ربما لم يفهم – أنّ المسيحيين الأميركيين الذين يجاهرون بإيمانهم في مؤسساتهم، ليسوا قريبين إلى مسيحيي الشرق على قدر ما هم عليه مسيحيّو أوروبا. ناهيك بأنّ لهم مواقف مخالفة لا سيّما أولئك الذين يقاربون ستين مليوناً من مؤمني «مسيحيو الدرب القويم»[1] وهؤلاء يعرّفون أنفسهم، لا سيّما بالنسبة إلى الإنجيليين، على أنّهم صهاينة و«أكثر يهودية من اليهود». ولكي يبرروا دعمهم الكلي للدولة العبريّة، يستشهدون أولاً بالتوراة و بـ **الوعد الإلهي بأن المسيح سيأتي على الأرض حصراً حين يصير اليهود مجمّعين في إسرائيل**. زد أن إحدى المزايا الأساسية لدى الأميركيين هي ميلهم الطبيعي نحو براغماتيّة شرسة تضع مصلحة الولايات المتحدة فوق كل شيء.

(1) هم الذين سيسهمون مساهمة فعّالة في انتخابات 2000 و2004 ليتولى جورج بوش الرئاسة.

فالرومنطيقية السياسية الدينية في جنوب أوروبا وفي فرنسا على وجه الخصوص، القريبة لأنّها نابعة ربما من مسيحية الشرق، لا وجود لها مطلقاً في الولايات المتحدة، المرتبطة تاريخياً بالواقعية الأنغلو-سكسونية. فعاد اهتمام الولايات المتحدة بلبنان إلى الهبوط مجدداً.

كان أمين الجميّل يرفض ذلك رفضاً مشوّشاً. فانجذابه السياسي نحو واشنطن كان يرتبط أساساً بواقع اقتناعه، بأنّه لا يسعه إلّا النجاح في الخروج ببلاده من أزمة الشرق الأوسط، ما دام حليف الدولة الأقوى في العالم، والقادرة على تحييد إسرائيل وسوريا.

كان بذلك ينسى التقهقر المأساوي في يتنام الجنوبية، والتخلّي عن شاه إيران. ولم يكن يضع في اعتباره أنّ اهتمام الولايات المتّحدة بلبنان، وهو الدولة المغرقة في ضآلتها، والخالية من كل مصادر الثروة، ولا تمثل أي مصلحة استراتيجية، إنّما هو معدوم من الناحية العملية. فما كان المبعوثون الأميركيون يأتون إلى بيروت، إلّا ليقوموا هنالك بتسوية شؤون الآخرين، وخصوصاً إسرائيل. وقد ضاق الرئيس إلياس سركيس بذلك ذرعاً حين جاء فيليب حبيب إلى بيروت لإقرار عدّة اتفاقيات وقف إطلاق نار بين منظمّة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. فصاح به قائلاً، في أحد أيام تمّوز/ يوليو 1981 : **لا طائل وراء القدوم لمقابلتي إن كان ذلك للحديث في شيء آخر غير لبنان**، ثمّ أضاف على الفور **كلّما جئتَ إلى هنا فلكي تقوم بتسوية مشكلة تهمّ إسرائيل. أمّا بالنسبة إلى لبنان، فأنتم تعتقدون أنّ بوسعكم الاكتفاء برسالة تعاطف، أو بإصدار بيان**[1] .

أما الاهتمام الذي كانت الولايات المتحدة توليه لبلاد الأرز، فلم يكن يتجاوز عملياً حدود التعهّد الشخصي للرئيس رونالد ريغان. لقد سعى مستشاروه منذ فترة وراء التخفيف من اندفاعه والإفاضة في ذكر الكثير من الحجج لإقناعه بالتخلّي عن ذلك الملفّ الخطر. أما وزارة الخارجية الأميركية، فكانت بطيئة من ناحيتها، تجرّ أقدامها جرّاً. فمنذ مفاوضات اتفاقية 17 أيار/ مايو، والشعور السائد بأنّ **غرض أمين الجميّل (غايته)، إنّما هو بكل بساطة الحفاظ على رئاسته**[2] قد ساور النفوس كلها. وهنا أيضاً، لم يكن اللوبي اليهودي ببعيد عن ذلك. فأضحت الأحداث ضمن ذلك الإطار فاصلة، وما من يوم يمرّ إلّا ليكون برهان إثبات. كانت رؤية أمين الجميّل للبنان كلاسيكية جداً، بمعنى أنّه كشكول للأقليات الشرقية. فهو يعتبر أنّه لا يمكن القيام بشيء من دون السنّة. فرأيهم بالنسبة إليه وموافقتهم، لا يمكن الاستغناء عنهما. ولقد تفوّه توماس جيفرسون، وهو أحد مستشاري جورج شولتز، وزير الخارجية الأميركية، بهذه العبارة الفظّة: **أمين لا يمثّل أي بلد**. كانت وزارة الخارجية الأميركية تودّ الرجوع إلى سياسة ما قبل 1982 (رفع الراية) «show the flag»، وهي الطريقة الأميركية التقليدية وفحواها أن تكون موجودة فقط لتجعل العلم الأميركي يخفق

(1) آني لوران الحروب السرّية في لبنان 1987.
(2) من التقرير التفصلي لوكالة الاستخبارات الأميركية حول وضعها في بلدان الشرق الأوسط، حزيران/ يونيو 1983.

بنجومه وبنوده. أما «الأعراب» في وزارة الخارجية الأميركية، والذين لا يؤيدون إسرائيل مطلقاً، فلم يتستّروا على حذرهم من الموارنة. فعدد كبير منهم قام بالدراسة في بيروت، وكانوا على صلة بالسنّة والروم الأرثوذكس، قبل أن ينجحوا في مهنتهم في العالم العربي. زد أن «الشؤون الخارجية» في واشنطن لها أولويات أساسية أكثر بالنسبة إلى الولايات المتحدة: أميركا الوسطى ولا سيّما السلادور.

أما البنتاغون الذي يعي هشاشة الجيش اللبناني فلم يشأ الانخراط أكثر. ولم يكن لدى العسكريين الأميركيين الرغبة، وهم الواقعون أبداً تحت تأثير يتنام، في سماع كلام عن التدخلات العسكرية، ما لم تكن مصالح الولايات المتحدة مهددة، وما لم يكن التدخّل سريعاً والنصر مضموناً، والشعب الأميركي يمنحهم دعمه. أما كلمة «شعب»، فينبغي أن نفهم بها الكونغرس والصحافة. وحرص غاسپار واينبرغر، وزير الدفاع الأميركي، على تحاشي هذا المِلف قدر المستطاع. وإذا ما تركنا جانباً واقع معارضة الكونغرس لكل تدخّل في لبنان وأنّ الأهداف الأميركية المتعلّقة به لم تكن واضحة، فإنّ واينبرغر كان يعي أن الأكثرية الساحقة من الأميركيين ما كانت لتعرف موقع ذلك البلد على الخارطة. كما كانت في متناوله على وجه الخصوص دراسة تؤكّد أن كسب السّلام عسكرياً في لبنان يتطلّب وجود قوّة على الأرض تبلغ 40 ألف رجل.

في الأيام الأولى من تمّوز/ يوليو عام 1983، مارس رونالد ريغان «ضغطاً» على جورج شولتز طالباً منه موافاته «في أسرع وقت ممكن» بعرضٍ مباشر وتحليل لمواقف الزعماء العرب من الأزمة اللبنانية. فبادر وزير الخارجية، «المستاء بعض الشيء من غير يأس»، إلى أخذ عصا الترحال مجدداً يوم 4 تمّوز/ يوليو، بادئاً بالعربية السعوديّة. وتمثّل عزمه في «سبر الأغوار» بشأن الإمكانيات الواقعيّة وعزم المملكة الوهّابيّة على ممارسة ضغط على السّوريين. أمّا وقد وصل وزير الخارجية الأميركية إلى جدّة، بعد الظهر بقليل، فقد اضطرّ للانتظار حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً قبل أن يستقبله الأمير السعودي سعود الفيصل. فهذا الأخير المقيم في مكّة بمناسبة رمضان، لم يغادرها للقاء نظيره الأميركي، إلّا بعد الإفطار. وهي طريقة لا تختلف عن سواها في التعبير عن انزعاجه. وكان اللقاء عقيماً.

كان فيليب حبيب في الوقت ذاته، يعرض على محاوريه في القدس، أن ينسحب الجيش الإسرائيلي من لبنان، انسحاباً تاماً وأحاديّ الجانب. ودافع عن فكرته قائلاً إنّ الضير في نتائجها هو التخلي عن سياسة الانسحاب المتزامن مع السوريين، لكنّ نفعها يتمثّل أيضاً في إحراج دمشق التي كانت ترفض كل تزامن في فك ارتباط الجيشين. فردّ عليه إسحق شامير رداً علنياً قائلاً إن ذلك لـ «سخيف»، مذكّراً بأنّ المطلب السوري هو إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. وكانت «يديعوت أحرونوت» اليومية على الدرجة ذاتها من القسوة: إنّ التقديرات الأميركية القائلة إنّ إعلان إسرائيل عن انسحابها

التام من جانب واحد سوف يقنع السوريين بالخروج إنّما هو سذاجة مذهلة. ورأى فيليب حبيب أن مهمّته قد انتهت فعاد إلى واشنطن.

عند انتهاء اجتماع اللجنة الوزارية لشؤون الدفاع[1] التي عُقِدت في 5 تمّوز/ يوليو، قرّر مناحيم بيغن، وقد بدا ناحلاً جدّاً ومتعباً حتّى الإرهاق، أنّه ليس لانسحاب الجيش الإسرائيلي، على نحو ما هو مقرّر، أن يعدّل بشيء خطوط وقف إطلاق النّار الإسرائيلية السورية في سهل البقاع. فالمواقع العسكريّة الإسرائيليّة فوق جبل الباروك، على بعد حوالى 20 كم من دمشق لم يجر إخلاؤها إذن في حال الانسحاب.

لدى خروج وليد جنبلاط ونبيه برّي، الذي جاء إلى دمشق للمرّة الأولى، من مقابلة مع الرئيس حافظ الأسد، صرّحا بأنّهما يرفضان دخول الجيش اللبناني إلى الجبل. وأكّدا قائلين: **نحن على استعداد للتصدّي لذلك مهما تكن النتائج** . لقد قام برّي، وقد أُرهِق من الإهمال الذي أبدته «الشرعيّة» حياله، باختيار سياسي سيظلّ وفيّاً له وفاءً دائماً. أمّا حركة أمل، السائرة وراءه، فقد دخلت دخولاً حازماً، وبطريقة استقلاليّة، إلى صفوف المعارضة اللبنانية الموالية لسوريا.

بعد ذلك ببضع ساعات وصل إلى دمشق كلود شيسّون، وزير الخارجية الفرنسي. وكان يحمل في حقيبته برقيات پول-مارك هنري، سفير بلاده في بيروت، الذي يشرح له فيها المصاعب المتوقّعة التي سيواجهها أفراد القوّة المتعددة الجنسيات لدى انتشارهم فوق قمم الشوف، لا بسبب معارضة الدروز، بل السوريين. ولقد قرّر شيسون أن يأتي بنفسه سعياً وراء تلك الموافقة. دامت المقابلة مع حافظ الأسد ساعتين، بحضور عبد الحليم خدام، وكان كل منهما حريصاً على الحفاظ على العلاقات الحسنة مع فرنسا، لكنّهما ظلا ثابتين في موقفهما. وأدرك الوزير أنّ من الصعوبة بمكان تغيير مهمة الوحدة الفرنسية في القوة متعددة الجنسيات.

بعد رحيل الوزير الفرنسي ببضع ساعات، حطّت طائرة البوينغ البيضاء فوق أرض مطار المزّة قرب دمشق قادمة من جدة عبر بيروت. وانتهت تلك الزيارة وهي الثانية في غضون أقل من شهرين بفشل تام. لقد سعى جورج شولتز أثناء خمس ساعات من المناقشات، لإقناع حافظ الأسد بتعديل رفضه للاتفاق اللبناني الإسرائيلي، أو بتليين موقفه منه على أقل تقدير. لقد رفع الرئيس السوري في وجه شولتز سوراً من الردود الرافضة يتعذر تجاوزه، لا سيّما وأنّه صار أشدّ من ذي قبل في اللامهادنة، بعد حصوله على ورقة جديدة رابحة جداً بدخول حركة أمل تحت لوائه، مما يجعل المعارضة اللبنانية كلّها في يده. تحدّث البيان الأميركي، الذي صدر على أثر انتهاء اللقاء، **عن حوار طويل وصعب أحياناً لم ينته إلى أيّ نتيجة ملموسة** . إنّ مثل ذلك لم يرد قط في بيان رسمي عن اجتماع وزير الخارجية الأميركي. ثمّ غادر جورج شولتز دمشق للذهاب على الفور إلى تل أبيب.

---

(1) حيث كانت مداولاتها سرّيّة.

وقف مسؤولون في القوات اللبنانية وقفة لا مبالاة تامّة حيال ذلك العرض من الباليه الدبلوماسي الذي جرى على مدى 24 ساعة. ولم يعيروا كبير اهتمام إلّا لتصريحات وليد جنبلاط ونبيه برّي، ذات الدلالة الكبرى بالنسبة إليهم، لا سيّما وأنّ لزعيم حركة أمل العديد من الأنصار داخل الجيش. كما لم يغب ذلك عن انتباه الموساد. فحضر مديرها، ناحوم أدموني (پيتر) للبحث في الأمر مع فادي أفرام وإيلي حبيقة في بيروت.

قال لهما:

– أظنّ أن الأميركيين باتوا مقتنعين الآن بأنّهم لن ينالوا شيئاً من السوريين. والوقت يداهمنا. وأنا أحيطكم علماً بأنّ انسحابنا الأحادي يقترب سريعاً. ويمكن أن يقع في غضون ستة أسابيع أو سبعة. والأمر حتميّ! فسوف نسعى للتنسيق بشأنه معكم ومع حكومتكم. أمّا إن رفضتُ، فعليكم الاستعداد لأن ننسحب من دون أيّ تنسيق. وأعتقد أنّه آن الأوان لأن نتخذ معاً بعض الإجراءات على الأرض في سبيل الحفاظ على صلتكم معنا.

فأكّد فادي أفرام قائلاً:

– هنالك ضرورة مطلقة في أن يشكل الجيش اللبناني منطقة عازلة وأن يضمن أمن الطرقات. ونحن بصدد وضع خارطة مفصّلة للمناطق الحساسة والقطاعات التي ينبغي للجيش أن يتولّى أمرها. قابلت بالأمس السفير الفرنسي. وقد باح لي بأنّه ينتظر تعليمات من باريس. وهم، وفق أجهزة استخباراتهم، سوف يلاقون المتاعب ما لم ينتشروا في الجبل.

فقال حبيقة:

– لقد توجّه شيسّون إلى دمشق ليضمن عدم تعرّض الفرنسيين للقصف. ولا أعتقد أنّه قد حظي بشيء. فالفرنسيون لن يصعدوا إلى الشوف. ولئن ظلّوا في حالة من التردّد فينبغي لتصريحات جنبلاط وتصريحات برّي على وجه الخصوص أن تقنعهم بعدم التحرّك.

فقال فادي أفرام:

– أرى أنّ جنبلاط وبرّي سوف يسعّران نيران المشكلات داخل الجيش.

فتمتم حبيقة قائلاً:

– إنّها ساعة الحقيقة التي سوف تدق.

فقال أدموني:

– قبل ثلاثة شهور كان الأميركيون يؤكّدون لنا أنّ الجيش اللبناني سيكون مستعدّاً ليحلّ محلّنا ساعة رحيلنا. وقلنا لهم إنّه من المستحيل بناء جيش ذي قوام في غضون شهرين أو ثلاثة. لكنّهم واصلوا التأكيد. أمّا الآن فهم يطلبون إلينا عدم الانسحاب لأنّ الجيش ليس مستعدّاً.

فأكّد فادي أفرام قائلاً:

– سوف تعود بيروت بعد انسحابكم مركزاً للإرهاب الدولي. كما ستُستأنف العمليات ضدّكم وضدّنا. وعلينا العثور على وسيلة لتدارك ذلك.

كان مئات المدنيين الفلسطينيين، القادمين من مخيمات جنوب لبنان، يصلون إلى العاصمة اللبنانية بعد انعطافهم حول الحواجز الإسرائيلية. وقد ناقش جهاز الموساد المسألة مع سيمون قسّيس رئيس المكتب الثاني اللبناني ومع زاهي بستاني الذي كان يتولى إدارة الأمن العام. وقد صرّح الاثنان بأنّ افتقارهما للوسائل يحول دون قيامهما بعمل مجدٍ، وأنّ «القوات» كانت أفضل تجهيزاً حول هذه المسألة، لكنّها لا تتمتع بأيّ شرعية للقيام بذلك.

فقال إيلي حبيقة:

– يسعى ياسر عرفات في الوقت الراهن لإعادة بناء منظّمته في الشمال، في طرابلس، عن طريق قبرص، متحاشياً المناطق السورية. ولقد عقدنا اتفاقيّةً معه فهو لن يبعث بسيارات مفخخة إلى مناطقنا، ونحن سوف نتولى حماية الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا.

كان العقيد ميشال عون جالساً في سيارته الجيب، يراقب وهو صامت الشاحنات العسكرية الإسرائيلية المحمّلة بالعتاد اللوجستي، وهي تمرّ أمامه مثيرةً زوبعةً من الغبار. كانت متوجّهةً صوب الجنوب. كان عون يقوم بجولة استطلاع على الأرض بصحبة ضباط إسرائيليين، على رأس دوريّةٍ من أربع عربات جلس فيها قسم من هيئة أركانه في اللواء الثامن وبعض الجنود للحراسة. كانت تلك المهمّة موضع نقاش طويل على مستوى هيئة الأركان العامّة وقد حضر بنفسه قسماً من المناقشات. كان العسكريون اللبنانيون يريدون التعرّف على المواقع التي سوف يستلمونها بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي. ولقد رسموا مخطط سير جرت «المساومة» عليه خطوةً فخطوة. وعند فجر يوم 14 تمّوز/ يوليو 1983، سلك موكب سيارات الجيب الطريق الساحليّة الجنوبية نحو الجيّة. وقبل الدّامور بقليل كانت ثلاث سيارات تابعة للجيش الإسرائيلي تنتظرهم بقيادة عقيد. وبعد تبادل التحيّات سلكوا الدّروب العرضانيّة للانتقال من نقاط عليا إلى نقاط أعلى. ولاحظ العسكريون اللبنانيون بسرعة أنّ العديد من المواقع الإسرائيلية قد جرى تفكيكها ونزع التجهيزات الثقيلة منها. كان انتشارهم على كل حال قريباً جدّاً. بل أقرب بكثير ممّا قدّر قائد اللواء الثامن. فعَبَرَ الموكب قرية عين الحور، ثمّ توجّه نحو عاليه عبر بشامون وعيتات وسوق الغرب. وكلّما تقدّموا كان سكان القرى، كأنّما أُحيطوا علماً سلفاً، يتجمّعون بشكلٍ عدائيّ، على مسار الموكب، شاتمين العسكريين اللبنانيين. وكان عناصر الحزب التقدمي الاشتراكي، في بعض الأماكن، يتفرّسون في وجوههم بهيئة تهديد من غير أن تبدر حركةٌ عن الإسرائيليين الذين يرافقونهم. فكل شيء يجري وكأنّ موقف الدروز من العسكريين اللبنانيين لا يعنيهم بشيء. كانت المخازن تنزل الستائر الحديديّة لدى ظهور العربات. وازدادت، أكثر فأكثر، مظاهر العصبيّة على عناصر الحماية في الدوريّة اللبنانية في حين سعى ضباطهم لإقناعهم بأنّ وجود الإسرائيليين إلى جانبهم كفيل وحده بتأمين الحماية لهم.

توقف الموكب في حدود الواحدة بعد الظهر لدى اختراقه مدينة عاليه بسبب قيام قرابة ألف من المتظاهرين بإشعال إطارات سيارات على الطريق. فاتّخذت دوريّة الاستطلاع وضعيّة الدفاع بينما تقدّم العقيد الإسرائيلي يرافقه عنصر واحد مسلّح ليشقّ دربه وسط الحشد الهائل للذهاب والتحاور مع مسؤولي الحزب التقدمي الاشتراكي. وعاد بعد بضع دقائق ليؤكّد أنّه توصّل إلى اتّفاق. فينبغي لسيارات الجيب أن تعبر واحدة فواحدة التقاطع الذي يحتلّه المتظاهرون وأن يصعد إلى كل منها مرافق درزي من الحزب. تقدمت السيارتان الأوليان ببطء بين سياجين من الرجال والنساء الحاقدين حقّاً، وهم يجأرون بالسباب والشتائم، ويهزّون قبضاتهم. ولدى مرور السيارة الثالثة نشبت مشادّة بين ركّابها وبين المرافق الذي قفز من السيارة. وتلا حركته تبادل في إطلاق النار بذر الرعب في صفوف الحشد. وفتح العسكريون اللبنانيون، الذين عبروا الحاجز، النار بدورهم. فاستغلّت العربة الأخيرة من اللواء الثامن الفرصة لتعبر بأقصى سرعة التقاطع الذي أخلي فجأة. وقد جُرِحَ بين 14 من العسكريين اللبنانيين واحد منهم جروحه بليغة. وكان بين الجرحى العقيد ميشال عون وحسين ناصر الدين. ووقع في صفوف المتظاهرين قتيلان وأربعة جرحى.

لقد أصدر الحزب التقدمي الاشتراكي بياناً قال فيه، إن دوريّةً من الجيش اللبناني **وقد أغاظتها رؤية حشد كبير يعبّر عن غضبه واستنكاره حيال محاولات دخول الجيش دون اتفاق سياسي مسبق يضمن حقوق القوى الوطنية في أرجاء لبنان كافّة، قد قامت عامدةً متعمّدة بدهس بعض المواطنين. [. . .] وقد جرى إطلاق للنار من الجهات كافة باستثناء جهة المواطنين الدروز والحزب التقدمي الاشتراكي. ونشر الجيش الإسرائيلي بياناً أيضاً أكثر اقتضاباً يؤكّد أنّ دوريّة الجيش اللبناني حاولت اختراق التظاهرة بالقوّة. تلا ذلك إطلاق نار ورمي حجارة من جانب المتظاهرين. ولم يكن الجيش الإسرائيلي متورّطاً في ذلك الحادث. لكنّه تدخّل للسّماح للجيش اللبناني بالعبور ولاستعادة الهدوء.**

استطاعت أجهزة استخبارات القوات اللبنانية أن تتأكّد سريعاً من أنّ الضباط الإسرائيليين في جهاز آمان، قد أوحوا للدروز، بالاتفاق مع الجنرال ميثير داغان، بالتعبير عن استيائهم وسمحوا بقيام التظاهرة. وقد فسّر ذلك ضخامة الحشد، ووجود ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي بسلاحهم وموقف المرافقة الإسرائيلية.

إنّ مراوغة الإسرائيليين، وقد رغبوا في البرهان على أنّ الصعود إلى الشوف سيكون صعباً جداً دون مساعدةٍ منهم بسبب معارضة السكّان، انتهت بنتيجة غير مباشرة، منذ صباح اليوم التالي في بيروت. فبعد الساعة التاسعة صباحاً توقفت دوريّة من قوات الأمن الداخلي في الشارع الرئيس من الحيّ اليهودي القديم في وادي أبو جميل، أمام مؤسّسة تعليمية «مدرسة الأليانس». لقد جاء رجال الدرك لإخطار المدير بقرار قضائي يرغمه بتسليم الأمكنة قبل 18 تمّوز/ يوليو 1983 لمالكيها السنّة الجدد، من آل طبّارة وموصلّي الذين اشتروها من يهودي لبناني لاجئ منذ زمن طويل في

القطاع المسيحي. وكان المبنى قد احتلّه لاجئون شيعة من جنوب لبنان. فجعلوا منه مدرسةً تضمّ ألفين من الأطفال. وما إن وصل رجال الدرك حتّى أحاط بهم متظاهرون يحتجون بعنف على قرار الإخلاء. فوجّه رجال الدرك، الذين حوصروا في عربتهم، رسالة باللاسلكي إلى قيادة الجيش طلباً للمؤازرة. وقد اصطدم القادمون «بعناصر» شيعية من حركة أمل مسلّحين ببنادق كلاشنيكوف وبقاذفات RPG 7. قذف المتظاهرون العسكريين بالحجارة. فأصدر قائد الفصيل، الملازم غسان أبو شقرا، أمراً لجنوده بتفريقهم. حينئذ أطلق عناصر الميليشيا، المتمركزون فوق السطوح، النار على العسكريين فجرحوا عدّة جنود بينهم الضابط. وانطلق صاروخ فدمّر إحدى عرباتهم، وقتل العنصرين اللذين كانا فيها. فأرسلت القيادة تعزيزات أخرى استعادت السيطرة على الأمور وقامت بتوقيف 70 شخصاً. وعلى إثر ذلك نشبت مناوشات في قسم كبير من بيروت الغربية. وتلقّى الجيش أمراً بصدّ كلّ محاولةٍ لبذر الفوضى أو تهديد حياة المواطنين واستغرق ذلك ساعات عديدة لعودة الهدوء مجدداً.

لكنّ الوضع ظلّ غاية في التوتر. فالعسكريون المكلّفون بالحراسة عند مختلف نقاط المراقبة على الطرق ظلوا يرتدون السترات الواقية من الرصاص ويعتمرون الخوذات العسكرية. وتحصّن سكان المدينة في منازلهم، أما المخازن فلم تفتح أبوابها الحديدية إلّا بمقدار. وانهمرت على المدينة في 20 تمّوز/ يوليو، زخات من القذائف انطلقت من منطقة تحت السيطرة السورية، في أعالي المتن، فقتلت شخصين وجرحت سبعة عشر آخرين. وراقبت القوات اللبنانية تلك الأحداث بشيء من الرضى. فمن طبيعة ما جرى في عاليه وبيروت الغربية أن تعيدهم سياسياً إلى مركزهم. فلم يعد من لزوم لمطالب السلطة التي تطالهم. كان زعماء الميليشيا مقتنعين بأنّ سورية سوف تزيد من ضغطها عبر تصعيد لعمليات القصف، وإذا لم يقم الجيش اللبناني بالردّ ـ لم يتمّ اتخاذ أي إجراء في ذلك السبيل – فإنّ صدقيته سوف تتأثر. ولقد قرّر أمين الجميّل، وفقاً لمصادر قريبة من القصر الرئاسي، أن يتبع سياسة جديدة: توجيه اتهام مكشوف وعلني إلى سورية.

وذلك ما فعله في اليوم ذاته في واشنطن، التي وصل إليها قبل يوم واحد في زيارة رسمية. وهدّد قائلاً – بكل سذاجة – أمام كاميرات التلفزيون: إنْ لم يضع السوريون حداً لإرهابهم الجديد، فإنّ قنابلهم سوف ترتد إلى دمشق.

توجّه أمين الجميّل، بصحبة رئيس الوزراء شفيق الوزّان ليظهر تقاسم السلطة اللبنانية بين المسيحيين والمسلمين، تلبية لدعوة رونالد ريغان، الذي وجّه دعوات منفصلة للإسرائيليين واللبنانيين، للقدوم بحثاً عن حل للأزمة، من بعد الفشل الذي منيت به جولة جورج شولتز في الشرق الأوسط. لكن قبل وصول الجميّل إلى الولايات المتحدة، اكتفى مناحيم بيغن بمحادثة هاتفية عادية مع البيت الأبيض، ليقول إنّه لن يتوجّه إلى واشنطن كما كان مقرراً، وذلك لـ«أسباب

شخصية». أما الذي أغاظ الأميركيين أكثر، ساعة نزول ضيفهم اللبناني من على سلم طائرة البوينغ التابعة لشركة الشرق الأوسط اللبنانية في مطار أندرو، فهو إعلان الحكومة الإسرائيلية اعتماد مخطط إعادة انتشار القوات الإسرائيلية على خط نهر الأولي، لدى انتهاء اجتماع استثنائي عقدته الحكومة. ولئن لم يُعطَ أي إيضاح حول تاريخ تطبيقه، فإنّ مجموعة كبيرة من التفاصيل قد نُشِرت بالمقابل حول تنفيذه. سوف يمتدّ على ثلاثة شهور، فيحرّر مساحة تبلغ 450 كيلومتراً مربعاً يقيم فوقها ما يقرب من 400 ألف نسمة. وينطلق خط الدفاع الإسرائيلي الجديد من مصب نهر الأولي إلى الشمال من صيدا، صعوداً حتى شرق جبل الباروك، وقمته التي يبلغ ارتفاعها ألفي متر. فيسمح ذلك للجيش الإسرائيلي بالمحافظة على مراقبة بالرادار لمطارات دمشق الواقعة على ما يقرب من 30 كم خط نظر. وكان موشيه أرينز غاية في الوضوح، لدى الإشارة إلى مخاطر المجابهات بين الطوائف التي قد تنجم عن ذلك الانسحاب، حين أكّد أنّ لدى إسرائيل التزامات خصوصية حيال الطائفة الدرزية التي يعيش قسم كبير منها في إسرائيل. أما رفائيل إيتان فتمنى من ناحيته علناً أن يتولّى الجيش اللبناني والقوة متعددة الجنسيات الإشراف على القطاعات التي سوف يقوم الجيش الإسرائيلي بإخلائها.

قرّر الإسرائيليون القيام بمبادرة، بضغط من الرأي العام في بلادهم. فمواقعهم في الجبل اللبناني كانت مقلقلة وتتسبب بالكثير من الخسائر البشرية من اللبنانيين، كما أشارت صحافة تل أبيب. فما كان لعلاقاتهم مع بيروت أن تعرف التحسّن. كما لم يكن لهم أي تأثير على أمين الجميّل. أما القوات اللبنانية التي راهنوا عليها في ذلك المجال لبعض الوقت، فهي مثلهم عديمة التأثير والفائدة. ولقد أوضحوا، بالسبل الممكنة كافة، الخطر الذي يمكن أن يتعرّض له المسيحيون في الشوف. وبدا أمين الجميّل فاقد الحساسية تماماً حيال ذلك الوضع، كمثل حاله حين لم يبدِ اهتماماً يذكر بمستقبل الميليشيا المسيحية في تلك المنطقة. فالحرب أضحت الآن خاسرة بالنسبة إليهم. وبقي عليهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لا سيّما القدرة على التدخل المباشر أو غير المباشر في جنوب لبنان. وحتى لو كانوا بتدخّلهم - وذلك ما لا يزعج عدداً كبيراً من المسؤولين في اليمين الإسرائيلي - سيفتحون على أوسع مدى طريق العاصمة اللبنانية في وجه «الإرهابيين» الفلسطينيين القادرين على ممارسة ضغط عسكري على الوحدات العسكرية الأميركية المنتشرة في بيروت.

إنّ ذلك القرار الذي اتُخِذ بعد فترة قصيرة من إلغاء مناحيم بيغن سفره إلى الولايات المتحدة أثار قلقاً أكيداً في ما وراء الأطلسي. فلم يمتنع الناطق باسم الخارجية الأميركية عن إعادة تأكيد المعارضة الأميركية لكل انسحاب إسرائيلي جزئي لا يندرج ضمن انسحاب كلي للقوات الأجنبية من لبنان. فالدولة العبريّة قد وجّهت ضربة قاضية لجهود واشنطن في الحصول على انسحاب القوات السورية، حين ألغت على ذلك النحو المباغت، الوزن الذي تمثله في مفاوضات محتملة مع دمشق. ولم يُخْفِ أمين الجميّل شعوره بالمرارة، حين قال: يعطي الانسحاب الإسرائيلي الجزئي لسوء

الحظ، وذلك ما لا أقدر على تصوّره، الانطباع بأنّ الجهود الأميركية قد فشلت. ثم أضاف تتحمّل سورية مسؤولية مزدوجة تتمثّل في الابقاء على القوات الأجنبية في لبنان وفي تقسيم محتمل للبلاد.

أما في دمشق، فقال حافظ الأسد لدى استقباله برلمانيين فرنسيين، وابتسامة عريضة تعلو محياه إنّ «اللاءات» السورية للانسحاب ولاتفاقية 17 أيار/ مايو لا رجوع عنها.

في حدود الساعة السابعة مساء من يوم 20 تمّوز/ يوليو، هاجم عناصر من ميليشيات درزية محطة العربانية للاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية. وهي قائمة في منطقة من المتن تقع تحت الاحتلال السوري، وقد أُعيدت إلى العمل بعد مساومات طويلة وشاقة. ولقد أُرغِم طاقم العاملين فيها، تحت تهديد السلاح، على قطع خطوط التغذية الكهربائية للتجهيزات كافة. أما الهوائي التلفزيوني اللاقط فدُمّر بقذيفة RPG 7. وهكذا تعذّر النقل التلفزيوني لأقوال أمين الجميّل في الولايات المتحدة أثناء نشرة المساء.

كان عمال البلدية منهمكين، في اليوم التالي صباحاً، بنصب قوس نصر على طريق الخروج من المطار، احتفاء بعودة الرئيس الجميّل إلى لبنان. وفي حدود العاشرة والنصف انفجرت قنبلة على بضعة أمتار منهم. وقد تسبب الانفجار في إثارة هلع لا يوصف بين صفوف المسافرين المغادرين. فتخلّى رجال الأمن وطاقم المطار عن الأمتعة ومواقع العمل وهرعوا بحثاً عن ملجأ آمن. وفي أقل من ربع ساعة سقط 18 صاروخاً من نوع غراد عيار 115 مم انطلقت من راجمة متعددة السبطانات، نُصِبت في منطقة الشويفات، مع أنّها تقع تحت الإشراف الإسرائيلي، فأصابت المهابط والأبنية، وأوقعت قتيلاً وثلاثة عشر جريحاً، بينهم ثلاثة من رجال المارينز الأميركيين. وتلا ذلك القصف رشقات مدفعية متتابعة على مواقع للجيش اللبناني فأدت إلى مصرع 18 عسكرياً وجرح 66. فأُغلِق مطار بيروت لأربعٍ وعشرين ساعة، وجرى على سبيل الحيطة تأجيل امتحانات البكالوريا إلى موعد لاحق.

رسالة من لاري [1] إلى پيتر (الموساد) في 22/ 7/ 83

أ- يسير الوضع سيراً بطيئاً، لكنه سير أكيد، في الاتجاه الذي توقعنا:

1- لقد فقد الجيش كل اعتبار في عاليه وفي بيروت الغربية حين لم يسحق الحركة المسلحة، على الرغم من الدعاية الرسمية كلها التي أثيرت حول هذا الموضوع.

2- إنّ تدهور حالة الأمن، خصوصاً في بيروت، بفعل عمليات القصف على المناطق المدنية، وعدم الرد من قبل الجيش والمؤسسات الرسمية، قد تسببا بحالة من السخط الشديد لدى السكان.

---

(1) إسم فادي أفرام الحركي في المراسلات مع الموساد.

3- لا يمكن لفشل سياسة الرئيس في ملف انسحابات السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك التبعية المتطرّفة للسلطة حيال الولايات المتحدة في سبيل الحصول على تلك الانسحابات، إلّا أن تولّد فقدان ثقة تاماً في السياسة الرسمية. فعلينا اقتناص هذه المناسبة للارتقاء بأفكارنا ومشاريعنا (لبنان الصغير). والواقع أنني باشرت عملاً في هذا الاتجاه.

ب- وإذ نأخذ بعين الاعتبار المقطع «ألف»، نحن نعمل عملاً نشيطاً لإنجاز وثيقة كاملة حول رؤيتنا لمستقبل لبنان، ضمن السياق الذي سبق أن ناقشناه. وقد كان لي لقاء هام مع السفير الأميركي روبرت ديلون. فعرضت له مشروعنا الذي حظي باهتمامه وفق ما ظهر. إلاّ أنه ألحّ على أنّ طابع اللقاء خاص، وغير رسمي. واقترح أن نرسل أليه اقتراحاً مكتوباً وشديد التفصيل بشأن فكرتنا عن مستقبل لبنان مع التفاصيل الممكنة كافة، أي: الجغرافية والديمغرافية والنواحي الأمنية والاقتصادية، [. . .] وسوف تكون تلك الوثيقة جاهزة في حدود منتصف الأسبوع القادم. وسأرسل لك نسخة عنها.

مع أطيب التحيات.

أحاط المستشارون اللبنانيون الأميركيون أمين الجميّل علماً بالاختلافات القائمة بين وزارة الخارجية والبيت الأبيض حول لبنان. فضآلة التقدّم للمبادرات الأميركية في الشرق الأوسط قد أغاظت رونالد ريغان بعض الشيء. أما صديقه، القاضي وليم كلارك، رئيس مجلس الأمن القومي، وهو المؤتمن على أسراره وذو التأثير الكبير، فصبّ بتدخّله زيتاً على النار. فهو يشاطر «سيّده» الميل ذاته حيال الوصفات المغرقة في بساطتها والقائمة على التشدد، والصبر ذاته حيال تسويفات الدبلوماسيين المهنيين. كان كلارك مزيجاً عجيباً من قاض صاحب مزرعة أبقار كاليفورني. فقد تميّز في تشرين الثاني/ نوفمبر 1981، بجهل شامل في شؤون السياسة الدولية لدى امتحانه أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ، المنوط بها الموافقة على تسميته في منصب المعاون الأول لوزير الخارجية ألكسندر هيغ. لكنّ ثقة ريغان به أتاحت له الانتقال من وزارة الخارجية إلى البيت الأبيض.

فحصل كلارك من جهة على أن يستبدل روبرت مكفرلين، معاونه في مجلس الأمن القومي، بفيليب حبيب، وأن ينقل من جهة أخرى نيكولاس ڤليوتس، معاون وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، فيستبدل به ريتشارد مورفي. فكان من شأن هذه القفزات البهلوانية من التعيينات في «ميدان» جورج شولتز أن تسببت بإحباط متزايد لديه، لا سيّما وأنّها ليست المناقلات الوحيدة. إنّ وليم كلارك، الذي سبق وكان السبب في إزاحة ألكسندر هيغ في حزيران/ يونيو 1982، قد عمل أيضاً على إزاحة الدبلوماسي المتمرّس توماس أندرز، الوزير المساعد للشؤون البينية الأميركية، فاستبدل به مولتي، الذي لم تكن لديه أدنى خبرة في تلك المنطقة.

كان روبرت مكفرلين رجلاً معتدلاً وكتوماً. إنّه القامة التي تميّز رجل الأعمال الأميركي، والذي يهرب من المناسبات الاجتماعية هروبه من الوباء. كان باد Bud، كما يلقّبه المقربون منه، وقد بلغ الخامسة والأربعين من العمر، الاختصاصي الذي لا يبارى في المفاوضات حول تخفيض الأسلحة الاستراتيجية (START). وبوصفه عقيداً في سلاح البحرية، فقد كان أحد معاوني هنري كيسنجر، يوم كان مستشار الأمن القومي بين عامي 1973–1975، ومن بعده ألكسندر هيغ. كان روبرت مكفرلين يُعتبر الوجه الثاني الحقيقي لوليم كلارك.

لقد أشار أمين الجميّل إلى الخصم إشارة علنيّة: سوريا. لقد عمدت دمشق، في سبيل قطع الطريق أمام تخاذل لبناني يتمثّل في اللجوء إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة للحصول على انسحابها من لبنان، إلى تنشيط المشروع الذي وضعه عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي في الشهر السابق، وإنشاء «شرعية شعبية» أخرى. وكان عليها أن تبرهن على أنّ الخصوم السياسيين للرئيس اللبناني هم لبنانيون وليسوا سوريين وأن المسألة هي أمر داخلي في البلاد. قبل بضع ساعات من سفر الجميّل من واشنطن، حطّت مروحيّة ضخمة من صنع سوفييتي تابعة للجيش السوري في الساحة المواجهة لفندق پالميرا في بعلبك مثيرةً زوبعةً من الغبار أمام مجموعة من الصحفيين. وما إن توقفت أذرع مروحتها عن الدوران، حتى فتح الباب ليخرج منه وليد جنبلاط، وإنعام رعد رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وعاصم قانصوه الأمين القطري لحزب البعث اللبناني الموالي لسوريا، ونديم عبد الصمد عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، وحكمت العيد عضو المكتب السياسي لمنظمة العمل الشيوعي وعمر حرب الأمين المساعد للاتحاد الاشتراكي العربي، ونسيب الخطيب الأمين العام للحزب العربي الديمقراطي. وقد تدافع الجميع إلى داخل الفندق ليعقدوا فيه مؤتمراً صحفياً. وقد أعلنوا عن قيامهم في دمشق بتوقيع وثيقةٍ بإنشاء «جبهة الخلاص الوطني». وتضع هذه الجبهة بقيادة وليد جنبلاط ورشيد كرامي وسليمان فرنجية هدفاً أساسياً لها، معارضة اتفاقية 17 أيار/ مايو، وتولّي شؤون المناطق الواقعة تحت إشراف سوريا على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي والإداري والاجتماعي. واستغل جنبلاط المناسبة لتبرير عمليات القصف التي جرت في اليوم السابق، على المطار والجيش: كانت مدافعه[1] مصوّبة نحو الجبل.

بحدود الساعة الحادية عشرة توجّه الزعيم الدرزي بالحوّامة أيضاً إلى الحيقانيّة، حيث تقع القيادة العسكرية السورية لشمال لبنان، وتوجّه من هناك بالسيارة إلى منزل رشيد كرامي في طرابلس للتداول بالإجراءات الأولى الواجب اتخاذها. وكان نبيه برّي قد وجّه من بيروت، على الرغم من أنّه لم ينخرط تماماً في جبهة الخلاص الوطني الجديدة، إنذاراً حقيقيّاً للسلطة طالباً منها للمرّة الأخيرة الاستجابة لمطالب الشيعة عبر إقرار ميثاق جديد يحدّد مساهمة المسلمين الفعلية في السلطة.

(1) مدفعية الجيش اللبناني الذي قائده العام أمين الجميّل.

لقد ندّد أمين الجميّل من واشنطن، قبل أن يصعد إلى الطائرة التي ستعيده إلى لبنان، بالمؤامرة الداخليّة للحوّامة السوريّة وتوجّه عبد الحليم خدام بالتحيّة لإنشاء جبهة خلاص وطني مع الإشارة إلى إن سوريا تتعهّد بمنحها كلّ دعم مثلما تفعل نحو كلّ لبناني يعمل على وضع حدّ للاحتلال الإسرائيلي والهيمنة الكتائبيّة.

إنّ العناصر كافة لـ«حربٍ أهليّة» أضحت منذ الآن جاهزة.

أقلقت تصريحات نبيه برّي الإسرائيليين إلى أقصى حدّ، بسبب انعكاساتها على جنوب لبنان. صحيح أنّه لم يلتحق رسمياً بجبهة الخلاص الوطني لكنّ انتظامه السياسي بالتدريج مع الخط السوري يُخشى أن يؤدّي إلى إعادة النظر بمخططاتهم المتعلّقة بالطائفة الشيعيّة؛ بل إنّها قد أضحت «مخترقة» من قبل بعض التيارات الأصوليّة الموالية لإيران والتي يصعب عليهم منازلتها. فحظروا على القوات اللبنانية حظراً تامّاً اختراق المناطق الشيعيّة لتفادي كل صدام وألحّوا على زعماء الميليشيا المسيحية لمضاعفة اتصالاتهم مع حركة أمل على المستويات كافة .كان للتوترات في بيروت انعكاساتها في الجنوب دون القدرة حتى على الاعتراض.

حصلت الاستخبارات العسكرية للقوات اللبنانية على معلومات قضت بأنّها قابلة للتصديق حول عزم سوريا على الدخول في مرحلة من العنف لتدفع بالجيش اللبناني إلى الردّ لمدة تزيد على 48 ساعة. وينبغي استغلال هذه الفترة لإثارة تفكك داخلي وردّة فعل دفاعيّة طائفيّة بين الجنود. وقد قام السوريون باتصالات ضمن هذا المنحى مع ضباط شيعة. فعقد اتفاق بين وليد جنبلاط وسليمان فرنجية يرتئي قيام هذا الأخير بعمليّة «تسخين» للجبهة الشمالية انطلاقاً من القطاع المسيحي كلّما تدهور الوضع في الشّوف. والهدف من ذلك توجيه ضربات قاسية لنظام أمين الجميّل. وقد أكّدت الاستخبارات الإسرائيلية صحّة تلك المعلومات.

لقد استؤنفت عمليات القصف على بيروت الشرقيّة بدرجةٍ من الشدّة جعلت إسحق ليور، «ممثل» إسرائيل للشؤون الخارجية في لبنان والذي مقرّه في بعبدا، يطلب من فادي أفرام أن يجد له مكاناً أكثر هدوءاً، وأن يتّسع المبنى لحوالى 50 مكتباً، بين الكرنتينا وجونيه، على بعد يقل عن 4 كم عن البحر. وقد انتقل بعد بضعة أيام إلى دارةٍ ضخمة سطحها من القرميد الأحمر تقع على مرتفع صخري فوق بحر الضبيّة، وقبل نفق نهر الكلب تماماً.

توجّه فادي أفرام وإيلي حبيقة، في حوّامة إلى تل أبيب، بدعوة من الموساد، فوصلا مع حلول المساء يوم 25 تمّوز/ يوليو 1983؛ كان ميثير داغان راغباً في رؤيتهما بسرعة، بشأن الشوف وجنوب لبنان. وبعد أن أمضى اللبنانيان الليل في فندق دان، جرى اصطحابهما إلى مقرّ المؤسسة. وجّه داغان وصاموئيل ديون، مستشار أوري لوبراني السياسي، لوماً عنيفاً للحكومة اللبنانية لأنّها فشلت في مسعاها للتقارب مع الدروز. فالمفاوضات المتعلّقة بالمطالب العشرين انقطعت انقطاعاً مباغتاً قبل ذلك بأيّام.

وقد أكّد رئيس الياكال وهو يتكلّم عن الدروز قائلاً بقوّة:

- إنّ كلّ ما يرغبون فيه هو تحسين وضعهم. فهم لا يريدون تغيير النظام وهم لا يمثّلون إلّا ستة إلى ثمانية بالمئة من السكان. يريدون فقط أن يكونوا مسؤولين عن أمنهم الخاص وأن يحتفظوا بأسلحتهم.

فردّ عليه حبيقة بصوت هادئ قائلاً:

- لا أظن أنّ مسألة الشوف تتلخّص بالمطالب العشرين. لقد توصّلوا إلى اتفاق يتعلّق بمعظم تلك المطالب، وكان مروان حمادة والمفاوضون الدروز على وشك وضع اللمسات الأخيرة على النصّ حين تلقّوا بغتةً الأمر بالكفّ عن التفاوض. فلم يعد هدفهم يتعلّق فقط بهذه الطائفة وإنّما الطوائف الإسلاميّة كافة. لقد علم السوريون أنّ وليد جنبلاط قد التقى بكم حين قصد باريس لمقابلة شيسّون. وهم الآن يدفعون به لاتخاذ مواقف أكثر تشدّداً. فلم تعد مطالبهم هي مصدر المتاعب بل الرّغبة السورية وربمّا رغبتكم أنتم أيضاً كما في عاليه.

فقال داغان:

- إذا ما تصرّفت حكومتكم تصرّفاً ذكيّاً وأرضتهم بشأن مطالبهم، فسوف يغدو حينئذ ممكناً فصل الطائفة الدرزية عن الحزب التقدمي الاشتراكي. أمّا بشأن حادثة عاليه فكانت غلطتنا نحن وأعترف بذلك. لقد رغب الدروز في التظاهر ليعبّروا عن رفضهم لرؤية الجيش في الشوف وقد تجاوزوا الحدود...

فعارضه إيلي حبيقة قائلاً:

- هيّا بنا! فالأمر قد جرى إعداده وأنت تعرف ذلك حق المعرفة.

فحوّل صاموئيل ديون الحديث قائلاً:

- تتكلمون عن المخطط السوري، لكن هذا مبرّر آخر للعثور على حلّ للمشكلة التي تجعلكم تختلفون مع الدروز...

فقاطعه فادي أفرام قائلاً:

- الآن لن يقبل الرئيس أبداً بالتحدّث مع وليد جنبلاط.

فردّ داغان بلهجة عدائيّة موجّهاً سيكاره نحو صدغه:

- أعطوه إذن مسدساً كي ينتحر.

وقال أفرام بلهجة ارتياب:

- أنتم تطلبون منّا دوماً التحدّث إلى وليد جنبلاط.

- ليس هنالك من خيار آخر في الوقت الراهن.

- فما الذي يمكن عمله الآن من الناحية العملية؟

فقال داغان:

– إن لم نعمل معاً، عملاً رباعيّاً، من مسيحيين ودروز، مع إسرائيل والحكومة اللبنانية فلن نتوصّل إلى شيء.

فردّ أفرام آسفاً:

– هذا مستحيل. فالرئيس لن يقبل أبداً.

– ومن عساه يقنع الرئيس؟

فاقترح إيلي حبيقة قائلاً:

– هل حاولتم مع الأميركيين؟ فأنا أحيطكم علماً بأنّ أمين الجميّل سيعود من الولايات المتحدّة معبّأً جدّاً ضد سوريا وجنبلاط.

حين ورد ذكر جنوب لبنان بدا التجّهم على وجه ميثير داغان. كان جهاز الأمن الذي يديره إيلي حبيقة قد وضع مخططاً لترحيل جميع الفلسطينيين المقيمين في المناطق المسيحية حول صيدا. ومن مزايا هذا المخطط سهولته المتناهية: العمل على طردهم عن طريق تخويفهم وتدمير ممتلكاتهم. وكانت قد تمّت الموافقة على هذا المخطط أثناء اجتماع هيئة أركان الميليشيا في نهاية حزيران/ يونيو، وأوكل التنفيذ إلى إيلي حبيقة. أما يوسف حدّاد، مسؤول جهاز الأمن في الجنوب، فقد جرى تكليفه ببدء العمل به. وقد أحيط الإسرائيليون بالأمر علماً. عندها بدأت سلسلة من عمليات التدمير بالمتفجرات. جرى في يوم واحد نسف ثمانية مخازن يملكها فلسطينيون بالديناميت. وجرى استغلال المناسبة لتصفية بعض الحسابات الشخصية. فبعض الشيعة اللبنانيين الذين ينتمون علانيةً لأحزاب يسارية أضحوا أهدافاً. تلقّت بعض العائلات تهديدات، فيما جرى طرد عائلات أخرى من بيوتها بقوّة السلاح. كذلك جرت «تجاوزات»، فلقي أشخاص عديدون حتفهم في تلك الاعتداءات. وانهالت الشكاوى من كل حدب وصوب، فوجّه الفلسطينيون والشيعة الاتهام للإسرائيليين. فقد كانوا يعتبرونهم أولاً مسؤولين عن أمنهم ولأنّ القوات اللبنانية كانت حليفةً لهم. وسقط بعض المسيحيين ضحايا عمليات القمع ممّا زاد أعمال العنف حدّةً.

قال لهم ميثير داغان:

– إذا ما استمرّ الوضع الراهن على حاله، فأنتم مقبلون على حرب مكشوفة. إنّ التوتر يزداد يومياً. لكن ما يهمّنا في ذلك أنّه يتسبّب في الإساءة إلينا. فالشعب يظن أننا مسؤولون عن كل ما تفعلون. وهذا يضعنا في موقف صعب ويرغمنا على تقديم المبرر له. كانت العلاقات بين المسيحيين والشيعة طيبةً حتى الآن. وإذا ما دخل الشيعة في نزاع معنا في الجنوب فإن ذلك سيتسبب في مشكلة خطيرة. أنا أعرف أنّ أعمالكم ليست موجّهة ضدّ الشيعة، لكن سوف تجدون أنفسكم حيال حرب شبيهة بالتي عرفتموها في الشوف.

فأضاف مناحيم نافوت قائلاً:

- إنّ الإبقاء على قواتكم في الجنوب صار مسألة معقّدة بالنسبة إلينا. فالشيعة يعتبرونكم مقرّبين من حكومتكم ولديكم مشكلات معهم.

وقال داغان بلهجةٍ شبه آمرة:

- امنعوا عناصركم من التعرّض للشيعة. فقوّاتكم لا تنسّق أعمالها مع قوّاتنا. لقد قام نازو بعملية استبدال للقوات في كفرفالوس من غير إعلامنا. ووقعت مناورات في صبرا بالنيران الحيّة دونما تنسيق...

فاستفسر حبيقة قائلاً:

- إذن ما المسموح لنا القيام به؟ أظنّ في الواقع أنّ المقصود بالنسبة إليكم شيء مغاير تماماً.

فقال الجنرال الإسرائيلي بلهجة حادّة:

- وحده سعد حدّاد مخوّل بالتصرّف! ولا أحد سواه!

فابتسم إيلي حبيقة وقال:

- تلك هي مشكلتكم الأساسيّة!

- لقد طلبنا إليكم الالتحاق به منذ زمن طويل. لا ينبغي وجود أكثر من قوّة واحدة في الجنوب!

وكانت لهجة حبيقة لاذعة وهو يتساءل:

- إذا ما أوقفنا هذه النشاطات كافّة التي تشتكون منها، من غير الانضمام إلى سعد حدّاد، فهل يلائمكم ذلك؟

فردّ مناحيم نافوت وهو يسعى إلى تهدئة حدّة النقاش:

- نحن نريد أن تكونوا طرفاً معنيّاً في الجنوب، ولهذا السبب ندعوكم للانضمام إلى سعد حدّاد.

فعارض فادي أفرام قائلاً:

- لن نكون طرفاً معنيّاً لأنّ قواتنا ستغدو تابعة لسعد حدّاد. فهل تظنون أنّه قرار يسهل اتخاذه؟ نحن لدينا خيار آخر، ألا وهو الانسحاب من الجنوب انسحاباً كليّاً. ويمكن لبعض العناصر البقاء بصورة فرديّة، لكنّهم سيرفضون تلقي الأوامر من سعد حدّاد.

فثارت ثائرة ميئير داغان مجدداً:

- وما عساكم تفعلون حين ننسحب من الشوف وتصيرون منقطعين عن قواتكم في الجنوب؟ وكم يلزم حسب ظنّكم، من الزمن لتتمكنوا من تأمين الاتصال بحراً؟ شهران؟ وماذا بعد؟ وإذا لم يقم الجيش بالانتشار فكم من الوقت تستطيعون البقاء في الجنوب؟

فردّ عليه فادي أفرام بجفاء :

– إذا ما انسحبتم ولم يقم الجيش بالانتشار ، فيمكن أن نكون مرغمين على استخدام قواتنا التي في الجنوب في منطقة الشوف.

فصاح الجنرال الإسرائيلي قائلاً :

– نحن لن نسمح بأن تنطلق قذيفة واحدة من جنوب نهر الأولي.

– كلا ، فسوف نستخدم العناصر فقط . . .

تدخّل مناحيم ناڤوت فوضع حدّاً لاجتماع انتهى بحديث حاد. وغادر داغان قاعة الاجتماع بمزاج سيّئ جداً. فهنالك هوّة زمنية كبيرة بينه وبين ما كان عليه العقيد مئير داغان قائد لواء المدرعات الذي استحوذ على إعجاب عناصر الميليشيا في القوات اللبنانية وهو يحرّك دبابات الميركافا فوق هضبة الجولان. لقد مضت ستة شهور يوم استقبلته «القوات» بسرور واضح حين جرت تسميته على رأس جهاز الياكال، وقد قال يوم ذاك إنما علاقاتنا مع الدروز علاقات تكتيكية بشكل خاص . أمّا الآن فهو ذاك الذي يطلق عليه الدروز اسم أبو جبل. أمّا الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر لديه فهي عادته في تدخين نوعيات من السيجار القصير الرخيص الثمن ، ذي الرائحة الكريهة.

تناول اللبنانيان بعدئذ الغداء مع ناحوم أدموني (پيتر) ، مدير الموساد، ومناحيم ناڤوت وبعض المحللين للملف اللبناني. ودار الحديث حول انعدام الثقة بالجيش اللبناني بعد أحداث عاليه وحيّ وادي أبو جميل ومخططات الأعمال المختلفة للسوريين والدروز.

أبدى إيلي حبيقة ملاحظةً إذ قال :

– يؤكّد الدروز أنّ الجيش لن ينتشر دون اتفاق سياسي. وحتى من الناحية العملية فإنّ أمين لم يعد راغباً بالتحدّث مع وليد جنبلاط. وهي حلقة مفرغة يصعب الخروج منها.

فسأله پيتر على نحو عابر :

– وماذا لو اختفى وليد؟

– سوف ينقسم الدروز ويظهر على السطح زعماء عدّة مجموعات.

– وإذا ما أكّدنا للأميركيين أنكم مستعدون لمساعدة الجيش على الدخول إلى الشوف ، فماذا عليهم أن يفعلوا لإقناع الدروز بالتعاون؟

فردّ فادي أفرام قائلاً :

– لم تعد المشكلة الآن بينهم وبيننا ، وإنّما بين أمين ووليد.

– ينبغي إذن إقناع أمين بالاجتماع إلى وليد والدخول في اتفاق معه.

فكان تشخيص إيلي حبيقة في قوله :

– عندئذ سوف يدافع وليد عن مطالب الشيعة أيضاً ، لنعود فنتحمّل مسؤوليّة كمال جنبلاط جديد.

فأكّد أدموني قائلاً:

– لكنّها الوسيلة الوحيدة لتفادى الحكومة أن يصير الشوف منطقة محظورة عليها.

فقال أفرام:

– يتراءى لي أن أمين سوف يستخدم القوّة لنشر الجيش.

– بهذا الجيش؟

– يحمل أمين فكرةً عظيمةً عنه. ومساعدوه يحرّضونه على الوقوع في الخطأ.

أمّا بشأن جنوب لبنان فقد أكّد لهما رئيس الموساد أنّ وجودهم و«الصدامات» التي جرت هنالك أثارت سخطاً شديداً لدى العسكريين الإسرائيليين. فقد طلب هؤلاء من وزير الدفاع الإذن بإغلاق ثكنة «القوات» في كفرفالوس وحصلوا عليه. ولقد عارض الموساد أن يتمّ ذلك الإغلاق، مثلما كان مقرراً من قبل، أثناء وجودهم في إسرائيل.

فسأل فادي أفرام قائلاً:

– وما الهدف من هذا الإجراء؟ إنّه سوف يسمّم الأجواء.

– إنّه على المدى القصير، عقوبةٌ أُنزلت بكم، ومن شأنها تحسين صورة الجيش الإسرائيلي في نظر المواطنين. أمّا على المدى الطويل، فيندرج ذلك ضمن إطار قوّة وحيدة في جنوب لبنان، ألا وهي قوّة سعد حدّاد.

– وهل يعتقد عسكريوكم أنّهم بذلك سيمارسون ضغطاً علينا لندمج قواتنا بقوات سعد حدّاد؟

وأضاف حبيقة قائلاً:

– إنّ إغلاق ثكنة كفرفالوس ستصب لمصلحة الرئيس الذي ما انفك يردد على مسامعنا: قلت لكم ألاّ تفرطوا في السّير معهم بعيداً.

فقال بيتر:

– لا يريد جيشنا التورّط في هذه القضيّة. إنّهم يريدون أن تصدروا بأنفسكم الأمر بإغلاق الثكنة.

فثارت ثائرة أفرام وقال:

– أنا لن أصدر أبداً مثل هذا الأمر! فهو قرار ستكون له انعكاسات مشؤومة على المسيحيين. وأنتم في سعيكم للفوز بتحالف الشيعة إنّما ستفقدون المسيحيين، لا سيّما وأنّ منطقة كفرفالوس مسيحيّة بالكامل. إنّ رجالنا لن يلتحقوا بسعد حدّاد. وهم يفضّلون الالتحاق بثكنة جزين أو أنّهم سيتوجّهون إلى مقرّات الكتائب. وهكذا سوف يكونون تحت أوامر أمين الجميّل.

لدى انتهاء الغداء، كان للرجلين اللبنانيين حديث على انفراد مع بعض المحللين بشأن «الصدامات» ضمن محيط صيدا. فبعض تلك الأحداث، وفقاً لتحقيق القوات اللبنانية، جرى

بتحريض من ضباط إسرائيليين، ويسعى الموساد وراء الحصول على تفاصيل وعلى أسماء. فوعدهم المسؤولان بإرسال رسالة فور عودتهما إلى بيروت. لكن لم يتوافر لهما الوقت للقيام بذلك البتّة.

جرى إيقاظ فادي أفرام في منتصف الليل. لقد وقعت نداءات استغاثة على مقر قيادة الميليشيا. فقد تلقّت الوحدات في ثكنات كفرفالوس وصربا ومغدوشة حول صيدا أمراً من الإسرائيليين بإخلاء المباني في 24 ساعة. فحاول الاتصال بالجنرال دروري من دون جدوى. عندئذ أعطى الأمر لنازار ناجاريان (نازو)، المسؤول في الجنوب، بعدم التحرّك من الثكنات وبتنظيم تظاهرات شعبية من حولها. وطلب من هيئة أركانه أن تفعل الشيء ذاته حول «السفارة» الإسرائيلية في الضبيّة. فأدّت هذه التظاهرة الأخيرة إلى ردّة فعلٍ عنيفة جدّاً في وزارة الخارجية في القدس. وكتب صحفيٌّ إسرائيلي اسمه أوديد زاراي، كان هنالك مصادفةً، مقالةً ندّد فيها بالإجراءات المتّخذة ضدّ الميليشيا. كان داغان وضباط الجيش الإسرائيلي في غاية السخط. وجرت بين نازو ورئيس جهاز الياكال مناقشة حادّة جدّاً حذّره فيها من ردود فعل المسيحيين ضدّ الإسرائيليين. فكان أن اضطرّ ميئير داغان إلى التخفيف من غلوائه وأوعز بنشر بيان يقول إنّ ثكنة كفرفالوس وحدها سوف تغلق. فكان أن قرّرت «القوات» القيام بإغلاق الثكنة بأنفسهم ما دام الإسرائيليون يريدون فعل ذلك.

لئن كان مناحيم بيغن قد ألغى شخصياً دعوة رونالد ريغان، فإنّ كلاً من إسحق شامير وموشيه آرنز وإيهود باراك، رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية (آمان) وأوري لوبراني قد توجّهوا إلى واشنطن في 29 تمّوز/ يوليو 1983. فأجروا محادثات لأكثر من 15 ساعة مع جورج شولتز، وجهاً لوجه، ليقولوا له إنّ أمين الجميّل لم يحرز أي تقدّم بشأن المصالحة الوطنية اللبنانية. وأكّدوا له أنّ أفضل عونٍ يمكن أن يقدّمه الأميركيون للبنان هو أن ينصحوه - بل أن يضغطوا عليه - للانخراط بأسرع ما يمكن في مصالحة وطنيّة، دون انتظار انسحاب القوى الأجنبيّة كافّة الذي يمكن أن يستغرق أعواماً. وقد شرحوا له بالإجمال، ولم يجدوا كبير عناء في إقناع الإدارة الأميركية بأنّه ينبغي أن يعرف أمين الجميّل إن كان يريد أن يصير زعيماً وطنياً، أن يتصرّف على ذلك الأساس. فهو يتصرّف اليوم مثل ملك ماروني. فهو لا يريد أن يرى - ولا أن يعترف - أنه في معرض فقدان بلده من الداخل لا من الخارج. ولسوف يغدو، وفقاً لإيقاع تقدّمه، وبموجب الوقائع، عمدة بيروت الشرقيّة، لا بيروت الكبرى، قبل أن يدرك ذلك.

كان لبنان يهيمن من الناحية العملية على الحياة السياسية الإسرائيلية كلّها. فجرى التماس أحد الزعماء العماليين، هو إسحق رابين، من قبل الحكومة الإسرائيلية للقيام بحمل رسالة إلى اللبنانيين. وكان رابين بانتقاله بنفسه يريد أن يبرهن على وجود إجماع في إسرائيل حول إعادة الانتشار. فجرى تكليف الموساد بتنظيم السفر إلى بيروت. كما جرى ترتيب لقاء له مع بيار الجميّل. تمّ اللقاء في

1 آب 1983 في البيت المركزي للكتائب[1]. كانت المرّة الأولى التي يلتقي فيه الرجلان مجدداً منذ محادثاتهما على ظهر باخرة في المياه اللبنانية عام 1976.

قال رابين:

– لست في السلطة في الوقت الراهن ويسعني التحدّث بحريّة أكبر. فالمواطنون في إسرائيل ما عادوا يتساءلون عمّا جرى بل عمّا سوف يجري. ويتساءلون كم من الوقت سوف نظلّ في لبنان. إنّ إعادة انتشارنا أمرٌ لا يمكن تجنّبه. فهل أنتم مستعدّون لذلك؟ قلنا لكم عام 1976 إننا سوف نساعدكم، لكن لا يسعنا أن نقاتل بدلاً عنكم وإنّ إسرائيل ستساعد كلّ الذين يريدون لبنان سيّداً ومستقلاً. إنّ الوضع اليوم على مثل ما كان. فإسرائيل مستعدّة لمساعدتكم، لكنّ إسرائيل لا تستطيع أن تقوم بكلّ شيء بنفسها.

فردّ عليه بيار الجميّل قائلاً:

– أنت رجل وطني. وسوف نتحدّث معاً حديث وطني لوطني. لقد نجحنا، نحن المسيحيون، في أن نجعل من لبنان بلد الحريّات حيث تشعر 17 طائفة بأنّها في بيتها. لقد نجحنا بطلبنا إلى الفرنسيين ضمان استقلال لبنان في مساحته البالغة 10452 كيلومتراً مربعاً، حيث تتعايش الثقافات كافّة. إن لبنان هو البلد الوحيد بين البلدان العربية حيث تلك الثقافات محترمة وحيث لا وجود لدين رسمي. ولننتقل إلى الصعيد السياسي: إسرائيل يهودية، وسوريا بلد إسلامي، أمّا لبنان فهو لبناني. وحين نتكلّم باسمه ينبغي الكلام باسم المسيحيين والمسلمين. أقول لك ذلك لأنّكم تنتقدون سياسة أمين. لكن لولا هذه السياسة، لما أمكن توقيع الاتفاق. هنالك في إسرائيل أناسٌ يفهموننا جيداً وآخرون لا يفهمون لم لا يقف المسيحيون مع إسرائيل حتّى الموت. لقد استطعنا بفضل تفاهمنا الداخلي أن نوقّع الاتفاق مع إسرائيل. من كان يظن أننا نستطيع مدّ اليد لإسرائيل، وأننا نستطيع الجلوس إلى المائدة ذاتها وأنّ العلم الإسرائيلي سيخفق هنا؟ لولا هذه السياسة لما توصّلنا إلى ذلك. نحن والدروز معاً أقليّاتٌ بين المسلمين. وأنا لا أفهم لماذا لم تقوموا بإجراء تقارب في ما بيننا لأنّ المسيحي اللبناني والدرزي اللبناني هما الوحيدان اللذان لم يقفا موقفاً معادياً لإسرائيل. نحن جزءٌ من العالم العربي، والعديد من اللبنانيين يعملون فيه. ونحن نجني منه ثروةً كبرى. إنّي على ثقة من أنّ إسرائيل ستفهمنا. نحن هنا، نحن وأنتم. جنباً إلى جنب إلى الأبد. أنتم لا تستطيعون العيش طوال الوقت والسلاح في يدكم. سوف تسعون ذات يوم إلى التقارب مع المسلمين. ولسوف تحتاجون آنذاك إلى جسرٍ مع العالم العربي. إنّ ذلك الجسر لقائم: إنّه لبنان. ونحن من جانبنا، بحاجةٍ لمن يساعدنا في الحفاظ على استقلالنا وسيادتنا.

---

(1) بحضور فادي أفرام، أنطوان بريدي، أوري لوبراني، أمنون من الموساد.

– ليس علينا، إذا ما أحسنت الفهم أن نطلب من الرئيس أكثر مما أعطى: الاتفاق...

فقاطعه بيار الجميّل قائلاً:

– ذلك الاتفاق مكسبٌ كبير لأنّكم عقدتموه مع لبنان بكامله وذلك بفضل السياسة التي سلكها أمين.

فاستأنف رابين قائلاً:

– لقد فهمنا ذلك. نحن لا نريد فرض شيءٍ على أحد. ولا نريد أن تقطعوا علاقاتكم مع العرب. إلّا أنّي مندهشٌ لأنّكم تطلبون إلينا حلّ مشكلتكم مع الدروز. نحن نستطيع مساعدتكم، لكن عليكم أنتم القيام بحلّها. أنتم تعيشون معهم منذ مئات السنين، أمّا نحن من جانبنا، فنحن هنا منذ عام واحد. إننا نستطيع فقط تأمين الظروف للتوصّل إلى تفاهم في ما بينكم. أمّا المسألة المطروحة اليوم في إسرائيل فهي التالية: كيف العمل لإخراج السوريين من لبنان؟ لديكم أنتم اتصالات وعلاقات معهم أكثر منّا. فأنتم في وضع أفضل.

فقال الرئيس الأعلى للكتائب متعجّباً:

– ألا ليتكم تعرفون السوريين! إنّما نحن أوروبا أمّا هم فالعالم العربي المتخلّف. عليكم التجمّل بالصبر. فنحن وكذلك الأميركيون، لم نفقد الأمل. إنّ سوريا مشكلة خاصّة يسعنا حلّها بالصبر والعمل الجاد.

– أنا أعرف السوريين حقّ المعرفة. كنت قائداً للجبهة الشمالية بين العامين 1956 1959 وأعرف من هم. إذا ما قالوا شيئاً فذلك يعني أنّهم سيفعلون العكس. إنّ الأميركيين لم يفقدوا الأمل، لكنّهم فقدوا الفرصة الوحيدة في إخراجهم أثناء الحرب. لم يشأ الأميركيون استخدام هزيمة السوريين والفلسطينيين في لبنان لحلّ الأزمة اللبنانية، وإنّما لحل أزمة الشرق الأوسط.

فتدخّل أوري لوبراني العائد من واشنطن قائلاً:

– يؤكّد الأميركيون عزمهم على دعم نظام الرئيس الجميّل 1 وجعل السوريين يخرجون من لبنان. لكن ليس لنا أن ننسى أنّ للولايات المتحدة اهتماماتٍ أخرى. لقد لمسنا مدى الأهميّة التي يعلقونها على السلادور ونيكاراغوا. أمّا أنتم ونحن، فنظلُّ هنا معاً لحلّ مشكلاتنا. ناهيك بأنّ الانتخابات الرئاسية الأميركية سوف تجري في العام القادم.

فسأل بيار الجميّل إسحق رابين قائلاً:

– ما رأيك في ما سوف يجري في لبنان؟

– أعتقد أنّ السوريين سيواصلون المطالبة بإلغاء الاتفاقية وانسحاب القوات الإسرائيلية. وبعدئذ سوف يرون. كان أمر الحصول على انسحابهم في أيلول/سبتمبر من العام الفائت أكثر يسراً. أمّا اليوم فهم يشعرون بأنّهم أقوى ولديهم فوق ذلك دعم السوفييت. وهم يعرفون أيضاً أنّ إسرائيل ليست اليوم في وضعٍ يسمح لها بالقيام بحربٍ جديدة.

– ذلك صحيح تماماً ولكن ما هو الحل؟

– إنّهم يشيرون إلى وجودنا وإلى الاتفاقية كي لا ينسحبوا. أمّا وأنّ الرئيس أمين لمّا يصادق على الاتفاقية، فهم يضعون وجودنا في المقدّمة. فلنخفّف من حدّة الأمر ولنظهر للعرب والعالم أنّ السوريين هم الذين يحتلّون لبنان حقّاً. وإنّه لأمرٌ حسن أن يصرّح إسحق شامير في واشنطن أنّ إعادة الانتشار ليست سوى مرحلة في الانسحاب الكلّي. فلا وجود لحلّ سهل. ومن الأهميّة بمكان أن نبيّن أننا على استعداد للانسحاب. ومن شأن ذلك أن يشكّل ضغطاً على السوريين.

فأكّد بيار الجميّل قائلاً:

– إذا ما انسحبتم أنتم وبقيت سوريا، فتلك هي الكارثة وفيها انهيار لبنان.

– أنا لم أتكلّم عن انسحاب كليّ، بل عن إعادة انتشار. وينبغي من حين البدء بانسحابنا، أن تطالبوا بانسحاب السوريين.

فقال بيار الجميّل مشدداً على كلامه:

– ينبغي أن يكون هنالك تعهّدٌ بانسحاب سوري وبأفضل الشروط مقابل إعادة انتشاركم. فإذا ما انسحبتم وبقيتم في الجنوب فسوف يحتلّ السوريون البلد. لكن لا تعطوا الانطباع على الأقل بأنكم سوف تحتفظون بالجنوب، لأنّ السوريين لن ينسحبوا من بعد أبداً.

فردّ رابين قائلاً:

– لقد طلب الرئيس أمين ضمانات من الأميركيين بانسحاب إسرائيلي كلّي دون ربطه بانسحاب سوري من لبنان. إنّه طلب رئيسكم! لقد طالب بتقويم انسحابنا الكلّيّ والتواريخ الدقيقة من غير وضع أيّ شرطٍ يتعلّق بالانسحاب السوري. أنتم تطلبون إلينا بألاّ ننسحب ما لم يقم السوريون بالخطوة ذاتها، في حين أنّ رئيسكم يطالب من جانبه بشيءٍ مغاير. . .

فعارضه بيار الجميّل قائلاً:

– لقد أجرى اتفاقاً مع الأميركيين، وسوف يكون انسحابكم الكلي وسيلة ضغطٍ على السوريين.

فدحض أوري لوبراني ذلك قائلاً:

– كلّا لم يحصل قطّ مثل ذلك الاتفاق.

لدى انتهاء الحديث، حضر الرئيس السابق لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي استقبالاً صغيراً أقامته على شرفه صولانج الجميّل، أرملة بشير، في المقرّ العام للقوات اللبنانية. وأثناء الحديث أفضى إسحق رابين لفادي أفرام بأنّه قد قال لجورج شولتز، قبل ذلك بثمانية أشهر، إنّ السوريين لن ينسحبوا، وإنّ الأميركي قد ردّ عليه آنذاك قائلاً إنّ عبد الحليم خدام وعده بذلك بعد الانسحاب الإسرائيلي، وإنّه يعتبر أقوال خدام ضمانةً. وأكّد رابين قائلاً كدت أسقط من على مقعدي! وسأله

أوري لوبراني إن كان على إسرائيل أعطاء المسيحيين أسلحة وذخائر في حرب الجبل. فحدّق فيه رابين لثوانٍ ثمّ أجاب: لو كنتُ المسؤول، لأعطيتهم كلّ ما يطلبون باستثناء الرجال. . . .

ما كاد الفجر يبزغ في الساعة الرابعة من صباح 2 آب 1983، حتّى توقفت قرابة خمس عشرة ناقلة تابعة للجيش الإسرائيلي، بينها دبابات خفيفة أمام ثكنة كفرفالوس. وخرجت منها كتيبةٌ من الجند المسلحين فاحتلّوا الثكنة من غير أن يتصدّى لهم عناصر ميليشيا القوات اللبنانية القائمين بالحراسة. ووفقاً لمخطط وُضِعَ مسبقاً اندفع أحد العناصر إلى الكنيسة وقرع الجرس إنذاراً للسكان. فتجاوبت الأجراس على الفور من قريةٍ لأخرى. لقد قرّرت القوات اللبنانية اللجوء إلى المعارضة الوحيدة الممكنة حيال الإسرائيليين: التظاهرات الشعبيّة. وكانت بلبلةٌ عامّة. تفجّرت حركات الاحتجاج في القرى المسيحية كافّة. وتوافد نحو الثكنة رجالٌ ونساءٌ وأطفال. أمّا الدروب المؤدّية إلى كفرفالوس فقُطِعت بحواجز من الإطارات وهياكل السيارات المشتعلة فأوقفت وصول عربات عسكرية إسرائيلية أخرى كانت متّجهة نحو القرية. في حين جرى تسهيل مرور الصحفيين من أيّ جهةٍ قدموا. أرسل الجيش الإسرائيلي تعزيزات على عجل لمنع الوصول إلى المنطقة. أمّا المتظاهرون الذين جاء بعضهم من صيدا، فقد تركوا سياراتهم على جوانب الطرق لبلوغ كفرفالوس عبر أي دربٍ كان. وقبيل الظهر كان هنالك ما يقرب من أربعة آلاف مدنيّ جالسين على الأرض في باحة الثكنة معبّرين بصخب عن دعمهم للميليشيا. وقد بعث فادي أفرام برسالة لاسلكية للموساد.

2,8,1983. من بيتر إلى لاري

أضحت قضية ثكنة كفرفالوس حرجة. أكتب لك هذه الرسالة في الثانية عشرة ظهراً. هنالك وحداتٌ من الجيش الإسرائيلي داخل الثكنة. وهنالك أيضاً تظاهرة شعبيةٌ كبرى في الساحة دعماً للقوات اللبنانية.

1- كنت أعرف أن ذلك سيقع وسعيت لإحاطتكم بالأمر علماً في اجتماعنا الأخير. أرسلت فؤاد أبو ناضر رئيس هيئة أركاننا، إلى المنطقة للتخفيف من حدّة التوتر والسعي لمناقشة الأمر مع الضابط الإسرئيلي المكلّف بالعملية. فتلقيت توّاً رسالةً منه تقول إنّه متمسّك بالوصول إلى اتفاق يسمح لنا بالبقاء في ثكناتنا تحت إشرافٍ مباشر من الجيش الإسرائيلي. وآمل أن يتمّ ذلك.

2- باشرتُ بالتوازي عملاً من شأنه التخفيف من آثار هذه العمليّة على صعيد السكان المسيحيين، لا سيما في وسائل الإعلام، كي لا أدع لأعدائنا استخدام هذه الواقعة لإطلاق استفسارات حول نوعيّة علاقاتنا. أمّا بالعودة إلى الأسباب التي قدّمها الجيش الإسرائيلي لإغلاق ثكناتنا، أي الصدامات في منطقة صيدا والتي أُلصِقت بنا مسؤوليّة عنها - مع أنني أعطيتكم الإيضاحات الضرورية في رسالتي الأخيرة - فسوف أستبدل المسؤول عن جهازنا الأمني في الجنوب، يوسف حدّاد، بقصد تخفيض حالة التوتر.

3- آمل أن نخرج من هذه القضية بضرورة إنشاء منظومة تنسيق في الجنوب، وأن نخلق من جديد فضاء ملائماً لعلاقاتنا مع الجيش الإسرائيلي.

مع أفضل التحيات.

وصل الحاكم العسكري الإسرائيلي لمنطقة جنوب لبنان في حوّامة إلى كفرفالوس في الواحدة بعد الظهر. فدعا لاجتماع ضمّ المسؤولين الإسرائيليين ومسؤولي القوات اللبنانية، من غير الوصول إلى نتيجة. أمّا موشيه ليڤي فقد اضطرّ في تل أبيب إلى تبرير العمليّة أمام كاميرات التلفزيون بعد أن حوصر بالأسئلة، فأكّد قائلاً: **إنّ تصرّف عناصر الميليشيا المسيحيين هو الذي جعل إخلاء ثكناتهم ضرورياً، فالقوات الكتائبية خرقت الاتفاقيات المعقودة مع الجيش الإسرائيلي بارتكابها أفعالاً كنا نحن معارضين لها .**

توجّه في المساء، الجنرال عامير دروري، قائد الجبهة الشمالية، إلى رئاسة أركان القوات اللبنانية في الكرنتينا. فقال لفادي أفرام بإيجاز: **قد تكونون على حقّ بعدم الرغبة في إغلاق تلك الثكنة، لكن هنالك قرار من وزير الدفاع وينبغي تنفيذه.** فردّ عليه قائد الميليشيا إنّ ذلك الأمر يتعلّق بالموقف الإسرائيلي، أمّا من جانبه هو فعليه واجبات حيال السّكان الذين ساندوه. وعرض العثور على حلّ لا يفقد فيه كلّ طرفٍ ماء وجهه. فوعد عامير دروري بأن يفعل ما يلزم من أجل «امتصاص حدّة الاحتقان». وتوجّه في اليوم التالي إلى كفرفالوس وأصدر الأمر بالتخفيف من التدابير الإسرائيلية إلى حدٍ كبير. وجرت محادثات بين مسؤولين من الجيش الإسرائيلي والقوات اللبنانية حتّى الرابع من آب قبل التوصّل إلى اتفاق ودّي يقتضي: انسحاب آخر الجنود الإسرائيليين من الثكنة ومحيطها، وعودة السكان إلى قراهم وإخلاء عناصر الميليشيا كافة من الثكنة باستثناء ثلاثة رجال وضابط إسرائيلي في غضون خمسة عشر يوماً. وبعد ذلك إعادة فتح الثكنة كما في الماضي لكن بوجودٍ دائم لضابط إسرائيليّ فيها.

لقد جرى ترحيل يوسف حدّاد «زلمة» إيلي حبيقة في الجنوب في صندوق سيارة ليفلت من تفتيش الإسرائيليين. وعلى الرغم من أنّه خاضعٌ لقرار «حظرٍ» من الإقامة في قطاعه القديم، بقرار من قائد الميليشيا، فقد عاد إليه بعد ذلك بأيّام. وعلى الرغم من الجهود كافّة التي بذلها نازار ناجاريان (نازو) وفادي أفرام فقد اصطدمت بسياسة «غضّ الطرف» المتبعة من قبل إيلي حبيقة والتي كانت تؤمن التغطية والحماية لأعضاء أجهزته.

بعد أربعة أيام من زيارة إسحق رابين، جاء دور أرييل شارون للتوجّه إلى بيروت ومحاولة تعديل سياسة أمين الجميّل عن طريق التدخّل بواسطة أبيه. التقى وزير الدفاع السابق[1] بالرئيس الأعلى

(1) كان يصحبة أوري دان وأمنون من الموساد.

للكتائب في 4 آب/ أغسطس 1983 في دار الحزب في الصيفي. طالب شارون مجدداً باتصال مباشر مع أمين الجميّل، ضمن منظور التنسيق المتعلّق بانسحاب الجيش الإسرائيلي على أقلّ تقدير. وقد أكّد أنّه ليس من مصلحة إسرائيل أن تعمّ الفوضى الجبل بعد إعادة انتشار جيشها. وأنّ الفوضى تعني الخطر الكبير من وقوع مجزرة، على مثال صبرا وشاتيلا، وما كان الجنرال السابق ليريد بأن توضع بلاده في قفص الاتهام مرّةً أخرى. وإنّ الفوضى تعني أيضاً رجوع الفلسطينيين بقوّة إلى بيروت، وذلك يعني التبديد الكامل لبعض النتائج التي حققتها الحرب. إنّه لا يستطيع أن يتصوّر ذلك التنسيق إلّا مباشراً، ودون تدخّل أميركي، سواءٌ رافقه اتفاق بين المسيحيين والدروز أم لا. أمّا في الحالة المعاكسة، فهو من الذين يفضّلون الفوضى ليبرهن للولايات المتحدة على أنّها لا تستطيع فعل شيءٍ في لبنان ولا أن تأمل في شيء بدون إسرائيل. وكان فادي أفرام هو الذي أمّن الترجمة بين الرجلين.

وعاد الوزير، بلا حقيبة، ليؤكّد قائلاً:

– أنا مسرورٌ لأنّي هنا وأشعر أنّي في بيتي، ولقد قلت لكم أثناء اجتماعنا الأخير، أيام كنت لا أزال وزيراً للدفاع، أنّا سنغادر المنطقة على الأرجح دون انتظار حلّ. هنالك شيءٌ يسيء إلى مستقبل علاقتنا، فالاتفاقية لمّا تصدّق من قبل لبنان. نحن لا نقبل بذلك! وبوسع ماكفرلين أن يأتي إلى المنطقة مئة مرّة مثلما فعل فيليب حبيب وآخرون، لكنّ إسرائيل لن تقبل باتفاقيّة جرى التوقيع عليها قبل شهور ولم يصدّق عليها الرئيس. نحن لا يسعنا فهم ذلك! أنا لست هنا بوصفي ممثلاً للحكومة، على الرغم من أنّي تحدّثت بذلك مع رئيس الوزراء قبل قدومي هذا الصباح. كانت أمام لبنان فرصةٌ تاريخيّة لن تتكرر. إن كان يريد أن يكون مستقلاً ويريد الدفاع عن نفسه ضد اعتداء من قوةٍ أجنبيّة فينبغي حصول تغيير سريع في سياسته، وفي تصريحاته، وبين الأشخاص الذين هم في الحكومة. عند ذلك فقط سترى حكومتنا وبرلماننا ورأينا العام، أنّ شيئاً هامّاً قد حصل. فأين هي على سبيل المثال مطالبتكم بالانسحاب السوري؟ ولِمَ حكومتكم لا تطلب انسحاب اليونيفيل من جنوب لبنان؟ ولماذا هذه القوات لا تنتشر بيننا وبين السوريين بحيث لا يستطيعون الاقتراب بعد انسحابنا؟ ينبغي على حكومتكم أن تطلب مراقبين دوليين. أنتم تعرفون أنّي جئت اليوم صديقاً يحب شعبكم. لكنّي أخشى أن تضيّعوا الفرصة التي بين أيديكم.

فردّ عليه بيار الجميّل قائلاً:

– بوسع الإيمان أن يحرّك الجبال. فالإيمان اليهودي على سبيل المثال قد أنشأ إسرائيل. ونحن أجرينا اتصالاً معكم حين كان ذلك يعتبر خيانةً وجريمةً في لبنان. قلت لكم منذ البداية إنّنا لا نستطيع مساعدتكم عسكرياً وإنّ الخدمة الكبرى التي بوسعكم تقديمها لإسرائيل هي رغبتكم في أن يكون لكم أصدقاء لا عملاء. أنا أقول لكم بصراحة إنّي صديقكم لكن لست عميلاً لكم. بوصفي صديقاً يمكنني أن أقدّم لكم خدماتٍ أكبر.

– نحن قمنا بهذه الحرب لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، وأجهزتها وبنيتها التحتيّة. ولم نطلب العون من أحد. قمنا بهذه الحرب لتحقيق أهدافنا، لكنّ الفلسطينيين والسوريين كانوا على الدوام أعداء المسيحيين في لبنان. كانت لديكم أنتم المسيحيين، وخصوصاً أنتم الموارنة، فرصةً من ذهب! إنّها فرصة فريدة! والحال أنّها لا تزال متوافرة لديكم. لكنّكم تفقدونها على مهل بلعبتكم القائمة على إشاعة الاعتقاد بأنّ لبنان يعاني من مشكلات داخليّة وأنّه جزءٌ من العالم العربي. وما لم تقتنصوا هذه الفرصة بتخليكم عن صيغة 1943، التي لم تعد تقبل التطبيق في لبنان، فسوف تفوتكم هذه الفرصة. نحن سنظلّ في الجنوب وسنفعل ما يناسبنا لضمان أمننا. والسوريون سيظلّون في البقاع وفي شمال البلاد. أمّا أمين فلن يحكم سوى بعبدا!

في الخامس من آب/ أغسطس أنهى الإسرائيليون سحب مجموعاتهم اللوجستية من الشوف. أمّا الوحدات المقاتلة التي لا تزال في الجبل فليست بحاجة إلّا لبضع ساعات للقيام بالتحرّك دفعةً واحدةً نحو الجنوب. إنّ القرار السياسي قد اتّخذ من حيث المبدأ، وبقي بانتظار الضوء الأخضر من الحكومة لإصدار الأمر. وجاء العقيد سيمون قسّيس، رئيس المكتب الثاني في الجيش اللبناني، شخصياً لينقل إلى فادي أفرام وأنطوان بريدي وفؤاد أبو ناضر وإيلي حبيقة دعوةً لاجتماعٍ ينظّمه الرئيس لأجل «مناقشة حول الشوف». وقد قال الضابط لفادي أفرام، وهو يرتشف قهوته، إنّ الجنرال عامير دروري قد زاره لأجل «محاولة» تنسيق أعادة انتشار قوّاته والتي يقدّر قسّيس الآن أنّها «محتملة». فسأله قائد الميليشيا عن الوحدات التي سوف توضع في وجه السوريين. فأجابه الضابط قائلاً:

– القوّة متعددة الجنسيات.

فردّ فادي أفرام قائلاً:

– ولكنّها لن تصعد بدون اتفاق سياسي!

في مساء اليوم ذاته، توجّه مسؤولو القوات اللبنانية الأربعة إلى سراي بكفيّا القديمة التي تحوّلت إلى مقرٍ صيفيٍ للرئيس. كان أمين الجميّل في انتظارهم بصحبة قائد الجيش الجنرال ابرهيم طنّوس ورئيس المكتب الثاني سيمون قسّيس، والمستشار لشؤون الأمن القومي وديع حدّاد، وجوزيف سعادة الأمين العام لحزب الكتائب. شرح لهم أمين الجميّل باختصار قائلاً: إنّ هيئة الأركان العامّة للجيش أعدّت خطّةً لنشر وحداتها في الشوف واضعةً في الحسبان معارضة الدروز، أمّا الهدف فهو الحفاظ على الوجود المسيحي هناك. وسوف يتوجب على سمير جعجع الانسحاب من مواقعه في اليوم ذاته لوصول الجنود. كما ينبغي إزالة المظاهر المسلّحة للميليشيا. أمّا فيما بعد فسوف نضع سيناريو كي تتمكنوا من التمركز هنالك مجدداً.

فاحتج أنطوان بريدي بنبرةٍ جافّةٍ جداً:

– لست موافقاً على الإطلاق! لا على مسألة المظاهر المسلّحة، ولا على انسحاب سمير. ولِمَ يتوجّب عليه الرحيل؟ ينبغي أن يكون حاضراً في حال كنّا بحاجةٍ إليه . . .

فقال وديع حدّاد موارباً:

– الدروز يطلبون أن يسحب الجيش مدفعيّته المتمركزة في المتن.

فأعلن الجميّل متجاهلاً مداخلة البريدي:

– سوف تستهدف المدافع كافّة التي ستفتح النار. لقد سلّمنا الأميركيون راداراً خاصاً يسمح بالكشف عن مصادر النيران. فجرى تركيزه في الجمهور والأميركيون هم الذين يديرونه. وهم موافقون كذلك على تزويدنا بدبابات أقوى من الميركافا. أمّا بشأن انتشار الجيش في الجبل فهنالك احتمالان اثنان. إمّا أن يصعد الجيش إلى الشوف قبل انسحاب الإسرائيليين فيحتلّ مواقعهم حين يغادرونها، لكنّ السّاعات القليلة أو الأيام القليلة من التعايش قد تكون ذات نتائج وخيمة على معنويات جنودنا، وإمّا أن يحتلّ الجبل عنوةً فور الانسحاب الإسرائيلي.

ثمّ توجه إلى فؤاد أبو ناضر قائلاً:

أمّا في حال وقوع هجوم سوري ضدّكم في بحمدون، بعد انسحاب الإسرائيليين، فكم من الوقت تستطيعون الصمود لحين وصول الجيش؟

– لا أدري، فينبغي دراسة المعطيات بدقّة.

فسأل إيلي حبيقة:

– هل علينا أن نساعد الجيش في حال نشوب معارك؟

– كلاّ، لأنّكم ستنسفون كلّ شيء. إنّ اتفاقيةً مع سوريا تتعلّق بالانسحاب لا تزال ممكنةً دوماً. لكن ليس على الفور. إنّ الأميركيين يعملون معهم حول برنامجٍ زمني. وإذا ما فشل صعود الجيش إلى الشوف، فالمشروع كلّه سوف يُنسف. لهذا السبب علينا أن ننجح وعليكم مساعدتنا.

15

«علينا أن نصمد»

كانت الجرافة والبلدوزر بلونه الأخضر الغامق يرتسمان بوضوح على صفحة السماء عند أعلى التلّة التي تشرف على صيدا. كانا يحفران وسط الدويّ ويثيران زوبعةً من الغبار تعبث بها الريح، غير عابئين بالحرارة. وكان المشهد ذاته يتكرّر فوق النقطة الأعلى التالية. إنّها أقسام الهندسة التابعة للجيش الإسرائيلي المنهمكة بإنشاء سُبحةٍ من الاستحكامات العسكريّة الواقعة على مرتفعات من الأرض على شكل مربع، وحولها خنادق ذات هياكل معدنية، وأبراج مراقبة، ومعسكرات موقتة تمتد على طول 113 كم من خط الدفاع الجديد. وبدأت آليّاتٌ أعمال الحفر في خط من 40 كم من الطرق الجديدة. كان يلزم تجديد 50 كم من الدروب القديمة لتسهيل عمل الدوريّات الإسرائيلية. لقد جرى، في سبيل ذلك، رصد اعتماد بقيمة 30 مليون دولار من وزارة الدفاع. إنّ تاريخ الانسحاب الإسرائيلي من الشوف يقترب اقتراباً حتمياً.

فيما كان أرييل شارون يجري محادثات مع بيار الجميّل في بيت الكتائب المركزي في بيروت كان روبرت ماكفرلين، المبعوث الجديد لرونالد ريغان، ومساعده ريتشارد فيربانكس يستقرّان في دمشق. جرى استقبالهما على الفور من قبل عبد الحليم خدام ثمّ حافظ الأسد. وظلا على مدى 6 ساعات يعرضان فكرة حلف أمنٍ لبناني سوريّ على نمط اتفاقية 17 أيار/ مايو، من شأنه أن يؤدّي إلى رحيل القوات السوريّة. فاصطدما بـ «الجدار» ذاته من الرفض الذي واجهه جورج شولتز قبل ذلك بشهر.

– كلّا لانسحابٍ سوريّ ما دامت أكثريّة من اللبنانيين تطلب بقاءه وعلى كلّ حال فإنّ مثل ذلك الانسحاب يتطلّب إجماعاً من جميع اللبنانيين.

– كلّا لانسحابٍ سوريّ ما دامت تتواصل في البقاع حرب فلسطينية داخلية بين أنصار ياسر عرفات ومعارضيه، وأنّ هذه الحرب تهدّد بالانتشار إلى نقاط أخرى من الأرض اللبنانية.

– كلّا لانسحابٍ سوري يعزل حلفاء دمشق اللبنانيين بغياب اتفاق داخلي يحافظ على التوازن السياسي اللبناني .

– كلاّ لانسحابٍ سوري في حين أنّ الإسرائيليين يظلّون في أماكنهم.

– كلاّ لانسحابٍ سوري لا يكون مسبوقاً بعودة توازن على صعيد المنطقة والصعيد الدولي في آن معاً.

لا مجال، بالاختصار، لانتظار «بارقة أمل» من دمشق.

عاد أرييل شارون إلى بيروت في السادس من آب. والتقى هنالك بعدّة زعماء مسيحيين، منهم بيار الجميّل من جديد.

قال له:

– هذه الزيارة هي زيارة السّهم الأخير. جئت أحيطكم علماً بقرب انسحابنا من الشوف. لا أستطيع أن أقول لك التاريخ بالضبط، لكنّه سيتمّ قريباً جداً. كنت قد أحطكم علماً قبل ثمانية أشهر، لدى لقائنا في كانون الثاني 1983[1]، إنّكم ترتكبون خطأً جسيماً بتعليق آمالٍ كبرى على الولايات المتحدة.

فردّ عليه الرئيس الأعلى قائلاً:

– أنتم مثلنا حلفاء للأميركيين، ونحن وأنتم بحاجةٍ إليهم سواءً بسواء.

– ذلك صحيح! إلّا أنّ الفارق أنّنا لم نعتمد إلّا على أنفسنا في سبيل تحقيق ما كنّا بحاجةٍ إليه. فنحن نؤيّد التضامن والتعاون مع واشنطن، لكنّنا ضدّ الخضوع والتبعيّة الكليّة. لا زال الأميركيون يسعون وراء حلولٍ أميركيّة سواءً مع السوريين أمْ الروس أم السعوديين أم الفلسطينيين. أمّا الإمكانيّة الوحيدة لتقريب وجهات النّظر بين الحكومتين اللبنانيّة والإسرائيليّة فهي عقد حلف سلام بين البلدين. ينبغي عليكم أن تسلكوا درب القدس! وكفّوا عن إدارة ظهوركم لنا.

طلب الجنرال السابق إلى رئيس حزب الكتائب أن يدفع بابنه للتّنديد بطريقةٍ واضحةٍ جدّاً بالاحتلال السوري، ومطالبة حافظ الأسد بسحب جيشه من لبنان. وبعد ذلك يدعو لانتشار القوّة المتعددة الجنسيات بين الخطوط الإسرائيلية والسوريّة على نحوٍ يمكّن من احتوائها. ثمّ أضاف أرييل شارون قائلاً:

– يسعني أن أؤكّد لك أنّه لم يبقَ أمامكم سوى بضعة أيّام أو بضع ساعات لاقتناص هذه الفرصة الأخيرة.

في المساء ذاته أبلغ بيار الجميّل ابنه بأقوال الزائر. فثارت ثائرة الرئيس اللبناني. فليذهبوا!! فلينصرفوا!! سوف يحلّ الأميركيون والفرنسيون محلّهم في الشوف إلى حين أن نستطيع إرسال جيشنا. لكن يتراءى لي أنّهم لن ينسحبوا.

(1) انظر كتاب أسرار حرب لبنان الجزء الأول، م س.

قال موشيه ليفي القائد العام للجيش الإسرائيلي، بعد أن استقرّ على مقعده في مكتب فادي أفرام يحمل الدروز إعادة انتشارنا على محمل الجد أكثر من الآخرين بكثير[1]. إنّ لقبه موشيه فاخيتسي (موشيه ونصف بالعبريّة بسبب طوله المفرط) لا يتّخذ معناه قط بقدر ما تكون عليه الحال وهو إلي جانب فادي أفرام.

لقد جاء في السابع من آب/ أغسطس، بعد شارون بـ 24 ساعة، بصحبة قائد جهاز آمان، إيهود باراك، ومناحيم نافوت (مندي)، سعياً بدوره وراء إثارة اهتمام اللبنانيين بالانسحاب الإسرائيلي الوشيك. فعاد أفرام ليشرح له مجدّداً أنّ وراء الدروز يتراءى طيف دمشق التي تريد، وفقاً لمعلومات استخباراته، إنشاء ممرٍ بين وادي البقاع وبيروت الغربيّة عبر الجبل والشويفات لإنشاء تواصل مع الشيعة في ضاحية بيروت الجنوبية.

فردّ ليي قائلاً:

– ولكنّ الشيعة ليسوا في صفّهم.

فأكّد أفرام قائلاً:

– لا تثق بذلك كل الثقة! فهنالك إعادة توزيع للأدوار تجري في ما بينهم.

– وماذا يفعل أمين مع وليد؟

– وليد يرفض التحادث معه.

فقال إيهود باراك:

– على كلّ حال، سيكون الاتفاق مع الدروز مستحيلاً ما دام جنبلاط على الساحة. ولو نجحت محاولة اغتياله في المرة الأخيرة لربّما استطعتم التوصّل إلى تفاهم. أنا لا أظنّ أنّ ذلك ممكنٌ اليوم. فهل تستطيع أنت أو أمين، التحدّث مع مروان حمادة أو مع شيخ العقل؟

فقال قائد القوات اللبنانيّة:

– أعتقد أنّكم تحملون فكرة خاطئة عن الوضع. لقد اتّخذ وليد خياراً نهائيّاً نحو السوريين والآخرون جميعاً يتبعونه.

فاستأنف رئيس جهاز آمان قائلاً:

– إنّ العمل إذن، على الانسحاب السوريّ يمكن أن يضعفه. وإذا ما قال الرئيس للسوريين شكراً على حضوركم وطلب إليهم الانسحاب، فإنّ ذلك سوف يضعف وليد أيضاً.

فتدخّل مندي قائلاً:

---

(1) كان حاضراً مع فادي أفرام كل من إيلي حبيقة (رئيس جهاز الأمن)، فؤاد أبو ناضر (قائد أركان القوات اللبنانية)، ونازار ناجاريان (نازو، مسؤول القوات اللبنانية في الجنوب)، وإيلي وزّان (عباس، رئيس الاستخبارات العسكرية في القوات اللبنانية) ومسعود أشقر (بوسي، قائد القوات اللبنانية في ساحة بيروت).

– إنّ الدروز يتبعون الذي يمسك بالسلطة إمساكاً حقيقيّاً. وإذا ما اقتنعوا بأنّه أمين، فسوف يمضون معه، وإلاّ سيذهبون إلى السوريين.

فاستأنف موشيه ليفي يقول:

– إنّ هدفنا، كما هدفكم، أن ينتشر الجيش اللبناني، وإلاّ فإنّ الدروز أو السوريين أو الطرفين معاً، سيتولّون الإشراف على الجبل. ينبغي إذن العثور على وسيلة تجعل الجيش يدخل إلى الشوف بأقلّ ما يمكن من المعضلات. ونحن مستعدّون لمساعدته. وهو يستطيع استخدام استحكاماتنا للوقوف في وجه السوريين. وحين سيشعر حلفاء السوريين بأنّ هؤلاء ليسوا على ما يكفي من القوّة فسوف يصيرون أكثر مرونة. لكنّ عدم المصادقة على اتفاقيّة 17 أيار/ مايو تزيد دمشق قوّة. عليكم أن تبيّنوا لهم من يحكم هنا! بيروت أم دمشق! ولو كنتم مكان وليد جنبلاط فهل ستمشون وراء سلطةٍ ليست واثقةً من ذاتها؟

فقال باراك مقاطعاً:

– ينبغي في الأحوال كافّة تفادي الخيار العسكري.

فواصل موشيه ڤا خيتسي يقول:

– إنّ كل من يقوم باختيارٍ من غير أن يكون واثقاً به هو خاسر. ينبغي على الحكومة أن تؤكّد أنّها ستتولّى الإشراف على تلك المنطقة وأن تبدو واثقةً من ذاتها. عليها أن تقول هاكم ما سنقوم به من غير أن تكون مُلْزَمَة بطلب الإذن من كائنٍ من كان. عندئذ سوف تفهم حركة أمل ووليد أنّهما لن يظفرا بشيء ما لم يتفاهما مع السّلطة. ينبغي على حكومتكم أن تطلب منّا الانسحاب وأن تطلب الشيء ذاته منهم. وهكذا ستبدو قويّة.

فقال مندي بإلحاح:

– ونقول مرّةً أخرى إنّنا على استعداد لمساندة الجيش اللبناني ومساعدته على الانتشار في الشوف ليحلّ محلّنا. نحن مستعدّون لأشكال التنسيق الضروريّة كافة.

في اليوم التالي التقى مناحيم نافوت بيبار الجميّل في بيت الكتائب المركزي. قال له إنّ وجود الأميركيين والقوّة متعدّدة الجنسيات يعطي الرئيس وسائل التصرّف. فالرئيس لديه القدرة على تصديق اتّفاقيّة 17 أيار/ مايو والتقدم وهو يمارس ضغطاً على السوريين.

فردّ عليه الرئيس الأعلى قائلاً:

– إنّ أمين صديقٌ لكم، ثقوا بكلامي. فافهموه ولا تطلبوا منه أشياء لا يستطيع تنفيذها. وبوسعكم، أنت ودي (كيمحي) 1، فهم الأشياء على حقيقتها.

كان من شأن ذلك الرّفض لكلّ حوارٍ مع الإسرائيليين والخطر الذي قد يستجرّه أشدّ أشكال السخط لدى «المتشدّدين» من القوّات اللبنانيّة. وقد ضغطوا على فادي أفرام، وعلى رأسهم أنطوان

نجم، كي يُظهِر علناً مدى التباعد بينه وبين السلطة وحزب الكتائب. لكنّ أفرام رفض معتبراً أنّ تشابك الظروف لا يسمح بإثارة خلافٍ داخليّ.

كانت وجوه الرجال ملطّخة بخطوط تمويه سوداء، وقد شدّت على أجسامهم بزات عسكرية جديدة. إنهم عناصر كتيبة من اللواء الخامس في الجيش اللبناني وهم يهبطون من أحد زوارق الإنزال - وهو الزورق الوحيد الذي لا زال يعمل - فيما هبط آخرون من حوّامات بوما فرنسية الصنع وسط غيمة من الدخان. تمثّلت مهمّتهم في إقامة رأس جسرٍ بين مسبح مجمّع المنار البحري والشاطئ العام في المعاملتين. إنّ هذه المناورة الاستعراضيّة الكبرى والجديرة بالظهور في فيلم «القيامة الآن»، جرت بمشاركة الجيش الفرنسي في 9 آب/ أغسطس أمام جمهور جرى اختياره من الدبلوماسيين والملحقين العسكريين والصحفيين. وحيّت، في الخاتمة عاصفة من التصفيق: الجنود الذين زخّهم العرق وهم في وضعيّة الرامي وأسلحتهم موجّهة نحو عدوٍّ وهميّ. ثمّ جرت تهنئة الضباط بحرارة. وتلت تدريبات أخرى باستخدام نيران حقيقيّة في كسروان. لقد برهن الجيش على مرونةٍ وفاعليّة اكتُسِبتا حديثاً بفضل الإرشادات والتدريبات التي أغدقها عليه فريق صغير لا يتجاوز المئة من القبعات الأميركية الزرقاء بقيادة العقيد توماس فينتل. ويقوم هؤلاء منذ كانون الأول/ ديسمبر 1982 بعمليات التدريب ضمن إطار برنامج للتعليم العسكري. أمّا في المساء فإنّ نشرة الأخبار المتلفزة كانت مكرّسةً لهم تكريساً تامّاً تقريباً.

توجه روبرت ماكفرلين، بعد دمشق، إلى تل أبيب. أمّا وأنّ الانسحاب السوريّ مستحيل، فينبغي لانسحاب الإسرائيليين أن يجري على أفضل نحو ممكن. ولا مناص، في سبيل ذلك من قيام تفاهم بين أمين الجميّل ووليد جنبلاط. كانت تلك الفكرة واقعةً تماماً ضمن المنظورات الإسرائيليّة. وقام المبعوث الأميركي باتصال مع الرياض للحصول على عونٍ سعوديّ لإقناع جنبلاط كما حثّ الرئيس اللبناني على فتح حوار شخصياتٍ درزيّة. طلب أمين الجميّل إلى ثلاثة وزراء أن يتوجّهوا إلى بعذران، وهي قرية صغيرة في الشوف لمقابلة شيخ العقل محمّد أبو شقرا. فجرى في العاشر من آب/ أغسطس، وهو اليوم التالي للمناورة بين المسبح والشاطئ، لقاءٌ طويل بين عدنان مروّة وبيار الخوري وعادل حميّة ورجل الدين. ولم يكن وارداً ضمن برنامجهم التوقف عند وليد جنبلاط كما تفرض تقاليد الجبل، لكنّ قوّةً اعترضت سبيلهم، وهم في طريق العودة، واقتادتهم بقوّة السلاح إلى قصر الزعيم الدرزي في المختارة. وصدر بيانٌ توضيحي عن الحزب التقدمي الاشتراكي جاء فيه إنّ المواطنين، الذين ساءهم موقف الحكومة، قد ردّوا ردّاً عفوياً بالقبض على ثلاثة وزراء جرى توجيه اللّوم إليهم لأنّهم تجاهلوا الأطراف المعنيّة حقيقةً وأنّهم قاموا باتصال غير مباشر عن طريق شيخ العقل.

وبموازاة ذلك، قصف الدروز وهاجموا عدّة ثكنات للجيش اللبناني من بينها ثكنة كفرمتّى

حيث أسروا 55 جندياً. كما قتل 12 شخصاً وجرح 38 آخرون نتيجة قصف المدفعيّة. لقد خسر العسكريون اللبنانيون خمسة مواقع كانوا يحتلّونها منذ شهر تشرين الأول/ أكتوبر في منطقة عاليه. وجرى إغلاق مطار بيروت للمرّة الثانية في فترة 19 يوماً. وفي اليوم التالي تمّ الإفراج عن الوزراء الثلاثة، على أثر صدور أمرٍ من جنبلاط عن طريق الهاتف من دمشق. كان الجنرال أمنون ليبكنز ينتظرهم لدى خروجهم من عشّ النسر عند الزعيم الدرزي، ليأخذ معهم صورة تذكاريّة وسط حشدٍ من الصحفيين وكاميرات التلفزيون، فرفضوا ذلك كما رفضوا استخدام الحوّامة الإسرائيلية التي عرضها الضابط عليهم للوصول إلى بيروت. وسلكوا طريق العاصمة تصحبهم دوريّة من الدرك تابعة لقوى الأمن الداخلي.

قبل أن يصل الوزراء الثلاثة إلى العاصمة، انفجرت قرابة عشرين قذيفة ضمن المحيط الأميركي، وبعضها على أقل من 500 متر من مقر القيادة العامّة للبحرية التي يزورها روبرت ماكفرلين. فابتعدت البوارج الأميركية التّابعة للأسطول السادس من فورها عن الشاطئ. وصدر بيان آخر عن الحزب التقدمي الاشتراكي يقول: إنّ عمليات القصف هذه هي ضغطٌ لتحقيق استقالة الحكومة، واستقالة مدير الأمن العام زاهي بستاني وإلغاء التعيينات الكتائبية كافّة داخل الإدارة. وأضاف البيان قائلاً أيضاً إنّ المطار لن يقصف من بعد بشرط أن تقتصر نشاطاته على الحركة المدنيّة.

إنّ استعراض قوّة الجيش اللبناني وقدرته على الشاطئ المسيحي قد جرى كنسه، أمّا الحوار بين السلطة والدروز فبدأ بدايةً سيّئة.

كانت الملاحظات والتقديرات التي تأتي بها الاستخبارات العسكرية للقوات اللبنانية بقيادة إيلي وزّان (عبّاس)، تكشف يومياً عن نموٍّ مضطرد، بالأسلحة والعتاد والرجال، تحققه «القوّة الاشتراكية» التّابعة لوليد جنبلاط في وادي البقاع. أمّا المقذوفات فتضع من جانبها مدينة زحلة المسيحيّة هدفاً محتملاً للدروز وحلفائهم الموالين لسوريا في حال سعى الجيش اللبناني للانتشار عنوةً في الشوف. وجرى، في 12 آب/ أغسطس 1983، تعيين المقدّم غازي كنعان، والذي يمت بصلة قرابة إلى الرئيس حافظ الأسد من ناحية الأم، مسؤولاً عن الاستخبارات السوريّة في لبنان[1]. رأت القوات اللبنانية في ذلك تأكيداً إضافياً لعزم دمشق على «ضبط» المقاومة اللبنانية و«العمل» على إسقاط نظام أمين الجميّل. أمّا الأنباء المتعلّقة بحملة «عصيان» مدني أطلقتها حركة أمل في ضاحية بيروت الجنوبية فتواردت أكثر فأكثر.

كانت الرياض تقبل من ناحيتها مهمّة المصالحة التي يتمناها الأميركيون لا سيّما وأنّ الأمر لا

---

(1) بشار الأسد الذي أصبح رئيساً بعد موت أبيه، وضع حدّاً لتلك المهمّة في أيلول/ سبتمبر 2004. وبعد تسميته وزيراً للداخليّة، انتحر اللواء غازي كنعان في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2005، على هامش التحقيق الذي تقوم به الأمم المتحدة حول اغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء اللبناني الأسبق.

يتعلّق هذه المرّة بممارسة ضغط على دمشق. واستقبل الملك فهد بسرعة وديع حدّاد، مستشار أمين الجميّل. ووجّه بعدئذ دعوةً إلى وليد جنبلاط للقدوم والتحادث معه. توجّه الزعيم الدرزي إلى الرياض برفقة مروان حمادة في 15 آب 1983 ليسمع توصيةً بالشروع في «محادثات» مع الرئيس اللبناني. وعبثاً حاول عرض المخاطر التي تمثّلها سياسة أمين الجميّل، فالملك ألحّ، مبتسماً، إلى الحدّ الذي منع زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي من الرفض دون إثارة استياء محدّثه.

وجرى تكليف الملياردير اللبناني السعودي رفيق الحريري من قبل العاهل الوهّابي «بمرافقة» ذلك الحوار. وصل الحريري إلى بيروت في طائرته البوينغ الخاصّة. فكانت من ناحيةٍ أخرى أول طائرةٍ تحط في المطار منذ عشرة أيّام. وبعدها بدقائق حطّت طائرةٌ أخرى قادمة من عمّان وعلى متنها علي غندور مبعوث الملك الأردني. ولقد قابلا رئيس الوزراء شفيق الوزّان، وأمين الجميّل ثمّ صائب سلام لإحاطتهم علماً باستعدادات جنبلاط للحوار. لقد «تمنّى» الزعيم الدرزي أن تتوسّع المناقشات مع السلطة لتشمل زعماء سياسيين آخرين من المعارضة اللبنانية. لكنّ رفيق الحريري أفهمه أنّ المسألة ليست موضع بحثٍ الآن، لكنّها قد تكون كذلك في وقتٍ لاحق. أمّا وأنّ الطرفين مستعدّان للحوار، فقد بقيت مسألة العثور على مكان اللقاء.

عرض السفير الأميركي في دمشق على وليد جنبلاط تأمين سلامته بنقله إلى قصر بعبدا في عربة مصفّحة أميركية. لكنّ رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي رفض. فعرض الدبلوماسي إحدى وحدات الأسطول الأميركي في بحر بيروت مكاناً للاجتماع. فرفض جنبلاط العرض واقترح بارجةً فرنسيّةً. لكنّ الأميركيين والحكومة اللبنانية رفضوا تلك الفكرة. جرى بعدئذ اقتراح الرياض وجدّة. إلى أن صار الاتفاق على باريس، وحُدّد يوم 26 آب/أغسطس 1983 تاريخاً.

أوضح موشيه ليڤي، في مقابلةٍ أُذيعت صباح 16 آب/ أغسطس، بعد قيامه بجولة تفتيشيّة على وحداته العسكريّة في الشوف: لا يسع إسرائيل أن تكون مسؤولة عن كلّ أعمال عنفٍ بين الدروز والمسيحيين قد تنشب بعد انسحابها. ناهيك بأنّه من غير المنطقي اعتبارنا مسؤولين عن منطقةٍ نحن على وشك مغادرتها. ويمكننا نشر قواتنا على الفور على نهر الأوّلي، فكلّ شيءٍ جاهزٌ تقنيّاً. ولا يسعنا أن ندرك كيف يمكن القول، في الجانب اللبناني، إنّ إعادة الانتشار هذه ليست في مصلحة لبنان في حين أنّها سوف تسمح للحكومة باستعادة سلطتها على أرضها حيث توقّفت عن ذلك منذ سنوات عديدة. لكن كان على حكومة بيروت أن تبتهج لهذه الإمكانيّة التي قُدّمت لها.

وضمن ذلك الوضع النفسيّ غادر وزير الدفاع الإسرائيلي[1] تل أبيب على متن حوّامة بعد ذلك ببضع ساعات متوجّهاً إلى بيروت.

---

(1) كان يرافقه كل من أوري لوبراني ومناحيم ناڤوت (مندي) وميكي أرمور (ماريون) والجنرالان داني ياتوم وناحام شاي من هيئة أركان الجيش.

جرى إعداد زيارة موشيه أرينز بدقّة متناهية من قبل فادي أفرام وفريقه. فهي المرّة الأولى التي يأتي فيها أرينز، بوصفه وزيراً للدفاع لرؤية القوات اللبنانية وذلك على بضعة أيّام من الانسحاب الإسرائيلي. لقد سعت القوات اللبنانية وراء تحسين علاقاتها مع الإسرائيليين قبل انسحابهم كي يقبلوا بالتخلّي لها عن بعض المواقع الاستراتيجية في حال عجز الجيش اللبناني عن الانتشار. لكنّها كانت تريد فوق كلّ شيء وعلى نحوٍ ملزم الاستفادة من المناسبة لإظهار تمايزها عن أمين الجميّل، وبهدف تحسين علاقاتها مع الدولة العبريّة والسّعي وراء الحدّ من النتائج الكارثيّة الناجمة عن انسحابها. لقد فعلت «القوات» ما وسعها لتعطي لتلك الرحلة طابعاً رسميّاً قدر الإمكان بهدف التأثير على موشيه أرينز.

حطّت حوّامته في حدود التاسعة والنصف صباحاً على بضع مئاتٍ من الأمتار عن مقرّ رئاسة الجمهوريّة اللبنانية. اصطحِب أرينز إلى مقر القيادة الإسرائيلية القريب جدّاً ليعقد فيه مؤتمراً صحفيّاً. دخل في الوقت ذاته، ومن غير أن يكون قد تمّ أيّ تنسيق، وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس الأرض اللبنانيّة عبر الطريق البريّة للقيام بجولةٍ تفتيشيّة على وحداته العاملة في البقاع والمتن الشمالي. إنّه اختصارٌ رمزيٌّ للوضع من شأن المصادفة وحدها أن تأتي بها أحياناً.

كان الوزير يلبس قميصاً قصير الكمّين، وهو يتوجّه من وراء علم صغير أبيض وأزرق يحمل نجمة داود، إلى جمهورٍ من الصحفيين المتيقّظين. وقد قال بصوتٍ حازم: لا تريد إسرائيل تقسيم لبنان لكنّها تتمنى وجود حكومة مركزيّة قويّة وانسحاب القوات الأجنبيّة كافّة من لبنان بما فيها الجيوش السوريّة والفلسطينية. إنّ الجيش الإسرائيلي يتمنّى أن يتمّ انسحابه بالتّنسيق مع الجيش اللبناني. وتشاطر الحكومة الإسرائيلية الطائفة الدرزيّة في إسرائيل قلقها، فهي المعنيّة بشكلٍ خاص بحُسْن حال الدروز في لبنان. ولسوف تفعل إسرائيل ما وسعها للوصول إلى تفاهم بشأن الشوف. ثمّ أوضح بعدئذ أنّ الانسحاب سيتمّ حتّى نهر الأوّلي، ضمن مهلةٍ لا تتجاوز 15 أيلول/ سبتمبر القادم.

عند نهاية المؤتمر تكدّس موشيه أرينز ومناحيم نافوت وأوري لوبراني - فليس من تعبيرٍ آخر ملائم بالنّظر إلى محيط خصر لوبراني آنذاك - في القسم الخلفيّ من المرسيدس الرماديّة المصفّحة التي جلس وراء مقودها فادي أفرام في حين جلس إلى جواره حارس شخصيّ إسرائيلي، محصوراً في لباسه الرسميّ الضيّق الذي يرتديه دون ربطة عنق. ووصلت المرسيدس إلى المقرّ العام لـ«القوات» في الكرنتينا، تسبقها وتتبعها سيارات حماية. استعرض الوزير الإسرائيلي حرس شرفٍ قدّم له السلاح، وأدّى التحيّة للعلمين الاثنين كما أصغى للنشيدين الوطنيين. وتوجّه بعدئذ نحو قاعة الاجتماع في المبنى القديم حيث ينتظره مجلس قيادة الميليشيا[1]. وكان هنالك إيلي كرامة

---

(1) فادي أفرام، إيلي أسود (حزب الوطنين الأحرار)، ونديم شويري (من حراس الأرز)، وسمير طويلة (التنظيم)، وجورج عدوان (التنظيم)، نبيل كرم (الوطنيين الأحرار)، فؤاد روكز (الكتائب)، وبطرس خاوند (كتائب)، أنطوان بريدي (القوات اللبنانية)، وليد فارس (القوات اللبنانية).

الوزير ونائب رئيس الكتائب وجوزيف سعادة الأمين العام لحزب الكتائب ممثّلاً أمين الجميّل.

حيّا موشيه أرينز مستقبليه فرداً فرداً. وذكّر بأنّه، قبل ذلك بعام، ويوماً بيوم، جاء وهو لا يزال سفيراً لإسرائيل في الولايات المتحدة، إلى تلك القاعة ذاتها للتحادث مع بشير الجميّل. قرأ فادي أفرام بياناً افتتاحياً ذكّر فيه بأنّ القوات اللبنانية قد قبلت بالسير مع الاستراتيجية السياسية (للرئيس الجميّل) بقصد الحفاظ على الوحدة المسيحيّة، على الرغم من أنّ هذه الوحدة ليست واقعيّة على المدى القصير ولا على المدى الطويل. (إنّ سياسة الرئيس) لا تصبّ في مصلحة المسيحيين، الذين يناط بقاؤهم في المنطقة [. . .] بقوّة عسكريةٍ خاصّة وبتحالفٍ وثيق مع إسرائيل [. . .] وبودّنا أن تقبل دولة إسرائيل لبعض الوقت، بثنائيةٍ تقوم على دعمها للطائفة المسيحيّة عبر القوات اللبنانية، وعلاقتها مع الدولة اللبنانية [. . .]. إنّ تطور الوضع يقودنا نحو الاعتقاد بأنّ القوات اللبنانية سوف تواجه عمّا قريب تهديداً عسكرياً سوريّاً. وبودّنا مناشدة الحكومة الإسرائيلية أن تمنحنا مجدّداً الدّعم الكامل، العسكري والسياسي، كما في السابق. وعلى وجه الخصوص في ما يتعلّق بحاجاتنا الملحّة للأسلحة والذخائر.

فردّ عليه أرينز قائلاً:

– من الملائم بالنسبة إليكم ومن أجل لبنان أن تتوصلوا إلى اتفاق مع الطائفة الدرزية. إنّ الدروز خائفون على حياتهم. لقد توجّهت في الأسبوع الفائت، إلى قريةٍ درزية، بالقرب من حدودنا مع لبنان، لتقديم التعازي بضابطٍ درزي مات في المعركة. إنّها قريةٌ تعدادها 3000 مواطن منهم 300 في الجيش! وقد عرّفوني على خمسة عشر أباً لجنودٍ دروز إسرائيليين ماتوا في المعارك في هذه الحرب. نحن نستطيع الانسحاب من الشوف من غير تنسيقٍ مع الجيش اللبناني لكنّ ذلك سيمثّل انتحاراً بالنسبة إليكم. إنّ التنسيق لا يزال ممكناً. لكن اعلموا أنّ الأميركيين إذا ما درّبوا الجنود اللبنانيين وسلّحوهم فليس لديهم أيّة نيّةٍ بالتدخل المباشر. وإذا ما رغب جيشكم في التنسيق معنا، فبوسعنا أن نقدّم له عوناً أكثر أهميّة.

فتدخّل جورج عدوان ممثّل التنظيم:

– ينبغي أن تعرفوا مرّةً واحدة وإلى الأبد أنّ القوات اللبنانية ليست في السلطة. وأنّها لو كانت فيها لتصرّفت على نحوٍ مغاير. وبدلاً من قيامكم في الفترة الأخيرة بتقوية اللبنانيين الذين يفكّرون مثلكم، قمتم بإضعافهم. ينبغي أن يكون المسيحيون هم الأقوى من أجل السير بالعلاقات بين بلدينا نحو التحالف. وحتّى اتفاقيّة 17 أيار/مايو، التي قمتم بتوقيعها، لن تبلغ بكم ذلك الهدف لأنّ المسلم، إذا ما شعر بأنّه الأقوى، فلن يسمح بتنفيذ الاتفاقيّة. إنّ المخرج الوحيد الممكن هو أن تقوموا بدعمنا، نحن باعتبارنا حلفاءكم، وأن تغيّروا سياستكم. إنّ عدد المسيحيين الذين قُتلوا منذ دخولكم إلى لبنان أكبر من عدد الذين قتلوا قبل قدومكم. ومنذ دخولكم إلى الشوف هُجِرّت عشرون قرية مسيحيّة! في حين لم تهجر قرية درزية واحدة.

فردّ عليه الوزير الإسرائيلي:

- إنّ ذلك ليفاجئني. صحيحٌ أنّ هنالك أحياناً تناقضات بين التكتيك والاستراتيجية. أنا متّفق معكم حين تؤكّدون استطاعتكم بلوغ أهدافكم بيسرٍ أكبر لو كنتم أقوياء. ومن الطبيعي أن يسير الدروز مع الأقوى لا مع الأضعف. لكن كيف يتجسّد ذلك كلّه من الناحية العمليّة؟

فسأل ممثّل الوطنيين الأحرار نبيل كرم قائلاً:

- هل تظنّون أنّنا لو أعطينا الدروز شعوراً بالأمن سوف يتخلّون عن وليد جنبلاط وعن سوريا؟ لقد قابلتموهم أنتم، فماذا يريدون على وجه الدّقّة؟

فتدخّل أوري لوبراني قائلاً:

- إنّهم يريدون بصفتهم الفرديّة العيش بسلام والعودة لأعمالهم. وهم يقولون إنّ لدى المسيحيين القدرة على اللجوء إلى بيروت، أمّا هم فلا يسعهم الذهاب إلى أيّ مكان. إنّهم يسعون وراء أمنهم لا وراء جنبلاط على وجه الخصوص. فينبغي التفاوض معهم. ويمكن القيام بذلك بقسوة أو بمرونة، لكن لا بد من قيام مفاوضات. ويريد السيّد عدوان أن نوجّه لهم ضربةً عنيفة، وأن نقول لهم أفعلوا هذا أو افعلوا ذاك. من الممكن القيام بذلك مع السوريين لكن ليس مع الدروز.

وسأل موشيه أرينز:

- ولمَ لا تقوم حكومتكم بالتفاوض مع الدروز؟

أجابه فادي أفرام:

- هنالك مفاوضات مع الدروز. لكنّهم يطرحون شروطاً من المستحيل تلبيتها في الوقت الراهن، لأنّ ذلك سيستجرّ محادثاتٍ من النّوع ذاته مع السنّة ومع الشيعة.

فذكّره جورج عدوان قائلاً:

- لا تنسوا أنّهم يرفضون اتفاقيّة 17 أيار/ مايو التي قمتم بتوقيعها.

فردّ عليه الوزير قائلاً:

- قلت إنّهم يشعرون بأنّهم مهددون بحياتهم. وقد لا يكون هنالك ما يستدعي ذلك لكنّهم خائفون!

أمّا لوبراني فأكّد قائلاً:

- نحن لدينا أهداف استراتيجية مشتركة. لكنّ المشكلات تنشأ دوماً في التطبيق حين يتعلّق الأمر بالدروز أو الشيعة.

فردّ عليه عدوان بلهجةٍ قاطعة:

- كلّا! على الإطلاق. نحن لسنا على اتفاق مع السياسة التي تتّبعونها.

وأيّاً تكن صراحة النقاش، فقد تركت كلّاً من الإسرائيليين والقوات اللبنانية في مواقعهم. بل

إنّ الخلاف كان عميقاً جداً حول المسألة الدرزية بين الوزير وبعض أعضاء مجلس القيادة الذين كانت لهم مواقف قاطعة بذلك الشأن. التقى أرينز بعدئذ ولمدّة نصف ساعة بوفدٍ من حزب الكتائب بقيادة نائب رئيسه إيلي كرامة. كان الوزير يعرف مدى الصِلات ما بين محدّثه وأمين الجميّل، وعليه فقد استخدم أسلوباً مباشراً يؤكّد الأميركيون أنّ السياسة الراهنة للرئيس سياسةٌ انتحاريّة، وأنّ على الحكومة اللبنانية أن تنسّق من جهة مع الجيش الإسرائيلي الانسحاب من الشوف، وأن تتوصّل من جهةٍ أخرى إلى تفاهمٍ مع الدروز، وإلاّ فهي نهاية نظام الرئيس الجميّل، فوعد إيلي كرامة بنقل الرسالة.

بعدئذ تناول الوفد الإسرائيلي وأعضاء مجلس القيادة طعام الغداء في مطعم «بْرِياة» في الأشرفيّة.

لدى عودة وزير الدفاع إلى مركز قيادة القوات اللبنانية التقى، في حدود الثالثة والنصف بعد الظهر، ممثّلي الروابط والجمعيّات المسيحية[1]. وبذل موشيه أرينز قصارى جهده، طوال ساعة ونصف لإقناع محاوريه بالانسحاب الإسرائيلي الوشيك والضرورة الإلزاميّة لقيام تنسيقٍ بين الجنود الإسرائيليين واللبنانيين. وسأله ديمتري بيطار:

– لِمَ لا تسلّموننا هذه المناطق؟ ولِمَ تسلّمونها إلى جنبلاط؟ لو كان عليّ أنا، أن أغادر منطقةً، فسوف أعطيها لصديق لا إلى عدو. وإذا كانت السلطة لا تستطيع أخذها على عاتقها فلنتولّ مسؤوليتها نحن بأنفسنا.

فأكّد له الوزير قائلاً:

– الدروز في عاليه والشوف أقوياء ولديهم أسلحة. إنّهم على استعداد للقتال من أجل حياتهم. أمّا الوسيلة الوحيدة لحلّ هذه المشكلة فهي قيام تحالفٍ بين الدروز والحكومة المركزيّة.

فتدخّل وليد الخازن قائلاً:

– اسمحوا لي بأن أقول لكم ما نشعر به. كنّا في البداية وبفضل دعمكم على وشك أن نهب الحريّة والعزّة للشعب اللبناني وللشعب المسيحي خصوصاً. أمّا اليوم فنحن نلاحظ أنّ صلتنا الأرضيّة بإسرائيل، التي تمرّ عبر الشوف وعاليه، مهدّدةٌ بالسقوط في أيدي السوريين والفلسطينيين. ونحن لا نفهم كيف أنّ المسيحيين في الشوف يُطردون من بيوتهم في ظلّ الوجود الإسرائيلي. إنّكم تضعوننا في موقفٍ صعب. ذلك أنّنا لا نستطيع تفسير الأمر لشعبنا. فكيف يستطيع جنبلاط، وهو في دمشق، أن يأمر بقصف مطار بيروت انطلاقاً من مناطق تقع تحت مراقبتكم من غير أن تتحرّكوا؟ وقد بدأ المسيحيون يتساءلون ما إذا كان هنالك اتفاقٌ بين سوريا وإسرائيل.

---

(1) شاكر أبو سليمان، حبيب أفرام، وليد الخازن جورج جبر، غُرَيِّب، ديمتري بيطار فيليب الخازن، جورج عدوان وجوي ثابت.

فردّ أرينز مذكّراً:

– وليد جنبلاط هو الوحيد عملياً الذي يتولّى الإشراف على الساحة سواءً أكان في دمشق أو عمّان. ولقد حاولنا معكم أن نعثر على بديلٍ له، لكن بلا طائل. فيتوجّب عليكم الآن التفاوض معه. ولا بدّ من وجود اتصالٍ بين الحكومة والدروز.

ثمّ أشار وزير الدفاع إلى خيبة الأمل الإسرائيليّة لدى التثبّت من أنّ أمين الجميّل لا يريد التصديق على اتفاقيّة 17 أيار/مايو. وطلب من محاوريه مضاعفة اتصالاتهم بالدولة العبريّة وأدان سياسة «قلّة الاعتبار» التي يسلكها الرئيس اللبناني حيال إسرائيل بهدف الوصول إلى حدٍّ أدنى من التفاهم الداخليّ وإلى الانسحاب السوري. وقد أكّد لهم قائلاً:

– إنّه لخطأٌ فادح. فالسوريون لن ينسحبوا عن طيب خاطر. إنّهم لن ينسحبوا ما لم تبرهنوا لهم على أنّ وجودهم غير شرعيّ.

توجّه موشيه أرينز بعد ذلك إلى بيت كميل شمعون في الأشرفية. فشرح له خطورة الوضع ثمّ طلب منه تنظيم لقاء مع الرئيس. فاتصل كميل شمعون من فوره هاتفيّاً بأمين الجميّل الذي رفض رفضاً قاطعاً. وعندها صعد الوزير الإسرائيلي إلى بكفيّا ليلتمس تدخّل پيار الجميّل.

قال له:

– زيارتنا اليوم هي محاولتنا الأخيرة. فالأيّام المتبقية لتفادي الكارثة أضحت معدودة. أنا أُلفِتُ انتباهكم إلى واقع أنّنا لا نطلب من الحكومة اللبنانية شيئاً لا تستطيع القيام به. إنّه لأمرٌ ضروريٌّ وهام أن يتمّ تنسيق انسحابنا مع لبنان. وما لم يحصل ذلك فالتبعات ستكون كارثيّة، ليس في الوقت الراهن أيّ اتصالٍ بين حكومتينا. إنْ على الصعيد السياسي، أو على الصعيد العسكري. فالمحادثات بين طنّوس وليبي لم تكن مجدية ولا ذات دلالة.

– قل لي على وجه التحديد ماذا تريدون؟

– نريد اتصالاً مباشراً على المستوى العسكري بين ضباطنا المسؤولين عن القطاعات التي سيجري إخلاؤها وبين الضباط اللبنانيين الذين سيحلّون محلّهم.

فهتف الرئيس الأعلى قائلاً:

– ولكنكم على علاقة بقائد الجيش وبالمكتب الثاني! ولو غيّرنا هذه السياسة لانتهى كلّ شيء! إنّ رئيس الوزراء شفيق الوزّان ينوء تحت عبء المعاناة. ولو استقال لحلّت الكارثة. إنّه منهكٌ بفعل الضغط السوريّ. ولقد استطعنا الحفاظ على المسلمين إلى جانبنا بفضل السياسة التي نعتمد.

فاستأنف أرينز القول، وهو يتجمّل بالصّبر:

– أشعر بأنّي لم أعبّر على النحو الأفضل. أكرر إنّي متّفقٌ معك حول ما قلت. والمسألة باختصار أنّنا لا نريد وقوع كارثة بعد انسحابنا. لقد جرت اجتماعات غير مثمرة مع طنّوس فلم يجرِ

أيّ تنسيق عمليّ. إنّ ذلك هو جلُّ ما نريد. وينبغي بالتوازي القيام بكلّ شيء للتوصّل إلى اتّفاق بينكم وبين الدروز. فليس لدينا الاتصالات لنتمكّن من القيام بذلك. وقد طلب ماكفرلين إلى الرئيس إجراء اتصالاتٍ معنا.

فأضاف مندي:

– أعتقد أنّ اتصالاً مباشراً بين الرئيس والوزير أرينز هو الحلّ الوحيد.

فهزّ بيار الجميّل رأسه علامةً على الرّفض وقال:

– إذا ما استقال الوزّان فسوف تحِلّ الكارثة.

فردّ مندي بإلحاح:

– سيكون هنالك رئيس وزراء آخر. وإنّ كلّ خيارٍ مغاير سيكون خطراً جدّاً.

فردّ والد الرئيس مؤكّداً بقوّة:

– الشيخ أمين مُلزَمٌ باتّباع السياسة التي يسلكها. ولقد سمحَتْ لنا بتوقيع اتّفاقٍ معكم. أمّا بشأن التصديق على تلك الاتفاقية، فينبغي أن تكونوا صبورين بعض الشيء.

فسأله أرينز، الذي بدا الآن وقد نَفِدَ صبره:

– ولكن ما أثر ذلك على قيام الجيش اللبناني باسترداد مواقع الجيش الإسرائيلي وأن يقوم تنسيقٌ في ذلك السبيل؟ نحن لدينا الوسائل لتقريب الدروز إلى الحكومة، لكن يلزمنا اتصالٌ مع الحكومة للبحث في ذلك.

فتدخّل فادي أفرام قائلاً:

– لقد عُقِدَت اجتماعات، لكنّها ليست اجتماعات عمل. ينبغي الجلوس إلى مائدة واحدة والقيام على سبيل المثال بتقرير الدرب الذي سيسلكه الإسرائيليون بالانسحاب، ومن أيّ دربٍ سيصل الجيش اللبناني.

وعقّب بيار الجميّل قائلاً:

– أعتقد أنّكم تريدون أنّ نتجاوز أحد الخطوط الحمر لنظهر إلى جانبكم. لكنّ المسلِم اللبناني هو الذي يحسب حسابه في نظرنا.

وعاد رئيس الميليشيا ليقول بإلحاح:

– إذا ما انسحب الجيش الإسرائيلي من غير قيام الجيش اللبناني بالانتشار، فسوف يكون على القوات اللبنانية أن تتصدّى وحيدةً للسوريين. ولسوف يقع العديد من الضحايا.

فقاطعه الرئيس الأعلى للكتائب، قائلاً بعناد:

– علينا أن نعمل معاً لتفادي ذلك.

استأذن أرينز بالانصراف وغادر القاعة بجفاء. أمّا فادي أفرام الذي كان آخر من صافح بيار الجميّل، فقد استولى عليه الذهول وهو يسمعه قائلاً له:

– أعتقد أنّ أرينز قد فهمنا. وهذا أفضل اجتماعٍ عقدته مع الإسرائيليين على الإطلاق.

وفيما كان أفرام يستقرّ في مكانه وراء مقود المرسيدس المصفّحة، كان أرينز ولوبراني الجالسان مع مندي على المقعد الخلفي، يقولان:

– إنّه لأمرٌ مأساوي، ونحن ماضون نحو الكارثة.

شعر القائد العام للقوات اللبنانية كأنّ أحدهم دلق عليه سطل ماء بارد. فهو يعي خطورة الوضع، وظنّ، بإعطائه طابعاً رسمياً لزيارة وزير الدفاع، أنّه يستطيع التأثير على القرار الإسرائيلي واجتذابه إلى التفريق بين «القوات»، وبين السلطة وأمين الجميّل، الذي لم تعد له ثقةٌ فيه. لكنّ المناقشات التي جرت قبل ظهر ذلك اليوم، برهنت له على أنّ آماله باطلة. فكان ينبغي للّقاء مع الرئيس الأعلى، والذي جرى «ترتيبه» بطلبٍ من الإسرائيليين، إقناع بيار الجميّل بإيصال رسالةٍ لابنه. فلا «القوات» الغائصة حتى أعناقها في ولائها لبيار الجميّل، ولا الإسرائيليون المغشّى على أبصارهم بسبب أهدافهم، قد وضعوا في اعتبارهم أنّ بيار الجميّل لم يعد له من الزعامة أيّ دور حقيقي من بعد موت بشير. فقد اعتكف منطوياً على نفسه في ما يشبه التقاعد، ميمّماً وجهه شطر الماضي. ولئن ظلّ محافظاً، في نظر الجميع، على هالة الزعيم، فإنّ الرئيس الحقيقي هو أمين. وقد اعترف فادي أفرام بعد ذلك بأعوام عديدة قائلاً[1]:

– كان على «القوات»، من بعد ذلك الاجتماع، أن تنسحب من الشوف انسحاباً فورياً ومن جانب واحد لتتجنّب حمام دم في الجبل.

في اليوم التالي، أثارت زيارة وزير الدفاع الإسرائيلي لبيروت عاصفة غضب واستنكار لدى المسلمين، لا سيّما السنّة. فاعتكف رئيس الوزراء شفيق الوزّان في بيته، رافضاً استقبال كائن من كان. أمّا صائب سلام فأكّد لصحفي في يومية «الوريان لوجور» قائلاً: شعرت بصدمة عميقة بسبب زيارة الوزير الإسرائيلي التي تشكّل مأساة بحد ذاتها، لا سيّما وأنّه حظي باستقبال أكثر من حار وقام باستعراض «حرس شرف» غير شرعي في وسط منطقة تخضع للشرعية الدستورية. وإنّ ذلك لتصرّفٌ وقح لا سابقة له. أمّا أمين الجميّل، الذي حافظ على هدوء عجيب جداً طوال يوم 16 آب/أغسطس، لدى زيارة أرينز، فظلّ في اليوم التالي ساخطاً على أبيه وعلى كميل شمعون، وعلى الشخصيات المسيحية، وخصوصاً على القوات اللبنانية، بسبب الاستقبال الذي قاموا بتنظيمه.

وردّد على مسامع المحيطين به أنّ طعنة مباشرة قد وجّهت إليه عن عمد وتبصّر، عن طريق إثارة حفيظة الزعامة السنّية التي تشكّل «حجر الزاوية في سياسته». وشرع بإرسال المبعوثين، واحداً إثر واحد، إلى شفيق الوزّان كي يستأنف نشاطاته. وانتهى الأمر بهذا الأخير إلى القبول بالاجتماع مع

(1) فادي أفرام لآلان مينارغن حزيرا/ يونيو 1992.

بقية الوزراء شرط تخصيص الجلسة فقط لإصدار بيان يدين إدانة حازمة إقامة الوزير الإسرائيلي في لبنان. وقبل أمين فأذاع لدى انتهاء الاجتماع نصاً يأخذ فيه انتقادات السنّة على عاتقه: دعا رئيس الجمهورية مجلس الوزراء لإدانة المظاهر كافة التي رافقت زيارة أرينز والتي تشكّل مسّاً بهيبة الدولة، كما تشكّل استغلالاً لبعض الثغرات الأمنية. لقد عبّر رئيس الجمهورية عن استيائه العميق من مواصلة الاتصالات المباشرة فوق الأرض اللبنانية مع مسؤولين غير لبنانيين يدّعون لأنفسهم حق التجوال داخل حدودنا لمباشرة اتصالات، هي في حدّها الأدنى، لا شرعية وتشكّل خرقاً للسياسة الوطنية وتتعارض مع الأعراف والمبادئ الدولية.

ولم يجرِ التفوّه بكلمة واحدة حول زيارة وزير الدفاع السوري، مصطفى طلاس، إلى البقاع، التي احتلت أنباؤها، إلى جوار أنباء زيارة أرينز، الصفحات الأولى من الجرائد. وأدت ردّة فعل الجميّل إلى إثارة تحرّكات شتى اتسمت بالمرارة في العالم المسيحي.

أوعز الرئيس بإلغاء اجتماع مع القوات اللبنانية، مع أنّ تنظيمه كان بطلب منه. كما طلب من سيمون قسّيس، من غير أن يحيطهم علماً، التوقف عن دفع 15 مليون ليرة لبنانية تعويضاً عن النقص الحاصل لدى الميليشيا بعد أن أعادت للدولة استثمار الحوض الخامس. فقرّر زعماء الميليشيا تجاهل الأمر ودخلوا في محادثات مع المسؤولين العسكريين الإسرائيليين في الشوف سعياً وراء الحصول، لدى الانسحاب، على مواقع استراتيجية، وأسلحة وذخائر، وكذلك على الإذن بشقّ طرق «عسكرية» نحو مواقع تحصيناتهم. فعُقد اجتماع في 21 آب/ أغسطس بين فؤاد أبو ناصر، القائد العام للقوات اللبنانية، والجنرال يلني ماتان، الذي كان يقود الوحدات الإسرائيلية في شمال الدامور.

أثار ماتان ابتسامات كل من سيمون بيغال، المحلل لدى الموساد والذي يشبه سيرج غينسبورغ، وإيلي وزّان (عبّاس) رئيس الاستخبارات العسكرية في «القوات»، حين وجّه اللوم بلهجة مبطنة بالسخرية للجالس قبالته لأنّه كان هدفاً لمدفعيته أثناء عمليّة تنقّل.

فردّ عليه أبو ناصر باللهجة ذاتها:

– حين طلب منا الجنرال أمنون ليبكنز، في المرة الأخيرة، التوقف عن القصف، فقدنا سوق الغرب. فعليك أن تدرك، يا ماتان، أنهم حين يكونون فوق إحدى التلال، فيقتربون من مواقعنا، لا يسعنا سوى الدفاع عن أنفسنا.

– لا بأس، فلنتناول أشياء أخرى. . .

– لا تقل إنّك ستحدّثنا عن انسحابكم؟

فردّ الجنرال الإسرائيلي بضحكة عريضة، قائلاً:

– سوف نبدأ اليوم في الساعة الثالثة بعد الظهر، وننتهي غداً في الساعة ذاتها. ثم أضاف بلهجة جادة: نريد أن نعرف ما ستفعلون إن لم يكن هنالك من اتفاق مع الجيش اللبناني.

– إن لم ينتشر الجيش، فسوف نقاتل.

– أليس لديكم من حل آخر؟

– ما هو برأيك؟ الحل بانسحابنا؟

– ولِمَ لا! ألديكم ما يكفي من الجند؟

فردّ فؤاد بلهجة مسارّة:

– كلاّ، غير أننا سنقاتل. وإذا ما مارس السوريون علينا ضغوطاً قوية، فسوف نلحق بكم حتى نهر الأولي. وأحيطكم علماً بأنّ الجنود السوريين قد دخلوا عاليه خلسة. فأوضح عبّاس قائلاً:

– إنّها كتيبة احتياط درزية من الجيش السوري.

فسأل ڤيلني ماتان مرتاباً:

– هل تسللوا إلى المنطقة؟ هل هم هنالك؟

فأوضح أبو ناضر المسألة قائلاً:

– إنّهم في عاليه تحديداً. وهم يستعدون لمهاجمة سوق الغرب. وهنالك أيضاً شاحنات ذخائر سورية تمرّ ما بين بدغان وعين زحلتا لتموين الدروز. وهنالك دروز إسرائيليون متورّطون في هذه القضية.

فاعترف القائد العام بذلك، إذ قال:

– أعتقد، لسوء الحظ، أنّ ذلك صحيح.

أشارت الصحف الصادرة في تل أبيب، إلى المشكلة التي أثارها العساكر الدروز من الطائفة الدرزية. فقد أكّد بعض الضباط الاحتياطيين من هذه الطائفة، أنّهم على استعداد لعبور الحدود، ناهيك بالهرب من الجيش، إذا ما تخلى الجيش الإسرائيلي عن إخوانهم في لبنان. أما على الأرض، فكانوا يساعدون الحزب التقدمي الاشتراكي مساعدة مكشوفة. وقد جرى حتى الآن توقيف ما يقرب من مئة عسكري درزي إسرائيلي لأنّهم ساعدوا دروز «الشمال» على محاربة الكتائب. فكانت المرّة الأولى التي تدخل فيها تلك الطائفة الإسرائيلية في نزاع مكشوف مع الحكومة الإسرائيلية بشأن عملها في العالم العربي.

فقال فؤاد أبو ناضر:

– تعرّضنا لمتاعب في بيت الدين مع هؤلاء الجنود الإسرائيليين الدروز.

فقال ماتان واعداً:

– سوف نهتمّ بذلك! أما بعد، فينبغي قيام تنسيق بينكم، وبين الجيش والدروز. فنحن لا نقاتل من أجلكم ولا من أجل الجيش ولا من أجل الدروز. فينبغي لذلك أن يكون واضحاً! ولقد قلته لجميع الأطراف. وإن احتجنا لإطلاق النار فسوف أستخدم الدبابات والطيران، وفي يوم واحد نصير

إلى جنوب الأولي! المسألة الأساسية هي أن نعرف إلى أي حد يسعنا أن ننسّق انسحابنا مع الجيش اللبناني.

فسأله عبّاس:

– ولِمَ تريدون التنسيق مع الجيش؟

– أفضّل، من الناحية العسكرية، أن أنسحب من غير تنسيق مع أحد. لكنّ المطلوب مني، سياسياً، التنسيق مع الحكومة اللبنانية.

– وهل ستعطونهم مواقعكم كافة؟

– أجل.

فسأله فؤاد:

– وهل تعتقد أنّ الجيش مستعد؟

فردّ الجنرال الإسرائيلي قائلاً:

– آمل ذلك. نحن سننسحب على كل حال. والأمر منوط بهم. لقد قالوا إنهم مستعدون. وأنا رأيت في كفرمتى الكتيبة 42 التي تولّى الأميركيون تدريبها مدة شهرين. وكان أن تولّيت بنفسي إقناع بعض الجنود المسلمين باستعادة المواقع التي هربوا منها.

فقال فؤاد مؤكّداً:

– قال أرينز لفادي إنكم سوف تنسّقون انسحابكم معنا نحن فتقومون بتسليمنا بعض المواقع الاستراتيجية كي نتمكّن من تحسين وضعنا على الأرض، خصوصاً في بحمدون.

– إنّها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام. فسوف نقوم، في بحمدون، بتسليم التلال للجيش في حال انتشاره. وإلاّ فسوف ندرس إلى من سوف نعطيها.

– ألن تُعلِمونا بتاريخ انسحابكم؟

فرد ماتان قائلاً:

– ذلك كله ليس منوطاً بي. ولسوف تحصلون على أجوبة عن تلك الأسئلة كلها عبر القناة السياسية.

فسأله القائد العام للقوات اللبنانية:

– هل يسعنا إرسال جنود إلى منطقة سمير جعجع؟

– كيف؟

– في شاحناتكم.

–وكم عددهم؟

فرد فؤاد أبو ناضر قائلاً:

- ست مئة.

- كلا، أسألكم جاداً؟ كم؟ مئة؟

- بل أكثر.

- عليكم مناقشة ذلك مع من يعلوني مرتبة.

فقال أبو ناضر:

- فادي سوف يقابل دروري، فيطلب إليه ذلك. فنحن نريد أيضاً إرسال رجال وذخائر إلى التلال المحيطة ببحمدون.

يسعكم القيام بذلك سيراً على الأقدام.

- سوف يستغرق الأمر منا أكثر من عشر ساعات!

- لا بأس، سوف أنظر في ذلك.

إنّ الغياب الواضح للرغبة السياسية لدى السلطة اللبنانية في تنظيم اتصالات ضرورية جداً للتنسيق مع العسكريين الإسرائيليين، قد أثارت القلق في نفوس مسؤولي الميليشيا المسيحية. وعلى الرغم من تأكيدات الرئيس فقد ازدادت تساؤلاتهم عمّا إذا كان الجيش سيتلقى حقاً الأمر بملء «الفراغ» الذي سيخلّفه انسحاب الجيش الإسرائيلي.

زد أنّ الميليشيا الشيعية التابعة لحركة أمل صارت منذ أيام أكثر فأكثر نشاطاً في الضاحية الجنوبية من بيروت. ولئن كان على الجيش اللبناني التدخل هنالك، لسبب ما، من أجل إحلال الأمن، فسوف تغدو «القوات» آنذاك وحيدة للتصدي عسكرياً للسوريين والدروز في الجبل. فطرح أفرام على الموساد سلسلة من الأسئلة في ذلك الشأن:

من لاري (فادي أفرام) إلى بيتر (ناحوم أدموني) [. . .] في 22/ 8/ 1983

1- من بين الاحتمالات، بخصوص إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي، احتمال عدم انتشار الجيش اللبناني في منطقتي الشوف وعاليه. ولسوف يكون من تبعات ذلك ترك القوات اللبنانية في مواجهة تهديد عسكري واضح المعالم:

أ- هجوم معادٍ على طول طريق بيروت-دمشق، يكون الهدف منه القيام بعملية وصل بين صوفر وعاليه، ثم في الشويفات وعلى الساحل.

ب- إعادة تفعيل الجبهات التقليدية مع الحزب التقدمي الاشتراكي في منطقتي عاليه والشوف.

وعليه فنحن نعتقد أنها لمسألة ملِحّة أن نعقد اجتماعاً عسكرياً على أرفع مستوى بهدف وضع المخططات الضرورية لتفادي قيام السوريين وحلفائهم بالإشراف على المحور الاستراتيجي بيروت-دمشق، وفي سبيل ضمان وجود قوي للقوات اللبنانية في منطقة تستطيعون اعتبارها امتداداً لمنطقتكم الأمنية.

2-وعليه يغدو ضرورياً قيام تنسيق عميق بين القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي إلى الجنوب من نهر الأولي. فنقترح عقد اجتماع سياسي عسكري على أرفع مستوى، يحدّد وجود القوات اللبنانية في الجنوب حتى أدقّ التفاصيل.

3-قدّمنا لوزير الدفاع طلباً يتعلّق بالأسلحة والذخائر التي هي ضرورية بالنسبة إلينا كيما نكون مستعدين لمجابهة المرحلة الحرجة التي نتوقّعها. فنأمل في الحصول على جواب إيجابي سريع. ذلك أنّ عامل الوقت حرج بالنسبة إلينا. وإذا كان الجواب بالإيجاب فسوف نرسل وفداً بقصد مناقشة التفاصيل.

مع أطيب التحيات. لاري.

بدأت رسمياً، في 22 آب/ أغسطس 1983، محادثات عسكرية بين الإسرائيليين واللبنانيين على مستوى قيادة الأركان، بحضور عدد من كبار الضباط الأميركيين في الأسطول السادس.

وقد جرت في دارة أمير سعودي في الجمهور، قام الجيش الإسرائيلي بمصادرتها لتستخدم مقراً للقيادة العامة. وأدى قصف متقطّع دام طوال النهار لإرغام سكان الأحياء المسيحية على البقاء في الملاجئ. كان مجرى عمليات القصف وسحب الغبار والدخان الناجمة عنها تشاهد بكل وضوح في المناطق المنخفضة من أعلى المرتفع من الأرض الذي يقوم فوقه المبنى الفسيح .

بعد ذلك بيومين اثنين، طلب الجنرال عامير دروري من القائد العام للقوات اللبنانية ومن فؤاد أبو ناضر الحضور للاجتماع به في المكان ذاته. تولى دروري الشرح وهو يمسك مسطرة بيده، فأوضح فوق خارطة، نيّات الجيش اللبناني. ينبغي أن يستلم اللواء الثامن خط المرتفعات: كتيبة في بحمدون وثانية في سوق الغرب وثالثة في عاليه. كما تنوي هيئة الأركان اللبنانية الاستقرار في الشوف قبل انسحاب الجيش الاسرائيلي. طلب دروري أن يكون الجميع على أهبة الاستعداد في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة. وقد جرى إعداد كل شيء. بل إنّ ضباطاً لبنانيين قاموا سراً بمهمات استطلاع على المواقع التي سيحتلونها وتبيّنوا المسارات التي سيتوجّب عليهم أن يسلكوها. وكذلك جرى توقّع قيام وحدات الجيش الإسرائيلي بتسليمهم الاستحكامات المقامة في مواجهة المواقع السورية. وقد أعرب له أفرام عن تشاؤمه. فهو يرى في الأحوال كافة أنّ المجابهة العسكرية تبدو واقعة، ولا يمكن تفاديها.

وأكّد قائلاً للضابط الإسرائيلي:

- إذا ما انتشر الجيش بحضوركم، فالنزاع سوف يبدأ فور انسحابكم. أما إن لم ينتشر، وذلك ما أخشى، فبودّنا التنسيق معكم لنعرف، على سبيل المثال، كيف يسعكم تسليمنا المواقع المواجهة للسوريين.

فسأل عامير دروري قائلاً:

– هب أنّ الجيش اللبناني انتشر، فكيف ستتصرّفون في كل موقع؟

– سوف ننسّق مع الجيش على مستوى قادة الألوية. وسبق لنا البدء بذلك لكنّها مسألة في غاية الحساسية.

– هل تجتمعون معهم بانتظام؟

– لقد التقيتُ اليوم بسيمون قسّيس. إنّه لا يعرف متى سينتشر الجيش، لكنه قال لي إنّ هنالك أمراً من الرئيس: لن يكون هنالك تحرّك إلّا لدى انسحابكم.

فقال الجنرال الإسرائيلي مؤكّداً:

– قلنا لهم أن يكونوا على استعداد يوم الجمعة، أي بعد يومين. لكن قد يستغرق ذلك بضعة أيام إضافية، إلّا أنّ الأمر وشيك جداً.

فسأل فادي أفرام وهو يطوي خريطة هيئة الأركان:

– كيف يسعنا عقد الاتفاق معكم بشأن طريق بيروت–دمشق، في مواجهة السوريين. فنحن نستعد لأسوأ الاحتمالات في حال عدم انتشار الجيش. لقد بيّنا على هذه الخارطة المواقع التي لا يسعنا الاستغناء عنها للصمود. فهل يسعكم أن تسلّمونا إياها؟

فاقترح دروري بعد أن تفحّص الخريطة مطوّلاً:

– سوف أدرس خريطتكم. وسأنظر في هذه المسألة بالتفصيل. لكن يسعني أن أقول لكم مسبقاً إنّ معركة شرسة سوف تنشب من أجل تلك المواقع.

– إننا نستعدّ لها!

وأضاف فؤاد أبو ناضر قائلاً:

– سبق لنا إرسال تعزيزات. نريد إرسال تعزيزات أخرى ولدينا أيضاً قوافل من التموين بانتظار الصعود.

– سوف نعطيكم أجوبة بعد دراسة كل تلّة وكل موقع قمتم بتحديده على خارطتكم. فهل تعتقدون بأنّ لديكم القوى الكافية للصمود في تلك النقاط كلها؟

فتنهّد أفرام وهو يقول:

– علينا أن نصمد.

فسأل دروري:

– وهل الجيش سيقاتل في حال الضرورة؟

– أجل. فاللواء الثامن الذي يقوده ميشال عون هو الأفضل.

استطاع روبرت ماكفرلين في 24 آب/ أغسطس، الحصول على وعد بإرجاء الانسحاب الإسرائيلي المرتقب أصلاً في 28 آب/ أغسطس، متعللاً بأشكال من التقدّم جرى تسجيلها على

طريق تقارب بين أمين الجميّل ووليد جنبلاط، وبالاجتماع المرتقب في باريس يوم 26 أيلول/ سبتمبر. فقبل بيغن بإرجائه لبضعة أيام، إلّا أنّه ينبغي أن يتمّ على كل حال قبل بدء السنة اليهودية الجديدة، أي قبل 7 أيلول/ سبتمبر. أعدت السلطة اللبنانية الملف، مثلما فعل وليد جنبلاط من جانبه، بأقصى سرعة ممكنة؛ كان ذلك الإعداد بالنسبة إلى الطرف الأول بمساعدة من الأميركيين، أما الطرف الثاني فبتواطؤ شديد التكتّم من قبل أوري لوبراني.

كان الاحتمال ضئيلاً جداً في أن تسهم القوة متعددة الجنسيات - أو جزء من عناصرها - في انتشار السلطة اللبنانية في الشوف.

وكان الجنرال كيلي، القائد العام القوات الأميركية في البحر المتوسط حاسماً في كلامه لدى مروره في بيروت: إنّ قوات المارينز لن تنتشر في الجبل، فهذه المهمة مقتصرة على الجيش اللبناني. أما فرنسا التي بدلت أخيراً سفيرها في لبنان[1] فردّت من جانبها لكن بلغة أكثر دبلوماسية: تطالب باريس في الواقع بثلاثة شروط لبسط حقل نشاط قوتها ضمن إطار الانسحاب الإسرائيلي. فينبغي أولاً صدور طلب رسمي عن الحكومة اللبنانية، يليه موافقة الدول المساهمة كافة في القوة متعددة الجنسيات ضمن الحد الذي يمكن لهذه المهمة الجديدة أن تعدل من انتداب القوة متعددة الجنسيات، وأخيراً موافقة الأطراف المعنية في منطقة الانتشار لا سيّما الدروز والقوات اللبنانية.

في 25 آب/ أغسطس بعث صاموئيل ليويس، السفير الأميركي في تل أبيب، إلى زميله في بيروت برقية طويلة - صُنِّفت «سرية» - لإحاطته علماً بحالة الإعداد للمفاوضات التي ينبغي أن تبدأ في اليوم التالي في باريس. وكان لها أن تجمع الحكومة اللبنانية (ممثلة بوديع حدّاد وسفير لبنان في فرنسا فاروق أبي اللمع) والدروز (وليد جنبلاط وخالد جنبلاط ومروان حمادة) بحضور أوري لوبراني وماكفرلين ومعاونيه وفرانسوا دو غروسوفر ورفيق الحريري، وبواسطة منهم.

تضمن النص اقتراحاً قام بإعداده أوري لوبراني، منسّق الشؤون اللبنانية في الحكومة الإسرائيلية، يمكن استخدامه أساساً لمحادثات ترمي إلى تسهيل الانتشار المنظم والذي لا جدال فيه، الذي ستقوم به القوات المسلحة اللبنانية في الشوف على أثر إعادة انتشار قوات الدفاع الإسرائيلية. وهنالك تمهيد مبكر بأنّ الطائفة الدرزية تقبل بالسيادة والسلطة للمؤسسات الوطنية كافة والقوانين اللبنانية. وأنّ عليها مواصلة التمتع بسيطرتها (نظام خاص؟) مع مواصلة العيش بحسن جوار [. . .] مع أعضاء الطائفة المسيحية. وتلت ذلك مطالب مستوحاة إلى حد كبير من النقاط العشرين التي تقدم بها الحزب التقدمي الاشتراكي في الشهر السابق للحكومة اللبنانية: ينبغي لمنطقة الشوف أن تعود إلى الوضع الذي كان سائداً فيها قبل حزيران/ يونيو 1982، ضمن المظاهر السياسية

(1) كان فرنانڤيو قد حل محل بول-مارك هنري.

والعسكرية والاقتصادية. وينبغي أن يتضمّن ذلك انسحاب الوحدات المقاتلة كافة المشكلة من مقاتلين غرباء عن المنطقة [. . .] وينبغي بذل الجهود كافة لضمان العودة إلى الحياة الطبيعية في أقرب فرصة ممكنة. [. . .] وعلى السكان كافة الذين غادروا الشوف على إثر أحداث حزيران/ يونيو 1982، أن يتمكنوا من الرجوع إلى منازلهم واستئناف نشاطاتهم الطبيعية. [. . .] وينبغي للأمن والمواضيع المتعلقة به أن تكون موضع اتفاق مماثل لذلك الاتفاق القائم مسبقاً بين الحكومة المركزية والقوات اللبنانية في مناطقها على التوالي [. . .] كما ينبغي تعليق الإجراءات القانونية كافة ضد أفراد متهمين بمخالفات ذات طبيعة سياسية منذ عام 1975 [. . .] كما ينبغي دفع الرواتب للمستخدمين كافة الذين مُنِعوا من القيام بوظائفهم بسبب الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار [. . .] وأن تُسدَّد بمفعول رجعي حتى حزيران/ يونيو 1982 [. . .] وإنّ التعيينات الجديدة كافة في القطاعات المدنية سوف تُعلَّق حتى إشعار آخر للسماح بالتفاوض على اتفاقية مرضية.

وإضافة إلى ذلك طلب صاموئيل ليي من زميله في بيروت سبر أغوار الحكومة اللبنانية حول هذا الاقتراح مع التشديد على أنّ من شأن قبوله قبولاً مبدئياً أن يعطي اجتماع باريس احتمالات معقولة بالنجاح.

فيما كان وصول هذه البرقية المشفرة يحدث طرطقات على جهاز الاستقبال (تلكس) في السفارة الأميركية في بيروت كان وليد جنبلاط وهو يستعد لمغادرة دمشق إلى باريس، يطلق عبر توزيع مناشير، حملة نفير عام بين أبناء طائفته. وقد أدلى بحديث صحفي لصحيفة «البعث» السورية قال فيه: إنّ القوى التقدمية في حالة استنفار قصوى. فمعركة الجبل قريبة، وإنّ المعادلة العسكرية هي التي ستقرر مصير لبنان. ومن جهته أعلن المكتب السياسي لحزب الكتائب، عن تفكيك ثكنات القوات اللبنانية في الجبل لمصلحة الجيش. وقد أكّد الشيخ بيارالجميّل أمام حفنة من الصحفيين قائلاً: إنّ القوات اللبنانية لن تدّخر وسعاً لتسهيل مهمة السلطات كي تتولى الإشراف على الجبل. وفي المساء ذاته قال ابنه في حديث متلفز إنّ السلطة اللبنانية لا تفكر مطلقاً في دخول الجيش عنوةً إلى الشوف.

16

لا تتوجّهوا إلى هنالك، إنّه فخّ

كان ما يقرب من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً من المقاتلين المسيحيين والدروز على أهبة الاستعداد لخوض الحرب في الشوف. فقبل الغزو الإسرائيلي كان 120 ألفاً من المسيحيين و90 ألف درزي يتعايشون هنالك وفق ما تسمح به الحال، و16 قرية يسكنها الدروز حصراً، مقابل 25 قرية من المسيحيين و5 قرى من المسلمين الشيعة أو السنّة. أمّا البلدات الأخرى فكان فيها اختلاطٌ سكّاني، 19 منها ذات أكثريّة درزية و35 أكثريّتها مسيحية، و11 ذات أكثريّة إسلامية. لكن لم تكن هنالك من قرية واحدة فيها اختلاطٌ درزي شيعي[1]. في الأعوام الثمانية الأولى من الحرب تولّى حزب وليد جنبلاط، التقدّمي الاشتراكي، الإشراف على تلك الجبال وإدارتها. إلّا أنّ الإسرائيليين الذين استجرّوا وراءهم المسيحيين الذين هربوا من الجبل بين عامي 1975 و 1982، ترافقهم ميليشات القوات اللبنانية[2]، جعلوا الوضع ينقلب انقلاباً عميقاً.

تتجابه اليوم منظومتان اثنتان من المعارك، بنيةٌ من وحداتٍ تراتبيّة، هي وحدات القوات اللبنانية أي ما يقرب من 5000 عنصر ميليشيا، نصفهم من وحدات مهنيّة والنصف الآخر مكوّن من احتياطيين قابلين للتحريك في أيّ وقت ومجمّعين في تسع ثكنات. كان سمير جعجع قد وزّع عدداً كبيراً منهم للدفاع عن القرى المسيحية. أمّا ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي – والمقدّر عددهم من ستة إلى عشرة آلاف رجل – كانوا منظّمين من جانبهم وفقاً لمفهوم الجيش الشعبي، على أساس الدفاع عن قراهم الخاصّة وكانوا شبه مستقلين ذاتياً. فقد شاعت التقاليد، في هذه الطائفة، تقديم بندقيّة لكل صبيٍّ وليد، فكان الشبان جميعهم مسلّحين، وتلقوا، منذ بداية الأعمال العدائيّة، تدريباً لمدّة 25 يوماً كلّ عام. فمن الممكن استنفارهم في أيّة لحظة. أمّا الملاك العسكري للميليشيا

(1) يعتبر الشيعة الديانة الدرزية - التي نشأت إثر انشقاق في عقيدتهم - ديانة هراطقة.

(2) انظر الجزء الأول من أسرار الحرب على لبنان.

الدرزية، لا سيّما في الوحدات الاختصاصيّة كالمدفعيّة، فقد استفاد القسم الأكبر من أعضائها من تدريبٍ في الاتحاد السوفييتي.

قام الموساد للمرّة الأولى منذ أكثر من ثلاثة أعوام، بتنظيم سفرٍ في وضح النهار لمسؤولين عسكريين عملياتيين من القوات اللبنانية إلى تل أبيب. جاءت الحوّامة CH 53 التابعة للقوى الجوية الإسرائيلية من لواء الحوّامات الأول لتقلّهم في 25 آب/ أغسطس 1983، من على ساحة محطّة الزوق الكهربائيّة لتحطّ بهم غير بعيد عن «المقر الصيفي لرئيس الوزراء». أمّا المفاجأة الثانية فهي أنّ الجنرال موشيه ليڤي وأوري لوبراني وميئير داغان وناحوم أدموني ومناحيم نافوت ومساعدوهم كانوا في انتظارهم. فهذه أيضاً كانت سابقة. إذ لم يحصل قط أن اجتمع الجيش والموساد وجهاز ياكال والتنسيق المدني للأنشطة الإسرائيلية في لبنان، ليكونوا معاً في استقبالهم. فقد جرت العادة أن يتمسّك كلّ طرف بدرجة من السرّية في محادثاته مع اللبنانيين، والموساد أكثر من الآخرين. إنّ سرعة الاستدعاء والسفر الذي جرى ترتيبه في بضع ساعات، اتّخذ طابعاً دراماتيكيّاً. ولقد أحسّ فادي أفرام[1] وهو يشاهدهم معاً، بحدوث شيءٍ ما على درجةٍ كبيرةٍ من الأهميّة، وأنّ محدّثيه يرغبون في أن يبيّنوا له أنّهم يتشاطرون جميعاً وجهة النظر ذاتها. لقد قبل اللبنانيون الأربعة عمليّة الانتقال تلك ليحاولوا، مرّةً أخرى أيضاً، الحصول على معونة عسكرية والإلحاح حول الضرورة القصوى باستعادة استحكامات جيش الدفاع الإسرائيلي، لا سيّما تلك التي تواجه القوات السورية. وسألهم رئيس الأركان الإسرائيلي قائلاً:

– أليس لديكم أولويات؟ ألن تقوموا بإخلاء بعض المواقع لكي تتمركزوا عند النقاط الأساسيّة؟

فردّ عليه فادي أفرام قائلاً:

– أنت على حق من وجهة نظرٍ عسكريّةٍ بحتة. فيتوجّب علينا إخلاء بعض منها. لكن علينا أيضاً أن نأخذ بالاعتبار وضع السّكان المسيحيين. فإذا ما تخلّينا عن أيّ قرية فذلك يعني أنّ سكّانها سوف يُطرَدون من بيوتهم. أمّا الشيء الأخطر بالنسبة إلينا فهو المجابهة مع السوريين. لقد سلّمنا إلى دروري خارطةً توضّح المواقع التي نرغب في احتلالها في حال قيامنا بالقتال وحدنا من دون الجيش. فهذه المواقع هي في مواجهتهم، وهنالك مواقع أخرى إلى الخلف أكثر.

فأشار ليڤي قائلاً:

– إنّ الأمر شديد الحساسيّة. فالدروز يؤكّدون أنّهم لن يقبلوا بقدوم الجيش إلّا إذا انسحبتم أنتم أولاً. وأنتم قلتم لنا إنّكم لن تغادروا المنطقة إلّا بعد أن تتأكّدوا من أنّ الجيش يشرف على الوضع. إنّها حلقة مفرغة وبلا حل.

---

(1) كان يرافقه فؤاد أبو ناضر وإيلي حبيقة وإيلي وزان (عباس).

- إنّها نقطة أساسيّة بالنسبة إلينا.

فغمغم قائد الجيش الإسرائيلي قائلاً:

- أنا لا أظن أنّ الجيش اللبناني سيصعد إلى الشوف. بل لنفرض أنّه نجح في الدخول إلى هناك ووصل إلى بحمدون وإلى صوفر، فإنّ الدروز يستطيعون أن يقطعوا خطوط تموينه.

فاسترعى أبو ناضر انتباهه بقوله:

- قد يُقال إنّكم تشجبون رأينا.

- أنا لا أشجب رأي أحد. لكنّها مثل حكاية الدجاجة والبيضة... كنتم تؤكّدون سابقاً أنّكم ستتحوّلون إلى مقاومة شعبية عن القرى، والآن تطرحون شروطاً: انتشار الجيش، وإشراف الجيش.

فتدخّل إيلي حبيقة قائلاً:

إنّ التحوّل إلى مقاومة شعبية يمكن أن يحصل في اليوم ذاته لانتشار الجيش. والمقاتلون الذين ليسوا من المنطقة يظلّون في القرى مع الآخرين.

فقدّر موشيه ليڤي قائلاً:

- ستكون هنالك معارك عنيفة جداً.

فأكّد أفرام قائلاً:

- ستكون هنالك معارك في الأحوال كافّة. ونحن نُعِد أنفسنا لما هو أسوأ.

- إذا كان الغرباء عن المنطقة أقليّة فلِمَ لا تقومون بسحبهم، تعبيراً عن حُسن النيّة؟

- تعبيرٌ حيال من؟

- حيال الجيش.

- لا عليكم. فنحن متفاهمون كلّ التفاهم مع الجيش.

فقال الضابط الإسرائيلي بلهجة تسليم:

- لا بأس! فليدخل الجيش إذن إلى المنطقة بموافقتكم وبدون موافقة الدروز.

فشرح حبيقة الوضع:

- إذا ما سحبنا الوحدات التي ليست أصلاً من المنطقة، فسوف نضعف أنفسنا عسكريّاً ولن نكون فعلنا شيئاً في سبيل تسهيل انتشار الجيش.

فتدخّل موشيه ليڤي قائلاً:

- لكن إن جرى يوم غد أو بعد غدٍ على سبيل المثال اتفاقٌ بين الحكومة اللبنانية والدروز، فسوف يتوجّب عليكم آنذاك تقديمُ دليلٍ على حُسن النيّات.

فقال أفرام آسفاً:

- ليس هنالك من أملٍ في إرضاء متطلبات جنبلاط. وأعتقد أنّ مطالبه العشرين، قد جرت

صياغتها وتقديمها بطريقةٍ لا يمكن تلبيتها. وأنا أظن أنّنا لن نفلت من مرحلة عسكرية. لو كان هنالك أصغر أملٍ للتوصل إلى أيّ اتفاق، لكنّا أظهرنا مبادرةً عن حُسن النيّات. فهل تعتقدون بكل صدق، أنّ مثل تلك البادرة من جانبنا سوف تسهّل حصول اتفاق؟

وأضاف حبيقة:

– إنّ رحيل قواتنا الغريبة عن المنطقة يبغي أن يكون المرحلة الأخيرة، لا الأولى.

فوافق فؤاد أبو ناضر قائلاً:

– إنّها مسألة تاريخيّة ونفسية. فالمرّة الأخيرة التي قام فيها المسيحيون بتسليم أسلحتهم كانت عام 1860 في دير القمر. وبعد ذلك جرى إحراق المدينة! فينبغي أن تضعوا أنفسكم مكان السكان.

وكان تحليل ليي يقول:

– إذا ما شكّل السوريون المعضلة حقاً على نحو ما تؤكّدون، فهم حينئذ سيساعدون الدروز. هنالك مواقع سيتوجب عليكم إخلاؤها وسوف تتوزّعون ضمن أسوأ الفرضيات، على المنطقة بكاملها لكنّكم ستكونون مرغمين في الأحوال كافّة على مغادرة بعض المواقع.

سأله حبيقة:

– وماذا تقترحون علينا؟

فقال ميثير داغان:

– هنالك مناطق يمكنكم إخلاؤها، مثل قرية سرجبال على سبيل المثال.

فعارض زعيم جهاز الأمن قائلاً:

– لكنّنا لا نقوم بحماية صحراء، بل قرى مع سكّانها.

فاستأنف داغان يقول:

– لا بأس. لكن لنفرض على سبيل المثال أنّ عناصر الميليشيا الذين ليسوا من قرية دير دوريت غادروها وأنّنا تمركزنا فيها.

فقال أبو ناضر بسخرية:

– لكنّهما اثنان.

وسأل أفرام:

– هل تظنّون صراحةً أنّ ذلك سيحلّ المشكلة مع السوريين؟

فاحتجّ داغان ملمّحاً إلى الاجتماع الذي سيعقد في باريس قائلاً:

– المشكلة الحقيقيّة هي انعدام الثّقة بينكم وبين الدروز. أمّا ونحن في وقتٍ يجري فيه اقترابٌ من اتفاقٍ بين الدولة والدروز، فإنّ ذلك سيسهّل الأمور. لكنّ اللبنانيين يجهلون وجود هذا الحوار.

فحذّرهم موشيه ليڤي قائلاً:

– أمّا في حال عدم حصول اتفاق فسوف نهتمّ فقط بأمن جنودنا ونحن ننسحب.

فسأله أفرام:

– ألن تقوموا بتسليمنا مواقعكم المواجهة للسوريين؟

– لا نستطيع تسليمها لأحد.

فردّ قائد القوات اللبنانية، قائلاً بعصبيّة:

– إذن دعوها مباشرةً للسوريين.

فأكّد قائد أركان الجيش الإسرائيلي قائلاً:

– السوريون لن يتحرّكوا. ولئن فعلوا، فردّنا عليهم جاهز. أنتم تطلبون بأن نسلّمكم مواقعنا المواجهة للسوريين، لكنّها تمثّل أيضاً نقطة خلاف في النزاع بين المسيحيين والدروز. نحن يسعنا القيام بذلك، لكن بطريقة انتقائيّة، دونما تغيير في توازن القوى. أنا أعتقد أنّكم إذا ما رغبتم في الصمود.، فعليكم التمركز في المواقع التي تستطيعون حمايتها. كان هذا ما قمنا به عام 1948. لقد توجّب علينا إخلاء بعض المواقع. وينبغي عليكم اتخاذ قرارات صعبة.

فردّ عليه فادي أفرام بجفاء:

– أعتقد بوجود سوء تفاهم بيننا. نحن نظن أنّ المشكلة الرئيسة مطروحة بالسوريين. فإذا كنتم لا تشاطرونا وجهة النظر هذه، فلست أرى ما نفع مواصلة هذه المناقشة.

فصحح الضابط الإسرائيلي قائلاً بلهجة مصالحة:

– أنا لا أقول بعدم وجود مشكلة مع السوريين. لكنّ الجيش لا يستطيع الانتشار دون اتفاق مع الدروز. ولا بُدَّ من توفير فرصةٍ لهذا الاتفاق.

فاقترح عليه أبو ناضر قائلاً:

– بادروا إذن إلى نزع سلاح الحزب التقدمي الاشتراكي. ونحن سوف نغادر ثكناتنا ونسحب عناصر ميليشياتنا الغرباء كافّة عن المنطقة.

– تريدون منّا أداء العمل القذر؟

– نعم.

لن يكون ذلك حلاً طويل الأمد. لكن لنفرض أنّنا نزعنا سلاح الحزب التقدمي الاشتراكي وأنّكم انسحبتم، فماذا بعد؟

فواصل قائد أركان القوات اللبنانية القول:

– سوف تتمكن الدولة آنذاك من تقسيم الدروز وفرض زعامة أرسلانية.

– وماذا عن السوريين؟

فقال حبيقة:

– سوف يعودون إلى تسليح الدروز، والمعركة سوف تتجدد.

إذن لا وجود لحلٍ في لبنان. فهل الدروز سوريون؟ لن تتاح للسوريين شرعيّة التصرف. وسوف تتمكن القوة المتعددة الجنسيات من التدخل.

فقال أفرام متعجّباً:

– لن تتدخّل القوة المتعددة الجنسيات بأي حال من الأحوال، وأنتم تعرفون ذلك.

فعاد الضابط الإسرائيلي يقول بإلحاح:

– ينبغي علينا أن نوفّر الفرصة أمام الاتفاق بين الحكومة والدروز.

لم يفهم اللبنانيون الأربعة إلحاح موشيه ليڤي على ذُكر تلك الاتفاقية بين الشرعية والدروز. كانوا يعرفون عبر قراءة الصحف وجود «محادثات الفرصة الأخيرة» لكنّهم يجهلون جهلاً كليّاً الدور المحرّك الذي يقوم به الإسرائيليون ولا سيّما لوبراني. فمن الواضح أنّ ليي كان راغباً في الحصول على عنصرٍ جديرٍ بالتقديم للمحادثات في باريس، ولجعلهم ينخرطون في اللعبة، من غير أن يُطلِعَهم على ما يُحبَك في الخفاء.

أكّد أفرام قائلاً بقوّة:

– من غير المقبول لدينا أن نغادر أيّ قريةٍ مسيحية مهما تكن. فعندما خضنا معركة زحلة، عُرِضَ ذلك كأنّه انتحار، لكنّنا خضناها. ولقد كانت ضدّ السوريين.

فعرض قائد الجيش الإسرائيلي فكرةً جديدة قائلاً:

– سوف أتقدّم منكم باقتراحٍ آخر. إنّها عاريّا، فأنتم تستطيعون إخلاء هذه الثكنة دونما أضرار. فماذا لديكم فيها؟ سريّة؟ أم أكثر؟

فسأله أفرام:

– لا بأس، سوف نقوم بذلك. لكن ما نوع التغيير الذي سيحصل؟

– سوف تستطيع حكومتكم أن تقول إنّكم بدأتم التصرّف ضمن الوجهة الصحيحة.

فأضاف ميثير داغان:

– أنتم تؤكّدون أنّكم عازمون على الانسحاب بعد انتشار الجيش. والدروز لا يصدّقون ذلك. ابدأوا من هنا وسوف يكون له وقع إيجابي.

فقال موشيه ليڤي ناصحاً:

– أنتم على كل حال أعددتم الخيار البديل: الحرب. وليس من يريد إضعافكم. ضعوا الجيش اللبناني في عاريّا وقولوا لطنّوس أن يرسل إلى هنالك وحدةً قويّة.

فردّ عليه أفرام قائلاً:

– إن لم ينتشر الجيش فسوف تسلّمونهم مواقعكم. فالمشكلة تظلّ كاملةً إن لم ينتشر الجيش.

فقال موشيه ليفي:

- ينبغي علينا التحدّث في ذلك مع إبرهيم طنّوس. نحن ملزمون بإتّباع توجيهات الدولة اللبنانية وجيشها. والعملية ليست سهلة. وإذا ما تدخّل السوريون تدخلاً مباشراً أم غير مباشر، فسوف يقومون بذلك في أماكن عديدة.

- هذا أمرٌ نعرفه! لذا فنحن بحاجةٍ لمساعدتكم. وأنتم تستطيعون مساعدتنا.

- إلى حدٍّ ما.

فقال مناحيم ناقوت مساوماً:

- إذا ما قمتم بمبادرةٍ طيبة، فسوف يعيننا ذلك على القيام حيالكم بأشياء نحن عاجزون عن القيام بها الآن

فواصل أفرام قائلاً:

- طيب، سوف نرى. لكن كيف ستتصرّف من الناحية العملية؟

فأوضح لڤي قائلاً:

- ما لم يحصل شيء في الأيام القليلة القادمة، فمعنى ذلك أنّ الأمور لن تنجح. نحن من ناحيتنا سوف ننسحب. فالمسألة مسألة أيّام. ولقد صرنا جاهزين. ولسوف نناقش الأمور كافّة معكم قبل أن تبدأ دباباتنا بالتحرّك.

فقال أفرام موافقاً:

- لا بأس. ولسوف نعمل ضمن هذا المنحى إن كنتم ترون أنّه يمكن أن يسهّل حصول اتفاق. لكنّي غير مقتنعٍ بذلك قناعةً مطلقة. كما يتوجّب علينا أيضاً أن نعدّ أنفسنا للقتال. ولقد سلّمنا للجنرال دروري خارطةً نطلب إليكم دراستها بكلّ عناية.

قال أوري لوبراني بلهجةٍ عصبيّة:

- من شأن الوضع أن يكون مختلفاً كل الاختلاف لو أنّنا على صلة بحكومتكم اللعينة. لكن ليس هنالك من صلة. والرئيس لا يقبل أن يتحدّث إلينا. وأنتم تعلمون حق العلم أنّ ذلك من شأنه أن يغير كلّ شيء ولكنّا اليوم في وضعٍ مغاير.

فقال أفرام موافقاً:

- أعرف ذلك. لكن حاولوا أن تفصلونا عنه.

ونهض موشيه ليڤي وقال ناصحاً:

- ادرسوا قضيّة عاريّا. ولئن لم تُلْحِق بكم أيّ ضرر فسلّموها للجيش بأسرع ما يمكن.

بعد ذلك بـ 48 ساعة، رفض الجنرال إبرهيم طنّوس اتّخاذ ذلك الوضع على عاتقه، وقال مؤكّداً: **لا أريد أن يعتقد الدروز أنّ الجيش ضالعٌ في قضيّةٍ مشبوهة مع القوات اللبنانية.**

صعد أوري لوبراني بعد ظهر ذلك اليوم في 25 آب/ أغسطس، إلى الطائرة قاصداً باريس ليتابع تطوّر «طفله». كان حائزاً على رضا وليد جنبلاط. وقام الأميركيون بتبنّيه. ولم يقف الفرنسيون منه موقف المعارض. فبقيت مسألة إقناع وديع حدّاد ممثل أمين الجميّل. لم يكن في المشروع الذي دوّنه لوبراني أيّ سبب يدعو إلى عدم «تمريره». وقد اتّخذ روبرت ماكفرلين ومساعده ريتشارد فيربانكس المسار ذاته، لكنّهما توقفا بضع ساعاتٍ في روما. وكان لهما هنالك لقاءٌ طويل مع جيواني سپادوليني، وزير الدفاع الإيطالي لإقناعه بتجهيز وحدة «بيرساليري» (Bersaglieri) من الوحدة المتعددة الجنسيات كي تقوم عند اللزوم بدعم الجيش اللبناني. فكان ردّ سپادوليني حازماً: **لا زيادة على عدد أفراد الوحدة الإيطالية ولا انحراف لمسافة متر واحد عن حقل نشاطها.**

جدّد المبعوث الأميركي، في صباح اليوم التالي اقتراحه على وزير الخارجية الفرنسي. فكان الردّ **إن كان الجميع على اتفاق**. وصل وديع حدّاد إلى مطار أورلي عبر الطيران المنتظم من لارنكا. وقد استقبله سفير لبنان في فرنسا الأمير فاروق أبي اللّمع. وبعد ذلك ببضع دقائق كانت تحطّ في الطرف الآخر من باريس، في مطار بورجيه، طائرة رفيق الحريري الخاصة وعلى متنها وليد جنبلاط ببنطاله الجينز وسترةٍ جلديّةٍ سوداء وقميصٍ مفتوح، ومعه مروان حمادة وخالد جنبلاط. أمّا في تل أبيب، فقد حدّد موشيه أرينز سويّة المراهنات على المحادثات بتصريحه لصحيفة «يديعوت أحرونوت» **لن نقبل بانتشار الجيش اللبناني دون اتفاق مسبق مع الدروز**. وفي بيروت، وقف كميل شمعون، الذي مقرّه الدائم في دير القمر وسط الشوف، ليطلب علناً من الحكومة اللبنانية **التعاون مع الإسرائيليين لنشر الجيش اللبناني في الجبل.**

افتُتِحت في العاصمة الفرنسية آنذاك متواليةٌ مدهشة ومتكتّمة بدأت فيها المناقشات من غير لقاء. لقد رفض وديع حدّاد، المقيم في السفارة اللبنانية، شارع كوپرنيك، رفضاً قاطعاً، وبتعليماتٍ من أمين الجميّل، أن يقيم أدنى اتصال مع أوري لوبراني الذي كان على الرغم من ذلك محور الحوار الساعي للاستقرار. إنّ واقعة زيارة موشيه أرينز إلى بيروت وردّة فعل السنّة محفورةٌ في ذاكرته[1]. أمّا الإسرائيلي فما أنفكّ غاضباً وهو يتّهم الرئيس الجميّل بالتمسّك بمواقفه الجوفاء في وضعٍ على تلك الدرجة من الخطورة. أمّا وليد جنبلاط الذي كان يقيم في فندق رفائيل، في جادة كليبر، على أقل من 500 متر من سفارة بلاده، فقد التقى بمنسّق الشؤون الإسرائيلية في لبنان مرّاتٍ عديدة لمناقشة اقتراحه. أمّا في المساء، وقد طفح الكيل بالزعيم الدرزي من لعبة القط والفأرة تلك، ولتقديره أنّه لم يعد هنالك، وضمن تلك الشروط، أيّ احتمالٍ لقيام تنسيقٍ صادق مع الحكومة اللبنانية، فقد أعلن أنّه سئم من عدم كفاءة الجميّل. وهدّد بالرجوع إلى دمشق. أمّا روبرت ماكفرلين فقد اضطُرّ، وقد استبدّ به الغيظ، أن يقدّم نفسه وسيطاً وصلة وصل بين لوبراني وحدّاد.

---

(1) حتّى أنّ وديع حداد لم يأت على ذكر أوري لوبراني بعد ذلك بعامين وهو يكتب مذكراته رغم ما فيها من تفاصيل، « Lebanon: The Politics of revolving doors »، «لبنان: سياسات الأبواب الدوّارة» ص 101.

في 27 آب/ أغسطس 1983، اجتمع فادي أفرام وعامير درووري حول طاولةٍ أُثقِلَت بخرائط هيئة الأركان[1] في مقرّ القيادة الإسرائيلية في الجمهور. وقد عرض قائد الجبهة الشمالية لمحدّثيه المخطط الذي انجزه مع إبرهيم طنّوس من أجل نقل الاستحكامات. كان ينبغي على جنوده الانتظار حتى يصير زملاؤهم اللبنانيون على مسافة 100 متر من مواقعهم قبل إخلائها. وسلّم درووري لفادي أفرام مخططات المناطق الملغّمة وخارطةً تظهر عليها المسارات التي ينبغي على الجنود الإسرائيليين أن يسلكوها مع التوضيح أنّ الجنرال أمنون ليبكنز سيكون المسؤول عن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الدامور فيما يتولّى الجنرال ڤيلني ماتان كل ما يقع إلى الشمال من تلك النقطة.

فسأل فادي أفرام:

- وماذا الآن إذا الجيش لم ينتشر؟

سوف نقوم في الأحوال كافّة بسدّ الطرق من الجانب السوري بعرقلتها وزرع الألغام فيها ثمّ ننسحب.

- وماذا بشأن المواقع التي على الخارطة التي سلّمناكم إيّاها؟

- سيكون من الصعب إعطاؤكم إيّاها قبل انسحابنا.

- وفي ساعة انسحابكم؟

- إنّ من سيأخذها ساعة انسحابنا سينالها!

فلاحظ فادي أفرام قائلاً:

- أي ذاك الذي سيكون الأسرع. وهنالك استحكامات عليكم تسليمها للجيش. لكن إذا لم ينتشر فينبغي أن نحصل عليها. أنتم لديكم دبابات في تلك المواقع، فهل يسعنا نشر دباباتنا في مواجهة السوريين؟

فرفض درووري قائلاً:

- سيكون صعباً معرفة ذلك قبل النهار ذاته.

كان أفرام يضبط غيظه بمشقّة فقال:

- ينبغي أن نستعد للأسوأ! ومن الأفضل أن نضع دبابات بمواجهة الدبابات المعادية بدلاً من قاذفات RPG[2].

- لا يسعنا تغيير الوضع الراهن قبل انسحابنا.

- نحن لا نريد ذلك الآن، وإنّما حين تقرّرون الرحيل وإذا كان الجيش لن ينتشر!

- خذوها بعد رحيلنا.

---

(1) مع فؤاد أبو ناضر وإيلي وزان (عباس)، والمقدّم داني روتشيلد (ضابط استخبارات درووري) وأمنون من الموساد.

(2) قاذفة صواريخ مضادة للدروع توضع على الكتف من صنع سوفييتي.

– قد يكون السوريون أسرع.

فصحح دروري قائلاً:

– لن يكون السوريون بل ربما الدروز.

فاقترح المقدّم داني روتشيلد، مسؤول الاستخبارات العسكرية في قيادة دروري[1] قائلاً:

– كلاّ. فأنتم تعلمون جيداً أنّهم يسيرون خلف السوريين.

– نحن لن نُبقيَ على شيءٍ في المكان، باستثناء التجهيزات التي يرغب الجيش اللبناني فيها. وبدلاً من أن تأخذوا مواقعنا في صوفر، دافعوا عن مواقعكم في بحمدون. وسوف يكون ذلك أسهل عليكم.

فأوضح فؤاد أبو ناضر، وهو يشير إلى المواقع فوق الخارطة المبسوطة على الطاولة:

– نحن لا نريد الذهاب إلى صوفر لكن إلى بحمدون. وأنتم سوف تنسحبون بالتحرّك من الجبهة نحو الخلف، أي نحونا نحن. فيتوجّب علينا الانتظار حتّى مروركم كي نتقدّم. وسوف تكون ميزة الوقت إلى جانبهم. وذلك ما ستكون عليه الحال في المناطق كافّة التي ستنسحبون منها.

فوافق داني روتشيلد قائلاً:

– فلنتقابل ونناقش ذلك بالتفصيل مع ضباطنا على الأرض. فأنتم تدلوننا على دروب وصولكم، ونحن نعدّل دروبنا وفقاً لذلك.

فسأل دروري:

– أنتم تطلبون منّا 20 نقطةً عالية. فهل تستطيعون حقّاً الصمود في تلك النقاط كلّها؟

فوافق أفرام قائلاً:

– نعم! فهي كلّها قريبةٌ من قرانا.

في 27 آب، وصل وديع حدّاد في سيارة السفير اللبناني في باريس إلى شارع برانلي، المواجه لنهر السين، أمام مبنى من مطلع القرن. وصعد برفقة السفير إلى الطابق الثاني ودق جرس الباب الوحيد الذي في الأعلى. إنّه منزل محافظ الصيد في الدولة، وهو اسم الوظيفة الرسمية التي يتولاها فرانسوا دو غروسوڤر، مستشار الرئيس الفرنسي. كان وليد جنبلاط يقف في الصالون المزدان بتذكارات الصيد، ينتظره وهو ينظر إلى نهر السين عبر واجهةٍ زجاجيةٍ فسيحة[2]. كانت المرّة الأولى التي يلتقي فيها الرجلان. تبادلا تحيّةً باردة واتّخذا مكاناً لهما حول مائدة. لقد أصرّ وديع حدّاد على عدم حضور أيّ إسرائيلي. أمّا المناقشة التي تولّى إدارتها مستشار فرانسوا ميتيران بتكتّم، فتناولت

(1) حين أصبح برتبة جنرال، جرى تعيينه منسّقاً للنشاطات الإسرائيلية في الضفة الغربية.

(2) كان هنالك أيضاً كل من مروان حمادة وخالد جنبلاط وريجيس دو بريه (مستشار الرئيس ميتيران) والأمير فاروق أبي اللمع، وروبرت ماكفرلين وريتشار فيربانكس.

بادئ الأمر اتفاقيّة 17 أيار/ مايو. فطالب جنبلاط بإلغائها. فاسترعى ماكفرلين ووديع حدّاد انتباهه إلى أنّها مجمّدة، نظراً لأنّها لم تصدَّق من قبل أمين الجميّل. وطلب إليه المبعوث الأميركي إقناع حلفائه السوريين بأن يقبلوا بالمناقشة مع بيروت لاتفاقيّةٍ مشابهة تعطيهم المكتسبات ذاتها التي حصل عليها الإسرائيليون. لكنّ جنبلاط رفض وألحّ على إعادة النظر في الاتفاقيّة وتصحيحها. وطالب إضافة إلى ذلك بتعهّدٍ من الرئيس اللبناني يمنح الميليشيات الدرزية للحزب التقدمي الاشتراكي حقوقاً في الشوف مماثلة لحقوق القوات اللبنانية في المنطقة المسيحية لا سيّما تلك المتعلّقة بالاحتفاظ بالثكنات. وأن يكون ذلك كلّه بضمانةٍ مزدوجة أميركية وفرنسية. كما ألحّ إلحاحاً شديداً على أن تكون هذه النقاط مفصّلة في وثيقةٍ تشكّل المرحلة الأولى من عمليّة مصالحةٍ وطنيّة قبل أيّ انتشارٍ للجيش اللبناني في الجبل.

اقترح روبرت ماكفرلين اتفاقيّةً أسرع: انتشار الجيش اللبناني مع وحدةٍ من القوة المتعددة الجنسيات في منطقة عاليه. وإنّ هذا التحرّك، الذي سيتمّ بالتزامن مع انسحاب للقوات اللبنانية من الشوف، سيتبعه تشكيل حكومةٍ جديدة مكلّفة بالإعداد للتفاهم الوطني. لكنّ وليد جنبلاط رفض. فقال وديع حدّاد، بلهجةٍ جافّة، وقد اغتاظ من عناده:

– لا بأس، أمّا وأنّكم لا تريدون إحلال السّلام فسوف نبعث إليكم بالجيش، إنّ 30 ألف رجل سوف يصعدون إلى الجبل.

فردّ الزعيم الدرزي قائلاً:

– أهلاً وسهلاً، ونهض مغادراً المكان بعد أن أكّد عدم جدوى مواصلة النقاش.

ثمّ رفض التوجّه إلى منزل رفيق الحريري في باريس لاستئناف المحادثات. أمّا حيال إلحاح لوبراني، الذي كان يتابع مجرى المحادثات عن بعد، فقد وافق وليد جنبلاط على الذهاب عند المساء، إلى منزل ريجيس دوبريه، الذي نظّم عشاء عمل. دامت المحادثات طوال الليل، وتمّ تدوين نصّ في حدود الساعة الخامسة من فجر 28 آب/ أغسطس. بعد ذلك ببضع ساعات بعث سفير الولايات المتحدة في باريس إلى زميليه في تل أبيب وبيروت في صيغة ببرقيّة صُنِّفَت «سريّة» وحملت اسم مهمّة ماكفرلين/ فيربانكس: **مشروع اتفاقية معقودة بين الحكومة اللبنانية والدروز.** وتنتهي بملاحظة متفائلة جداً حول التطور المتوقع للوضع في لبنان:

تمثّل هذه القائمة من المساعي جهداً بحسن نية ورغبة صادقة من كلٍّ من الطرفين المعنيين ومن قبل الإسرائيليين بهدف الوصول إلى ظروف تسمح بإنجاز اتفاقية سياسية تضمن رفاهية سكّان الجبل.

إنّ تلك القائمة، المفصّلة جداً عرضت نقاط الاتفاق وثبّتت ما تعهّد به كل طرف:

إنّ حالة المعارك المتبادلة في الجبل قد انتهت، والمظاهر المسلّحة كافّة سوف تُزال [. . .].

إنّ القوات المسلّحة كافّة الغريبة عن المنطقة سوف تُسحَب وإنّ وجودها محظورٌ في ثكنات عاليه والشوف وبعبدا. [. . .] إلغاء الثكنات غير الشرعية كافّة. [. . .] التوقف عن التجنيد غير الشرعي لأبناء الجبل وفرض الخدمة الإلزامية على السكان. [. . .] التوقف عن الملاحقات القضائيّة وإلغاء أوامر التوقيف الصادرة من قبل النواب العامين في الدولة بخصوص جرائم سياسية. [. . .] إنّ القوات الشرعية للسلطات هي: الجيش وقوى الأمن الداخلي، تساعدهما القوات المتعددة الجنسيات، وسوف يطبّقون هذه الاتفاقية ويحافظون على الأمن في مناطق الشوف وعاليه وبعبدا. وهنالك اتفاقيةٌ سياسية ترتئي أيضاً تشكيل حكومة وفاق مكلّفة بـ مراجعة الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية الأميركية وفتح حوار وطني للوصول إلى التصالح حول مختلف المسائل التي يواجهها الوطن، ويتوجّب على الولايات المتحدة ضمان تنفيذ الخطوات التي باشرت الحكومة اللبنانية باتخاذها والمتعلّقة بهذا المخطط [. . .] والتصرّف باسم الطرفين لتحديد وتجنيد مراقبين حياديين. أمّا الرئيس أمين الجميّل فيتعهّد كتابةً بأن تكون هذه الوثيقة أساساً لتسويةٍ سياسية، للإيعاز والحصول على وقف إطلاق النار تام وشامل في الشوف وعاليه والمتن. والحصول على انسحاب القوات اللبنانية من الشوف وعاليه، وتنظيم اجتماع مع وليد جنبلاط للتوصّل إلى تنفيذ تسوية سياسية ضمن سياق مصالحة وطنية. كان ينبغي على وليد جنبلاط القيام بالشيء ذاته حول النقاط كافّة وإعطاء موافقته المبدئيّة على الاجتماع مع الرئيس أمين الجميّل.

كان مقرراً أيضاً لهذا البروتوكول أن يتمّ إنجازه أثناء اجتماعاتٍ لاحقة بين جوني عبدو ممثلاً للحكومة اللبنانية والدكتور عاطف سلّوم عن وليد جنبلاط، قبل الثاني من أيلول/ سبتمبر 1983 على أبعد تقدير.

كان هذا النصّ يعني القوات اللبنانية إلى حدٍّ كبير، من غير أن يكون أيّ ممثلٍ لها قد أسهم في المناقشات. وإنّ احتمالات تطبيقه على أرض الواقع قد بدت، بسبب ذلك، معدومة أو شبه معدومة. وكان الجميع يعرف ذلك لكن ليس من أشار إلى ذلك تلميحاً.

غادر المشاركون في تلك المفاوضات باريس في اليوم ذاته. فتوجّه وديع حدّاد إلى بيروت فيما قصد وليد جنبلاط دمشق بصحبة مستشاريه الاثنين عبر جنيف، في حين توجّه روبرت ماكفرلين وريتشارد فيربانكس إلى لندن للمطالبة – دونما طائل – بزيادة عدد الجنود البريطانيين في القوة متعددة الجنسيات.

لكنّ الحدث الرئيس في ذلك النهار، الأحد 28 آب/ أغسطس 1983، قد جرى في القدس. فأثناء الاجتماع الأسبوعي لمجلس الوزراء، أعلن مناحيم بيغن، بصوتٍ خافت، أمام أعضاء حكومته المصعوقين، قراره بالاستقالة لأسباب شخصية.

ما إن نشرت الإذاعات النبأ، حتّى تقاطر مئات الإسرائيليين، بوجوهٍ متجهّمة قلقاً وحزناً، إلى

شارع بلفور، أمام مقرّ رئيس الوزراء صارخين بيغن، بيغن ملك إسرائيل، رافعين لافتات تقول **لا تسمح للذين يكرهوننا بالعودة إلى السلطة**. وتلاقت هذه المجموعات من المؤيّدين، بالخصوم السياسيين لرئيس الوزراء الذين رفعوا لافتاتٍ تحمل الرقم «517» - الذي يمثّل عدد القتلى الإسرائيليين في لبنان - أو عبارة «إرحل». وقد تجمّعوا، وكلّ فريقٍ في جانب، في أماكن متفرّقة من المدينة.

كذلك توالى طوال النهار، وفي اليوم التالي، توافد الوزراء والنواب من حزب الليكود إلى بيت مناحيم بيغن ساعين، دونما طائل، وراء جعله يتراجع عن قراره. لقد بدت على رئيس الوزراء منذ عدّة أسابيع ظواهر واضحة من الإرهاق الجسماني والذهني. فلم يقوَ على تجاوز ألمه بعد رحيل زوجته، أليزا، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1982، وكانت درجة تحسّنه شاقّةً جداً بعد الأزمة القلبيّة التي أصابته، وبعد الكسر الذي أصابه في عظم الفخذ في تشرين الثاني/ نوفمبر 1981. أمّا على الصعيد السياسي فإنّ استقالته، التي لن تستدعي إجراء انتخاباتٍ تشريعيّة، ستنتهي بتغيير رجلٍ واحد. لكن بقي أن يعرف الناس من سيجري تعيينه خليفةً له.

باشرت السير في لبنان، في ذلك النهار، حربٌ لا تعرف الرّحمة. فقد أُطلِقت أولى العيارات النارية في أحد أحياء الضاحية الجنوبية من بيروت، في حيّ السلّم، المجاور لمطار بيروت الدولي[1]. إذ اخترقت سيارةٌ حاجزاً على الطريق يتولى الإشراف عليه جنودٌ لبنانيون وجنود من البحرية الأميركية. وقد فتح أولئك النار على السيارة. وكان ذلك بمقام إشارة. فقد ظهر على الفور عناصر الميليشيا الشيعية من حركة أمل مجهّزين بأسلحة أوتوماتيكية، فوق السطوح وعلى النوافذ. واتّخذوا من العسكريين أهدافاً لهم. فردّ الجنود الأميركيون مستخدمين رشاش M16 وM60. فارتدّ المهاجمون بعد نصف ساعة من تبادل النيران وبعد وصول تعزيزات أميركية. عندئذ قام الدروز بقصف المواقع المتقدّمة للجيش اللبناني والوحدة الأميركية حول مطار بيروت الدولي. واحتلّ عناصر من الميليشيات الشوارع والأحياء المجاورة وتدفّقوا إلى بيروت الغربية، مهاجمين مواقع الجيش. فاستولوا على بعض المدرعات الخفيفة التي انطلقوا بها لينقلوا المعركة إلى مسافةٍ أبعد. واندفعت الميليشيا المسيحية إلى مواقعها على الخط الأخضر الذي يقسم بيروت إلى شطرين. فعاد النشاط إلى خط التماس بين شرق المدينة وغربها، ليحظر السير بين القطاعين الاثنين. وصارت المنطقة المسيحية هدفاً للمدفعيّة الواقعة في جزء من المتن الذي كان تحت السيطرة السورية. وتولّت مدفعيّة «القوات» الرد. أمّا في المريجة، فقام عناصر مسلّحون من الشيعة بتعليق صور الإمام موسى الصدر على جدران الكنيسة واجتاحوا مقرّ حزب الكتائب. وقام آخرون بنهب منزلَي كلٍّ من رئيس

(1) أصبح اسمه، بعد 14 آذار/ مارس 2005، مطار رفيق الحريري الدولي.

الوزراء شفيق الوزّان ورئيس البرلمان كامل الأسعد. ولقد باغت التمرّد القيادة العسكرية. ففقد الجيش في بضع ساعات عدّة مواقع. وجرى استدعاء كتائب من الألوية الثالث والرابع والسادس والثامن إلى أماكن الأحداث وإلى الضاحية الجنوبية في عمليّة هجوم معاكس حقيقيّة تواصلت بشراسة طوال الليل.

قام رونالد ريغان باستدعاء هيئة أركان الأزمات لتفحّص الوضع في لبنان قبل أن يصدر الأمر بالردّ. وعند الفجر خرست الرشاشات ومدافع الهاون التي استهدفت قوات المارينز الأميركية، بعد أن قصفتها حوّامات الكوبرا التي انطلقت من على ظهر بوارج الأسطول السادس. واحتلّ الجيش اللبناني على طريق المطار الدارة الضخمة التي كانت مقرّ القيادة العامّة لحركة أمل. لقد أوقعت المعارك وعمليات القصف، التي دامت 24 ساعة، 42 قتيلاً بينهم خمسة عشر من العسكريين، و176 جريحاً. وأصبحت بيروت محرومة من الماء والكهرباء.

شرعت مئات العائلات من بيروت الغربية، تتكدّس في عربات تغص بالحقائب والفرش، تولّي هاربةً من مناطق المعارك. وتدفّقت أمواجٌ من وسائط النقل على الطرق الساحليّة المؤدّية إلى صيدا متسبّبة باختناقاتٍ مرورية يتعذّر حلّها. وأعلنت القوات اللبنانية الاستنفار العام بطلب الاحتياطيين، واستدعت الزعماء المسيحيين كافة لإحاطتهم علماً بحقيقة الأمر. ومن دمشق، ارتفع صوت وليد جنبلاط يندّد تنديداً عنيفاً بتدخّل الجيش في بيروت. وأعلن أنّه لن يشارك من بعد في الاجتماعات التي من شأنها انجاز الاتفاق الذي جرت مناقشته قبل يوم واحد في العاصمة الفرنسية.

ولقد صرّح في وقت لاحق[1]: **لم يحصل من اتفاقٍ قط. لقد كنّا في باريس نسعى للتوقّي من كارثةٍ كبرى. لكنّه كان اجتماعاً شكليّاً. بإلحاحٍ من الفرنسيين والأميركيين. وكان الأوان قد فات. فواقع الأمر أنّ سوريا كانت قد أغلقت الأبواب كافّة بإحكام وكان كلُّ شيءٍ جاهزاً لبدء الصراع.**

كانت شوارع بيروت مقفرة، تتجاوب في أرجائها فرقعات الأسلحة الأوتوماتيكية المتفرّقة والانفجارات. وكانت تجري مراقبة المعارك بالمناظير المقرّبة من قبل ضباط الاستخبارات الإسرائيليين من مقرّها العام – دارة الأمير السعودي في الجمهور – التي تشرف على المدينة. إنّها ملجأٌ حقيقي من الهدوء والأمن، فهي لم تتّخذ هدفاً قط. وصل فادي أفرام إلى هنالك في 29 آب/ أغسطس 1983، عند الساعة الحادية عشرة بصحبة فؤاد أبو ناضر وإيلي وزّان (عبّاس)، وسمير جعجع، قائد القوات اللبنانية في منطقة بحمدون، ونازار ناجريان الذي كان يتولى الإشراف على المنطقة الجنوبية من الدامور، من أجل لقاء الجنرال عامير دروري وهيئة أركانه[2]. أكّد القائد العام «للقوات» قائلاً:

---

(1) من جنبلاط إلى آلان مينارغ 1992.

(2) الجنرالان يلني ماتان أمنون ليبكنز والعقداء إريتس شايكي وداني ياتوم رئيس أركان المنطقة الشمالية، وداني روتشيلد والمحللين في الموساد وآمان روفن إيرليخ ودوبي وأمنون.

– لن يكون هنالك، وفقاً لاستخباراتنا، من اتفاق بين الحكومة والدروز. وإنّما بخلاف ذلك! فما يجري في بيروت منذ يوم أمس تجسيد للمخطط الذي وضعه السوريون لإقامة التلاحم بين ضاحية بيروت الجنوبية وعاليه عبر الشويفات، والذي سبق أن تحدثنا إليكم بشأنه. إنّ اللواء الثامن الذي كان يستعد للانتشار في الجبل منشغل اليوم في بيروت. ولم تعد المشكلة الآن أن نعرف إن كان هنالك اتفاقية أم لا، وإنّما إن كان الجيش سينتشر أم لا.

فأكّد دروري قائلاً:

– لقد اعتقدنا أنّ الجيش سينتشر حتّى في حال عدم وجود اتفاقية.

– ذاك ما أكّده الرئيس.

فأعلن عامير دروري ملمّحاً لتصريحات وزير الدفاع الإسرائيلي، عشيّة الاجتماع في باريس:

– نحن بحاجة في هذه الحال، لقرار من حكومتنا كي نعرف إن كنّا سندع الجيش يدخل إلى المنطقة بتغطيةٍ من قبلنا، أو أنّه سينتشر بعد انسحابنا. ونحن على استعداد للاحتمالات كافّة. ولقد عززنا وحداتنا لنتمكّن من مواجهة تطورات غير متوقّعة. ولسوف نحافظ على الهدوء حتى رحيلنا. وسوف نحيطكم علماً قبل الرحيل. لكن لن نستطيع فعل شيءٍ في المنطقة من بعد أن نغادرها. ولسوف نعمد إلى إغلاق المنافذ كافّة إلى تلك المنطقة من الشمال والشرق...

فقاطعه أفرام قائلاً:

– لقد قلت لتوّك إنّكم ستحيطوننا علماً قبل انسحابكم. لكن بكم من الوقت قبل الانسحاب؟

فأجابه دروري بعد هنيهة من التفكير:

– قبل يوم واحد. سنحيطكم علماً قبل انسحابنا بـ 24 ساعة وسندلّكم على المواقع التي سنقوم بإخلائها.

فأبدى أفرام قلقه قائلاً:

– لكن لا تكفي 24 ساعة لتنظيم كل شيء. علينا أن نُعِدّ أنفسنا للأسوأ. وهل الآخرون سيعرفون ذلك أيضاً؟

فردّ دروري بسخرية:

– سيكون صعباً إخفاء ذلك.

– إذن سيكون هنالك سباقٌ بيننا وبينهم. فهل يمكن أن تسهّلوا الأمور علينا بمساعدتنا على احتلال المواقع التي نريدها؟

فوعده الضابط الإسرائيلي قائلاً:

– سوف ننسحب على نحوٍ يمنحكم امتيازاً. فسوف تعرفون متى سيتمّ ذلك وكيف عن طريق ضباط الارتباط.

فألحّ سمير جعجع قائلاً:

- لكن هل الآخرون سيعرفون ذلك أيضاً؟

- هنالك فارقٌ بين من يعرف مسبقاً، وبين من يرى بعينيه.

فأكّد أفرام قائلاً:

- إذا ما عرف الجيش بذلك، فسوف يعرف به الجميع.

فأكّد عامير دروري:

- إذا ما قام الجيش بالانتشار فسوف يحاط بذلك علماً، وإلاّ فلن يدري بشيء. ومن الصعب علينا تحديد الساعة منذ اليوم، لكن بوسعكم معرفة مخطط الانسحاب وأنماطه. أمّا تحديد الوقت بدقّة فيرتبط أيضاً باعتباراتٍ أخرى. وهنالك أشياء لا نستطيع أن نتوقّعها الآن.

- لا بأس. لكن إن كان هنالك قصفٌ مدفعي صادرٌ عن المناطق التي تشرفون عليها، فهل يسعكم أن تتولوا أمره؟ فنحن لا يسعنا الردّ بسبب وجودكم.

فوعده عامير دروري قائلاً:

- سوف نتصرّف على نحو عدم وقوع ذلك، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نكون واثقين مئة بالمئة.

- إنّنا بحاجة لإرسال تعزيزات إلى الدامور. وطريق الشويفات مغلق. فهل يسعنا إرسالها عن طريق البحر؟

- في الليل.

فأضاف أبو ناضر:

- وهنالك دبابات؟

- ماذا تريدون أن ترسلوا على وجه الدقة؟

- 200 جندي، VTT 2، وسبع دبابات.

- أين تريدون وضع الدبابات؟

- في المشرف.

- اتفقنا.

فقال سمير جعجع:

- هنالك جسرٌ بين الرويسات ورأس المتن نريد أن ننسفه.

فقال الضابط الإسرائيلي مؤكّداً:

- لقد قمنا بتلغيمه. ولا يسع أحداً الوصول إليه، بسبب الخطورة الكبرى.

- أعطونا مخططات التلغيم. ونحن سنتولى أمرها.

– إننا نقوم بإعدادها وسوف نعطيكم إيّاها قبل رحيلنا.

بعد عصر ذلك اليوم، وفي حدود الساعة الخامسة، كان ما يقرب من 30 عنصراً من الشيعة بوجوهٍ مقنّعة وصدورٍ منتفخة، بمخازن الذخيرة، مشرّعين بنادق الكلاشنيكوف ينبقون على نحوٍ مباغت، من غير أن يدري أحدٌ من أين، من شارع فيردان، في وسط بيروت الغربية، داخل منطقةٍ سنيّة. فاحتلوا مبنى التلفزيون وقد ملأ صراخهم المكان. يجأرون بالصراخ. استولى الرعب على العاملين فوقفوا بملاصقة الجدران. فاندفع المهاجمون إلى أقسام المسرح والاستديوات مطالبين، تحت تهديد السلاح، بالنشر الفوري لصور الإمام موسى الصدر – الذي اختفى في ليبيا في نهاية آب/ أغسطس 1978 –، والزعيم الدرزي كمال جنبلاط وأيضاً شعار حركة أمل. واستقرّ أحدهم وراء الميكروفون لينطلق في نقدٍ لاذع للجيش والعمليّة التي يقوم بها منذ 36 ساعة في الضاحية الجنوبية.

اتّخذت وحدةٌ من الجيش موقعاً حول المبنى دون أن تتدخّل. وبعد ثلاث ساعات من الأخذ والردّ، على أعلى مستوى، قبل رجال الميليشيا بتسليم المحطّة سلميّاً لرجال الأمن الداخلي مقابل انسحاب الجنود، الذين احتلّوا المقر العام لحركة أمل، والضمان بأن يخرجوا بحريّة مع احتفاظهم بأسلحتهم. إنّ تلك التنازلات الممنوحة من قبل السلطة حدّت إلى درجةٍ كبرى من الأثر النفسي بعد أن وضع الجيش يده على بيروت الغربية. كما أعطت بالمقابل للميليشيات شعوراً غامراً بالقوّة، لم تنتقص منه في شيء العملية المجوقلة التي قام بها المظليّون لانتزاع الإشراف من يد حركة أمل على برج المرّ المؤلف من 37 طابقاً والذي كان مسيطراً على مركز المدينة.

وكان إبرهيم طنّوس قد أعطى الأمر للوحدة المنتشرة حول التلفزيون بالتدخّل بالقوة لاحتلاله. لكنّ هذا القرار استجرّ على الفور احتجاجات داخل القيادة فلم يجر تنفيذ الأمر.

كانت الألوية الأربعة العاملة في بيروت وضاحيتها بحاجةٍ لأربعة أيّام على الأقل، كي تعيد إحلال الهدوء نهائيّاً. فيستحيل عليه إذن التفكير بأيّ تحرّكٍ نحو الشوف. وإذاً ما حافظ الإسرائيليون على برنامجهم الزمني في الانسحاب، فليس للوضع إلّا أن يزداد سوءاً. ليس سوى أمين الجميّل من يستطيع وحده الحصول على المهلة الضرورية بالطلب مباشرةً من تل أبيب. فطلب قادة القوات اللبنانية لقاءً معه. فرفض استقبالهم. فمنذ زيارة أرينز إلى بيروت، عافت نفس أمين رؤيتهم. فعملوا على تبليغه الرسالة عن طريق طرفٍ ثالث لكن بلا فائدة. وفي ليلة 29 آب/ أغسطس 1983، وجّه إليه فادي أفرام رسالةً كتبها بخط يده بالفرنسية:

[. . .] أعرف أنّ قضية أرينز قد أخرجتك عن طورك. أرغب، قبل كل شيء، في أن أؤكّد لك أني المسؤول الوحيد والأوحد. فأنا الذي قمت بترتيبها. تصرّفت بدافع من تقييمي للوضع تجاه الإسرائيليين. ربّما كان عليّ أن أحيطك علماً بذلك. [. . .] إنّ اقتراب موعد إعادة الانتشار الإسرائيلي والإصرار على حدّة التوتر في علاقاتك معهم، (يمكن أن تكون لها) انعكاساتٌ خطيرة

على رجالنا في عاليه والشوف في حال انسحابهم دون إعلامٍ مسبق ودون انتظار انتشار الجيش [. . .].

ظننت أنّا بحاجة لـ«صدمةٍ كهربائيّة» لنحسّن سريعاً علاقتنا بهم، بحيث [. . .] نسترجع مواقعهم الاستراتيجية في بحمدون وسوق الغرب (إذا كان الجيش لا يستطيع الانتشار).

نحن من ناحيةٍ أخرى بحاجةٍ ملحّة للأسلحة والذخائر. وأعتقد أنّ هذا قد أعطى نتائجه.

[. . .] ومهما يكن من أمر، فأنا مؤمنٌ إيماناً راسخاً بأنّه ليس لشيءٍ أن يبعد بعضنا عن بعض. يضاف إلى ذلك ما أحمل حيالك من مودّةٍ وتعاطف (لستُ من النوع الذي يجيد الإطراء!). ولست راغباً مهما يكن الثمن بأن أكون مشكلةً في دربك. بل أقدّر، بخلاف ذلك، أنّ القوات اللبنانية ومجموعتنا على وجه الخصوص، ينبغي أن تكون أداةً أساسيّة في سياستك.

[. . .] قد تكون هنالك اختلافاتٌ في وجهات النظر حول مسائل عديدة أساسيّة، منها على سبيل المثال:

- سوريا وإمكانات الحصول على انسحابها بوسائل دبلوماسية.
- الجيش اللبناني وإمكانياته في التصدّي لمشكلةٍ داخليّة.
- إسرائيل، وهنا يقع الاختلاف الأكبر في مفاهيمنا. فنحن مقتنعون بأنّ علينا أن نحالفها، في حين أنت، تريد أن تكون العلاقة دبلوماسيّة حصراً ورسميّة. [. . .]
- الولايات المتحدة ودرجة التدخّل لدعمنا. تدخّل عسكري؟ إمكانيات الضغط على سوريا؟

نحن نعتقد بضرورة وجود صلة، بل تحالف، ثلاثي: لبنان – الولايات المتحدة – إسرائيل، وتتوّج الولايات المتحدة فيه تعاوناً لصيقاً وتكتيكيّاً مع إسرائيل.

- [. . .] بعد هذا، أعتقد حاليّاً بضرورة التصدّي، يداً بيد، لوضعٍ حرج.

إنّ سوريا لا تقبل بأن يكون أمين الجميّل رئيساً للجمهورية، وهي تريد إسقاطك. وأظن أنّه لم يعد لديك أدنى شك في هذا الموضوع.

إنّ الوسيلة الوحيدة لمواجهة كلّ ذلك [. . .] هي التوصّل إلى تنسيق عميق وسريّ مع الإسرائيليين. أنا أفهم أنّك لا تثق بهم بعد «وثيقة شارون» الشهيرة. لكنّ أرينز ليس شارون [. . .]. وأنا مقتنع أنّ ليس «سواك» من يستطيع أن يعكس الوضع في 24 ساعة! وأنا أرى أنّك إذا توصّلت إلى خلق هذه الصلة وهذا الجو فسوف ينفّذون كلّ ما ترغب فيه:

- سينزعون سلاح الحزب التقدمي الاشتراكي.
- سيساعدون على ضرب الشيعة، وإذا ما رغبت، على وضع خطّة مشتركة تنسّق لإبعاد السوريين، حتّى بصورة متدرّجة.

أظنّ أنّها فرصتنا الوحيدة في النجاح!

وليحمك الله.

مع كلّ التقدير والاحترام.

فادي

بلغ قلق المسيحيين حول مصيرهم درجةً جعلت عدداً متزايداً من المسؤولين في القوات اللبنانية يدعون إلى عمليّة «انقلابٍ داخلي» لاستبدال أمين الجميّل على رأس الطائفة. فهم يأخذون عليه، كيفما اتفق، افتقاره للمبادرة، والرؤية السياسية واتخاذ القرار. فارتفعت أصواتٌ عديدة، أثناء اجتماع قيادة «القوات»، قبل ظهر يوم 30 آب 1983، تطالب فادي أفرام بالتصرّف ضمن هذا الاتجاه. وكان أنطوان نجم أشدّهم تصميماً. فقد أكّد قائلاً:

– لم يعد بيار الجميّل ولا أمين من القادة. فسياسة لبنان تتحدّد خارجيّاً. ونحن نمرّ في مرحلة تاريخيّة. وأنا أقف دون قيدٍ أو شرط، إلى جانبك يا فادي على أن تكون حاسماً في عملك. أنت أمل المسيحيين، والوضع هو الذي يفرض ذلك عليك. بادرْ فتولّ القيادة وافتحْ مكتباً للقوات اللبنانية في القدس أو في تل أبيب.

فتدارك قائد الميليشيا ذلك قائلاً:

– إنّ الشوف وبيروت هما المعركتان الأساسيّتان اللتان علينا أن نخوضهما على الفور.

ولئن لم يقم أحدٌ، بين أعضاء القيادة بالردّ سلباً على اقتراح أنطوان نجم، فإنّ فادي أفرام كان يعرف حقّ المعرفة أنّ مثل ذلك «العمل القسريّ» سوف يؤدّي إلى انشقاق عميق في صفوف القوات اللبنانية. فالشعور بالانتماء إلى حزب الكتائب والتقديس العميق الذي يحمله بعضهم حيال بيار الجميّل، بدءاً من فؤاد أبو ناضر أو إيلي الزايك، سوف يؤدّي حتماً إلى انشقاقٍ في صفوف الميليشيا، تكون نتائجه ضارّةً بالنسبة إلى الطائفة المسيحية بمجموعها. زد أنّ، افتقار فادي أفرام للطموح الشخصي في هذا المجال كان جليّاً وواضحاً. كما كان يعرف فقط أنّ أمين الجميّل سيحاط علماً بكلّ شيء في الساعة التي تلي الاقتراح الذي عُرِضَ عليه. فلا يسع الرئيس إذن، بوصفه رجل تنفيذ قرار لا رجل قرار، إلّا أن يردّ ردّاً عنيفاً.

كان الشاغل الأساسي لقيادة القوات اللبنانية في اللحظة الراهنة التوصّل إلى إقناع الإسرائيليين بخطورة الوضع العسكري المحيط بـ «القوات». لقد كانوا مقتنعين وقد خططوا لإعادة احتلال لبنان بعد الانسحاب الإسرائيلي، مع دعمٍ مباشر من الدروز. أمّا بالنسبة إلى الإسرائيليين فليست المسألة سوى «شأن درزي» بسيط. إنّ التمرّد في بيروت الغربيّة وقرب انسحاب الجيش الإسرائيلي من الشوف سوف يرغمانهم على القتال على جبهتين اثنتين. وقد بعث فادي أفرام برسالتين إلى تل أبيب:

30-8-1983 إلى بيتر من لاري

إن اجتماع الخميس الماضي في تل أبيب، مع قائد هيئة الأركان، والاجتماعات التي عقدناها

مع الجنرال دروري كانت مخيبة للآمال. فنحن، الذي أسهمنا في التخطيط لما قبل الحرب، لم نشعر قط بأننا بعيدون كلّ هذا البعد عنكم.

نحن لم نلمس أية رغبةٍ من جانبكم لمساعدتنا. لقد طلبنا، لدى الحديث مع الجنرال دروري حول احتمال عدم انتشار الجيش اللبناني في الشوف وعاليه بعد انسحابكم، أن تقوموا بتسليمنا بعض المواقع الاستراتيجية خصوصاً على الجبهة السورية. لكنّ جواب الجنرال دروري - أنه يستحيل عليكم إحداث انقلاب في الوضع القائم - فكان مخيّباً لآمالنا. نحن نشعر بوجود فراغٍ ينبغي ملؤه. فهل يسعكم توجيهنا نحو طريقة القيام بذلك؟

مع أطيب التحيات.

رسالة مستعجلة رقم 7641 في 30 - 8 - 1983

إلى صاحب السعادة موشيه أرينز وزير الدفاع. من فادي أفرام.

يتّخذ مجرى الأحداث منعطفاً شديد الخطورة. [. . .] فنحن نزداد قناعة بأنّ علينا، نحن القوات اللبنانية، أن نتحمّل عمّا قريب عبئاً عسكرياً ثقيلاً، سواءً في الجبل أو حتّى في بيروت، في حال لم يكن الجيش قادراً على مواجهة الوضع. سيكون صعباً علينا أن نقاتل على عدّة جبهات في الوقت ذاته. فإذا أمكن الإبقاء على الوضع الراهن في الجبل، عن طريق إطالة وجودكم، فسوف يكون بوسعنا أن نعمل في بيروت. وإلاّ، فسوف نكون مرغمين على الإبقاء على الوضع الراهن في بيروت، مع إعادة تفعيل خطوط المواجهة القديمة، تاركين بيروت الغربية على ذلك النحو تحت إشراف العدو.

إنّنا بحاجة لمعونتكم ولدعمٍ منكم. ونرجوكم أن تفصلوا بين علاقتكم بالرئيس ودعمكم للمسيحيين عبر القوات اللبنانية. شاركونا في مخططاتنا، فلا يمكن لأهدافنا إلاّ أن تكون متماثلة. نحن بحاجةٍ لمعونة منكم بالأسلحة والذخائر. نحن بحاجةٍ لدعم منكم لكي يكون احتمال الفوز الأكبر إلى جانبنا في حال قررتم إعادة الانتشار حتّى لو لم يقم الجيش اللبناني بملء الفراغ.

نحن نفهم مضايقاتكم من ناحية استئناف تقديم العون للقوات اللبنانية كما كانت الحال منذ 1976. صدقوني، على الرغم من ذلك، أنّ القوات اللبنانية تعمل وفقاً لإرادة المسيحيين في لبنان ومصالحهم، وهم الذين يرون في إسرائيل حليفاً رئيساً. سوف تواصل القوات اللبنانية سلوك هذا الاتجاه، مهما تكن المضايقات الداخلية التي قد تأتي من الشيخ بيار أو من الرئيس. [. . .]

مع أطيب التحيات

ظلّت مواقع القوات المتعددة الجنسيات تتعرّض، طوال يوم 30 آب/ أغسطس، لعمليات إطلاق نار مباشرة انطلاقاً من مصادر جرى تحديدها في جبل الشوف، دون الردّ عليها. ولم يشأ أيّ ناطقٍ رسمي باسم الوحدات التي تدخل في تشكيلها، تحديد هويّة تلك المصادر. فالقيام بذلك كان

سيؤدّي إلى الإشارة إلى أحد أطراف الصراع فيما الأمر المتشدّد كان يقضي بالتزام حيادٍ مطلق. إنّ ذلك الصمت - وهو اعترافٌ واضحٌ بالضعف - لَيُبَرهن، إن كان من ضرورةٍ للبرهان، على عجز «قوّة الفصل» تلك وعلى تهميشها، وهي التي تتمتع على الرغم من ذلك بقوّةٍ قتالية يحسب حسابها.

أعطى نبيه برّي الأمر لميليشياته بالكف عن القتال. وانسحبوا إلى الضاحية الجنوبية من بيروت، حيث فرضوا قوانينهم التي وصلت إلى حدّ تسميات جديدة للشوارع بأسماء زعماء دينيين من الشيعة. وفي البقاع أقام رجال حركة أمل، كما أولئك الأكثر تعصّباً والقريبين من إيران، من حركة أمل الإسلامية بقيادة حسين الموسوي، حواجز على الطرقات لاعتراضالعسكريين اللبنانيين الذاهبين في إجازة. وقد جرى توقيف قرابة عشرين منهم في يومٍ واحد. فوجّه أمين الجميّل علناً، الدعوة إلى وليد جنبلاط ونبيه برّي للقدوم والتحادث معه في بعبدا. فرفض الرجلان الذهاب «تحت تهديد الضغط العسكري».

أعطت رسالة فادي أفرام، وخصوصاً الكلام الذي قيل أثناء اجتماع قيادة القوات اللبنانية، ثمارها. فدعا أمين الجميّل قائد القوات اللبنانية إلى القصر الرئاسي عند المساء. وقد بلغته «الدعوة» ساعة علِمَ أنّ مجموعةً من ميليشياته، وقعت في كمين، وقُتِلَت في الشوف. فكان عصبيّ المِزاج، وهو يطلب إلى أنطوان بريدي أن يرافقه. فقاد بنفسه سيارته المرسيدس المصفّحة، وتوجّه دون حرسٍ شخصيّ، إلى بعبدا، تحت قصفٍ مدفعيٍّ متفرّق أدّى إلى إفراغ الشوارع. جرى اصطحابهما إلى الصالون الصغير الخاص في الطابق الأول من المقرّ الرئاسي. كان أمين متجهّم الوجه وقد استقبلهما استقبالاً بارداً. وجّه إليهما اللوم مجدّداً بسبب علاقاتهما مع الإسرائيليين، والتي يعتبرها تحدّياً واضحاً حيال حلفائه السُنّة. فردّ عليه أنطوان بريدي بجفاء ذاكراً حماية المسيحيين وفقدان زعامة الطائفة، مورداً مثالاً عمل بشير الجميّل في هذا المجال. فنهض الرئيس نهوضاً مباغتاً، وقد احمرّ غضباً. فأمسك بجهاز تحكّم التلفزيون الذي كان أمامه وقذف به بكلّ عنف طاولة الصالون الزجاجيّة صارخاً:

- أنتم تراهنون على موتي! تراهنون على فشلي لاستبدالي! تراهنون على سقوط الدولة! أنتم تريدون قتلي...

نظر الرجلان إليه ذاهلين. تنهّد أمين بعمق، واستعاد هدوءه فاعتذر على ثورة غضبه. فنهض أفرام وبريدي بدورهما، فألقيا عليه التحيّة وغادرا القاعة.

31/ 8/ 1983

رسالة من وزير الدفاع موشيه أرينز إلى فادي أفرام.

أشكرك على رسالتك بالأمس. نحن نتابع أحداث بيروت الغربية وخارجها بقلقٍ وانزعاج كبيرين.

إنه لمن مصلحتنا، كما تعلم، ألاّ تفقد القوات المسلّحة اللبنانية وقواتكم اللبنانية طبعاً، أيّ أرضٍ بعد خروجنا، وأن تنجح في تحقيق إشرافٍ فعليّ على هذه المنطقة الحيوية. وأرغب في أن أضيف أنّ الأنباء الأخيرة حول المعركة المستعرة الآن في بيروت الغربية، أنباءٌ مشجّعة. وجرت إحاطتنا علماً بأنّ القوات المسلحة اللبنانية تبدو وقد تمكّنت من السيطرة على موجة المدّ؛ وأنها استعادت زمام المبادرة. إنّه تطورٌ إيجابي ويوحي بالتفاؤل للمستقبل.

آمل ألاّ أكون بحاجة لتكرار ما قلتُ مطوّلاً، لكم ولمواطنيكم، أثناء زيارتي الأخيرة لمركز قيادتكم: إنّي أعلّق شخصياً أهميةً كبرى على العلاقات الوثيقة والتعاون المجدي القائمة بيننا وبين قواتكم.

كانت هذه الصلة المفيدة مصدر تشجيعٍ لنا، وآمل أن تنمو هذه العلاقة وتزداد عمقاً. وواقع الأمر، أني، إضافة إلى التعاون الراهن في تطويرِ قواتكم، أعطيت التعليمات إلى الجنرال ليي لتلبية طلباتكم المُلِحّة، بأسرع ما يمكن وبأقصى ما نستطيع. وعليه، فأنا واثق من أننا، عندما يحين الوقت، سوف ننسّق إعادة انتشارنا معكم، إلى أقصى حدٍّ نستطيعه. وأنا مطلع على الترتيبات القائمة بينكم وبين الجنرال دروري في هذا الشأن.

إنّها حقاً أوقاتٌ عصيبةٌ وحاسمة بالنسبة إليكم وإلى جميع اللبنانيين المتعطشين للحرية. واسمحوا لي أن أتمنى لكم ولزملائكم الحظ السعيد والنجاح التام.

قررت القوات اللبنانية، وقد شدّت تلك الوعود من عزائمها، إرسال دباباتٍ لدعم مواقع سمير جعجع في بحمدون. فاصطدمت برفضٍ قاطعٍ من الضباط الإسرائيليين على الأرض. إنّ التعاون بين أجهزة الاستخبارات العسكرية للقوات وبين الجيش الإسرائيلي صارت، على نحوٍ مباغت، محدودةً في غرضها. فقد قلل جهاز آمان من تسريب معلوماته للميليشيا المسيحية لتقتصر فقط على تحرّكات القوات السورية في سهل البقاع، مع التكتم التّام حول أوامر التحرّك لمنظمات حزب الله، أو الشيوعيين أو الدروز أو الفلسطينيين.

أوقفت القوات اللبنانية نهائياً مخطط معركتها. لقد كانت مسيطرة على نقاط المداخل الثلاثة الواقعة على خط القمم الممتد غرباً وشرقاً، والمتجهة من البحر إلى ضهر البيدر: المشرف ومحيط قرية كفرمتى فوق الدامور، بقيادة فؤاد أبو ناضر، وسوق الغرب تحت إمرة إيلي وزّان (عبّاس)، وجيبٌ واسع في بحمدون يشرف على طريق بيروت-دمشق والذي يتولى قيادته سمير جعجع. كانوا عازمين على إنشاء سدّ في بحمدون لإغلاق الطريق أمام وصول القوات السورية-الدرزية القادمة من شتورة والبقاع. كان مقرّراً لهذه السد أن يصمد طوال الوقت الضروري الذي يتيح، في مرحلةٍ أولى، لوحدات فؤاد أبو ناضر المتقدّمة نحو الشرق، ووحدات عباس المتّجهة نحو الغرب، بالتلاحم معاً بين سوق الغرب والمشرف. وينبغي بعدئذ لهاتين القوتين القيام بحركةٍ نحو الشرق، لاحتلال عاليه

أو الالتفاف من حولها والتقدّم لتدعيم قوات سمير جعجع والقيام بهجوم معاكس متوقع باتجاه مضيق ضهر البيدر. وكان يرتئي المخطط، من بعد إغلاق المضيق إغلاقاً تامّاً، أن تقيم الميليشيات المسيحية اتصالاً بالمنطقة التي يشرف عليها الإسرائيليون عند نقطةٍ إلى الشمال أكثر من استحكاماتهم، عند جبل الباروك، على أقل من 4 كم من ضهر البيدر. وذلك كلّه مع تركهم أمين «يتدبّر» أموره بنفسه في بيروت.

أصدر وليد جنبلاط أمراً للجنود الدروز بترك مواقعهم والتجمّع في ثكنة مدينة حمّانا، في المتن الشمالي تحت الإشراف السوري. يدخل هذا القرار ضمن مشروعٍ من شأنه إضعاف أمين الجميّل بتقليص قوّاته. فالضباط الذين يلتحقون بنقطة التجمّع تلك كانوا يرسلون إلى قراهم لتدريب ميليشيا الحزب التقدمي الاشتراكي وقيادتها، وحيث تلتحق بجيش التحرير الشعبي بقيادة العقيد رياض تقي الدين[1]. ذلك ما كشف عنه الزعيم الدرزي بعد زمن طويل[2].

طلب أمين الجميّل إلى حكومته إصدار طلب لبناني رسميٍّ بانسحاب الجيوش الأجنبيّة كافّة من لبنان. كان جيش الدفاع الإسرائيلي مقصوداً بذلك بالتّأكيد، لكنّ الطلب يطال الجيش السوري أيضاً. وطلب من إيلي سالم نقل هذا المسعى إلى الجامعة العربية التي أقرّت دخول السوريين إلى لبنان عام 1976. فأرسل وزير الخارجية اللبناني في الأول من أيلول/ سبتمبر 1983 رسالةً من أربع صفحات إلى الشاذلي القليبي، الأمين العام للجامعة العربية. وبعد الإشارة إلى القرارين 509 و520 الصادرين عن مجلس الأمن للأمم المتحدة، والقرار الصادر عن مؤتمر القمة الثاني عشر لبلدان عدم الانحياز في نيودلهي، ذكّر إيلي سالم في رسالته بأنّ:

[. . .] كان لبنان قد قدّم، أثناء مؤتمر فاس من 6 إلى 8 أيلول/ سبتمبر 1982، خطّة عمل لجلاء القوات غير اللبنانية عن أرضه. وتطلب المادة الرابعة لتلك الوثيقة من القمّة أن تأخذ علماً بتصريح السلطات اللبنانية حول:

– الإعلان عن جلاء القوات المسلّحة غير اللبنانية كافّة عن لبنان.

– الإعلان عن التوقّف النهائي عن كل نشاط عسكري فلسطيني على الأرض اللبنانية وانطلاقاً منها، ووضع حدّ للوجود المسلّح لكافّة للمنظمات الفلسطينية كافة الموجودة في لبنان.

– الإعلان عن انتهاء مهمّة قوات الردع العربية في لبنان.

ولدى اختتام المؤتمر جرى اتّخاذ القرار التالي: إنّ المؤتمر على إطلاع على إعلان الحكومة اللبنانية بوضع حدٍّ لمهمّات قوات الردع العربية في لبنان. وسوف تحدّد المفاوضات، بين

(1) ضابط من الجيش اللبناني التحق بوليد جنبلاط منذ 1980. وعاد من بعد وانضمّ إلى صفوف الجيش اللبناني وصار قائد هيئة أركانه.

(2) من وليد جنبلاط إلى آلان مينارغ، أيار 1992.

الحكومتين اللبنانية والسورية، الإجراءات الضرورية على ضوء الانسحاب الإسرائيلي من لبنان.

[. . .] إنّ الطلب اللبناني بانسحاب القوات السورية كان صريحاً ومباشراً أثناء المفاوضات والاتصالات كافّة مع المسؤولين السوريين.

وها نحن اليوم، حيال قرارٍ إسرائيلي بانسحاب جزئي سوف يتمّ في غضون أيّام، من غير أن يكون هذا القرار متّصلاً [. . .] بانسحاب سوريٍّ وفلسطيني من لبنان. وتعلمون، دون شك، أنّ لبنان قد عبّر بطريقةٍ متكررة ومكشوفة عن خشيته من أن يعرّض هذا الانسحاب الإسرائيلي الجزئي وحدة لبنان ومستقبله للخطر. فلا يستطيع لبنان ترك أرضه بعد إخلائها فارغةً [. . .]. بل إنّ مصلحتنا الوطنيّة [. . .] تدفع بنا، بخلاف ذلك، للإفادة من هذا الانسحاب لتحرير بلدنا وإحلال السيادة الوطنيّة. [. . .] وقد جئنا بهذه الرسالة لنؤكّد على [. . .] طلبنا من الجمهورية العربية السورية بأن تسحب كامل جيشها الموجود في لبنان، نظراً لأنّ مهمّة قوات الردع قد انتهت، وإلى منظّمة التحرير الفلسطينية بتعليق عملياتها العسكرية كافّة على الأرض اللبنانية بسحب قواتها من لبنان، كما أنّنا نطالب وبإلحاح بانسحاب القوات الإسرائيلية.

وتأكيداً لموقفنا، نرجو التفضل بإحاطة حكومات الدول الأعضاء كافّة بمضمون هذه الرسالة لتكون على علم بهذا الطلب، آملين مساعدتها ومساعدة الجامعة التي تربطنا بها روابط الأخوّة والتحالف مع هذه الجامعة القائم على الاحترام المتبادل لاستقلال كلّ دولةٍ عضو وسيادتها.

لقد طلب أمين الجميّل، في اليوم ذاته، من حافظ الأسد سحب قواته من لبنان في رسالةٍ ظلّت سريّةً حتّى اليوم وقد قال فيها **يسرّني أن أحيطكم علماً بأنّ الحكومة اللبنانية وجّهت اليوم [. . .] رسالةً إلى الأمين العام للجامعة العربية تؤكد فيها قرارها وطلبها بجلاء الجيوش [. . .] وسحب القوات غير اللبنانية كافّة من لبنان. [. . .] وأنا على ثقة من ردّكم الإيجابي ومن أن عملكم [. . .] سيقطع الطريق على كل مبررٍ لمواصلة الاحتلال الإسرائيلي ويترجم رغبتكم، التي أعلنتم عنها دوماً، في أن يستردّ لبنان استقلاله ووحدته وسيادته. [. . .].** [1]

لم يحصل أمين الجميّل قط على جواب رسميّ. إلّا أنّ جريدة تشرين السورية، الناطقة غير الرسمية باسم النظام، والتي كانت تشترط حتّى الآن في مقالاتها كافّة، على أن أيّ انسحاب سوري ينبغي أن يسبقه انسحاب إسرائيلي، قد أكّدت في افتتاحيتها بعد ذلك بيومين، أنّ **الرئيس حافظ الأسد ليس مخوّلاً باتّخاذ قرار بهذا المعنى (الانسحاب). [. . .] (فالجيش السوري) موجودٌ في لبنان بموجب قرار من القمّة العربية، وأنّ هذه القمّة هي وحدها المخوّلة بوضع حدّ لانتدابه وإصدار الأمر بانسحابه.**

(1) انظر الملحق رقم 3.

يضاف إلى ذلك، أنّ من المستحيل عقد قمّةٍ عربية مستعجلة بهذا الشأن. فمثل هذه الدعوة تستدعي اتفاقاً مسبقاً بين زعماء الدول المعنيّة كافّة، ونادرون هم الذين كانوا على استعداد لمعارضة دمشق حول المسألة اللبنانية. لا سيّما وأنّ حدود الصراع الداخلي جميعها كانت تثار بانتظام. وقد صرّح وليد جنبلاط، كأنّما على سبيل التذكير بذلك، أنّه يعتبر نفسه في حالة حرب مع الدولة اللبنانية. أمّا الزعيم الروحي للدروز، شيخ العقل محمّد أبو شقرا، فعقّب مؤكّداً على عزم الدروز على التصدّي للجيش في الجبل. ومن جانبه وقف نبيه برّي رسميّاً في معسكر المعارضة. وكان لمذبحة 24 مسيحياً، بينهم الكاهن، في قرية بمريم المختلطة في المتن الشمالي، أن زادت التوتر على نحوٍ مباغت. فصدرت عن باريس إدانة «حازمة» والتعبير عن «قلقها» حيال تدهور الوضع. وأمر رونالد ريغان بأن تُرسَل إلى المياه اللبنانية وحدات من البحريّة الأميركيّة تتضمّن حاملة الطائرات أيزنهاور، والباخرة تاراوا ترافقهما بوارج إنزال على متنها 2000 من جنود المارينز العائدين إلى الوحدة أمفيبي رقم 31 وقاعدتها في جزر هاواي.

لم يصدر عن تل أبيب أي ردة فعل رسميّة. والحق أنّ الأنظار في إسرائيل، كانت متّجهة في ذلك النهار، نحو اجتماع مندوبي «حيروت»، وهو حزب مناحيم بيغن، الذين سيختارون في اقتراعٍ سريّ خليفةً لرئيس الوزراء المستقيل. فجرى تعيين إسحق شامير بـ436 صوتاً مقابل 302 حصلَ عليها ديفيد ليفي. كان إسحق شامير يجسّد استمرار التعنّت القومي والتمسّك بإسرائيل الكبرى. غير أنّ الحزبين الصغيرين بالتحالف الحكومي، وهما حزب تامي، الذي يمثّل اليهود الشرقيين، والحزب الديني القومي أعلنا أنّهما يريدان، قبل التصديق على اختيار «حيروت»، استشارة المعارضة العمّاليّة. فبدأت حينذاك مساومةٌ سياسية، وسعيٌ حثيث وراء المناصب الوزاريّة، دونما تحديد لأيّة مهلة. لم يكن مناحيم بيغن قد جعل استقالته رسميّة بامتناعه عن إرسال رسالة رسميّة للرئيس حاييم هرتزوغ، وهو الإجراء الضروري للاستمراريّة الدستوريّة، التي تسمح لرئيس الدولة بإيجاد خليفة له. فحصل آنذاك، وبسرعةٍ كبرى، فراغٌ في السلطة ناجمٌ، للمفارقة، عن امتلاءٍ في السلطة. ذلك أنّه إضافة إلى مناحيم بيغن، وهو رئيس الوزراء الاسمي والذي ظلّ معتكفاً في مقرّه، فقد أعلن نائب رئيس الوزراء، ديفيد ليفي، عن نفسه رئيساً انتقاليّاً للوزراء، فكان عليه مجابهة إسحق شامير، وهو رئيس الوزراء الذي جرى اختياره. أمّا من الناحية العملية فلم يعد في إسرائيل من حكومة، إلّا لتصريف الأعمال ضمن الارتباك والعداوات الداخليّة الحادّة.

إلى لاري من پيتر. 1/ 9/ 1983.

وصلتني رسالتك بالأمس. نحن نتابع عن كثب الوضع في بيروت وكانت لنا، كما بوسعكم أن تعرفوا، مناقشات طويلة واستشارات في بحر الأيّام الأخيرة. أمّا بشأن ملاحظاتكم ومطالبكم، فإنّ سياستنا حيالكم قد تمّ تحديدها مجدّداً بوضوح من قبل وزير دفاعنا في الرسالة التي بعث بها إليكم بالأمس.

لدينا الانطباع بأن اجتماعاتكم مع دروري كانت إيجابيةً وبناءة. إنّ سياستنا الواضحة هي في تنسيق انسحابنا لكي يضمن مصالحكم، قدر الإمكان. وهذا التنسيق سوف يتواصل.

لقد طلبنا اليوم بأن ترسلوا مركبكم لحمل الذخيرة التي طلبتموها. لقد استطعنا أن نعثر لكم على 300 كلاشنيكوف، و 900 مخزن، و 5000 قذيفة من عيار 20 مم. وبودّي تقديم ملاحظتين :

أ - يعتقد رئيس أركاننا أنه لا ينبغي أن تبعثروا قوّاتكم في أماكن شتّى، لكن قوموا بإنشاء قوّة احتياطيّة جيّدة تستطيعون تحريكها وفقاً للتطورات.

ب - أرسلتم قبل يومين إلى الجيّة، 70 عنصراً بدلاً من 40 كما كان متوقّعاً. فجرت مشاحنة بين جنودكم وجنودنا بشأن عدد الجنود الذين تستطيعون إنزالهم. وإنّ ذلك غير مقبول.

يؤسفني أن أقول ذلك، لكنّ هذا الأمر اقترن بتقارير حول عشرات القذائف الإسرائيلية التي سقطت فوق مواقعنا فخلقت بالنسبة إلينا جميعاً وضعاً غير مقبول.

ونظراً لذلك، فإنّ القرار بإرسال شحنات بحرية جديدة نحو الجيّة قد جرى تأجيله حتّى يوم غد. ونحن نبعث إليكم بالقرار بأسرع ما يمكن. علينا أن نظلّ على اتصالٍ مستمرّ في بحر الأيّام الحاسمة المقبلة. إنّ التحدّيات ضخمة، لكنّ الأهداف يمكن بلوغها بالتصميم.

مع التحيّات الحارّة.

كان الوضع في بيروت شديد الهشاشة. فالصدامات بين العسكريين والميليشيات تتواصل. وقد جرى اختطاف بعض الضباط في وسط المدينة، فاحتجزوا لعدّة ساعات، وجرى ضربهم قبل إطلاق سراحهم. كما قُتِلَ أربعة جنود في بير العبد، وهي منطقة نفوذ الأصوليين الشيعة الموالين لإيران في الضاحية الجنوبية. وردّاً على ذلك أطلق جنودٌ النار على مدنيين. وحاولت كتيبة من اللواء الرابع الدخول إلى حي الشيّاح، الملاصق لخط التماس، والواقع بكامله تحت سيطرة ميليشيات حركة أمل. فاستُقبِلَت بإطلاق صواريخ. فأُصيبت مدرّعتان واضطرّت الكتيبة للانسحاب. فتجمّع المقاتلون الشيعة على نحوٍ مكشوف وبدأوا بتركيز بطاريات هاون بين المباني.

قررت القيادة أن تسحب من غرب المدينة اللواء الثامن بقيادة العقيد ميشال عون، والذي كان رأس حربةٍ للعمليات منذ أسبوع، ووضعه بصفةٍ احتياطيّة. لقد فقد الجيش أكثر من 100 قتيل أثناء التمرّد. وقد بدت عليه مظاهر التفتت، ولم يعد على الدرجة ذاتها من التضامن كما في بداية التدخّل. وبدأت حالات تذمّر طائفيّة خافتة تعتمل في بعض الوحدات كما جرت الإشارة لبعض حالات الهرب. وسعى أمين الجميّل وراء وسيلةٍ تبرهن للسكّان المسلمين على أنّ الجيش لا يقوم فقط بحماية المسيحيين.

استدعى الرئيس على عجل كلاً من والده، وفادي أفرام وأنطوان بريدي في مساء الأول من أيلول/ سبتمبر. فاستقبلهم بحضور رئيس الوزراء شفيق الوزّان في «غرفة العمليات» التي عمل على

إقامتها «على الطريقة الأميركية» في قبو القصر الرئاسي. وكان ينبغي أن تصل إليه، في هذه الحجرة، وغير بعيدٍ عن المرأب، الأخبار كافّة التي ينبغي أن تسمح له بمواصلة إدارة البلاد في حال أزمةٍ حادة. كان الطنين الخافت للحواسيب ولأجهزة الاتصالات الموضوعة فوق عدد من الطاولات، والإضاءة بمصابيح نيون والجدران البيضاء، تسبغ على تلك الحجرة جوّاً مستقبليّاً يتناقض مع ما كان يجري في الخارج. كان أمين في وضعٍ ميؤوسٍ منه. وقد قدّم لهم تقريراً مفصّلاً بالوضع، مع التشديد حول تمرّد «الشارع الإسلامي» في وجه تدخّل الجيش. وقال لهم:

– ما عدت أستطيع الاستمرار على هذا النحو. إنّني بحاجة للقيام بإنجاز كبير في بيروت الشرقيّة. ينبغي للجيش أن يعود إلى مناطقكم.

فعقّب رئيس الوزراء قائلاً:

– تعرفون مدى ارتباطي بالرئيس، سواءً في الداخل أم في الخارج. إنّ الشارع الإسلامي بكامله يقف الآن ضدّي. وينبغي أن أسترجع صدقيّتي لديه. وهذا ما يتوجّب عليكم أن تعطوني إيّاه. فينبغي على سبيل المثال أن تسلّموا للجيش قيادتكم العامّة وثكنة قصارجيان[1]. فأنا لا أستطيع الاستمرار على هذا النحو وسوف أكون مرغماً على تقديم استقالتي.

فردّ عليه بيار الجميّل قائلاً بجفاء:

– هل تعرف أن 90 % من المسيحيين هم مع إسرائيل، وأنّه لا يمسك بهم سوى شخصٍ واحد هو أنا. إذا ما بدأت بمقارنة بيروت الشرقية ببيروت الغربية، فسوف ينتهي بي الأمر إلى إعلان يأسي من صيغة 1943. فنحن، من ناحيتنا، تحت تصرّف الشرعيّة. . .

فقاطعه أمين قائلاً:

– أرغب في أن أعرف موقف فادي بهذا الشأن.

فقال أفرام سائلاً:

– نحن على بضع ساعات من الانسحاب الإسرائيلي من الجبل والذي قد يجعلنا ننخرط في معركةٍ قاتلة. وأنتم تطلبون إلينا الآن أن نغادر مقرّ قيادتنا؟

بعد ساعتين من المناقشات المريرة والمتوتّرة، وافق زعيما الميليشيا على مضض على تكرار السيناريو الذي جرى وضعه في آذار/ مارس أثناء عملية بيروت الكبرى. وغادرا القصر الرئاسي ساخطَين. فتوجّه أنطوان بريدي إلى منزل الجنرال إبرهيم طنّوس، بعد أن طلب إلى مسعود أشقر (بوسّي)، القائد العسكري للقوات اللبنانية في منطقة الأشرفية أن يأتي لينضمّ إليه. أمّا طنّوس الذي أحاطه أمين الجميّل بالأمر علماً، فقد استدعى من جانبه سيمون قسّيس، رئيس المكتب الثاني، والعقيد ميشال عون.

---

(1) تقع في حيّ عين الرمانة.

وقال طنّوس شارحاً العملية للمسؤولين عن «القوات»، وهما في حالة من الذهول:

– سوف أرسل اللواء الثامن وسريّة من كتيبة طحان (محمولة جواً) بكلّ أبّهة. فتطلقون بضعة صواريخ RPG، مع التظاهر بأنّهم يستولون على مقر قيادتكم عنوة.

فردّ عليه أنطوان بريدي بجفاء شديد:

– أنا مكلّف بأداء سيناريو إعادة انتشار، وليس سيناريو هجوم علينا. فلدينا في ثكناتنا جنود في حالة استنفار قصوى تحسّباً لانسحاب إسرائيلي.

فقال الجنرال ملحّاً:

– قال لي رئيس الوزراء إنّي سأستولي على مقر قيادتكم. قال لي أن أحتلّه، فأنزع شعاراتكم كافة واستبدل بلافتة «المجلس العسكري»، لافتة الجمعية الاجتماعية.

– كلاّ! فهذا خارج مجال البحث!

– وأين تغدو صدقيّتي من جنودي إن عرفوا أنّي أقوم بدورٍ في سيناريو؟

هتف طنّوس إلى الرئيس وأبلغه برفض بريدي. فطلب أمين التحدّث إليه. وسأل مسؤول القوات اللبنانية قائلاً:

– لِمَ هذا التغيير؟

– ليس هنالك من تغيير! لقد فهمتم الأمر فهماً خاطئاً. ولا يمكن للمسألة أن تمضي وفق السيناريو الذي وضعتموه.

– قل هذا لفادي. إن كان كلُّ واحدٍ سيعمل على هواه، فلن يحصل أيّ تقدم. أعطني طنّوس.

أصغى الضابط بضع دقائق للرئيس، ثم وضع السمّاعة واستدار صوب بريدي ليقول له:

– لا بأس، فنحن لسنا على اتّفاق. ولن نفعل شيئاً.

اندفع أنطوان بريدي إلى مقرّ القيادة العامّة ليخبر فادي أفرام. وخشي هذا الأخير ردّة فعل أمين الجميّل، فاستدعى إيلي حبيقة وفؤاد أبو ناضر. وطلب إليهما أن يتّخذا على الفور الاستعدادات للدفاع عن مركز القيادة، وعن مباني جهاز الأمن القريبة وفقاً لمخططٍ أمني موضوعٍ من زمنٍ طويل لمواجهة أيّ هجوم. وشاءت المصادفة أن يلتقي فادي أفرام، في اليوم التالي، بوديع حدّاد. فسأل هذا الأخير قائد الميليشيا المسيحية بلهجةٍ سريّة، قائلاً:

– إذا ما انسحب الإسرائيليون من غير أن يحيطونا علماً، وإذا لم يقم الجيش بالانتشار، فماذا ستفعلون؟

فكذب عليه أفرام قائلاً بلهجةٍ عدائيّة:

– لن ننسحب من بحمدون، لأنّ القصر الرئاسي هو المستهدف، لا القوات اللبنانية.

كرّر أمين الجميّل، أثناء لقاءٍ عائلي، على مسمعٍ من ابن شقيقته فؤاد أبو ناضر رئيس هيئة

أركان القوات اللبنانية، السؤال الذي طرحه عليه قبل ذلك بأيّام حول قدرة الميليشيا على الصمود في وجه السوريين. وقد ردّ فؤاد إنّ الأمر منوطٌ بعددٍ كبير من العوامل.

فقال الرئيس: اصمدوا في بحمدون 36 ساعة لإعطائي الوقت كي أرسل الجيش.

بعد ذلك بوقتٍ قصير قال أمين الجميّل متحدّثاً إلى بعض مساعديه، إنّه لن يصدر أيّ أمرٍ بتحرّك الجيش، وأضاف إنّه إذا ما انتصرت القوات اللبنانية، فسوف يرسل الجيش بعدئذ فيكون رابحاً، وإذا ما انهزمت القوات اللبنانية، فسوف يكسب أيضاً الشوف والدروز لأنّه لم يرسل الجيش.

كان روبير باسيل، وهو واحدٌ من مستشاري فادي أفرام، في واشنطن، ورئيس الرابطة الأميركية اللبنانية، والمستشار أيضاً في البنتاغون لشؤون الشرق الأوسط، يتابع الموقف عن كثب. وكانت له صلاتٌ طيّبة مع الدبلوماسيين الإسرائيليين العاملين في العاصمة الأميركية. وقد عَلِمَ في 2 أيلول/ سبتمبر، لدى حديثه مع أحدهم، بقرب انسحاب الجيش الإسرائيلي من الشوف. بل قال له محدِّثُهُ إنّ الموعد هو قبل 48 ساعة. فردّ عليه قائلاً:

– لا يسعكم القيام بذلك، فالمسيحيون سوف يتعرّضون للقتل. والجيش منشغلٌ في بيروت الغربية.

فنهز محدِّثُهُ بكتفيه وغيّر موضوع الحديث. فاندفع باسيل إلى مساكن الجنرالات الأميركيين الذين لهم تأثيرٌ أكيد على مجلس الأمن القومي سعياً وراء الحصول على تأجيلٍ للانسحاب. وقد ردّ عليه الضباط الواقعون في شرك اعتباراتٍ جيوسياسية شديدة البعد عن أرض الواقع، قائلين بابتسامة، إنّهم لا يؤمنون مطلقاً باحتمال وقوع مذابح في الجبل. بل إنّ أحد الجنرالات أجابه بقوله:

– إنّ أولئك لن يمنحوكم هذا المجال! فأتمنى لكم حظّاً طيّباً.[1]

عندئذ أدرك روبير باسيل أنّ الإسرائيليين والأميركيين حريصون على هذا الانسحاب، لدوافع متباينة. فالإسرائيليون يريدونه لأسباب سياسية داخلية وللضغط على أمين الجميّل، أمّا الأميركيون فيقدّرون أنّ ذلك الانسحاب سوف يحرر أمين الجميّل من قسم كبير من العبء العسكري الإسرائيلي. وما من أحدٍ سوف يتدخّل للحصول على تأجيل .فأمين الجميّل قد طلب معونةً أميركية لتدعيم جيشه وهو يعرف أنها لن تصل في الوقت المناسب. أمّا القوات اللبنانية فسوف تكون عند ذلك، وحيدةً في الخط الأوّل. فقام روبرت باستدعاء فادي أفرام على الفور قائلاً له:

– عليكم أن تغادروا الشوف على الفور. إنّه فخٌّ منصوبٌ لكم![2]

لكن كان الأوان قد فات.

---

(1) بالإنكليزية بالأصل.

(2) من روبير باسيل إلى آلان مينارغ، أيار 1995.

17

الكل إلى دير القمر!

استُقبِلَت أشعّة الشمس الأولى، صباح يوم السبت 3 أيلول/ سپتمبر 1983، بزقزقةٍ قصيرةٍ فرِحة أطلقتها العصافير في وقتٍ غير مؤاتٍ. لقد عرفت بيروت الصمت بعد انفجارات عمليات القصف وصخب المعارك. فلاذت الأسلحة بالصمت عشيّة ذلك اليوم من غير سببٍ ظاهر. وفتح سكّان المنطقة المسيحية نوافذهم بكلّ وجل وغامروا بالخروج من منازلهم مندهشين. لقد جرى نصب حواجز عسكرية على المحاور كافّة. وقام خلال الليل، لواءٌ من الجيش اللبناني قوامه 2500 رجل، بالانسحاب من بيروت الغربية ليتمركز في الأحياء المسيحية في شرق المدينة وذلك من أجل سدّ النقص في الإجراءات الأمنية التي اتُخِذَت في آذار/ مارس وفقاً لما قامت الإذاعات بتأكيده. كانت نشرات الأخبار الإذاعية تؤكّد على الأوامر الصادرة للجيش بتوقيف كلّ شخصٍ يرتدي ملابس قتالية[1] أو يحمل سلاحاً من غير أن يكون تابعاً لأيٍّ من أجهزة الأمن الرسمية. كان أمين الجميّل يطمئن «الشارع» المسلم. أمّا النبأ الآخر في ذلك النهار فهو الانفعال الهائل الناجم عن انفجار طائرة من نوع بوينغ 747 تابعة لشركة الطيران الكورية أثناء تحليقها ما بين نيويورك وسيؤول، وعلى متنها 240 راكباً و29 من أفراد الطاقم، والتي أسقطتها المطاردات السوفييتية أثناء تحليقها فوق بحر أخوتسك غير بعيدٍ عن شبه جزيرة سخالين.

كان في الهدوء الذي عمّ بيروت شيءٌ ما مصطنع. فالحذر لا يسمح للناس إلّا بالخروج لتأمين تموينهم. ودعا شفيق الوزّان الموظفين لاستئناف العمل تحت طائلة العقوبة. أمّا امتحانات الشهادة الثانوية – البكالوريا – المحددة في 6 أيلول/ سپتمبر، فقد جرى تأجيلها مرةً أخرى. وغادر بيروت في غضون ثلاثة أيام خمسون ألفاً لجأوا إلى صيدا.

في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم، هاجم عناصر ميليشيا من حركة أمل الإسلامية

(1) اللباس المألوف لدى الميليشيات المسيحية.

التابعة لحسين الموسوي ثكنة الشيخ عبد الله التي يحتلّها الجيش في بعلبك. فبعد تراشقٍ قصيرٍ بالنيران، انسحب المهاجمون ليعودوا بعد ذلك بوقتٍ قصير وراء موكبٍ من النساء والأطفال الذين يهتفون بأدعيةٍ قرآنية ويرفعون صور الإمام موسى الصدر. لم يقوَ العسكريون على إطلاق النار. وجرى احتلال الثكنة.

كان أمين الجميّل يدرس تفاصيل ذلك الهجوم المباغت في «غرفة العمليات» في القصر الرئاسي، حين رنّ جرس الهاتف. كان المتكلم سفير الولايات المتحدة روبرت ديلون الذي أخبره بأنّ الانسحاب الإسرائيلي سيبدأ مساءً. علماً بأنّ الأميركيين قد أكّدوا له، قبل ذلك بأيّام، أنّ تل أبيب قررت عدم إعادة نشر قواتها في جنوب الأوّلي إلّا في 15 تشرين الأول/ أكتوبر [1]. هتف الرئيس اللبناني على الفور إلى واشنطن يسأل روبرت ماكفرلين لمعرفة أسباب هذا التغيير المفاجئ في التوقيت والحصول على مهلة جديدة. فردّ الأميركي عليه قائلاً إنّه تحت وقع المفاجأة مثله. وأوضح له، إضافة إلى أنّه يوم سبتٍ في الدولة العبريّة، أنّه ليس لوزارة بيغن، المستقيلة والمكلّفة بتصريف الأعمال، أن تقوم باتخاذ أيّ قرار. وإنّ الوزراء في لجنة شؤون الدفاع، الذين اتّصل بهم في الصباح ذاته، ليسوا على علمٍ بالقضيّة. وإنّ الشخص الوحيد القمين بالردّ على التماسه هو موشيه أرينز. لكن ما من سبيلٍ للاتصال بهذا الأخير وهو الآن في الشوف. فاستدعى أمين على عجل رئيس وزرائه ووزير الخارجية. وتوجّه الثلاثة بالرجاء إلى ريتشارد فيربانكس، وهو آنئذ في بيروت، للتدخّل لدى أرينز بأقصى سرعة ممكنة.

وثب مساعد بوب ماكفرلين إلى سيارة السفير المصفّحة وانطلق إلى دير القمر. كان وزير الدفاع الإسرائيلي يعقد اجتماعاً في إحدى قاعات الدروس - التي تحوّلت إلى مركز قيادة - في المدرسة المارونيّة التي تتوّج رأس التلّة. وقد شرح له موشيه ليڤي وعامير درورري وأوري لوبراني التفاصيل الأخيرة للانسحاب. وخرج موشيه أرينز من الحجرة فصافح الأميركي. وأصغى، وهو واقفٌ في الممر، لالتماسات ريتشارد فيربانكس التي رفض رفضاً قاطعاً أن يأخذها بعين الاعتبار.

- لم تبذل الحكومة اللبنانية الجهد الأقصى في سبيل الوصول إلى اتفاق بين الدروز والمسيحيين. لقد فات الأوان، وما عاد بوسعنا الانتظار.

ثم حيّا ريتشارد فيربانكس وعاد إلى الاجتماع.

ظلّ أنور فطايري، المسؤول العسكري في الحزب التقدمي الاشتراكي، يسعى لأكثر من ساعة، ليتصل هاتفياً بوليد جنبلاط وقد أحاطه علماً بأنّ الإسرائيليين على وشك الانسحاب في الساعات المقبلة. فردّ عليه الزعيم الدرزي قائلاً:

---

(1) أكّد موشيه آرينز ذلك بعد أربعة أسابيع أمام لجنة الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست.

– كن على استعداد، ينبغي أن نبدأ. إنّي قادم.

طوى النّبأ لبنان في بضع دقائق. وتلاشت سريعاً الحركة الخفيفة التي بدأت في الشوارع مع إشراقة الصباح. وفي حدود الحادية عشرة، سلكت طريق الجنوب أرتالٌ طويلة من الشاحنات الإسرائيلية المغطاة، والمدافع المقطورة، وعربات الرادار، وسيارات الجيب المصفّحة ووسائط نقل من كل شكل ولون، مثيرةً زوابع متواصلة من الغبار. وكان الجنود يصطفّون على حافات السيارات ويرفعون أصابعهم بإشارة النصر كلّما وجدوا أنفسهم أمام آلة تصوير. كانت مفارق الطرق تحت حمايةٍ مشدّدة من وحدات المظليّين. كما كانت تحلّق على الدوام حوّامات القتال الجاهزة للانقضاض على أدنى خطر. إنّ الجيش الإسرائيلي يقوم بترحيل آخر تجهيزاته الثقيلة. أمّا المسؤولون الإسرائيليون في المكان، فيردّون على أسئلة الصحفيين بتكذيبٍ منهجيّ للخبر مؤكّدين أنّ المقصود ليس سوى عملية تخفيف للقوات.

3/ 9/ 1983 رسالة مستعجلة جداً – من لاري إلى پيتر

أ– أعلمتنا مصادر من الحكومة اللبنانية والجيش الإسرائيلي أنّ الانسحاب الإسرائيلي وشيك. وتأتي تحرّكات الجيش على الأرض لتؤكّد ذلك. إن تمّ هذا الانسحاب دون إعلام مسبق فسوف يشكّل تناقضاً صارخاً مع الاتفاق الذي عقدناه مع الجنرال دروري ومعك (الإخطار قبل 24 ساعة). وسيأتي مناقضاً لكلام موشيه أرينز وروح الرسالة التي بعث بها إليّ. إنّ تخطيطنا وانتشارنا العسكري في المنطقة قد تمّ وضعهما بالاعتماد على ذلك الإخطار.

أرجوك أن تعالج هذه المسألة بأقصى الاستعجال. ونحن بحاجة لإيضاحات في هذا الشأن.

ب– إنّنا بحاجةٍ مستعجلة، كي نواجه الوضع المنتظر، للذخائر التالية، المدوّنة وفقاً لأولوية أهميتها:

النموذج	الكمية
*قذائف 130 مم	2000
*قذائف 155 مم (M56)	2000
*صواريخ أر بي جي (B7)	2000
*ذخائر دبابات T55	1000
*ذخائر دبابة شريمان	1000
*قنابل هاون 120 مم	3000
*قنابل 155 مم مضيئة	500
*قنابل هاون 120 مم مضيئة	1000

ج– مع أفضل التحيات.

كان رجال الميليشيا من الجانبين يقومون بتجهيز أسلحتهم في جوّ من التوتّر الشديد. ويسود القرى الدرزية غليانٌ محموم حول مقرّات الحزب التقدمي الاشتراكي. وهنالك مجموعاتٌ من المقاتلين الفتيان، يرتدون الزيّ العسكري في الغالب، أو الجينز والقمصان السوداء التي تحمل صورة كمال جنبلاط، أبي وليد ومؤسس الحزب، وهم في جيئةٍ وذهاب، ينادي بعضهم على بعضهم الآخر، في جوّ من الفوضى يصعب وصفه. أمّا في مواقع القوات اللبنانية فقد اكتملت تموينات الذخائر. ويكرّر مسؤولو المجموعات على مسامع عناصرهم عدداً لا يحصى من المرات، التحرّكات التي يجب عليهم القيام بها فور انسحاب آخر جندي إسرائيلي. كانت الدروب مُقفِرة. ويتوجّه القرويون أبناء الطائفتين، كلٌّ من جانبه نحو تسقّط الأخبار، والقلق يعلو الوجوه. والإشاعات الجنونية تسري من منزلٍ لآخر. بينما جالت على الجبهة وللمرة الأخيرة، فرقٌ من التلفزيون الإسرائيلي تحت حماية الجنود. وتوجّه فريقٌ منها إلى پول عنداري، وهو مسؤولٌ عسكري في القوات اللبنانية في بحمدون بالسؤال عمّا سيجري بعد الانسحاب الإسرائيلي.

– ولِمَ تسألوني ما دمتم أوّل من يعرف الجواب؟ ستكون هنالك مذابح![1]

جرى استدعاء الشخصيات الزعماء المسيحيين إلى الكرنتينا. لكنّ الاجتماع كان مبتوراً. لقد اعتذر كميل شمعون هاتفياً لعدم قدرته على الحضور. أمّا پيار الجميّل فما إن وصل حتى انعزل في مكتب مع بعض المسؤولين من حزب الكتائب. وبعد مرور ساعة نَفِدَ صبر الأب بولس نعمان. ففتح بكل عزيمة باب الحجرة التي فيها الرئيس الأعلى صارخاً:

– وهل تعتبرون أنّنا مجرد صبية؟ أنتم لن تتخذوا وحدكم القرار باسم المسيحيين كافة.

وخرج وهو يصفق الباب خلفه بحركة غضب. ثمّ أمسك بذراع رئيس الرابطة المارونية شاكر أبو سليمان، طالباً إليه أن يقوده إلى عند كميل شمعون. فأمرا رئيس الجمهورية السابق بأن يتبعهما إلى القصر الرئاسي. دخلوا غرفة العمليات من غير أن يدقّوا الباب، قاطعين مناقشةً بين أمين الجميّل وإيلي سالم وشفيق الوزّان ووديع حدّاد، الذين كانوا يدرسون إيداع شكوى في الأمم المتحدة في حال تدخلٍ سوري مباشر في الجبل. فصاح رجل الدين بصوتٍ قوي، موجّهاً ضمنيّاً دعوةً للآخرين للخروج، إذ قال:

– هل يمكن لنا أن نرى الرئيس؟

فردّ أمين الجميّل قائلاً:

– على شرط بقاء الوزّان.

ما إن تجمّعوا حول الطاولة حتى توجّه كميل شمعون قائلاً لرئيس الدولة:

---

(1) پول عنداري: «الجبل».

– ينبغي إرسال الجيش على الفور. إذا ما سقطت بحمدون، فإنّ سقوطها سيطرح مشكلةً ضخمة.

فردّ عليه أمين الجميّل قائلاً بصوتٍ مجروح:

– أنتم لا تثقون بي! لستم بمسيحيين! وميشال عون يؤكّد أنّ الجيش لن يستطيع الصعود إلى هنالك[1]. لقد فعلنا كل ما نستطيع. بل إنّ الوزّان قد ساعد القوات اللبنانية على قدر ما استطاع. وإنّ التاريخ سوف ينصفنا.

طرق الأب بولس نعمان بخاتمه على الطاولة مرات عديدة للإعراب عن سُخطه، ثمّ صرخ وهو يشير بإصبعه إليهما:

– بل إنّ التاريخ سوف يدينك أنت والوزّان. أنا أعرف وليد حق المعرفة. إنّما أنت عدوّه. وهدفه، كما هدف نبيه برّي، أن يحظى برأسك. أنت لا تقوم بواجبك. العالم كلّه يعرف بوجود قوتين على الأرض: سوريا وإسرائيل. وها أنت منذ خمسة شهور في محادثاتٍ مع ماكفرلين والأميركيين في حين أنّهم في الطرف الآخر من البحار، وتدخل في مناقشاتٍ مع السعوديين في حين أنّهم في الطرف الآخر من الصحراء. لو كنت تتصرف حقّاً وفق ضميرك لذهبت، في سبيل إنقاذ شعبك، إمّا إلى سوريا أو إلى إسرائيل. أنت تؤكّد على أنّك ساعدت القوات اللبنانية في حين أنّك أحرقتها في واقع الأمر! وفضلاً عن ذلك سحت القوات اللبنانية لمساعدتك بإعطائك كل ما لديها، لكنّك لم ترغب في ذلك. أنت في واقع الأمر لم ترسل الجيش إلى الجبل لمجرّد اعتبارات شكليّة: لا تريد لها أن تكون على الأرض مع الجيش الإسرائيلي في وقت واحد حتّى لفترةٍ زمنيّةٍ قصيرة. وأنا أريد التحدّث إليك على انفراد.

نهض الرجلان وابتعدا عن الطاولة فتوسّل إليه رجل الدين قائلاً:

– أتوجّه إليك بالرجاء، أنقذ الوضع! اتصل بأرينز مباشرةً.

– سوف أعطيك الجواب في الساعة الخامسة.

وفيما كان بولس نعمان يغادر القاعة، مرّ بجانب وديع حدّاد فحدّق في عينيه وقال له:

– ما لم تقوموا بالاتصال بي حتّى الساعة الخامسة فحسابكم معي سيكون عسيراً.

ولم يجرِ الاتصال به البتة.

الأمر اليومي الذي أصدره القائد العام الإسرائيلي لقطاع شمال لبنان (الجنرال عامير دروري):

[. . .] نحن في بلد مقسّم بجماعات مسلّحة، وبعضها معاد للجيش الإسرائيلي. تذكّروا أنّ أخلاقية السلاح هي القيمة الأسمى لقوات الدفاع الإسرائيلية. استخدموا أسلحتكم للدفاع عن أنفسكم فقط وتحاشوا جرح غير المقاتلين. عام جديد وسعيد لكم جميعاً.

(1) أقوالٌ جرى تكذيبها من بعد، في حديث ميشال عون إلى آلان مينارغ.

بدأت السنة اليهودية الجديدة بعد ذلك بأربعة أيام. وقد صدر الأمر الأول بالرحيل للجنود الإسرائيليين المتمركزين غير بعيد عن بحمدون، فوق النقاط العالية في تلّة الروس وتلّة العلم والردّة. وقبل الانسحاب، توجّه ضابط إسرائيلي إلى پول عنداري قائلاً:

– يسعكم الآن، إفناء بعضكم بعضاً، لكن دعونا نبتعد قليلاً.

وما إن خرج آخر جندي إسرائيلي، حتى اندفعت الميليشيات المسيحية لاحتلال المواقع.

كان عدد من عناصر الميليشيا المسيحيين يسيرون رتلاً أحادياً وراء ضابط إسرائيلي من جهاز آمان، ومقوسي الظهور، وبنادق الكلاشنيكوف في أيديهم. كانوا يتقدّمون على ذلك النحو منذ ما يقرب من عشر دقائق وسط متاهة الجدران المهدّمة والمنازل المبقورة، التي صارت إليها مدينة سوق الغرب. وكان على رأسهم إيلي وزّان (عبّاس)، رئيس الاستخبارات العسكرية للقوات. لقد استأنف الخدمة العملية لقيادة هذا القطاع، الذي يشكّل موقعاً حاسماً لتشكيل القوات اللبنانية. وكان في مناقشاته مع الإسرائيليين، قد طلب بإلحاح، استعادة هيكل فندق كامل. وهو مكان اصطياف شاهق كان قبل الحرب مقصد الأغنياء العرب من الخليج، وقد شيّدت تلك المنشأة على كتف بقعة تشرف على بيروت شمالاً وعلى المتن كلّه جنوباً. أما عسكرياً، فالذي يسيطر عليه يشرف إشرافاً متوالياً على محاور سوق الغرب كافة. واتخذه الجيش الإسرائيلي موقعاً دائماً له منذ حزيران/ يونيو 1982، وقد رفض الإسرائيليون طويلاً التخلي عنه حتى قبلوا ذلك في صباح 3 أيلول/ سپتمبر ذاته. لكنّهم وضعوا لذلك شرطاً: ينبغي لوصول عناصر الميليشيا إلى الفندق أن يتمّ في سرّية تامة «لأسباب أمنية»، وفقاً لقولهم. فلا ينبغي أن يراهم الدروز، وذلك ما لا يمكن تفاديه لو أنّهم سلكوا الشارع ودخلوا المبنى من بابه. كانت ناقلة جند إسرائيلية مصفّحة من طراز M113 تقف أمام الفندق. ولدى تحرّك تلك الآلية، وفي ذلك الحين فقط، يغدو بوسعهم الكشف عن وجودهم.

دخلت المبنى مجموعة عبّاس، وقوامها قرابة ثلاثين من «الشباب»، المدرّبين أحسن تدريب، عبر أقسام الخدمة الواقعة إلى الخلف، في القسم الأدنى من الطريق. وكانت مهمّتهم احتلال الموقع إلى حين وصول تعزيزات. فتسللوا عبر المطابخ وهم يحرصون على تفادي الصرير لدى وقع أقدامهم على قطع الزجاج المحطمة والمتناثرة في المكان. وبعد اجتياز دهليز طويل تجمّعوا عند أسفل درج ضيّق صعدوه ببطء شديد وراء دليلهم. فانتهوا إلى قاعة – صالون – ليجلسوا القرفصاء بملاصقة جدار يواجه النوافذ ذات الزجاج المهشّم. وذكّرهم الضابط الإسرائيلي هامساً بعدم الاقتراب منها كي لا يُشاهَدوا من الخارج. ويسعهم عبور الباب المؤدي إلى قاعة الاستقبال المجاورة، فور سماعهم دوي محرّك المصفحة الذي يعمل حتى الآن بشكل بطيء. ولحظة استدار دليلهم ليقفل عائداً، أمسك به قائد المجموعة من كمّه ليسأله هامساً أين الدروز. فردّ عليه الإسرائيلي قائلاً، قبل أن يهبط الدرج: في المنطقة.

بدا الانتظار طويلاً جداً وسط الصمت المقلق الذي يسود المدينة. وبغتة أطلقت المصفّحة لمحرّكها العنان. فاندفع الشباب الذين تمركزوا حول الباب إلى قاعة الاستقبال. وكان أن التقوا وجهاً لوجه بمجموعة من عناصر الميليشيا الدروز، الذين بوغتوا مثلهم، لأنّهم كانوا يستعدون للقيام بالحركة ذاتها، لكن في الاتجاه المعاكس. فتح المسيحيون النار بردّة فعل طبيعية. وجرت معركة قصيرة جداً، لكنّها في منتهى العنف حتى لَتُقارب الاشتباك بالأيدي. ولم يتحقّق عبّاس من أنّ الإسرائيليين قد اقترحوا «التدبير» ذاته على الدروز، إلّا بعد وصول التعزيزات والسيطرة على الموقع نهائياً.

وجّه القسم الصحفي التابع للجيش الإسرائيلي دعوة للصحفيين الأجانب في بيروت، للتوجّه في التاسعة مساء إلى مبنى مهجور، خرقته الطلقات والشظايا، عند تقاطع غاليري سمعان وطريق صيدا القديم. كانت خمس مئة متر من الطريق مضاءة إضاءة قوية بالكاشفات العسكرية. ومرّ من أمام كاميرات التلفزيون، على مدى ثلاث ساعات دونما انقطاع، عرض طويل وصاخب من العربات فيما كان ضباط يشرحون لرجال الصحافة بكل صبر وأناة، وبلغات متعددة، أسباب الانسحاب الإسرائيلي. هنالك دبابات ميركاڤا الثقيلة، ومدافع مقطورة، ونقل قطع مجنزرة، وشاحنات متعددة الأنابيب من صنع سوفييتي، سورية أو فلسطينية جرى الاستيلاء عليها أثناء عمليات «سلام الجليل»، والكل مغطى بطبقة من الغبار، برفقة جنود متهلّلين، سعداء في الظاهر بالعودة إلى بيوتهم. كانت الحملة المعدّة إعلامياً، والمقدّمة «للاستهلاك المنزلي»، تسمح بالفصل ما بين انسحاب الجيش الإسرائيلي والمعارك الدائرة في الجبل والتي يطغى على دويّها صرير المجنزرات على الطرق المرصوفة. لقد ذكرت الصحف والنشرات المتلفزة كافّة في اليوم التالي ذلك الانسحاب، أمّا الأخبار المتعلّقة بما كان يجري في الجبل في الوقت ذاته فلا يمكن نشره إلّا في اليوم الذي يليه. وهذا الفاصل الزمني من شأنه أن يتفادى عمليات الخلط أو المقاربات ما بين الانسحاب والمعارك.

كان كلّ موقعٍ جرى إخلاؤه من قبل الجيش الإسرائيلي موضع نزاعٍ محموم بين الميليشيات الدرزية والمسيحية المدعّمة بمدفعيّة الطرفين. كان تقدّم الإسرائيليين في الشوف يجري تحديده بكتل هائلة من الغبار والتراب المثارة جرّاء عمليات القصف. وكان كلّ معسكرٍ يحرص بفعل عمليات قصفِ TOT [1] أن يمنع الميليشيات المعادية من الاستيلاء على المواقع التي جرى إخلاؤها. لقد حدّ الليل من الاشتباكات على الأرض لكنّ صفير القذائف والبروق البيضاء والحمراء الناجمة عن الانفجارات قد تضاعفت. أمّا النقطة الأولى التي جرى التنازع عليها بشراسة فهي تقاطع خلدة إلى الجنوب من المطار. وهو مكانٌ استراتيجي لأنّه ممرٌ إلزامي ما بين الجبل والعاصمة، وقد

(1) Time on Target . تعبير عسكري أميركي يعني تركيز قصف المدفعية على الهدف نفسه وفي الوقت ذاته.

جرى احتلاله لبضع ساعات من قبل الدروز قبل اجتياحه من قبل لواءين من الجيش اللبناني على الرغم من قصفٍ مكثّف من بطاريات المدفعية المتمركزة في المتن الشمالي تحت إشراف السوريين.

في الساعة الرابعة من صباح يوم الأحد 4 أيلول/ سبتمبر، كانت منطقة عاليه وبحمدون قد جرى إخلاؤها تماماً. وفي الساعة السادسة لم يعد في الجبل أي واحد من الإسرائيليين العشرة آلاف الذين أقاموا فيه طوال عامٍ وثلاثة أشهر. إنّ الدروز لم يقاتلوهم أثناء الغزو في حزيران/ يونيو 1982. ولم يطلقوا عليهم طلقةً واحدة أثناء انسحابهم. وعند طلوع النهار كان عدد من قوارب الإبحار ترسو إلى الشمال من صيدا لنقل الوحدات المدرّعة. أمّا في الساعة التاسعة صباحاً فأعلنت إذاعة صوت إسرائيل انتهاء انسحاب الجيش الإسرائيلي إلى خط دفاعه الجديد. وقد علّق وزير الطاقة الإسرائيلي، إسحق ماداي على الخبر قائلاً من الإذاعة ذاتها: لم تعد إسرائيل الآن مسؤولةً عن المعارك في لبنان أكثر من مسؤوليتها عن المعارك في كمبوديا.

أمّا قبل ذلك بربع ساعة، أي في 8:45، فقد أعلن شريف فياض المسؤول الدرزي العسكري في كفرمتى بصوتٍ لاهث، على الموجة العسكرية للحزب التقدمي الاشتراكي قائلاً: إنّ القوات اللبنانية تهاجم كفرمتى ولم يعد بالمستطاع احتواؤها. إنّ هذه القرية الواقعة إلى الغرب من خط القمم التي سعت «القوات» لاحتلاله، كانت تحت إشراف تلّة تطلّ على الطريق المتّجه من الدامور إلى كفرشيما ويعقلين، ومن البحر إلى قلب الشوف. وقد مثّلت هذه النقطة الإستراتيجية الوثبة الأولى من تقدّم الوحدات المنطلقة من الجامعة الأميركية في المشرف بقيادة فؤاد أبو ناضر. إنّ ذلك المركز اللغوي، قبل الحرب، كان يتردّد عليه عدد كبير من الدبلوماسيين وأعضاء أجهزة الاستخبارات الغربية، القادمين لدراسة اللغة العربية. وقد استولى عليه الفلسطينيون عام 1976 فجعلوا منه ثكنةً، ثمّ استقرّت فيه القوات اللبنانية أثناء صعودها إلى الشوف في تمّوز/ يوليو 1982 وحوّلته إلى نقطة ارتكاز قويّة يتمّ تموينه عبر المرفأ النفطي الصغير التابع للمحطة الكهربائية القريبة في الجيّة.

أمّا في أقصى الشرق من التشكيل المسيحي، فقد حقق عناصر الميليشيا بإمرة سمير جعجع نجاحاً تامّاً في المرحلة الأولى من عمليّتهم. فقد احتلّوا في الساعات الأولى من الليل، مع تكبّد بعض الخسائر، المواقع كافّة التي كانوا يطمحون إليها حول بحمدون وقاموا بصدّ الهجمة الأولى. وكان مركز سوق الغرب تحت القبضة القوية لعناصر عبّاس. وكانوا يستعدّون للتقدّم نحو الغرب للقيام بالاتصال بفصيل فؤاد أبو ناضر.

لقد باح وليد جنبلاط[1] قائلاً من بعد: لم نحقق تقدّماً كثيراً في اليوم الأوّل. فقد اجتمع تحت

(1) من وليد جنبلاط إلى آلان مينارغ في أيار 1992.

شعار الحزب التقدمي الاشتراكي عدد كبير من الناس: هنالك الدروز، والمقاتلون الشيوعيون، ومقاتلو الحزب السوري القومي الاجتماعي، وسوريون وفلسطينيون، والعديد من رجال جيش التحرير الفلسطيني المقيمين في سوريا، وهم يرتدون ملابس عسكرية مختلفة وفقاً لاحتياجات دمشق. كان ذلك مستودعاً متنافراً لا ينضب. كان جيشنا الشعبي للتحرير رسمياً تحت قيادة أنور فطايري. أمّا سيّد المعركة الحقيقي والاستراتيجي فهو العماد حكمت الشهابي رئيس أركان الجيش السوري. لقد أُقيمت «غرفة عمليات مشتركة» في فندق بارك في شتورة. كان اللواء علي عبّاس حيدر، قائد القوات الخاصة السورية قد استلم إدارة المكتب الثالث (عمليات). أمّا العقيد غازي كنعان الواصل حديثاً إلى البقاع فتولّى الاستخبارات.

وقال الزعيم الدرزي أيضاً: كنت في تنسيقٍ مباشر مع حكمت الشهابي. وقد طلبت منه دبابات، فتلك هي معركتهم أيضاً. كان شديد التردد في البداية لأنّ الإسرائيليين ليسوا بعيدين جدّاً. ثم أرسل إليّ رجال أحمد جبريل مع ثلاث دبابات.[1]

لم تتمكن تلك المدرعات من الذهاب بعيداً. فقد جرى كشفها لدى صعود ضهر البيدر من قبل الطيران الإسرائيلي الذي كان يغطّي الانسحاب، فكانت هدفاً لثلاث عمليات انقضاض. لقد فتح الطيارون نار الرشاش دليل إنذار ولم يطلقوا صواريخ جو أرض كما كان يسعهم فعل ذلك لو أنّهم تلقّوا الأمر بتدميرها.

ازدادت كثافة القصف المدفعي على المواقع الجديدة «للقوات». أمّا مدافعهم، المشغولة بحماية تقدّم فؤاد أبو ناضر وعبّاس فلم تكن عديدةً بما يكفي للقيام برماياتٍ ضد البطاريات. فطالب فادي أفرام كنعان علناً بصعود الجيش اللبناني إلى الجبل. فهدّدت دمشق بالتدخّل إذا جرى ذلك. وبعد العصر أصيب عبّاس بجرح في عانته، وجرى ترحيله. أمّا فصيله الذي أضحى بلا قائد، فقد أوقف تقدّمه قبل عيتات بقليل.

طلب وليد جنبلاط، مع حلول الليل، تعزيزاتٍ أخرى من حكمت الشهابي. وبعد بضع ساعات وصل إلى صوفر ما يقرب من خمسين من الشاحنات والدبابات لكسر سُدادة بحمدون. فانقسموا للتقدم على ثلاثة محاور. كان الأول بقيادة العقيد السوري هاشم معلاً ويتألّف من عناصر سوريين من اللواء 41 للقوات الخاصة، ومن اللواء 54، ومن وحدتي دعم للمدفعية 120 و130 من اللواء 36، ووحدة جورج حبش من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، و150 مقاتلاً من الصاعقة. أمّا المحور الثاني فهو بقيادة أبو خالد العاملي، مسؤول العمليات بالمنظمة المنشقة عن جبهة التحرير الفلسطينية بقيادة أبو موسى، ويضم وحدتين من لواء اليرموك، بقيادة العقيد ناصر يوسف، ووحدة

(1) من وليد جنبلاط إلى آلان مينارغ في أيار 1992.

الأسد من احتياطي سرايا الدفاع وحزب البعث السوري، وكتيبتين من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وحوالى 100 من ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي وحركة أمل.

كانت المرّة الأولى التي تنخرط فيها وحداتٌ فلسطينية في تاريخها، في معارك لم يجرِ تقريرها من قبل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد انتقلوا إلى الهجوم في فجر الخامس من أيلول/ سبتمبر 1983.

5/ 9/ 1983 مستعجل جداً

إلى سعادة وزير الدفاع موشيه أرينز

من فادي أفرام

لم ينتشر الجيش اللبناني في المناطق التي أخليتموها، مثلما توقعنا. ونحن نواجه الآن، على نحو ما توقعنا أيضاً، هجوماً على نطاقٍ واسع انطلاقاً من المناطق التي يشرف عليها السوريون، نحو بحمدون. والهدف منه إقامة اتصال ما بين البقاع وعاليه. إن قوة الهجوم مؤلفة من الحزب التقدمي الاشتراكي والفلسطينيين والشيوعيين المحليين والدروز السوريين في الجيش السوري، الذين يقودون الدبابات على رأس الهجوم.

الوضع حرجٌ جداً. وإذا ما استمر ذلك، فسوف يحتلون بحمدون. وهي ليست إلاّ مسألة ساعات. إننا نرجوكم القيام بشيءٍ ما.

مع التحيات.

إنّ الجبهات في كفرمتى وعاليه وسوق الغرب قد هدأت بعض الشيء. فالمسؤولان العسكريان في القوات اللبنانية اللذان كانا يقودانها قد جرحا. فجرى ترحيل إيلي وزّان (عبّاس) في عربة مصفّحة إلى مشفى الأشرفية. أمّا فؤاد أبو ناضر الذي أصيب بيده اليسرى فقد جرى إنزاله إلى المشرف لتلقي العلاج. ولم يستأنف القيادة إلّا بعد مرور 24 ساعة. كانت جبهة بحمدون الأكثر عرضةً للتهديد. وكان فادي أفرام عاجزاً عن إرسال تعزيزات إليها. فالقوات اللبنانية خارج تقاطع خلدة الذي يتولاه الجيش، كانت تتحمل الصدمة وحيدةً. لقد أشركت وحداتها كافّة بما فيها الاحتياطية. وفي حدود الساعة التاسعة صباحاً، صعد فادي أفرام، تحت سيلٍ من القذائف إلى القصر الرئاسي. لقد رفض أمين الجميّل بترفّع، العمل على تحريك الجيش وأكّد لمحدّثه بلهجة بوح أنّه طلب إلى الولايات المتحدة التدخل من أجل إيقاف المعارك. فردّ عليه أفرام قائلاً بجفاء:

– إنّ الحملة على بحمدون موجّهة ضدك وضد نظامك. إنّ سلطتك هي التي تتولى الدفاع عنها الآن! وما لم ترسل الجيش فسوف نتراجع. فليس لنا أن نواصل حماية نظام ما عدنا نثق به. ولئن كنت لا تستطيع القيام بذلك، فغيّر سياستك تغييراً جذرياً وتوجّه إلى إسرائيل!

– إنّ القيادة تدرس الآن إمكانيات التدخل. وليس موضع بحثٍ أن أغيّر سياستي حيال

إسرائيل! إنّي أفضّل الاستقالة وتسمية رئيس وزراء مسيحي يفعل ما يرغب مع إسرائيل. فأنا لن أكون مسؤولاً عن تجزئة لبنان.

5/ 9/ 1983 السيد الوزير موشيه أرينز - مستعجل.

نحن واثقون من أنك على علم تام بالوضع الدقيق الذي رجحت كفّته في الجبل وخصوصاً في بحمدون. إذ يشنّ السوريون مع الفلسطينيين وحلفائهم المحليين هجوماً ضخماً، موجةً بعد موجة، مع وحدات مدرّعة على مواقع قواتنا في بحمدون.

إن فقدان بحمدون سيفتح الباب أمام رجوع ألدّ أعداء المسيحيين في لبنان وإسرائيل، إلى مناطقنا.

إنّ تدخلكم السريع والحازم يبدو ضرورياً جداً. وتدخلكم مبررٌ تبريراً واضحاً بواقع أنّ السوريين والفلسطينيين وضعوا كلّ ثقلهم في المعركة بصورةٍ فاضحة.

أ- ليس من العدالة، ولا الضرورة، أن تؤدّي الأخطاء وقصر النظر لدى بعض المسؤولين الرسميين، إلى إلزام شعبين اثنين بالتخلّي عن إرث تعاونٍ وثيق بناه بكل نشاط بشير والقوات اللبنانية والطائفة المسيحية، طوال ثماني سنوات بين إسرائيل ولبنان المسيحي، بناءً مستقلاً عن الدولة.

ب- وبانتظار قراركم السريع مع خالص التقدير.

الأب بولس: رئيس المؤتمر المسيحي الدائم. الأب بولس نجم: رئيس الجامعات والمدارس المسيحية كافة. الأب بولس عطا الله: الأب الرئيس للأنطونيين المسيحيين، شارل مالك، شاكر أبو سليمان: بولس عطا الله رئيس الروابط المسيحية، نجيب دحداح، أنطوان نجم، جوزيف أبو خليل.

أصبح الوضع فوق مرتفعات بحمدون كارثيّاً بالنسبة إلى الميليشيات المسيحية. فمواقع عديدة يفترض التخلّي عنها. وتسببت عمليات القصف المكثّفة بالمدفعية بوقوع خسائر كبيرة. وبعض الجرحى لم يكن بالمستطاع إخلاؤهم. كان سمير جعجع ينتقل من مركز قيادة إلى آخر للحفاظ على معنويات جنوده. ووصل، في حدود الساعة الواحدة بعد الظهر إلى مركز بول عنداري. فقال له هذا الأخير:

- نحن على وشك خسارة الأرض والرجال. لكنّ الرجال أكثر أهميّة من الأرض.

- وما معنى ذلك؟

- ينبغي علينا القيام بشيءٍ ما قبل هذا المساء...

أمّا في مواجهته، فكان بوسع فطايري استبدال كلّ مقاتلٍ يسقط وسدّ النقص في الذخائر حين يغدو ذلك ضرورياً. وكان المسؤولان في القوات اللبنانية على وعيٍ بهذا الواقع.

كانت بيروت الشرقية تسمع بكل وضوح بين سلسلتين من الانفجارات دويّ المعارك

المستعرة على خط القمم. وكان السكان قابعين في الملاجئ، وقد استولى عليهم الغم، وآذانهم ملصقة بأجهزة الترانزيستور. هنالك إذاعةٌ متواصلة للأخبار تقطعها موسيقى كلاسيكية. وكانت أنباء الجبهات مجزّأة ومتناقضة في أغلب الأحيان. لقد طلبت دمشق، ردّاً على رسالة وزير الخارجية اللبناني التي طلبت الانسحاب السوري، بفرض مقاطعة على لبنان في مذكّرة جوابية موجهة للجامعة العربية. وقد أكّد ألفريد ماضي، أثناء مؤتمرٍ صحفي، أنّه ينبغي على الحكومة القيام بنشر الجيش في المناطق التي أخلاها الإسرائيليون وخصوصاً تلك التي تواجه الجيشين السوري والفلسطيني. وإنّ «القوات» قد أُرغِمَت على أن تحلّ محل الجيش اللبناني لضمان أمن الجبل.

وردّ القصر الرئاسي ببيانٍ يقول إنّ الرئيس ينتظر نتائج مساعيه السياسية قبل اتّخاذ قرار. لقد اتّخذ اللواء الخامس من الجيش اللبناني بإمرة غابرييل أرصوني موقعاً في ضهر الوحش على الأرض الواقعة بين الواديين حيث يمرّ طريق بيروت دمشق على بعد 5 كم تحت عاليه. إنّ هذا السدّ مخصصٌ لوقف كل تقدّم نحو «الجمهور»، لأنّ وزارة الدفاع والقصر الرئاسي يقعان على أقلّ من 4 كم نحو الأسفل. وكان حوالى مئة جندي من اللواء الثامن الاحتياطي قد قاموا بالاتفاق مع رئيسهم العقيد ميشال عون، بالالتحاق سرّاً بميليشيات القوات اللبنانية في سوق الغرب بأسلحتهم وحوائجهم.

وصل أوري لوبراني وناحوم أدموني (پيتر) ومناحيم ناڤوت (مندي) والعديد من معاونيهم في حوّامة إلى محطّة الزوق الكهربائية في حدود التاسعة مساءً. وجرى اصطحابهم على الفور إلى الكرنتينا حيث ينتظرهم فادي أفرام. وقد أطلعهم قائد «القوات» على حقيقة الوضع، أمام خارطة، قبل أن يخلص إلى القول:

– يتمتع الدروز بدعم كامل من السوريين. والوضع في بحمدون ميؤوسٌ منه. لقد طالبنا بصعود اللواء الخامس أو الثامن في مهمّة دعم. لكن الرئيس رفض قائلاً لنا إنّ أولويته هي بيروت. وقد أصدرت الأمر إلى سمير جعجع بالبدء بإخلاء المدنيين من شمال طريق بيروت دمشق نحو الجنوب.

فسأله پيتر:

– كيف السبيل إلى تحسين وضعكم في بحمدون؟

سيكون ذلك شديد الصعوبة الآن. ربّما يمكن ذلك بتدخّلٍ جوّي أو بعمليّة اختراق انطلاقاً من الباروك. لكن لا أدري إن كان قد فات الأوان.

فسأله لوبراني:

– وماذا يفعل الجيش؟

– دفعت اليوم بالشخصيات المسيحية كافة للقيام بضغط على أمين لجعله يحرّك الجيش. لكنه رفض.

لقد أذاع بيار الجميّل بياناً يؤكّد أنّ قراراً ينبغي اتّخاذه من قبل الرئاسة. وقد استدعى فادي أفرام الصحفيين ليطلب رسمياً المساعدة من إسرائيل. وقد أثار رئيس الميليشيا المسيحية وزوّاره فكرة زيارةٍ «علنيّة» يقوم بها بيار الجميّل وكميل شمعون، أو أحدهما، إلى إسرائيل للقيام بالمسعى ذاته. لكنّ رئيس الموساد قرر أنّ ذلك قد لا يكون كافياً. وسأل فادي أفرام:

- هل قمتم بالاتصال مع الأميركيين؟

- مع السفير فقط. إنّ ماكفرلين لا يتحدّث إلى المحليين. ويتوجّب علينا أيضاً، خارج نطاق الجبهات، حماية القرى المسيحية الأخرى في الجبل.

فسأله أدموني:

- وإلام تحتاجون من أجل ذلك؟

- إلى دبابات وذخائر.

- سوف تحصلون على الذخائر. أفلا يسعكم استخدام دباباتكم؟

- إنّها كلّها على الجبهات.

- وماذا عن الوضع السياسي؟

فقال أفرام:

- جرى كلّ شيء لسوء الحظ مثلما توقعنا أمامكم. والآن سوف يبدأون بمهاجمة الجيش للتسبب في تفككه. إنّ بعض الجنود الشيعة قد هربوا للالتحاق بحركة أمل. وهنالك صرخة غضب حقيقية من جانب المسيحيين ضد الرئيس. فبعضهم يأتي لرؤيتنا وسؤالنا عمّا يمكن القيام به. إنّهم قلقون جداً لفقدان الصلة بين السلطة وإسرائيل. وعديدون هم الذين على استعداد للتطوع ضد أمين. وها نحن الآن ندفع ثمن تفاهمنا معه لأنّكم اعتبرتمونا مماثلين له.

فردّ أوري لوبراني مبرراً:

- كان علينا التعامل مع السلطة من دون التدخل في السياسة الداخلية اللبنانية. لقد جعَلَنا الرئيس ندرك أن لديه مشكلات داخلية وأنّه لا يستطيع الحديث معنا. وطالب المسؤولون لدينا بأن نتعامل معه تعاملاً مباشراً. وفي هذا الصباح، أبلَغَنا الأميركيون برسالة من أمين يطلب إلينا التدخل بطيراننا في بحمدون. . .

رنّ جرس الهاتف وقطع الحديث. ورفع أفرام السماعة، فأصغى، ودوّن بعض الملاحظات. وبعد إغلاقها أخبر محدّثيه أنّ الدروز انتقلوا إلى الهجوم على ثكنات بيت الدين ودير القمر، وأنّ بحمدون لم تعد تردّ. لقد تحدّثت رسالتهم الأخيرة عن هجومٍ عام على مواقع «القوات» كافّة وعن تدمير 9 دبابات سورية

واستأنف لوبراني القول:

– قررت حكومتنا عدم الاستجابة لمطالبة رئيسكم لأنّه يواصل التلاعب والمراوغة. ولدينا الانطباع أنّ بينكم وبينه تنسيقاً كاملاً.

فأضاف بيتر قائلاً:

– ولدينا الانطباع بأنّ هجومكم على البنّاي انطلاقاً من كفرمتى كان بالتنسيق مع الجيش.

فردّ قائد «القوات» بصوتٍ مرهق قائلاً:

– كلاّ! كان هنالك فقط تنسيقٌ مدفعي حتى لا نوجّه الرمي معاً على الأهداف ذاتها.

فقال لوبراني:

– بيتكم يحترق وأنتم لا تقومون بالتنسيق في ما بينكم.

– لدى أمين لواءان تحت تصرّفه أحدهما اللواء الثامن. وهو حسن التجهيز ويستطيع الصمود. لكن باقي الجيش مكوّن من 60 % من الشيعة. ولا يريد إبرهيم طنّوس أن يجعله يصعد، فهو مقتنع بأنّه سيتفكك. نحن نقوم بكل شيء كي تبقى الوحدات في منطقتنا كي نحصل على تجهيزاتها إذا ما انفرط عقدها من الناحية الواقعية.

فتنهّد المسؤول عن العمل الإسرائيلي في لبنان قائلاً:

– تلك المسألة يصعب شرحها لوزير الدفاع. فهو مقتنعٌ بأنّكم تعملون بتعاون لصيق مع السلطة. هل تعلمون إلى أيّ حدّ يشارك الأميركيون في مخططات الجيش اللبناني؟

فأجاب فادي أفرام:

– إنّي أجهل التفاصيل. وأعرف فقط أنّهم حاضرون في «غرفة العمليات».

– إذن هم يعرفون ما يجري في بحمدون ولم يفعلوا شيئاً؟

– بالضبط.

فسأله رئيس الموساد:

– ما هي احتياجاتكم بعد انسحابكم إلى الجنوب من طريق بيروت–دمشق؟

– الذخائر، لا سيّما المضادة للدروع.

– وما الذي يمكن أن يجعل رئيسكم يتحرّك؟

– إنّه يعتمد اعتماداً كليّاً على الأميركيين. ويأمل أن يقوموا في الحد الأدنى بالانتشار في بيروت على نحوٍ يحرر الجيش حتى يستطيع إرساله إلى الجبل.

فأعلن بيتر قائلاً:

– طلبنا بالأمس إلى أمين أن يقابل لوبراني سراً، لكنّه رفض.

فعلّق المعني بذلك قائلاً:

– لم أكن متلهّفاً جداً لفكرة اللقاء به، لكنّه لو قبل لذهبت إلى هنالك.

فقال أفرام:

– وبانتظار ذلك فأنتم تسمحون لمنظمة التحرير الفلسطينية بالرجوع!

فردّ عليه لوبراني قائلاً:

– أنت تعرفنا خيراً من أيّ شخصٍ آخر. فهل تعتقد أن أيّ حكومةٍ في إسرائيل، وهذه الحكومة لا تتمتع إلّا بـ 64 صوتاً من أصل 120 في البرلمان، تستطيع اليوم إرسال قواتٍ إلى الشوف؟

– أنا لا أطلب منكم القيام بعمليّةٍ على نطاقٍ واسع! وإنّما فقط إيقاف هجومهم على طريق بيروت–دمشق.

– إنّ عمليّةً معزولة غير ممكنة.

هيّا بنا! إنها ليست معزولة. أنتم في الباروك، على بعد 4 كم من الطريق.

فردّ لوبراني قائلاً:

– إذا شئت أن أكون صادقاً معك، فأنا لا أعتقد بأنّ ذلك ممكن. ثمّ استدار نحو جاره ليسأله قائلاً: وأنت يا بيتر ما رأيك؟

– ذلك هو رأيي أيضاً. إنّنا مستعدّون، في جنوب الأوّلي لمساعدتكم، أنتم أو حكومتكم، ضد الفلسطينيين. لكن ليس لنا من صِلات بالحكومة اللبنانية. ونحن بصراحة، على استعداد لمساعدتكم. فقولوا لنا ما تريدون.

– نريد تدخّلاً عسكريّاً وذخائر.

فاقترح أدموني قائلاً:

– هل يمكن لضابطٍ في المدفعية أن يقدّم نفعاً لكم؟

– كلّا! إن رجال مدفعيّتنا على جانب كبير من الخبرة. لكننا نحتاج بالمقابل، إلى تغيير مدافعنا. إنّنا نستخدمها منذ 1977، وخصوصاً التي من عيار 155 مم. فهل يسعكم تزويدنا بها؟

فردّ لوبراني وهو يخطّ بضع كلماتٍ على قطعة من الورق:

– سوف نرى.

– وماذا بشأن الذخائر؟

فأعلن بيتر قائلاً:

– هنالك 3000 قذيفة في طريقها إليكم.

– إنّها مخصصات يوم واحد!

– أنتم تطلقون إلى هذا الحدّ؟

أطلقنا اليوم أكثر من 3000!

فأكّد لوبراني وهو يهزّ رأسه:

– كلّ شيءٍ يأتي متأخّراً جداً. حتّى أنّ طلب أمين، الذي يسألنا التدخّل في بحمدون، كان من شأنه إحداث انعكاسٍ مغاير لو جاء في وقتٍ مبكرٍ أكثر. فهل تعتقدون أنّي كنت أستمتع كثيراً بالمناقشة مع وليد جنبلاط؟ ينبغي على أمين أن يفاوض! أمّا من بعد، فيقوم بضربه حين يستطيع. إلّا أنّه لم يكفّ عن الرفض! لقد كان بوسعه قطع وعود ثم التنكّر لها فيما بعد! هذه هي السياسة!

فأكّد أدموني قائلاً إلى لوبراني:

– نحن لسنا موافقين على ما قلت الآن.

وجرى نقاشٌ بين الرجلين حول المسؤوليات الإسرائيلية في تدعيم زعامة وليد جنبلاط في الشوف. لكنّها قوطعت بسرعة من قبل مناحيم ناڤوت. فقد قال هذا الأخير لفادي أفرام إنّ وحداتٍ من القوات الخاصة السورية والفلسطينية قد تمركزت في ضهور الشوير، وإنّها، بكل جلاء، سوف تمارس ضغطاً عسكريّاً على بكفيّا، وهي معقل آل الجميّل، حين يصيرون في حالة ضعفٍ على جبهةٍ أخرى. وكان وليد جنبلاط قد هدّد الرئيس بقصف قريته ما لم ينسحب الجيش اللبناني من الشويفات. ونصح الإسرائيليون زعيم «القوات» بتحديد خط دفاعٍ ثانٍ في حال انهيار الخط الأول. لكنّ المسألة بالنسبة إلى القوات اللبنانية كانت مغايرةً تماماً. فقد كانوا يتوقّعون على المدى القريب أو البعيد حصول تفكّكٍ في الجيش. فيكون عليهم إذن الإمساك ببيروت، والدفاع عن بكفيّا وعن شمال القطاع المسيحي. وذكّر فادي أفرام قائلاً: لا يفكّر عسكريٌّ غنيّ مثلما يفكّر عسكريٌّ فقير. فالغنيّ يضع إستراتيجية ويهجم. أمّا الفقير فينشط كثيراً على الأرض ثمّ يفكّر في الإستراتيجية فيما بعد.

الكل إلى دير القمر. كانت هذه الصيحة تتردد مرّاتٍ ومرّات في بحمدون ساعة كان فادي أفرام وزوّاره الإسرائيليون يختتمون اجتماعهم. لقد سرت في الليل من المواقع إلى المنازل، ومن الملاجئ إلى الأبنية المبقورة لتغطي على أصوات الانفجارات وعمليات القصف. كان عناصر الميليشيات المسيحية، في انكفائهم، يتدافعون فينعطفون عن أمكنة المقاتلين الفلسطينيين من لواء الأسد، ليمرّوا على البنايات، واحدة فأخرى، ليدفعوا بالمدنيين إلى الهرب نحو الجنوب. كان الجرحى المتجمّعون في العتمة، أمام مستوصف القرية، يوضعون في شاحنة على جناح السرعة. ويتكدّس الرجال والنساء والأطفال في كل ما يجري على عجلات، وهم في الغالب بملابس النوم، ليسلكوا الدرب الضيق المتلوّي على سفح التلة لا ينير طريقهم سوى ضوء القمر. جرى إخلاء بحمدون من سكانها وعددهم 2500 نسمة في أقل من ساعة. بينما استمرّت الانفجارات تزمجر من حولها. لقد انطلق الناس الأقل غنىً سعياً على الأقدام، فكانوا يركضون لاهثين حين تغدو الانفجارات قريبة، ويمشون وهم يئنّون حين تبتعد. مضوا من غير أن يحملوا شيئاً معهم، أو أنّهم

حملوا الشيء اليسير. وغالباً ما يكون ذلك الذي حملوا بلا نفع ولا طائل وراءه، لكنّه وقع تحت أيديهم ساعة الرحيل، ثم ألقوا به جانباً فيما بعد لأنّه ثقيل جداً أو يسبّب الإرباك. لقد ارتحلوا جميعاً تقريباً، والهلع والرعب في أحشائهم، على ما كانت حالهم، وصدورهم عارية وأحياناً ينتعلون الأخفاف. كانت كلّ قريةٍ تعبرها تلك الجماعات البشرية والأفراد المذعورون تفرغ بدورها من سكانها على وقع الصرخات . . .الكل إلى دير القمر . . . أمّا في مقرّ القيادة العامة لسمير جعجع، في دير عين تراز الماروني، فكان آخر العناصر يرمون باهتياج، ملء أذرعهم، من الوثائق والبطاقات في نارٍ كبيرة. إنّ كلّ ما لا يمكن ترحيله قد جرى تدميره.

كان المهاجمون يتسللون سريعاً في شوارع المدينة. لقد تبعثروا ما بين الأبنية بحثاً وراء أغراضٍ ذات قيمة. إنّهم يمضون سعياً وراء أجرٍ، مع الموافقة الضمنيّة من قيادتهم، فمرتبهم ضئيلٌ أو هم دون مرتّب على الإطلاق. لقد جرى تناسي الحرب لبرهةٍ من الزمن، سعياً وراء تصيّد الغنيمة. ولم يتردّد بعض منهم في الانكفاء على أعقابهم ليرجعوا بواسطة نقلٍ لتحميل أجهزة التلفزيون، وقطع الأثاث، والأدوات المنزلية وحتّى النوافذ والأبواب[1]. أمّا بعض من السكّان المتقدمين جداً في السن أو القريبين سياسياً من الحزب التقدمي الاشتراكي، والذين لم يفكروا في المغادرة، فقد جرى قتلهم، وتمّ ذلك في الغالب كي لا يبقى من شهودٍ على عمليات النهب. لقد جرى قتل 212 شخصاً[2].

حين طلع النهار كانت «صوت الجبل»، وهي إذاعة الحزب التقدمي الاشتراكي التي أُقيمت في حصنٍ قديم بناه الجيش الفرنسي أيام الانتداب في بحمدون، تفتتح للمرّة الأولى برامجها بإذاعة البيان رقم 1 للحزب والذي بدأ بهذه الكلمات لقد سقطت بحمدون. . . . لم يعد هنالك أيّ عائقٍ يقف في وجه التموّن بالرجال والأسلحة والذخائر قدوماً من البقاع باتّجاه عاليه وسوق الغرب.

لقد شكّل سقوط بحمدون طعنةً نجلاء لمعنويات الميليشيات المسيحية على الجبهات الأخرى. أمّا الأخبار الشحيحة الواصلة إلى بيروت فكانت تؤكّد على عمليات النهب ومذابح المدنيين. فتوجّه فادي أفرام حوالى الظهيرة إلى مكتب الموساد في طبرجا ليتّصل مباشرةً برئيس الوزراء الإسرائيلي أو وزير الدفاع. وقد وجد رسالةً موجّهةً إليه قد وصلت توّاً:

6/ 9/ 1983 الساعة: 13,30 من بيتر إلى لاري

1- لاحقاً لزيارتنا بالأمس، هنالك استشارات وتدابير على مستوى عالٍ. فلدينا هنا محادثاتٌ جادّة مع الأميركيين.

2- أمّا على هذا الصعيد، فلا تغيير في موقفنا: لن نتدخّل.

---

(1) دفاتر تقارير صحفية لآلان مينارغ.

(2) رقم أعطاه أ. خير الله رئيس بلدية بحمدون غداة المعارك.

3- قبل إعطاء ردّنا بشأن زيارة الشيخ بيار وكميل شمعون إلى إسرائيل، ننصح بأن يقوم الاثنان أوّلاً بالاتصال بالأميركيين على المستوى الملائم، حتّى مع السفير، لإحاطتهم علماً بما يريدون أن يقولوا لنا. فمن الهام بالنسبة إلينا، أن يعرف الأميركيون ذلك عن طريقكم مباشرةً وبالتفصيل.

4- سوف نحيطكم علماً بموقفنا.

أمّا وأنّ الاتصال الهاتفي مع القدس صعب التحقيق، فقد أرسل أفرام عن طريق التيليكس المرمّز، إيضاحات تمّت في الصباح ذاته وتتعلق بطلبٍ لبناني بالتدخّل.

6/ 9/ 1983 الساعة: 14,40 من لاري إلى بيتر

وفقاً لقول الشيخ بيار، أكرّر، وفقاً لقول الشيخ بيار، فإنّ الرئيس الجميّل على استعداد لأن يطلب مباشرةً تدخّلاً إسرائيلياً. إلاّ أنهم يرغبون في أن يعرفوا إلى أيّ حدٍّ ستردّ الوزارة الإسرائيلية ردّاً إيجابياً، وإذا كان عملكم سيكون كافياً لإيقاف مذبحة المسيحيين في لبنان في الوقت المناسب.

بعد ذلك بدقائق استلم زعيم الميليشيا مكالمةً هاتفيّة من مندي - الذي كان في مكتب رئيس الوزراء. فأحاطه علماً بآخر الأخبار التي بحوزته وتوسّل إليه قائلاً:

- أطلب منكم باسم الإنسانية أن تتدخلوا لإيقاف المذابح التي تُقتَرَف ضد المدنيين المسيحيين قرب بحمدون. إنّ أكثريّة من المسيحيين ينتظرون، بعد اليوم، استقالة أمين. وأؤكّد لك أن الشيخ بيار والرئيس شمعون على استعداد للذهاب إلى إسرائيل. إنّ القوات التي خرقت الجبهة كبيرة جداً، وقوامها سوريون وفلسطينيون. ولم يعد هنالك ما يقوى على إيقافهم.

فردّ عليه مندي قائلاً:

- اطلبوا من عون أن يتدخّل.

كان الجبل يفرغ، كان ينكمش. وتقاطر المدنيون والمقاتلون المسيحيون، مجموعات صغيرة، على دير القمر، تحت شمس لاهبة. كانوا منهكين بسبب عمليات القصف التي ترمي بهم إلى الجوانب المنخفضة من الدروب بحثاً عن ملجأ موقت. أمّا الذين يُصابون فكانوا في أغلب الأحيان يُترَكون حيث هم. أمّا في القرى، فكان الناس المتقدّمون جداً في السن والمتشبّثون بأرضهم هم الذين يشقّ إقناعهم بالرحيل. لم تكن لديهم القدرة على الفهم، كيف أنّ «الدروز» الذي جاوروهم طوال حياتهم قد صاروا دمويين على حين غرّة.

استؤنف تقدّم المهاجمين في بحر النهار. فكان يجري احتلال القرى المسيحية المهجورة، ونهبها، قرية إثر أخرى. ولدى وصول سمير جعجع إلى دير القمر، جمع مقاتليه أمام الكنيسة وقال لهم: أما بوصفكم مقاتلين، فقد ربحتم الحرب، وأنا خسرتها قائداً. لقد طُلِب إليكم الصمود اثنتي عشرة ساعة، فصمدتم اثنتين وسبعين. أما الآن فعلينا حماية دير القمر[1].

---

(1) بول عنداري: «الجبل».

صعد فادي أفرام إلى القصر الرئاسي سعياً وراء إقناع أمين الجميّل للمرّة الأخيرة بالعمل على إعطاء الأوامر للجيش، فاصطدم بالرفض القطعي ذاته مما جعله يخرج عن طوره:

– لقد فقدنا بحمدون ونحن نتصدى وحدنا للهجمات الأخرى! لم يعد لدينا ما نقوم به في سوق الغرب سوى الدفاع عن نظامك!

ثم راح يصرخ قبل مغادرة القاعة قائلاً:

– لسوف أسحب رجالي من هنالك!

ما إن وصل إلى الكرنتينا، حتى باشر يصدر بنفسه، عن طريق اللاسلكي، الأوامر إلى المسؤولين عن مجموعاته بالانسحاب. لكنّه قوطع عبر الهاتف. فأجهزة الاتصالات في اللواء الثامن، التي دخلت على التردّد المستخدم من قبل الميليشيا لمتابعة المعارك قد اعترضت رسائله. وقد طلب إليه ميشال عون تأجيل انسحاب مقاتليه لبضع ساعات كي يستطيع رجاله أن يحلوا محلّهم. فهو لم يتلقّ أي إيعاز من رؤسائه للقيام بذلك، لكنّه لم يشأ بأيّ شكل من الأشكال أن يترك سوق الغرب بلا حماية. وفي أقل من ثلاث ساعات، انتشرت كتيبة من اللواء الثامن بين أنقاض المدينة من غير أن تعرف بذلك القيادة أو الرئاسة.

أعقبت واشنطن بنداء ثان يائس، موجّه من الحكومة اللبنانية إلى تل أبيب كي تعمل على إيقاف تقدّم مقاتلي الحزب التقدمي الاشتراكي وحلفائهم. ولم يصدر عن إسرائيل أي ردّ، باستثناء تعليق إسحق موداي، وزير الطاقة، الذي صرّح للإذاعة الإسرائيلية قائلاً لو كانت إسرائيل مرتبطة بحلف عدم اعتداء مع لبنان، لكان لذلك الطلب ما يبرره. وإنّ التعبير عن ذلك الطلب من جانبهم لوقاحة كبرى.

وصل أواخر اللاجئين إلى دير القمر، مجموعاتٍ وأفراداً، في حدود الساعة التاسعة مساء. كانت أقدامهم دامية، أمّا وجوههم فقد دمغتها آثار الإرهاق والدموع والعرق والغبار. وتحوّل الميدان أمام السراي إلى موقف شاسع للسيارات. وجد أوائل الواصلين زاويةً من سرير أو من ممر لدى السكان. وجرى الاستيلاء على الكنائس والمدارس وأبنية البلدية والمساكن الفارغة. وحلّ سمير جعجع ورجاله محلّ الإسرائيليين في المدرسة التقنيّة التي تشرف على المدينة. أمّا الذين وصلوا بالسيارات فقد حوّلوا عرباتهم إلى مهاجع. بدأ الشُحّ في الطعام منذ الليلة الأولى. فالوصول المباغت والكثيف لما يقرب من 25000 نسمة – من 60 قرية – إلى تلك البلدة التي تعداد سكّانها 4000 نسمة، قد قلب التوازن رأساً على عقب. إنّ دير القمر القائمة على سفح تلّة، وهي مدرجٌ حقيقي من المنازل على الطراز العثماني، مبنيّة بالحجارة المنحوتة، وسقوفها من القرميد الأحمر، ومجمّعة حول ساحةٍ مرصوفة رصفاً مرصّعاً بين السّراي، ومسجد – هو واحدٌ من أقدم المساجد في لبنان– والقيصريّة[1]، قد تحوّلت في بضع ساعات إلى مدينة محاصرة. لقد رُفعَت كتلٌ ترابيّة أمام المداخل

---

(1) سوق قديم للحرير ومسقوف.

كافّة. أمّا المنازل الأولى فتحوّلت إلى مراكز للقتال. وتولّت الميليشيات إدارة البلدة. فجرى «تسخير» مجموعاتٍ لجلب الماء والحطب. وجرى توزيع الغذاء بالحِصص. لقد انقطعت دير القمر عن باقي العالم. وما كان أحدٌ يعرف حينها أنّ ذلك سوف يدوم 100 يوم، أي أكثر من ثلاثة شهور.

قرّر أمين الجميّل في بداية ليل السادس من أيلول/ سبتمبر، بعد الانسحاب الإسرائيلي بثلاثة أيام، إرسال لواءٍ إلى سوق الغرب، نزولاً عند نصيحة الضباط الأميركيين الموجودين في «غرفة العمليات». فهذا الموقع الهام مع مضيق ضهر الوحش بين عاليه والجمهور هما الآن المتراسان الأخيران اللذان يحميان وزارة الدفاع والقصر الرئاسي ومكان إقامة سفير الولايات المتحدة. كان يتوجّب عليه بشكلٍ إلزامي الإبقاء عليهما مغلقين لاحتواء أمواج المهاجمين. فقام الجنرال إبرهيم طنّوس باستدعاء ميشال عون ليبلغه بالأوامر. فأجابه قائد اللواء الثامن قائلاً:

- إنّ ذلك قد تمّ.

إنّ عناصر الميليشيات الذين نزلوا في سوق الغرب قد جرى إرسالهم فوراً لدعم فؤاد أبو ناضر في المشرف. وجرى الاستيلاء على المراكب الترفيهيّة ذات المحركات عند رصيف مرفأ الكسليك في جونيه. وجرى تحميل قسم كبيرٍ منها في ليلة 6 و7 أيلول/ سبتمبر، بالرجال والعتاد، لتقوم بالذهاب والإياب مع الجسر النفطي العائم للمحطة الكهربائية في الجيّة، وكلّها مطفأة الأنوار، مبحرةً بعيداً جداً عن الشاطئ، كي لا يجري كشفها من قبل المدفعيين الدروز في الجبل.

جاءت حوّامة إسرائيلية في حدود العاشرة والنصف ليلاً لتحمل فادي أفرام، وروجيه ديب، وألفريد ماضي وجورج عدوان إلى الزوق. لقد قبِلَ موشيه أرينز بأن يستقبلهم ليلاً. بدأ اللقاء في منتصف الليل في دار الضيافة في مقرّ الموساد إلى الشمال من تل أبيب. كان يحيط بوزير الدفاع الإسرائيلي كلٌّ من موشيه ليڤي، وأوري لوبراني، وناحوم أدموني رئيس الموساد، ومساعده مناحيم ناڤوت، وكذلك الجنرال إيهود باراك الذي حلّ محل يوشع ساغي على رأس جهاز آمان في الاستخبارات العسكرية.

كان باراك، وهو في هيئة مغوار، عريض المنكبين، بمشيةٍ متأرجحة خاصة بالمظليين متعارضة مع وجهه الطفولي، يُعتَبَر خرافةً حيّةً في الوسط المغلق للاختصاصيين في العمل السرّي. فهذا الملازم المتنكّر في زيّ امرأة، جاء إلى لبنان «لقضاء» بضع ساعات في ليلة التاسع والعاشر من نيسان/ أبريل 1973. فشارك في عملية «أفيف ني أوريم»[1] التي جرى أثناءها قتل اثنين من قادة أيلول/ سبتمبر الأسود هما: محمد النجار (أبو يوسف)، وكمال عدوان وكذلك كمال ناصر الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية، في منازلهم، بشارع ردان، في قلب بيروت الغربية. كذلك

(1) ينبوع الشباب.

كان مساعد الجنرال دان شومرون في عملية عينتيبي لتحرير المسافرين الإسرائيليين على طائرة تابعة للخطوط الفرنسية قام قراصنة جو فلسطينيون باختطافها. ولم يكن ينزع عن عينيه قط نظارتيه من ماركة «ري بان» بلونهما الأخضر، وكان من أكبر مدخني السيكار.[1]

أحاطهم فادي أفرام علماً بالوضع العسكري وبرحيل المدنيين المسيحيين عن الشوف نحو دير القمر قبل أن يوضح قائلاً:

– أمين الجميّل هو المسؤول عن كل ما وقع. لقد رفض استخدام الجيش. ونحن من جهتنا قلنا له ذلك. إنّ المسيحيين كافة يعارضونه بالإجماع ويؤكّدون أنّ التحالف مع إسرائيل لا يستغنى عنه. وهم مستعدّون للمضي في هذا الاتجاه إلى أبعد ما يتطلب الأمر بصرف النظر عن ردّة فعل الرئيس. نحن بحاجةٍ لأن نعرف إلى أيّ مدى يسعنا الذهاب معكم. وإذا لم يكن القيام بشيءٍ ممكناً فعلينا أن ندرس الوسيلة لإيقاف السوريين بتقديم تنازلاتٍ لهم.

فأضاف ألفريد ماضي:

– نحن نشعر بأنّ طائفتنا تتحمّل ثمن سياسة رجلٍ واحد. لقد التقيت بـأمين الجميّل هذا اليوم. إنّ خياره لبسيط: إمّا إسرائيل وإمّا سوريا. وهو يعرف شعورنا في هذا الشأن. إنّ الرئيس مستعدٌّ لمناقشة ذلك كلّه معكم. لكنّ ذلك يتطلّب إعداداً.

فردّ الوزير الإسرائيلي عليهم قائلاً:

الرئيس الجميّل مفتاح المعضلة. إنّه رئيس لبنان المعترف به على هذا النحو من قبل الولايات المتحدة وإسرائيل. لقد رفض اللقاء بنا. وقد أحطناه علماً بانسحابنا. فرفض التنسيق معنا. وحاولنا الحفاظ على حوارٍ معه لكنّه لم يرغب بذلك. لقد رفض رفضاً علنيّاً وعمليّاً كل نمطٍ من الاتصال بنا. قد يكون على وشك الذهاب إلى سوريا وإلغاء اتفاق 17 أيار/ مايو. أمّا إن كان يريد في واقع الأمر القيام بشيءٍ ما، فليبدأ بلقائنا.

فأعلن ماضي قائلاً:

– ينبغي أن يلتقي دي (كيمحي) عمّا قريب بـسامي مارون وجوني عبدو.

فتدخّل موشيه أرينز قائلاً:

– فليتوقف عن هذه اللعبة! عليه أن يلتقي بنا مباشرةً. أنا لا أقول إنّ عليه القدوم إلى هنا. لكن ليكن هنالك اتصالٌ مباشر.

فاستأنف ماضي يقول:

– هنالك نقطتان. الأولى مستعجلة ودقيقة: المسيحيون يتعرّضون للذبح. ربّما هذه مشكلتنا نحن وإنّها لا تعنيكم.

---

(1) جرت تسمية إيهود باراك من بعد رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، ثمّ وزيراً للخارجية في حكومتي رابين وبيريز. وجرى في النهاية انتخابه رئيساً للوزراء.

فقاطعه أرينز قائلاً:

- إنّ ذلك يعنينا بكل تأكيد.

فاستأنف ماضي يقول:

- نحن، من ناحيتنا، نريد إنقاذهم. أمّا النقطة الثانية فهي التغيير المقبل في العلاقات مع الرئيس. ربّما أنتم لا تثقون به، أمّا نحن فقد ألّبنا المسيحيين ضدّه. وهذه فرصة لا ينبغي أن تضيع.

فقال موشيه ليفي:

- لا أعتقد اعتقاداً مطلقاً بتغييرٍ في سياسة أمين الجميّل. لكنّي أعتقد أيضاً بأنّ الدروز لا يسعون وراء الارتباط بالسوريين ارتباطاً حاسماً وأظنّ أنّه يمكن على الدّوام النقاش معهم.

فألحّ فادي أفرام قائلاً:

- قد نتعرّض غداً لهجومٍ سوريٍ واسع. فهل يسعكم إعطاءنا ضمانات حماية بهذا الشأن؟ وإلاّ فسوف نقوم فقط بما هو ضروري لتأمين سلامة طائفتنا.

فأوضح عدوان قائلاً:

- أضيف إنّنا مستعدّون للمضيّ في معاداة الرئيس حتّى النهاية. ونحن على كلّ حال قد قلنا له ذلك.

فأضاف أفرام:

- إنّه يعرف ذلك. فقد قال إنّه في حال استمرّت الضغوط التي تمارس عليه، فسوف يستقيل ويعيّن رئيس وزراءٍ مسيحياً.[1]

فكرّر أرينز قائلاً:

- إنّ رئيس لبنان هو الرجل الأكثر أهمية. وإنْ كان هنالك من شيءٍ يلزم القيام به بين اليوم والغد، فهو الذي عليه أن يقوم به. إنّه يستطيع استخدام الجيش ويستطيع إرسال الرسائل إلى الولايات المتحدة. إنّه هو الرئيس! إنّ بوسعه القيام بأشياء كثيرة، فهو المسؤول! إنّه هو الذي يصدر الأوامر للجيش اللبناني. وهو الذي يحكم! فينبغي أن يقود!

فقال ألفريد ماضي:

- هنالك إمكانياتٌ ثلاث. أوّلاً أن يبقى الرئيس. فهو الذي يحكم. وهو مستعدٌّ، وفقاً لما قال لنا، لأن يمضي بعيداً جداً في اتّجاهكم. الإمكانيّة الثانية أن يستقيل الرئيس فيسمي رئيس وزراء مسيحياً يسير معكم. الفرضيّة الثالثة والأخيرة أن يبقى الرئيس. لكنّه لا يغيّر موقفه. ولسوف نكون مرغمين حينئذ على الاستمرار وحدنا وعلى أن نضع مخططاً دستورياً أو مضاداً للدستور.

---

(1) إن استخدام الاستقالة وسيلة ضغطٍ مرّاتٍ عديدة من قبل الرئيس في أحاديثه الخاصّة، كان يرمي أساساً للحصول بالقوّة على دعم أبيه بيار الجميّل وحزب الكتائب. الذي كان على الدوام داعماً للرئيس من جهة والذي لا يقبل من جهةٍ أخرى أن يخسر الولاية العليا.

إنّ الإشارة إلى إمكانية حدوث انقلاب كانت صريحة. لكنّ موشيه أرينز الذي أخذ على حين غرّة، قد استبعد المسألة الضمنية لمساعدةٍ إسرائيلية في هذه الحال. وقد أجاب قائلاً:

- ينبغي على الرئيس، بشأن المشكلة الراهنة، أن يعمل اليوم وغداً وبعد غدٍ... لو أنّه قام بما هو ضروري قبل أسبوع، ما كنتم وصلتم إلى هذا الوضع المأساوي. وإن يدفع بالجيش للتدخّل، فإنّه يستطيع تغيير الوضع. لو كان علينا إعادة تقييم علاقاتنا مع لبنان بوصفه دولةً وحكومة لتوجّب علينا بادئ الأمر أن نرى الرئيس مباشرةً.

فقال ماضي:

- إنّه يخاف من وسائل الإعلام.

- هيّا بنا! إنّ الجميع يعرف بوجود علاقةٍ بين لبنان وإسرائيل. إنّ كلّ نقاشٍ حول تغييرٍ ما أو تطويرٍ في علاقاتنا سيكون سابقاً لأوانه. الشيء الأساسي أن نستطيع النقاش معه. هل يسعكم التوصّل إلى اتفاقيّةٍ محليّة لوقف إطلاق النار؟ قد تستطيعون الآن إنقاذ الناس بأساليب محليّة. ربّما بوساطة رئيس بلديّة دير القمر. أمّا بشأن علاقتكم معنا، أنتم، القوات اللبنانية، فسوف نقدّم لكم كلّ الدعم الضروري لكن دون تدخّلٍ مباشر من قبلنا.

فسأله أفرام:

- حتّى في حال تدخّل سوري مباشر؟

- علينا مناقشة ذلك مع الأميركيين. لكنّنا لا نعتقد أنّ السوريين سيتدخّلون مباشرةً.

فسأله عدوان:

- هنالك مذابح تقترف في هذه اللحظة ذاتها، بينما نحن نتكلّم. فهل يسعكم إيقافها؟

فقال وزير الدفاع ساخراً:

- ذلك يعني أنّه يتوجّب علينا الرجوع إلى لبنان، ورئيسكم سوف يقول إنّنا نحتلّ البلاد مجدداً. ليست لنا اتصالاتٌ به. فلا يسعنا القيام بشيء دون موافقة الشخص الأوّل المعني: الرئيس.

- إذن للحصول على تدخّلكم المباشر، ينبغي على الرئيس أن يطلبه شخصيّاً؟

- كلّا! عليه أن يطلبه كي نستطيع مناقشة ذلك مناقشةً جادّة. إنّ طلبه سيكون أساس المناقشة. وعليكم أن تفهمونا.

فأكّد ديب قائلاً:

- لو كنّا نستطيع الرجوع بشيءٍ يشبه الضمان لوجود المسيحيين وأمنهم، فإنّنا نستطيع تسوية أمر اتصال مباشر خلال بضع ساعات.

فقال أرينز وهو يهزّ رأسه نفياً:

- وحتّى الآن، فهو ليس مستعدّاً للمخاطرة! إنّه لا يفعل سوى المراوغة. لو أنّه قابلني حين

كنت في بيروت، وطلب إليّ البقاء حتى نهاية أيلول/ سبتمبر، لكنّا فعلنا ذلك .إلّا أنّنا لم نر أحداً من الحكومة. كنتم أنتم هناك لكن لم يكن هنالك أحد من السلطة.

فأكّد فادي أفرام قائلاً:

– نحن ندفع ثمن أخطاءه. إنّنا محاصرون في زاوية.

فوافق الوزير قائلاً:

– هذا صحيح!

– وماذا يسعنا أن نفعل؟

– إقناعه!

فقال ألفريد ماضي:

– إنّ الرئيس مستعدٌّ للتصرّف في الاتجاه الذي نحن نريد. ذلك هو العنصر الجديد! وليس لنا أن نتوقف عند هذه التفاصيل: من الذي بدأ؟ وما كان ينبغي القيام به... ليس لنا أن ندع هذه الفرصة التاريخيّة تفلت من بين أيدينا.

فقال روجيه ديب متهدّداً:

– نريد أن نعرف إن كان بوسعنا أن نحصل على ضمانات في حال قيام السوريين بقصف مناطقنا. وما لم يكن هنالك ضمانات، فلا يمكن للحل سوى أن يكون سورياً.

فانتهره إيهود باراك قائلاً:

– وماذا لو قصفكم الدروز بقنابل سورية؟ أو كان الفلسطينيون هم الذين يقومون بقصفكم؟

فردّ فادي أفرام مُقِرّاً:

– إنما المشكلة هي أمين. وما لم يغيّر سياسته، فليس هنالك من حل.

فأجابه أرينز قائلاً:

– لا يسعنا، ما دام رئيساً، أن نعالج هذه المسائل مع القوات اللبنانية. إنّها مشكلة يتأجّل إنهاؤها منذ شهور وأسابيع، فلن يغيّر رأيه في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة ليأتي فيتناقش معنا. ولئن كان يقع في أخطاء، فليس لكم أنتم أن تتحمّلوا نتائجها.

فهتف جورج عدوان قائلاً:

– مشكلتنا مستعجلة وينبغي أن تُبحَث في الساعات التالية.

فلاحظ باراك قائلاً:

– لمّا يقع من شيء في دير القمر حتى الآن. فيسعكم البدء بالنقاش مع الدروز قبل حصول أي شيء.

فأكّد ماضي قائلاً:

فقال أفرام:

– وبانتظار ذلك فأنتم تسمحون لمنظمة التحرير الفلسطينية بالرجوع!

فردّ عليه لوبراني قائلاً:

– أنت تعرفنا خيراً من أيّ شخصٍ آخر. فهل تعتقد أن أيّ حكومةٍ في إسرائيل، وهذه الحكومة لا تتمتع إلّا بـ 64 صوتاً من أصل 120 في البرلمان، تستطيع اليوم إرسال قواتٍ إلى الشوف؟

– أنا لا أطلب منكم القيام بعمليّةٍ على نطاقٍ واسع! وإنّما فقط إيقاف هجومهم على طريق بيروت–دمشق.

– إنّ عمليّةً معزولة غير ممكنة.

هيّا بنا! إنّها ليست معزولة. أنتم في الباروك، على بعد 4 كم من الطريق.

فردّ لوبراني قائلاً:

– إذا شئت أن أكون صادقاً معك، فأنا لا أعتقد بأنّ ذلك ممكن. ثمّ استدار نحو جاره ليسأله قائلاً: وأنت يا بيتر ما رأيك؟

– ذلك هو رأيي أيضاً. إنّنا مستعدّون، في جنوب الأوّلي لمساعدتكم، أنتم أو حكومتكم، ضد الفلسطينيين. لكن ليس لنا من صِلات بالحكومة اللبنانية. ونحن بصراحة، على استعداد لمساعدتكم. فقولوا لنا ما تريدون.

– نريد تدخّلاً عسكريّاً وذخائر.

فاقترح أدموني قائلاً:

– هل يمكن لضابطٍ في المدفعية أن يقدّم نفعاً لكم؟

– كلّا! إن رجال مدفعيّتنا على جانب كبير من الخبرة. لكننا نحتاج بالمقابل، إلى تغيير مدافعنا. إنّنا نستخدمها منذ 1977، وخصوصاً التي من عيار 155 مم. فهل يسعكم تزويدنا بها؟

فردّ لوبراني وهو يخطّ بضع كلماتٍ على قطعة من الورق:

– سوف نرى.

– وماذا بشأن الذخائر؟

فأعلن بيتر قائلاً:

– هنالك 3000 قذيفة في طريقها إليكم.

– إنّها مخصصات يوم واحد!

– أنتم تطلقون إلى هذا الحدّ؟

أطلقنا اليوم أكثر من 3000!

18

جبهة سوق الغرب

أثار سقوط بحمدون، وخصوصاً هروب المسيحيين نحو دير القمر، ردود فعل في عواصم عديدة. فالعواصم الأوروبية عبّرت عن قلق شديد جداً. أصدرت باريس أمراً إلى حاملة الطائرات «فوش Foch»، وإلى سفينة خفر السواحل «غيبرات» والفرقاطة «مونكالم» بالإقلاع نحو المياه اللبنانية، وذكّرت واشنطن بأنّ قوة نيرانها في المياه اللبنانية قوّة ضخمة. كما دعت الرياض إلى عقد اجتماع فوق العادة لمجلس الوزراء مخصص للقضية اللبنانية للإعلان أنّ العربية السعودية تجمّد وساطتها إلى حين «ظهور مؤشّرات جديدة مشجّعة». واندفع روبرت ماكفرلينقاصداً دمشق. لقد أنكر حافظ الأسد كل تورّط لبلاده في معارك الشوف. والتقى الأميركي أيضاً بوليد جنبلاط ومروان حمادة ليعرض عليهما فتح حوار مع أمين الجميّل. فكررا شروطهما: الانسحاب غير المشروط للكتائبيين كافة من الجبل، وانسحاب الجيش اللبناني من الشوف وعاليه واستقالة الجنرال الدرزي نديم الحكيم، رئيس هيئة الأركان، الذي ظلّ في منصبه معارضاً طائفته. ولم تأتِ الصحافة السورية حتى على ذكر مرور ممثل رونالد ريغان في العاصمة السورية. وقام ماكفرلين لدى عودته إلى بيروت، في المساء ذاته بنقل الرسالة، لكنّ الجميّل لم يقم بأيّ ردّ.

لم تكن الوحدات الأربع في القوة متعددة الجنسيات بمأمن حيال عمليات القصف، بل جرى التضييق عليها من غير أن تقوى على الردّ. ذلك أنّ التعليمات مشدّدة: لا بدّ قبل الردّ من التيقّن من معرفة المعتدي. وفي 7 أيلول/ سبتمبر 1983، تعرّض جناح من قصر الصنوبر حيث كان مقرّ قيادة الجنرال الفرنسي كولون لإصابة مباشرة، أدت على الفور إلى مقتل سائق ومصرع الرائد ساهليه قائد الكتيبة السابعة من هندسة المظليين. لقد كانت إصابات الفرنسيين سبعة قتلى وأربعة عشر جريحاً في أحد عشر يوماً. وكان المحيط الأميركي من المطار يتعرّض«للرشق» على الدوام وكانت خسائرهم أربعة قتلى و25 جريحاً في 10 أيام. احتجّ كلود شيسون، وزير الخارجية الفرنسي، «احتجاجاً قوياً» على السوريين. وتدعيماً لموقفه، أقلعت أربع طائرات «سوبر إيتندار»، من على حاملة الطائرات

«فوش»، بقصد القيام جهاراً بجولات استطلاع فوق الجبل، والتعرّف على مصادر القصف المدفعي. وبعد ذلك بساعة واحدة أقلعت طائرتان من طراز F14 من على متن الحاملة «أيزنهاور» للقيام بالمهمة ذاتها.

لكنّ بطاريات المدفعية المتمركزة في المتن تحت الإشراف السوري وتلك التي في منطقة عاليه، لم تعبأ بالإنذار، «فألهبت» مواقع المارينز في خلدة وفي مطار بيروت الدولي. وقامت مدفعية الأسطول الأميركي بالردّ للمرّة الأولى. فتحت مدافع الفرقاطة الأميركية «يو إس إس بووين USS BOWEN»، وهي من عيار 125 مم نيرانها على شملان، إلى الجنوب من عاليه، في حين كانت مدافع المارينز من عيار 155 مم توجّه نيران بطارياتها نحو مواقع الحزب التقدمي الاشتراكي. لكن لم يحصل أي ردٍّ مشترك. ذلك أنّ افتقار القوات متعددة الجنسيات لقيادة موحّدة كان يتسبّب لها بمضايقات كبيرة. فكل قوّة من مكوّناتها تقوم بتنفيذ سياسة حكومتها هي. والحال أنّ أيّ قوة منها لم تكن تعلم على وجه التحديد حقيقة مهمّتها. كان هدفها «الرسمي» أن تتيح للحكومة استعادة سلطتها على العاصمة، لكنّ الوسائل لم يجرِ تحديدها قط، فكل قوّة منها تتقوقع على ذاتها فوق أرضها المحدّدة متميّزة عن القوة الأخرى.

إنّ العمل العسكري ضدّ «قوة التدخّل» لم يكن بمحض المصادفة. أما انعكاساته على الولايات المتحدة فطرحت مشاكل داخلية متزايدة على رونالد ريغان عشية افتتاح دورة الكونغرس.

جعل وقوع ضحايا أميركيين تدخّل الولايات المتحدة في لبنان أقل شعبيّة بكثير مما كان عليه في بدايته. فقد أشارت استفتاءات الرأي إلى أنّ 43% من الأشخاص الذين جرى استجوابهم يطالبون بانسحاب قوات المشاة الأميركية. فاعتمد كلارنس لونغ، الممثل الديمقراطي لولاية الميريلاند على ذلك الرقم، ليعلن بشيء من الشعور بالنصر، عن عزمه التقدّم بمشروع قانون مالي يحظر استخدام أي مبلغ لمصلحة الوحدات الأميركية المنتشرة في لبنان ما دام الكونغرس لمّا يقرّ وجود الجنود في ذلك البلد. فلقد رفض ريغان رفضاً مستمراً اعتبار وضع الوحدة الأميركية عملاً عسكرياً، قائلاً: **إنّ رجال المارينز جزء من قوة للحفاظ على السلام، بطلب من الحكومة اللبنانية. فهم ليسوا في وضع قتال، وحسبهم الدفاع عن أنفسهم إذا ما هوجموا.** وقد ساعده ذلك على تفادي طلب موافقة الكونغرس حتى ذلك الحين. فكان من شأن مبادرة كلارنس أن تؤدي إلى البدء بعملية استشارات تعود بعنصر خطير إضافي من عدم اليقين على مواصلة أهداف ريغان.

كانت الاحتفالات بالعيد في إسرائيل في أوجها. فقد وضع الاسرائيليون همومهم جانباً، وانصرفوا للاحتفال بعيد رأس السنة العبريّة، «روش هاشانا»، يومي 7 و8 أيلول/ سبتمبر. فغطت الشواطئ أجسامٌ برونزية بملابس السباحة القصيرة. وغصّت الفنادق بالنزلاء حتى أقصى استيعابها. وقدم السائحون ويهود الشتات بأعداد كبيرة. وعادت إلى الشوارع حيوية الأيام الهامة، فغصّت

أرصفة المقاهي بالرواد. أمّا رئيس الوزراء المعيّن إسحق شامير، الذي بدأت الصحافة الآن ترصد أفعاله وتحرّكاته، فاحتفل هو وزوجته شولاميط، ببدء السنة الجديدة، احتفالاً عائلياً. لقد أنفق سكان تل أبيب وحدهم، أكثر من ثلاثة مليارات شيكل[1] على شراء مواد غذائية، في الساعات الـ48 التي سبقت إغلاق المخازن. لقد أصبح لبنان وحربه بعيدين. وليس هنالك سوى حفنة من كبار الموظفين والجنرالات الذي يبدو أنهم لا يزالون يهتمون بذلك. وقد أعرب موشيه أرينز، أثنا لقاء أجري معه، عن انشغاله بشأن الضحايا المدنيين من الدروز والمسيحيين في معارك الشوف. وقد باح مسؤول في وزارة الدفاع لأحد الصحفيين بأنّه قد جرى إبلاغ الدروز بأنّ مذبحة في دير القمر لن تلقى تبريراً. وذكّر أوري لوبراني بأنه على اتصال مستمر بوليد جنبلاط الذي التقى به مراراً وتكراراً. وقد جرى تدوين ذلك في أسفل إحدى الصفحات. فقد ألقت إسرائيل رسمياً، على الدروز وعلى الحكومة اللبنانية – وليس على أنصار وليد جنبلاط فقط – مسؤولية نشوب المعارك. لكنّ الذين يتابعون الملفّ اللبناني، كانوا منشغلين برجوع المقاتلين الفلسطينيين إلى الجبل، رجوع قوّة.

أمّا الولايات المتحدة، فتشير من جانبها بإصبع الاتهام إلى سورية. وأنكرت دمشق مجدداً كل تورّط مباشر، لكنّها تحمّلت مسؤولية العون الذي تقدّمه «للوطنيين اللبنانيين»، بل طالبت بتقديمه. وأعاد وزير الدفاع السوري، مصطفى طلاس، تأكيد العزم على دعم جبهة الخلاص الوطني، إذ لا يتعلّق الأمر إلّا بخلافٍ لبناني–لبناني. أما وليد جنبلاط فما كان يتوانى عن تكرار مقولته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فقد أكّد تأكيداً قوياً أمام صحفيين أجانب، استقبلهم في مدرسة في صوفر، جرى تحويلها إلى مقر قيادة عسكرية للحزب التقدمي الاشتراكي قائلاً: لسنا بحاجة لتأييد من أحد ونحن قادرون على خوض المعركة وحدنا وتسوية المشكلات اللبنانية الداخلية بوسائلنا الخاصة. وكان أمام المقرّ عدد من المسلّحين الفلسطينيين منصرفين لشؤونهم الخاصة حول دبابة من طراز ت 54 تحمل أرقام تابعية عسكرية سورية وقد كتبت على جانبها عبارة «قوة العودة إلى بيروت».

لكنّ الرسالة واصلت طريقها. فقد أصبح تعبير «الحرب الأهلية» أكثر فأكثر استخداماً في اتخاذ المواقف في الخارج. وكرّر القصر الرئاسي القول إنّ العناصر العسكرية الخارجية تدخّلت تدخّلاً فاضحاً في المعارك، لكن بلا طائل.

أرسل العقيد ميشال عون مجموعة من المغاوير إلى خطوط العدو، لأسر عدد من المقاتلين، ليثبت أنّ الخنادق المواجهة له لا تضمّ دروزاً فقط. وعادت المجموعة بجثث ثلاثة فلسطينيين. فتمّ العثور في جيوبهم على بطاقات شخصية تثبت أنّهم تابعون للواء اليرموك. فجرى عرض الجثث والأوراق على الملحقين العسكريين العاملين في بيروت وعلى الصحافة. وقد اعترف وليد

(1) 50 مليون دولار.

جنبلاط[1] فيما بعد قائلاً: ما كان السوريون يرسلون وحداتهم النظامية قط، بل يبعثون برجال أحمد جبريل أو جورج حبش أو أبو موسى لدعم قواتنا.

كان هنالك، وفقاً لأجهزة الاستخبارات الغربية، ما يربو على 8500 من المقاتلين المدرّبين، من غير اللبنانيين، يشاركون بطريقة أو بأخرى في معركة الجبل، إلى جانب ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي[2]. لقد كانوا مجهّزين بـ 60 مدرّعة من طراز ت 54 من صنع سوفييتي، و100 عربة نقل عسكرية مدرعة و500 مدفع وقاذفة من عيارات شتى. وكانت شاحنات سورية يتراوح عددها ما بين 70 و100 شاحنة تتولى الجانب اللوجستي من حيث تأمين الذخيرة وقطع الغيار والمحروقات والتموين. وكان مركز قيادتها المتقدم قائماً في صوفر. وكان بين الضباط الذين يتولون القيادة، وبعضهم سوريون، العقيد أبو أحمد الأميري المكلّف بالعمليات، وهو من منظّمة أبو موسى المنشقّة.

ظلّ بعض سكان الشوف المسيحيين يصلون أيضاً إلى دير القمر. إنّهم قادمون من القرى المعزولة أو البعيدة، فكانوا يمشون على شكل من مجموعات من اثنين أو ثلاثة، يسيرون ليلاً ويختبئون نهاراً. وكانت ترد على ألسنة الجميع حكايات رهيبة عن مذابح أو إعدامات جماعية، وعن عمليات نهب وتدنيس مقابر. وهنالك مدنيون دروز جرى قتلهم أيضاً في كفرمتى على أيدي ميليشيات مسيحية. كانت تسير على الطرق كافة عربات ملأى بالغنائم. وتكدّس في دير القمر ما يربو على ثلاثين ألفاً من اللاجئين الذين يقوم رجال سمير جعجع على حراستهم. ولئن كان وليد جنبلاط قد وعد مجدداً بأنّه لن يصيبهم أي ضير، فقد كان ثابتاً لا يتزحزح حول نقطة أخرى: ستظلّ البلدة محاصرة، فلا يدخل إليها أو يغادرها من أحد دون موافقته الشخصية. لقد أضحت البلدة وتموينها من عناصر المفاوضات بين يديه.

طلب الزعيم الدرزي إلى قواته تركيز الجهود حول نقطتين اثنتين: سوق الغرب، الذي هو مفتاح بعبدا، وتقاطع قبرشمون الواقع على ممر جبلي غير بعيد عن عاليه. إنّ هذا الممرّ المهيأ لأن يقع بين أيدي رتل «القوات» بقيادة فؤاد أبو ناضر، إنّما هو عقدة مرورية استراتيجية، وممر إلزامي لطريق التموين الوحيد المتوجّه من الشوف إلى الشويفات فضاحية بيروت الجنوبية. أما خارج هاتين النقطتين ودير القمر، فيتولّى الدروز عملياً الإشراف على الجبل كله.

رسالة مستعجلة جداً – في 10/ 9/ 1983–

من فادي أفرام إلى سيادة موشيه أرينز، وزير الدفاع.

---

(1) في حديث لوليد جنبلاط مع آلان مينارغ، في أيار/ مايو 1992.

(2) 2000 فلسطيني من لواء اليرموك، و5400 جندي سوري من اللوائين 85 و64 (المنتشرين في لبنان قبل الاجتياح الإسرائيلي)، 500 ليبي وإيراني ويمني شمالي، و600 فلسطيني من الصاعقة والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (لجورج حبش) والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (نايف حواتمة) وجبهة الكفاح الفلسطيني.

أ - فيما أنا أكتب هذا المقطع، يجري ذبح مئات المسيحيين في مناطق بحمدون والشوف. ففي قرية البيرة وحدها، ذُبح ما يقرب من مئة وخمسين شخصاً بطعنات الخناجر أو ضربات الفؤوس في كنيسة القرية. إنّ دير القمر محاصرة. وهنالك ما يقرب من 30 ألف نسمة بحاجة للغذاء ويعانون من شروط صحية مزرية. لقد توفي أربعة أطفال هذا الصباح، بسبب الكوليرا على الأرجح. أوقفوا هذا، حباً بالله. إنكم الوحيدون القادرون على ذلك.

ب- لم يعد الدعم اللوجيستي الذي تقدّمون لنا بكافٍ لتأمين تغطية مجدية لوحداتنا. أما قوتنا النارية فلا تساوي شيئاً مقارنة بقوة النار الضخمة المتوافرة لدى السوريين والفلسطينيين وحلفائهم المحليين. ويتجاوزنا أعداؤنا عددياً تجاوزاً كلّياً على الأرض. ومع ذلك فإنّ رجالنا يقاتلون ببسالة. ولقد فقدنا حتى الآن 175 من مقاتلينا، هم في غالبيتهم من خيرة ضباطنا. ولدينا 600 جريح. نحن نشعر بأننا نخوض معركة خاسرة. ونحن مقتنعون بأنكم لا تتدخلون لدعمنا. وأعتقد بأننا سنصل عمّا قريب إلى وضع نغدو فيه مرغمين على الاستسلام سياسياً، من أجل إيقاف هذا القتال. والخط الموالي لإسرائيل سوف يدفع الثمن بكل تأكيد، فيضع نهاية لأهدافنا المشتركة.

مع أفضل التحيات.

كان الخوف من حصول شطط في دير القمر يؤدي إلى «صبرا-شاتيلا» جديدة يتزايد في وزارة الدفاع في تل أبيب. بل أصبح موضوع النقاش الوحيد الدائر بدءاً من المستخدم حتى الوزير مروراً بالضباط من المراتب كلها. صحيح أنّ جنبلاط قد تعهّد. لكن هل يسيطر على جنوده؟ هل سيجري تجاوزه من قبل هذه أو تلك من الجماعات التي تحيط به؟ وهل هو حقاً السيد الوحيد المتحكّم بالساحة؟ لقد جرى إرسال فريق صغير من الدروز الإسرائيليين من وحدة «سايرت هادرزيم» التابعة للاستخبارات العسكرية، إلى المكان. فاختلط أفرادها بالسكان وبدأوا يراقبون مجريات الأمور عن قرب.

كانت «سايرت هادرزيم» من أفضل وحدات العمل والاستخبار في جهاز آمان. لقد أُنشئت عام 1968 بناء على اقتراح من الرائد الدرزي محمد ملاّ الذي أقنع هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي بضرورة وجود قوة استطلاع مُجَوْقلة قوامها جنود يتكلّمون العربية. وكان هؤلاء الجنود، العائدون إلى الوحدة 300[1]، في غالبيّتهم من الدروز والبدو والشركس القادرين على التسلل إلى جِبال الدروز في لبنان وسورية للعمل وراء خطوط العدو في حال وقوع نزاع مع دمشق. ولقد جرى إدماج هذه الوحدة في سايرت ماتكال، وهي وحدة الاستطلاع في الجيش الإسرائيلي، التي تشكّل في واقع الأمر القسم الفاعل في جهاز آمان.

---

(1) وحدة مغاوير.

كانت لدى الإسرائيليين القدرة على التدخّل بكل يسر في دير القمر، إما لإجلاء المدنيين أو لتأمين سلامتهم. لكن علامَ سيحصلون بالمقابل؟ كانت هذه الأسئلة ترد في التحليلات كافة. إلّا أنّ الوزارة انتهت إلى التقدير أنّها قابضة بيدها على زمام الأمور، وأنّه ليس هنالك ما يدعو للاستعجال. فمن ناحية أولى كان القسم الأعظم من قوات جنبلاط منشغلاً حول سوق الغرب وتقاطع قبرشمون، وكانت المدينة المحاصرة، تمثل من ناحية أخرى، ورقة هامة في يد الزعيم الدرزي، فتنأى بها عن التدمير. زد أنّه لم يكن هنالك من سبب يدعو الإسرائيليين لتقديم «هدية» إلى أمين الجميّل. وكان الموساد مقتنعاً بأنّ السوريين «يسعون إلى إسقاطه». بل إنّ اسم جان عبيد قد ذُكِر بديلاً محتملاً.

أما الشيء الذي كان يشدّ انتباه تل أبيب حقاً فهو رجوع الفدائيين الفلسطينيين إلى الشوف. وعبثاً يحاول وليد جنبلاط تكذيب ذلك، فالمراقبون الذي جرى إرسالهم إلى المنطقة يعرفون، والمحللون أيضاً، أنّ جنبلاط بحاجة عسكرياً إلى عونهم. فكان هذا الوجود الفلسطيني، في الوهلة الأولى، موضع نقاش عنيف لدى الاجتماع الأسبوعي لمجلس الوزراء الإسرائيلي في 10 أيلول/ سبتمبر. وقد وجّه أريل شارون إصبع الاتهام إلى موشيه أرينز، حين صاح قائلاً:

– رجع الإرهابيون وحلفاؤهم الدروز إلى بيروت، وإنّها لكارثة. فالذين تسببوا في قيام هذا الوضع من غير الرجوع إلى الحكومة أو إلى لجنة الدفاع الوزارية، إنّما هم المسؤولون.

وردّ عليه أرينز قائلاً بجفاء إنّ الجبل كان هادئاً، لولا أن قام هو، شارون، بإدخال الكتائبيين إليه. وانعكست الملاسنة، التي أضحت مريرة بسرعة، على الساحة العامة. فاستؤنف الخلاف الذي بدأ بين صفوف الليكود لينتقل سريعاً إلى المعارضة العمالية، فتناول العون الذي قبلت الحكومة بتقديمه في آن معاً، أو على التوالي، إلى القوات المسيحية اللبنانية فالميليشيات الدرزية. وأكّدت الإذاعة الوطنية أنّ موشيه أرينز قد عمل، منذ استلامه مقاليد منصبه، على نحوٍ يمكّن من تمتين علاقات إسرائيل مع الطائفة الدرزية وزعيمها وليد جنبلاط على حساب المسيحيين، الذين أدى موقفهم إلى خيبة أمل عميقة لدى الحكومة الإسرائيلية. وكانت المرة الأولى التي تقول فيها مصادر مقرّبة من وزارة الدفاع، إنّ الوزير راهن منذ البداية على انتصار الدروز الذين كانت حوافزهم أقوى منها لدى المسيحيين وأداؤهم في المعارك ذا سوية أعلى. وكان موشيه أرينز يعتبر أن سياسة سابقه، التي كانت تعتمد فقط على القوات اللبنانية، كانت خطأً كبيراً ضمن السياق الداخلي اللبناني، وأنّ من الخطورة بمكان، بالنسبة إلى إسرائيل، أن تعتمد اعتماداً كلّياً على جهة واحدة فقط. بل إنّ الإذاعة أوضحت قائلة: إنّ المسؤولين الإسرائيليين في الشوف، تلقوا قبل عدة شهور تعليمات للقيام باتصالات ودّية مع وجهاء الدروز وتطمينهم إلى أنّ إسرائيل تلتزم جانب الحياد بالنسبة إلى نزاعهم مع المسيحيين.

كانت تل أبيب تلتزم بسياسة متشددة جداً من عدم التدخّل. كذلك جرى توجيه نقد شديد

لوزارة الدفاع لأنها أوعزت «قبل الأوان» بانسحاب الجيش الإسرائيلي متسبّبة باندفاع سيل حقيقي من «العصابات» السورية–الفلسطينية. وقد أعلن موشيه أرينز أمام اللجنة البرلمانية الفرعية التي طلبت استجوابه أنّ هدف نداءات الاستغاثة التي وجهها المسيحيون اللبنانيون إلى إسرائيل، لا سيّما حول خطر تحالف بين الدروز والفلسطينيين، كان يرمي في واقع الأمر إلى إقناع الدولة العبريّة بمهاجمة الدروز، وخوض القتال بدلاً عن القوات اللبنانية.

قامت القوات اللبنانية أيضاً بمحاولة يائسة لإقناع الإسرائيليين بوجود مقاتلين فلسطينيين في الشوف، وهي تجهل أنّهم يعرفون ذلك حقّ المعرفة. لقد قدّموا للإسرائيليين تسجيلات مكالمات متبادلة بين الوحدات الدرزية والفلسطينية. وفي واحدة من تلك المكالمات، يعبّر قائد القطاع الدرزي لرؤسائه عن دهشته لمرور رتل قرب استحكاماته متجه نحو سوق الغرب، من غير أن يحاط علماً بذلك من قبل، وأنّه ينتمي إلى لواء اليرموك. وأصغى الإسرائيليون دون القيام بأي تعليق. غير أنّهم ساعدوا الميليشيا المسيحية على البقاء في تلال إقليم الخرّوب الذي يفصل الشوف عن البحر إلى الشمال من صيدا. ولم تتحقق «القوات» من أنّ الإسرائيليين بفعلهم هذا، إنّما كانوا يُبقون عليهم غطاءً بينهم وبين الفلسطينيين والدروز، فيحولون على ذلك النحو بين هذين الطرفين الأخيرين وبين تقدّمهم على قسم كبير من خط الدفاع الجديد للجيش الإسرائيلي على نهر الأوّلي.

لقد اندفع السعوديون والأميركيون، ثم الفرنسيون إلى حدٍ ما، في عملية حقيقة من تتابع التطورات وتبادل المواقع، تمثّلت في اتصالات هاتفية، ولقاءات بين دبلوماسيين، ووسطاء ومبعوثين ما بين دمشق ولارنكا وبيروت. فكانوا يتبادلون مسوّدات اتفاقيات جرى تعديلها مراراً وتكراراً بسبب مزاجيات البعض والبعض الآخر. فجرى في دمشق تقديم اقتراح من سبع نقاط، إلى الأمير السعودي بندر بن سلطان ليقوم بنقله إلى بعبدا. وهو يقتضي، فضلاً عن وقف إطلاق النار وعودة المهجّرين منذ 1975 والعون الإنساني للأشخاص المنكوبين، واللجوء إلى مراقبين حياديين، بأن تتعهّد الدولة اللبنانية بعدم استخدام جيشها داخل أراضيها وأن يستدعي أمين الجميّل الزعماء الكبار من أمثال كميل شمعون ووليد جنبلاط وبيار الجميّل وسليمان فرنجية ورشيد كرامي، إلى مؤتمر مصالحة تحضره كل من سورية والعربية السعودية بصفة مراقب. لكن، ما إن قرأه المبعوث السعودي حتى أوضح لمحدّثيه السوريين عبثية تلك المطالب. فقيل له بجفاء:

– ليس لك أن تقوم بالردّ بدلاً عن اللبنانيين، فاحمل لهم هذه الرسالة وانتظر ردّهم.

وكان أن رفض الرئيس اللبناني الاقتراح بحجة أنّ سورية، بوجودها على الأرض اللبنانية قوةً غير مرغوب فيها، لا يسعها أن تقوم فضلاً عن ذلك بدور مراقب. ووصفها الجميّل بمحاولة جديدة للتدخّل في سيادة بلاده واستقلالها.

بدءاً من 12 أيلول/ سبتمبر 1983، طلب فادي أفرام، عدم عقد اجتماعات قيادة القوات

اللبنانية في مكتبه، وفقاً لِما جرت به العادة، وإنّما في مكتب إيلي حبيقة في مباني جهاز الأمن. لقد حصل انشقاق، وكان أمراً واقعاً، في صفوف قادة الميليشيا، بين الموالين لأمين والموالين للكتائب، أو الذين يُعتَبَرون كذلك والمعارضين لأمين. أما على وجه التحديد فإنّ مسؤولي «القوات» ما عادوا راغبين في أن يقوى «غير الخاضعين» للرئيس على أن ينقلوا إليه نبرة مناقشاتهم ومضمونها. لقد كانت تلك المناقشات توجّه اتهامات عنيفة لسياسة أمين الجميّل وبدا اتخاذ قرارات مستقلة حيال السلطة أمراً لا يمكن تفاديه. وعلى ذلك جرى استبعاد كل من إيلي الزايك وفؤاد أبو ناضر وجوزيف أبو خليل والمقرّبين منهم. أما قادة القوات اللبنانية الآخرون فاعتبروا أنّ أمين الجميّل بات يمثّل الآن خطراً على «القوات». وكانوا يقولون: **إذا ما عاد الوضع إلى هدوئه، فإنّ الرئيس هو من أولئك الذين ينسون بكل يسر.** لقد قطع عنهم القروض في أسوأ فترة. أما الكابح الوحيد في وجه حريته الكاملة في التصرّف، فهو والده بيار. وما كان بوسع القوات اللبنانية أن تجتذبه إليها فيما هي تعارض الرئيس معارضة مكشوفة.

أما التحالف الاستراتيجي الذي ربطهم بإسرائيل في زمن شارون، فقد شعروا بقسوة نهايته. فالعلاقات بين «القوات» والدولة العبريّة أصبحت على نحو أساسي تعبويّة وخفيّة. أما مفهوم «العرين» الذي تقوم الميليشيا على حمايته عسكرياً وسياسياً فعاد إلى راهنيته مجدداً.

أضحت حرب الجبل، بعد انفجارها بعشرة أيام، معركة ممرّات سوق الغرب وقبرشمون. فمن جانب الدروز، استمرّت التعزيزات الفلسطينية بالوصول قادمة من سهل البقاع، وأقام السوريون بطاريات مدفعية جديدة في منطقة حمّانا. أما من جانب السلطة، فسرّعت الولايات المتحدة تزويد الجيش بالعتاد العسكري. وجرى في بعض الأيام، إطلاق 12 ألف قذيفة على «الشرعية» من المدافع المنصوبة في مناطق يسيطر عليها السوريون والدروز. وما كان بوسع الجيش اللبناني أن يردّ بأكثر من أربعة آلاف. وجرت إقامة جسر جوي بين الولايات المتحدة، والإسكندرية في مصر، لجلب ذخائر يجري من بعد نقلها بحراً إلى جونيه. وقدّمت فرنسا 10 آلاف قذيفة من عيار 155 مم.

كان بوسع الدروز، وهم في أعلى الذرى التي تشرف على بيروت وخصوصاً من عاليه، أن يراقبوا القاعدة الجوية في الأسفل والمهابط الواقعة ضمن حرم مطار بيروت الدولي. فهي على أقل من أربعة كم خط نظر، وبالتالي ضمن مرمى أسلحتهم من العيارات كافة. فكان أدنى نشاط على الطريق المعبدة أو حول الهنغارات موضع ملاحظة فورية فيغدو هدفاً لقصف مركّز. كانت طائرة قاذفة مقاتلة من طراز «هوكر هنتر» قد أصيبت إصابة مباشرة قبل أيام وهي متوقفة في حظيرة الطائرات. لم يكن بحوزة الجيش اللبناني سوى حفنة صغيرة من طائرات «فوغا ماجيستير» من صنع فرنسي وبعض القطع من نوع «هوكر» القديمة، وهي من صنع بريطاني، ويعود تاريخها إلى الخمسينيات.

ألا أنّ من الممكن تجهيزها برشاشات من عيار 30 مم مركّزة في مقدمة الطائرة، وأن تحمل قنبلتين من وزن 500 كغ واثنتين من وزن 225، وأيضاً صواريخ جو-أرض. وهي لمّا تُستَخدَم إلّا لتدريب الطيارين. وفكّرت هيئة الأركان اللبنانية في «عسكرتها». لكن بشرط أن تجعلها تُقلِع، وذلك ما لم يكن ممكناً.

كان هنالك طيّار، هو النقيب خليل مطر، طلب مقابلة أمين الجميّل. وعرض عليه إنشاء قاعدة جوية مرتجلة تستخدم قسماً من الطريق العام الساحلي المتّجه من بيروت إلى طرابلس.

لقد أضحى خليل مطر مشهوراً لأنّه كان الطيار العسكري اللبناني الوحيد الذي هبط في إسرائيل. ففيما كان يستعد ذات يوم أحد، للذهاب إلى الشاطئ مع أسرته، اتصل به صديقه داني شمعون طالباً إليه العثور على مركبه الشراعي، الذي استعاره بعض الأصدقاء، ومنذ أربع وعشرين ساعة لم يُعثر لهم على أثر. ارتدى خليل مطر بزّة الطيران فوق لباسه البحري ولم ينزع خُفي الشاطئ حين صعد إلى طائرة «فوغا ماجيستير»، ليحوم بها فوق البحر ما بين صيدا وصور. واعترضته المقاتلات الإسرائيلية، فأُرغم على الهبوط في قاعدة عسكرية، غير بعيد عن بحيرة طبريا. ووقف الإسرائيليون مذهولين حيال مظهره، لا سيّما الخُفَّين، فقدّموا له طعاماً وملأوا خزانات الـ «فوغا» بالوقود ورافقوه حتى شاطئ صيدا. أما المركب الشراعي المتعطّل فقد عثرت عليه البحرية في أثناء ذلك.

لقد قبل الجميّل باقتراح خليل مطر. فقام قسم الهندسة طوال ثلاثة أيام وليلتين، بملء الحفرة الوسطى بين قسمي الطريق الدولية حتى بلدة حالات، إلى الجنوب من جبيل، لتهيئة مهبط يمتدّ شمالاً وجنوباً، ضمن محور الرياح السائدة. جرى تعبيد الطريق. ثم شُيِّدت هنغارات في وقت قياسي وأحيطت بسرّية تامة. وحين أضحى كل شيء جاهزاً، توجّه النقيب مطر ومجموعة من الطيارين إلى المطار ليلاً. فاستقرّوا فوق مقاعد القيادة للطائرات الثلاث من طراز «فوغا ماجيستير» والطائرات الست من طراز «هوكر هنتر» سيدلكي وكلّها في وضعية الإقلاع. وفي الساعة الثالثة صباحاً فتح الجيش نيران المدفعية في قصف متواتر على مواقع الدروز «لإرغامهم على الاختباء» وتغطية دويّ المحرّكات. فقام الطيارون بتشغيل الطائرات، وانتظموا رتلاً ثم أقلعوا بها واحدة إثر أخرى من غير التحقق من سلامة محرّكاتها ومضوا ليهبطوا بها في مطار حالات.

استبدّ السخط بالقائد العسكري للحزب التقدمي الاشتراكي، فردّ في اليوم ذاته، بقصف عنيف على مواقع الجيش. كان الدروز حريصين كلّ الحرص على تحديد المكان الذي تقع فيه القاعدة الجوية الموقتة. ونُمي سريعاً إلى علمهم أنّها تقع في «مكان ما» على الطريق الرئيسة. فاستخدم أبو كمال، قائد المدفعيين الدروز في عاليه، والذي تدرّب في الاتحاد السوفييتي، ما أطلق عليه اسم «الرمي على الجريدة» من أجل تحديد المكان[1] فكان يقوم بعد ظهر كل يوم برمي مجمّع

(1) أبو كمال إلى آلان مينارغ في أيلول/ سبتمبر 1983

لبضع قذائف على محور الطريق بدءاً من ضُبيّة وصعوداً نحو الشمال، بمعدّل ألف متر بين كل قصف وآخر. ثم يتوجّه في الصباح التالي «إلى النتائج» التي تنشرها الصحف بأمانة في كل طبعة: **سقطت ثلاث قذائف في حدود الثالثة والنصف بعد الظهر مقابل مستر دولار في الزوق، فتسبّبت بجرح مدنيين اثنين**. وحين قرأ، بعد ثلاثة عشر يوماً، عن **انفجار أربع قذائف على الطريق الرئيسة مقابل حالات في حدود السادسة مساء متسببة بجرح أربعة عسكريين. . .**، عرف أنه حدّد موقع القاعدة العسكرية. فوجّه نحو المكان رمياً «مجدياً» من أربعين قذيفة. فكان اليوم الأخير للحرب. لقد تمكّن الطيران من التدخّل من قبل.

انقضت عشرة أيام ومناحيم بيغن متوقف عن حلاقة ذقنه وفقاً للتقاليد اليهودية. لقد لبث في بيته، منهكاً ومريضاً، لا يقتات إلّا بالنزر اليسير. وبعث رئيس الوزراء في 15 أيلول/ سپتمبر 1983، باستقالته إلى الرئيس حاييم هرتزوغ. فكان بوسع رئيس الدولة أن يبدأ باستشاراته التقليدية مع زعماء مختلف الأحزاب الممثلة في الكنيست لتشكيل حكومة جديدة. لكن جرى تأجيل الاستشارات لاثنتين وسبعين ساعة بسبب الاحتفال بيوم الغفران، في 16 و17 أيلول/ سپتمبر. وكانت تلك الإجراءات شكليّة جداً لأنّ تحالف الأكثرية حول حزب الليكود قد اتفق على اسم إسحق شامير.

في 16 أيلول/ سپتمبر، تغيّر وجه معركة سوق الغرب. فاللواء الثامن، الذي ظلّ حتى ذلك الحين متمركزاً ضمن مواقعه الدفاعية، قام بشنّ هجوم معاكس عند الفجر، بدعم من الرشاشات من عيار 30 مم والقذائف التي ألقتها «الهوكر هنتر». لقد أخذ استخدام الطيران كلاً من الدروز والفلسطينيين على حين غرّة، فهم لم يكونوا يتوقّعون ذلك. فهي المرة الأولى التي يتدخّل فيها الطيران اللبناني منذ سبعة أعوام[1] فقام العسكريون بخرق طوله ثلاثة كيلومترات باتجاه تلال كيفون التي تشرف على المضيق الذي تقوم عليه البلدة. وقد استولوا عليها في بضع ساعات بعد قتال شرس. وأظهر رجال الكولونيل عون تفوّقهم حين بادروا بعد الظهر، بدعم من الطيران على الدوام، بالهجوم على نقاط عالية تفصل كيفون عن شملان. وكان معسكر الدروز بانتظار الطيران هذه المرّة. فقد أصيبت طائرة بالمضادات الأرضية وسقطت في البحر. وأصيب الطيار بجروح بليغة فانفصل عن الطائرة بمقعده المقذوف. وتولّت حوّامة أميركية التقاطه ووضعه على متن الحاملة الأميركية «أيوو جيما»، لكنّه قضى نحبه لدى نقله إلى مشفى في بيروت. كذلك أصابت المضادات طائرتين أخريين، كانت إصابة إحداهما خطيرة، فتوجّهتا للهبوط في قاعدة «أكروتيري» البريطانية في القسم الجنوبي من جزيرة قبرص. وقامت حوّامات «پوما» على الفور بإحضار قطع الغيار والفنّيين كما أحضرت الطيارين. وأحاط البريطانيون الحكومة القبرصية علماً بالأمر، فأعربت عن احتجاجها في الليلة ذاتها، معلنة أنّ قاعدة «أكروتيري» لا يمكن لها أن تُستخدم من قبل أيٍّ من الأطراف المتصارعة في لبنان.

---

(1) تدخّل للمرة الأخيرة في كانون الثاني/ يناير عام 1976، ضدّ القوات الفلسطينية التي كانت تحاصر الدامور.

أما في اليوم التالي، فقام «جيش للتحرير الشعبي» بشنّ هجوم معاكس على كيفون. وعادت طائرات «الهوكر هنتر» لتستأنف التحليق. فقصفت المدافع التي كانت ترمي رجال اللواء الثامن وقصفت الفلسطينيين المتوجّهين لاحتلال مواقعهم. فتمّ إيقاف الهجوم المعاكس.

عندئذ تحوّلت مدفعية الدروز وحلفائهم لتقصف وزارة الدفاع في اليرزة والقصر الجمهوري في بعبدا، فأرغمت أمين الجميّل على الاندفاع لاجئاً إلى القبو. ودخلت شظايا قنبلة إلى داخل قاعة في الوزارة يحتلها مستشارون عسكريون أميركيون من غير وقوع ضحايا. وبعد ذلك بدقائق ردّت الفرقاطة الأميركية «بووين» Bowen والفرقاطة «روجرز» موجهة مدافعها من عيار 120 مم نحو بطاريات المدفعية المتمركزة في المتن تحت الإشراف السوري. فهددت سورية بالرد على قصف سفن الأسطول السادس إذا ما عاودت القصف موضحة أنه أمر شخصي من الرئيس حافظ الأسد.

أوعز الرئيس أمين الجميّل، الذي انتقل ليقيم مطوّلاً في أقبية القصر الرئاسي، إلى نصب شبكة من مكبّرات الصوت، من شأنها أن تجنّبه سماع الانفجارات .فكانت تنشر بانتظام، وعلى مداها الأوسع، سمفونية «بحيرة البجع» لتشايكوفسكي أو موسيقى «البوليرو» لرافل، ضمن الصيغة التي وردت في فيلم «البعض والبعض الآخر». ولقد صرّح فيما بعد قائلاً[1] **كان ذلك يريحني راحة مطلقة، فأشعر بنفسي وكأنني انتقلت إلى عالم آخر، فيسعني أن أستأنف عملي من بعد.**

كان من شأن الخرق الذي قام به الجيش في سوق الغرب أن أطلق المفاوضات مجدداً. فوصل إلى دمشق في 19 أيلول/ سبتمبر 1983، كل من رفيق الحريري والأمير بندر بن سلطان، للقاء وليد جنبلاط وعبد الحليم خدام. فبدا لهما الأوّل أقلّ تصميماً مما كان عليه من قبل. فقد ظلّ الزعيم الدرزي يطالب بانسحاب الجيش من سوق الغرب، لكنّه لم يعد يعارض نشر قوة في الشوف متعددة الجنسيات أو تابعة للأمم المتحدة. وفيما كانت تلك المحادثات دائرة، انطلق الدروز والفلسطينيون في هجوم جديد على سوق الغرب، فخرقوا استحكامات اللواء الثامن في عدة أمكنة. فاتصل الجنرال إبرهيم طنّوس بأمين الجميّل لينقل له النبأ ونصحه بأن يغادر القصر الرئاسي في مدرّعة، على عجل، وبأن يتوجّه للجوء إلى كسروان خشية أن يتمّ اكتساحه في الساعة القادمة. فاتصل الرئيس من فوره بروبرت ماكفرلين طالباً إليه التدخّل مذكّراً إياه بأنّ سفارة الولايات المتحدة التي لا تبعد سوى خمس مئة متر عن القصر الرئاسي معرّضة للخطر ذاته إذا ما تمّ تحطيم دفاعات سوق الغرب. جرى النظر في واشنطن بجدّية تامة إلى الخطر الذي يتهدّد مقرّ السفير، والذي أضحى أيضاً مقرّاً للسفارة منذ اعتداء 18 نيسان/ أبريل. فأطلقت كل من حاملة الطائرات «ڤرجينيا» والحاملة «جون روجرز»، ما يقرب من 150 قذيفة على القوات المعادية للحكومة، فسمحت بذلك للعسكريين بصدّهم.

---

(1) في حديث أمين الجميّل إلى آلان مينارغ، في تموز/ يوليو 1988.

لم يرق الإسرائيليين البتة ذلك الهجوم الذي شنّه الدروز. وقد أعرب موشيه أرينز عن استغرابه قائلاً: **إننا لنتفهم رغبة الدروز في حماية قراهم، لكنهم ليسوا بحاجة إلى خرق أبواب بيروت. وليس لديهم ما يقومون به في سوق الغرب، فبيروت ليست مدينة درزية، وإنما هي عاصمة الدولة اللبنانية.** وتلك كانت أول مرّة يخاطب فيها وزير دفاع إسرائيلي دروز الشوف بتلك النبرة الحازمة.

صعد ذوو القبعات الخضر وضباط من الأسطول الأميركي السادس في عربات مدرّعة وجالوا في سوق الغرب وفي كيفون ليتدارسوا المواقع الدفاعية مع زملائهم اللبنانيين. واستفادوا من ذلك في سبيل تنسيق أعنف عملية قصف بحري قامت بها سفن الأسطول الأميركي منذ حرب ڤيتنام. فقد تّم إطلاق 638 قذيفة في رشق طويل متوالٍ من السفن الحربية التي كانت ترسو في عرض بحر بيروت، وقد أُصليت به مواقع المدفعية الدرزية الفلسطينية السورية. لقد ثبّت الأميركيون قدمهم في المعركة. وتوصّل البيت الأبيض والكونغرس إلى تفاهم بشأن لبنان. فقد أشار رونالد ريغان، في سبيل تحقيق ذلك، **إلى العدوان، المدعوم من قبل الاتحاد السوڤييتي، على لبنان**. وأعلم الناطق باسم البيت الأبيض الصحفيين المعتمدين بالنبأ موضحاً أنّ **المواقع الاستراتيجية في سوق الغرب، إنما هي حيوية لأمن رجال المارينز**. وانتهت مناقشات شاقّة بقرارٍ صدر عن الكونغرس يسمح ببقاء المارينز ثمانية عشر شهراً آخر في بلاد الأرز.

وصلت إلى مياه بيروت في 23 أيلول/ سپتمبر 1983 المدرّعة الأقوى في سلاح البحرية الأميركي، وتدعى «نيوجرسي». وقد اقتربت من الشاطئ بما يكفي لجعل سكان العاصمة، كما الدروز في الجبل، يشاهدون مدافعها الجبّارة. لقد جرى بناؤها عام 1944، وكانت مجهّزة بتسع مدافع من عيار 406 مم التي تطلق قذائف يبلغ وزنها طناً واحداً وثلاث مئة كغ حتى مسافة 37 كم. وباثني عشر مدفعاً من عيار 130 مم. وقام القسم الصحفي التابع للسفارة الأميركية بتنظيم زيارة ودّية تتيح للصحفيين المحليين الصعود على متنها. كانت البحرية تقوم بعملية عرض لقوتها. فالأسطول الأميركي، يمتلك الآن في المياه اللبنانية 14 سفينة، منها حاملة الطائرات «أيزنهاور» التي تعمل بالدفع النووي، وعلى متنها 90 طائرة[1]. أما فرنسا فيتألف أسطولها من ست قطع بينها حاملة الطائرات «فوش»، وما يقرب من أربعين طائرة من طراز «سوبر إيتندار». وكانت لبريطانيا ثلاث حاملات طائرات تجوب البحر المتوسط باستمرار، هي «هرمس» و«وإيليستريوس» و «إنفنسبل»، وتحمل قرابة ألف من مغاوير البحرية، وحوّامات وطائرات من طراز «هاريير» ذات الإقلاع العمودي. أما إيطاليا فلديها ثلاث فرقاطات للدعم اللوجستي.

وبدلاً من أن يؤدّي العرض الأميركي للقوة البحرية إلى تهدئة الأمور، كان له في واقع الأمر

(1) 25 قاذفة مقاتلة من طراز تومكات إف 14، و35 قاذفة هجومية A6 وA7.

تأثير معاكس في صفوف الميليشيات الشيعية لحركة أمل. فقامت بمهاجمة مواقع الجيش اللبناني بالصواريخ في ضاحية بيروت الجنوبية. وردّ العسكريون ردّاً عنيفاً وأعلنت القيادة حظر التجوال حظراً تاماً مع الإعلان عن أنّ الدوريات سوف تطلق النار مباشرة على كل من يشاهد يتحرّك في الشارع حتى لو كان مدنياً. وجرى عند الضحى، في 22 أيلول/ سبتمبر، قصف موقع للقوة الفرنسية في قصقص، في وسط بيروت. وقد أصيب أربعة بجروح بليغة. أما في اليوم السابق فقد نفذت شظايا قنبلة إلى شقة السفير الفرنسي فرنان ڤيبو فيما هو داخل منزله. وما إن أحيط وزير الدفاع الفرنسي، شارل هيرنو، علماً بالأمر حتى أوعز بالردّ على البطاريات التي قامت بالقصف. فأقلعت أربع مطاردات من طراز «سوبر إيتندار» من على متن الحاملة «فوش»، لتقصف هذه المرة ولمدة عشرين دقيقة، مواقع المدفعية المتمركزة في ضهور الشوير، والواقعة تحت السيطرة السورية. وفي اليوم التالي، تعرّض مركز «ناتالي» الفرنسي، الواقع على بعد 400 م من مقرّ الصنوبر، عند تقاطع الطيّونة، الذي يتولى حراسته قسم من مشاة البحرية، لإصابة مباشرة بقذيفة من عيار 130 مم، فوقع أربعة جرحى. ولم تقتضِ المسألة ساعتين اثنتين، ليصدُر أمرٌ عن شارل هيرنو بالردّ الذي تمّ بنجاح على بطاريات سورية يتولاّها دروز، وتقع على قمم تلّة قرب صوفر.

كان التعب بادياً على تقاطيع پيار الجميّل ووجهه أكثر هزالاً من أي وقت مضى حين استقبل يوم 23 أيلول/ سبتمبر، في بيته في الدورة، كلاً من فادي أفرام وأنطوان بريدي. ولقد طلبا تلك المقابلة لبحث الوضع المالي المزري الذي آلت إليه «القوات». وقد استدعى الرئيس الأعلى، في الوقت ذاته، أعضاء اللجنة المالية العليا لحزب الكتائب. وبعد أن ذكّر الرجلان بأنّ أمين الجميّل لم يعد يقدّم المخصصات الشهرية بقيمة 15 مليون ليرة لبنانية لتغطية النقص الناجم عن فقدان الدخل من الحوض الخامس الذي أُعيد للدولة، أعلنا لمحاوريهم عن العزم على استرجاع ذلك القسم من المرفأ وإعادة فتحه تلبية لاحتياجات الميليشيا. فاقترح عليهما أحد المسؤولين في الحزب استيفاء رسم من مبيعات البنزين كافة. فردّ فادي أفرام بابتسامة مقتضبة:

– سوف يؤدي ذلك إلى قيام مشكلة. فما يسعنا في تلك الحال أن نفعل حيال محطة بيع المحروقات التي تخص جميل الجميّل؟

كان جميل ابن عمّ الرئيس، وقد ثارت ثائرة الرئيس الأعلى:

– ليس لأحد أن يمسّ العائلة بسوء!

فاستأنف أفرام قائلاً:

– الوضع حرج. ونحن في أمسّ الحاجة إلى المال!

فباح لهم الرئيس الأعلى بأنّ العقيد سيمون قسّيس، رئيس المكتب الثاني، قد جاء إليه قبل بضعة أيام ليعرض عليه مشروعاً يحمل اسم «أنصار» ويقوم على دمج ميليشيات القوات اللبنانية

بالوحدات شبه العسكرية في الجيش الوطني. فأوضح له فادي أفرام أنّ المسألة خارج مجال البحث في وقت يتهدّد الجيش بالتفكّك وفي وضع خطير على الجماعة المسيحية. فهزّ پيار الجميّل رأسه موافقاً. فهو يفهم كلّ الفهم مطالب «القوات» ويوافق عليها، بيد أنه لا يستطيع معارضة مشاريع أمين أو لا يرغب في ذلك. ولأنّ المسألة تتعلّق بابنه من جهة، وأنّ ابنه هو من جهة أخرى رئيس الجمهورية، وأنّ الكتائب كانوا في كل زمان دعماً لرؤساء الجمهورية الموارنة.

وتوجّه أنطوان بريدي إلى پيار الجميّل قائلاً:

– أنت وحدك قادر على حلّ مشكلة المال هذه. فاستدعِ الشيخ أمين وقل له أن يدفع.

– ليس لدى أمين من مال!

ورفع الرئيس الأعلى سماعة الهاتف فاستدعى المكتب السياسي. فانتظم الجميع ضدّ الميليشيا معتبرين حلّ «الأنصار» هو الأمثل. وقد حدّق سليم رعيدي في عيني فادي أفرام وقال له بلهجة توعّد:

– هنالك من يضع العراقيل في طريق أمين الجميّل. وإنّ ذلك لخطير جداً!

لم يطرف لفادي أفرام من جفن، فلم يردّ. أمّا پيار الجميّل، أي المكتب السياسي، فلم يتّخذ أيّ قرار.

رجع مسؤولا «القوات» الاثنان إلى الكرنتينا فدعيا إلى عقد اجتماع للقيادة في مكتب إيلي حبيقة. فقدّم فادي أفرام عرضاً للمحادثات مع پيار الجميّل والمكتب السياسي، ثم شرح مشروع أمين الجميّل المتعلّق بـ «الأنصار».

– إنّ بقاء القوات اللبنانية منوط بالخيار الذي سوف نقوم به. فهنالك قرار ينبغي اتخاذه وأخشى من أنّ المواجهة مع الحزب أو مع أمين لا يمكن تفاديها.

فاقترح بطرس خوند قائلاً:

– فلْنتّخذ موقفاً صريحاً. وإذا ما ثار أمين ساخطاً فلن يكون للأمر من أهميّة. لكن ينبغي للشيخ پيار أن يظلّ في جانبنا. فأنا أعارض مشروع «الأنصار» معارضة تامة. لكن لا يسعنا أن ندع الأشياء مهملة. فلنجعلِ «الشباب» يقرّرون. وليبادرِ الذين يريدون الانخراط في «الأنصار» إلى ذلك.

فقال فادي أفرام ملاحظاً:

– إنّ ترك الخيار لهم سوف يعني حلّ القوات اللبنانية. وعلينا أيضاً أن نجد حلاً لمسألة المال. فأقترح أن نظلّ على ما نحن عليه، وألّا ينخرط أحد في صفوف «الأنصار». أمّا بشأن المال، فإمّا أن يعطينا إياه أمين، وإمّا أن نقوم نحن بجمعه.

فأوضح سليم جاهل قائلاً:

– إنّ وجودنا على الأرض قوّاتٍ لبنانية يعني في واقع الأمر أننا نرفض سلطة الدولة. فعليك،

يا فادي، كي تتصدّى للضغوط التي تمارسها السلطة والحزب عليك، أن تنشئ منافذ باتجاه الأطراف المسيحية كافة. فأقترح عليك أن تنظّم لقاء شعبياً يكون دعماً شخصياً لك و«للقوات».

– مضى وقت لا بأس به وأنا أحاول التصرّف ضمن ذلك المنحى. وكانت مختلف المجموعات المسيحية مؤيّدة لذلك كل التأييد حين كنا نعارض أمين ونحظى بتأييد إسرائيل. لكنّ حماسهم هبط حين علموا أنّ الإسرائيليين قد انسحبوا من العملية. ولئن كان علينا أن نعارض السلطة، فينبغي أن نتحاشى النزاع مع الحزب بأي ثمن.

لم يكن أفرام بحاجة لأن يوضح أنّ ذلك سوف يؤدّي إلى انقسام دائم في المعسكر المسيحي وخصوصاً في صفوف ميليشيات القوات اللبنانية.

فأعلن إيلي حبيقة قائلاً:

– أجريت استفتاءً صغيراً بين السكان وبين مقاتلي القوات اللبنانية وبين الجنود وضباط الجيش حول احتمال تشكيل «الأنصار». فعلمت أنّ مقاتلينا لا يريدون حتى سماع الاسم. وأعتبر أنّ السلطة قد أساءت التصرّف حيالنا في هذه المسألة. بل إنّهم لم يستشيرونا. ولا تنسَ يا فادي ما قال لنا الإسرائيليون. إذا ما انضممنا إلى السلطة تحت أي شكل كان، فلن نمثّل من بعد أي مركز قرار سياسي بالنسبة إليهم وسوف يقطعون كل صلة بنا.

فنصح أنطوان نجم قائلاً:

– ينبغي فتح الحوض الخامس. فمن شأن ذلك أن يولّد شرارة يلتهب من جرائها البارود وتؤدّي إلى تجمّع المسيحيين من حولك.

– وعلت البسمات الوجوه كلّها. كان معروفاً لدى الجميع حماس أستاذ الفلسفة وميله إلى الحلول الحاسمة. لكن حتى لو شاطره مسؤولو الميليشيا، من حيث الأساس، وجهة نظره، فقد كانوا يعرفون أيضاً أنّ بوسع پيار الجميّل معارضة كل قرار لا يحظى بموافقته. فنهز نجم بكتفيه وواصل قائلاً:

– نحن ندور في حلقة مفرغة .فعلينا بوصفنا مسيحيين أن نحافظ على قوة مستقلة وذلك ما يستحيل ضمن نظام أحادي. فلندعُ إلى دولة اتحادية يستطيع المسيحيون فيها امتلاك أدوات أمن مشروعة.

وافترقوا من غير اتخاذ قرار.

في ليلة 21–22 أيلول/ سپتمبر، جرى خلاف في تعنايل، وهي قرية صغيرة قرب شتورة، بين فلسطينيين مؤيدين لعرفات من جهة وجنود سوريين من جهة أخرى، ومرّ الحادث من غير أن يخلّف ذيولاً. فقد تطوّر تبادل إطلاق نار إلى نشوب معركة صغيرة. فوقع عسكري قتيلاً. وأعطي العقيد غازي كنعان، رئيس جهاز الاستخبارات السوري، فريق الفلسطينيين المتسبب بالحادث مهلة 24

ساعة لمغادرة المنطقة. فحزم الفلسطينيون بتكتّم أمتعتهم وأعتدتهم العسكرية والطبية والاجتماعية. أمّا رتل من الشاحنات والعربات المزدانة بصور عرفات، الذي سار بمرافقة وحدة سورية منتخبة، فقد جرت ملاحظته. كان مشهد الرجال بألبستهم العسكرية والأسلحة في أيديهم، وهم يتكدّسون فوق العربات، يذكّر بمشهد أولئك الذي غادروا بيروت في 21 آب 1982. وهنالك ما يدعو إلى هذا التذكير. ذلك أنّهم كانوا هم أنفسهم.

لقد قرّرت دمشق أن «تعيد إلى جادة الصواب» المنظمات الفلسطينية التي لجأت إلى البقاع وإلى شمال لبنان بعد إخراجها من بيروت. لكنّ منظمة فتح، التابعة لياسر عرفات لم تخضع للأوامر السورية. فقد رفضت، على سبيل المثال، إرسال فدائييها للقتال في جبل الشوف. وأضحت الضغوط تزداد شدّة وقسوة. فرأى عرفات، وقد أحيط بالأمر علماً، أنّ الحكومة السورية تسعى، مستغلّة غيابه، إلى «مصادرة القرار السياسي الفلسطيني»، أي تجميع المنظمات كافة تحت جناحها والتكلّم باسمها. فقرر «أن يعود إلى ذويه». وعلى الرغم من أنف أجهزة الاستخبارات كافة – وهي عديدة في تتبّعها لحركاته وسكناته، بدءاً بالإسرائيلية فالأميركية وحتى السورية –، وصل إلى قبرص في طائرة خاصة، وبهوية مزوّرة فاستعان بخدمات صياد – مقابل ثمن باهظ – للوصول إلى لبنان. جرى ذلك بعد مرور عام كامل على ارتحاله من بيروت على متن الباخرة «أطلنطس»، ويوماً بيوم تقريباً، فنزل ليلة 16/ 17 أيلول/ سبتمبر، على شاطئ قريب من معسكر للاجئين الفلسطينيين في البدّاوي، إلى الشمال من طرابلس. وحين قفز وسط الأمواج التي تقترب لتتبدّد فوق رمال الشاطئ، التقى بفريق من الأنصار الذين كانوا بانتظار «شخصية هامة» من غير أن يعرفوا أنّ المقصود إنّما هو الختيار شخصياً. وقبل أن يجفّ طرف بنطاله، كان يعقد اجتماعاً مع قادة منظمته العسكريين وكوادرها السياسية. وبعد ذلك بيومين، توجّه بالسرّية ذاتها ليزور رجاله في البقاع وفي شتورة ليطلب إليهم الانكفاء باتجاه طرابلس. وبلغ السوريين نبأ مروره بعد 48 ساعة. وزاد اعتزاز عناصر فتح بوجوده، فجابهوا السوريين بعناد أكبر حتى وقوع حادث تعنايل.

جرى احتلال أماكن إقامة المجموعة التي طردت من شتورة ومواقعها من قبل السوريين، أو جرى توزيعها على المنظمات اللبنانية اليسارية. وقررت دمشق توجيه ضربة قاسية لجميع الفدائيين الموالين لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية – المقدّر عددهم بسبعة آلاف – فطلبت إليهم حزم أمتعتهم ومغادرة البقاع. وبعث عرفات، من غير طائل، برسالة احتجاج إلى الرياض وإلى الجامعة العربية، طالباً ممارسة ضغوط على السوريين إلغاء قرارهم؛ فأولوياتهم بالنسبة إلى لبنان وسورية كانت مغايرة. وتدفّقت على طرابلس مواكب طويلة ذات مظاهر مهلهلة.

كانت المسرحية المخصصة لوضع حد لمعارك الجبل بقيادة سعوديين اثنين: الأمير بندر بن سلطان والملياردير رفيق الحريري. كان الأمير بندر، وعمره 34 عاماً، هو ابن النائب الثاني لرئيس

الوزراء والمكلّف بوزارة الدفاع، أي الأمير سلطان بن عبد العزيز. وهو طيار حربي، يحمل شهادة من مدرسة سلاح الطيران الملكي (RAF) من «كرانويل» في إنكلترا، وكان يحمل أيضاً شهادة ماجستير[1] في العلوم السياسية من جامعة «جونز هوبكنز» في «بالتيمور». وقد خدم لفترة قصيرة في الجيش لينتهي إلى رتبة مقدّم، وكان ينبغي أن يعيَّن سفيراً للسعودية في واشنطن[2]. أما رفيق الحريري، فقد ولد في صيدا بلبنان، في مطلع الأربعينيات من عائلة مسلمة سنّية. وبعد حصوله على دبلوم بالإدارة من جامعة بيروت العربية، عمل لبعض الوقت في بلدية مدينته. وفي عام 1965، انخرط في عالم البناء في المملكة العربية السعودية حيث جمع ثروة تقدّر بـ 5 حتى 7 مليارات دولار. ولم يتردّد بعضهم في وصفه بـ «كيسينجر السعودي». أما هو فيصف نفسه بالوصولي المتمكّن. أما بوصفه يحمل الجنسيتين السعودية واللبنانية، فلم يكن يطمح لغير شيء واحد: أن يدخل عالم السياسة في بلده الأم. لكن الظروف لم تكن تسمح بذلك في حينها. وتكمن قوته في الثقة التي وضعها السوريون والدروز والشيعة في نزاهته.

أطلق السعوديان في دمشق، في 20 أيلول/ سبتمبر، إنذاراً نهائياً سرّياً ينتهي في 25 أيلول/ سبتمبر. فينبغي للأسلحة كافة أن تصمت، وإلّا فإنّ الرياض ستتخذ علناً مواقف معارضة لسورية. وقبلت دمشق ضمن شروط: يعترف السوريون بـ هوية لبنان، لكن ليس باستقلاله السياسي لأنّ هذا البلد كان عضواً حيوياً لسورية. فليس لبيروت أن تتصرّف تصرّفاً مستقلاً عن دمشق. ليس لهوية لبنان العربية أن تكون موضع تساؤل، وينبغي أن تكون مماثلة تماثلاً كلّياً مع الهوية السورية. وعلى أمين الجميّل أن يعلن رسمياً «موت» اتفاقية 17 أيار/ مايو. ووعد عبد الحليم خدام قائلاً: وفور ذلك تكون لنا محادثات جادة مع الحكومة اللبنانية حول انسحابنا وحول علاقتنا المتبادلة. ثم أضاف قائلاً: لئن كان الأميركيون الذين يبعدون مسافة 13 ألف كم، عن بيروت قد وجدوا في سوق الغرب مصلحة استراتيجية، فما حال سورية التي تتقاسم مع لبنان المصالح الجغرافية والتاريخية والاقتصادية ذاتها. لقد انتصرنا، ونحن أقوى من أي وقت مضى. فيسعنا الآن أن نتعامل مع الأميركيين ومع اللبنانيين.

لم يكن وليد جنبلاط على الدرجة ذاتها من الاغتباط. لقد وعى أنّه قد استُخدِم من قبل سورية للسماح بعودتها إلى الساحة اللبنانية، وصرّح سرّاً بأنّه لم يكن أمامه من خيار. وقد خلّف انطباعاً لدى الصحفيين الذين استقبلهم آنذاك بأنه ليس على ما يرام في تحالفه مع دمشق. أما في الأوساط الخاصة، فكان يتّهم أمين الجميّل علناً بأنّه رمى به بين أحضان السوريين.

---

(1) دبلوم دراسات عليا.

(2) سيبقى فيها في مركزه حتى تموز/ يوليو 2005 حيث مثّل بلده لدى أربع رؤساء متعاقبين: رونالد ريغان جورج بوش، بيل كليتون وجورج دبليو بوش.

والمفارقة أنّ ذلك الخلاف قد قرّبه من الولايات المتحدة. فرأي المسؤولين الإسرائيليين به والطريق التي اعتمدها في المفاوضات، لا سيّما في باريس، قد عدّلت في العمق من مشاعر الأميركيين حياله. ففي مطلع تمّوز/ يوليو 1983، «توسّل» وليد جنبلاط إليهم، عسى أن يستقبلوه في الولايات المتحدة ليتيحوا له اللقاء بنيكولاس ڤيليوتس بمسؤولين آخرين من وزارة الخارجية. ولم يحصل منهم على جواب. وقام مروان حمادة بالسفر ليسعى - بلا طائل - وراء فك الحظر على «الدعوة». أما اليوم فلم يعد روبرت ماكفرلين يتحادث معه فقط، بل إنّ الأميركيين أحاطوه علماً بأنّه موضع ترحيب به في واشنطن، ساعة يشاء. أما قبل ذلك بستة أسابيع، فقد أرسل إليهم الزعيم الدرزي، بإيحاء من إسرائيل، برسالة مستعجلة، يؤكّد لهم فيها أنّ سفك الدماء قريب الوقوع وأنّ السوريين سيكونون المنتصرين الرئيسين في نزاع مسلّح إن لم يتوصّلوا إلى إقناع أمين بقطع شوط على الدرب نحوهم. ولم يردَّ عليه من أحد، لكنّ واشنطن قامت بتنظيم اجتماع باريس.

ولزمت خمسة أيام من المساومات الشاقة التي قادها رفيق الحريري للتوصل إلى اتفاق وقف لإطلاق النار من خمس نقاط:

1 - وقف نار فوري على كامل الأرض اللبنانية وعلى الجبهات كافة. وينبغي لجميع اللبنانيين المهجّرين منذ عام 1975 أن يعودوا إلى مساكنهم.

2 - تُشكَّل لجنةٌ تمثل الجيش والجبهة اللبنانية وجبهة الخلاص الوطني وحركة أمل للإشراف على وقف إطلاق النار.

3 - على رئيس الجمهورية أن يدعو على الفور إلى عقد مؤتمر حوار وطني.

4 - يدعو رئيس الجمهورية ممثلين سوريين وسعوديين لحضور هذا المؤتمر.

5 - يسري العمل بوقف إطلاق النار في الساعة السادسة من صباح الأربعاء في 26 أيلول/ سبتمبر 1983.

لم يرد ذكر في هذا النص لمصير الوحدات الفلسطينية التي حرصت السلطة على التنديد بوجودها لدى الدروز في الشوف. كذلك لم يرد ذكر لانسحاب وحدات الجيش السوري من لبنان. فالمواضيع الوحيدة التي ظلّت كامنة في «الحوار» المعلن تخص دور السلطة التنفيذية اللبنانية. والحال أنّ ذلك قد مثل أفضل تمثيل الحكمة الماركسية القائلة ما هو لي إنما هو ملك لي، وما هو لك قابل للتفاوض. لكنّ وقف إطلاق النار ذاك قد كرّس تكريساً خاصاً الدور السوري في لبنان.

بقيت مسألة تحديد من هم «المراقبون الحياديون»، ومكان عقد مؤتمر الحوار الوطني وقائمة المشاركين وتاريخ انعقاده. وقد أعلن وليد جنبلاط أنّه يمنح أمين الجميّل أسبوعاً لإثبات حسن نياته. أما السوريون فأظهروا من ناحيتهم تفاؤلاً يتّسم بالثقة. فهم يتوقعون تغييرات جذرية في سياسة الرئيس، ويأملونها أيضاً في المفهوم الأميركي للبنان. وتنقّل الحريري ذهاباً وإياباً نحو كلّ طرف من

الأطراف للعثور على مكان «حيادي» مقبول من الجميع. أمّا بشأن المشاركين فقد جرى اتفاق شفهي من أجل تمثيل السلطة في المؤتمر بوفد يضمّ السلطتين «التنفيذية والتشريعية». لكنّ السوريين رفعوا رفضاً قطعياً حيال مشاركة كلّ من رئيس الوزراء، شفيق الوزّان، ورئيس البرلمان، كامل الأسعد، لأنّهما أسهما في تسهيل انتخاب بشير الجميّل وإقرار اتفاقية 17 أيار/ مايو من قبل النواب. وقد قبل أمين الجميّل بذلك الإملاء نزولاً عند نصيحة من الأميركيين.

كانت واشنطن تأمل، بشيء من السذاجة، في الحصول على فك ارتباط سوري في لبنان عبر إعادة توازن سياسي لبناني داخلي. والتأويل الذي جاء على لسان دبلوماسي في السفارة الأميركية قوامه إذا ما أثبتت حكومة جديدة لسورية، عبر تكوينها، أنها حريصة على مصالحها، فإنّ دمشق لن ترى من بعد ضرورة في الإبقاء على حضور مادي لها في لبنان. أمّا بالنسبة إلى إزاحة كامل الأسعد لمصلحة حركة أمل، فإنّ السوريين يزيحون العائلات الشيعية التقليدية القريبة من المسيحيين وإسرائيل.

وثارت ثائرة شفيق الوزّان على أمين الجميّل بسبب «التخلّي» عنه فقدّم استقالته، في حين قطع كامل الأسعد كل صلة به. أما القائمة النهائية للمشاركين في المؤتمر، فقد أُمليت في واقع الأمر من قبل دمشق على رفيق الحريري. فالسلطة سوف تكون ممثلة برئيس الدولة الذي سيتولّى رئاسة المؤتمر. أما وفد الجبهة اللبنانية فسوف يضمّ كلاً من بيار الجميّل وكميل شمعون. ويمثّل نبيه برّي حركة أمل. وسوف يحتل رئيس الوزراء السابق صائب سلام والنائب الشيعي من صيدا، عادل عسيران، مقعدين للمستقلّين. أما وليد جنبلاط ورشيد كرامي وسليمان فرنجية فيمثلون جبهة الخلاص الوطني. أما «المراقبان» السوري والسعودي فهما عبد الحليم خدام ومحمد مسعود، الأمين العام لوزارة الخارجية للرياض. وإذا ما تُرجمت القائمة أرقاماً أعطت ثلاثة للشرعية وستة لسورية وثلاثة محايدين مقرّبين من دمشق.

في 26 أيلول/ سبتمبر، وبينما كانت الأسلحة تلتزم جانب الصمت في الجبل، استعرت النيران في منطقة طرابلس. فقام رجال عرفات، على مدى يومين، بـ«ترتيب البيت الداخلي» في عاصمة الشمال وفي مخيّمي البدّاوي ونهر البارد، فطردوا من بين صفوفهم، بقوة السلاح، الموالين لسورية أو المقاتلين في صفوف المنظّمات المنشقّة عن جبهة التحرير مثل عناصر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، التابعة لأحمد جبريل. فدامت الاشتباكات وتبادل القصف المدفعي ثمانية وأربعين ساعة متسبّبة بالعديد من عشرات الضحايا.

لقد أبقى أمين الجميّل القوات اللبنانية بمعزل عن «الحوار». وعلم قادة الميليشيا بمضمون اتفاقية وقف إطلاق النار من الصحف اليومية في 26 أيلول/ سبتمبر. فاجتمعت قيادة[1] القوات

---

(1) فادي أفرام وأنطوان نجم وسليم جاهل وحنا صافتلي وإيلي حبيقة وروجيه ديب وألفريد ماضي وجان غانم وأنطوان بريدي وسجعان قزّي. ولم يكن واحد من أنصار أمين حاضراً.

اللبنانية في المساء ذاته، في مكتب إيلي حبيقة. كان الجو كئيباً والقلق يمكن أن يُلمَس لمس اليد. وكان سجعان قزّي، مقدّم البرامج في «إذاعة لبنان الحر»، هو الذي أعطى الإيقاع:

– القوات اللبنانية هي الطرف الوحيد الذي استُبعِد استبعاداً كلّياً. وأجدني في أسوأ حال. فمن الصعب عليّ مواصلة التحدّث من وراء المذياع. أريد الحصول على وظائف أخرى لدى «القوات». فأنا متعب بصريح العبارة. نحن لم نناضل من أجل هذا طوال ثمانية أعوام. وهنالك حلاّن اثنان: إمّا أن نعلنها مقاومة تامّة وحقيقية ضدّ الذين يُرخِصون البندقية المسيحية كافة، أياً كانوا، وإما أن نعلن تبعيتنا التامّة حيالهم!

فردّ فادي أفرام قائلاً:

– نحن بحاجة عسكرياً لوقف إطلاق النار. أما بشأن تهميشنا، فالأمر لا يدهشني. فقد مرّ ردْحٌ من الزمن ونحن نتساءل إنْ كان علينا أن ننفصل انفصالاً تاماً عن أمين أم لا. لقد كنّا في إسرائيل حيث قلناً إنّنا قررنا التصرّف تصرّفاً مستقلاً عن الرئيس وعن الحزب. لكن فات الأوان. فإسرائيل لم تعد حليفتنا ولم تعد تريد أن تساعدنا.

فأكّد حبيقة قائلاً وهو يلتفت صوب أفرام:

– مررنا في فترة سلام كان يصعب علينا فيها إبداء المعارضة. أمّا من بعد فلم توفّر المعارك لنا أيّ فرصة. وها هو شعب بحاله الآن ينتظر منك اتخاذ قرار. فلم يعد بوسعنا البقاء في هذا الوضع المُلتبس. ولا يسعك القبول بهذا الاستسلام. عليك أن تقول «أنا موافق» أو «أنا معارض». عليك أن تُذَكّر بقوّة وأنت ترفع صوتك عالياً بأنّك تمثل أحد الأفرقاء على الساحة كما الآخرين سواء بسواء، مع التأكيد أنّه لا يمكن القيام بشيء ما لم يؤخَذْ رأيكَ بالحسبان. فلا بدّ من الهجوم إلى الأمام أو إلى الخلف.

فهتف أنطوان نجم قائلاً:

– قررنا قبل يومين أنّ على القوات اللبنانية مواصلة البقاء. ولدينا اليوم الفرصة للإعلان عن ذلك. عليك أنت يا فادي، أن تتخذ القرار الذي تبدأ به مسيرة الشعب المسيحي. نحن نعرف جميعاً أنّ الرئيس والأميركيين لا يريدوننا. لكنّك تعرف أنّ الأميركيين حين يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع، يدخلون في صلة معك ليعرفوا ما تريد وما سيكلّفهم ذلك. لدينا في جلسة التداول هذه الفرصة والحجّة اللتان حلمنا بهما كي نثور. علينا أن نعلن أنّ ما يجري هو ضد مصلحة المسيحيين ومستقبلهم، وأنّه استعمار وأننا نرفضه. فالشعب سوف يسير معك، وإنّي لعلى ثقة بأنّ الإسرائيليين سوف يلاحظون أننا بدأنا نُبرز مخالبنا ونتّخذ موقفاً.

لم يكن بوسع أفرام أن يحزم أمره. وكان يشاطر حبيقة ونجم وجهة نظرهما. لكنّ الخطوة التي يجب القيام بها تشتمل على كمّ هائل من المخاطر والأمور المجهولة. فقال:

– ليس الخوف من اتخاذ موقف، بقدر ما هو التهديد العسكري. فما العمل إذا ما هاجم السوريون منطقتنا؟

ستكون المقاومة مستحيلة من دون العون الإسرائيلي، وكانوا يقدّرون جميعاً أنّ الأميركيين لن يحرّكوا ساكناً. وأشار وهو يدخل في تفاصيل العملية السلمية الموضوعة أمام اللجنة الرباعية المكلّفة بتطبيق وقف إطلاق النار.

– لم يستشرنا من أحد في ذلك الشأن. والشيء الوحيد الذي قامت به الرئاسة أنّها أعلمتنا هاتفياً بأنّ مهمّة هذه اللجنة الفصل بين المتقاتلين وتحديد نقاط انتشار القوّة متعددة الجنسيات.

فأمسك أفرام بورقة أمامه وأضاف وهو يقرأ:

– ينبغي تشكيلها من شريف فياض، عن الحزب التقدمي الاشتراكي. فهو أحد مسؤوليهم العسكريين. إنّه رجل ذكيّ جداً وهو يؤمّن الصلات مع ديلون. أما عن أمل فهنالك زكريا حمزة ولقبه أبو يحيى، وهو رئيس وحداتهم المقاتلة كافة. وسوف يكون سامي خويري عن الكتائب. أما الجيش فلمّا يعيّن من أحد.

فهبّ حبيقة صائحاً:

– إنّي اعترض اعتراضاً تاماً على تعيين سامي خويري. فهو أولاً لا يمثّلنا، زد أنّه قادر كلّ القدرة على أن يكذب عليك.

كان سامي خويري في صيف 1969 رئيس الوحدة العسكرية الأولى للكتائب، وهي وحدة «المغاوير» وقوامها قرابة ثلاثين من المقاتلين التابعين للحزب مباشرة. وتخلّى عنه رجاله على مرّ الشهور ليلتحقوا ببشير الجميّل. حينئذ تقرّب خويري من أمين ليصير من الخاضعين له دون قيد أو شرط. وحين أنشأ أمين وحدته العسكرية الخاصة، «القوّة 75»، للتمايز عن القوات اللبنانية التابعة لأخيه، تولى سامي خويري قيادتها وقام بتجنيد الذين خرجوا من «القوات» خائبين.

رأى إيلي حبيقة أنّ القوات اللبنانية لا يسعها أن تكون ممثّلة بـ«رجل أمين»، فاقترح اسم طبيب يحضر الاجتماع، هو جان غانم. وواصل قائد جهاز الأمن القول موجّهاً كلامه لفادي أفرام:

– لدينا معلومات عديدة حول تفكّك الجيش منذ يوم أمس. فقد تجمّع العديد من العسكريين الدروز في ثكنة حمّانا التي يسيطر عليها السوريون. لقد لبث الجيش موحّداً ما دامت هنالك معارك. ومع وقف إطلاق النار سعى كلّ واحد وراء مصلحته بالقرب من المنتصر. ولدى الضباط المسيحيين شعور بالحقد على أمين الجميّل وعلى قائدهم العام إبرهيم طنّوس. وهم يترقّبون ليروا إن كنّا سنُقدِم على عملٍ ما. فإذا كنت تنوي، يا فادي، القيام بانقلاب، فقم به الآن. فالكثير من الناس سوف يسيرون خلفك.

– واقع الحال أنّ الوضع لم يكن قط ملائماً على مثل هذا النحو. لكنّي أخشى ألاّ تكون قدراتنا العسكرية على المستوى المطلوب.

كان فادي أفرام مقتنعاً بأنّ انقلاباً عسكرياً يرمي إلى خلع الرئيس وتعيين مسيحي قريب إلى «القوات» أو خارج من صفوفها بدلاً عنه يمثّل الحل الوحيد عملياً. لكن هنالك مشكلة لها أهميّتها: إنّه تأثير بيار الجميّل وحزب الكتائب على وحداته العسكرية. فمن المسلّم به أن الأب الأكبر سوف يعارض مثل ذلك العمل ضدّ رئيس ماروني، كائناً من كان، ناهيك بأنّه ابنه. فينبغي «للضربة» كيما يكون لها حظ في النجاح، أن «يتولّى أمرها» الجيش أو قسم كبير منه وأن يتمّ ذلك سرّاً. وانتهى الاجتماع في جو من التمرّد، لكن لم يجرِ اتخاذ أيّ قرار في هذا الصدد.

في مساء اليوم التالي طلب أمين الجميّل إلى قادة الميليشيا[1] الحضور لمقابلته في القصر الرئاسي. فقدّم لهم بياناً تفصيلياً استرجع فيه المعارك والضغوط التي مورست عليه، وأكّد أنّه كان مرغماً على القبول بوقف إطلاق النار لأنّ الجيش أصبح في «وضع يُرثى له».

وأضاف:

– أقول بكل موضوعية إنّنا شهدنا أثناء المعارك الأخيرة مقاومة القوات اللبنانية في بعض المناطق وقيام الجيش بذلك في مناطق أخرى. ولا بدّ من التسليم، دون قصدٍ إلى تقدير قدرات كل طرف، بأنّكم لم تستطيعوا الصمود في بحمدون، في حين أنّ الجيش صمد في سوق الغرب، لأنّ الأميركيين قاموا بدعمه. مما يعني أنّهم يساندون الشرعية . . .

وهبّ فادي أفرام قائلاً:

– ليس من مجال للمقارنة! فنحن قمنا بجانب كبير من العمل في سوق الغرب! وكان للجيش مؤخّرات مضمونة يستطيع الحصول عن طريقها على تعزيزات وإمدادات. أما في بحمدون فكنّا محاصرين!

فأجابه الرئيس قائلاً:

– ضميري أنا مرتاح ولا أريد أن ألوم أحداً. نحن بحاجة لدعم من الولايات المتحدة التي لا تدعم سوى السلطة الشرعية. وأنا لا أطلب حلّ القوات اللبنانية، لكننا نريد استخدام مخزونكم. وسوف نجد الوسيلة لدمجكم في الدولة كي نتمكّن من العمل معاً. قد لا يكون مشروع «أنصار» ملائماً. وأنا أفضّل من جانبي دمج «القوات» في جسم الجيش. قد يكون لديكم اقتراح آخر أيضاً. لقد كلّفت حبيب فارس الاهتمام بهذا الملف. فأطلب إليكم الاتصال به وتنسيق ذلك كله معه. لكن لديكم جهاز ينبغي الحفاظ عليه بأي ثمن، إنه جهاز الأمن التابع لإيلي (حبيقة). إلّا أنّ هنالك بعض الشروط: ينبغي أن يكون على اتصالٍ بي، مباشرٍ وصريح. لكن يبقى النقاش في ذلك كله بلا طائل ما لم تكن لكم ثقة بي ولم تكونوا مقتنعين بأنّي رئيسكم. ويسعنا القيام سراً بأشياء هائلة لضمان

---

(1) فادي أفرام، إيلي حبيقة، أنطوان نجم، أنطوان بريدي وجوزيف أبوخليل.

مستقبل المسيحيين. فأقترح عليكم إعادة بناء الجيش لنقوم من بعد بتشكيل تلك «السرايا» الدفاعية على نحو ما قام به حافظ ورفعت الأسد.

فردّ عليه فادي أفرام بجفاء:

– إنّها حقاً المرة الأولى التي تكون فيها معنا على هذه الدرجة من الصراحة وأنت تقول لنا ما تنوي عمله بالقوات اللبنانية.

– الحق أنّي كنت متحفّظاً جداً معكم. فقد كان موقفكم مني سلبياً على الدوام. أما اليوم فنحن نواجه وضعاً مصيرياً بالنسبة إلى مستقبلنا. ولهذا توجّهت بطلبي إليكم.

نظر فادي أفرام في وجوه زملائه المتجهّمة، فآثر عدم الجدال وقال:

– سوف ندرس اقتراحكم.

فأضاف أمين بابتسامة عريضة، وهو على ثقة من أنّه أقنع محاوريه:

– اتصلوا بحبيب فارس وناقشوا ذلك معه. وليأتِ فؤاد أبو ناضر معكم في المرة القادمة. آه! كدت أنسى الأمر الأساسي، إنّ كلّ ما وعدتكم به من تمويل وتموين سوف يُدفَعُ إليكم حتى آخر قرش.

كذلك وافق الرئيس باندفاع على تعيين جان غانم في اللجنة الرباعية لتطبيق وقف إطلاق النار.

خرج قادة «القوات» من القصر وهم على قناعة بأنّ أمين يريد حلّ الميليشيا حلاً نهائياً. أما التعامل معه بشدة وعنف فقد بات ضرورة للبقاء على قيد الحياة. فاستبقى فادي أفرام أنطوان نجم ليتدارس معه أفضل وسيلة لسبر أغوار العسكريين ومعرفة المدى الذي يمكنهم الوصول إليه. فاقترح نجم مقاربة العقيد ميشال عون. فالرجلان تعارفا جيداً من يوم أن وضعا في أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر من عام 1980، مشروع وصول بشير الجميّل إلى سدّة الحكم. فكان المشروع يرتئي عملاً دستورياً وعند اللزوم القيام بانقلاب عسكري جرت دراسة تفاصيله[1]. وكان فادي أفرام من جانبه يعتبر ذلك الضابط شديد الاستقامة وقريباً من «القوات». ويعرف أنّ جميع رجال لوائه يحبّونه حباً شديداً ويتبعونه من غير مناقشة.

ظنّت القوات اللبنانية أنّ اللواء الثامن هو القوة العسكرية الوحيدة التي يمكن أن تسهم في انقلاب عسكري دون توتّرات نفسية.

طلب فادي أفرام إلى رئيس قطاع الحماية، حرصاً منه على تأمين أقصى حدٍ من السرّية للقاء، العثور على مكان سرّي. وبعد 48 ساعة، مرّ أنطوان نجم ليصحب ميشال عون من منزله فيقوده إلى شقة فارغة، في بناء يحدّ حديقة السيوفي في الأشرفية. فقصّ عليه أفرام حقيقة الوضع بالتفصيل، وذكّره بالدور «المشؤوم» الذي قام به أمين الجميّل في حرب الجبل. وانتهى بعرضه لمشروع انقلاب عسكري بدعم من اللواء الثامن. فطرح ميشال عون بعض الأسئلة ليعرف بعض التفاصيل بدقة، ثم

(1) أسرار الحرب الجزء الأول م. س.

نهض فمشى صامتاً بضع خطوات وسأل إن كان الأميركيون أو الإسرائيليون على علم بالمشروع. فأجاب أفرام بالنفي. فتنهّد الضابط وقال:

- لا أستطيع، بوصفي عسكرياً، إلّا أن أتبع السلطة الشرعية.

ولم يدُر من بعد أي حديث حول استخدام القوة. لكنّ الشعور بالكراهية حيال الرئيس الجميّل، بلغ لدى بعض أعضاء القوات اللبنانية حدّ التفكير بتصفيته جسدياً، لكن من غير الانتقال من الأقوال إلى الأفعال.

19

الوقف السوري لإطلاق النار

عُقد الاجتماع الأول للجنة الرباعية المكلّفة بمراقبة وقف إطلاق النار في 29 أيلول/ سبتمبر 1983. ووقع الاختيار، بعد تردّدات معيّنة، على مكان «محايد»، في مباني وكالة مصرف طراد، في مواجهة مصنع فاليزيير، في منتصف الطريق بين الشويفات التي يسيطر عليها الحزب التقدمي الاشتراكي، وكفرشيما التي تحتلّها القوات اللبنانية. فأوكلت مهمة أمن المبنى للوحدة البريطانية من القوة متعددة الجنسيات. لقد تعرّض المبنى، المؤلف من ثلاثة طوابق والواقع على خط الجبهة، للكثير من الدمار، حتى لزم نزع الألغام منه وتنظيف الأدراج بالرفوش للتمكّن من بلوغ الغرفة الوحيدة القابلة «للسكن» في الطابق العلوي حيث يمكن للوفود أن تقيم. واختلف ممثلو الحزب التقدمي الاشتراكي وحركة أمل والقوات اللبنانية والجيش حول مبادئ سياسية. فرفع كل واحد مطالبه. ولم يتخذوا سوى قرار واحد: الاجتماع مجدّداً في اليوم التالي.

قوبل، الإعلان عن وقف إطلاق النار، بانفجار حقيقي من الفرح في دير القمر، دام قرابة ساعتين. عانق الناس بعضهم بعضاً. وضحكوا، ظناً منهم أنّ الكابوس انتهى. لكنّ البهجة توارت سريعاً جداً. هنالك الرحيل! لكن للتوجّه إلى أين؟ ليس من يرغب في العودة إلى قريته الأصلية. لقد استأنف آلاف الناس المكدّسين في المدينة المحاصرة تسكّعهم في الميدان وفي الشوارع المحاذية وهم يتبادلون الأحاديث. فليس لديهم ما يفعلون سوى ذلك. وكانوا جميعاً أو في غالبيّتهم الساحقة يرتدون الملابس التي هربوا بها. فشغلهم الشاغل إنّما هو العثور على الطعام وعلى الحطب اللازم للطبخ والتدفئة. كان يجري توزيع للخبز يومياً، يتولّى تنظيمه رجال جعجع. أما ودير القمر تقع على ارتفاع 860 متراً، فكان اللاجئون يلتمّون مجموعات صغيرة حول نيران الحطب، بسبب رطوبة الليل، ثم يتوجّهون للنوم فوق ألواح من الكرتون. ولم يعد في البلدة من كهرباء، كما أنّ الدروز خرّبوا الأقنية التي كانت تزوّدها بالماء. فبات مصدر الماء الوحيد العين القائمة في وسط الميدان، وكانت ذات تدفـق بسيط يسمح فقط بتأمين ماء الشرب للجميع. أما الصلة الوحيدة بالخارج، إلى

جانب أجهزة اللاسلكي لدى القوات اللبنانية، فهي الخط الهاتفي الوحيد بين الدير المأوى الذي تديره راهبات الصليب ومنزل الرهبانية المركزي قرب الزوق.

كان شاب من أفراد الميليشيا الدرزية يستند إلى جدار من أكياس الرمل ويراقب بالنظارات المقرّبة بيوت دير القمر. وكلما لمح خيال شخص هتف صائحاً «بو!» وأتبعها بضحكة مجلجلة. فلا يفصل بعقلين، حيث هو يقف، عن دير القمر سوى وادٍ عميق من أشجار الزيتون. وكان يقوم هنالك مكتب توفيق بركات، المسؤول الأمني للحزب التقدمي الاشتراكي في الشوف. كان توفيق بركات رجلاً بشوشاً، يكره الحرب. وكان، وهو المسؤول سابقاً عن مرأب السيارات في بلدية صيدا، رجلاً ذا نفوذ كبير لأنّه كان منظّماً جداً في طائفة فوضوية بجوهرها. كان في المدرسة مع جورج ديب، رئيس بلدية دير القمر. وقد أمضيا معاً، سنين عديدة، على مقعد الدراسة ذاته في المرحلتين الابتدائية والثانوية. كانا لا يفترقان، فقد جمعتهما أواصر متينة من الود والبهجة وفترة العشق في مرحلة المراهقة. بل قاما بأداء الخدمة العسكرية معاً. وصرّح من بعد قائلاً: جعلتنا الحياة وزواج كلّ منّا، نسلك دروباً مختلفة. أما صلته الوثيقة بوليد جنبلاط، فأهلته لأن «يدير» شؤون دير القمر. وسمح في الأيام الأولى من الحصار، للموفد الخاص من إذاعة «فرانس إنتر France Inter»، بدخول المدينة بشرط أن يقوم هذا الأخير سرّاً، بتسليم رسالة مكتوبة إلى جورج ديب، يداً بيد. واضطر الصحفي لأن يحوّل عنه الأنظار المرتابة لميليشيات «القوات»، كي يتمكّن من لقاء رئيس البلدية لبضع دقائق، على حدة. وقد دلّه في رسالته على مكان أودع فيه جهازاً لاسلكياً محمولاً، تمكّن بواسطته الرجلان، طوال فترة الحصار، من تبادل الحديث وحلّ المشكلات المستعجلة. وما كان أي منهما ليرغب في «فتح الباب» للسماح للاجئين بمغادرة المدينة. لأنّ ذلك معناه إفراغ المدينة من جميع سكانها، وذلك للمفارقة ما لم يكن يرغب فيه كلّ من جورج ديب وتوفيق بركات – ومعهما وليد جنبلاط – بأي ثمن من الأثمان. فالكل يعرف أنّ المدينة، إن خلت من سكانها، فلن يبقى فيها سوى ألفين اثنين من ميليشيا «القوات». حينئذ، لن يحول من شيء بين المقاتلين الدروز وبين غزو المدينة، مع كل ما سينجم عن ذلك من دمار وما يستجرّ من خزي دولي ومن تدخّل إسرائيلي على الأرجح.

في 29 أيلول/ سبتمبر 1983، انقطع الصمت العجيب لليوم الرابع من وقف إطلاق النار، بدوي محرّك طائرة جعل الرؤوس كافة تنظر إلى فوق، في حدود الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر. إنّها طائرة من نوع بوينغ 707 تحمل شعار خطوط «طيران الشرق الأوسط» اللبنانية، تقوم بما يشبه جولة تكريمية في سماء المدينة قبل أن تهبط فوق المهبط 18 من أرض المطار. كان مقرّراً للطائرة القادمة من جدة، وعلى متنها 102 من الحجاج القادمين من مكة، أن تهبط من حيث الأساس في مطار لارنكا في قبرص، نظراً لأنّ اللجنة الرباعية لمّا تقرّر إعادة فتح مطار بيروت الدولي المغلق

منذ 32 يوماً. لقد قرّر أمين الجميّل، حين علم عن مكان قدوم الطائرة، أن «يرتّب أمراً» ليختبر وقف إطلاق النار. فهتف إلى وزير المواصلات، بيار خوري، وطلب إليه إعلام طيران الشرق الأوسط بالإعادة الفورية لفتح المطار. فأوعزت الشركة إلى قبطان الطائرة بالهبوط في بيروت وأعلنت عن وصول الطائرة. لم يتوافر لأي من الميليشيات المعادية للحكومة الوقت للرد. وبادر بعض المسافرين، إثر هبوطهم سلم الطائرة لأداء صلاة المغرب على أرض المطار يحمدون الله على وصولهم برّ الأمان ويممّون وجههم شطر القبلة، أي صوب سوق الغرب وفقاً للجغرافيا المحلية. وظلّ مطار بيروت مفتوحاً من بعد.

لقد نجح الإسرائيليون، إضافة إلى إعادة تموضع قواتهم، في دفع الولايات المتحدة للانخراط بفاعلية في النزاع اللبناني. ولئن كان الأميركيون قد اختاروا لأنفسهم دور الحكم - فرفعوا الإعلان عنه عالياً - فإنّ التزامهم القوي بأمين الجميّل، قد دفع بهم إلى تزعّم القضية بصفة تامة. وما انفكّت تل أبيب تقول لواشنطن إنّه لأساسي الآن بالنسبة إلى أمين الجميّل أن يضع قائمة بأولوياته. وألحّ الإسرائيليون على ماكفرلين وعلى ريغان كي تقوم في لبنان حكومة أكثر تمثيلاً بحيث يكون للشيعة فيها حصة كبيرة. وإنّ هذه الطائفة لتشكّل على المدى القصير، قنبلة موقوتة حقيقية يشكّل عنصر الانفجار فيها، التطرّف الزاحف بين قسم كبير من «المحرومين». وكانت إسرائيل ترى أنّ أخذ الشيعة سياسياً بالاعتبار وتلبية بعض من مطالبهم، ركن أساسيّ في سبيل «تهدئة» جنوب لبنان.

وتدخّلت الولايات المتحدة لدى أمين الجميّل ضمن هذا المنحى. فطلب إليها أن تبادر إلى إقناع دمشق. وبدأ حينذاك انزلاق، بطيء لكنّه متصلّب، نحو مجابهة أميركية سورية. وسعى ريغان لأن يفرض نفسه قاضياً وحيداً للصلح، لكنّه اصطدم في مسعاه بشركائه الغربيين الذين ما كانوا يشاطرونه البتة تحليله للموقف السوري. فالفرنسيون والإنكليز والإيطاليون راغبون في تفادي أي انزلاق مع تمسّكهم مثل الولايات المتحدة بتدويل الأزمة على مستوى القوانين الدولية. كان في لبنان ما يقرب من خمسة إلى ستة آلاف من رجال القوة متعددة الجنسيات وما يقرب من ثلاثين سفينة حربية تمخر عباب مياهه الإقليمية، ثم انضمت إليها بوارج دعم واستخبارات. وكان مجموع ذلك كله يضفي على الأزمة بعداً لا يمكن للأزمة اللبنانية وحدها أن تبرّره.

كانت القوات اللبنانية تغوص في بحر من التشوّش. أمّا والانقلاب العسكري أو فرض الأمور بالقوة على الأقل، الذي انساقوا إليه قد بدا مستحيلاً، فإنّ القادة ما عادوا يتوصّلون إلى تحديد استراتيجية واضحة حيال الرئاسة. والواقع أنّ الخيارات التي بدت أمامهم كانت بسيطة. فإمّا أن يظلّوا ضمن وضع مُلتبَس قاعدين ينتظرون أياماً أفضل، وإما القبول بحلٍ أدنى، عسكري وسياسي، يتيح لهم إعادة تنظيم صفوفهم، أو أن ينقلوا، على نحو ما يرتئي أمين الجميّل، مخزونهم العسكري كلّه إلى الدولة بمنحه الشرعية، وإمّا أخيراً أن يقوموا، بكلّ بساطة، بحلّ تنظيمهم تاركين الخيار أمام

الميليشيات بين الانضواء تحت لواء الجيش أو الانتماء للحزب. وكانت هنالك أيضاً المعارضة المكشوفة لسياسة الرئيس برفع الصوت عالياً في سبيل استقلال القرار مما يستجرّ في نهاية المطاف تصادماً مع الحزب. جرت مناقشة تلك الخيارات أثناء اجتماع للقيادة عُقِد مساء يوم 29 أيلول/ سپتمبر 1983 في مكتب إيلي حبيقة. ورفع أنطوان نجم الصوت قائلاً بسخط :

– قد لا أكون مخطئاً إن قلت، إنّ بعض من يجلس حول هذه الطاولة، يرى على الدوام، إمكانية حلّ «القوات». ولست شخصياً على استعداد لمناقشة ذلك. لكنّي سأتوجّه إليكم بنصيحة : لا تخشوا المخاطرة. فالإفراط في الحكمة والواقعية سوف ينتهي بنا إلى الانهزامية والكارثة. ولو أنّنا فكّرنا بواقعية، يوم 13 نيسان/ أپريل 1975، لكنّا اليوم مبعثرين في أرجاء العالم كافة. إنّي أعتبر الرئيس الجميّل معادياً لأفكارنا! وهو لن يتغيّر ما لم ترغمه الظروف الدولية أو المحلّية على فعل ذلك.

ومجدداً أيضاً، لم يجرِ اتخاذ أي قرار. أمّا أمين الجميّل فأُحيط علماً بذلك. لقد اتضح الخطر بالنسبة إليه. فظنّ أنّ أفضل وسيلة لمواجهته تتمثّل في نبش مشروع «أنصار» الذي اختمر لديه. فميزة ذلك المشروع، في نظره، أنّه يحلّ الميليشيا. فتخيّل للوهلة الأولى، أنّ كتيبة من القوات سوف تنضوي ضمن اللواء الخامس بقيادة العقيد أرصوني وتقيم في ثكنة صربا. أما من بعد، فيجري «ازدراد» وحدات أخرى من الحجم ذاته من قبل اللواءين الثامن والعاشر «لتشكيل قلب الجيش». وفي تلك الأثناء تحافظ «القوات» على أسلحتها التي سوف تشتريها الدولة في نهاية المطاف. أمّا قسم الاستخبارات برئاسة حبيقة فيُصار للإبقاء عليه ثم يغدو تابعاً للرئيس تبعيّة مباشرة. وفي الوقت ذاته سوف يعمل جوزيف سعادة، الأمين العام لحزب الكتائب، على إعادة تنظيم الحزب حيث ستكون كفاءات مسؤولي «القوات» موضع ترحيب. وقد عرض سعادة تسمية جوزيف أبو خليل مسؤولاً عن الإعلام، في حين يرى ألفريد ماضي الشؤون السياسية توكل إليه، ويتولّى إيلي حبيقة مسائل الأمن القومي. وفي 30 أيلول/ سپتمبر دعا أمين الجميّل فادي أفرام ليعرض عليه أفكاره. وقد حرص الرئيس على أن يدعو أيضاً ابن شقيقته، فؤاد أبو ناضر، رئيس هيئة أركان القوات اللبنانية.

وفي المساء ذاته، أعلنت قيادة الميليشيا، على الرغم من معارضة عدد من أعضائها مثل أنطوان نجم، عن موافقتها على انضواء عدد من وحداتها في صفوف الجيش. والميزة التي كان يراها فادي أفرام أن يُفيد رجاله من تجهيز الجيش وتدريبه الأكثر تقدّماً. كذلك قبِل باقتراح الجميّل أن يستطيع رجال الميليشيا، إذا ما دعت الضرورة، الهروب والالتحاق بصفوف القوات اللبنانية.

أعلن وليد جنبلاط، في 2 تشرين الأول/ أكتوبر، عن إنشاء إدارة مدنية في الشوف تتولى الاقتصاد والشؤون الاجتماعية والعسكرية في الجبل. وكان لذلك القرار وقع صاعقة حقيقية على الطبقة السياسية اللبنانية. فاتّهمه بعضهم بخرق اتفاقية وقف إطلاق النار، في حين تساءل بعضهم إنْ

كان للزعيم الدرزي، من بعد ذلك الإعلان «الانفصالي»، أن يواصل الجلوس في مؤتمر الحوار. لكنّ تلك الاحتجاجات كُنِست فجأة لدى توزيع مُغفَل لمنشورات في بيروت الغربية. فهي تدعو العسكريين إلى الهروب. ويتساءل النصّ قائلاً: لماذا تقاتل، يا أخي المسلم، ضدّ إخوتك وأبنائك، من أجل الجميّل؟، وأثار الخطباء الشيعة السؤال ذاته في خطبتهم في المساجد ظهر يوم الجمعة. إنّ انفراط عقد الجيش، الذي بدأ غداة الإعلان عن وقف إطلاق النار، قد تسارع. فهنالك ما يقرب من ألفَي جندي – منهم 600 من الدروز – من مجموع يبلغ عشرين ألفاً، لمّا يلتحقوا بوحداتهم لدى انتهاء فترة إجازاتهم. وما إن بدأت تلك العملية، حتى غدت غير قابلة للسيطرة عليها. وعبثاً حاول كامل الأسعد السعي للحدّ من هروب أفراد طائفته، لكن دونما جدوى.

عندئذ قدّر الأميركيون أنّ «إعادة توزيع الأوراق» أضحت أمراً ملحّاً. فمارسوا ضغطاً شديداً على أمين الجميّل كي يسمّي حكومة «أكثر تجميعاً»، أي بعبارة أخرى، منفتحة على المصالح السورية. بات من أشدّ الصعوبة لديه، على كلّ حال، تسمية رئيس وزراء جديد لا يحظى بـ«ترشيح» من دمشق. هذا ما لم يكن يريد العودة لإطلاق «سياسة المدفع»، وهي ما يسعى الأميركيون إلى تحاشيه بأي ثمن حتى لا ينجرّوا أكثر إلى داخل الأزمة. كذلك كان واضحاً أنّ عدم أخذ مصالح السوريين بعين الاعتبار سيجعلهم يوكلون من جديد مهمة الكلام لمدافعهم. ولقد ركّزوا جهودهم في الوقت الحاضر على تفكك الجيش اللبناني، فالأمر أكثر سهولة من عمليات القصف، وأكثر جدوى وأقلّ كلفة منها. أما نبيه برّي، فقد رفض من جانبه حتى الآن، «الإيحاءات» كافة التي تحثّه على دعوة العسكريين من أبناء طائفته، على التجمّع داخل لواء أحادي المذهب، مثلما فعل وليد جنبلاط. وقدّرت تل أبيب أنّ تلك «العراضات الشفوية» كلّها ليست خطيرة، لا سيّما لدى الدروز الذين حققوا «العقد» الذي تمسّكوا به: وحدة أراضي الشوف. فلم يعد هنالك ما يحرّكهم لمواصلة القتال، أو للقتال في مكان آخر أو من أجل الآخرين.

أطلع الإسرائيليون[1] «القوات»[2] على ذلك مساء 2 تشرين الأول/ أكتوبر. فحين اجتمعوا في مكتب فادي أفرام في الكرنتينا لدراسة الوضع في دير القمر، أحاط زعماء الموساد قادة الميليشيا علماً بأنّهم التقوا سرّاً بجورج ديب بضمان من جنبلاط. وقد خرج رئيس بلدية المدينة المحاصرة كي يلتقي بهم لبضع ساعات. ولقد عارض ترحيل اللاجئين معارضة شديدة.

وسأل أوري لوبراني:

– لكن هم، ماذا يطلبون؟

فأكّد أفرام قائلاً:

(1) أوري لوبراني، ناحوم أدموني، ميكي أرمور (ماريون)، الفيزي التسافري.

(2) فادي أفرام، إيلي حبيقة، أنطوان بريدي ووليد فارس.

– القدوم إلى بيروت. ونحن نفضّل، كما جورج ديب، أن يظلّوا في دير القمر. وإذا ما جرى ترحيل لاجئي الشوف نحو بيروت فإنّهم لن يعودوا إلى قراهم أبداً. ينبغي فقط تلبية حاجاتهم إلى الغذاء والدواء.

فوافق لوبراني قائلاً:

– سوف نفعل ما تطلبون منا. ولئن كان ينبغي أن يبقوا هنالك لأسباب سياسيّة، فلسوف يبقون. ونحن ستتدخّل لدى الدروز كي نُدخِل إلى المدينة ما هم بحاجة إليه من غير أن نثير المشكلة من أعماقها.

أما من الناحية الرسمية، فإنّ رجال القوات اللبنانية ورئاسة الجمهورية كانوا يرفعون الصوت عالياً في سبيل وضع حدٍّ لمحنتهم. وكانت تجري بانتظام تظاهرات اعتصام تضامنيّة. كما كانت تقام القداديس من أجلهم. لكن كان يتمّ فعل كل شيء من أجل بقائهم في دير القمر. فكان ينبغي الإبقاء على مسيحيين في الشوف، لتتاح لهم، فيما بعد، فرصة الرجوع إلى قراهم الأصلية، فهو المكان الأخير في الجبل الذي ما زال فيه مسيحيون. أما المفارقة، فهي أنّ جنبلاط كان من الرأي ذاته. فقد فرغ إقطاعه من قرابة نصف عدد سكانه. وهو يعرف حقّ المعرفة، لا سيّما وأنّ الطبيعة تخشى الفراغ، أنّ المسيحيين يمكن أن يُستبدل بهم شيعة أو فلسطينيون، وذلك ما يسعى إلى تفاديه بكلّ ثمن. فقد أحلّ الدروز الذين هُدِمت مساكنُهم في المساكن التي هجرها المسيحيون. وجرى في الكثير من القرى، نسف المساكن الخالية، حتى لا يأتي من أحد ليستقرّ فيها.

ثم أضاف ناحوم أدموني قائلاً:

– سوف نحاول ترحيل الجرحى والمرضى. لكن ماذا بشأن سمير جعجع ورجاله؟ هل تريدون لهم البقاء أيضاً في دير القمر أم تريدون ترحيلهم عنها؟

– إذا ما استقرّت القوة المتعددة الجنسيات في الشوف لحماية السكان، فسوف نسحب قواتنا الغربية كافة عن المنطقة.

فسأل رئيس الموساد قائلاً:

– أليس ممكناً سحبهم مع الإبقاء فقط على رجال الميليشيا الذين أصلهم من المنطقة من غير أن تتدخّل القوة متعددة الجنسيات؟

– كلا، فليس عددهم كافياً.

فقال لوبراني:

– يطالب الدروز بما يضمن أنّ الميليشيات التي ستخرج من دير القمر، لن تتوجّه للقتال في مكان آخر.

فقال فادي أفرام:

– ومن عساه يضمن ذلك؟

فلاحظ ناحوم أدموني قائلاً:

– ليس ذلك بمقبول، على أي حال. فما من بلد يقبل بإعادة مساجين، ويضع مثل ذلك الشرط.

ثم أضاف زعيم الموساد قائلاً، وهو ينظر إلى فادي أفرام:

– لديّ ملاحظات أوجهها إليكم. لقد لاحظ وفدنا العسكري الذي قام بتفقّد دباباتكم أنها في حالة سيّئة جداً.

فردّ عليه قائد «القوات» قائلاً:

– مضى عام ونحن نطلب منكم قطع غيار دون أن نتلقى من جواب البتة! كنت مرغماً شخصياً على إرسال رسالة للحصول على مصافٍ للزيت. إنّ عشرين دبابة هي الآن خارج الاستعمال بسبب ذلك! ولقد توجّه أسعد سعيد أربع مرات إلى إسرائيل لحلّ تلك المشكلة، لكن دونما نتيجة.

فردّ لوبراني وهو ينهز بكتفيه غير مبالٍ:

– كل امرئ قابل للوقوع في الخطأ.

فرمقه أدموني بنظرة فاحمة، وقال مؤكّداً والسخط بادٍ عليه:

– لم أسمع مطلقاً من كلام بهذا الشأن! مطلقاً!

وقطِع الاجتماعُ لتناول وجبة سريعة حلّت محلّ العشاء. وتناول الحديث من بعد جنوب لبنان. فقال قادة الميليشيا لمحدّثيهم إنّهم ينوون تدعيم قوات سعد حدّاد بقسم من رجالهم. لقد وقع تحوّل القوات اللبنانية نحو هذا الموضوع في الوقت المناسب. ذلك أنّ سعد حدّاد مصاب بسرطان سريع الانتشار. والقوات اللبنانية لا تزال تجهل الأمر. فمسألة استبداله أضحت مطروحة. وذلك ما أثلج قلب أوري لوبراني. فتقدّم باقتراح قائلاً:

– لا بأس! ناقشوا التفاصيل مع الجنرال ليڤي وداغان. نحن نريد لقيادة هذه القوة أن تكون مسيحية، لكنّنا لا نريد لها أن تكون مشكّلة من مسيحيين فقط. ولسوف يكون الجيش الإسرائيلي مصدر سلطتها. كما ستكون هنالك وحدات صغيرة في كل قرية ليكون السكان مسؤولين عن حياتهم وعن أمنهم.

بدأ الجيش الإسرائيلي يدرّب عسكرياً قرابة مئة من الشيعة في صفّ الهوا، قرب بنت جبيل في جنوب لبنان. وكان الهدف المعلن تأمين الدفاع عن قراهم. وقد أدان نبيه برّي تشكيل الميليشيا ذاك إدانة عنيفة.

وسأل أدموني قائلاً:

– حين قلتم إنكم تريدون انضمام قواتكم، فهل تقصدون وحداتكم المحلية في الجنوب؟

فقال إيلي حبيقة:

– بودنا تقديم الدعم لحدّاد بحيث يصل عدد قواته إلى ثلاثة آلاف رجل تقريباً. كما نرغب في إنشاء تحالفات جديدة في الجنوب لا سيّما مع كامل الأسعد ومع دروز حاصبيا التابعين لفيصل أرسلان. ونحن بحاجة لمساعدتكم.

فقال أوري لوبراني:

– أعتقد أنّ مبدأكم جيد. فنحن سوف نغادر الجنوب عاجلاً أم آجلاً. لكننا لن نغادره قبل أن تكون هنالك حالة أمنية تلائمنا(1).

فسأل رئيس الموساد:

– هل لديكم كوادر في الجنوب؟ إنّ سعد حدّاد بحاجة لذلك. وجيشه على الأرض الآن بقيادة ضباط إسرائيليين. ولسوف يكون على قواتكم أن تعمل تحت أمرتهم. فهل وضعتم ذلك ضمن اعتباركم؟

فوافق فادي أفرام قائلاً:

– نحن على علم بذلك. إنّ ما نقيم نحن له اعتباراً هو وجود قوة لحماية السكان المسيحيين في الجنوب.

وسأل إيلي حبيقة قائلاً:

– لدينا الآن توجيهات كي يبدأ رجالنا بالانضمام إلى جيش حدّاد. فكم يبلغ عدد قواته حتى الآن؟

– ما يقرب من ألف.

– ونحن نقوم بتأمين الباقي. لدينا الآن ألفا مقاتل في الجنوب إضافة إلى الذين في البقاع.

فسأل أدموني:

– ما هي معلوماتكم المتعلقة بالوجود الفلسطيني في الشوف؟

– هنالك، وفقاً لاستخباراتنا، ما يبلغ ألفين اثنين ما بين بحمدون وعاليه وقبرشمون. أما اليوم فلست أدري. هنالك بضع مئات من مقاتلي أحمد جبريل قد عادوا إلى بيروت. وكان وليد جنبلاط يرغب في استخدامهم لفتح الطريق حتى الساحل. لكنّه لم يقم بذلك لعلمه بأنّكم لن تسمحوا به.

إنّ وليد جنبلاط، المرغم بسبب تراكم الإثباتات على الاعتراف بالوجود الفلسطيني في الجبل، قد أكّد، ويده على قلبه، أنّ ياسر عرفات قد بعث بهم إلى هنالك من غير أن يأخذ رأيه. وعلى الرغم من أنهم تنكّروا تحت مظهر لبنانيين يساريين، فإنّ الدروز قد تعرّفوا عليهم فقاموا

(1) سوف يغادر الإسرائيليون جنوب لبنان في 22 أيار/مايو عام 2000، في ليلة واحدة، تحت ضغط من حزب الله. ولسوف يتبعهم قرابة سبعة آلاف من أفراد الميليشيا مع أفراد عائلاتهم، بعد أن خلّفوا ممتلكاتهم كلّها.

بطردهم . أما الوحيد الذي صدّق، أو تظاهر بتصديق، تلك الرواية الاعتباطية بعض الشيء، فهو الذي جرى توجيه ذلك الكلام إليه، وهو موشيه أرينز. وقد أعرب وزير الدفاع عن «رضاه». والحال أنّ السوريين قد سحبوا الفلسطينيين من الشوف، في اليوم التالي لوقف إطلاق النار، كي ينخرطوا في المعركة ضد عرفات ورجاله في طرابلس.

ما إن وصل زعيم المنظمة الفلسطينية، حتى تولى الإشراف بقوة السلاح على مخيّم البدّاوي، وأعاد فتح مكاتب منظمة فتح كافة التي قامت دمشق بإغلاقها. ورداً على ذلك، أخذت الصحف السورية تنشر في طبعاتها كافة، قوائم بأسماء الضباط وصف الضباط والجنود العاديين من منظمة أبو عمّار الذين التحقوا بالمنشقّين الموالين لسورية. واستهزأ وليد جنبلاط برئيس منظمة التحرير الفلسطينية لأنه عاد إلى لبنان من الباب الضيق على ظهر مركب صغير. علماً بأنّه أسهم في القيادة الفلسطينية اللبنانية مع ياسر عرفات أثناء معركة بيروت في صيف 1982.

حملت لافتة كبيرة غطّت مدخل مخيّم البدّاوي هذا التساؤل: لماذا تُوجَّه التهديدات ضدّ الشعب الفلسطيني من قبل العرب؟ فمنذ وصول «الختيار» ونشاطٌ محمومٌ يدور فيه. فالبلدوزرات تحفر فيه خنادق والجرّافات تخرج كتلاً من التراب، فيما تقوم النساء والأطفال بملء أكياس من الرمل. ويُشهر المراهقون مزهوّين، أسلحة جرى توزيعها حديثاً. أما ليلاً، فتأتي أرتال من الشاحنات قادمة من صوب البحر، لتقوم بإفراغ المؤن. فالبدّاوي يستعد لفترة حصار. أما الفلسطينيون الموالون لـ«ختيار» فيتمركزون بقوة في بساتين الزيتون في جبل تربل المشرف على المخيّم، ويراقبون بالمناظير تجمّع القوات السورية على المرتفعات التي تواجههم. لقد نشرت دمشق لواءين من المدفعية، الأول مدافعه من عيار 130 مم والآخر من راجمات الصواريخ متعددة السبطانات، وكذلك وحدات من القوات الخاصة. ويشكّل المجموع ما يقارب عشرة آلاف رجل وحوالى مئة مدرّعة. وقد قال العقيد الفلسطيني زياد الأطرش: السوريون أمامنا والبحر وراءنا. ولم يعد لدينا من شيء نخسره. فنفضّل أن نقاتل على أن نموت غرقاً، وكان على رأس 600 من المقاتلين الفلسطينيين، قد خرق حصاراً سورياً في البقاع لبلوغ طرابلس.

كان عرفات لا ينِي يوضح للعديد من الصحفيين الأجانب الذين يمرّون في المخيم، أنّ دمشق تريد استتباع منظمة التحرير الفلسطينية .لقد باءت المحاولات كافة للوصول إلى تفاهم مع النظام السوري بالفشل، لأنهم يضعون هدفاً نُصب أعينهم. إنه يقوم على تحويل منظمة التحرير الفلسطينية إلى بيدق فوق رقعة شطرنجهم . وكان لنداءاته أن تلقى أذناً صاغية، على الصعيد الدبلوماسي، لو أنّها جاءت قبل عام مضى. أما اليوم فهي تسقط في هوّة متعاظمة من لامبالاة الزعماء العرب. فليس بين الملك فهد في العربية السعودية، والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، أو الرئيس اليمني علي ناصر محمد من يستجيب لتوسّلاته.

بدأ تشرين الأول/ أكتوبر، ولمّا يتوصّل الملياردير اللبناني السعودي رفيق الحريري إلى فرض مكان لعقد مؤتمر الحوار الوطني. فالعربية السعودية اقترحت جدة، لكنّ دمشق عارضت ذلك. كذلك لم يتمّ العثور على جنسية «المراقبين الحياديين» الذين ينبغي لهم أن يفرضوا الالتزام بوقف إطلاق النار. لقد رفضت دمشق قوة تابعة للأمم المتحدة. إنّ وجود القبعات الزرق سوف يعلن، في نظرها، أنّ النزاع اللبناني ليس حرباً أهلية. يضاف إلى ذلك، كما يُقال في دمشق، إنها سوف تشكّل سابقة خطيرة تمهّد الطريق أمام التدخّل في الشؤون الداخلية للدول. كانت موسكو تدعم ذلك الموقف دعماً حازماً وقد اقترحت أن يوكل ذلك الدور إلى جنود من دول المعسكر الشرقي. لكنّ الولايات المتحدة هي التي رفضت هذه المرّة. ثم «التهبت نيران» حصار دير القمر. فقد أطلق كلّ من صابر وفريدة وعزيزة[1] بضع قذائف على البلدة المحاصرة، باذرة الرعب بين صفوف المحاصرين. أما وأنّ الأمير بندر بن عبد العزيز قد استلم منصبه سفيراً في واشنطن، فقد ظلّ رفيق الحريري وحيداً عاكفاً على الملف اللبناني. فتدخّل لدى وليد جنبلاط للعمل على وقف إطلاق النار. فردّ عليه الزعيم الدرزي منوّهاً بنفاد الصبر بين صفوف قواته.

لم تأسف القوات اللبنانية على شيء قط، مثلما أسفت في بداية تشرين الأول/ أكتوبر 1983، على «إعادة» الحوض الخامس. فمنذ أن قطع عنها الرئيس الموارد، والميليشيا في وضع مالي مأساوي. فسيولتها النقدية لا تسمح لها تحديداً إلّا بدفع رواتب الشهر الجاري. فتوجّه أنطوان بريدي إلى القصر الرئاسي متأبّطاً دفاتر الحسابات، ليذكّر أمين الجميّل بوعوده. أصغى الرئيس إليه بكل أناة، ثم أجابه بأنّه يعاني هو أيضاً، من ناحيته، من بعض المتاعب المالية. وعاد وهو يبتسم فكرّر التزاماته، لكن مع الإشارة إلى أنّ دمج لواء من القوات اللبنانية بالجيش إنما يمثّل أيضاً حلاً لمشكلات الميليشيا. وكانت الصفقة غاية في الوضوح.

وفي المساء ذاته، 3 تشرين الأول/ أكتوبر، عقدت قيادة «القوات»[2] اجتماعاً في مكتب إيلي حبيقة، وهذه المرة بوجود فؤاد أبو ناضر، ابن شقيقة بيار الجميّل. بدأ رئيس جهاز الأمن بإضاح الموقف المتعلّق بوضع الجيش. وإنّ رفع الوحدة التي تتولى الدفاع عن سوق الغرب بات قريب الوقوع. وينبغي للواء الخامس بقيادة العقيد غابريال (غابي) أرصوني أن يحلّ محلّ اللواء الثامن. أما في باقي قطعات الجيش فعمليات الهروب متواصلة، والضباط المسيحيون يخشون حلّ القوات اللبنانية. ويؤكّد إيلي حبيقة أيضاً أنّ ذوي القبعات الزرق من الأميركيين، الذين كانوا مستشارين للعسكريين اللبنانيين، أصبحوا يوجّهون نقداً شديداً حول تنظيم الجيش وحول سياسة الرئيس. فيشيرون علناً ومن دون أي تحفّظ، إلى أنّ أمين الجميّل لا يتوصّل إلى فتح حوار لا مع الشيعة ولا

---

(1) صابر وفريدة وعزيزة، هي الأسماء التي أطلقها المدفعيون الدروز على مدافعهم حول دير القمر.

(2) فادي أفرام، أنطوان نجم، ألفريد ماضي، إيلي حبيقة، روبير ديب، حنا صافتلي، أنطوان بريدي وجان غانم.

مع الدروز، حتى مع التأكيد على أنّ قسماً من المسيحيين يقف ضده. ويقولون إنّ التأييد الوحيد له – والمحدود – هو من جانب السنّة، قبل أن يضيفوا إنّهم سنّة بيروت فقط .

وانتهى حبيقة إلى القول:

– قد يكون من مصلحتنا ضمن هذه الشروط الإعلان عن إنشاء كانتون مسيحي.

فتدخّل أبو ناضر قائلاً:

– إنّي لأعارض هذه الفكرة. فنحن بحاجة، من أجل إنشاء كانتون، لجيش قوي ومهني. زد أنّنا لا نملك المال اللازم. ويستطيع أمين القيام بذلك، لكن لا بدّ من إقناعه. إنّه بحاجة لرجال يخصّونه وحده. لذا علينا أن ندمج ثلاث مئة من شبابنا في الجيش.

فاستأنف إيلي حبيقة قائلاً:

– الحلّ الأمثل أن يدخل ثلاث أو أربع مئة منهم الجيش دفعة واحدة في سبيل تشكيل لواء. وهذا هو الحل الأمثل على الرغم من كل السلبيات التي يمكن أن تنعكس جرّاء ذلك على حماية «عريننا». لكنّ هذا الحل سوف يطرح مشكلة على مستوى النظام والدولة. فمن المستحيل تماماً تشكيل مثل هذه الوحدة دون القيام بمثل ذلك حيال المسلمين. يبقى، من جهة أخيرة، أنّ الأمر الأسوأ هو عدم الاندماج في الجيش حالياً، بل أن نكون مرغمين على ذلك بضغط من أمين أو بيار الجميّل. فسوف يكون من شأن ذلك تنكيس عَلَمنا. ولدى أمين، في واقع الأمر، مشكلتان اثنتان: عقدته النفسية حيال بشير واستحالة قدرته على اتخاذ قرارات من غير الرجوع بشأنها إلى شفيق الوزّان، وإنّ تردده لضعف خطير.

فقال أبو ناضر:

– علينا أن نحدّد موقفنا بسرعة. فهنالك بعض الفساد في وحداتنا. وإذا ما انتهت الحرب لسبب أو لآخر، فإنّ جميع مقاتلينا سيعودون إلى ذويهم وسوف نواجه متاعب في إعادة تجنيدهم مجدداً.

وجرى تكليفه بالاتصال بالرئيس وعرض تحليلات «القوات» عليه.

في اليوم الأول من السنة الهجرية 1404، الموافق 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1983، اتصل أحدهم بفادي أفرام من قبل رفيق الحريري. كان الملياردير راغباً في لقائه ضمن إطار المحادثات التي يجريها مع الأطراف كافة ذات الحضور في النزاع اللبناني. وقد عرض الحريري، الذي كان يمضي أعياد السنة الهجرية الجديدة في قصره الخاص[1] في باريس، أن يأتي زعيم الميليشيا المسيحية للاجتماع به هنالك. فرفض أفرام. وجرى اللقاء بعد فترة قصيرة في منزل جان غانم في الحازمية.

(1) الذي كان مُلكاً لجان إيغيل.

ومنذ البداية أوضح الحريري أنّه يتكلّم باسم العربية السعودية وأنّ من الأهميّة بمكان أن ينجح بالمهمة التي أوكلها إليه الملك فهد. وقد صرّح له الحريري بأنّ الموقف السوري يثير قلقه. كان الحريري يبدو صادقاً في تأكيده على الرغبة في العثور على حلول متوازنة بشأن المسائل المطروحة. فأخبره فادي أفرام برغبته في فكّ ارتباط وحداته المتمركزة فوق تلال إقليم الخروب، التي تشكّل دعائم الشوف، بمحاذاة الساحل إلى الشمال من صيدا. فمنذ شهر والقوات اللبنانية تطالب - من غير طائل- بانتشار الجيش اللبناني على نحو يمكّنها من سحب ميليشياتها. كما طلب إليه أيضاً صعود عناصر من القوة متعددة الجنسيات إلى دير القمر وعناصر من قوى الأمن الداخلي لضمان أمن السكان بدلاً من رجال سمير جعجع الذين يريد إعادتهم إلى بيروت. وأوضح قائد القوات اللبنانية لمحدّثه ضرورة طمأنة المسيحيين في الشوف، وإلّا فسوف يغادرون الجبل الذي سيتحوّل إلى كانتون درزي. وبدا الحريري متجاوباً مع الحجج. فاقترح إجراء اتصال فوري بين «القوات» والشيعة. فطلب أفرام إلى جان غانم تأمين ذلك. وقد اصطحب هذا الأخير رفيق الحريري حتى منزله في بيروت الغربية. وأثناء انتظار وصول عاكف حيدر، الرجل الثاني في حركة أمل، ونائب البقاع محسن دلول[1] اللذين جرى استدعاؤهما أصولاً، أجرى الحريري عدة اتصالات هاتفية. ثم توجّه إلى محاوريه على اختلاف مشاربهم قائلاً:

- سوف يتغير الوضع في إقليم الخروب ودير القمر. فلم أكن أتوقّع مثل هذا التعاون من القوات اللبنانية.

ثم أحاط عاكف حيدر ومحسن دلول علماً برغبته في التوصّل، بأسرع ما يمكن، إلى نشر وحدة من رجال الدرك السنّة من قوى الأمن الداخلي مع وحدة مسيحية من الجيش في إقليم الخروب.

فحاول محسن دلول أن يقول. . .«ولكن». فقاطعه الملياردير السعودي بلهجة قاسية، قائلاً:

- ذلك ما قرّرت! لقد اتفقت مع وليد جنبلاط. سوف ينتشر الجيش حتى نهر الأولي بشرط أن تنسحب القوات اللبنانية. فهل بقي لديك ما تقول، يا سيد دلول؟

- كلا، لكن ينبغي أن تكون قوات الأمن الداخلي فقط، هي التي ستنتشر. . .

فأعلن الحريري قائلاً:

- لا أريد الخوض في التفاصيل. إنّ القوات اللبنانية على استعداد لسحب رجالها من دير القمر، لكنّها لا تريد التخلي عن المدينة. فمن ينبغي له، وفقاً لما ترى يا سيد دلول، أن يحلّ محلّ القوات اللبنانية؟

---

(1) وزير الدفاع في حكومة الحريري عام 1992.

– الدرك وقوى الأمن الداخلي.

فقال له المبعوث السعودي بكل هدوء:

– اسمح لي أن أسألك إن كنت تعتقد حقاً أنّ بوسع قوى الأمن الداخلي أن تحمي دير القمر؟ فأنا نفسي لا أومن بذلك. فكيف تريد للقوات اللبنانية أن تقبل به؟ أنا أرى أنّه ينبغي لوحدة من القوة متعددة الجنسيات أن تنتشر هناك مع قوى الأمن الداخلي. فما رأيك بذلك يا جان؟

– أنا موافق تمام الموافقة.

فألحّ دلول قائلاً:

– أنصحكم أن تأخذوا مسبقاً موافقة وليد جنبلاط كي يكون عناصر القوة متعددة الجنسيات فرنسيين.

– سوف أحدثه بشأن ذلك.

فقال غانم موافقاً:

– ليس لدينا من اعتراض. إنّ بوسع 150 عنصراً من درك قوى الأمن الداخلي مع الفرنسيين أن يتولّوا أمر مداخل دير القمر.

فقال الخريري وهو ينهض:

– لقد اتفقنا. سوف نتمّ إنجاز ذلك بالحديث مع وليد جنبلاط.

بدا جنبلاط متحفّظاً في بداية الأمر. ثم رفض. لقد تدهور مخطط إحلال السلام في إقليم الخروب.

بعد مرور أربعين يوماً على الاستقالة التي كان لها وقع الصاعقة، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي، وهو آخر الوحوش المقدّسة في إسرائيل، يعيش عيشة طالب داخلي ومتقاعد. فهو لا يفتح بابه لغير أفراد أسرته. ومنذ ظهوره الأخير في 30 آب/ أغسطس أمام أعضاء وزارته الذين أعلمهم بأنّ عزمه على الاستقالة لا رجعة فيه، لم يُشاهَد بيغن في مكان عام البتة. وبدت إسرائيل وقد نسيت وجود المعتزل في شارع بلفور. كانت هنالك بعض العوارض المعدنية التي تستخدمها الشرطة مركونة إلى جدار على رصيف مسكنه، وهي تذكّر بالأيام المحمومة يوم كان المعارضون للحرب في لبنان يأتون فيتظاهرون تحت نوافذه. وقد جرت إعادة الشارع للمشاة وتلاميذ معهد الرقص والموسيقى المجاور لمسكن رئيس الوزراء. يبدأ نهار مناحيم بيغن التقليدي بالإصغاء لنشرات الأخبار وقراءة الصحف، وهو يشرب الشاي، شرابه المفضّل. يلي ذلك، بحسب الأيام، توقيع بعض الوثائق الرسمية، ثم تناول غداء من الخضار والفروج المسلوق. ويرد على الهاتف وينام في فترة القيلولة، ويمضي ساعات طويلة في قراءة مؤلفات بالإنكليزية وسيرة حياة رجال دولة. وفي المساء يشاهد التلفزيون في ساعة متأخرة قبل أن يتوجّه للنوم.

في صباح التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1983، اضطرت بورصة الأسعار في تل أبيب لإغلاق أبوابها «لفترة غير محددة» وسط جوّ من الهبوط الحاد. فأسهم البنوك التجارية الإسرائيلية قد انهارت في بضع ساعات بما يعادل ثلث قيمتها. واجتمع مجلس الخزينة[1] ومدراء البنوك الخاصة الكبرى دونما انقطاع منذ عدة أيام. لقد سعوا دونما طائل وراء العثور على ما يحدّ من المبيعات الضخمة للأسهم المصرفية من قبل صغار المالكين. فقد استبدّ القلق بهؤلاء، فباعوا كل ما لديهم ليشتروا دولارات أميركية بأسرع ما يستطيعون كي يتفادوا على ذلك النحو تخفيضاً لقيمة العملة، لكن لا يمكن تفاديه بالرغم من رفضه رسمياً. وفي غضون بضعة أيام، اضطرّت مصارف «اليومي هبواليم وديسكاونت»، التي كانت سياستها في التوظيف تمارس تأثيراً حاسماً على القيَم المسعّرة في البورصة، إلى إعادة شراء أسهمها الخاصة بأكثر من عشرة مليارات شيكل[2]. وقد توجّب عليها في تلك الأثناء أن تغدو مدينة بشكل ضخم ولمدى قصير في الخارج. ولقد جرى حظر عمليات تبديل العملات في كوى المصارف حين تتجاوز المبالغ 500 دولار. كان الجميع بانتظار تخفيض قيمة الشيكل. أما في الوسط السياسي، المشلول منذ عدة أسابيع بسبب الحكومة المستقيلة، فساد الاعتبار بأنّ المسائل الاقتصادية سوف تكون من أولويات الحكومة القادمة. أما لبنان فقد أضحى بعيداً جداً.

تقدّم إسحق شامير في 10 تشرين الأول/ أكتوبر أمام الكنيست بحكومة تشكّلت من وزراء الحكومة المستقيلة كافة. ونال الثقة بنسبة 60 صوتاً مقابل 53. وعادت لإسرائيل سلطتها التنفيذية بعد فراغ دستوري دام 40 يوماً، وهي تعادل فترة حرب من الحروب. ولقد تقرّر انسحاب الجيش الإسرائيلي وتمّ انسحابه أثناء تلك الفترة. وأكّد شامير أمام النواب أنّه لن تكون من تسوية في لبنان من دون وضع اتفاقية 17 أيار/ مايو موضع التطبيق، وأنّه لا يمكن اعتباره مسؤولاً عمّا قد جرى قبل استلامه مهام منصبه. وفي اليوم التالي كشفت الصحافة الإسرائيلية عن «مخطط» في وزارة المالية يرتئي التخلّي عن وحدة الشيكل[3] والدَّوْلَرة التامّة للاقتصاد الإسرائيلي، وصولاً إلى دفع مرتبات الموظفين بالعملة الخضراء التي تحمل صورة جورج واشنطن. وانطلقت صرخة غضب عامة. فجرى إرغام الوزير يورام أريدور، المثبّت توّاً، على الاستقالة. ودخلت الوزارة الجديدة في اجتماع مغلق دخولاً مستعجلاً. وفي الصباح الباكر جرى تخفيض قيمة الشيكل بنسبة 23 بالمئة، فلم تعد الرواتب مرتبطة ارتباطاً مرجعياً بالأسعار، وخُفّضت حتى النصف المساعدات الحكومية حول 12 مادة من

(1) وزارة المالية.

(2) 160 مليون دولار.

(3) وحدة عملة ورد ذكرها في التوراة حين اشترى بها إبرهيم أرضاً في مدينة الخليل ليقيم قبراً له. كذلك فإنّ حمورابي، ملك بابل (1728 -1686 ق م) فرض الشيكل (الشي تعني الحبوب) وسيلة دفع مقبولة، والشيكل يساوي آنذاك 360 حبة قمح، وفقاً لنصّ قانون اكتشف على دعامة حجرية في سوسة (في العراق).

مواد الضرورات الأولية. وأوكلت حقيبة المالية إلى بيغال كوهن-أورغال. ولم يعد لبنان يحتلّ من مكانة تُذكر في عناوين الأنباء المحلية.

عثر ياسر عرفات في حركة التوحيد الإسلامي، على حليفٍ محلّي، له وزنه في طرابلس. فقد أخذت تلك الحركة على دمشق اجتثاثها للإخوان المسلمين، وهي حركة الأصوليين السنّة الذين كانت حماة مركز تجمّعهم، ثم قُضي عليهم بقصف مدفعي في شباط/ فبراير 1981. وقد سقط هنالك وفقاً لبعض المصادر أكثر من عشرة آلاف قتيل. وطبّق الأصوليون في طرابلس المثل العربي القديم «عدوّ عدوّي، صديقي». فأعلنوا عن تأييدهم لعرفات. ولم يكن ذلك مجرّد أقوال. فقد انتقلوا في 12 تشرين الأول/ أكتوبر، إلى التنفيذ حين هاجموا مقرّات الأحزاب اليسارية الحليفة لدمشق. وجرت مطاردة حقيقية «للشيوعيين» في شوارع المدينة. فسقط في يومين 72 قتيلاً وأكثر من 100 جريح. وحينها فتحت المدفعية السورية نيرانها على المدينة.

فرضت اتفاقية وقف إطلاق النار في 25 أيلول/ سپتمبر، عودة جميع المهجّرين اللبنانيين، منذ 1975، إلى منازلهم. وكانت هذه النقطة، بتوافق مشترك، «منسية» نسياناً واعياً من قبل الأطراف كافة أثناء التحضير لمؤتمر الحوار الوطني. كانت تلك العملية، فضلاً عن الوقت الذي تتطلّبه، غير قابلة للتنفيذ، باستثناءات ضئيلة. فالمنازل التي أصيبت أثناء المعارك فهجرها سكانها، في كثير من المناطق، قد جرى تدميرها. وأقيمت في أمكنتها ساحات عامة أو مواقف سيارات أو طرقات. وجرى بيع أراضٍ بيعاً غير مشروع، فأقام عليها مالكوها الجدد مباني أو دارات.

ولئن كان هنالك إجماع على عدم إثارة تلك النقطة، فقد جرى بالمقابل، الافتقار إليها كثيراً، من أجل تحديد مكان لمؤتمر الحوار الوطني. وبعد أن رفضت دمشق جدة، التي قبل بها الأطراف الآخرين جميعهم، وقع اختيارها بغتة على قصر بعبدا. ورُفِض الاقتراح، «لأسباب أمنية»، من قبل جبهة الخلاص الوطني، بقيادة سليمان فرنجية ورشيد كرامي ووليد جنبلاط. وعاود رفيق الحريري حمل عصا الترحال.

أما وقد أستبعدت عن ذلك الحوار - الذي برزت متاعب في وجه العثور على مكان لانعقاده - فإنّ القوات اللبنانية يمّمت وجهها شطر إسرائيل. لجأ فادي أفرام، في سبيل ذلك، إلى صديق قديم في النضال، هو حنا صافتلي. أصل صافتلي من القبيات، وهو فيزيائي من حيث تأهيله، وقد انضوى تحت لواء بشير الجميّل منذ 1975. وبعد أن تبع دورات في المدفعية في ثكنة في صيدا تحت أمرة رائد اسمه ميشال عون، انصرف لبعض الوقت للاهتمام بمستودعات أسلحة الميليشيا. وبعدئذ أوكل إليه بشير الجميّل إدارة العلاقات مع الإسرائيليين. وواصل، على فترات، القيام بتلك المهمة من بعد «العودة للحياة المدنية» في كانون الأول/ ديسمبر 1978.

توجّه أفرام وصافتلي إلى إسرائيل في 12 تشرين الأول/ أكتوبر مساءً. فالتقوا على الفور بمدير الموساد ومعاونيه[1]. فقال لهم بيتر باختصار: لا يسعكم أن تفعلوا شيئاً من غير الأميركيين.

ثم أوضح لهم أنّ السياسة الأميركية في لبنان تُدار وفقاً لمبدأين اثنين: الأول هو الدعم الكلّي لرئاسة أمين الجميّل، أياً تكن آراؤهم حول الرجل، فالأمر عائد باختصار إلى أنّه الرئيس. أما من ناحية أخرى فهنالك معارضتهم العسكرية للسوريين، إذا ما خرق هؤلاء وقف إطلاق النار. وهم لن يستخدموا في هذه الحال قوات برّية، بل قطع المدفعية من على بوارجهم وطيرانهم المحمول لحماية بيروت وكل منطقة أخرى ضرورية للدفاع عن النظام. لكنّ بيتر أوضح أيضاً أنّ الأميركيين ما عادوا يؤمنون بفضائل صيغة 1943، بل يفضّلون عليها تحالفات وتوازنات جديدة على الصعيد الداخلي.

وأوصى زعيم الموساد محدّثيه قائلاً:

– يبقى عليكم أنتم أن تعرفوا كيف تترجمون هذه المبادئ إلى نقاط عملية لمصلحتكم. فينبغي على المسيحيين القيام ببعض التنازلات والتخلّي عن شيء من امتيازاتهم. إنّ الأميركيين سوف يقبلون بكل ما هو مخطط مع رئيسكم. أما من دونه فلا يمكن فعل أي شيء.

فاقترح فادي أفرام قائلاً:

– ينبغي العثور على صيغة جديدة من التعايش بين الطوائف. ولسوف يكون الحل المثالي قيام فيدرالية.

فقال ناحوم أدموني:

– الحل الأمثل هو الذي سيعكس وضعكم. لذا أكرر الدعوة لكم كي تحافظوا على مقاومتكم وعلى قوتكم. وأمين الجميّل اليوم ضعيف وواهن العزيمة. فقد يكون الوضع ملائماً للضغط عليه واقتراح مخطط يؤمّن لكم غطاء شرعياً.

فردّ صافتلي بقنوط:

– ذلك مستحيل! فأنتم لا تعرفون طبعه ومزاجه.

فسأل مناحيم ناڤوت وهو ينظر إلى أفرام:

– ماذا قال لكم؟ وما مخططه؟

– كسب الوقت ليتمكّن من تدعيم الجيش والمقاومة على نحو أفضل.

فاقترح عليهم بيتر قائلاً:

---

(1) ناحوم أدموني ومناحيم ناڤوت (مندي) وتسافريري غيزي وميكي أرمور (ماريون).

– أنا لا أحبه، لكن أعتقد أنه ينبغي عليكم استخدامه والإفادة منه. ولنضع الرئيس جانباً. هل يسعكم، في الظروف الراهنة، تجميع الطائفة المسيحية من حولكم؟

فردّ فادي أفرام مؤكّداً:

– بلى! إذا ما قدّمنا لها أهدافاً محدّدة ونتائج ملموسة وقابلة للتحقيق، من شأنها أن تضع حداً للضغط السوري.

فواصل صافتلي قائلاً:

– المشكلة الرئيسة هي روحها المعنوية. فلا يتراءى للمسيحيين انعدام وجود علاقات بكم فقط، بل يظنون، فضلاً عن ذلك، أنّ السوريين والإسرائيليين متواطئون ضدّهم.

فأضاف أفرام قائلاً:

– إنّهم في حالة من خيبة الأمل فيتساءلون لِمَ نواصل القتال في حين أنّ إسرائيل لم تعد معنا. فبعضهم هاجر، وبعضهم الآخر يدعو إلى فتح مفاوضات مع السوريين، والباقون يدعون إلى المقاومة حتى النهاية.

فذكّرهم رئيس الموساد قائلاً:

– قال لنا بشير ذات يوم إنّ عليه، من الناحية التكتيكية، أن يبدأ التفاوض مع السوريين. وكنا من ناحيتنا موافقين. والسؤال المطروح اليوم هو معرفة إلامَ يسعكم التوصّل معهم؟

فأجاب صافتلي:

– لن نتوصّل إلى شيء.

– إنّ في عقليتهم شيئاً لا يتطابق مع الواقع. فالفلسطينيون هم خارجاً، والجيش الاسرائيلي ليس في الناقورة بل في الأولي، بل إلى الشمال أكثر مع دورياته، والسوريون لم يعودوا في بيروت، و«النيو جرسي» راسية في مياه ساحلكم، فعلى السكان أن يعوا ذلك كله.

فوافق فادي أفرام قائلاً:

– إنّهم يقارنون بالفترة التي أعقبت تدخّلكم. لقد نسوا ما كان يجري قبلها بخمسة أعوام.

فقال بيتر مذكّراً:

– اعلموا أنّا لا نساعدكم إن كنتم ضعفاء. وعليكم اتباع مبدأ نحن نعمل به. لِمَ اللعب وفقاً لمبادىء لعب العدو؟ إذا ما أدى فعلاً في مكان ما فنحن نردّ في مكان آخر. وأنتم لا يسعكم الحصول على أكثر مما تسمح به طاقتكم. فعليكم العثور على وسيلة لتدعيم موقفكم وتوحيدكم. إن كنتم ضعفاء صار عليكم تقديم تنازلات. أليس ذلك عاراً! عليكم أن تضعوا في اعتباركم أن السوريين ليسوا مطلقي الصلاحية. فهنالك «النيوجرسي». ونحن هنا وهنالك السعوديون أيضاً. فهنالك حدود لأفعالهم.

فأكّد مناحيم ناڤوت على كلامه قائلاً:

– من الضروري أحياناً القيام بتنازلات تمهيداً لانطلاقة جديدة. فمن الممكن اللعب على التناقضات. فحاولوا أن تفتحوا ثغرات لدى العدو.

– لمن عسانا نقوم بتنازلات؟ للسوريين؟

– للدروز. إنّ لديهم الكثير من المطالب.

جرى التطرّق أيضاً للدروز في صباح اليوم التالي، لدى اجتماع اللبنانيّين مع أوري لوبراني ومساعده الوفي صاموئيل ديڤون وميثير داغان ومناحيم ناڤوت ومحللين من الموساد وآمان. وقد علم أفرام وصافتلي أنّ الاسرائيليين على تواصل دائم مع سمير جعجع ورئيس بلدية دير القمر، جورج ديب. إنّ المشكلة الرئيسة التي سيواجهها الثلاثون ألفاً من المحتجزين هي اقتراب فصل الشتاء. فالأبواب والنوافذ استُخدِمت خشب وقود وتدفئة اعتقاداً منهم بأنّ الحصار سوف يُرفع سريعاً، وقبل حلول البرد الشديد على أبعد تقدير. ويفكّر الإسرائيليون بتزويدهم بالمازوت وبالمواد ذات الضرورة القصوى. لسوف يمارسون ضغطاً على الدروز لفسح المجال أمام مواكب الصليب الأحمر، التي تُخرج من كل قرية حوالى عشرة مرضى. أما الإدارة المدنية الإسرائيلية للبنان، ونظراً للوضع الاقتصادي، فتطلب إلى «القوات» تأمين التجهيزات كافة، لا سيّما الملابس. إنّ تموين المدينة يطرح مشكلة حيال تشدّد الإدارة في الحزب التقدمي الاشتراكي. فهم عازمون على اقتطاع نصف كمية ما يصل لمصلحة السكان الدروز الذين لديهم احتياجات السكان المسيحيين ذاتها، وفقاً لأقوال وليد جنبلاط[1]. أما من وجهة النظر العسكرية، فإنّ رجال الميليشيا الألف الذين في المكان، قد أصبحوا عملياً من دون ذخائر. وقد باح جورج ديب لمحدّثيه الإسرائيليين، بأنّ ذلك الواقع يجعل إمكانية مقاومتهم محدودة جداً زمنياً.

فقال ميثير داغان ناصحاً أفرام وصافتلي:

– عليكم إيصال الذخائر لهم بأية وسيلة كانت، لأنّ عليكم الاستعداد للقتال. ومن ناحية أخرى فإنّ وليد جنبلاط مستاء جداً بسبب حملتكم حول دير القمر. فإنْ يعلنْ أنّ الطريق مفتوحة وآمنة فيخرج بعض السكان فيصلوا سالمين، فإنّ الآخرين جميعاً سوف يتبعونهم ولن يظلّ في المدينة سوى العسكريين. إنّ بعض من هم في محيطه لا يحلمون إلّا بنسخة جديدة عن عام 1860[2]. ولسوف نقوم بكل ما نستطيع حيال الدروز كي لا يهاجموا.

فسألهم صافتلي:

– وما حال القرى المسيحية الأخرى في الشوف؟

---

(1) حديث وليد جنبلاط لآلان مينارغ، في تشرين الأول/ أكتوبر 1983.

(2) جرت مذابح لأهل دير القمر على أيدي الدروز وقد أرسلت فرنسا حينذاك جنوداً من المغاربة إحلالاً للأمن.

– تلك هي مشكلتكم أنتم، وليست مشكلتنا. فعليكم أنتم إقناع المسيحيين بالرجوع إليها.
فسأل أفرام قائلاً:
– هل يمكن الإلحاح ليصار إلى تزويد دير القمر بالماء والكهرباء؟
فجاء تشخيص داغان كالتالي:
– لقد فجّر الدروز تمديدات المياه قرب بيت الدين. ووعد توفيق بركات بإصلاحها. أما الكهرباء فهم يعملون على إعادتها، لكن ببطء شديد. فلنقل إنّ الماء والكهرباء تظلان مشكلة. ونظراً لذلك فأنا لا أعتقد بأنّ وقف إطلاق النار سوف يستمر. عليكم أن تستعدوا لمعارك جديدة في الأسبوعين القادمين.
– هل لديكم اقتراحات تقدمونها لنا، من شأنها أن تؤدي إلى تقارب مع الدروز. سوف أقوم بنقلها للرئيس، من غير أن أشير إلى مصدرها.
– بالتأكيد! هنالك تلبية مطالبهم العشرين.
فقال حنا صافتلي:
– يؤكّد داغان أنّ هنالك أمكانية للحوار حول تلك المطالب العشرين. لكن لو حصل الدروز على نصف ما يريدون فقط، فإنّ الشيعة سوف يطلبون مثلها، وهكذا دواليك. ليس هنالك ما يكفي من الإمكانات لتلبية رغبات الطوائف الأربع. فعلينا العثور على حلٍ آخر.
كانت وزارة الخارجية الإسرائيلية، بخلاف ميئير داغان، أقلّ تأكيداً على استئناف القتال في لبنان.
ولقد قال ديفيد كيمحي، حين استقبل المسؤولـيّن في القوات اللبنانية، بعد الظهر:
– لم يعد الدروز متعطّشين لشيء، فلقد نالوا ما كانوا يريدون. فالفلسطينيون يعانون متاعب كثيرة في طرابلس. وليس لدى كرامي من ميليشيا ليقاتل الجيش في سوق الغرب. وبرّي لن يرسل برجاله إلى هنالك. كذلك سيفكّر السوريون كثيراً قبل إرسال جيشهم الخاص إلى قلب النار. لكن بوسع دمشق، من غير اللجوء لقوة السلاح، أن تضع يدها على لبنان. وسوف يشكّل ذلك خطراً على إسرائيل.
فسأل أفرام قائلاً:
– هل هو خطر مادي أم سياسي؟
– الاثنان معاً. فهنالك الكثير من الإمكانات والبدائل. لقد اجتمعت مع أمين الجميّل مرات عديدة في هذه الأوقات الأخيرة، وقلت له إنّه يرتكب خطأ بعقد آماله كلّها على الولايات المتحدة الأميركية.
لقد أصاب ذلك الكلام اللبنانيّين بالذهول. فالرئيس، على الرغم من تكرار شجبه ورفضه اللقاء بالإسرائيليين، يواصل التحدّث إليهم.

وواصل ديفيد كيمحي قائلاً:

– ذكّرته بأنّ الأميركيين ليسوا من المنطقة، في حين أنّ إسرائيل باقية هنا. فالأميركيون يقولون له اليوم، ما كنا توقعنا من قبل، ألا وهو أنّ الحكومة اللبنانية لا يسعها أن تكون من لون سياسي واحد. فينبغي لكرامي ولاتجاهات أخرى أن تكون ممثّلة فيها. كذلك قمت بتذكير ماكفرلين بأنّ هؤلاء، على الرغم من أنهم لبنانيون، فهم قبل كل شيء عملاء سوريون. لكنّ الأميركيين يريدون المضي سريعاً. وهم تحت الضغط بسبب الانتخابات. إنّهم يريدون الحدّ من فترة بقاء رجال المارينز، حتى لو كان ذلك على حساب المسيحيين. وهم يسعون للتوصّل إلى اتفاق مع دمشق. فشرطهم الوحيد هو استبعاد السوفييت.

فتدخل أفرام قائلاً:

– ذلك هو أساس الخلاف بيننا وبين أمين. ولدينا من ناحية أخرى الانطباع الواضح بأنّكم تفضّلون الدروز على المسيحيين.

– إنّ علاقتنا بالدروز علاقة ظرفية، أما مع المسيحيين فالمسألة مسألة تحالف.

فقال حنا ساخراً وهو ينظر إلى رفيقه:

– عليك، يا فادي أن تكون مسروراً جداً ومطمئناً لما سمعت.

ثم استدار صوب كيمحي وواصل القول بلهجة عدائية:

– كيف تنظرون، ضمن سياق علاقتكم الاستراتيجية معنا والتكتيكية مع الدروز، إلى وضع القرى المسيحية في الشوف وسكانها الذين طُرِدوا منها؟ لقد عدنا لسوء الحظ إلى وضع عام 1976 وينبغي وجود حلول أخرى غير تدخّل الجيش الإسرائيلي.

لقد قررت «القوات»، وقد فقدت كل أمل علّقته على الدولة العبريّة، تسريع انتقال السلطة في الجنوب إلى جيش لبنان الجنوبي، وإلى الجيش اللبناني في «الشمال»، أي في القطاع المسيحي. ولقد قبل أمين الجميّل وحزب الكتائب بشيء من الاندفاع بنقل المخزون العسكري إلى ميليشيا سعد حدّاد. وفضّل الرئيس هذا الحل على نقل المخزون إلى كسروان، لأنّه، حسب تقديره، سوف يتسبّب له بالمتاعب في تاريخ الاستحقاق. وبقيت مسألة الاندماج في الجيش. لقد خفف فؤاد أبو ناضر من لهجته بعض الشيء أثناء لقاءاته بحبيب فارس، وهو الرجل الذي كلّفه أمين الجميّل بذلك الملف. فقد تراءى له بادىء ذي بدء أنّ «الأنصار» لن يكونوا على الدرجة ذاتها من التسلّح كالوحدات النظامية. كما اقترح عليه فارس «توظيف بعض العناصر» في الشرطة البلدية وفي ما يطلقون عليه، على الورق، اسم «قوات الطوارئ» لكنّها لمّا ترَ النور. وأخيراً طلب حبيب فارس، بشأن الاندماج في الجيش، أن يتمّ بصورة فردية، واعداً بعملية تجميع لاحقاً. إنّ عضو الميليشيا الحائز على إجازة جامعية، يمكن أن يطمح لأن يصير ضابطاً بعد دورة تأهيل. أما حامل الشهادة

الثانوية، فسوف تنفتح أمامه أبواب الكلية العسكرية. والذي يحمل الشهادة الإعدادية يشارك في دورة ضابط صف. فالمسألة ليست إذن عملية إدماج تأخذ بالاعتبار القيمة العسكرية الحقيقية لأفراد الميليشيا الذين جرى تأهيل بعضهم في إسرائيل، ولا الخبرة العسكرية التي تمتدّ عند بعضهم على سنوات عديدة. بل إنّ بعض الشباب، حتى من يحظى منهم بوساطة استثنائية، لا يأملون في التوصّل إلى أكثر من رتبة قائد سرية، أي نقيب، في نهاية ولاية أمين الجميّل. إنّها سوية غير كافية على الإطلاق لتحظى بهامش من المناورة الضرورية التي تسعى الميليشيا وراءها في هذه العملية الهادفة إلى تشكيل نواة للجيش المسيحي في حال جرى تفكك المنظومة العسكرية.

وعلّق أنطوان نجم على ذلك قائلاً:

- سوف تؤول هذه الفكرة إلى نهاية المسيحيين في لبنان. ولئن كان الرئيس يطمح إلى إنشاء سلطة مسيحية في لبنان على غرار السلطة العلوية في سورية، فهو واهم. فلا المسلمون سيسمحون له بذلك ولا الأميركيون. إنّما نحن نمضي قدُماً نحو زوالنا. ولسوف يكون أمين أول الخاسرين لأنّنا لن نقوى على مناصرته ما لم نكن مندمجين في جسم الجيش. لكن بوسعنا بالمقابل القيام بذلك، إذا ما كنّا كياناً مستقلاً وقوياً، لكنّه لا يريد ذلك. ولن يكون الجيش اللبناني جيشاً مسيحياً أبداً.

ظلّ الحوار الوطني يصطدم على الدوام بعقبة مكان اللقاء. فكان نفاد صبر الفرقاء المعارضين للسلطة يترجَمُ بهبّات متفرّقة من العنف «على الجبهات» وضدّ وحدات القوة متعددة الجنسيات، لا سيّما ضدّ الأميركيين. فكانت مواقعهم حول المطار تتعرّض يومياً لرشقات بأسلحة رشاشة أو قذائف هاون. وفي 16 تشرين الأول/ أكتوبر، قُتِل اثنان من المارينز وجرح ستة. أما بعد ذلك بثلاثة أيام فقد كان رتل من ثلاث سيارات جيب وشاحنة هدفاً لاعتداء بسيارة مفخخة غير بعيد عن السفارة الكويتية. وقد أصيب ثلاثة أميركيين بجراح خطيرة. وكانت دمشق تطالب على الدوام بالرحيل الفوري للقوة متعددة الجنسيات، لا سيّما الأميركيين الذين يمثّلون، وفقاً لتعليق الإذاعة السورية، «خطراً» على لبنان و«تهديداً» له.

ومع ذلك، ففي مطلع تشرين الأول/ أكتوبر، ومن غير أن تكون العلاقات بين البلدين مثال صداقة يُحتذى، فقد وُصِفت بجوٍ من الصحو الثابت. فالتصريحات الأميركية المتعلقة بالدور الذي «يمكن أن تؤديه» سورية في لبنان، والزيارات المتكررة لروبرت ماكفرلين إلى دمشق، أضحت ملحوظة جداً. وراجت من حينها شائعة قوية حول تعديل السياسة الأميركية حيال لبنان. واعتبر المراقبون أنّ المشيئة الأميركية بترك سورية «تؤدي دوراً» قد جرت ترجمتها عبر حرية العمل التي مارستها دمشق في تنظيم الحوار الوطني. فقد قبلت واشنطن بمساهمة سورية في تعيين الفرقاء لذلك الحوار. كذلك قبلت الولايات المتحدة، على الرغم من إلحاق الضرر باللبنانيين، بأن تكون دمشق ممثلة مراقباً في المؤتمر. وكانت الولايات المتحدة تأمل على ذلك النحو بتحجيم دور سورية.

لقد أثبت السوريون، أثناء محادثاتهم مع ماكفرلين، كم عدد الأوراق الرابحة التي يمسكون بها، ليس في لبنان فقط، وإنّما في المنطقة بمجموعها. فقد ذكّروهم بأنّهم أنقصوا إلى حدٍ كبير تصدير النفط العراقي بإغلاق خط الأنابيب التي كانت تنقله إلى ميناء طرطوس السوري. فيسعهم على ذلك النحو التأثير على مجرى الحرب العراقية الإيرانية. كذلك عملوا على فشل المفاوضات بين الأردن وياسر عرفات حول إسهامهما المشترك في مفاوضات محتملة مع إسرائيل، ناسفين في الوقت ذاته مخطط ريغان للسلام في الشرق الأوسط. وقد عملوا على تحييد منظمة التحرير الفلسطينية في البقاع، وكان بوسعهم شلّ حركة ياسر عرفات بل أن يُستبدل به زعماء فلسطينيون آخرون يقفون إلى صفّهم. ومن جهة أخرى، يطالب السوريون بالمساهمة مساهمة أكبر في العملية التي من شأنها إحلال السلام في لبنان والمنطقة. فهم يريدون تولّي مسؤولية أكبر في حل المشكلة الفلسطينية التي تسعى سورية لتضمن لنفسها الإشراف عليها.

لقد بدا أنّ الأميركيين قد قبلوا بالفكرة القائلة إنّه ينبغي لسورية أن تحظى بمكاسب سياسية واقتصادية في لبنان قبل أن تسحب قواتها. كما بدا أنّهم قبلوا بأن تكون لسورية كلمتها في إعداد صيغة لبنان الغد. بيد أنّ واشنطن وضعت بعض الشروط : وضع حد للنفوذ السوفييتي في سورية وإيقاف تزويد موسكو لدمشق بأسلحة متطورة، من نمط صواريخ إس. إس21 (SS21)، التي يسمح مداها بضرب قلب إسرائيل. وكانت تلك الإمدادات ترغم الولايات المتحدة على أن تزوّد بدورها إسرائيل بأسلحة أكثر فأكثر قوّة كي تضمن الإبقاء على التفوق العسكري للدولة العبريّة. كذلك كانت الولايات المتحدة تسعى للحصول على وعد بترحيل ما يقرب من خمسة آلاف خبير سوفييتي يقيمون في سورية.

بيد أنّ ذلك الحوار بين العاصمتين تدهور حين رفضت دمشق صداقة الولايات المتحدة، لأنها لم تشأ أن يكون ثمنها تغييراً جذرياً في سياستها حيال الاتحاد السوفييتي. ومنذ ذلك الحين بدأت حرب كلامية حقيقية بين البلدين.

فما كان يمرّ من يوم دون أن يبادر الناطق باسم البيت الأبيض أو وزارة الخارجية إلى توجيه نقد حاد لموقف دمشق. وذلك كلّه من غير أن يوجّه مسؤول سوري واحد نقداً للولايات المتحدة. وفي 19 تشرين الأول/ أكتوبر، أكّد رونالد ريغان، أثناء مؤتمر صحفي، أنّ الولايات المتحدة لن تدع سورية تدمّر لبنان أبداً. وقبل ذلك بساعات قليلة، توجّه جون هيوز، الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية، بدعوة حازمة لسورية لتحترم تعهّداتها «بشأن حوار سياسي في لبنان». فجاء ردّ حافظ الأسد على الأميركيين في صيغة تشهير عنيف متّهماً واشنطن بأنّها تريد إخضاع سورية سياسياً وعسكرياً. وتتطلّع الولايات المتحدة للجوء إلى عمل عسكري لأنها لا تتوصّل إلى إخضاعها سياسياً. فلتعلم بأنّه لا العمل السياسي ولا العسكري يمكن له أن يجعلنا نذعن. وما من حوار يمكن أن يقوم

على حسابنا . وأنهى كلامه قائلاً إنّ سورية لا تستبعد أن يغدو القتال أشد قسوة بسبب الوجود العدواني للولايات المتحدة وعملائها والمتعاونين معها.

وفي اليوم التالي انفجرت عبوة ناسفة من صنع محلي بشاحنة تابعة للجيش الفرنسي في جادة فؤاد شهاب. فأحاط المكتب الثاني للجيش اللبناني المارينز علماً بوجود مخاطر كبرى لوقوع اعتداء بعربات مفخخة.

جرى اتفاق على عقد مؤتمر الحوار في جنيف. فجرى اتصال سريع بالدولة السويسرية للبدء بالاستعدادات. فردّ السويسريون قائلين : يسعدنا أن نستقبلكم، لكن بعد الأول من تشرين الثاني / نوفمبر. فمنذ شهور وليس من غرفة فارغة في أي فندق على دائرة قطرها 100 كم، بسبب معرض «تيليكوم 83» الدولي. وعلى الرغم من أنّ اللبنانيين في عجلة من أمرهم، فقد قبلوا. فما كان من جوني عبدو، المعيّن حديثاً سفيراً للبنان في سويسرا، سوى الالتحاق بمقرّ عمله على جناح السرعة. وجرت اتصالات بين أجهزة الأمن اللبنانية والأميركية من جهة وبين زميلتها السويسرية من جهة أخرى. فاختار رفيق الحريري، عرّاب الحوار، القاعة في الطابق الثامن عشر من فندق كونتِننتال، التي تنفتح نوافذها الكبرى على بحيرة ليمان. ووجّه أمين الجميّل الدعوات.

حطّت الحوّامة الأميركية الضخمة، فوق الصليب الأبيض المرسوم وسط الدائرة تحديداً، مثيرة زوبعة من الغبار. كان مطار الحوّامات محاطاً بجدار من أكياس الرمل، وكانت هنالك محارس محميّة بالطريقة ذاتها، تمتد أبعد فأبعد، فلا تبرز منها سوى سبطانات الأسلحة الرشاشة. كان مركز التشكيل العسكري الأميركي في مطار بيروت، يتخذ مظهره الحقيقي، معسكراً منعزلاً، يوم 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1983. فالعناصر كافة يضعون الخُوَذ الثقيلة ويرتدون السترات الواقية. وتحدّ خنادق وملاجىء الدروب كافة المعلّمة بحجارة بيضاء لطلائها بالكلس. اقتربت بسرعة سيارة ليموزين مصفّحة لتتوقف قرب الباب الجانبي للحوّامة. فهبط السفير الأميركي الجديد، ريجينالد برتولوميو، الدرجات الثلاث للطوّافة سريعاً، فصافح المدنيين الاثنين اللذين جاءا لاستقباله واندسّ في الليموزين التي انطلقت على الفور. أما الرقيب غريغوري غاغنر والعريف راندي بارفوت والعسكري البحار مانويل برنال، فقد استُقبلوا من ناحيتهم بالضحك والتربيت على الظهر من قبل فريق من جنود المشاة الذي ظلّ متنحياً لدى نزول السفير. فالرجال الثلاثة يشكلون وحدهم أعضاء فرقة الـ«ميغاباند» (Megaband) القادمون خصّيصاً من الولايات المتحدة للترفيه عن الوحدة الأميركية بإقامة حفلات موسيقية وعزف موسيقى أميركية، وكان مقرراً أن تقام الحفلة الأولى في المساء ذاته في «الهيلتون».

الهيلتون هو اللقب الذي أطلقه الجنود على المبنى المستطيل المؤلف من أربعة طوابق، والواقع عند حدود ملحقات المطار. لقد كان في الأصل مقرّ الإدارة العامة للطيران المدني اللبناني،

ثم تحوّل ليصير المقرّ العام لقيادة المارينز. كانت قاعتان فسيحتان جداً للرياضة تحتلان عملياً الطابق الأرضي كله. فأقيمت منصّة عند الحد الفاصل بينهما من أجل الحفل الموسيقي مساء. أما الطابقان الأول والثاني فيتألّفان من غرف نوم صغيرة لأفراد المِلاك العابرين، ومن هنا اتخذ المبنى لقبه. أما الطابقان الثالث والرابع فيضمّان مكاتب وقاعات اجتماعات ومخزناً للتموين ومستوصفاً ومركز اتصالات من أحدث طراز يتيح الاتصال بالمواقع الأميركية كافة على الأرض، وكذلك مع وحدات الأسطول السادس الراسية في مياه بيروت. أمّا الطابق الأخير ففيه أيضاً منظومة للكشف بأشعّة الليزر من أحدث طراز بحيث تجعل منه المركز العصبي للبنية العسكرية الأميركية كلها في لبنان. وكان يتّصل بأطباق هوائيات مركّزة على السطح، ومحمية بأكياس من الرمل. وتُمَكّن تلك التجهيزات من الكشف عن مصادر النيران التي ترمي المواقع الأميركية وتحديد هويتها.

شكّلت حفلة «الميغاباند» الموسيقية انتصاراً بالنسبة إلى الظروف التي أقيمت فيها. فقد حضرها ما يقرب من خمس مئة متفرّج، بينهم بحّارة قدموا خصّيصاً بالحوّامات من على ظهر البوارج الراسية في عرض الساحل.

وفي حدود الثانية صباحاً أخذ الموسيقيون ينسّقون آلاتهم ورجال المارينز يلتحقون بوحداتهم، باستثناء القادمين من أمكنة بعيدة فعثروا على سرير هنا أو على فرشة في المكان.

في الساعة السادسة خرجت شاحنة من نوع مرسيدس صفراء اللون ذات حمولة الطنّين ونصف من ضاحية برج البراجنة فسلكت الطريق المؤدية إلى المطار. سارت بمحاذاة الجدار الذي يعلوه شبك حديدي فيفصل مقرّ القيادة العامة الأميركية عن الجادة فتوجّهت لتنعطف أمام المرأب الجوّي. كان السائق، أبو مازن، وعمره 26 عاماً، مناضلاً شيعياً أصولياً من الموالين لإيران. وعلت البسمة شفتيه وهو يُسرع لينعطف بغتة صوب اليمين نحو باب سور المطار. وينتصب «الهيلتون» أمامه، على بعد خمسين متراً تقريباً. كان جندي الحراسة في مركز الحرس، يقبض بيده، وفقاً للتعليمات، على بندقيته الرشاشة (M16)، منزوعة المخزن. فهو موضوع فوق طاولة خلفه. وما إن رأى الشاحنة منطلقة في اتجاهه، حتى استدار ليأخذ المخزن، لكن بعد فوات الأوان، فالشاحنة قد تجاوزته. فخرج من وراء أكياس الرمل وهو يجأر بالصراخ ويشير بإصبعه إلى الشاحنة. ولم يستطع أفراد الحرس الآخرون أن يفعلوا شيئاً. فالأسلحة التي في أيديهم منزوعة المخازن لأسباب التوقّي. جرى كل شيء بسرعة فائقة. ففي أقل من سبع ثوانٍ، قامت المرسيدس الصفراء بانعطافين اثنين، فولجت بهو مقرّ القيادة العام، فخرقت الباب الزجاجي وانفجرت.

وكما في فيلم سينمائي يدور دوراناً بطيئاً، رأى رجال الحرس، المبنى الخالي من الأساس، وهو ينطوي على نفسه وسط انفجار هائل، قبل أن ينغمر بكتلة هائلة وكثيفة من التراب الرمادي والدخان الأبيض الذي ارتفع في لولبة حلزونية سريعة نحو السماء.

كان العريف روبير غيّمِتّ يتولّى الحراسة على سطح مركز «دراكار Drakkar» في منطقة الجناح. إنّه من أصل لبناني - واسمه في الأساس روبير حدّاد - وقد حمل الجنسية الفرنسية حين تبنّته، وهو في التاسعة من عمره، عائلة غيّمِتّ من شيربورغ حيث ظلّ يعيش من ذلك الحين. وقد انخرط في الجيش، فجرى تعيينه في الكتيبة السادسة من سلاح مشاة المظليين. ووصل مع كتيبته إلى لبنان عشية وقف إطلاق النار في 25 أيلول/ سپتمبر. وحين شاهد تصاعد كتلة الدخان والغبار الشبيهة بالفطر، أيقظ الرقيب الأول جيرار بلانشيه الذي كان راقداً فوق بساط إسفنجي في زاوية من السطح. فطلب بلانشيه من غيّمِتّ أن ينذر رجال الحرس الجالسين عند أسفل المبنى.

أما وقد استدارا صوب المطار، فإنّهما لم يشاهدا خلفهما الشاحنة الصغيرة الحمراء المحمّلة بالخضار وهي تتقدّم صوب المبنى. وما إن وصلت إلى أمام الممرّ المتعرّج عند مدخل المبنى، حتى قام سائقها أبو سجعان، هو مناضل شيعي أصولي موالٍ لإيران، في الرابعة والعشرين من عمره، بالانعطاف بغتة صوب اليمين. وأخذ الحارس على حين غرّة، فلم يتح له سوى الوقت ليوجّه سلاحه صوب العربة التي رآها تنزلق على منحدر المرأب المؤدّي إلى أسفل المبنى وتنفجر.

توجّه غيّمِتّ صوب الحاجز ليُنذر رجال الحرس الذين كانوا في الأسفل على عمق تسعة طوابق. فأُلقي به أرضاً. وغار المبنى على مهل نحو الأرض وسط طرطقة من التكسير. ثم توقفت الحركة مثل بدئها، على النحو المباغت ذاته. وتحقق الرجلان وقد غطاهما الغبار، من أنّهما على الأرض. لقد مرّت ثلاث دقائق ما بين الاعتداءين الاثنين.

كان العريف جيمس هاينز، وعمره 22 سنة، محاصراً تحت كتلة من الاسمنت على بضعة أمتار من مقرّ القيادة العام. وهو أول من جرى إنقاذه.

فسأل وفي فمه عجينة من تراب الإسمنت قائلاً: ماذا جرى؟

كان الكاهن الذي بدأ العمل مع رجال الإنقاذ عاجزاً عن الكلام، فأمسك به من كتفيه وأداره صوب المبنى. كان منظر مقرّ القيادة العام أشبه بقبر هائل تنفذ منه قضبان حديدية. ولقد تهاوت الطوابق، بعضها فوق بعضها الآخر.

أوقف المظلّيان الفرنسيان، المكلّفان بسخرة شراء خبز «الكرواسان» ليوم الأحد، سيارة الجيب عند التقاطع الذي يسبق مدخل مركزهما. وفغر كل منهما فاه. لقد توارى «الدراكار Drakkar» توارياً تاماً. تكوّم البناء على ذاته ومال إلى جانبه مثل قصر من الكرتون. لقد كان يرقد داخل المبنى، حين خرجا قبل نصف ساعة، ما يقرب من ستين مظلياً وعائلة محي الدين حموي، السنّية اللبنانية، المؤلفة من أب وأم تؤدي بعض الأعمال المنزلية لمصلحة الكتيبة وأولادهما الثلاثة صغار السن.

بلغت حصيلة الاعتداءين الاثنين إلى 282 قتيلاً و95 جريحاً ومفقودَين اثنين في الجانب الأميركي، وإلى مصرع 56 مظلياً فرنسياً وأربعة مدنيين لبنانيين.

كان المبنيان قد شغلهما، على التوالي، كل من الجيش السوري من قوة الردع العربية، ثم جهاز الاستخبارات العسكري التابع لدمشق، ثم احتلتهما بعد حزيران/ يونيو 1982 وحدات إسرائيلية فقامت بتفتيشهما قبل أن تستقر فيهما. والواضح تماماً أنّ الاعتداءين قد جرى إعدادهما بدقة متناهية. فالأمكنة كانت معروفة كلّياً من قبل الذين قاموا بإعداد شحنات المتفجّرات الضرورية. فتحديد الأمكنة وعمليات المراقبة تقتضي استعدادات لمدة أسبوعين على الأقل في هذا النوع من العمليات. وتعرّف الخبراء بسرعة على نوعية المتفجّرات المستخدمة، فهي من الهيكسوجين الذي تبلغ قوته ثلاث مرات ونصف قوة الـ تي. إن. تي. وقد استخدمت كمية 100كغ ضد المقرّ الأميركي و200 كغ ضد المقرّ الفرنسي. وأكّدت أجهزة الاستخبارات الأميركية أنّ قرابة عشرين من الشيعة اللبنانيين الموالين لإيران أو من الإيرانيين، قد تدرّبوا على أيدي أجهزة الاستخبارات السورية للقيام بعمليات ضد الوحدات الأميركية والفرنسية. وبعد مرور أربع وعشرين ساعة، وردت اتصالات هاتفية على وكالات صحفية تتبنى مسؤولية العملين من قبل «حركة الثورة الإسلامية الحرة»، وهي منظمة مجهولة حتى ذلك الحين، وتعلن عن استشهاد اثنين من مجاهديها بينما كانا يقومان بالهجوم على مقرّ الأمّتين الإمبرياليتين الأميركية والفرنسية في بيروت.

إنّ الفريق الشيعي المنشق عن حركة أمل، أي أمل الإسلامية المتمركزة في بعلبك والتي بقيادة حسين الموسوي، هي التي جرت الإشارة إليها من قبل الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية ومن قبل نبيه برّي نفسه. لكنّ الموسوي أنكر على الفور أي مشاركة لعناصره، على الرغم من قيامه بتوجيه التحية انحناء أمام أولئك الاستشهاديين، أيّاً كانوا. فهم الآن في حمى القادر الجبار وملائكته، حسب قوله. فليسرع الغربيون إذن بالعودة من حيث أتوا. فذلك خير لهم من مواصلة توجيه التهديد والكلام بلغة الذئاب. فنحن تلاميذ الخميني وموسى الصدر ولسنا نخشى أحداً.

أكّد الدكتور ديفيد ميناشيري، من قسم الدراسات الإرهابية، التابع لمعهد الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب، أنّ الدلائل كلّها تشير إلى أنّ منفّذَي الاعتداءين كانا حقاً من الشيعة، المجنّدين من قبل سورية أو إيران، اللتين قدّمت استخباراتهما لهما الدعم اللوجستي. وقد أشار أيضاً إلى أنّ التعليم الديني الشيعي وحده يحمّس المرء ويشجّعه إلى حدّ التضحية بحياته، وأنّ الرجال يقبلون بتحويل أنفسهم إلى قنابل حية على ظهر مركبات ملئت بالمتفجّرات. وأورد مثالاً عن حال المقاتلين الإيرانيين الذين ينطلقون نحو موت مؤكّد في الحرب مع العراق، ومظاهر التهنئة والتكريم التي يغدقها آيات الله على ذوي الضحايا. وقال الدكتور ميناشيري إنّ مثل تلك العملية لا يقوى على القيام بها سوى رجال جرى تحضيرهم مسبقاً في عملية طويلة من الإعداد الديني والنفسي، يقوم به رؤساء روحيون من ذوي التأثير العميق واللدنية الكبيرة. كما ينبغي من جهة أخرى إعداد هذه العمليات على صعيد المخططات الاستخباراتية والتنظيمية واللوجستية بعناية قصوى.

فتحويل شاحنة إلى قنبلة متحرّكة ليس في متناول أي فريق إرهابي صغير. ومن الخطأ الفادح الاعتقاد بأن تلك الشاحنات تنفجر لدى اصطدامها بالمبنى، لأنها تكون في تلك الحال عرضة لخطر الانفجار لدى أقل صدمة، وحتى قبل أن تبلغ هدفها. فلا بدّ من الاعتقاد بأنّ أجهزة التفجير إما أن تكون بفعل التحكّم عن بعد أو أنها انفجرت حين بلغت العربات هدفها، أو قام السائق نفسه بتشغيلها. وفي ذلك دليل على إعداد أخلاقي ونفسي متقدّم جداً.

عند فجر اليوم التالي، وصل فرانسوا ميتران إلى مطار بيروت الدولي ليمضي 12 ساعة في العاصمة اللبنانية. وبعد أن انحنى أمام جثامين مظلّيي «الدراكار»، استقبل أمين الجميّل في قصر الصنوبر. فطمأنه إلى تأييده مؤكّداً أنّ فرنسا سوف تظلّ وفية لتاريخها وسوف تبقى في بيروت. وفي 26 تشرين الأول/ أكتوبر قام جورج بوش (الأب)، نائب الرئيس الأميركي (ريغان) بزيارة مماثلة ليؤكّد مجدداً العزيمة الأميركية على المساهمة في المصالحة الوطنية.

وفي الوقت ذاته كان جورج شولتز يعترف، في لقاء له مع عدد من الصحفيين، بأنّ سورية قد عدّلت من موقفها حيال لبنان. إنّ الانسحاب الإسرائيلي إلى جنوب نهر الأوّلي قد جرى تأويله من قبل السوريين إشارة ضعف فشجّعهم على التصلّب في موقفهم. ولقد كان ذلك الانسحاب الإسرائيلي مصدراً لعدد كبير من المصاعب.

20

لبنان العربي؟

كانت السماء تمطر في 29 تشرين الأول/ أكتوبر حين هبطت الطائرة الرئاسية في مطار جنيف كوانترين. فالسماء الرمادية وثماني درجات للحرارة، دليل على أنّنا في الخريف. بدأ أمين الجميّل زيارة رسمية سوف تتواصل بمؤتمر الحوار الوطني. واستقبله في المساء ذاته، پيار أوبير، رئيس الاتحاد السويسري. لم يكن لدى الرجلين ما يقول أحدهما للآخر، سوى أنّ الثاني يقدّم للأول الإطار الحيادي للقاء.

اتسمت تلك الزيارة ببرنامجها الزمني الواسع جداً مما سيسمح للرئيس اللبناني بالإعداد لمؤتمره بشكل جيّد. وحدّد الكلّ موعداً له على ضفاف بحيرة ليمان. فالمعنيون بالأمر مباشرة هم اللبنانيون، وأصدقاؤهم أو حلفاؤهم السوريون والسعوديون والأميركيون والإسرائيليون والبريطانيون والفرنسيون والإيطاليون والسوفييت والمصريون - مما أضفى على المؤتمر طابعاً دولياً لا ريب فيه. وهنالك أيضاً من جاء بصفته الشخصية من أقرباء ومعارف بل وسائحين لبنانيين مقيمين في الخارج منذ زمن طويل. لقد قاموا بالانتقال من أجل «رؤية أمراء الحرب»، أو رغبة فقط في «حضور حدث تاريخي».

أما الوفود الرسمية أو شبه الرسمية، فمنها من كان يتخذ له مقعداً، ومنها من كان يتمشّى في الأروقة، أو يستقبل فيتحدّث تكتّماً أحياناً في أمكنة خفيّة. كان الوفد الأميركي برئاسة مبعوث رونالد ريغان الخاص إلى الشرق الأوسط، ريتشارد فيربانكس. أما الوفد الإسرائيلي فيرئسه، رسمياً، إسحق ليور، «السفير» الإسرائيلي السابق في لبنان، وقد صار مدير قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية. أما في الكواليس، فكان يتمشّى كل من ديڤيد كيمحي وميكي أرمور (ماريون) من الموساد. كانا يمضيان وقتهما في تجاذب اطراف الحديث مع أعضاء وفود الدول الأربع التي تشكّل القوة متعددة الجنسيات.

وهنالك، أيضاً، الذين يتمتعون ببعض الأهمية أو الذين يظنّون أنّهم كذلك، فيرغبون في

إظهار أنفسهم أو في أداء دور ما. لقد كان هؤلاء في حالة من التقلّب أو الدوران المتواصل، فيعرضون أفكاراً ويناقشون مخططات ويشهدون على مواقف، ويبرهنون على سعة معارفهم فيعيدون صياغة التاريخ، ويقنعون جيرانهم ويتساهلون في المناقشات ويؤدون أدوار المبعوثين أو الوسطاء، بل حتى الصحفيين.

لم يُخفِ السوريون وحلفاؤهم عزمهم على إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة وإسرائيل وأمين الجميّل، فليس لبحث ذلك من مجال. زد أنّ دمشق قد وضعت شرطاً حتى قبل افتتاح المؤتمر: لا مجال لأحاديث ثنائية بين مختلف الفرقاء اللبنانيين. فسورية تريد مراقبة الحوار اللبناني بكامله. ووجّهت تل أبيب إنذاراً: في حال جرى إلغاء الاتفاق، فإنّ بوسع إسرائيل أن تضمّ جنوب لبنان، أمراً واقعاً، فتوقف حركة السيارات على خط دفاعها فوق جسر الأولي. ومن شأن ذلك الإجراء عزل الجنوب عزلاً عملياً عن باقي أنحاء البلاد.

عُقِدّ المؤتمر في فندق الإنتركونتيننتال، وهو كتلة إسمنتية بيضاء تشرف على البحيرة. وجرى اتخاذ إجراءات أمنية استثنائية. فالحيّ أُحيط بحاجز لا انقطاع فيه، والشارع الموازي للمبنى أُغلق في وجه حركة السير. ووضعت أجهزة مراقبة مزوّدة بمرايا تسمح بالكشف عن أسفل السيارات النادرة التي تدخل حرم الفندق. وهنالك رجال شرطة، بملابس زرقاء، يمسك بعضهم بكلاب من سلاسلها، يعسكرون في أبهاء الفندق. كانت الأسلحة ممنوعة منعاً باتاً في الطابق الثامن عشر حيث تُعقَد الاجتماعات، وكان قسم منه مخصصاً للرئيس الجميّل. وكان على المشاركين لدى دخولهم الفندق أو خروجهم من المصاعد، العبور تحت أجهزة كشف المعادن كما في المطارات.

في 31 تشرين الأول/ أكتوبر طُرِحت مشكلة شكل المائدة. فالمعارضة ترفض الجلوس على مائدة «السلطة». فجرت تسويتها بوضع طاولات مختلفة لكل وفد، منسَّقة على شكل قوس حول تلك التي يجلس إليها أمين الجميّل. أما في مواجهته، فيجلس المراقبان المدعوّان، عبد الحليم خدام ومحمد إبرهيم مسعود، معاون وزير الخارجية السعودي. وجلس عن يسار الرئيس، جنباً إلى جنب، كل من سليمان فرنجية ورشيد كرامي ونبيه برّي ووليد جنبلاط. وجلس عن يمينه، إلى طاولتين منفصلتين، كل من كميل شمعون وبيار الجميّل ثم صائب سلام وعادل عسيران.

بدأت جلسة الافتتاح في الساعة الخامسة والنصف مساء في جو جليدي. فقد حرص رؤساء الوفود أشدّ الحرص على تفادي تبادل التحية وتبادل الكلام وحتى تبادل النظرات. دام الاجتماع الشكلي تماماً أقلّ من نصف ساعة. وقد جرى تخصيصه أساساً لكلمة ترحيب من رئيس الاتحاد السويسري ثم لخطاب دام 14 دقيقة لأمين الجميّل كان موضوعه «لا غالب ولا مغلوب». وساعة همّ الرئيس اللبناني بالكلام، وضع وليد جنبلاط أمامه، جهاراً، علماً صغيراً للحزب التقدّمي الاشتراكي، ثم مضى بنظره نحو الجانب الآخر من البحيرة، حيث سطوح المدينة تلمع تحت

المطر، عبر الفتحة الزجاجية الكبيرة. أما عبد الحليم خدام فلم يرفع نظره عن طاولته طوال فترة إلقاء الرئيس لكلمته.

إنّ تسوية الأزمة اللبنانية تمرّ بالضرورة عبر حوار بين بيروت ودمشق، وإنّ جوّ ذلك الاجتماع الأوّل ليظهِر مصاعبها على أقل تقدير. وبدا من الضلال، في نظر كثيرين، أن تنقطع الجسور الرسمية بين هاتين العاصمتين، في حين أنّ الولايات المتحدة، تحافظ على اتصالاتها، على الرغم من خلافها المكشوف مع السوريين. زد أنّ روبرت ماكفرلين كان يتوجّه إلى سورية نيابة عن اللبنانيين عملياً، ليترافع بشأن ملفّاتهم ويدافع عن وجهات نظرهم. وقد التقى عبد الحليم خدام، أثناء إقامته في الأمم المتحدة، بجورج شولتز ومسؤولين أميركيين آخرين، دون أن يفكّر في التحادث مع زميله اللبناني إيلي سالم الذي كان في نيويورك في الوقت ذاته. وإنّ مصلحة لبنان العليا، بعيداً عن كل اعتبار للكرامة الذاتية، لتقتضي التخفيف من الخلاف مع دمشق، لا سيّما وأنّ كل صدام صغير، وهو ثانوي في الغالب، يأتي إلزامياً ليزيد من حدّة التوتر. وهكذا فقد وجّه إيلي سالم، بمناسبة زواج ابن خدام، برقية إلى زميله تتضمّن التهاني والتمنيات. لكنّ الوزير السوري لم يُشِرْ إلى تلقي البرقية أساساً، وقد جرى في بيروت تفسير ذلك «الافتقار إلى اللباقة»، على أنّه دليل متعمّد على العداء السياسي.

أعطت سورية للبنانيين، مع مطلع شهر آب، «وصفة» فتح الحوار معها: إلغاء اتفاقية 17 أيار/مايو وحلّ الميليشيات. وإنّ لبنان، حسب تقديرها، «لمّا يكن متفهّماً» للقيام بذلك.

كانت مسألة الاتفاقية تطرح مشكلات جادة. فلبنان وقّع ذلك النص مع إسرائيل، لكنّه وقّعه أيضاً مع الولايات المتحدة. فكل إعادة نظر وكل تعديل، وكل تنديد، تتطلّب بالضرورة مشاورات مع واشنطن ومع تل أبيب. والحال أنّ إسرائيل والولايات المتحدة قد أكّدا معاً تمسّكهما بتلك الاتفاقية، أمّا إلغاؤها فإنه لا يتطلّب القيام بمساع لدى الأميركيين لإقناعهم فقط، بل الطلب إليهم أيضاً التوسّط لدى الإسرائيليين. وإنّ إدانة أحادية الجانب سوف تستجر إغلاق الجسور على نهر الأولي، كأمر واقع، والانسحاب الإسرائيلي من الجنوب على نحو ما أعلنوا، وإنّه لا أمل أمام تلك الخطوات في بلوغ الهدف.

كان الرعب بادياً بوضوح في عيني الرجل العجوز، وهو ينزل من الباص راسماً إشارة الصليب. كانت صورته وبيان تعريف بشخصه مثبتين بدبوس تحت ياقة معطفه الأسود المتّسخ.

قال له عنصر الميليشيا الدرزي، وهو مشدود داخل بزّته المموّهة، يحمل بندقية الكلاشنيكوف في يده، وشارة الشرطة العسكرية للحزب التقدمي الاشتراكي تطوّق ذراعه:

– استعجل، يا جدي!

إنّه يقوم بتوجيه اللاجئين من دير القمر نحو «مكتب المراقبة»، وهو مرأب فندق قيد البناء، إلى جوار «قلعة موسى»، وهي نسخة طبق الأصل لإحدى قلاع العصور الوسطى.

كان الرجل معروق الوجه أجوف الخدين وقد غطّتهما لحية وخطها الشيب، فاتجه بخطى وئيدة نحو طاولة جلس وراءها رجلان، يدقّقان النظر في أوراق مبعثرة أمامهما. لقد استبدّ به الخوف فكان يرد ردوداً قصيرة على سيل من الأسئلة. ثم خضع لتفتيش جسدي دقيق. وكان رجل أوروبي يرتدي قميصاً أبيض، تدلّ لكنته على أنّه سويسري، ويحمل بيده جهاز إرسال واستقبال، يراقب المشهد من غير أن يتدخّل.

في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر، غادر المدينة المحاصرة 210 من اللاجئين المسيحيين، تتراوح أعمارهم بين السبعين والثمانين، بموجب اتفاق بين الصليب الأحمر الدولي ووليد جنبلاط. وكان يصحبهم عدد من النساء الحوامل وأطفال تقلّ أعمارهم عن ثماني سنوات. لقد أوقف عناصر الميليشيا الدروز، على بعد كيلومترين من دير القمر، الباصات الخمسة وسيارة الإسعاف التي جاءت لاصطحابهم. فقد سُمِح لباصٍ واحد بأن يدخل المدينة فصار يقطع الطريق جيئة وذهاباً. وكان المغادرون يتجمّعون في الميدان، أمام مئات من المتسكّعين والفضوليين الذين يحسدونهم، فيتقدّمون متوجّهين صوب الباص، بعد النداء عليهم واحداً فواحداً، بأسمائهم، وتحت المراقبة المشدّدة من عناصر سمير جعجع. فيلوّح أحدهم بيده للذين كانوا أقلّ حظاً، أو قد تسيل دمعة فتمسح آلياً، ثم يجلسون بصمت ليلصقوا وجوههم بالزجاج الأغبش. إنّهم يلقون نظرة فيها من الفزع أكثر من الفرح، نحو ما كان ملجأ لهم وسجناً؛ وهم يعلمون أنّ عناصر الميليشيا الدروز الذين يحاصرونهم سوف يفتشونهم، فيشعرون بالخوف وقد انعقد في بطونهم.

وفيما يرجع الباص ليأتي بدفعة جديدة من اللاجئين، كان العناصر الدروز يتولّون التحقيق في الهويات بدقّة متناهية ثم يقومون بتفتيش كامل للحوائج الهزيلة، قبل أن يسمحوا لهم بالصعود إلى واحد من الباصات الأربعة التي تقف تنتظرهم في مكان أبعد قليلاً. دامت العملية عدة ساعات. ثم سلكت الباصات طريق جزين ثم صيدا وأخيراً بيروت التي وصلوها عند العصر.

دامت جلسة صباح الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر في جنيف، ساعتين. فبعد المناقشات التقليدية حول تسجيل المداخلات وتثبيت جدول الأعمال، تبادل المشاركون نعوت الموالين لإسرائيل والموالين لسورية التي لم تؤدّ قط إلى تقدّم المحادثات. ورغب عبد الحليم خدام في الكلام مرّتين. فكان يتصدّى له كل مرّة كميل شمعون ثم بيار الجميّل بالقول:

- ليس لك في ذلك من حق، فأنت هنا بصفة مراقب.

جرى لقاء، لدى انتهاء الاجتماع، بين أمين الجميّل وعبد الحليم خدام لمدة ساعتين، بحثاً عن وسيلة لتهدئة التوتّر والدخول في المناقشات دخولاً جاداً. ودارت جلسة بعد الظهر حول «هوية لبنان العربية». وطلب الرئيس الحفاظ على سرّية المناقشات منعاً لتأجيج العواطف. لكنّ المشاركين اندفعوا، لدى خروجهم، صوب الصحفيين لإحاطتهم علماً بما قالوا وبما ينوون أن يقولوا، وأحياناً بما لم يقولوا البتة.

وفي صباح اليوم التالي، ذكّر أمين الجميّل بالوقائع، في ما يتعلّق باتفاقية 17 أيار/ مايو، وأوضح أنّ ذلك النص ليس هدفاً قائماً بذاته، بل وسيلة للحصول على الانسحاب الإسرائيلي من لبنان. وإنّ دمشق، بمعارضتها للاتفاقية إنّما تبقي عملياً على الاحتلال. وطلب عبد الحليم خدام الكلام. فتصدّى له كميل شمعون، مثلما فعل بالأمس، صارخاً:

- لا أريدك أن تتكلم! أنت هنا بصفة مراقب!

لكنّ عبد الحليم خدام الذي آثر الصمت بعد الملاحظة في الجلسة السابقة، ابتسم وقال له بصوت هادئ:

- عليّ أن أذكّرك بأنّي لست مجرّد مراقب، بل أنا طرف من الأطراف المعنية أيضاً.

ونظر أمين الجميّل إليه من غير ردّ. لكنّ شمعون ألحّ قائلاً:

- فلنتفاهم بوضوح: هل أنت مراقب أم طرف معني؟

وأضاف بيار الجميّل:

- إن شئت أن تتكلّم، فعليك أن تدوّن اسمك مثلنا، مشاركاً في الحوار وطرفاً معنياً.

فردّ الوزير السوري قائلاً، والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- ها أنت تتكلّم عن الوحدة العربية الآن، يا شيخ بيار...

فقاطعه زعيم الكتائب قائلاً بجفاء:

- فلنكفّ عن المزاح، يا سيد خدام، وعن أن يهزأ بعض منا بالآخر. فالمشكلات كلها نشأت بسببكم أنتم، لا بسبب أحد آخر.

وتجاوز خدام ذلك فأوضح أنّ معارضة سورية للاتفاقية ناجمة عن واقع أنّ الاتفاقية ذاتها هي سبب الوجود الإسرائيلي في لبنان، وليس رفضها من قبل سورية.

أما بالعودة إلى هوية لبنان، وبعد مناقشة اتسمت بالحيوية، فقد أقر المشاركون بالإجماع قراراً اقترحه كميل شمعون:

إنّ لبنان سيد مستقل، موحّد بشعبه فوق أرضه، ضمن حدوده المحددة بالدستور اللبناني والمعترف بها دولياً. وهو عربي بانتمائه، وعضو مؤسّس وفاعل في الجامعة العربية وملتزم بقراراتها كافة.

كانت المرّة الأولى التي تعترف فيها سوريا بلبنان، طوال تاريخها، اعترافاً ضمنياً، لدى قبولها بذلك النص.

لم يعقد الاجتماع الكامل بعد الظهر بسبب... أحد أجهزة الكشف عن المعادن. فلدى وصول الرئيس السابق سليمان فرنجية أمام الجهاز عند مدخل الفندق، تردّد قليلاً ثم عاد أدراجه. فما انفكّت قداحته ومفاتيحه وطقم أسنانه المتضمّن كمية من الرصاص، تثير جرس الإنذار لمرآت

عديدة، منذ بدء المؤتمر، مما يستدعي تفتيشه بدقة من قبل رجال الأمن السويسريين. وقد أثار ذلك سخطه فرفع «القضية» في جلسة علنية، مؤكّداً أنه لن يقبل من بعد بذلك النوع من الامتهان لدى قدومه كل مرّة. وقام سفير لبنان، جوني عبدو، بإجراء مشاورات على مدى ساعة مع المسؤول الأمني من أجل إعفاء الرئيس فرنجية من الخضوع للكاشف.

فأجابه الضابط السويسري قائلاً:

– لئن لم تكن التجهيزات المركّبة موضع احترام من الجميع، فما عليّ أنا ورجالي سوى الانصراف.

لقد كان الضابط مغتاظاً من الإنذارات المتكررة بوجود قنبلة موضوعة في المبنى مما يرغمه على القيام بتفتيش عام للمبنى المكوّن من تسعة عشر طابقاً عدة مرات في اليوم.

ولقد رفض رشيد كرامي ووليد جنبلاط ونبيه برّي الحضور من دون فرنجية. فجرى إرسال صائب سلام على جناح السرعة إلى الرئيس الأسبق الذي وافق على الحضور. ولم يجرؤ الحرس السويسري على توقيف الرجلين. لكنّ الأوان قد فات بالنسبة إلى عقد الجلسة التي جرى تأجيلها حتى الغد.

واصل الإسرائيليون التصرّف على الأرض كأنّ اجتماع جنيف لا وجود له، أو لن يخلُص إلى نتيجة، على الأقل. فالتقى مسؤولون من جهاز ياكال ببعثة من القيادة العامة للجيش اللبناني لتحديد المعايير من أجل تشكيل جيش لبنان الجنوبي، بقصد تحويله في المستقبل إلى لواء محلّي. فدعوا القوات اللبنانية لتأتي فتستكشف معهم الملفّ ذاته. وجرى كالعادة اجتماع تحضيري بين وفد القوات[1] والموساد[2] في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر في فندق كارلتون بنتا في تل أبيب. وتلته في اليوم الثاني جلسة عمل مع الياكال، وممثلين عن جهازي آمان والموساد[3] في دار الضيافة التابعة لهذا الجهاز الأخير. كان اللبنانيون راغبين في أن يعرفوا إلى أي حدّ يستطيع جيش لبنان الجنوبي تجنيد مسيحيين غير لبنانيين مثل السريان والكلدان، اللاجئين في لبنان منذ سنين عديدة، ولمّا يستطيعوا قط أن يتجنّسوا. كانت «القوات» تريد توطينهم في جنوب لبنان لزيادة عدد المسيحيين في تلك المنطقة.

فقبل ميثير داغان بذلك قائلاً:

– أنا موافق على ذلك شخصياً، بشرط أن يأتوا مع عائلاتهم. لكن عليّ الرجوع بشأن ذلك إلى رؤسائي قبل أن أعطيكم جواباً نهائياً.

---

(1) كان مؤلفاً من إيلي حبيقة وحنا صافتلي ونازار ناجاريان ووليد فارس.

(2) مؤلف من مندي وعضوين من قسم لبنان زاغا وموسى.

(3) ميثير داغان وروفن إيرليخ وزياما ديفون ويوحاف غولان وميخا (محلل من الموساد، في قسم الأبحاث) ومناحيم ناڤوت (مندي) وسيمون يغال.

وقال مناحيم نافوت لإيلي حبيقة:

- كم سيكون عددهم؟

- بين عشرة وخمسة عشر ألفاً.

وظلّت تلك الفكرة دون تتمّة.

أنشأ الإسرائيليون خمسة ألوية تحت راية جيش لبنان الجنوبي. ثلاثة ألوية منها للمشاة ولواء مدفعية إضافة إلى لواء مدرّع، إلّا أنّها لم تكن مكتملة من ناحية الرجال. فالبنية التحتية - ثكنات وتجهيزات وعتاد - جاهزة، لكن هنالك نقص كبير في عدد الرجال. فلم يستطيعوا تجميع أكثر من 1200 رجل. وهؤلاء لا يمثلون أكثر من أربعين بالمئة من القوام الحقيقي لخمسة ألوية. كذلك كانوا يفتقرون للكوادر. كان سبعون بالمئة من ذلك الجيش من المسيحيين وعشرون بالمئة من الشيعة وعشرة بالمئة مناصفة من الدروز والسنّة. وهو تقسيم طائفي مثالي في نظر الإسرائيليين، إذ ينبغي لوحدات المدفعية والمدرّعات أن تكون من المسيحيين بنسب 95 بالمئة، لأنّ تجهيزاتها هامة وباهظة الثمن وفقاً لقول داغان. وأغفل القول إنّ عليه أن يكون «واثقاً» من تلك الوحدات الثقيلة التي تكون قوة نيرانها حاسمة في نزاع شبيه بالنمط اللبناني.

جرى الإيضاح في ملحقات اتفاقية 17 أيار/ مايو، بشأن وضع جيش لبنان الجنوبي تحت إمرة القيادة اللبنانية، أنّ بيروت سوف تقبل بتلك القوة على نحو ما قام الإسرائيليون بإنشائها. ولئن لم يكن ذلك ضمن جدول الأعمال في الوقت الحاضر، فقد حرص الإسرائيليون على احترام صيغتها نصاً وروحاً.

في الساعة الخامسة من صباح 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، حوّل قصف مدفعي معسكر نهر البارد والبدّاوي المعزولين إلى جحيم حقيقي. فقذائف الدبابات والمدفعية الثقيلة، والصواريخ ذات المدى البعيد، ومقذوفات «أرغن ستالين»، انهمرت بمعدل 70 قذيفة في الدقيقة. وفي الوقت ذاته قام لواء حطين، الموالي لدمشق، وهو بقيادة اللواء الفلسطيني طارق الخضرا، مدعّماً بكتيبة مدفعية سورية وكتيبة مدفعية ليبية، بحملة هجوم واسع باتجاه جبل تربل، وهو تلة استراتيجية على ارتفاع 700متر تشرف على السهل الساحلي، وتسيطر على المعسكرين والطرق المؤدية إليهما. وتعرّضت إذاعة «صوت فلسطين» لإصابة مباشرة فتوقفت عن البث في حدود الساعة الثامنة. وأصابت قذائف من العيار الثقيل ثلاثة خزانات في مصفاة نفط طرابلس، فحوّلتها إلى مشاعل عملاقة شوهد الدخان الأسود المتصاعد منها على مسافة تزيد على مئة كم. وأكّد أبو إياد، الرجل الثاني في حركة فتح، من الجزائر، وهو يسعى لاستنفار العالم العربي، قائلاً: إنّ ما عجز شارون عن القيام به في بيروت، يقوم به السوريون والليبيون الآن في طرابلس.

لقد أقضّ الإعلان الذي تداولته الإذاعات كافة، عن أنّ «البنان عربي»، مضاجع القوات

اللبنانية. فهذا التعريف يتخذ بالنسبة إليهم أبعاد الكارثة التي يمكن أن تمثل، في أوانها، «حكماً بالإعدام السياسي على المسيحيين». وما إن حصل فادي أفرام على الصيغة الصحيحة للنصّ المعتمد في جنيف، حتى طلب من الموساد الانضمام إلى اللبنانيين الأربعة في تل أبيب. فكان لهم في مساء 3 تشرين الثاني/ نوفمبر اجتماع مع الرئيس المساعد لجهاز الموساد، الجنرال ديفيد إيفري ومع داغان ومندي[1] في دار الضيافة التابعة للموساد.

قال أفرام:

– كنّا حتى الآن مقيّدي الأيدي بالرئيس وبالكتائب. أما الآن، فقد انتهى ذلك! لن نعارضه، لكننا سنغدو مستقلين. فاليوم يقولون إنّ لبنان عربي، أما غداً فسوف يؤكّدون أنه إسلامي!

فسأله أوري لوبراني:

– هل يعني ذلك أنّكم سوف تنفصلون عن الكتائب؟ إنّه قرار عظيم الشأن! ونحن لدينا أصدقاء بين صفوف القوات اللبنانية، لكن لدينا أصدقاء أيضاً من الكتائب.

– نحن عازمون بشكل خاص على تجميد قرارات جنيف. فنحن لا نقيم وزناً إلّا لمصالح المسيحيين. ولن يكون هنالك حزب جديد في لبنان، لكن سيكون لنا رأينا السياسي المستقل عن رأي الكتائب أو الرئيس.

– لِمَ تقولون إنّها المرّة الأولى التي يقال فيها إنّ لبنان عربي. فهو عضو في الجامعة العربية!

فصحح أفرام قائلاً:

– لبنان، وفقاً لميثاق 1943، «ذو وجه عربي». فالمسلمون يسعون إلى تمتين النزعة العربية فيه. وسوف تكون للقرار المتخذ في جنيف، انعكاسات على التربية وعلى الإعلام. . .

فقال ديفيد إيفري ملاحظاً:

– سوف ندفع نحن وإياكم ثمن كل اتفاق يُعقد في جنيف. وما لم يحصل اتفاق في جنيف، فسوف تُستأنف المعارك. فهل أنتم على استعداد لذلك؟ إنّ رئيسكم يُهمِّشكم.

فقال القائد العام للقوات اللبنانية مؤكّداً:

– إنّا لنعي ذلك. فقد بدأ منذ عام بعملية ترمي إلى حلّنا. ولسوف نعارض كل إجراء يمسّ المقاومة المسيحية. ستكون معارضة مكشوفة. وأضرب لكم مثالاً:

– إذا ما طلبوا إلينا تسليم دباباتنا أو بيعها للجيش، فسوف نرفض.

فسأل إيفري:

– وهل ستقاتلون في سبيل ذلك؟

---

(1) كان يحضر الاجتماع أيضاً الجنرالان ديفيد إيفري وعامير دروري والعقيد يوحاف غولان، وهو ضابط اتصال في الموساد للشؤون العسكرية، وغيزي تسافريري وموشيه وباتريك، والثلاثة من قسم لبنان في الموساد.

فردّ حبيقة قائلاً:

– لن يقاتلنا الرئيس بكل تأكيد، فهو لا يملك الوسائل.

– وما قاعدتكم الشعبية؟ هل الشعب يساندكم ضد الكتائب، على سبيل المثال؟

فبدأ قائد جهاز الأمن بالتعداد:

– بلى! سكان مناطق جونيه وكسروان وجبيل والأشرفية.

فقال لوبراني:

– إنه لأمر رائع!

فسأل ميثير داغان:

– وما عساكم تفعلون، أنتم والجيش، ضدّ السوريين والفلسطينيين والدروز؟

– سوف ندافع بادىء ذي بدء عن مناطقنا.

ثم تحوّل الحديث نحو جنوب لبنان. كانت الموساد تعرف أنها لن تستطيع «التعامل» مع هذه المنطقة ما لم تكن القوات اللبنانية فيها بهذه الصفة. كان جيش لبنان الجنوبي مجالاً مقصوراً حصراً على آمان، أي على الاستخبارات العسكرية. وهذه المنافسةُ بين الجهازين ورغبةُ كل منهما في الدفاع عن حيّز عمله، دفعا بمناحيم ناڤوت لأن «يقترح» على قادة القوات اللبنانية الحصول على المراتبية العسكرية من لوبراني، أي «المعاملة ذاتها» كما الشيعة. فقد جرى السماح لهؤلاء بإنشاء وجود سياسي لحركة أمل وبتطويره. فيرى الإسرائيليون في ذلك إمكانية التصدي لتوطين الأصولية الإيرانية من جهة، ويجدون من ناحية أخرى محاورين من تلك الطائفة. وعليه فقد طلبت القوات اللبنانية بأن تتمكّن من فتح مقرّات سياسية لها، إثر الانتهاء من تفكيك بنيتها التحتية العسكرية. وقد ذكرت تحديداً، بناء على نصائح الموساد أيضاً، أن يكون وجودها، الخارج عن وجود حزب الكتائب، مستنداً إلى شبكة من الأنظمة الاجتماعية القائمة منذ زمن طويل.

قال الجنرال إيڤري:

– كل طائفة حرّة في أن تكون لها نشاطاتها السياسية أو الاجتماعية. لكن لا يسعنا السماح بأن يتعارض ذلك مع متطلّباتنا العسكرية أو الأمنية. فلن يكون هنالك، على سبيل المثال، رجال حرس مسلّحون في المقرّات.

فقال لوبراني:

– لن تكون لتلك المظاهر السياسية، حسبما أرى، تبعات سلبية. إنّ مكتباً أو مقراً إنّما سيعني أنّ القوات اللبنانية لها وجودها على الدوام، وذلك يتعارض مع مبدئنا الذي يفرض عدم وجود قوى أخرى سوى الجيش الإسرائيلي أو جيش سعد حدّاد.

فقال أفرام:

– ليست تلك بقوّات عسكرية، بل هو مكتب سياسي.

فسعى لوبراني إلى تجنّب الإجابة، فقال:

– لا تحاولوا العثور على الأجوبة عن أسئلتكم كافة، هذا المساء. فأنتم تجدون مشكلات حيث لا وجود لها! ولسوف نرى، في غضون ثلاثة أسابيع أو أربعة، ما يمكن فعله.

فقال صافتلي ملحّاً:

– سوف نغادر الجنوب عسكرياً، وذلك يعني بالنسبة إلى المسيحيين انتهاء العلاقات بين إسرائيل والقوات اللبنانية. أما الإبقاء على مكتب سياسي باسم «القوات»، فسوف يثبت عكس ذلك.

فقال إيڤري:

– يمكنكم القيام بذلك بشرط ألاّ يُستَخدَم غطاءً لنشاط عسكري.

فقال صافتلي:

– لن يكون هنالك من نشاط عسكري! فنحن واضحون في هذا الشأن.

فقال القائد المساعد لرئيس أركان الجيش الإسرائيلي:

– ينبغي للمسؤول عن هذا المكتب أن يكون من الجنوب. ويسعكم أيضاً إرسال ممثلين من الشمال. فقوموا باختيار مقرّ.

كان أوري لوبراني متجهّم الوجه. أما وجه مندي فعليه علائم رضى مكتوم.

كانت جنيف أيضاً مسرحاً لـ «حملة هجومية»، لكنّ تلك ذات طبيعة دبلوماسية، لا سابقة لها. فلهجة المناقشات بشأن اتفاقية 17 أيار/ مايو لم توافق الأميركيين تماماً. لكنّ «الإلغائيين» كانوا كتلة متراصّة. ولقد أمضى ريتشارد فيربانكس الأمسية كلها وقسماً كبيراً من ليلة الثالث فالرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ببذل جهود محمومة لإقناعهم بعدم القيام بشيء من ذلك. فالتقى هو ومساعدوه بوليد جنبلاط ونبيه برّي. وتناولوا العشاء مع روبير فرنجية وألفريد ماضي، المتعاون في المناسبة مع پيار الجميّل. وكانت لهم أحاديث طويلة مع سليمان فرنجية، فأوضحوا له أنّ اتفاقية 17 أيار/ مايو أضحت مجمّدة، وبالتالي قد عفا عليها الزمن عملياً، فليس بالتالي ما يدعو لإلغائها. كذلك كانت حال ديڤيد كيمحي، أثناء لقاءاته السرّية أو أحاديثه الهاتفية حيث يذكّر بردات الفعل التي لا بدّ أن تصدر عن الدولة العبريّة.

إنّها الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر. لقد بدأ المقرّ الإسرائيلي العام لجنوب لبنان، الواقع عند المدخل الجنوبي لمدينة صور، يستيقظ. يقع البناءان المتجاوران اللذان يتشكّل منهما، على طريق قانا، ويؤدّيان، إضافة إلى كتيبة حماية، إلى مقرّ القيادة العسكرية العامة للمنطقة، آمان، ومستودع أسلحة وذخائر، وكذلك إلى سجن – فيه 35 مدنياً لبنانياً جرى توقيفهم في اليوم السابق. شاهد رجال الحرس المتلفّعون بستراتهم العسكرية برداً، من برج

مراقبتهم، شاحنةً من طراز شفروليه تسرع بغتة باتجاه المدخل. ففتحوا النار عليها من غير التوصّل لإيقافها. وبعد أن اصطدمت بالحاجز فحطّمته، واصلت التقدّم بشكل متعرّج، لتنهي سيرها عند أحد المبنيين فتنفجر. انهار المبنى الصغير على ذاته، أما الآخر فتهاوى حتى منتصفه. وجرى على الفور قطع الطرق المؤدّية إلى مقرّ القيادة العامة. كما فُرِضَ حظر التجوال على أهالي صور. وأُغلِقت نقطة العبور على نهر الأولي في وجه كل تحرّك لوسائط النقل كما للمشاة. وفيما كانت وحدات الجيش الإسرائيلي تتولّى عمليات التمشيط، استخرج رجال الإنقاذ من بين الأنقاض 30 جريحاً، خمسة منهم مصأبون بجراح خطيرة، إضافة إلى 29 جثة لعسكرين إسرائيليين و10 قتلى وثلاثة جرحى بين المعتقلين اللبنانيين. فتوجّه موشيه أرينز إلى المكان وقال: **سوف نضرب بالمقابل مرتكبي هذا الاعتداء، وبكل قوة.** بعد ذلك بساعات، تبنّت منظمة الجهاد الإسلامي المسؤولية في مكالمة هاتفية إلى مكتب وكالة الصحافة الفرنسية في بيروت. وقال الناطق المجهول باسم الحركة، بالعربية وبلهجة لبنانية: **نحن على استعداد لإرسال ألفين من مقاتلينا إلى الموت في سبيل إخراج الصهاينة من بلادنا.** أثار ذلك الهجوم، الذي ذكّر بالهجومين الاثنين يوم 23 تشرين الأول/ أكتوبر ضد موقعي القيادة الأميركية والفرنسية في بيروت، انفعالاً كبيراً جداً في إسرائيل. فما من عمل عسكري واحد أوقع ذلك العدد من القتلى الإسرائيليين دفعة واحدة منذ بداية الحرب. فقامت عند الظهر قاذفات من طراز «كفير»، تحمل النجمة الإسرائيلية، باثنين وعشرين هجوماً على مواقع فلسطينية موالية لسورية ما بين عاليه وصوفر، فدمّرت 18 دبابة من طراز ت58، وعدة بطاريات مدفعية وشاحنات فأوقعت ما يقرب من ستين قتيلاً ومئة جريح. ووجّهت تل أبيب اتهاماً وتهديداً لدمشق. وصرّح ديفيد كيمحي في جنيف قائلاً: **لن تتساهل الحكومة الإسرائيلية حيال دعم سورية لنشاطات إرهابية في لبنان وإنّ غارات سلاح الجو الإسرائيلي هي تحذيرات واضحة في هذا الاتجاه.**

كانت عملية الشاحنة الانتحارية في صور، أحد المواضيع الرئيسة التي دارت حولها الأحاديث، أثناء الفطور في فندق الكونتيننتال في جنيف، وفي الأروقة. أما أثناء النهار من ذلك اليوم في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر، فكلّما مرّ الوقت، ازدادت درجة التأثر والاهتياج بين المشاركين. كانت الجلسة الأولى المخصصة لرؤساء الوفود فقط، ذات دلالة من حيث الطريق المسدود الذي يمضي فيه المؤتمر. وفي الرابعة من بعد الظهر، دعا أمين الجميّل زعماء المعارضة للانضمام إليه في أجنحته. فصعد، بعد شيء من التردّد، كلٌ من سليمان فرنجية ورشيد كرامي ووليد جنبلاط ونبيه برّي إلى الطابق الثامن عشر من الفندق، يرافقهم عبد الحليم خدام. ودامت محادثاتهم ما يقرب من ساعتين.

أما في أثناء الجلسة الكاملة التي تلت، فقد أشار وزير الخارجية السوري إشارة مفصّلة إلى بنود الاتفاقية كافة، التي تمسّ حسب رأيه سيادة لبنان، وطالب مجدداً بإلغائها. فلقي طلبه تأييداً من

فرنجية وكرامي. أما وليد جنبلاط ونبيه برّي فظلا ساكتَيْن. لقد بدا أنّ «جبهة الإلغائيين» قد أصابها التصدّع. واستغل كميل شمعون ذلك ليذكّر بأنّ هدف تلك المعاهدة لم يكن الاتفاق بحد ذاته، بل نهاية الاحتلال الإسرائيلي، وأنّ لبنان لا يسعه من ناحية أخرى إلغاءها من طرف واحد دون موافقة الطرفين الآخرين. وقرأ بعدئذ مشروع قرار جرى إقراره بالإجماع تقريباً باستثناء تفاصيل صغيرة:

نظراً للظروف التي رافقت توقيع اتفاقية 17 أيار/ مايو 1983، ونظراً للتأثيرات الدولية التي قد تنجم عنها وخطورة استمرار الوضع الراهن، فإنّ المؤتمر يطلب إلى رئيس الجمهورية مواصلة مساعيه، على الصعيدين الداخلي والدولي، لوضع حد للاحتلال الإسرائيلي والبدء بالمفاوضات الدولية الضرورية لتأمين السيادة الكاملة والمطلقة للبنان، على كامل أرضه وفي الميادين الوطنية كافة.

كان ذلك في واقع الأمر نوعاً من صك براءة يُمنَح لرئيس الدولة. إلّا أنّه كان محدداً بعشرة أيام، أي حتى 14 تشرين الثاني/ نوفمبر، للعثور على حلّ. والواضح أنّ الرغبة في تفادي الطريق المسدود قد انتصرت.

لكنّ صكّ البراءة ذاك كان مصحوباً بشروط. كان أمين الجميّل مخولاً أن يعرض في العواصم المعنية كافة دواعي معارضته. وعليه أن يعثر على حل فيقدّم بياناً به أمام المؤتمر، الذي يعود له لا إلى الرئيس، أن يقرر ما يستجد بشأن اتفاق 17 أيار/ مايو.

وفي 4 تشرين الأول/ أكتوبر ذاته، ضيّقت سورية، للمرة الثانية في غضون 48 ساعة، من خناقها حول المخيمين الفلسطينيين، البدّاوي ونهر البارد، إلى الشمال من طرابلس. فما إن انبلجت تباشير الصباح، حتى فتح رجال دمشق نيراناً متواترة من 150 دبابة و170 قطعة مدفعية. وبعد ذلك بأربع ساعات، كان 12 ألف رجل متجمّعين حول طرابلس يتوجّهون نحو القطاعين الفلسطينيين. بادر رجال المغاوير السوريين بالهجوم على جبل تربل. وتقدّمت تسعة ألوية من القوات الخاصة إلى شرق مخيم البداوي. فكان يوماً من أيام الجحيم. لقد تجابه أنصار عرفات وخصومه حتى الاشتباك بالأيدي عند أطراف المخيمين على تخوم طرابلس. ونجح المنشقون عن فتح بالتقدّم – لكن بعناء كبير – على محاور عديدة حتى توصلوا لاحتلال التلال كافة التي تشرف على السهل الساحلي وعلى المخيمات. تسببت عمليات القصف والمعارك بسقوط 200 قتيل و500 جريح في 48 ساعة. وكانت المجابهات على درجة من العنف حتى استحال دفن الجثث. والبرادات لم تعد تستوعب. فوضعت الجثث في شاحنات مبرّدة جرت مصادرتها واصطفّت بمحاذاة جدران المشفى.

وقف ياسر عرفات، مفتوح ياقة القميص تحت سترة من الخاكي، وقد دسّ طرفا بنطاله في ساقي حذائه، وبدت علائم الإرهاق على قسماته، أما مسدسه من نوع P38 بقبضته المرصّعة، فمدسوس في زناره، يستقبل صحفيين أجنبيين نجحا في الوصول إليه. وقد أكّد لهما بصوت متعب

أنّ ما يجري حالياً هو ثمرة صفقة كبيرة بين السوريين والأميركيين. فأولئك ضمنوا لهؤلاء أنّ باستطاعتهم القضاء على منظمة التحرير. وانفجرت قذيفة هاون على بضعة أمتار من المنزل حيث يقيمون. ومضى عرفات إلى النافذة، وهو يواصل الحديث مع الصحفيين، فألقى نظرة إلى الخارج، وقال بضع كلمات لحرسه الشخصي وعاد ليجلس مع الصحفيين، فيستأنف القول: كان حلم السوريين الدائم استخدام الورقة الفلسطينية في مراهناتهم، والسيطرة على منظمة التحرير. لكنّ المنظمة ليست قطعة على رقعة الشطرنج لديهم. فنحن سندافع عن شعبنا وعن ثورتنا.

كان سكان عاصمة الشمال يستغلّون أدنى انخفاض في حدة المعارك ليندفعوا صوب المرفأ أملاً في العثور على مركب مسافر. فأصبح، في ذلك النهار، سعر مقعد في مركب صيد حتى قبرص، ثلاث مئة دولار.

علّق مؤتمر الحوار أعماله، وسط الهدوء المطلق في فندق الأنتركونتيننتال، حتى 14 تشرين الثاني/ نوفمبر. وبانتظار ذلك، جرى تكليف لجنة بالملفّات المعلّقة مثل تمتين وقف إطلاق النار في الجبل، واللجوء إلى مراقبين «حياديين» أو الإصلاحات السياسية. ولقد قرّر الرئيس اللبناني إدراج دمشق ضمن جولته على العواصم العربية والغربية. كان مقتنعاً بأنّ تلك المحطة يمكن أن تنفتح على مناقشات بين البلدين. فبعث بجان عبيد، وهو الاختصاصي لديه في الشؤون السورية، ليتولى الإعداد لزيارته. وقدّر ألفريد ماضي، الموجود في جنيف مستشاراً لبيار الجميّل، أنه حقق انتصاراً، ما دام لن يُصار لإلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو، حتى يتمّ العثور على حلّ بديل لها.

ما إن وصل بيار الجميّل إلى بيروت، حتى ردّ على استجواب فادي أفرام قائلاً بعدم ضرورة تعليق كبير أهمية على صيغة لبنان العربي. فالشيء «الأساسي» بالنسبة إليه قد جرى إنقاذه ولن يكون للمؤتمر من تالٍ. كما باح له زعيم حزب الكتائب أيضاً بعزمٍ ثابت، على «نسف انعقاد ثانٍ للمؤتمر»، إنْ كان له أن يُعقَد ثانية.

سقط مخيم نهر البارد الفلسطيني في الساعة السادسة من صباح يوم 6 تشرين الثاني/ نوفمبر. فالقوات المخلصة لعرفات قامت بمغادرته على عجل، بعد أن عجزت عن احتواء تقدّم المهاجمين. فمنذ الأمس مساء، ارتد رجال أبي عمّار نحو البداوي بعد أن أضحوا معزولين عملياً. فالأيام الثلاثة الأخيرة من المعارك وعمليات القصف اتسمت بفداحة الخسائر. لقد سقط أكثر من 500 قتيل و 875 جريحاً. وكان تقدّم المقاتلين الفلسطينيين الموالين لسورية يوحي بوقوع معركة حاسمة في قلب طرابلس ذاتها. فقد رُفِعَت في شوارع المدينة أكوام من التراب وجدران حماية من أكياس الرمل. أما الماء والكهرباء فقد قطعتا منذ بدء المعارك، وبدأت المؤن والأدوية تنضب. أما في المرفأ، فازدادت كثافة حركة هجرة السكان باتجاه قبرص. وارتفع ثمن بطاقة السفر إلى لارنكا، بعد سقوط مخيم نهر البارد إلى 450 دولاراً. فيكاد الأغنياء يتعاركون في سبيل الحصول على مقعد في مركب، أما الفقراء، فيأملون من جانبهم في عملية إجلاء إنسانية.

ارتفع التوتر على حين غرة بين دمشق وتل أبيب، حين أعلنت سورية عن القيام بتمرين استدعاء سريع لقسم من جنودها الاحتياطيين وعددهم أربع مئة ألف. لقد جاء ذلك التمرين بعد 48 ساعة على التفجير في صور والتهديدات الإسرائيلية التي تلته. جرى ذلك بينما الدولة العبريّة تقوم بالمناورة ذاتها وفي الوقت ذاته، على نحو ما تفعل باستمرار. ساد لبضع ساعات قلق مطلق بين السكان. ثم انخفض التوتر سريعاً جداً بعد مداخلة متلفزة للجنرال آرون ياريف، مدير مركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب[1]. فقد أكّد هذا الأخير في التلفزيون أنّه ما من سبب يبرر عملية عسكرية إسرائيلية ترمي إلى طرد سورية من لبنان. فمهما كان مجرى الأحداث، لا يمكن إلغاء نفوذ السوريين من هذا البلد. وبعد أن أشار ياريف إلى أنّ إسرائيل سوف تواصل الحفاظ على تفوّقها المرتكز أساساً على معايير نوعية في التسلّح وفي الرجال اعترف بأنّ التعزيز الكبير للقوة السورية يرمي إلى إقامة توازن استراتيجي مع إسرائيل.

هذا الهدف وضعه حافظ الأسد حين عمدت مصر – بتوقيعها معاهدة السلام مع إسرائيل – بالانسحاب من أرض المعركة. وأضاف ياريف قائلاً: ترمي زيادة القدرة العسكرية السورية، بالنسبة إلى الدافع إليها، لأن تتوصل بقوة السلاح، إلى حسم الخلاف السياسي الذي لا يقبل الحل مع إسرائيل. من هنا جاءت مصلحة إسرائيل الاستراتيجية في عزل سورية عن باقي الدول العربية، لا سيما عن الأردن، ثم واصل القول بشأن الجولان لا يسع المرء أن يتخيّل أنه يمكن لزعماء سوريين التخلّي عن العزم على استعادة تلك الأرض، كذلك من غير المعقول أن تقبل حكومة إسرائيلية، مهما يكن لونها، بإعادتها. أما بشأن الوجود الإسرائيلي في لبنان، فليس له أن يكون بغير الحرص على ضمان سلامة الجليل. وضمن سياق الأفكار هذا، فإنّ الطرح الإسرائيلي القائل إنه ليس لإسرائيل أن تسحب قواتها من لبنان قبل رحيل القوات السورية، هو طرح لا قوام له. وينبغي بالمقابل، أن يكون ممكناً التوصّل إلى اتفاق ضمني مع دمشق، قائم على انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، بشرط أن تقدّم سورية ضمانات قوية بألا تعود قاعدة إرهابية، وأن تعرف أننا سوف نرد بأشدّ القوة إن لم تكن تلك الضمانات موضع احترام.

أعلنت القوات اللبنانية على الملأ، ولأول مرة في تاريخها، عن تميّزها سياسياً عن حزب الكتائب وعن الرئاسة. فقد أخذت على المشاركين المسيحيين في مؤتمر جنيف، في بيان أصدرته نسيانهم السريع لما دفع لبنان من تكاليف باهظة في المنازعات ما بين العرب، كما أكد البيان على أنّ الانتماء العربي يشكّل قهراً بالنسبة إلى عدد من الطوائف اللبنانية. وأخذ البيان على الرئيس إثارته لمسألة الانسحاب الإسرائيلي دون الكلام عن الاحتلال السوري. وإنّ اجتماع القيادة الذي سبق نشر البيان كان متشدداً في مطالبه. وقد جرى الانتقاص من أمين الجميّل وبيار الجميّل وكميل شمعون، بعبارات غير لائقة، لأنّهم «وقّعوا في جنيف» على قرار يتعارض مع كامل الفلسفة التي يقوم الكتائب

(1) المعروف في دمشق لأنه كان لأعوام طويلة مدير الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي.

بالتبشير بها منذ 47 عاماً. وقد هتف أنطوان نجم صائحاً: وا أسفاه على الذين ماتوا! لقد ماتوا للاشيء! فالكتائب انتهكوا إيديولوجيتهم وإرثهم! فليسمّوا أنفسهم من الآن فصاعداً الكتائب العربية، وليس اللبنانية!

أجرى أمين الجميّل لقاء لمدة 35 دقيقة مع الرئيس الفرنسي، فور العودة من جنيف. إنّها محادثة مفرطة في القصر بالنسبة إلى موضوع على تلك الدرجة من الكثافة، وفقاً لملاحظة المعارضين. ومنذ ذلك الحين، ضاعف المساعي كي يحظى باستقبال زعماء الدول، دون أن يلقى الكثير من الحماس. فطلب من السفير الأميركي ريجينالد برتولوميو أن ينقل طلباً بموعد مع رونالد ريغان.

فردّ عليه الدبلوماسي، من قبل الاتصال بواشنطن، قائلاً:

– ولِمَ هذا اللقاء؟ فالاتفاق ثلاثي، وريغان لا يستطيع فعل شيء دون موافقة الإسرائيليين. فالمناقشات – إن كان هنالك مناقشات – لا يمكن فهمها إلّا ضمن صيغة ثلاثية، وليس مع رونالد ريغان فقط. أما إذا كنت ترغب في بحث مواضيع أخرى، فأنت بكل تأكيد على الرحب والسعة، إلّا انّ الرئيس مشغول جداً في هذه الآونة، وأشكّ في أن يقوى على استقبالك قبل نهاية هذا الشهر.

فكرّر أمين الجميّل آلياً، وهو مذهول:

– نهاية الشهر؟ لكنّ الناس ينتظرون، وعلينا إتمام العملية التي بدأنا بها في جنيف.

– يؤسفني ذلك. ولسوف أفعل ما وسعني، لكنّي أشك في أن يتمّ ترتيب ذلك اللقاء ضمن البرنامج الزمني الذي في فكرك.

أخيراً تمّ الحصول على الموعد في مطلع كانون الأول/ ديسمبر. فتأجّل، بموجب ذلك، استئناف المؤتمر حتى ذلك الحين.

عثر مستشارو الوفود التي لبثت في جنيف، لتشكيل لجنة سياسية، على اتفاق واسع حول موضوع دستوري مستوحى من وثيقة، وضعها سليمان فرنجية ورشيد كرامي في 1976، حين كان الاثنان على رأس مقدّرات الدولة. بل جرت الموافقة عليها آنذاك من قبل حافظ الأسد، إلّا أنّها لمّا تُطبَّق. فالاقتراح يرتكز حول التقاسم مناصفة بين التمثيل المسيحي والإسلامي في البرلمان وفي الإدارة العامة، بدلاً من النسبة المعمول بها حتى الآن – ستة مسيحيين مقابل ثلاثة مسلمين – والمعمول بها حتى ما قبل الاستقلال. ويشترط ذلك النصّ أيضاً أن تظلّ الدولة اللبنانية جمهورية وديمقراطية، وأن يتمّ تعيين رئيس المجلس النيابي من قبل النواب، لا من قبل رئيس الجمهورية – الذي فقد في تلك الأثناء الكثير من صلاحياته. ويقترح أيضاً إنشاء مجلس قضاء أعلى للبتّ في المخالفات السياسية، وتشكيل مجلس دستوري[1].

---

(1) جرى استرجاع هذه الأفكار في «حلف التعايش» الذي صادق عليه النواب اللبنانيون في مدينة الطائف السعودية عام 1989. وقد شكّلت هيكل مخطط من سبع نقاط وضعتها لجنة ثلاثية من الجزائر والمغرب والعربية السعودية، دعت إلى إنهاء الأعمال العدائية، وإلى صيغة جديدة لتقاسم السلطة، وانسحاب القوات السورية حتى البقاع وانتخاب رئيس جديد للجمهورية.

قصد جان عبيد دمشق، مسلّحاً بهذه النتائج، يكافح بدعم من العربية السعودية ومباركتها، لاستكمال زيارة أمين. وخلافاً للمتوقّع، لم يرَ السوريون في ذلك أي مانع. لكنّهم كانوا يتمنّون الحصول على ضمان – من أي نوع كان – بإلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. بل أضاف بعض محاوري جان عبيد، بكلام مباشر أكثر من سواهم ليس من طائل وراء انتقال أمين الجميّل، إن لم يكن ذلك مضموناً. لكنّ عناد عبيد، مضافاً إليه ضغط سعودي، متكتّم لكنّ مجدٍ، انتهيا إلى رفع الحواجز. فتقرّر قيام أمين الجميّل بزيارة رسمية لمدة 24 ساعة يوم 14 تشرين الثاني/ نوفمبر. كان ينبغي للمحادثات بين الرجلين أن تتناول اتفاقية 17 أيار/ مايو – لئن كانت مواقف كل واحد معروفة، فهما لم يلتقيا قط وجها لوجه –، والوجود العسكري السوري في لبنان وتشكيل حكومة وحدة وطنية. لكنّ أمين الجميّل كان يأمل، خارج نطاق تلك النقاط، طي صفحة في العلاقات المضطربة بعض الشيء بين البلدين.

في حدود الساعة الثامنة مساء من يوم 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، تلقى أمين الجميّل نداء هاتفياً من عبد الحليم خدام.

– لن يستطيع الرئيس الأسد استقبالكم غداً مثلما كان مقرراً، فقد أُدخِل إلى المستشفى هذا الصباح، وهو يتمنى تأجيل تاريخ المحادثات. إنّما أعرض عليكم أن أحضر شخصياً للقائكم في غضون أربعة أيام لننجز آخر التفاصيل بشأن لقائكم برئيسنا.

وقبل أمين الجميّل، مع أنّه أصيب بالذهول وخيبة الأمل التامة. فهي المرّة الأولى التي يُعلَن فيها رسمياً عن دخول الأسد إلى المشفى من حين استلامه مقاليد السلطة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1970. فصحّة الرئيس السوري سرّ من أسرار الدولة، يحاط بكتمان تام. وعليه فإنّ المراهنات حول الأسباب الحقيقية لهذا التأجيل قامت على قدم وساق، لا سيّما وأنّ صحافة دمشق، كانت تطالب الرئيس اللبناني يومياً، وبإيقاع متواتر، باتخاذ موقف رسمي يتعلّق بإلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. إلّا أنّ ذلك التغيير المفاجيء لم يكن وحيداً في ذلك المساء. فبعد ساعة ونصف، أي في حدود التاسعة والنصف مساء، حطت في مطار بيروت الدولي، الطائرة التي تقل دونالد رامسفيلد، مبعوث رونالد ريغان الشخصي، قبل أربعة أيام من الموعد المتوقع.

لم يتخلّف رماة المدفعية الدروز، الذين أحيطوا علماً على الفور، عن التقليد المقدّس الذي يرافق زيارة كل مبعوث أميركي إلى لبنان. فما إن هبط رامسفيلد من طائرته حتى أخذت القذائف والصواريخ المنهمرة تنافس المطر الهاطل، فتغسل غسلاً فائضاً الأحياء المسيحية من بيروت ومنطقة القصر الرئاسي. فقتل ثلاثة أشخاص وجرح اثنان وعشرون. جرى تعيين رامسفيلد في ذلك المنصب قبل 12 يوماً بدلاً من روبرت ماكفرلين. لقد تجاوز الخمسين من العمر، وهو ديناميكي وله مظهر رجل أعمال، ومحافظ وبراغماتي، يتمتع بتجربة حكومية قوية، وكان يُعتَبَر أحد الخبراء بالشرق

الأوسط[1]. وسرت بشأنه طرفة في وزارة الخارجية لم يقم بتكذيبها. فقد طلب أثناء زيارة إلى دمشق، قبل أعوام، لقاءً مع الرئيس حافظ الأسد. وقد سأله الرئيس السوري قائلاً:

- ولِمَ عليّ أن أصغي إليك؟

فأجابه رامسفيلد على الفور:

- لأنّي سأصير يوماً رئيس الولايات المتحدة.

ما إن وصل الأميركي، حتى طلب لقاءً مع أمين الجميّل، الذي لم يجد سوى الوقت لاستدعاء نظيره إيلي سالم، وزير الخارجية اللبناني، قبل أن يستقبله. وطوال ساعتين كاملتين، أجاب الرجلان على أسئلة المبعوث الذي «جاء يستعلم عن الوضع ضمن إطار إجراء اتصال بسيط».

تواصلت عمليات القصف التي انطلقت تحية له، على مدى 24 ساعة. فالمدارس التي فتحت أبوابها في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر أُرغِمت على إغلاقها. لكنّ ذلك لم يحُلْ دون قيام أرييل شارون بالقدوم سراً إلى لبنان. فالبيان الذي أصدرته القوات اللبنانية قبل يومين، تسبّب بصدمة قوية لحزب الكتائب. بل إنّ بعض من التمستْ عونَهم الرئاسةُ سراً، طالبوا بالصوت العالي باتخاذ «إجراءات». فاقترح الموساد على الوزير أن يصيب عصفورين بحجر: التوجّه إلى بيروت لتأكيد دعم إسرائيل للميليشيا المسيحية مجدداً، ومعارضة الدولة العبريّة لإلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. وجرى تحديد موعد مع بيار الجميّل في 15 تشرين الأول/ أكتوبر. فالتقى الوزير بلا حقيبة، مصحوباً بمستشاره أوري دان ومناحيم ناڤوت واثنين من المحللين في الموساد[2]، برئيس حزب الكتائب في منزله في الدورة. طلب الرئيس الأعلى من فادي أفرام القيام بالترجمة. فحذّر أرييل شارون محدّثه من مشاريع الأميركيين. إذا ما شعروا بأنكم تخاذلتم فسوف ينصرفون. ولا تنسوا أنها سنة انتخابات في الولايات المتحدة. وأكّد الإسرائيلي أنّ واشنطن لا تسعى إلّا وراء مبرر لسحب قواتها، ويمكن أن يكون ذلك المبرر هو تعديل الاتفاقية. فطمأنه بيار الجميّل، فالاتفاقية لن تلغى ولن تُعدَّل.

فألحّ شارون قائلاً:

- بودّي أن أكون واضحاً جداً حول هذا الموضوع. فإسرائيل لن تقبل بتعديلات مهما تكن طفيفة. فهل هذه النقطة واضحة تماماً لدى الرئيس أمين؟

- إنّها واضحة بالنسبة إلى الرئيس! لكن عليكم أن تساعدوه! أنتم والأميركيون! لقد مارس السوريون في جنيف ضغوطاً قوية. خشيت أن يفشل المؤتمر بسبب ذلك. فمنذ البداية طالبوا بالإلغاء وبصورة قطعية. ونحن رفضنا. أمّا النقاط الأخرى فثانوية.

---

(1) عضو سابق في الكونغرس عن ولاية إيلينوي، كان وزيراً للدفاع من 1975 حتى 1977، ومن قبل كان سفيراً لدى حلف الأطلسي في عامي 1973 و1974. وكان يرئس حتى ذلك الحين مقدّرات شركة صيدلانية بالقرب من شيكاغو. ولسوف يغدو وزيراً للدفاع لدى جورج بوش الإبن، وهو الذي سيكون بهذه الصفة مهندس الغزو الأميركي للعراق في عام 2003.

(2) زاغا وغيزي تسافريري.

– ماذا ينبغي للإسرائيليين أن يفعلوا، وماذا ينبغي أن يفعل الأميركيون، خصوصاً، للحفاظ عليها؟

– إنّ غالبية المشكلات في المنطقة مصدرها السوريون، ولن يستطيع لبنان حل هذه المشكلة وحده. لا تنسوا أننا محتلون بنسبة ثلاثة أرباعنا وأنّ الربع الباقي غير مضمون مئة بالمئة.

– لِمَ لا يقوم الجيش بتنظيف بيروت الغربية؟ لقد رجع إليها أكثر من ألف إرهابي.

فردّ عليه بيار الجميّل قائلاً:

– عليكم أن تدركوا أنّ ما قام به الجيش حتى الآن يتجاوز إمكاناته بكثير. لقد صمد على الرغم من هروب العديد من الجنود. ولا يمكن العثور على حل إلّا بالقوة.

– ماذا تقترحون؟

– أنت جنرال في أقوى جيش في العالم. فلن أقول لك ما ينبغي فعله.

– هل الجيش اللبناني على استعداد للصعود إلى الشوف مع القوة متعددة الجنسيات إذا ما قرّر الأميركيون ذلك؟

– بكل تأكيد! لكنّه لن يذهب وحده! فماذا تفعل هنا جميع تلك القوى متعددة الجنسيات ما لم تقم بتحريرنا؟ لقد وقع أكثر من مئتي قتيل أميركي إضافة إلى خمسين فرنسياً، ولم يردّوا! فماذا يفعلون؟ هل جاؤوا كي يتولى الجيش اللبناني حمايتهم؟ سوف أكون في منتهى الصراحة معك، فقد وقع خلاف كبير بين أمين والأميركيين بشأن موقفهم من أحداث الشوف. ولقد قال أمين ذلك لكيمحي.

– في لبنان قوة جاهزة وقادرة على القتال، إنّها القوات اللبنانية. فما مستقبلها؟

– نحن ملزمون بالحفاظ عليها. فنحن بحاجة لها. إنّ الحفاظ عليها ضرورة إلى حين أن تعود الدولة دولةً ذات جيش وشرطة وعدالة . . . إنّ القوات اللبنانية لا يُستغنى عنها بالنسبة إلى لبنان.

فسأل شارون:

– وهل هذا رأي الرئيس أيضاً.

– طبعاً! فهو بحاجة إلى قوة تقف إلى جانبه. إنّ رؤساء الجمهوريات كانوا مرغمين على التعاون معنا والاقتراب منّا. كان فرنجية سيتوارى منذ الشهور الأولى للحرب لولا أن بقينا معه. وكذلك كانت الحال مع سركيس والحلو وشمعون عام 1958.

فأوضح مندي قائلاً:

– لدينا معلومات تتعلّق بدمج القوات اللبنانية في الجيش؟

فأقرّ بيار الجميّل قائلاً:

– صحيح أن هذه الفكرة قائمة. فالذي يرغب في البقاء في «القوات» يبقى، والذي يرغب في الانخراط في سلك الجيش، يفعل ذلك. لكننا سنحافظ على القوات اللبنانية بوصفها كذلك.

فألحّ الرجل الثاني في الموساد سائلاً:

– وكيف السبيل إلى تمويل الذين سوف يبقون؟

فردّ بيار الجميّل مغتاظاً:

– إنّها مشكلتنا! ولسوف نحافظ عليهم ما دمنا في حالة حرب.

فتجاهل مندي غيظ الرئيس الأعلى وأضاف قائلاً:

– لدينا انطباع بأنّ القوات اللبنانية في طريقها إلى الزوال؟

فأضاف شارون بلهجة حازمة:

– إنّا نعلّق أهمية كبرى على بقائها قوةً مستقلّة. وكل عمل يُلحِق بها ضرراً ستكون له انعكاساته على أمن المسيحيين ومستقبلهم.

– إني أوافق على ما قلتم. وعلينا أنا وفادي أن ننظر في كيفية الحفاظ على «القوات»، على الرغم من الضربة التي حلّت برأسنا في الجبل.

– لقد تلقيتم ضربة، لكنكم لا تزالون هنا! فهل تريدون تلقي ضربة أخرى في الأشرفية أو في جونيه؟ نحن نعتقد بأنّ القوات اللبنانية أكثر أهمية اليوم من أي وقت مضى. ينبغي للرئيس والحكومة دعمها بالمال والرجال والجانب اللوجيستي. عليكم الإلحاح على الرئيس في ذلك الشأن.

فوعد رئيس الكتائب قائلاً:

– سوف أقوم بذلك.

قبل أن يتوجه الوفد الإسرائيلي إلى تل أبيب اجتمع بمسؤولي القوات اللبنانية[1] في مكتب فادي أفرام في الكرنتينا. فباح لهم وزير الدفاع السابق بأنّه عائد بهدوء إلى الساحة السياسية الإسرائيلية، وإنّه سيعمل على حمايتهم. فأوضح له اللبنانيون أنّ ما يقرب من خمسة آلاف جندي – من الدروز والشيعة – قد هربوا من الجيش، وأنّ وضع الميليشيا جيد – هنالك خمسة آلاف مقاتل وعشرة إلى اثني عشر ألفاً من الميليشيا مع الاحتياطيين – باستثناء النقص في الذخائر. لقد أفرغت معركة الجبل مستودعات أسلحتهم. وإنّ 80 إلى 90 بالمئة من الخسائر البشرية نجمت عن عمليات القصف والنقص في العربات المدرعة. أما المشكلة الأهم فهي التمويل. وإنّ دمج قسم من قواتها في الجيش ينبغي أن يسمح لها بالحصول على السلاح وعلى عربات مدرعة ودبابات.

فسأل شارون قائلاً لأفرام:

– والرئيس أمين، ألا يساعدكم مطلقاً؟

– أعتقد أنه هو أيضاً يعاني من مشكلة، فالوضع الاقتصادي يتدهور. لقد بدأت الليرة تفقد قيمتها.

---

(1) فادي أفرام وحنا صافتلي وأسعد شفتري وجان غانم وأنطوان بريدي.

– أليس لديكم من عوائد خاصة؟

– بلى، هنالك الرسوم على الكازينوهات، وعلى السيارات التي تعبر منطقتنا. لكنّها تكفي فقط نفقاتنا العملياتية. فلا يسعنا شراء أسلحة ولا ذخائر. إنّ مدافعنا من عيار 155مم لم تعد صالحة.

كانت القوات اللبنانية تمسك عسكرياً بعدة قطاعات. فهي تشرف على إقليم الخروب. ونشرت وحداتها في الشمال إلى ما وراء وحدات الجيش في جبل لبنان في اللقلوق وفي عيون السيمان. كما دعّمت مجدداً خط التماس الذي يشطر بيروت إلى قسمين.

– لو مارست إسرائيل ضغوطاً من أجل إرسال الجيش اللبناني والقوة متعددة الجنسيات إلى دير القمر، لكان بوسعنا استعادة قواتنا واستخدامها في مكان آخر.

فأشار أرييل شارون بحركة عصبية قائلاً:

– ولِمَ لا تأتي الحكومة على ذكر دير القمر؟ لقد عدت من جولة عالمية. وفي كل محاضرة وكل تصريح كنت آتي على ذكر دير القمر، كأني سفير للرئيس أمين. هنالك آلاف من النساء والأطفال. . . فالأمر غير مقبول.

تحفّظ فادي أفرام دون أن يقول له، إنّه هو والرئيس، كما جنبلاط من ناحيته، لا يريدون للمدنيين أن يخرجوا منها. كذلك لم يكشف له عن أنّ رئيس أركانه فؤاد أبو ناضر، سوف يحاول في الليلة ذاتها، بصحبة مجموعة من مغاوير الصدم[1]، بلوغ دير القمر انطلاقاً من المشرف وهم يعبرون خطوط الدروز.

استغرق فؤاد ورجاله أكثر من خمس ساعات، لعبور وادي الدامور الشديد الوعورة والذي يفصل بين النقطتين. وظلت المدفعية المتوافرة كلها في حالة استنفار ومجهّزة مسبقاً للدعم، ومستعدة للتدخّل فيما إذا تمّ اكتشافهم. ومنذ وصوله في حدود الساعة الواحدة فجراً، كان له لقاء مع سمير جعجع، المعبأ جداً ضدّ ما يعتبره سلبية بيروت ولامبالاتها حيال المدينة المحاصرة.

وقد أعلن قائلاً:

– ليس ممكناً لذلك أن يستمر. لا بدّ من فعل شيء ما لكسر ذلك الحصار. عليك الرجوع إلى بيروت وأن تنشط على المستوى الشعبي والسياسي.

لم يكن موضع بحث بالنسبة إلى قائد «القوات» العام أن يكشف له عن أنّ الوضع السياسي ومستقبل الوجود المسيحي في الجبل يفرضان عكس ذلك. وإنّ ذلك ليَشقّ فهمه على الميليشيا كما على المدنيين المحاصرين.

قال له فؤاد:

---

(1) من وحدة النخبة.

– إنّ كل ما يمكن فعله في بيروت قد تمّ. والحق أنّك الوحيد القادر على تحريك الأشياء لأنك عشت الأحداث منذ البداية. فعليك أن تذهب إلى هناك، وأظلّ أنا هنا مكانك.

وقبل جعجع. فجمع ضباطه، وقال لهم في حضرة فؤاد أبو ناضر:

– أنا نازل إلى بيروت. وفي غضون خمسة عشر يوماً يكون دورك.

فهدّأ أبو ناضر من لهجته قائلاً:

– أنت هنا منذ ثلاثة أشهر وتريد للكل أن يكون في بيروت خلال خمسة عشر يوماً، إنّ ذلك لمن الصعوبة بمكان.

غادر سمير جعجع دير القمر في الليلة التالية. وبعد 24 ساعة كان في بيروت، حيث استقبله فور وصوله پيار الجميّل وفادي أفرام. فعرضا عليه حقيقة الوضع وضرورة الإبقاء على المسيحيين في الشوف.

لم تكن «القوات» مستاءة من اجتذابها الدولة العبريّة لإعادة تقييم سياستها اللبنانية. **فإعادة تجديد خط شارون – على نحو ما أسمعهم صاحب العلاقة – لا يمكن لها إلاّ أن تلائمهم، لا سيما وأنها تتمحور على وحدة المسيحيين حول القوات اللبنانية. ولا يمكن لحل مشكلة دير القمر إلّا أن تأتي عن السلطة اللبنانية أو عن إسرائيل. كانت الدولة حتى ذلك الحين ترفض القيام بحلها. فيبقى الإسرائيليون. ويقدّر قادة الميليشيا أنّ تدخلاً من جانبهم، سوف يعيد الثقة للمسيحيين. فقد راهنا كثيراً على شارون ليقنع الأميركيين بنشر قواتهم من المارينز مع الجيش في الشوف.**

لم يكن جعجع مقتنعاً كل القناعة بتفسيرات أفرام وپيار الجميّل. فالانفعالات الناجمة عن المعاناة تجعله يتأجّج غضباً. زد أنّ مقبرة جماعية قد اكتُشِفت في قرية كفرنبرخ المسيحية، بعد عودته بساعات. فعلّق وليد جنبلاط على ذلك بوقاحة استفزازية، بعد أن وجّهت الصحافة أصابع الاتهام إليه، قائلاً: **لقد صنع الكتائب منها قصة كاملة، لكن هنالك أكثر من مقبرة جماعية في تاريخ مجلسهم العسكري. فلمّا ينس أحد صبرا وشاتيلا أو تل الزعتر والسبت الأسود في الكرنتينا. فهؤلاء الذين ماتوا في كفرنبرخ كانوا من الكتائب، فليذهبوا إلى جهنّم وبئس المصير.**

جرى الاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لوصول الرئيس الأسد إلى سدّة الحكم، يوم 16 تشرين الثاني/ نوفمبر، بقصف شديد للمنطقة المسيحية. فقد بدأ بعد منتصف الليل بقليل، وتواصل حتى الضحى، على الرغم من مساومات سياسية عديدة للتوصل إلى وقف إطلاق النار. فهددت هيئة أركان القوات اللبنانية، عبر موجات الإذاعات قائلة: **إذا لم يتوقف القصف، فسوف نوجّه أسلحتنا باتجاه المختارة.** فردّ الدروز عبر الإذاعة ذاتها **ونحن سوف نردّ باتجاه دير القمر**. ولكي يدلل الدروز على تصميمهم، وجهوا رشقات طويلة من القذائف إلى المدينة المحاصرة فأوقعوا ثلاثة قتلى وحوالى خمسة عشر جريحاً. ثمّ توقّفت عمليات القصف توقفاً مباغتاً في حدود الساعة التاسعة،

حين عبر عبد الحليم خدام خط الجبهة في ضهور الشوير، برفقة مساعده مصطفى الحاج علي، متوجّهاً لإجراء محادثات مع أمين الجميّل. وكان ينتظره عند أكوام التراب التي تشكّل «خط» العبور، زميله إيلي سالم. فصعد الاثنان في سيارة الوزير اللبناني قاصدَين القصر الرئاسي في بعبدا. هذا فيما كانت كاديلاك الوزير السوري وسيارات البيجو الثلاث الملأى بحرسه الشخصي تتبع عن قرب. أجرى اللقاء الأول مع أمين الجميّل في المكتب الرئاسي، الذي خرقته القذائف، قبل التوجّه في السيارة التي قادها أمين الجميّل، لتناول الغداء، في مقرّ الرئيس الخاص في سن الفيل. وقد خُصِّص وقت طويل من الغداء، الذي حضره كل من شفيق الوزّان وإيلي سالم وجان عبيد، لبحث الأعمال العدائية على الأرض ووسائل وضع حدٍ لعمليات القصف. ولم يجرِ التعرّض للملفّ الشائك المتعلّق باتفاقية 17 أيار/ مايو. فقد رفض الوزير السوري، حتى قبل الجلوس إلى المائدة، الخوض في موضوع ينبغي أن يُبحَث في القمّة التي ستجمع الرئيسين. وفي الصباح ذاته، نشرت صحيفة مقابلة مع حافظ الأسد - الذي استعاد لياقته بسرعة - أجراها صحفي أميركي، يقول فيها جازماً إن **يجرِ الإبقاء على تلك الاتفاقية، فالوضع في لبنان سوف يظلّ، في أفضل الأحوال، على حالته الراهنة.** وأوضح الرجل الأول في سورية، من جهة أخرى، أنّ دمشق وافقت على انتخاب أمين الجميّل في أيلول/ سبتمبر 1982 وأنّ هذا الأخير قد أكّد في أكثر من مناسبة أنه لنْ يقدّم لإسرائيل شيئاً يمكن أن يناقض التفاهم الوطني أو السيادة اللبنانية أو أن يسيء لعلاقات بلاده مع سورية أو مع العالم العربي. والاتفاقية تناقض كلّ التناقض تلك التعهدات كلها. فعلى أمين الجميّل أن يتراجع عن أخطائه.

وما إن تجاوز الوزير السوري للشؤون اللبنانية نقطة العبور في ضهور الشوير حتى استؤنفت زخات القنابل.

بعد أن أعرب بيار الجميّل، في حضرة أريئيل شارون، عن عزمه على الحفاظ على «القوات»، طلب قائد القوات اللبنانية أن يستقبله المكتب السياسي لحزب الكتائب لإيضاح الأمور المتعلقة بوضع الميليشيا. ملخّصها بسيط في الواقع: وصل التمويل إلى وضع يجعل «القوات» في حالة عجز عن الدفع في نهاية الشهر. وإنّ الهدف من الإظهار المفاجئ لذلك الوجه الدراماتيكي هو التسبّب بالخوف. وقد حققت المناورة نجاحاً جزئياً. فذكّر فادي أفرام بأنّ المكتب السياسي هو الذي اتخذ القرار بإغلاق الحوض الخامس والذي وعد بالتعويض عن الخسارة المالية التي كان يؤمّنها الاستيلاء على المرفأ للميليشيا. أما وأنّ التعويض الذي تبلغ قيمته 15 مليون ليرة لم يعد يُدفَع منذ مطلع أيلول/ سبتمبر، فإنّ من الملزم الآن العثور على مخرج. أما في الحالة المعاكسة، فأكّد فادي أفرام، آسفاً، أنه سيكون مرغماً على اللجوء إلى عملية الحلّ. فألحّ بيار الجميّل، وقد أخذ على حين غرّة، على الضرورة المطلقة للحفاظ على القوات اللبنانية، خصوصاً بسبب هشاشة الوضع. فقرّر المكتب

عرض القضية على أمين - الذي كان في زيارة للعربية السعودية ضمن إطار جولته على العواصم. فالإلزام المالي للميليشيا رهان خطر. كان في نيّة الرئيس الأعلى الحفاظ على القوات اللبنانية جسماً عسكرياً شرعياً يمكن استخدامه حيث لا يستطيع الجيش أن يتدخّل. وكان يسعه أيضاً استغلال الظرف الراهن لتسريع مشروعه حول «الأنصار». لكنّ فادي أفرام أطلق مشروعه وهو يعرف حق المعرفة أنّ أمين الجميّل في حالة من العجز الكلّي، حيال «تلقيم» الميليشيا بقضّها وقضيضها للمؤسسة العسكرية في وقت يدور فيه النقاش حول مصالحة وطنية، وحيث يُسمع دويّ المدافع في كل يوم تقريباً. فاضطر الرئيس لاستئناف التمويل المتقطّع. زدْ أنّ إغلاق ثكنات الميليشيا في جنوب لبنان مثل تقليلاً للنفقات لا يمكن إهماله. فكان أفرام وهيئة أركانه يأملان على ذلك النحو أن يكونا في وضع يسمح لهما الحفاظ على ثلاثة أو حتى أربعة آلاف مقاتل محترف مع الدبابات والمدفعية.

سقط مخيّم البداوي، وهو الأخير من بين 14 مخيماً فلسطينياً كان يشرف عليها ياسر عرفات في لبنان، في أيدي المنشقين الموالين لسورية في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1983. فقد شنّ الليبيون والسوريون والفلسطينيون الهجوم الأخير، عند الفجر، بتسلّقهم أكوام الخرائب والدمار، التي فرغت من سكانها الذين لجأوا إلى طرابلس. أما وهم في حماية سور جبار من المدفعية، فقد بلغوا المنازل الأولى حوالى العصر واستولوا عليها تدريجاً.

وبسقوط مخيم البداوي، لم يعد أيّ من المخيمات الفلسطينية الستين، التي أُحصيت رسمياً في الشرق الأوسط، تابعاً لسلطة فلسطينية مستقلّة. فقد كانت هذه المخيمات، القائمة في سورية والأردن ولبنان والضفة الغربية، مشاتل لاستنبات الفدائيين، من بعد الهزيمة العربية في حزيران/ يونيو عام 1967 وبروز المقاومة الفلسطينية. فهؤلاء «المقاتلون القوميون» في نظر مؤيديهم، و«الإرهابيون» في نظر خصومهم، قد شكّلوا تهديداً أو أثاروا المخاوف. والمخيمات الستون هذه، إمّا أنّه قد دُمِّر بعضُها بعد بعضها الآخر، أو أنّها وُضِعت تحت وصاية الدولة «المضيفة» - وفقاً لوصف هيئة الأمم المتحدة-، أو وُضِعت تحت سيطرة القوات العائدة لسلطة أجنبية أو دولية. فالمخيمات الفلسطينية التسعة في سورية (وتضم رسمياً 226438 شخصاً) كانت على الدوام تحت وصاية دمشق. أما في إسرائيل، فاقتضى الأمر ما يقرب من عشرة أعوام من «العقوبات الجماعية»، التي باشر بتطبيقها الجنرال موشيه دايان، لإخضاع مقاومة سبعة وعشرين مخيماً في الضفة الغربية وغزّة (تضمّ رسمياً 727023 يستفيدون بوصفهم لاجئين وفقاً لوكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (الأونروا UNRWA). وفي الأردن، استغرق الإصلاح الذي طبّقته السلطة الملكية على المخيمات الفلسطينية العشرة (فيها 759166 لاجئاً) قرابة عام كامل، من حزيران/ يونيو 1970 حتى تمّوز/ يوليو 1971، تخللتها مرحلة عنيفة من المعارك في أيلول/ سبتمبر 1970. وأدّت تسعة أعوام من الحرب والمذابح المتعددة في لبنان إلى تحييد المخيمات الأربعة عشر.

واصلت القوات الموالية لسورية شنّ هجوم على طرابلس، التي كانت تتعرّض حتى ذلك الحين لقصف مدفعي يومي. وقد جرى صدّهم على يد المقاتلين المخلصين لياسر عرفات في حين أنهم وصلوا إلى مسافة 500 متر عن مقر قيادة الختيار في حيّ الزاهرية.

وعلى الرغم من أنّ رئيس السلطة الفلسطينية كان خاضعاً للحصار ولقصف مدفعي منذ ثلاثة أسابيع، فقد فرض على الدولة العبريّة أن تفاوضه، بشأن إطلاق سراح جنود ستة، جرى أسرهم في 4 أيلول/ سبتمبر على يد رجاله في البقاع. وقال للإسرائيليين عبر وسطاء لئن لم تتفاوضوا معي على الفور، فلن أستطيع بعد الآن أن أضمن حياتهم، فهم، في أسوأ الأحوال، قد يُقتلون تحت القصف، وفي أحسنها قد يقعون في أيدي السوريين. وعندها لن يطلق سراحهم إلاّ بعد زمن طويل. وطالب بالمقابل بالإفراج عن 4600 سجين لبناني وفلسطيني معتقلين في السجون الإسرائيلية[1]، وأن تُردّ إليه محتويات أرشيف مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية التي استولى عليها الإسرائيليون في بيروت في 1982.

ولقد قدّمت إسرائيل لعرفات، بقبولها تسوية بهذا الاتساع – هي سابقة في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي – نصراً سياسياً بعيد المنال، وتحقيق إنجاز كبير[2] قوبل بالتصفيق من العواصم العربية كافة.

إنّ الإسرائيليين الستة، الذين كانوا محتجزين في جزيرة الأرانب، على مرمى حجر في مياه طرابلس، جرى تسليمهم سراً، في ليلة 23/ 24 تشرين الأول/ أكتوبر، إلى مفرزة من البحارة الفرنسيين – على الرغم من قصف عنيف من الأرصفة السورية، التي أُحيطت علماً من قبل الصليب الأحمر بوجود عملية إنسانية. وقد وصلوا إلى الطراد «دوبلكس Dupleix» في حين كانت تقلع من مطار بن غوريون ثلاث طائرات من طراز بوينغ 747 تابعة للطيران الفرنسي – استأجرتها منظمة الصليب الحمر الدولية – قاصدة مطار الجزائر، وقيام 120 باصاً تابعاً للشركة الإسرائيلية «إيغيد» بنقل المعتقلين من الأنصار باتجاه النبطية وصور وصيدا وحاصبيا. كذلك حملت الطائرات الفرنسية في مستودعاتها الأرشيف المعاد لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كانت أطنان من الوثائق مخزنة في مبنى من عشرة طوابق في حي الحمرا، في بيروت الغربية، بإدارة عربيين يحملان الجنسية الإسرائيلية هما صبري جريس وإلياس شوفاني. وكان الاثنان طالبين في الجامعة العبريّة في القدس، وقد حضرا إلى لبنان في مطلع السبعينيات للالتحاق بدورة تدريبية فمكثا فيها. وقد استولت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية على تلك الأطنان من الوثائق لدى

(1) كان ينبغي لـ 1124 فلسطينياً، معتقلين في الأراضي المحتلة، أن يتوجّهوا إلى الجزائر، وأن يتمّ الإفراج عن 3476 سجيناً فلسطينياً ولبنانياً معتقلين في معسكر الأنصار في جنوب لبنان.

(2) عناوين الصحافة العربية.

دخول الإسرائيليين إلى بيروت الغربية بعد مصرع بشير الجميّل. وقد جرت «تفلية» تلك الوثائق، التي اعتُبِرت «نعمة غير متوقّعة ولا تُقدَّر بثمن» من قبل جهاز آمان طوال شهور عديدة.

سلّم قائد الطراد «دوبلكس» الجنود الستة للبحرية الإسرائيلية في المياه الدولية في ضحى 24 تشرين الثاني/ نوفمبر. وقد نزلوا بعد الظهر في حيفا حيث كانت مروحية بانتظارهم لنقلهم إلى ما وراء واحدة من التلال المحيطة بمطار دوف قرب تل أبيب، بعيداً عن فضول مئات الصحفيين الذي جاؤوا لانتظارهم. لقد بدوا ناحلين، وشاحبي اللون، حين استقبلهم أهلهم ورفاق وحدتهم استقبال الأبطال، وأغرقوهم بالشمبانيا. وقد انتقد رفائيل إيتان، الرئيس السابق لهيئة الأركان، ذلك الاستقبال المظفّر .لقد ألحق هؤلاء الجنود العار بالجيش الإسرائيلي وبدولة إسرائيل حين استسلموا بمذلة للأسر دون إبداء أية مقاومة حيال مختطفيهم الذي كانوا دونهم عدداً. ثم خلُص إلى القول: كان الأجدر بهم أن يمثلوا أمام محكمة عسكرية لتقصيرهم في أداء واجباتهم. وكان هنالك عسكريان إسرائيليان آخران لا يزالان معتقلين لدى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة التابعة لأحمد جبريل.

طرح إطلاق سراح 3476 «إرهابياً» مشكلات على المسؤولين العسكريين الإسرائيليين. فإسرائيل لم تنل وعداً - مثلما كان يتمّ تنفيذ المطلب من قبل - بأنّ الأسرى المحرّرين لن يعودوا للقيام مجدداً بأعمال عسكرية ضد إسرائيل. وفي اليوم التالي للإفراج عنهم، جاء إلى الكرنتينا ميئير داغان وإيرليخ روفن، وهو ضابط الاستخبارات الذي يدوّن الملاحظات فيما هو ينظر في عيون محدّثيه، ووميكي أرمور (ماريون)، سعياً وراء الحصول من قيادة «القوات»[1] على تسريع لعملية دمج ميليشيا «القوات» في جيش لبنان الجنوبي. فذكّر داغان بأنّه موافق على أن يتقلّد مسيحيون مناصب القيادة الأولى. وكان يعتبر من الضرورة أيضاً تجنيد الشيعة بأعداد كبيرة على نحو يجعل تلك القوة تمثّل الطوائف كافة في الجنوب. واستغل المناسبة ليطلب لدى انضمام عناصر الميليشيا إلى جيش لبنان الجنوبي، أن يفعلوا ذلك بعتادهم الشخصي ليتمكّنوا من الانخراط في الخدمة على الفور. واقع الحال أنّ جهاز آمان، المكلّف بتجنيد ميليشيا جيش لبنان الجنوبي وتجهيزها بالعتاد وتدريبها، كان يعاني من متاعب مالية قاسية.

بعد أن قام أمين الجميّل بجولته في العواصم، فأمضى أربعاً وعشرين ساعة في الرياض، صحبه فيها شفيق الوزّان، انطلق في طائرة «ميستير 50» خاصة من قاعدة حالات العسكرية، في زيارة لروما وواشنطن. وقبل انطلاقه بساعات قلائل، بعث بوزير خارجيته، إيلي سالم، إلى دمشق، ليسأل عن «الحدود الدنيا والقصوى» المقبولة من سورية بشأن تعديل اتفاقية 17 أيار/ مايو. وقد

(1) فادي أفرام وأنطوان بريدي وسمير جعجع والياس كساب (مسؤول الكتائب في الجنوب) ونازار ناجاريان وبيرسي كمب («ألِكس»، من قسم استخبارات القوات اللبنانية)، وجان غانم وإيلي الزايك ووليد فارس.

أجاب عبد الحليم خدام أنّ دمشق لم تعد تطالب بالإلغاء التام والكامل للنص بل تقبل بتعديل بعض البنود على شرط ألاّ تتعارض هذه البنود مع أمن سورية وروح جنيف. وهكذا فكان الرئيس اللبناني ممتلئاً ثقة، وطائرته تحط في قاعدة سامبيو العسكرية قرب روما. كانت له محادثات مع الرئيس الإيطالي ساندرو پرتيني، ورئيس الوزراء بيتينو كراكسي ووزير الدفاع جيوفاني سپادوليني. وقد سمع من الثلاثة الخطاب ذاته - الذي أسمعه إياه سپادوليني بكلمات متكتّمة جداً - إذا ما تدهور الوضع في لبنان، فسوف نسحب وحدتنا من القوة متعددة الجنسيات.

كان كل من إسحق شامير وموشيه أرينز، في تلك الأثناء، في واشنطن. لقد انقضت مدة ثمانية عشر شهراً لم يقم فيها رئيس وزراء إسرائيلي بزيارة رسمية إلى الولايات المتحدة[1]. كانت لتلك الزيارة أهميتها في نظر الإدارة الجمهورية، والبلاد على مسافة بضعة أشهر من الانتخابات الرئاسية. فالمعونة الأميركية لإسرائيل، عسكرية ومدنية، تصل إلى مليارين وست مئة مليون من الدولارات في السنة. كانت الدولة العبريّة بحاجة لأسلحة جديدة لمواجهة شحنات الأسلحة السوڤييتية لسورية. وبالمقابل، يحمل شامير في جعبته عدداً من الاقتراحات: تسهيلات على الصعيد العسكري بحرية وجوية بالنسبة إلى الطائرات الضخمة أو الغواصات، إضافة إلى المعونات الطبية للجنود في حال حصول نزاع. أما على الصعيد التقني، فهنالك عروض بتبادل نتائج الأبحاث والمعلومات التي جمعتها أجهزة الاستخبارات المختصة للبلدين، لا سيّما بشأن المجموعات الإرهابية الحاضرة في الشرق الأوسط. أما على الصعيد الاقتصادي، فهنالك عروض بسلسلة من المشاريع المشتركة في أميركا الوسطى وإفريقيا وآسيا.

أتى رونالد ريغان على ذكر التهوّر. والحق أنّه لا يرغب في التضحية بعلاقاته مع البلدان العربية المعتدلة مقابلة سياسة «كل شيء لإسرائيل». فلم يكن مطروحاً بالتالي عقد تحالف استراتيجي يُفهَم منه ضمناً بعض المقترحات العسكرية والاستخباراتية. ومع ذلك كان البيت الأبيض على استعداد، نظراً للأزمة الاقتصادية التي تصيب إسرائيل، للنظر في تليين شروط المعونة البالغة 2،6 مليار دولار (منها مليار وسبع مئة مليون في المجال العسكري) الممنوحة للدولة العبريّة.

أما بشأن اتفاقية 17 أيار/ مايو، التي عرضها شامير نقطةً ثانويةً، وعلى الرغم من أنها ليست كذلك في نظر الأميركيين فلم يجرِ تبادل وثائق تعديل ذلك النص، الذي لم يُعدَّل في بيروت. فالحديث عن تجميده سابق لأوانه، علماً بأنّ إسرائيل لن تقبل بإعادة النظر فيه.

وقد اعترف مسؤول أميركي رفيع المستوى بأنّ هنالك مشكلة متمثلة في واقع أنّ تلك الاتفاقية لم يمكن لها أن توضع موضع التطبيق. وجرى تشكيل فريق عمل إسرائيلي أميركي، ليتولّى، وفق

---

(1) زيارة مناحيم بيغن في حزيران/ يونيو 1982.

تصريح لدبلوماسي أميركي، **فحصها من مظاهرها كافة. فليس المراد إلغاؤها أو التخفيف منها إلى حدّ تفقد معه قيمتها كلها، بل النظر فقط في ما إذا كنا نستطيع العثور على صيغة من شأنها جعل سورية تعدّل من موقفها المتشدد.** ومع أنّ الانسحاب السوري لم يعد موضع بحث، فإنّ ذلك الإعلان قد أعقبته ثلاث ساعات من القصف للمناطق السكنية في بيروت الشرقية أوقعت ثلاثة قتلى و27 جريحاً.

وصل أمين الجميّل إلى واشنطن في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر، على متن طائرة كونكورد. ولما كان على علم بأنّ الدور الإعلامي يمكن أن يكون حاسماً بالنسبة إلى الزيارة التي يقوم بها، فقد طلب تخصيص قاعة للصحافة، في قبو فندق «فيستا أنترناشيونال» الذي حلّ فيه نزيلاً. وكان بوسع الصحفيين الأميركيين أن يجدوا التسهيلات المطلوبة للقائه. وقد سبقه إلى هنالك كل من إيلي سالم ووديع حدّاد وغسان التويني. ولقد استطاعوا أن يشاهدوا من على شاشة التلفزيون، اللقاء الأخير بين إسحق شامير والرئيس الأميركي. كذلك شاهدوا، على درج البيت الأبيض، رئيس الوزراء الإسرائيلي وهو يدلي بحديث للصحافة: **إنّما تمثّل سورية اليوم تهديداً رئيساً للسلام في منطقتنا، لأنها تحتل أكثر من ستين بالمئة من مساحة لبنان، وبسبب تمركز الأسلحة وطواقمها العسكرية السوفييتية فوق أراضيها.** ثم انتهى إلى القول إنّ حكومته **ترفض أيّ تغيير كان في اتفاقية 17 أيار/ مايو بين تل أبيب وبيروت بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان.** وانتاب اللبنانيين الثلاثة شعور بأن إقامة رئيسهم سوف تكون شاقة جداً. ولقد كانت كذلك.

في اليوم التالي، تناول أمين الجميّل طعام الغداء في البيت الأبيض مع الرئيس رونالد ريغان، وجورج بوش (الأب)، نائب الرئيس، وجورج شولتز وروبرت ماكفرلين. ولقد قال له رئيس السلطة التنفيذية الأميركية إنّه غير مستاء من نتائج مؤتمر جنيف. وأقرّ بأنّه يفهم المشكلات التي تسبّبت بها الاتفاقية للسوريين وقبل بواقع تجميد النص. لكنّه تمنّى عليه عدم إلغاء تلك الاتفاقية (فمن شأن ذلك إثارة حفيظة إسرائيل وكنس الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة) وعدم تطبيقها (تفادياً لإثارة حفيظة دمشق)، وعدم تعديلها أو تنقيحها (لئلا يبدو ذلك علامة ضعف حيال السوريين الذين قد يغدون أكثر تطلّباً). فلا مناص إذن من تخيّل خيار رابع. ولقد اختار ريغان رجلاً يتولّى ذلك الشأن، هو: دونالد رمسفيلد. فينبغي لهذا الأخير أن يعمل مع اللبنانيين ومع السوريين تنسيقاً مع السعوديين. وخلاصة القول إنه مع مغادرة العاصمة الفيدرالية، لم يكن الملفّ حول الاتفاقية قد تقدّم قيد أنملة. وبالمقابل، فقد وافقت الولايات المتحدة على تشكيل مجموعتَيْ عمل، تهدفان كما قال جورج شولتز، **إلى متابعة المسائل المالية والعسكرية متابعة دائمة، في سبيل التوصّل إلى تلاحم جديد في التعاون مع لبنان.**

وإنهّ لعزاء كبير لو كان يمكن القول إنّ شيئاً ما قد تحقق. فقد بدت المسألة الوحيدة التي

طرحها أمين الجميّل، حيال الزوبعة من الملفات العديدة التي جرى التطرّق إليها لدى زيارة إسحق شامير وموشيه أرينز، بلا موضوع وشبه فارغة. فلم يكن لديه من شيء يقترحه والكثير لكي يتسوّله. فكان لذلك الانتقال وقع انفجار كأنّه غلطة نفسية وسياسية ثقيل وقعها. فقد انقضى ذلك الزمان الذي كان فيه الرئيس «الصغير» يخلّف في النفوس انطباعاً لِـ«شجاعته» حيال ضخامة المصاعب التي يلاقيها. فتردده وإرادته المنصبّة على إنقاذ نظامه فقط كانت تتسبّب بأشد الغيظ، على نحو ما أكّد في مجالسهم الخاصة، موظفون كبار في الإدارة وفي البنتاغون. ولقد قال أحدهم فيما بعد[1]: ما كان بوسعنا القيام بإعمار لبنان بدلاً عنه، فالأمر منوط به هو. كما اقترح عليه رونالد ريغان، في حديث على انفراد، بأن يجهد أكثر ليصنع لنفسه صورة زعيم قوي قادر على توجيه مستقبل بلاده وبناء وحدته الوطنية.

استثارت جولة الرئيس الفاشلة زخات من القذائف التي انهمرت على الأحياء السكنية المسيحية. وهاجم وليد جنبلاط، من قصره في المختارة، أمين الجميّل مشيراً إلى أنّه لا يملك أي حلّ سياسي يعرضه. ثم أُفلتت المدافع الدرزية والسورية من عقالها. فأصيبت المناطق السكنية المسيحية كافة والمواقع الأميركية في المطار. واستُخرج من أحد مراكز «المارينز» الذي أصيب إصابة مباشرة، ثمانية قتلى وجريحان بحالة الخطر. فطلبت القيادة الأميركية الدعم من مدفعية أسطولها الحربي. وأصدر ريغان أمراً شخصياً، وقد أُخطِر بمقتل جنوده، بالقيام بغارة جوية انتقامية. فانطلقت عند فجر 3 كانون الأول/ ديسمبر، 24 طائرة من طراز Intruder A6 وCorsair A7 تحفّ بها مطاردات F14، من على ظهر حاملتي الطائرات «جون كندي» و«إندبندنس» لقصف بطاريات الصواريخ في الجبل اللبناني. أما وقد كشفتها الرادارات السورية فقد اصطدمت بحاجز من الصواريخ المضادة للطائرات. فقذف طاقم طائرة من طراز «إنترودر A6» بنفسه بعد إصابتها بصاروخ سام 7. فتمّ أسر الملاح، الملازم روبرت غودمان، لدى هبوطه على الأرض. أما قائد الطائرة، الملازم مارك لانغ، فكان أسوأ حظاً. لقد أصيب برشقات رشاش وهو يهبط بالمظلة، فوصل إلى الأرض جثة هامدة. وظلت جثته ساعات طويلة إلى جانب الطريق، غير بعيد عن كفر سلوان. وحاولت طائرة أخرى من طراز «كورسير A7» الهبوط بعد إصابتها، لكنّ قائدها النقيب إدواردز أندروز اضطرّ لأن يقذف بنفسه. فسقطت الطائرة وتحطمت فوق منزل في الزوق، متسببة بإصابات بالغة لستة من أفراد عائلة تابت المقيمين فيه. وجرى التقاط الطيار من خليج جونيه بواسطة الجيش اللبناني ثم توجّه إلى الحاملة «إندبندنس» في حوّامة. وكانت أول مرة تقع فيها مواجهة واشتباك بين الجيشين الأميركي والسوري. جرى اعتبار فقدان طائرتين تابعتين للأسطول السادس «ضربة قوية» تلقتها البحرية الأميركية. كانت ضربة ومعها إهانة رافقتهما خسارة كبرى للهيبة، إثر أول تدخّل كبير في لبنان،

(1) في حديث لآلان ميتارغ في آب/ أغسطس 1995.

وثالثة الأثافي أنّ ذلك كان بإيعاز مباشر من رئيس الولايات المتحدة. وعبثاً حاول الأسطول السادس من بعد مضاعفة جولاته الاستطلاعية فوق لبنان، فالمصيبة قد وقعت. أمّا دمشق فانتشت نصراً. لقد برهنت على فاعلية أسلحتها.

بينما كان يجري انتشال النقيب إدواردز أندروز من المياه على يد البحارة اللبنانيين، أحاط الإسرائيليون القوات اللبنانية علماً بأنّ وليد جنبلاط قد سمح بسحب وحدات القوات اللبنانية المحتجزة في دير القمر. وأوضحوا لهم أنّهم على استعداد للمشاركة مباشرة في العملية لضمان سلامتها.

كان ذلك القرار نتيجة عاملين اثنين. فقد مارست تل أبيب من جهة ضغطاً قوياً على الزعيم الدرزي. فصحافة العالم أجمع تستحضر يومياً «مأساة الرهائن في دير القمر» ومخاطر مذبحة جديدة على نمط صبرا وشاتيلا. فاكتشاف مقبرة جماعية في قرية كفرنبرخ المسيحية أثار النفوس في إسرائيل، ولم تعد الحكومة تقبل بالتعرّض لأدنى مخاطرة. أما العامل الآخر فهو المشروع المتقدّم جداً، الذي تجري مناقشته بين سورية والعربية السعودية وشرعية انتشار قسم من القوة متعددة الجنسيات والأمن الداخلي اللبناني في المدينة المحاصرة وإخلاء اللاجئين. فقد كان جنبلاط يعلم أنه إذا ما جرى اتخاذ قرار - وذلك ممكن بسرعة - فلا يسعه سوى تنفيذه من غير أن يحقق منه ربحاً لنفسه. فأعلن عنه مسبقاً. ولكي يكون تأثيره أعمق في النفوس، عقدَ ممثلُه في بيروت، فؤاد سلمان، مؤتمراً صحفياً في اليوم التالي، ليعلن عن رفع الحصار رسمياً، في الذكرى السادسة والستين لمولد كمال جنبلاط، ومن دون أن يفرض الحزب التقدمي الاشتراكي شرطاً أو يطالب بأي شيء بالمقابل.

أما في صباح اليوم التالي، فإنّ الصحف اليومية لم تُشِر إلى ذلك النبأ الذي طال انتظاره، إلّا في صفحاتها الداخلية. فالصفحة «الأولى» كانت مخصصة لعمليات القصف المكثفة للأحياء السكنية، والردود الغاضبة من العواصم العربية، التي ندّدت كلها بالهجوم الجوي للأسطول السادس والتواطؤ الإسرائيلي الأميركي. وحتى ياسر عرفات - الذي كان للمفارقة ينحني تحت وقع الضربات للجنود السوريين في طرابلس - وبغداد - التي يفرّق بينها وبين دمشق خصومة أسطورية - قد أكّدا دعمهما للجيش السوري. لقد كانوا جميعاً يعتبرون أنّ الولايات المتحدة أصبحت عدوّ الأمة العربية وشريك الكيان الصهيوني. أما المرشحون الديمقراطيون الثمانية للانتخابات الرئاسية الأميركية فقد انتقدوا ريغان نقداً عنيفاً معلنين أنّ العمليات الانتقامية لا تحلّ محلّ السياسة.

إلّا أنّ رفع الحصار عن دير القمر، لم يضع حداً لعذابات المحاصرين. فما كان من شيء جاهز لتأمين رحيلهم. وما من أحد أشار إلى شروط رفع الحصار. فالعنصر الوحيد الملموس تمثّل في تخفيف التدابير العسكرية الدرزية حول البلدة. وتولى ميثير داغان القيام بجولات مكوكية بين

الشوف ومكتب فادي أفرام لإتمام العملية. وكانت لدى هذا الطرف وذاك رغبة في الإبقاء على المسيحيين في دير القمر. فالسكان راغبون في البقاء رغبة حقيقية، لكن بشرط أن تكون المدينة محميّة وأن تتوافر لهم إمكانية استخدام طريق آمن للدخول والخروج وفق ما يشاؤون. فوافق الجميع بسرعة على وجود رجال الدرك، وأن يتراوح عددهم بين مئتين وثلاث مئة دون أسلحة ثقيلة. وأبدى الإسرائيليون استعدادهم للانخراط في انسحاب ميليشيا «القوات» وفي الأرتال الأولى[1]. لكنّ داغان لم يشأ أن يُتَّهم لاحقاً بأنّه عمل على إخلاء آخر معقل مسيحي في الجبل. فطالب بأن تكون المصادقة على القرارات بعبارات متماثلة من الطرفين ومن الحكومة اللبنانية. وبدأت حينئذ المفاوضات الحقيقية. فطالب وليد جنبلاط بإعادة فتح مصنعه للإسمنت في سبلين، الواقع بين البحر والشوف. فتعهّدت الميليشيا المسيحية بالكفّ عن قصفه. وضمن الدروز بالمقابل، أن يكون طريق دير القمر–بيروت، مروراً بكفرحيم، آمناً تماماً بالنسبة إلى المسيحيين. وكان جنبلاط ينوي الانتهاء من مشكلة دير القمر بأسرع ما يمكن. فقد تلقى، عن طريق غير مباشر، توبيخاً شديداً من دمشق لأنّه فتح مع الإسرائيليين حواراً غير متفق عليه مسبقاً. وفي 10 كانون الأول/ ديسمبر، صعد داغان ولوبراني قبيل الظهر للقائه في المختارة، من أجل ضبط التفاصيل كافة المتعلقة بعملية الإخلاء. وبعد مرورهما في البهو، حيث يسمع على الدوام خرير خيط من ماء، وصعود الدرج الحجري الواسع الذي يؤدي إلى جناح الضيوف، جلسا ينتظرانه في صالون مفروش بأرائك عريضة وفيه مدفأة تعمل على المازوت (صوبيا). فرفض جنبلاط اجتياز الباحة الداخلية للقائهما. وتولّى الطاهي لديه مهمة نقل الرسائل بين الطرفين. وبعد ذلك بساعات، التقطت الاستخبارات العسكرية لدى «القوات»، التي يديرها إيلي وزّان (عبّاس)، عن طريق التنصّت على موجات البث الدرزية، الأمر الذي أصدره جنبلاط إلى رجاله كي يتعاونوا مع الاسرائيليين.

وافق مجلس الأمن بالإجماع على ترحيل أربعة آلاف مقاتل تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية من طرابلس. وقد سهّلت هيئة الأمم المتحدة إحلال وقف إطلاق النار، حين سمحت للبواخر التي قبلت بالتدخل، بأن ترفع علمها.

كان عرفات ورجاله في عزلة تامة، في حيّ الزاهرية، إلى الشمال من طرابلس. فهذه المنطقة السكنية التي اشتهرت بهدوئها وطمأنينتها، في تلك الزاوية من المدينة بمساحة بضعة كيلومترات مربعة، قد هجرها قاطنوها لتتحوّل الآن إلى أبنية خرقها الرصاص وشظايا القنابل، وشوارع محفّرة امتلأت أرصفتها بالركام. تحدها من جهة بساتين البرتقال المهشّمة ونهر طرابلس الذي جفّت مياهه، ومن الجهة الأخرى البحر والمراكب الإسرائيلية التي تمرّ قريباً جداً حتى يكاد المرء يظنّ أنّ بوسعه

(1) عدد أفراد الميليشيا 2650، و17 قطعة من الأسلحة الثقيلة المحمولة، و28 عربة عسكرية و28 شاحنة ذخائر و5800 من المدنيين منهم 400 معوّق و500 سيارة.

لمسها، ومن الجهات الأخرى كافة خط جبهة يقف عنده المنشقون الفلسطينيون والجنود السوريون. وكان مكبّر للصوت في أحد البيوت المهدّمة يبثّ بأعلى صوت من مسجلة كاسيت أغنية فيروز بحبّك يا لبنان. وقام فدائيان اثنان، بلباسهما الزيتي المموّه، بمدّ سلك زينة من المصابيح الصغيرة الملونة، من إحدى النوافذ المخروقة، ترحيباً بعيد ميلاد يعرفان حقاً أنّه لن يقوى على المرور من هنالك. ولقد أقام عناصر الدرك من قوات الأمن الداخلي مخيماً لهم خارج حدود المدينة. أما محافظ المدينة فقد غادرها إلى بيروت منذ بداية المعارك؛ فالشرعية اللبنانية في إجازة. وقد حلّت محلّها دولة فلسطينية نشأت حول ياسر عرفات لشعب من المقاتلين الذين لا أرض لهم. وفي 8 كانون الأول/ ديسمبر، كان الختيار ورجاله المخلصون، ينجزون الاستعدادات الأخيرة لجلائهم الثاني عن لبنان. كان ينبغي لخمس بواخر يونانية أن تنقلهم تحت حماية سفن حربية فرنسية. لقد أضحى كل شيء جاهزاً. بل إنّ ياسر عرفات وقّع شيكاً بقيمة مليوني ليرة لبنانية للتعويض على 894 من السكان الذين تضررت بيوتهم بفعل المعارك. وقام أنصار عرفات والمنشقون عنه بتبادل الأسرى في ما بينهم. وكدّس المقاتلون حوائجهم في حقائب استعداداً للرحيل، فبعضهم سيتوجّه إلى اليمن الشمالي وبعضهم الآخر إلى تونس أو الجزائر.

لكنّ تل أبيب لم تكن تنظر إلى الأمور على ذلك النحو. فقبل يومين، وقع هجوم بقنبلة على باص فأوقع 4 قتلى و43 جريحاً في جادة هرتزل، أي في شارع من الشوارع الرئيسة في القدس. وقد تبنّت منظمة التحرير الفلسطينية العملية، مكرّرة أنّ بوسع المنظمة التدخّل أينما كان. وقد شعر الإسرائيليون بصدمة عميقة بسبب عدد الضحايا ومكان الاعتداء لا سيّما في المدينة المقدسة. فهتف إسحق شامير صارخاً: **لا ينبغي خروج أبي عمّار من طرابلس حياً. سوف نمضي لضرب منظمة التحرير الفلسطينية بالوسائل كافة إلى حين اختفاء هذا الشر.**

فجرى على الفور تعليق إبحار الفلسطينيين. وعادت البواخر اليونانية التي اقتربت من المرفأ إلى عرض البحر. وبعد ذلك بساعات، جرى قصف بحري مكثّف وغارات إسرائيلية أصابت عزلة ياسر عرفات. وأطلق أرييل شارون إنذاراً **إنّ إسرائيل لترتكب خطأ فادحاً إذا ما سمحت لياسر عرفات بالخروج من طرابلس ولمنظمة التحرير بإعادة بناء ذاتها.** وقامت البحرية الإسرائيلية، في 13 كانون الأول/ ديسمبر، بعملية قصف ثانية على مدينة الأشباح. واحتجّ الأميركيون لكنّ تل أبيب أعلنت عن تصميمها على الحيلولة دون رحيل الختيار.

قبل أن ينتصف ليل 13 كانون أول 1983 بقليل، حطّت، لفترة قصيرة، حوّامة مطفأة الأنوار من نوع (CH53)، تابعة لكتيبة الحوّامات الإسرائيلية الأولى، وراء محطة الزوق الكهربائية، مما سمح لميثير داغان ومرافقيه السبعة بالنزول[1]. وفي أقل من نصف ساعة، قادتهم سيارات تابعة

(1) روفن إيرليخ وزاغا، رئيس تسافيري غيزي، ودودو، من جهاز آمان، وميخا من الموساد وثلاثة من الحرس الشخصي.

للقوات اللبنانية إلى الكرنتينا. وقاموا مع قادة «القوات»(1)، لأكثر من ساعة، بإيضاح الموقف حول ملف دير القمر. فجرت المفاوضات بصراحة ووضوح. لقد كانت لداغان اتصالات متواترة مع رئيس المكتب الثاني اللبناني، سيمون قسّيس. أما الدروز، وخلافاً لتأكيدات فؤاد سلمان، قبل بضعة أيام، بعدم وضع أي شرط أمام رفع الحصار، فأخذوا يطالبون الآن ببعض التعويضات: التوزيع الكهربائي(2) والتوقف عن عمليات القصف التي يقوم بها الجيش، على الطريق الذي يقود من ناحيتهم إلى الجبهة، وكفرحيم وجسر القاضي وبيصور وعرمون والشويفات، فيتيح لهم الوصول إلى بيروت. بالمقابل، فإنّ كل شيء يوشك أن يكون جاهزاً. كذلك ينبغي أن تعطي الحكومة اللبنانية الضوء الأخضر. أما الإسرائيليون فلم يتمّ التماس ذلك منهم، فهم يرفضون التدخّل في ما وراء خط انتشارهم.

قال ميثير داغان للبنانيين:

– نريد جواباً واضحاً. فلا يسعنا من دونه أن نفعل شيئاً. لقد وعدني سيمون قسّيس بشيء إيجابي غداً. وينبغي لرئيسكم أن يعطي موافقته. فمن غير الممكن القيام بمثل هذه العملية سراً.

فقال حبيقة مؤكّداً:

– إنّ أمين متوجّه غداً إلى لندن.

– ذلك شأنه هو. وينبغي أن يصلنا جواب رسمي عبر الطريق الأميركي.

أعطى أمين موافقته في حدود الظهيرة. وعاد داغان إلى الكرنتينا في وضح النهار، وكانت الساعة تقارب الثالثة والنصف بعد الظهر، من أجل تسوية نهائية للتفاصيل الأخيرة كلها. فصار بوسع اللاجئين الخروج. كانوا قد قدِموا من 64 قرية، وعاشوا على مدى مئة ويومين اثنين من الحصار، مكدّسين في مبانٍ عامة، ومواقع تاريخية، وفي 14 كنيسة في الضاحية وفي مسجد وكنيس وفي السيارات والأقبية وسوق الحرير. لقد أضحى السّأم والخوف والبرد خارج حدود القدرة على التحمّل. ولم تعد لديهم سوى رغبة واحدة: الخروج! والخروج بأقصى سرعة.

قبل أن تشرق شمس الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1983، ووسط ضباب أضفى سكوناً وصمتاً على الليل، عبرت ناقلات نصف لواء إسرائيلي متحرّك حاجز حدودها في منطقة باتر، وتجاوزت وسط ضجيج محركاتها ومجنزراتها الطريق المتعرج المضاء بأنوار كاشفة لتتوجه صوب الشمال. فعبرت القرية التالية، وهي المختارة، بمحاذاة سور قصر جنبلاط، ثم توجّهت إلى دير القمر. وكان في الوقت ذاته مئتان إلى ثلاث مئة من قوى الأمن الداخلي، بمعاطف رمادية، هي

---

(1) فادي أفرام وإيلي حبيقة وأنطوان بريدي وسمير جعجع وحنا صافتلي وبرسي كمب (كمب).

(2) كانت الكهرباء سلعة نادرة، لأنّ المحطات قد دُمّرت تدميراً كبيراً من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ أقساماً من كابلات التوتر العالي قد سرقت على امتداد كيلومترات للاستفادة من نحاسها.

بلون ملابسهم الموحدة المموّهة، يدخلون في باصات إلى الشوف عن طريق الدامور كفرشيما. واتخذ الإسرائيليون مواقع على المفارق كافة المؤدية إلى المدينة المحاصرة، لكن من غير أن يدخلوها. وتوقّف رتل من الشاحنات المغطاة عند أحد مداخلها. وفتح مكتب الصليب الأحمر المستقر في دير القمر أبوابه. وغادر مقاتلو القوات اللبنانية ثكناتهم ومواقعهم الدفاعية، وهم يحملون الجُعَب على ظهورهم، وأسلحتهم الفردية في أيديهم، فتجمّعوا حول عين الماء في ساحة الميدان. وقد حلّ محلّهم متنا دركي بقيادة طلال الحاج. وكان ميثير داغان أول إسرائيلي يدخل البلدة ماشياً والبسمة على شفتيه وسيجاره الأبدي بين أصابعه. وقد صفّق له اللاجئون. وفي حدود الظهر، وصل الجنرال موشيه ليڤي في حوّامة ليشرف على كل شيء.

صعد عناصر الميليشيا المسيحية في أول رتل من 40 شاحنة تابعة للجيش الإسرائيلي. وتجمّع مئات المدنيين من جانبي الساحة يلوّحون لهم مودّعين وينثرون عليهم حفنات من الأرُزّ. تحرّك الرتل الأول في جوّ غائم وسماء رمادية باتجاه كفرحيم ثم الدامور وأخيراً نحو مرفأ صيدا. وظهر عناصر الميليشيا الدروز بسرعة على جانب الطريق. كانت قبضاتهم مرفوعة وهم في الشروال الأسود والطاقية البيضاء، وسلاحهم على الكتف، فيوجّهون للمغادرين إشارات بذيئة ويقذفون موكبهم بالحجارة، من غير إثارة ردّة فعل لدى الإسرائيليين. وكان المسار، طوال فترة تقدّم الشاحنات، خاضعاً على الدوام لمراقبة حوّامات القتال. وبعد ساعات قلائل، تحرّك موكب ثان، يحمل الأسلحة الثقيلة والتجهيزات، فسلك الطريق ذاته.

أما رجال الميليشيا، فقد جرى إنزالهم عبر الدامور، في صيدا، حيث كان مركبان في انتظارهم، مثلما كان مخططاً من قبل.

أما في وسط النهار، فسرت في بيروت شائعة على حين غرّة. أنّ الرئيس الجميّل قد اختفى. ثم تحوّلت إلى خبر. فما من أحد رآه منذ الضحى. أما مستشاره وديع حدّاد فعلم عبر الإذاعة أنّ أمين الجميّل في طرابلس بليبيا. وجال النبأ في بيروت خلال دقائق. وعلى الفور أحسّت الطائفة الشيعية بالصدمة. فهي تعتبر ليبيا مسؤولة عن اختفاء الإمام موسى الصدر في أثناء زيارة رسمية إلى تلك البلاد في الأشهر الأخيرة من عام 1978. ومنذ ذلك الحين والعلاقات بين بيروت وطرابلس متوترة جداً وليس من شيء يحصل دون موافقة المسؤولين الشيعة. أما هذه المرة، فالأمر لم يقتصر على عدم استشارتهم فقط، بل على إبقائهم في حالة الجهل المطلق. لقد كان رئيس الوزراء شفيق الوزّان، وكامل الأسعد رئيس مجلس النواب، وهو شيعي، في غاية السخط. ولم يكن وضع البلد بحاجة لعنصر إضافي من الاستياء من جانب إحدى الطوائف المحورية. واستقبل الوزّان وكامل الأسعد، الرئيس العائد توّاً، فقال لهم مبتسماً:

– لقد قمت بمبادرة نفسية سياسية.

وأوضح للرجلين الذاهلين، أنّه قد طلب إلى معمّر القذافي، رئيس الجامعة الإسلامية، أن يستدعي الليبيين الذين في البقاع، والمنخرطين إلى جانب السوريين، وخصوصاً أن يقطع الإمدادات عن الأحزاب اللبنانية المعارضة التي تتولى ليبيا تمويلها. وروى لهما أمين جواب محدّثه وهو يقلّد طريقته في الكلام:

– ألا يزال ليبيون هنالك؟ أرسلت في الواقع، منذ بضعة شهور، مستشارين لتدريب الميليشيا الوطنية، وهم لا يزالون هنالك! إنّ مساعديّ لا يقولون لي شيئاً البتّة. إنّهم لا يخبروني. ولنتناول موضوعاً آخر. عليك أن تقرأ كتابي الصغير الأخضر. إنّه أفضل بحث سياسي في هذا القرن. أقرأه وطبّق الدروس الواردة فيه. إنّ مشاكل لبنان قد حُلّت.

وظلّ الوزّان والأسعد عاجزين عن الكلام حيال ذلك الاستخفاف كله.

غادر المركبان المشحونان حتى الحدّ الأقصى ميناء صيدا مع حلول الظلام. فوصلا عند منتصف الليل إلى الحوض الخامس في مرفأ بيروت. وكان في انتظارهم على الرصيف المضاء إضاءة شديدة، پيار الجميّل وفادي أفرام وسمير جعجع والأكثرية الساحقة من القادة العسكريين للقوات اللبنانية. أما المدنيون فمرّوا من جانبهم، بصحبة الصليب الأحمر، عبر جزين وصولاً إلى صيدا فالدامور، ثم سلكوا الطريق إلى بيروت.

جرى تكليف العقيد سيمون قسّيس، رئيس المكتب الثاني في الجيش اللبناني، من قبل رئاسة الجمهورية، ليشكر الدولة العبريّة رسمياً، لكن شفوياً وبصورة سرية، باسم الحكومة اللبنانية. أما فادي أفرام، فبعث من جانبه برسالة إلى رئيس الوزراء.

16/ 12/ 1983

إلى سعادة رئيس الوزراء إسحق شامير

من فادي أفرام، قائد القوات اللبنانية.

أود أن أبعث إليكم باسمي وباسم القوات اللبنانية، بامتناننا للمبادرة التي اتخذتموها لوضع حد للحصار المفروض على دير القمر، وضمان أمن قواتنا لدى مغادرتها المدينة.

وأود أن انتهز هذه الفرصة لأجتذب انتباهكم إلى واقع أنّ دير القمر بحاجة اليوم لاهتمامكم أكثر من أي وقت مضى، لأنها متروكة دون أية حماية مادية، وأيضاً لضمان بقاء دير القمر مدينة مسيحية. إنّ الوصول الحرّ إلى المدينة أمر حيوي. ونحن نأمل أنّ هذه العملية التي قمتم بتحريكها وتنفيذها ستؤدي في النهاية إلى عودة اللاجئين المسيحيين إلى منازلهم وقراهم، وأن يوضع حد على ذلك النحو للكابوس الطويل الذي عاشوه طوال هذه الشهور الثلاثة الأخيرة.

وأنا واثق، إضافة إلى ذلك، من أنّ هذا المسعى سوف يمثل صفحة جديدة للعلاقات بين الطائفة المسيحية وشعب إسرائيل، وبين المستوى الرسمي ودولة إسرائيل. وليحفظكم الله.

فادي أفرام

في 17 ك1، جاء دور إخلاء الفلسطينيين من طرابلس. فعند الضحى، أبحر الرتل الأول من 93 جريحاً، مدنيين وعسكريين، على ظهر الباخرة الإيطالية آبيا Appia، بمواكبة الصليب الأحمر الدولي في قبرص. وفي حدود الظهر، وقع هجوم على الإسرائيليين بالقنابل اليدوية في قلب صيدا فأوقع جريحين بحالة الخطر. وردّ الجيش الإسرائيلي على الفور بهجوم جوي على حيّ الزاهرية في طرابلس، فأغلق على ذلك النحو، وبعنف، الباب الذي فُتِح قليلاً في وجه الإجلاء. ولزمت أيضاً ثلاثة أيام من المحادثات المكثفة مع تل أبيب لتتمكن البواخر اليونانية الخمس من الرسوّ واحدة إثر أخرى عند رصيف الميناء. لقد تجمّع 4300 فلسطيني، من أعضاء فتح بشكل رئيس، في نقاط مختلفة من القطاع، ثم توجّهوا، بعضهم وراء بعضهم الآخر، نحو البواخر، محتفظين ببنادقهم وحوائجهم الشخصية. وتقدّموا بنظام نحو السلالم. وكانت العمليات موضع مراقبة مكثفة من قبل طائرات الاستطلاع الإسرائيلية من نوع «كفير»[1] المجهزة بكاميرات دقيقة. وتحرّكت المراكب على الفور بركّابها. فتوجّهت الباخرة «ڤيرجينيا» نحو ميناء الحديدة في اليمن الشمالي، أمّا «أوديسيوس إليتيس»، والتي صعد على متنها عرفات وهيئة أركانه، فسارت رسمياً في الاتجاه ذاته. وتوجّهت «لونيان غلوري» نحو تونس. أما السفينتان «ناكسوس» و«سانتوريني» فقصدتا بور سودان تحت حماية طرّادين وأربعة مراكب مرافقة فرنسية.

لم تعارض إسرائيل عملية الإجلاء، على الرغم من الريبة الثابتة، مما أوجد دهشة حادة في الرأي العام وضيقاً في الطبقة السياسية. لقد رضخت حكومة شامير للضغوط الدولية، لا سيّما الأميركية. أما بعد يومين فتحوّل الشعور بالضيق إلى غضب. ذلك أنّ حسني مبارك، وهو رجل الدولة العربية الوحيدة التي وقعت سلاماً مع إسرائيل، استقبل بعد يومين ياسر عرفات بالعناق. إنّ اللقاء الاحتفالي الذي أخذ الجميع على حين غرة، أثار أيضاً موجة من الاستنكار في الدول العربية. وجرى شجب موقف ياسر عرفات من الزعماء الفلسطينيين جميعاً. لقد بدأت في ذلك النهار قصة أخرى، إنّها قصة سلام عسير.

---

(1) طائرة مطاردة من صنع إسرائيلي، منسوخة عن الميراج الفرنسية.

21
ينبغي ملاحقة الكذاب حتى بيته

ظنّت إسرائيل، بعد نجاح عملية إخلاء اللاجئين من دير القمر، أنّ الفرصة باتت مواتية لأشكال من التعاون مع لبنان. فكثّف الإسرائيليون من اتصالاتهم ببيروت، مع عقد النيّة على الإقناع. وكانت حججهم ذات صنفين اثنين: التخفيف من الوزن الأميركي أولاً عن طريق التقليل من قيمة عونهم ومداه. ولا ريب في أنّ تل أبيب تعترف، بأنّ الولايات المتحدة انخرطت انخراطاً واسعاً، بالقدرة والمصداقية، في وقوفها وراء أمين الجميّل أكثر مما فعلت مع أي بلد آخر من قبل. إلّا أنها، جغرافياً، بعيدة عن لبنان ولا يسع عونها أن يكون أبدياً. لا سيّما وأنّ ذلك العون سوف يغدو محدوداً جداً في مستقبل قريب، بسبب الانتخابات الرئاسية. أما إسرائيل، فمستعدة من جانبها للوقوف على الفور إلى جانب لبنان، البلد الجار إلى الأبد. زد أنّ تل أبيب تجزم بعدم افتقارها للأفكار من أجل مساعدة الجميّل. فلم يعد هنالك سوى تحديد الأهداف والمرامي.

أما الحجة الثانية فتتعلّق بسورية. إذ يؤكّد الإسرائيليون على أن تأثيرها على لبنان يمكن بكل يسر أن يغدو محدوداً. فما إن يقبل الرئيس الجميّل بأن يستشير الدولة العبريّة وينسّق أفعاله معها تنسيقاً مباشراً، حتى تلقي تل أبيب بثقلها إلى جانبه. فقد أكّد وزير الدفاع السوري، مصطفى طلاس، في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1983 أنّ قوات بلاده لن تغادر لبنان ما دامت إسرائيل لم تسحب قواتها منه، وخصوصاً ما دام الخلل بين مختلف الأفرقاء اللبنانيين لم يسوًّ. وقال: **لن نتحرّك قبل أن تكتمل عملية المصالحة الوطنية. فنحن لن نسمح أبداً لفريق ما بالهيمنة على فريق آخر. وينبغي على اللبنانيين إلغاء مبدأ الطائفية في الجيش وفي الإدارة.**

فقالت تل ابيب إنّ ذلك بالضبط ما ينبغي عمله، فلو قام أمين الجميّل بإصلاح سياسي حيال الدروز والشيعة فأوكل إليهم دوراً ذا قيمة أكبر، وإذا ما ارتأى أن يمنحهم دفعة إدارية و عينية حتى لا يكون ملزماً بالتنازل على الصعيد الدستوري، وإذا ما فكّر في إرساء أسس سياسة قوية ترمي إلى إحلال صدع بينهم، فإنّ بوسع إسرائيل أن تكون شريكاً يقظاً وفاعلاً لا سيّما وأنّ لها علاقات بالطائفتين.

كان في المساعي الإسرائيلية حيال بيروت شيء من نفاد الصبر. فإسرائيل في أمسّ الحاجة لانفتاح لبناني سريع حول نقطة واحدة على الأقل: تعيين خليفة للرائد سعد حدّاد. فإصابته السرطانية أضحت في مرحلتها النهائية وصارت أيامه معدودة. فقد نُقِل في حوّامة إلى مشفى رامبام في حيفا. ولا يمرّ يوم دون قيام شخصية إسرائيلية من أمثال موشيه أرينز أو أرييل شارون أو موشيه ليفي بزيارته. لقد بقي لديه وقت قصير يعيشه. وقد عُقِدت اجتماعاتٌ عديدة، حول المائدة ذاتها، ضمّت لبنانيين وإسرائيليين سعياً وراء العثور على خليفة له. لكنّ المفارقة، أنها مثّلت أيضاً مناسبة لوقت باشرت الدولة العبريّة فيه بمراجعة كاملة لوجودها العسكري في جنوب لبنان. أما وأنّه ليس له من خليفة سياسي، فإنّ خلافة الرائد قد تكون مناسبة لعودة الميليشيا التابعة له إلى تحت سلطة الحكومة المركزية، إذا ما قامت هذه بتعيين ضابط مصمّم على تطبيق بند الأمن في اتفاقية 17 أيار/ مايو. ويرتئي ذلك البند تحويل جيش لبنان الجنوبي إلى لواء تابع للجيش اللبناني، تُناط به مهمة حفظ الأمن على طول الحدود الإسرائيلية. أما وقاحة الموقف، كما حال أشياء كثيرة في السياسة، فهي أنّ تلك الخلافة ستتيح على ذلك النحو قلب صفحة من صفحات التاريخ. فلن يكون على القائد الجديد أن يتحمّل أعباء الماضي. فطلبت إسرائيل إذن، من لبنان، إيجاد ضابط لبناني يحظى بالموافقة، حتى لو كانت شبه رسمية.

أما بالنسبة إلى بيروت، فالأولوية مغايرة تماماً. لقد تضاعفت الاعتداءات على مواقع القوة متعددة الجنسيات. وكان أخطرها، ما وقع في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1983. فقد انفجرت شاحنة محمّلة بطنٍ ونصف من الـ تي. إن. تي[1]، ضدّ المركز الفرنسي فريغات Frégate، في ملعب دي شايلا، غير بعيد عن المدرسة الثانوية الفرنسية، عند حدود حي الأشرفية المسيحي. وكانت الحصيلة قتيلاً واحداً وسبعة عشر جريحاً. فقام جنود البحرية الفرنسيون من فورهم بعملية إعادة انتشار. أي أنّهم، بصيغة أخرى، قللوا عدد مواقعهم، مع تسليمهم مواقع شاتيلا وحيّ فرحات والطيّونة للجيش اللبناني. وأثار ذلك الانسحاب معركة منظّمة بين ميليشيا الشيعة والجنود اللبنانيين من أجل الاستيلاء على المراكز. واضطرّت هيئة الأركان لإرسال تعزيزات قوية للسيطرة على الوضع. فألقت حركة أمل الشيعية مسؤولية المعارك على الجيش. وأكّدت الاستخبارات العسكرية أنّ حركة أمل غُلِبت على أمرها بفعل عناصرها الموالين لإيران بقيادة حسين الموسوي، والذين جاؤوا مؤخراً بأعداد كبيرة من البقاع.

أصبحت القوات متعددة الجنسيات شديدة الفزع. فأفراد الوحدة الإيطالية كفّوا عن القيام

(1) كانت تلك هي الشحنة المتفجّرة في لبنان، التي تحمل الرقم المتسلسل 16780، منذ 1975. وقد أوقعت بمجموعها أكثر من 4000 ضحية. أما قوتها المتراكمة فتعادل قوة القنبلة الذرية التي مسحت مدينة هيروشيما في 5 آب/ أغسطس 1945. أما رئيس مفككي المتفجّرات، المساعد يوسف بيطار، فقد فكك حتى تاريخ 31 كانون الأول/ ديسمبر 1983 1870 شحنة متفجّرة في حياته العملية.

بدوريات، وكرر الرئيس ساندرو برتيني المطالبة بسحبهم. وتقوقع رجال الماريتز الأميركيون وراء أكياس الرمل في المطار. وقام جنود صاحبة الجلالة بعملية تمركز لعناصرهم. وتساءل الجميع دونما استثناء ما إن كان الوقت قد حان لمغادرة بيروت. وجاء وزير الدفاع الفرنسي، شارل هيرنو، لقضاء ليلة عيد الميلاد مع جنوده في بيروت ليخبرهم بأنّهم باقون وليرفع من معنوياتهم.

أخذ الوضع بالتدهور تدهوراً حتمياً ومتدرّجاً كل يوم. وسعى أمين الجميّل يائساً إلى تجميع المسيحيين الموارنة من حوله. فدعا غداة عيد الميلاد، أكبر الزعماء السياسيين والروحيين[1]، لعقد اجتماع سرّي، في القصر الجمهوري. قال لهم جازماً: **الطائفة المارونية هي في حالة دفاع عن النفس. فالعالم يظن أنّ في لبنان حرباً أهلية حيث أقلية مسيحية تحتكر السلطات كافة. ومؤتمر جنيف فُرِض علينا فرضاً وكذلك حال القرارات التي اتُخِذت فيه. أما في حال عقد مؤتمر ثانٍ، فينبغي أن نتوقّع أن تُفرَض علينا تغييرات دستورية في البنية الطائفية للدولة. ومن الضروري، حيال هذا الوضع، توحيد الصوت المسيحي. ينبغي أن يكون بيننا تنسيق دائم. وعلينا أن نكون معاً في مواجهة الاستحقاقات. علينا أن نظلّ موحدين.** كذلك أوضح الرئيس لمدعوّيه أنّ الأميركيين سيساعدونه ما دام لبنان قوياً. ثم أضاف **لكن أخشى إن قرّر الأميركيون الانسحاب من أن يسلّمونا للإسرائيليين.** ولقد أخذ على هؤلاء أنّهم يفضلون الحوار مع الطوائف اللبنانية بدلاً من الدولة. إلّا أنّ أمين الجميّل اعترف قائلاً:

- أرجو أن تكفّوا عن تدوين الملاحظات، فلي اتصالات شخصية بالإسرائيليين. ولم يعودوا يطلبون إليّ توقيع اتفاقية 17 أيار/ مايو.

وأصغى الزعماء المسيحيون إليه من غير التعهّد بشيء. فالتيار لا يسري بين الرئيس وبينهم.

اندفع الملياردير اللبناني السعودي رفيق الحريري، قاصداً بيروت، بطلب من الرياض - التماساً من واشنطن - لبحث حثيث عن التهدئة. فينبغي إسكات صوت الأسلحة بأي ثمن. فالمحللون الأميركيون مقتنعون بأن تدهور الوضع سوف يرغمهم مجدداً على التدخّل عسكرياً حتى لو اقتصر الأمر على عمليات قصف جوية أو بحرية. ومن شأن ذلك التدخّل أن يثير حرباً كلامية في الكونغرس في أوج المرحلة الانتخابية. ولقد أظهر استطلاع للرأي أنّ 57 % من الأميركيين يؤيّدون انسحاب الـ 1800 جندي من لبنان. والحال أنّ واشنطن كانت تبحث عن مخرج مشرّف من ذلك الملف. وكانت ترتفع أصوات توصف بـ «الخاصة»، مثل صوت هنري كيسنجر، فتقترح تسهيل تقطيع لبنان إلى ثلاث مناطق: الشمال وقسم من البقاع تحت «نفوذ سوري»، والقسم الثاني من وادي البقاع مع الجنوب «يعود لإسرائيل»، والباقي يجري تقسيمه إلى كنتونات طائفية متحدة حول

(1) نصرالله صفير نائب البطرك الماروني، وكميل شمعون وإلياس سركيس وبيار الجميّل والأباتي بولس نعمان، رئيس عام الرهبنة اللبنانية المارونية، وجورج سعادة الأمين العام لحزب الكتائب وشاكر أبو سليمان رئيس الرابطة المارونية وبطرس حرب وفادي أفرام.

نواة مسيحية تقوم مقام صمام بين تل أبيب ودمشق. وأصبح ذلك المشروع بسرعة قصوى، مع بعض التعديلات الخفيفة، موضع دراسة شائعة في هيئات الأركان كافة.

ما إن وصل رفيق الحريري إلى مطار بيروت الدولي، على متن طائرته الجيت الخاصة، ووسط تكتّم غير مألوف في لبنان، حتى انطلق من فوره نحو سلسلة من الاستشارات مع الفرقاء من أجل التعرّف على مطالبهم، وعلى نقاط تقارباتهم وتباعداتهم.

كان ينبغي معالجة ثلاثة انفجارات من العنف: عمليات القصف الأعمى للأحياء المسيحية انطلاقاً من مناطق يشرف عليها السوريون والدروز (عملية 12 كانون الثاني/ يناير أوقعت 26 قتيلاً و75 جريحاً) ونيرانها المعاكسة، والمعارك المتفرّقة بين الشيعة والجيش في الضاحية، وأخيراً إقليم الخروب الذي كان بيد «القوات». فقد طلبت إليهم تل أبيب بإلحاح أن يبقوا فيه.

تضاف إلى ذلك الضربات المباشرة، التي أضحت يومية، ضدّ القوة متعددة الجنسيات. فقد كانت تتبنّاها منظمات شيعية سرّية موالية لإيران. وقامت ظهران بـ«منحها الشرعية» بصوت رئيس المجلس (البرلمان)، علي أكبر رفسنجاني، الذي أكّد في مقابلة على أنّ موت جندي فرنسي أو أميركي في لبنان أفضل في نظر إيران من موت مئتي كتائبي (نشر في عدد 11 كانون الثاني 1984 في صحيفة الجمهورية الإسلامية).

أعلن الناطق الرسمي باسم الجيش الإسرائيلي، بعد انتهاء طقوس السبت اليهودي، في 14 كانون الثاني/ يناير 1984، نبأ وفاة الرائد سعد حدّاد. وقد خرج مناحيم بيغن عن الصمت الذي التزم به منذ استقالته ليوجّه التحية إلى ذاك الذي أسهم في التقارب بين إسرائيل ولبنان. وتحدّث كميل شمعون عن خسارة وطنية، فيما تحدّث بيار الجميّل عن ضابط شهم، نزيه ووطني. كان سعد حدّاد، من وجهة نظر بيروت الرسمية، قائد ثكنة القليعة منذ عام 1975، فيرد اسمه بهذه الصفة في قائمة الرواتب الشهرية.

كان الموكب الجنائزي بالنسبة إلى الدولة العبريّة، مناسبة للتعبير عن عرفانها. ولم يحصل قط أن حضر مناسبة مماثلة لشخص غير يهودي، مثل ذلك العدد من الشخصيات الإسرائيلية المرموقة. فكان هنالك رئيس الوزراء إسحق شامير ووزير الدفاع موشيه أرينز، والوزير بلا حقيبة أرييل شارون، وزعيم المعارضة شمعون پيريز، وما يقرب من عشرين من الجنرالات، على رأسهم قائد الأركان، وعدد من القدامى في لبنان مثل ديڤيد كيمحي وعازر وايزمن ورفائيل إيتان وأيضاً أڤيغدور بن غال، وقد تزاحم الجميع في كنيسة مرجعيون الصغيرة الباردة. كان يقف في الصف الأول، إلى جانب أفراد الأسرة وقيادة أركان جيش لبنان الجنوبي، قسم كبير من قيادة «القوات» وداني شمعون[1] وجمهور من المدنيين. أما الحكومة اللبنانية فرفضت من جانبها الانضمام إلى الحفل الجنائزي.

(1) أصل سعد حدّاد من دير القمر، معقل شمعون.

عندئذ طُرِحت مسألة خلافته طرحاً رسمياً. فالحكومة اللبنانية ووزارة الدفاع أصمّا آذانهما حيال الالتماسات الإسرائيلية. وقد عيّن هؤلاء الرائد إلياس خليل، وهو أحد مساعدي حدّاد وقائد قطاع أرزون لتأمين الخلافة. واعترضت هيئة الأركان العامة في بيروت اعتراضاً رخوا، حفاظاً على ماء الوجه، فذلك القرار يريحها. وما دام كل شيء على ما يرام، فالرائد خليل رجل عسكري، ولدى وقوع أي إشكال فإنّه لم يعيَّن من قِبَل بيروت.

تولّد الانطباع السيّئ في نفوس الأجانب المقيمين في بيروت، بأنّهم صاروا هدفاً مقصوداً بدءاً من منتصف كانون الثاني/ يناير 1984. فقد جُرِح ريمون فوتييه، سائق القنصلية الفرنسية، جرحاً خطيراً من قِبل رامٍ مجهول الهوية. أما القائم بالأعمال المصري، الذي نقل مكتبه إلى مقر السفارة الفرنسية، لأسبابٍ أمنية، فقد اغتيل في الشارع. أما إيليان دو شيكو، زوجة مدير المركز الثقافي الفرنسي، فقُتِلت في بيتها. وجرى اختطاف القنصل السعودي حسين عبدالله فرّاش. وقُتِل مالكولم كير، رئيس الجامعة الأميركية، برصاصة في الرأس، وهو داخل الحرم الجامعي.

وكانت تتبنّى تلك الاعتداءات نداءات هاتفية موجهة إلى وكالات الأنباء، ودوماً بصوت الرجل نفسه، الذي يقول إنّه من الجهاد الإسلامي. كان يتكلّم العربية بلهجة لبنانية مستهلاً حديثه ببسملات إسلامية، متوعّداً بجعل الأرض تنشق تحت أقدام الشياطين. وجرى، تهدئةً للنفوس، فرض حظر التجوال، إجراءً مشكوكاً في جدواه، من الساعة الثامنة مساء وحتى الخامسة صباحاً. وحوّمت في سماء بيروت، على ارتفاع منخفض، مطاردات أقلعت من على الحاملات. أما الفرنسيون المحرومون من حاملة الطائرات كليمنصو، التي استدعيت إلى ميناء طولون لضرورات الصيانة، فقد استقدموا، بطيران تكتيكي، أربع طائرات من طراز «جاغوار» تابعة للـ «فاتاك FATAC»[1]. وقد أقلعت تلك الطائرات من «إيستر» (في جنوب فرنسا) ومن «سولنزارا» (في كورسيكا). فقطعت تلك الطائرات المسافة حتى بيروت، بفضل تزويدها بالوقود جواً، لتحوّم في سماء المدينة على ارتفاع منخفض، ثم تعود أدراجها إلى فرنسا. وظنّ سكان العاصمة، وهم يرون تلك المطاردات فوق رؤوسهم بأنّهم حيال استعراض للقوة. . . من جانب إسرائيل.

أثار ذلك المناخ «المعادي للأجانب» موجة من عمليات الرحيل المستعجلة، فبعضهم توجّه نحو المنطقة المسيحية، وبعضهم الآخر إلى بلادهم.

وترافق فقدان الأمن بأزمة اقتصادية. فالليرة في هبوط يومي منذ أول الشهر. وسعرها حيال الدولار انخفض من 5،4 إلى 6 ليرات في غضون أربعة أيام. وجرى هجوم مباغت على العملة الخضراء. فتعرّضت الليرة لمزيد من الهبوط. وحلّقت أسعار المواد، ذات الضرورة الأوّلية،

(1) القوات الجوية التكتيكية، الأسطول الثاني في طولون.

ومعظمها مستورد. وما لبثت المواد المحلية أن تبعتها حفاظاً على الإيقاع. ولم يعد يتمّ توزيع الكهرباء، رسمياً، سوى 6 ساعات يومياً. أمّا على أرض الواقع، فأقل بكثير منها في الأحياء غير السكنيّة. وتوقّفت المضخات عن العمل فأضحى توزيع المياه غير مستقر. فليس من ماء ولا من صرف صحي. وتكيّف اللبنانيون فصاروا ينامون على إيقاع توزيع الكهرباء بالنسبة إلى العاملين على الآلات، فينهضون ليلاً، مستيقظين على صوت محرّك البراد، من أجل تشغيل الغسالة أو مكواة الملابس. وازدهرت مبيعات المولّدات الكهربائية ازدهاراً حقيقياً. فصارت توضع على الأرصفة أو على الشرفات، فيطغى هديرها على ضجيج المدينة طوال الليل. وغاصت بيروت في الكساد الذي يميّز الأوضاع، حيث لا يعود أحد يراقب أي شيء، ويستطيع كائن من كان أن يفرض قانونه من لحظة قبضه، أو اعتقاده بأنّه قابض على درهم من السلطة.

سعى مبعوثون أميركيون وسعوديون، بل فرنسيون أيضاً لممارسة ضغط على سورية من أجل فتح الطريق اللبناني المسدود سياسياً وعسكرياً. ومثلما يصطدم الذباب بلوح من الزجاج، كذلك اصطدمت تلك الباليه الدبلوماسية بالرفض السوري، على غير تعيين. فحين كانت مكانة المُحاور تحول دون اتخاذ موقف حاسم، كانت دمشق تؤكّد أنّ المسألة قضية لبنانية خالصة وأنّ المُحاور هو زعيم المعارضة: وليد جنبلاط. كان الزعيم الدرزي يطالب بمخطط أمني لبيروت والجبل، وكذلك بانسحاب القوة متعددة الجنسيات. كما كان ذلك الانسحاب ماثلاً في الخطابات كافة المتعلقة بلبنان في سورية وفي الاتحاد السوفييتي. ولقد توجّه السفير السوفييتي في لبنان، ألكسندر سولداتوف، ليقول بنفسه لشفيق الوزّان إنّه يتمنى من أعماق قلبه انسحاباً سريعاً لقوات حلف شمال الأطلسي من لبنان.

اقترحت العربية السعودية خطة فك ارتباط للقوات الموجودة في لبنان، وكلّفت رفيق الحريري بالتفاوض عليه. فرفضه وليد جنبلاط، قبل أن يضيف قائلاً: لا يسعنا النظر إليه نظرة جادة ما دامت الاقتراحات السياسية المعقولة غير موجودة. فنحن مرغمون على مواصلة القتال.

كان وليد جنبلاط هو الذي يقود اللعبة ضمن التحالف اللبناني الموالي لسورية. فيقوم بدور القاطرة التي تقود المعارضة. وكانت تلك المعارضة، تضمّ إضافة إلى الدروز، حركة أمل الشيعية، وقسماً يتعاظم أكثر فأكثر، ويتألّف من السنّة ومن مسيحيي الشمال الذين يقفون خلف الرئيس السابق سليمان فرنجية، ومن حزب البعث الموالي لسورية ومن الحزب القومي السوري الاجتماعي. كان التصلّب وسياسة كل شيء أو لاشيء، التي يتبعها جنبلاط، تزيد في حدّة التوترات والمنازعات وتحول دون أي استقرار. فكان المخطط الأمني الذي اقترحه السعوديون وقبلت به الرئاسة والحكومة يصطدم بالعائق الوحيد: جنبلاط. ففي بداية الأمر، كانت دمشق نفسها تبدو موافقة على ذلك. بل إنّ التطمينات التي أعطتها سورية كانت على درجة من الصلابة جعلت أمين الجميّل على وشك الإعلان عن قرب تطبيقها.

شهد يوم 31 كانون الثاني/ يناير مبارزات هائلة من القصف المدفعي على سوق الغرب. أما وقد كانت فيما مضى، مكان اصطياف مفضّلاً من قبل إمارات الخليج الغنية، فإنّ سوق الغرب، المشادة على ممرّ جبلي، لم تعد الآن سوى حقل من الدمار، تتلوّى داخله شبكات من الخنادق تذكّر ببعض الصور من فيردان أثناء الحرب العالمية الأولى. فلقد دخلها اللواء الثامن من الجيش اللبناني وصار يصدّ، دونما كلل، الهجمات الفلسطينية والدرزية، التي تقع بين عملية قصف مدفعي وأخرى. وإذا ما تخطّى المهاجمون ذلك العائق، فلن يبقى أمامهم أي حاجز. حسبهم أن يهبطوا المنحدر ليبلغوا وزارة الدفاع والقصر الرئاسي، وخصوصاً الضاحية الجنوبية.

ووقع المارينز هدفاً لرشقات «جاءت من الجبل». فكان الردّ فورياً. فقد دخلت المدافع من عيار406 مم على متن الحاملة «نيو جرسي» حيّز العمل. وبعد ذلك بساعات، تجمّع مئتا درزي إسرائيلي أمام سفارة الولايات المتحدة في تل أبيب احتجاجاً على عمليات القصف الأميركية التي استهدفت الدروز. ففي الليلة السابقة، أعلن رونالد ريغان رسمياً عن ترشيحه لفترة رئاسية جديدة. لقد جعل الفارق الزمني في التوقيت، ليلة واحدة تفصل بين الإعلان وجعل وجود الجنود الأميركيين في لبنان موضع مراهنات انتخابية.

وصل إلى الكرنتينا، مع حلول المساء، وفد إسرائيلي لتناول العشاء بدعوة من فادي أفرام[1] وكان الوفد مؤلفاً من مناحيم نافوت (مندي) وهو الرجل الثاني في الموساد، ومن زاغا، المسؤول عن قسم لبنان، وهو خليفة أڤنير أزوالي. كان زاغا طويل القامة ونحيلاً. وقد أمضى زمناً طويلاً في العراق، في الستينيات. فرجع من هنالك بلكنة فلسطينية واضحة حين يتكلم العربية. وأخيراً من غيزي تسافريري[2]، المقيم الجديد في طبرجا؛ هو من أصل مصري، قصير القامة أشيب الشعر ميال إلى المرح والمزاح. أما عن جهاز آمان، للاستخبارات العسكرية، فهنالك المقدم ديڤيد، ولقبه دودو، وهو ضابط اتصال مع الموساد، والنقيب روڤن إيرليخ، الأكاديمي في الاستخبارات، وهو طويل القامة وأشقر، يضع نظارتين ويتكلّم بهدوء، واختصاصي في شؤون الدروز والشيعة.

ما إن بدأ العشاء حتى وصل ميثير داغان[3]، وكان الوحيد بملابس مدنية. كان يتنقّل دون أي حماية، في سيارة مموّهة في المنطقة المسيحية. اعتذر من غير أن يذكر سبب تأخّره واتخذ لنفسه مكاناً في مواجهة أفرام. وفيما بدأ بتناول الطعام، توجّه إلى قائد القوات اللبنانية قائلاً:

– لقد التقينا الدروز. فهنالك على ما يبدو اتفاقٌ حول ترقية لضباطهم، بأثر رجعي. إنّ المخطط الأمني قابل للتنفيذ، لكنّه لن يحقق شيئاً على المدى القصير ولن يؤدي سياسياً إلى شيء.

---

(1) كان إلى جواره كل من إيلي حيقة، أنطوان بريدي، حنا صافتلي، فؤاد أبو ناضر ووليد فارس (وودي).

(2) جرى تعيينه بعد بضعة شهور مستشاراً لرئيس الوزراء للشؤون العربية.

(3) سوف يجري تعيينه مديراً للموساد من قبل أرييل شارون في عام 2002.

وأوضح رئيس جهاز ياكال أنّ المفاوضات كافة التي أجريت من قبل السلطة اللبنانية كانت تتمحور حول البحث عن حلول لمشكلات دقيقة في حين أنّ الصعوبة الأكبر أهمية هي في الضغط الذي يمارسه السوريون عن طريق أدوات محلية، أهمّها الطائفة الدرزية.

وأكّد داغان على أنّ تلك «الأداة»، إذا ما انتُزِعت من أيدي السوريين، فإنّ الوضع سيتحوّل تحوّلاً تاماً. ثم واصل القول:

– أنتم تقعون في خطأ فادح بعدم سعيكم لعقد اتفاق شامل مع الدروز. ولئن كنتم راغبين في تصفية حساباتكم معهم، وهذا خارج نطاق التسجيل[1]، فافعلوا ذلك! أمّا في غضون عامين أو ثلاثة، فلا بدّ للرئيس الجميّل من أن يأخذ زمام المبادرة. أعطوهم الترفيعات: لعشرين ضابطاً أو خمسين! عيّنوا مروان حمادة وزيراً أو خالد جنبلاط! فكّروا على المدى البعيد! إذا ما توصّلت الحكومة إلى اتفاق مع الدروز، فإنّ 60 % من المشكلة مع الشيعة سوف تُحلّ في الآن ذاته. ولنُسلّم الآن بوقوع عملية عسكرية لتحرير سوق الغرب ونجاحها. فما المرحلة التالية؟ لم يجرِ الإعداد لأي شيء. فلنفرض تشكيل حكومة يتمثّل فيها الوزيران خالد جنبلاط ومروان حمادة. إنّ عمليات القصف سوف تتوقف. وعليه تكونون قد غيرتم قواعد اللعبة كلها. وإذا ما كان لديكم تأثير ما، فانصحوا الرئيس بالسير مع الدروز. بل أقول أكثر من ذلك: قوموا بتلبية مطالبهم.

فقال مندي معلّقاً:

– إنّه لحلّ ممتاز جداً. فذلك سوف يساعد الأميركيين، ويساعدنا نحن على البقاء «جالسين إلى المائدة».

جرى نقل هذه المناقشة بحذافيرها لأمين الجميّل الذي أصغى بانتباه كبير للتحليل الذي قدّمه داغان. فهو مؤيد لحوارٍ مع الدروز بل لتنازلات حيالهم، مذكّراً في تلك الأثناء، بأنّه قام بمبادرة أولى حين استقبل وليد جنبلاط في باريس، بعد انتخابه مباشرة. لكنّه لم يكن يودّ أن يلقى سواهم ولا يقبل بأن يكون للإسرائيليين دور في تلك المسألة. وكان الرئيس يعي تماماً أن لا تعود الولايات المتحدة موضع ثقة كبيرة. وهو لم يكن مخطئاً. ففي حين أُعلن في واشنطن عن وفاة الجندي الأميركي التاسع والخمسين بعد المئتين في لبنان، وعن رفض ريغان أن يربط بين استدعاء جنود البحرية إلى الوطن وبين الحملة الانتخابية، أعلنت المعارضة الديمقراطية عن أنّها بصدد إعداد مشروع يمنح الرئيس الأميركي مهلة 30 يوماً لسحب «جنوده من الجحيم». وقد استندت، دعماً لمشروعها سياسياً، إلى تصريحات الزعيم الشيعي نبيه برّي الذي اتهم الوحدتين الأميركية والفرنسية بأنّهما انحرفتا عن مهمّتهما الأساسية للتدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية، بمساندة طرف ضدّ الطرف الآخر[2].

---

(1) أي ينبغي أن يظلّ في ما بيننا.

(2) في مقابلة نشرتها صحيفة «الباييس» في مدريد، في 31 كانون الثاني/ يناير 1984.

سجّلت أجهزة التنصت اللاسلكية التابعة للقوات، كثافة في التحرّكات الشعبية التي يقوم بها جنبلاط. كانت كوادر الحزب التقدمي الاشتراكي، تتوجّه من قرية إلى قرية، بإدارة توفيق بركات، لإلقاء محاضرات وعقد لقاءات توضيحية واجتماعات. أما المواضيع فهي ذاتها في كل مكان جهد المقاومة ينبغي أن يتواصل، المعركة لمّا تنتهِ، لن تكون الخطة الأمنية، في أفضل الظروف، سوى وقفٍ لإطلاق النار، انتصار الجبل يمثّل انتصار الوطنية، لم يناضل الحزب التقدمي الاشتراكي لمجرّد التوصل إلى وقفٍ لإطلاق للنار، بل في سبيل حلول سياسية جذرية. واستبدّ القلق بالقوات اللبنانية، فطلبت مقابلة وزير الدفاع الإسرائيلي بأسرع ما يمكن. ونظّم الموساد عملية الانتقال في حوّامة ليلة الثاني من شباط/ فبراير. فالتقى مسؤولو القوات اللبنانية بموشيه أرينز، عند الضحى، في وزارة الدفاع في تل أبيب[1]. وبعد تبادل التحيّات المعهودة، عرض فادي أفرام الوضع العسكري والمخاطر الجدية المترتبة على فشل العملية التي ينوي الجيش القيام بها في سوق الغرب من أجل تدعيم مواقعه. وطلب من محاوره التدخل ليصار إلى إغلاق دائم لذلك الباب من الضاحية الجنوبية في وجه الإرهابيين. وأوضح للوزير من بعد، أنّ الرئاسة اللبنانية على استعداد للقيام بتنازلات سياسية.

فأوعز أرينز قائلاً:

– يا داغان، عليك القيام بما تستطيع لتنظيم هذا الاجتماع. وأنا على استعداد لأن أفعل كل شيء في سبيل تقاربكم مع الدروز. وما جرى بشأن تعيين ضابط لقيادة لواء المشاة في الجنوب بدلاً من سعد حدّاد؟

– إنه الجمود الكلّي. فلا يسع الجيش القبول بأن يتولى أحد ضباطه تنسيق نشاطاته مع الإسرائيليين. ويمارس السوريون ضغطاً شديداً على السنّة بخصوص هذه النقطة. زد أنّ هذا الملفّ لا يشكّل أولوية بالنسبة إلى الحكومة.

انتقل اللبنانيون من بعد إلى طابق آخر حيث مكتب أوري لوبراني[2]. كان منسّق الشؤون اللبنانية شديد الاهتمام باللقاء مع الدروز، الذي جرت الإشارة إليه قبل وقت قصير. ورغب في أن يعرف أيّ مسؤول درزي يكون المسيحيون مستعدين للقائه. فاقترح فادي أفرام:

– خالد جنبلاط.

– هل تعرفه معرفة شخصية؟

– أجل.

فعلّق لوبراني قائلاً:

---

(1) الجنرال داني روتشيلد (مساعد وزير الدفاع)، مناحيم ناڤوت (مندي)، ميئير داغان وغيزي تسافري وأوري لوبراني.

(2) كان في انتظارهم كل من مندي وغيزي وروبرت (روڤن مرحاف) وأوديد.

– إنّه أحد المقرّبين من وليد. وهو يعمل مع مروان حمادة انطلاقاً من دمشق. لست أدري إن كان سيقبل. فهل تعتقد أنّ التوصّل إلى شيء معه أمر ممكن؟

– ولِمَ لا!

في ذلك اليوم، كانت مجرّد فكرة حوار من ذلك النوع تُعتبَر في لبنان من العجب العجاب. فهنالك مطر من القذائف لا ينقطع عن السقوط فوق الجبل والساحل والعاصمة اللبنانية. وعاد مقاتلون فلسطينيون تابعون للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لأحمد جبريل، للظهور في الضاحية الجنوبية في مواجهة الجيش اللبناني. وقد صعدت وحدات سورية إلى الخط الأول، ناشرة ما يقرب من مئة مصفّحة وكذلك صواريخ غراد[1] على جبهات الجبل. وأغلقت المدارس أبوابها في المناطق المسيحية. وكان المبعوث السعودي، رفيق الحريري، قد عاد إلى الرياض بعد أن حصل من الحزب التقدمي الاشتراكي على تعهّد بقبول خطة أمنية تتضمّن ترفيع ضباط دروز.

بعد الغداء، «صعد» الوفد اللبناني من تل أبيب إلى القدس للقاء رئيس الوزراء. كان لدى إسحق شامير تحليل للموقف سياسي أكثر مما لدى وزير دفاعه. فقد كان مقتنعاً بأنّ الدروز غير مستعدين بأي حال من الأحوال لتقارب مع «القوات» أو مع الرئيس اللبناني. فأوضح له أفرام حقيقة الوضع العسكري ومخاوف أمين الجميّل من رؤية جيشه يتفكك إذا ما استُخدِم في عملية عسكرية في سوق الغرب.

فقال إسحق شامير بصوته الأجش:

– إنّه غير واثق إذن من إخلاص جنوده! إنّي لم أعد أفهم تلك الجهود كلها لبناء هذا الجيش. لقد قال لي أحد الخبراء، أثناء إحدى زياراتي لواشنطن، إنّ الجيش اللبناني يظهِر دلائل على التقدّم، وإنّه في مستقبل قريب، سيغدو جيشاً يُحسَب حسابُه. ولقد قلت لهم آنذاك، إنّهم قد يكونون على حق، كي لا أقول لهم إنّي لا أؤمن بشيء من ذلك البتة. وها أنتم اليوم تؤكّدون مخاوفي. فعلى الرئيس، في قراراته كافة، أن يحسب حساباً لإخلاص جنوده الشيعة، الذين تعدادهم كبير، على ما أعتقد، إذا ما كانت استخباراتي دقيقة. ولقد بلغني أنّ هذا الجيش سوف يتلقى دبابات جديدة من طراز م–48 أ 5 M48 - A5[2]، من الولايات المتحدة؟

فطمأنه أفرام قائلاً:

– سوف نعمل على أن يجري تخصيصها لوحدات قائمة في مناطقنا، كيما تسُهل علينا استعادتها إذا ما الجيش تفكّك. إنّ مدفعية الجيش متمركزة في مناطقنا. وكنت أريد أن أحيطكم علماً بأننا نود فتح مكتب تمثيلي للقوات اللبنانية هنا، في القدس.

---

(1) يسمونها أيضاً «أرغن ستالين». وهي صواريخ تنطلق برشقات من منصّة متعددة السبطانات.

(2) ما مجموعه 137 دبابة M 48 A5 تم شراؤها من الولايات المتحدة بمبلغ مقداره 4 مليار و650 مليون ليرة لبنانية. المصدر: لجنة الدفاع البرلمانية اللبنانية.

– لا بأس، فهذا شيء حسن جداً! فالرأي العام عندنا يضع الأفعال في اعتباره. وعليكم أنتم، من ناحيتكم، الحفاظ على تجهيزكم وعلى مقدرتكم من أجل التصدي لكل احتمال.

– نحن بحاجة إلى عون من قِبَلكم.

فوعدهم رئيس الوزراء قائلاً:

– العون لديكم. فالدولة اللبنانية باشرت بتنسيق بعض أفعالها معنا. لقد تأخروا في ذلك، لكنّهم جاؤوا. وأعتقد أنّ رئيسكم يعتبر الآن أنّه كان على خطأ.

– إنّه لا يقول ذلك.

فقال شامير وعيناه تلتمعان مكراً:

– إلّا أنّه يعرف ذلك حق المعرفة، في أعماق نفسه.

لقد اطّلع رئيس الوزراء قبل ذلك بأسابيع، على تقرير حول شخصية أمين الجميّل، قام بوضعه عدد من علماء النفس بطلب من الموساد. وقد ورد فيه وصف الرئيس اللبناني وطني حقيقي لديه وعيٌ عالٍ جداً بمعنى صورته بالنسبة إلى التاريخ. وهو رجل مزهوّ جداً، لكنّه محدود ثقافياً. فهو على سبيل المثال، كما أوضحت الوثيقة، عاجز فكرياً عن أن يُدرك بعقله وضعاً بمجموعه، ولا على القيام باصطناع حصيلة في بنية عقلانية. وهو يُضيع حبل أفكاره بكل يسر. ويوضح النصّ قائلاً: إنّ ما يثير الشفقة والعطف في آنٍ معاً أنّ الرئيس اللبناني يعي ذلك وعياً كاملاً. وقد كان هذا في الغالب وراء ثورات غضبه حين يقوم مستشاروه بـ«تصحيح» فكرته. أمّا على هذا الصعيد فكان أخوه بخلافه تماماً. فلدنيّته صادرة عن مقدرته الفكرية على شرح أفكاره وتقريبها إلى الأذهان بطريقة واضحة ومتناسقة، وهذا ما كان أمين بعيداً جداً عن امتلاكه. فكان أحد عوامل الحقد الذي يكنّه أمين لبشير.

فقال فادي أفرام لإسحق شامير:

– إنّ أمين يخشى الآن أن تنسحبوا من الجنوب من غير تنسيق مع الجيش اللبناني.

– بودّنا أن نتمكّن من تنسيق انسحابنا وتسليم جيشكم أكثر ما يمكن من الأراضي. ليس لهم سوى أن يقولوا لنا إنّهم على استعداد لذلك. فهذه مصلحة استراتيجية بالنسبة إلينا. إنّ أسرائيل على استعداد دائم، من وجهة نظر استراتيجية، أن تتعاون مع المسيحيين، بشرط أن تكون هذه الطائفة موحّدة ومنظّمة وأن يكون لها من يمثّلها.

كانت الحكومة اللبنانية تسعى بالوسائل كافة وراء حلّ يكفل العودة إلى الهدوء وإيقاف القصف. وقررت القيام بمبادرة فأعلنت أنّ الضباط الدروز الذين أخلّوا بواجباتهم سينالون العفو. فلم يعد هنالك ما يقف في وجه حلّ التشنّج. وقد حرص شفيق الوزّان على أن يعلن النبأ الطيّب بنفسه. عندئذ تقدّم ضباط الطوائف الأخرى للحصول على الامتيازات عينها. وهنا أيضاً قامت الدولة اللبنانية

بدور المصالحة فقبلت. كما قام وليد جنبلاط، ليزيد في الطنبور نغماً، كعادته كلما تمّ العثور على حل، فطالب بانسحاب المارينز من لبنان ودعّم مطالبته بقصف مدفعي عنيف. فتأرجح كل شيء، وأحيا فشل المخطط الأمني الخيارات العسكرية مجدداً. فوضع رئيس الوزراء استقالة حكومته على بساط البحث. فردّ عليه جنبلاط بمقابلة في صحيفة لاريبوبليكا الإيطالية: **سوف تنشب الحرب، ما لم يقم إصلاح ديمقراطي جذري للنظام السياسي،** ثم أضاف يقول **الانفجار واقع في بضعة أيام.**

رغب أمين الجميّل في قطع تلك المسيرة الحتمية نحو الانفجار. فقرر استئناف الاقتراح السوري الدائم بعقد قمة لرئيسي البلدين، على الرغم من أنّ شرط إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو ظلّ إلزامياً. أما وقد أشاع أنّ فادي أفرام على علم بمسعاه، فقد طلب إلى ميشال سماحة إعادة اتصالاته بدمشق، و «ترتيب» أمر انتقاله إلى سورية مع سيمون قسّيس، مدير المكتب الثاني.

ورغبة منه في الإعراب عن حسن نيّاته حيال السوريين، فقد رفض رفضاً علنياً كل حلّ عسكري، وأكّد قائلاً: **ليس في نيتنا شنّ هجوم على الضاحية الجنوبية أو على أي منطقة أخرى من البلاد.** كذلك طلب إلى الوزّان الإدلاء بتصريح مماثل.

حصل سماحة، في أقل من 24 ساعة، على التسهيلات السورية كافة، وتمّ إنهاء تفاصيل الرحلة كلها. كان على الرئيس اللبناني أن يذهب - خفية - إلى لارنكا (في قبرص) على متن حوّامة من طراز «بوما» تابعة للجيش اللبناني. وعليه أن يصعد من هنالك على الفور في طائرة «جيت» مستأجرة من شركة سويسرية لتقوده إلى القسم العسكري من مطار المزة. لقد تمّ إنجاز كل شيء، حتى كلمة التعريف التي ينبغي لقبطان «الجيت» أن يقولها، لاسلكياً، لبرج المراقبة في مطار اللاذقية. ونقل جان عبيد، الذي كان واسطة التواصل بين سماحة وأمين الجميّل، موافقة الرئيس على الحلّ المعتمد، المتضمّن رفض اتفاقية 17 أيار/ مايو.

وفي صباح اليوم المخصص للانتقال، هتف رفعت الأسد إلى ميشال سماحة الذي رجع إلى بيروت. ووجّه إليه شقيق الرئيس السوري الطلب التالي:

- سوف تذهب على الفور إلى عند أمين. فتناديني من مكتبه وبحضوره. وتؤكّد لي أمامه أنّه موافق على كل شيء.

- لكنّه موافق، وقد قال لي ذلك مساء أمس.

- هيّا إليه!

هتف ميشال سماحة إلى القصر الجمهوري معلناً عن قدومه وصعد إلى بعبدا. فقال له أمين الجميّل، بعصبية شديدة، إنّه لن يتوجّه إلى دمشق. فهو لا يريد التراجع عن اتفاقية 17 أيار/ مايو. لكن سيمون قسّيس وجان عبيد اللذين كانا يحضران اللقاء، ألحّا عليه. فإلغاء الرحلة في تلك الظروف، إضافة إلى أنّها ستلحق إهانة قصوى بحافظ الأسد، سوف تمسّ المصداقية الرئاسية. لكن

الجميّل ظلّ صعب المراس. ثم طلب إلى سماحة الذهاب إلى دمشق للتفاوض حول شروط الانتقال. لكنّ سماحة رفض رفضاً قاطعاً. فقد سبق له أن قام مرّتين بمناقشة مثل ذلك الانتقال لأمين، والتفاوض بشأنه والإعداد له. وفي كل مرة يقوم الرئيس اللبناني في اللحظة الأخيرة بنقض الاتفاق المعقود والذي صادق بنفسه عليه. ولم يتساءل من أحد كيف علمت دمشق برفض أمين الجميّل وعن أي طريق.

جاءت ردة الفعل على ذلك الرفض من وليد جنبلاط. فالزعيم الدرزي استدعى أركان جبهة الخلاص الوطني، من أجل «تحديد موقف مشترك». وقطع الطريق من دمشق إلى طرابلس، في شمال لبنان، في حوّامة عسكرية سورية، بصحبة كل من مروان حمادة وخالد جنبلاط وعبدالله الأمين، وهو أحد قادة الفرع اللبناني لحزب البعث الموالي لسورية. فكان لهم لقاء أولي برئيس الوزراء السابق رشيد كرامي، ثم صعد الخمسة معاً إلى عند سليمان فرنجية في زغرتا[1].

وسعياً من أمين الجميّل في تطويق الأزمة الحادة المقبلة - وتجاوزاتها المسلحة المتوقعة -، أرسل جان عبيد إلى دمشق على جناح السرعة. قوبل مستشار الرئيس اللبناني بأسوأ استقبال وتعرّض لتهديد علني فقفل عائداً إلى بيروت بأسرع ما يستطيع. إذ لم يعد الوقت مؤاتياً للمناقشة البتة.

قام سليمان فرنجية وضيوفه، أثناء غداء عمل في زغرتا، بإعداد بيان من ست نقاط، حول الفرصة الأخيرة للتوصّل إلى تفاهم سياسي وإنقاذ الوطن. وبعد تناول القهوة، قاموا بنشره علناً، بعد أن ضمّوا إليهم حركة أمل. طالبت تلك الوثيقة بوقف إطلاق نار كامل وشامل. وبعدم إشراك الجيش اللبناني في الخلافات الداخلية حفاظاً على رسالة المؤسسة العسكرية ووحدتها. رحيل القوة متعددة الجنسيات والبحث عن خيارات حيادية. وبعد ذكر النقطتين التاليتين دعم المقاومة الوطنية في جنوب لبنان والمطالبة بإلغاء الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية في 17أيار/ مايو 1983، دعا البيان إلى إلغاء كل مظهر للهيمنة أو تطبيقها، وطالب باستئناف الحوار الوطني، فهو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتحرير الأرض والتوصل إلى إعداد برنامج للإصلاحات.

وانضم إلى البيان في الساعات التالية كل من الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان، اللذين لم توجَّه إليهما الدعوة مسبقاً.

جرى بعد ذلك قصف مدينة زحلة لأول مرة منذ 1981[2]، نوعاً من التعبير عن تصميم المعارضة. فذلك الهدف الجديد يدخل ضمن منطق رجال المدفعية. إنّ كلّ إطلاق نار على قصر وليد جنبلاط في المختارة، يستتبع الثأرَ له قصفاً للقصر الجمهوري في بعبدا. وإذا ما قُصِفت قرية

---

(1) كان بانتظارهم هنالك أيضاً رامز الخازن عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، وعبدلله الراسي (النائب عن عكار وصهر الرئيس فرنجية).

(2) عودة إلى أسرار حرب لبنان الجزء الأول، م س.

بعذران في الشوف، وهي مقر شيخ العقل الدرزي، كان الثأر الفوري من بكركي، مقرّ البطريركية المارونية. وحين تنهمر القنابل على المناطق السكنية في الشوف وعاليه، يقع شيء مماثل تماماً على المناطق السكنية المسيحية في شرق بيروت. والميليشيات كلّها تعتمد المنطق ذاته. وكانت النيران المتبادلة بين بعضهم بعضاً، تُبقي على «المدنيين» قابعين في الأقبية. كانت مشقات تأمين التموين، وهبوط الليرة، وعمليات القصف المتواصلة، مصدر الإشاعات التي سرت حول مخاطر نقص التموين. فما إنْ تبدأ هدنة أو وقف لإطلاق النار، أو حتى استراحة قصيرة يلتقط فيها رماة المدفعية أنفاسهم، حتى يتدافع الناس هجوماً على مخازن الأغذية والمخابز. فكان يتم شراء الزيت والطحين والأرُزّ والبن والشاي والمعلّبات الأخرى بكميات للتخزين. وعبثاً يتوالى المسؤولون في الدولة على ميكروفونات الإذاعات والتلفزيونات ليوضحوا، أنّ الخبز والأغذية والمحروقات متوافرة بكميّات كافية، فليس ما يدعو إلى تخزينها. لكن بلا جدوى. وقد أوقع القصف يوم 4 شباط/ فبراير وحده، وفي أقل من 12 ساعة، 12 قتيلاً و 116 جريحاً. ولدى أقل فترة هدوء، وفيما صافرات سيارات الإسعاف لا تزال تزعق، كان المدنيون يهجرون بأعداد كبيرة المناطق المصابة. فتتدافع مئات العائلات من الضاحية الجنوبية في شاحنات معبّأة بالحقائب والأكياس هرباً نحو جنوب لبنان. فيما يندفع آخرون، وأسلحتهم في أيديهم أحياناً، نحو مركز بيروت الغربية لاحتلال المساكن الفارغة التي يقعون عليها.

وجّه نبيه برّي، زعيم حركة أمل الشيعية، الوزراء المسلمين والقوميين «لتقديم استقالاتهم». وقد صرّح بعدم قبول وقف لإطلاق النار واستئناف الحوار، إلّا بعد محاكمة المسؤولين عن تدمير الضاحية الجنوبية.

فأعلن وليد جنبلاط مزايداً: **إنّ كل تعاون مع الجميّل مستحيل، حتى لو ألغى اتفاقية 17 أيار/ مايو**. كانت تلك العبارة الصغيرة التي أطلقها من دمشق، لتستعيدها الصحف كافة، تتناقض تمام التناقض مع بيان جبهة الخلاص الوطني. لكن المشكلة ليست هنا. إنّ عمليات التمركز والتموضع العسكرية، من أجل مواجهة عامة، كانت كلها شبه منتهية. لكنّ جنبلاط عاد فرفع سقف المطالب درجة جديدة: **لا يتوقف النزاع عند قضية تمركز على الأرض، أو ترفيع ضابط أو تعيين موظف كبير، بل يطال النظام برمّته وخط سلوكه**.

وقام عدة وزراء مسلمين فأعلنوا أنّهم يغادرون الحكومة، فيما دويّ عمليات القصف المتوالية لا ينقطع. ولم يستطع شفيق الوزّان سوى أن يفعل مثلهم، فقدّم استقالة حكومته مجدّداً.

في اليوم التالي، 5 شباط/ فبراير، كان أمين الجميّل وحيداً، محاصراً، وهو يلقي خطاباً مذاعاً ومتلفزاً على الأمّة. بدا ناحلاً ببزّته الغامقة، وصوته المنهك والحزين، وهو يعلن أنّه يقبل استقالة رئيس الوزارة «إنقاذاً للبلاد». وأضاف: **لقد أنجزت برنامج إصلاحات معداً للدراسة**

والمناقشة. وينبغي أن يتمكّن الجميع من التحدّث بشأنه. وأنا بصدد تشكيل حكومة اتحاد وطني. ثم دعا الزعماء السياسيين لاستئناف الحوار في جنيف في 27 شباط/ فبراير.

وجد رجال «القوات»، الذين ألصقوا وجوههم بالشاشة الصغيرة، خطاب الرئيس انهزامياً؛ فمن المسلّم به في نظرهم، أنّ من المستحيل عليه، مع استقالة الوزّان والضغط السوري على السنّة، تشكيل حكومة جديدة. كانت دمشق تواصل دفع امتيازاتها إلى الأمام، دفعاً لا يعرف الرحمة. فقد اتخذ السوريون مواقع لهم على مشارف زحلة. فكانوا يطالبون باستقالة دياب يونس، محافظ البقاع، وإزالة المظاهر المسلّحة، وإلغاء ثكنات المدينة. إنّ مكاسب الميليشيا كافة التي تعود إلى معركة 1981، أخضِعت فجأة لإعادة النظر فيها، وليس بيد القوات اللبنانية من وسائل للتصدّي لها. فليس للمرحلة القادمة سوى أن تكون دخول الوحدات العسكرية السورية إلى المدينة. وكان على «القوات» أن تواجه أيضاً تفكك وحدات الجيش. فالجنود الشيعة يغادرون مراكزهم حاملين أسلحتهم وحوائجهم. فلقد جرى ذلك في بناية أشمون في بيروت (طريق الشام)، وفي الحدث. وكان السوريون يسعون إلى زجّ الجيش في المناطق السنّية لاستثارة ردود طائفية. وأصبح النظام في حالة من التفكك التام.

وكان أن قرر أمين الجميّل على نحو مباغت توقيع اتفاقية 17 أيار/ مايو. فقام باستدعاء ذاك الذي فاوض على التمهيد للاتفاقية كلها: سامي مارون. ودعا المبعوثُ محاورَه أثناء المباحثات، ديڤيد كيمحي، لتناول العشاء في شقته في بيروت. فنظّم الموساد، على جناح السرعة، مسألة نقله في حوّامة إلى بيروت. وكان أن رفض الإسرائيلي الاقتراح اللبناني.

وقد قال كيمحي شارحاً لمضيفه:

– نريد اتفاقية تتيح تخليص جيشنا من لبنان. وتلك، كما ترى، الغاية كلها لهذا النص. فحين عقدناه، كنتم قادرين على ضمان نصيبكم من العقد. أما اليوم، فرئيسكم يريد توقيع تلك الاتفاقية، كي يظلّ الجيش الإسرائيلي في لبنان ليدافع عن نظامه، لكنّه لا يستطيع ضمان تطبيق بنوده. فنحن غير موافقين[1].

إنّ عجز الرئيس عن مراقبة الوضع، أو عن إحلال النظام فقط، وجموده واستحالة قدرته على اتخاذ أي مبادرة، قد برهنت على حدود الدولة اللبنانية وجيشها، إن كان الأمر بحاجة لبرهان. فلا الدولة قادرة ولا الجيش بقادر على أداء دور جاد في جنوب لبنان. وعليه فلم تعد تل أبيب مهتّمة، بل مضى إسحق شامير إلى أبعد من ذلك[2] إذ قال: **نريد مغادرة لبنان بشرط واحد، أن يكون أمن حدودنا الشمالية مضموناً.** وكانت تلك هي المرة الأولى التي لا يقرِن فيها رئيسُ الحكومة الإسرائيلية سحبَ جيشه من لبنان بانسحاب القوات السورية.

(1) ديڤيد كيمحي لآلان ميتارغ عام 1995.
(2) في تصريح للإذاعة الفرنسية، أوروبا 1.

انقلب الوضع في بيروت رأساً على عقب، في 6 شباط/ فبراير، الساعة الثالثة بعد الظهر. فقد تسلل عناصر الميليشيا الشيعية من حركة أمل إلى مركز بيروت الغربية، وقد ربطوا على جباههم شرائط خضراء، كتبت عليها بحروف بيضاء عبارة الله اكبر. كانوا يسيرون كأرتال من النمل، بعضهم وراء بعضهم الآخر، بمحاذاة الواجهات، وأسلحتهم في أيديهم، فينزلقون موجاتٍ متتالية من شارع لآخر، فيحتلون النقاط الاستراتيجية. وكان يسمع بعيداً من مكان لآخر، دوي قنبلة يدوية أو فرقعة رشقة من سلاح آلي. ويُسمَع أحياناً دويّ أشد، فيكون دليلاً على تبادل رمايات عنيفة. وأضحى القصر الجمهوري في بعبدا هدفاً لرماية طوال ساعات، فغرق في جوّ حصار. فاستقرّ أمين الجميّل في القبو ولجأ إلى موسيقى بوليرو رافيل، المذاعة بكلّ ما لمكبّرات الصوت من شدّة حتى لا تعود الانفجارات مسموعة. وتقوقع العسكريون اللبنانيون على أنفسهم في مراكزهم. ويبدأ سيناريو أحسنت إكماله حركة أمل الشيعية، يتكرر دونما تغيير عشرات المرات. فعناصر الميليشيا يظهرون في زوايا الشوارع والأزقة المؤدية إلى أحد المراكز. فيعمد الجنود المتمركزون وراء أكياس الرمل إلى تصويب أسلحتهم. وتبدأ عندئذ مرحلة طويلة من النداءات من شخص لآخر، ومناقشات يتمّ الإعلان عنها من طرف الشارع إلى طرفه الآخر.ومنذ شهر أيلول/ سبتمبر، وهو تاريخ وصول الجنود، انتهى الأمر بصغار الحي إلى معرفتهم. يصدر الأمر بعدم إطلاق النار. ثم يجري التقارب بين عناصر الميليشيا، من واحد لآخر فيتآخون ويستولون على المراكز، تاركين للعسكريين أن ينسحبوا منها إذا ما رغبوا في ذلك. كان يُسمَح للذين ليسوا من الشيعة بالانصراف حاملين أسلحتهم معهم. وفي الكثير من الحالات، كانت تلك الانسحابات تتمّ بهدوء ونظام. أما حين تغدو المناقشة مستحيلة، فإنّ المركز يجري تطويقه بكل بساطة ولا يعود من شيء يتحرّك فيما بعد.

أقامت القوات اللبنانية، على طول خط التماس، هيئات استقبال للجنود المسيحيين الهاربين من بيروت الغربية. فتجري استعادتهم والتخفيف عنهم والعناية بهم في حال الضرورة، ثم تنظيمهم مجدداً في وحدات وتوجيههم نحو مواقع للقتال. كان الفرنسيون من القوة متعددة الجنسيات، المتمركزون داخل مصفّحاتهم، يتفاوضون مع الميليشيات المعادية للحكومة بشأن ترحيل العسكريين الذين لا يرغبون في التآخي. وكانت المجموعة تردّ في بعض الأحياء، بسبطانة الدبابة أو بالرشاش وتتجاوب أصداء معارك شوارع حقيقية طوال ساعات. وأكّد فادي أفرام، في أحد التصريحات الإذاعية، قائلاً: لن نكمن في الملاجئ فنحن نقبل بالمعارك. لكنّ تلك المعارك لم تكن معاركه هو. فالمهاجمون يحترسون دون الاقتراب من المنطقة المسيحية. فعملهم يقع أساساً في بيروت الغربية وعمليات القصف للقطاع الشرقي تستهدف «خفض الرؤوس». وأحيط رونالد ريغان علماً بالأمر عند الفجر، بسبب الفارق في التوقيت، فقرّر الإيعاز بأن يصعد رجال المارينز في سفن الأسطول السادس. سوف يظلون على متن السفن، في مياه لبنان، حيث يكونون على استعداد، كما

في السابق، لضمان حماية الأميركيين والأعضاء الآخرين في التنظيمات متعددة الجنسيات للحفاظ على السلام. أمّا والرئيس الأميركي يعي أنّ هذا الانسحاب «التكتيكي» هو أشبه بهروب يصعب تمويهه، فقد وعد بـ بفتح نار جهنم على الذين يطلقون النار على الوحدات الأميركية انطلاقاً من المناطق الواقعة تحت الإشراف السوري. أما السيناتور الجمهوري بيتر ويلسون، من كاليفورنيا، وهو من أشدّ مناصري ريغان في الكونغرس، فقد لخّص سأم واشنطن حيال لبنان بهذه الكلمات: لقد ربط الرئيس ريغان وجود المارينز بوجود حكومة الرئيس الجميّل. وواقع الحال أنّ هذه الحكومة اختفت من الوجود، فعلينا إذن أن نعود إلى بيوتنا.

قبل حلول الليل بقليل، استقبل فادي أفرام[1] في مكتبه، المقدم الإسرائيلي ديڤيد (دودو) من الاستخبارات العسكرية، الذي كان يؤمّن الصلة بالموساد. كانت القوات اللبنانية في حالة قلق. فقد أنتشرت، وفقاً للاستخبارات، وحدات فلسطينية على طول خط التماس ولم يعد الجيش مضموناً على الإطلاق. والقوات اللبنانية بحاجة لذخائر. فطرح الضابط الإسرائيلي أسئلة حول اتساع التحرّك المسيحي وحول تموضعهم. كان استدعاء الاحتياطيين كاملاً. فقال أفرام مؤكّداً:

– وحداتنا متمركزة وراء وحدات الجيش. وإذا ما انسحب العسكريون فسوف نحل محلّهم. وإذا ما طلبوا عوننا فسوف ننجدهم. لقد أحطت الرئيس علماً بتفكك جيشه. الظاهر أنه لم يكن يدري بذلك. وأخشى أن يكون مستشاروه قد أخفوا الأمر عنه.

في فترة بعد ظهرٍ وفي ليلة واحدة، جرى اجتياح بيروت الغربية برمّتها. وكانت الحصيلة مرعبة: 157قتيلاً و600 جريح. ولدى طلوع النهار، كانت سيارات غاصة بميليشيا حركة أمل تجوب وسط العاصمة المقفر بأقصى سرعة. كان الجنود الذين يتولون الحراسة أمام المباني الرسمية يشاهدونهم يمرّون من غير أن يردّوا. وكانوا يتبادلون الأحاديث عن بعد مع الفتيان المسلحين، ويصعدون في السيارة معهم، في بعض الأحيان. كان يجري غالباً تسليم رجال الميليشيا سيارات جيب ومصفّحات، وكانت مشاهد الالتحاق تجري وتتكرّر أمام كاميرات الصحفيين الأجانب. إنّ اللواء السادس، ذا الأكثرية الشيعية، قد اختفى بتركيبه. ولم يعد له من كيان سوى جنود باللباس العسكري يحملون أسلحتهم، وهم معطلون بلا قيادة، وقوفاً أمام المباني الرسمية. أما وأنّه ليس للقيادة العامة ولا لحركة أمل من مصلحة في إعلان تفككه، فكان كل طرف يشير إلى ضباطه هو وجنوده هو، متظاهراً بأنّ ذلك اللواء لا يزال قائماً.

أعلن العقيد لطفي جابر، قائد اللواء السادس، المنتشر في بيروت الغربية، والجنرال إبرهيم شاهين، قائد اللواء الأول المنتشر في وادي البقاع، الواقع تحت السيطرة السورية، عن معارضتهما

---

(1) يحيط به أنطوان بريدي (توتو) ووليد فارس (وودي) وغسان معلولي، مسؤول المكتب الرابع (مكتب الاتصالات السرية بإسرائيل الواقع في مكتب المحامي بشير الجميّل في بناية الكترولوكس في حي الأشرفية.

للجوء إلى الجيش في النزاعات الداخلية. وطالبا، مع مجموعة مرموقة، بأن يلتزم الدستور بموقف الحياد التام.

أما وأنّ تل أبيب لم تشأ ترك عرض الجميّل حول اتفاقية 17 نيسان/ أبريل دون اقتراح مقابل، فقد أرسلت إليه رسالة تيليكس، بواسطة السفير الأميركي في باريس. وتقترح إسرائيل التدخل بعمليات قصف جوية مكثفة للمواقع السورية والفلسطينية في المتن الأعلى، على طريق دمشق، وأن تغلق المنافذ كافة المؤدية إلى الجبل انطلاقاً من البقاع. ومن شأن تلك العمليات أن تسمح للجيش اللبناني والقوات بأن تتحرّر. ووضعت الدولة العبريّة شرطين اثنين: أن يقوم الرئيس الجميّل بزيارة للقدس، وأن ينتشر الجيش اللبناني حتى صيدا. ونهز أمين بكتفيه. لقد زار السادات القدس للحصول على اتفاقية سلام، لا على قصف مدفعي يدوم 48 ساعة في منطقة جبلية. ولم يكلّف نفسه عناء الرد.

في صباح اليوم التالي، وقبل شروق الشمس، صعد أفراد وحدة النخبة البريطانية، وعددهم 115 عسكرياً، كانوا منتشرين حول مؤسسة التبغ، إلى الجنوب الشرقي من المطار، إلى 35 عربة سلكت بهم طريق جونيه، من غير أن يدري أحد بالأمر. لقد عملوا طوال الليل على إعداد حوائجهم، بتكتّم تام. ومع إشراقة أشعة الشمس الأولى، كانت حوّامات نقل ضخمة، من طراز سي- كينغ Sea-King وطراز شينوك Chinook، قدمت من قاعدة «أكروتيري» البريطانية في قبرص، تحملهم إلى ظهر السفينة ريليانت Reliant في عرض البحر. ولدى مغادرة آخر الجنود الإنكليز الأرض اللبنانية، بعث قائدهم برسالة لاسلكية مقتضبة إلى زملائه، الأميركي والفرنسي والإيطالي، تقول: نحن منصرفون، نتمنى لكم حسن المواصلة لعملكم. إنّ القوة متعددة الجنسيات قد غادرت في حالة من الفوضى والارتباك مركباً على وشك الغرق.

إلّا أنّ نبيه برّي، زعيم حركة أمل، رغب في أن يبرهن، بخلاف ذلك، على أنّ المركب تحت المراقبة. وليست أية مراقبة كانت، بل مراقبته هو. فقام بإنشاء لجنة أمنية مكلّفة بإحلال النظام. وضربت شرطة أمل مثلاً يُحتذى لدى بدء عملها: رفض أحد عناصر الميليشيا تسليم سلاحه فجرى إعدامه علناً، رمياً بالرصاص. وتمّ إبلاغ الرسالة، إنّ الشرطة الشيعية لا تعرف المزاح. علماً بأنّ الأمن لمّا يتمّ إحلاله تماماً. ففي بيروت الغربية، كان عناصر من الميليشيا الشيعية، بقيادة أصوليين في الغالب، يدمّرون الحانات وأماكن بيع المشروبات باسم الالتزام بالإسلام. واختفت المشروبات الروحية من على رفوف المخازن الكبرى والحانات، لتتكدّس في بيوت المؤونة أو خلف الستائر. وأضحت عمليات السطو والنهب أكثر من أن تُحصى. وكان عناصر من الميليشيا يغادرون مواقعهم القتالية للتوجه إلى الضاحية الجنوبية لإحضار عائلاتهم وإسكانها في الشقق الفارغة التي هجرها سكانها في المنطقة المسيحية. وأمر نبيه برّي العناصر المسلحة بالعودة إلى خطوط الجبهة، لا سيّما خط التماس. لكن دون كبير نجاح.

كان أمين الجميّل محبوساً في قبو قصره، يسعى، على قدر ما يسعفه الحظ، للاتصال هاتفياً برئيس الوزراء أو بمتحدثين آخرين. كما يحاول أن يحدّد دوراً فيؤدّيه في الوضع السياسي الجديد الذي أُفلِت تماماً من بين يديه. فالأمور تسير كلّها كأنّ اللاعبين الآخرين لا يقيمون له أي وزن كان. بل قال لبعض زائريه[1] إنّ لديه الإحساس العجيب بأنه معلّق في الفراغ دون أي اتصال. وكانت المناطق المسيحية مستهدفة بعمليات قصف دائمة. وأصيبت المواقع الأميركية. فدخلت المعركة على الفور، وكما وعد ريغان، أكبر باخرة حربية في العالم. لقد أطلقت البارجة «نيوجرسي»، بادئ الأمر 100 قذيفة من عيار 406 مم على بطاريات المدفعية، إلى الشمال الشرقي من حمّانا في المتن الأعلى، ثم بعد ذلك بخمس ساعات، أطلقت رشقة أخرى من 200 قذيفة. لقد سعت البحرية الأميركية إلى تدمير بطاريات المدفعية المعادية[2] بعمليات تفوق كل حساب. وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير.فمجلس قيادة الميدان السوري القائم بين حمّانا و غابة بولونيا تحوّل إلى مرأب[3] بفعل قنبلة واحدة.

أدى سقوط بيروت الغربية إلى إثارة شعور بالذهول في إسرائيل. واستدعت الوزارة مجلس الدفاع للانعقاد مع الإشارة إلى أنّ تدخّل الدولة العبريّة مباشرة ليس موضع بحث. بل إنّ الدراسات التي قام بها استراتيجيون من تل أبيب مالت نحو تخفيف التدابير العسكرية في جنوب لبنان، لا سيّما التراجع بخط الدفاع من نهر الأولي إلى نهر الزهراني.

قدّم نائبان إسرائيليان، هما مناحيم سافيدور ودان تيشون، مشروع قانون إلى مكتب الكنيست، يرمي إلى التشجيع على إنشاء كانتون درزي في لبنان، يتمتع باستقلال ذاتي ويكون حليفاً لإسرائيل. فالنائبان اعتمدا مشروعاً تقدّمت به شخصيات درزية جاءت من الشوف لزيارتهما. فالكانتون سيؤدي بالنسبة إلى إسرائيل دور منطقة عازلة، بإعاقة تسلل محتمل للإرهابيين الفلسطينيين نحو جنوب لبنان، وبالتالي نحو إسرائيل. بل يحدد المشروع أيضاً محيط الكيان فيرتئي منحه منفذاً على البحر المتوسط. وقد أكّد تيشون أنّ للدروز صلات وثيقة بإسرائيل، فهم الآن العامل الأكثر استقراراً في لبنان. ثم خلص إلى القول إنّهم الطائفة التي تقيم أفضل العلاقات معنا.

لقد أثار ذلك الاقتراح صخباً كبيراً في لبنان. فطالبت القوات اللبنانية بتقديم تفسيرات، فاقترح عليهم الموساد التوجّه لمناقشة الأمر في تل أبيب.

تولى فؤاد أبو ناضر، قائد هيئة اركان الميليشيا، قيادة الوفد[4]. وجاءت حوّامة إسرائيلية

(1) بمن فيهم آلان مينارغ مساء 8 شباط.

(2) كان ما بين 400 حتى 600 مدفع موجهة صوب بيروت، وفقاً لمصادر المكتب الثاني اللبناني.

(3) عبارة وردت في رسالة عسكرية أميركية.

(4) إيلي وزان (عباس) وحنا صافتلي ووليد فارس (وودي).

لنقلهم ليلة 8 إلى 9 شباط/ فبراير 1984 من على أرض المحطة الكهربائية في الزوق لتحط بهم فوق أرض عسكرية لا تبعد كثيراً عن مقر الموساد، قرب (Country Club) شمال تل أبيب. واجتمع اللبنانيون في صباح اليوم التالي بأوري لوبراني، في وزارة الدفاع وبمساعده، الوزير السابق صاموئيل ديڤون وبمسؤولين في الموساد[1].

ويدأ لوبراني، كعادته، برسم مشهد للنقطة التي تهمّه أكثر: الجيش اللبناني.

– يؤكّد الأميركيون أنّه تفكك بنسبة 40%، في حين يتحدث وزير دفاعكم عن25 %. وسؤالي هو التالي: هل يمكن لنواة عسكرية مسيحية أن تظلّ مخلصة للرئيس؟ وهل يستطيع العسكريون أن يعتبروا هذا الرئيس غير صالح فينبغي تغييره بإقامة حكومة عسكرية؟ وهل القوات اللبنانية ستضع ذاتها، في مثل تلك الحال، تحت تصرّف الشرعية؟

فأكّد صافتلي قائلاً:

– سيظل العسكريون المسيحيون مخلصين للرئيس.

فسأله الإسرائيلي:

– وطنّوس، القائد العام، ما حاله؟

– من غير المتوقّع، بعد كلّ ما جرى، أن يحاول القيام بعمل فردي. فالجيش سوف يظل على وجه العموم موالياً. لكنّه لا يتخلّق بأخلاقنا. فنحن نسعى للقيام بتجميع للعسكريين المسيحيين حول «القوات». وكلّما كنّا أقوياء، استطعنا أن نصنع الوحدة من حولنا. فقد تمكنّا من الأماكن التي هجرها الجنود الهاربون كما استطعنا إيقاف الهجمات المعادية.

فسأل لوبراني:

– وما رأيك أنت، يا فؤاد؟

– إنّ الوضع سيتدهور تدهوراً كبيراً، ما لم يجرِ وقفٌ لإطلاق النار، وسوف يسعى السوريون لأن يستعيدوا، مع الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين، السيطرة على المناطق التي غادروها عام 1982، أي وزارة الدفاع والقصر الرئاسي في بعبدا. فيرى المسيحيون أن بقاءهم في خطر.

فأكّد لوبراني بلهجة جادة:

– للقوات اللبنانية مكانة خاصة عندنا. وكانت بيننا على الدوام علاقة قائمة على الصراحة على الرغم من الاختلافات في وجهات النظر. فأنا لم أفهم قط لِمَ سعى أمين لإضعافكم. كان يبعث إلينا برسائل يطلب منا ألاّ نمدّ لكم يد العون. وعلى ذلك فقد تضاءلت الطاقة الدفاعية لدى المسيحيين. لكن أؤكّد لكم اليوم، وبدءاً من الآن، أننا سوف نساعدكم، وأنّ طلباتكم كافة سوف تُلبّى. ولسوف نصدر أوامر في هذا الشأن.

---

(1) مناحيم ناڤوت (مندي) وزاغا وميكي أرمور (ماريون) ونسافريري غيزي.

فأجابه فؤاد مبتسماً:

- يسعدني أن أسمعك تقول ذلك. فاللبنانيون المسيحيون باتوا يتساءلون ما إذا كانوا سيُرغَمون على الهجرة أو أن يصيروا مسلمين. فلم يعد بوسعنا السماح لأنفسنا بفقدان أراضٍ جديدة. ولقد أثارت قصة الكانتون الدرزي الذعر. فينبغي القيام بشيء ملموس كي تنقلب الآية. فالنيّات الحسنة لا تكفي.

- بودي أن أوضح مسألة الكانتون الدرزي. لقد أدلى النائبان بذلك التصريح من بعد أن استقبلا وفداً من الدروز من عندكم. فحكومتنا لم تمنح الدروز شيئاً ولا تريد منحهم أي شيء. وإذا ما تكلّمتم في هذه المسألة، فأنتم تعطونها أهمية ليست لها. ولسوف أضع حداً لذلك كله بالإجابة على أسئلة إذاعتنا بالعربية. سوف أقول أن لا علم لي بذلك وأنّي لمّا أسمع بذلك قط.

قدّم منسّق الشؤون الإسرائيلية في لبنان نصيحة للبنانيين بعدم تشتيت قواهم. إنّ منزلكم يحترق! فلا يسعكم القيام بعملية واسعة المدى. عليكم أن تتمركزوا في منطقة تستطيعون الدفاع عنها كما ينبغي، ويمكنكم، من بعد، الانطلاق نحو مناطق أخرى. لقد أصرّت إسرائيل إصراراً شديداً على بقاء الميليشيا عسكرياً في إقليم الخروب. فتلك التلال ما بين الشوف والبحر تستنفر ما يقرب من 900 رجل ووسائط هامة. ولولا إلحاح الإسرائيليين، لقامت «القوات» بإخلائها، مع اصطحاب المدنيين المسيحيين. واجتذب لوبراني، بمودّة، انتباه محاوريه إلى المخاطر التي يمثّلها الإقليم بالنسبة إلى القوات اللبنانية.

- عليكم أن تحسبوا ما ثمن احتفاظكم بهذه المنطقة، وما شروط ذلك؟ فنحن لا نريد ارتكاب أخطاء والوقوع في وضع الشوف ذاته. فأنا لا أريد الوقوع في الخطأ ذاته للمرّة الثانية.

بعد ذلك بدقائق، استقبل الجنرال أوري ساغي، رئيس عمليات الجيش الإسرائيلي، فؤاد أبوناضر ورفاقه، بخصوص الإقليم. وكان اللبناني واضحاً وهو يقول:

- بينما كنّا نستعد لمغادرة تلك المنطقة، طلبتم إلينا البقاء فيها. ولمّا كانت جهودنا منصبّة أساساً على المنطقة المسيحية في شمال بيروت، فإنّ ذلك يطرح علينا مشكلات.

- هل يسعكم الاحتفاظ بالمنطقتين في آن معاً؟

- أجل، إذا ما ساعدتمونا.

- كيف؟

فقال فؤاد شارحاً:

- إذا ما بقينا، فسوف نكون بحاجة لدعم ناري مباشر في حال وقوع هجوم علينا. وإلى القيام بضغط سياسي على الدروز ليوقفوا المعارك في تلك المنطقة. وبدعم لوجستي مباشر من الجيش الإسرائيلي. وبجسر خاص بنا فوق نهر الأولي. وإمكانية استخدام مرفأ صيدا. وأخيراً فعلى إسرائيل

أن تُظهر بوضوح وقوفها إلى جانبنا في الأقوال وفي الأفعال، بإقامة صلات اقتصادية واجتماعية بين الإقليم والجنوب: مشافٍ ومدارس وتجارة مع إسرائيل. . .

فقال الجنرال الإسرائيلي بعد فترة من التفكير:

– أنا موافق على أن نمارس ضغوطاً على الدروز لمنعهم من ارتكاب اعتداءات ضدّ قواتكم وضد المدنيين. ولدينا الوسائل لممارستها على الدوام. ونحن على استعداد لتسيير دوريات في الإقليم، ما دمنا هنالك. ونستطيع أن نزوّدكم بالذخائر التي تلزمكم. لكن لا يسعنا أن نقدّم لكم دعماً نارياً يو[illegible] إلّا أنّ الأمر يختلف إذا ما تعرّضتم للهجوم. أمّا مسألة مرفأ صيدا فذات طبيعة سياسية. فلا أستطيع أن أسلّمكم إياه، لكن يسعكم استخدامه تحت إشرافنا. أما بعد، فلو كنت مسيحياً أو ضابطاً في القوات اللبنانية، لركّزت قواي على مكان واحد. فأنا لا أصدّق أن تكونوا قادرين على القيام بشيئين اثنين في الوقت ذاته. ذلك هو رأيي الشخصي، والقرار لكم، فلا تعتبروا ذلك موقفاً رسمياً.

فقال أبو ناضر ملخّصاً:

– معنى ذلك أنّ علينا بالانسحاب.

– أنا لم أقل ذلك. فلن تكون هنالك من معضلة، ما دمنا على نهر الأولي. ولا تتوقّعوا أن نقول لكم ما تعملون. فعليكم أن تقرروا ولا تعتمدوا على أحد سواكم.

التقى اللبنانيون الأربعة بعدئذ بالعقيد يوحاڤ غولان لإنجاز مسألة إرساليات الأسلحة والذخائر، والدورات التدريبية بالنسبة إلى القوات اللبنانية. كان الضابط يبتسم للمرة الأولى. لقد كان شديد الحساسية حيال الأصول واللياقات، فيفرض في محدّثه أن يكون من بين الأشخاص الذين يتولّون مهمات من سوية مهمّته. وكان فؤاد أبو ناضر رئيس هيئة الأركان. . .

لقد تحاشى مختلف محاوري الوفد اللبناني أن يقاربوا، حتى تلميحاً، التغيير الاستراتيجي الذي بدأ يرتسم في إسرائيل. فالدولة العبريّة التي كان هدفها المعلن حتى ذلك الحين هو رحيل القوات السورية عن لبنان، تدرس بكثير من الاهتمام الإمكانات كافة القمينة بالتوصّل إلى اتفاق ضمني مع دمشق لضمان حدودها الشمالية. وقد باح أحد كبار الموظفين قائلاً: **نحن نظن أنّ دمشق إذا ما توصّلت لأن تقيم في بيروت نظاماً موالياً لسورية يكون للشيعة فيه تمثيل أفضل، فإنّ الأمن قد يعود إلى الجنوب، وتستطيع إسرائيل سحب قسم من جيشها.** فقد اتخذت تل أبيب قراراً حازماً بعدم التدخل عسكرياً في لبنان لإنقاذ نظام أمين الجميّل. لكنّها كانت عازمة على مواصلة حربها على «الإرهابيين الفلسطينيين». وقد أضاف موشيه أرينز في مقابلة متلفزة: **ليس الرئيس أمين الجميّل حليفاً لنا في نهاية المطاف، وليست لنا علاقات دبلوماسية مع بلاده، وهو لا يتمتّع بالمواهب التي كان يتمتع بها أخوه بشير، الذي اغتاله السوريون، ونحن نأسف عليه.**

قامت العديد من البعثات الأجنبية المقيمة في بيروت الغربية، بسحب موظفيها فور تمكّنها من

ذلك. ولم يدع بعض منها سوى موظف واحد في الأحياء الشرقية من العاصمة. فاستقرّت السفارة الفرنسية، كما السفارة السعودية، في المنطقة المسيحية. وقام الأميركيون بإخلاء مواطنيهم بالحوّامات فنقلوهم إلى البواخر الراسية قبالة الشاطئ. أما البريطانيون فأرسلوا مواطنيهم إلى جونيه حيث تعرقل سفرهم إلى قبرص بسبب عاصفة بحرية عنيفة. وساد فوق بيروت جوّ من نهاية عهد. فالذين لا يولّون هاربين، يستفيدون من فترات الهدوء لإقامة استقبالات وحفلات عشاء تتجاوب في أرجائها ضحكات مزيّفة فيبدو كلّ شيء مبالغاً فيه حتى التطرّف. أما الموضوع الوحيد لأحاديث الناس الجادين فهو تشكيل الحكومة. فالكل يعي أنّ الرئيس، ما لم يتوصّل إلى تشكيلها، فسوف يستيقظ ذات يوم ليجد أنّ النيوجرسي قد اختفت من أمام ناظريه.

أما الدبلوماسيون ومسؤولو أجهزة الاستخبارات العاملة في لبنان، فكانوا يعبّرون جميعاً عن تشاؤم يشوبه القلق. ولقد أكّدت ملاحظة خرجت من بيروت ليس لنا أن نبحث الآن في سحب قواتنا إلاّ اعتباراً للظروف التي يستطيع الرئيس البقاء فيها أو الاستقالة[1]. ثم قامت بتفصيل ثلاثة سيناريوهات.

الأول أن يستقيل أمين الجميّل. إنّ مثل ذلك القرار، إذا ما اتُخِذ على نحو مباغت فسوف يكرّس فراغاً سياسياً. عندئذ يمكن للمعارك أن تُستأنف بين الميليشيا المسيحية والإسلامية. وهنالك احتمال حالات هروب من الجيش. وما لم يقم الجيش بتدبير الأمر، فسوف يصعب العثور على خليفة للرئيس الجميّل، ويرى زعماء المعارضة أنّ العناصر المتطرّفة قد تجاوزتهم. وعلى كل حال، فإنّ ذلك الفراغ السياسي سيحرم القوة متعددة الجنسيات من مبررها الشرعي.

أما الفرضية الثانية فتشير إلى إمكانية بقاء أمين الجميّل في منصبه دون تقديم تنازلات. إنّ هذا الموقف المستند إلى تقدير متفائل للدعم الأميركي، المتلائم مع ضغوط محيطه والمراهن على ردّ إسرائيلي هو افتراضي تماماً، يمكن أن يؤدّي إلى خيار من شأنه، وهو لا يؤدي إلى حل، أن يتسبّب في سقوطه وأن يستجرّ التقسيمَ أمراً واقعاً. وعليه فلا يسع قرار سحب قوتنا سوى أن يؤجّل. لكن يمكن لذلك ألا يبدو نكسة إذا ما أحجم زعماء المعارضة عن توجيه ضرباتهم إليه أو إذا ما طالب الرئيس نفسه بذلك الرحيل.

أمّا في السيناريو الثالث فيقبل أمين الجميّل بتنازلات رئيسة... يسع سورية الدفع نحو هذا الحل، معتبرة أنّ من الأفضل رئيساً شرعياً وواضحاً، على فراغ في السلطة يهيئ لتجاوزات تكون السيطرة عليها شائكة (المتطرفون الشيعة). فيرى أمين الجميّل رئيس وزراء مفروضاً عليه، ومدعوماً من سورية بالتأكيد، لكن قد يكون قادراً على استعادة الهدوء وإعداد الرجوع إلى المفاوضات.

(1) DGSE (الإدارة العامة للأمن الخارجي، لفرنسا).

فيبدو إذن أنّ استقالة مباغتة لأمين الجميّل، كما حال عناده، يمكن في أسوأ الأحوال أن ترغم قواتنا على رحيل مستعجل يكرّس فشلنا، ويجعل وضعنا، في أحسن الأحوال، أكثر فأكثر صعوبة. . .

وتواصل ملاحظة DGSE (الإدارة العامة للأمن الخارجي، لفرنسا) القول:

. . . يبدو من المرغوب فيه إذن، ضمن هذه الظروف، ومع البقاء على استعداد لرد عسكري أو لانكفاء سريع، إما محاولة تفضيل السيناريو الثالث، أو الدفع بالرئيس إلى التفاوض على استقالته ضمن شروط يقبل بها الجميع. وإنّ فرنسا باستخدامها الضغوط على الرئيس، وبتشجيعها قادة المعارضة، وبدعوتها دمشق إلى الاعتدال، يمكن أن تبدو وسيطاً مقبولاً لدى الجميع. وسوف تكون تلك بالنسبة إليها الطريقة لأن تؤدي، في لبنان، الدور الخاص بها والذي يعود إليها مع الرفض لاقتناص المبرر لتطور في الوضع، وهو تطوّر متوقّع، للعمل على سحب قواتها، والذي مع الرغبة فيه، لا ينبغي له أن يتمّ تحت ضغط الأحداث فقط.

ارتأى فرانسوا ميتران بجدٍّ تام أن تُستبدَل بالجميّل شخصية حيادية أكثر. وقد اتصل مستشاره، فرانسوا دو غروسوڤر، هاتفياً بالرئيس اللبناني مراراً عديدة ليخبره بأنّ فرنسا مستعدة لاستقباله بكل الاعتبارات التي تليق بمقامه. بل إنّ دو غروسوڤر قدم إلى بيروت للتحدث في ذلك معه. لكن بلا جدوى. كان أمين الجميّل مصمّماً على البقاء في منصبه حتى نهاية ولايته. ولم يشأ فرانسوا ميتران أن يتخلى عن لبنان وشعبه من أجل ذلك. وكان ينبغي التسليم بتفكك القوة متعددة الجنسيات مع رحيل البريطانيين والإعلان عن رحيل الإيطاليين والأميركيين. حينئذ سعت فرنسا وراء حل الاستبدال. فتلقى ممثل فرنسا في الأمم المتحدة الأمر بالبدء باتصالات مع أعضاء مجلس الأمن لدراسة توسيع محتمل لمهمة قوات الطوارئ الدولية، أي ذوي القبعات الزرق المنتشرين في لبنان.

22
طريق دمشق

شدّد وزير الخارجية اللبناني على كلماته وهو يقول: **يظلّ لبنان متقيداً بالإبقاء على القوة متعددة الجنسيات إلى حين إنجازها المهمة التي جاءت من أجلها.** لكن ما من أحد أعاره انتباهه. ولقد كثّف من اتصالاته بالسفراء الذين كانوا لا يزالون في لبنان، وطلب إلى الدبلوماسيين اللبنانيين العاملين في الأمم المتحدة وفي واشنطن وباريس ولندن وروما أن يتحرّكوا حاملين تعليمات **الإقناع بضرورة إرسال قوة تابعة للأمم المتحدة إلى لبنان.** لكن فات الأوان.

فحين فقد أمين الجميّل السيطرة على عاصمته وتلاحم جيشه، أي الركنين الاثنين لسلطةٍ تظاهر الجميع بمنحِها ديمومة نظامه، فقدَ ثقة الغرب. ولمّا يكنْ يدري بذلك. وتحفّظ مستشاروه دون إعلامه بالأمر. فكان كل شيء مناسباً لتعليق بصيص من الأمل داخل القصر الجمهوري. إنّ عملية قصف الجبل من قبل «النيوجرسي» قد رفع المعنويات إلى حد كبير. فالسفن الأميركية حين استخدمت مدافعها قدّمت الدليل القاطع على أنّ واشنطن تقف وراء الرئيس. . . وعاد أمين فالتقط أنفاسه مثل سبّاح يصعد إلى السطح بعد غطسة طويلة وهو يحبس نفَسه.

نشبت معارك شرسة، فألهبت خط التماس الذي يفصل بين قطاعي العاصمة، من المرفأ إلى المتحف، وسط خرائب مركز المدينة القديم الذي اكتسحته المواجهات منذ 1975. لم يعد ثلث الجيش اللبناني قابلاً للعمل، لأنّ 25 % من عناصره قد هربوا صراحة. وجرى تحييد لواءين ونصف من سبعة ألوية، مذ أن انتقلت بيروت الغربية إلى سيطرة الميليشيا الشيعية. وفُتح الطريق بعض الشيء بين البقاع والعاصمة، ليُسلك ليلاً على الأقدام، عبر دروب معقدة. فما إن تغيب الشمس حتى يبدأ عبور الرجال والسلاح والذخائر، عبوراً صامتاً. ولقد تسلل إلى ضاحية بيروت الجنوبية، عبر أحراش الشويفات، 250 مقاتلاً فلسطينياً من منظمة الصاعقة، بقيادة العقيد السوري محمد دوغان. كان وصول هؤلاء الإرهابيين يثير القلق الشديد لدى الإسرائيليين. وعرضت تل أبيب عوناً عسكرياً على الجيش اللبناني. وقد عُقِدت اجتماعات عديدة بين رئيس عمليات الموساد، الجنرال أوري

ساغي، ورئيس ياكال، الجنرال ميثير داغان، وضباط من الاستخبارات العسكرية، وبين رئيس المكتب الثاني اللبناني، العقيد سيمون قسّيس. فاقترح الإسرائيليون أن يتدخّلوا بكثافة إلى جانب الجيش اللبناني في عملية عسكرية ترمي إلى إغلاق الممرّ بين الجبل والضاحية، على محور سوق الغرب ـ قبرشمون. وفي 10 شباط/ فبراير، رفض اللبنانيون العرض لأنّه كبير جداً فيجعلهم مكشوفين، أي متعاونين تعاوناً مفضوحاً. فاقترح أوري ساغي أن تقصف إسرائيل، بالمدفعية والطيران، أهدافاً محدّدة بدقة، يجري اختيارها مشاركة، وفقاً لتوقيت يتيح انتشار الوحدات اللبنانية حتى كفرسيل، وهي التلة التي تشرف على خلدة. أمّا وقد تأخّر وصول الردّ، فقد طلبت تل أبيب من العقيد آسا[1]، وهو الملحق العسكري في المركز الدبلوماسي الإسرائيلي في ضبية، أن يقوم باتصال سريع مع القوات اللبنانية. وأصيب فادي أفرام[2] بالذهول حين علم بتفاصيل العرض الإسرائيلي، وخصوصاً برفض الجيش. فقال متعجّباً:

– وكيف أمكن لهم أن يرفضوا مثل ذلك العرض؟ فقد مضى وقت طويل ونحن نطلب إليهم تنظيم مثل تلك العملية. بل وصل الأمر بنا حدّ العرض عليهم أن نسيطر على مواقعهم كافة على جبهة مركز المدينة من أجل تحرير الجيش. لكنّهم رفضوا! إنّي على استعداد لأن أجمع وحدات القوات اللبنانية جميعها للوصول بهذه العملية إلى غايتها.

فقال الضابط:

– حاولت إقناع القيادة، لكن طُلِب إليّ الانتظار. لقد حرصنا على إعلامكم بذلك، حتى لا يُقال في المستقبل، إنها خطيئة الإسرائيليين كما كانت الحال في الشوف. ولم تطلب إسرائيل شيئاً بالمقابل، لا توقيع الاتفاقية، ولا طلب مساعدة عامة مسبقاً من الحكومة اللبنانية، لا شيء. يبدو سيمون قسّيس مقتنعاً الآن، لكنّه بحاجة لأن يتخذ الرئيس قراراً سياسياً.

فلاحظ فادي أفرام قائلاً، وهو يتناول سماعة الهاتف:

– كلما أضاعوا الوقت، ازدادت مخاطر تفكك اللواء الرابع. ولسوف تجري مهاجمته في الساعات القادمة. سنمارس الآن المزيد من الضغوط ما دمتم على استعداد لمساعدتنا.

استدعى أفرام مكتب «القوات» في واشنطن، وبعد أن لخّص الوضع بإيجاز، أمر بالقيام بمسعى مستعجل لدى السلطات الأميركية كافة. ثم انتقل إلى عدد من المكالمات في بيروت من أجل ممارسة ضغوط، على المستويات كافة، على حزب الكتائب وعلى أمين الجميّل.

على الرغم من سماكة الجدران للبناء المحصّن حيث يقع مكتب القائد الأعلى للميليشيا، فإنّ

---

(1) كان الدور الرسمي للعقيد آسا، الإبقاء على الاتصالات الرسمية مع الجيش اللبناني. وكان مكتبه في الطابق الأول من الدارة الكبيرة التي استخدِمت «سفارة» للإسرائيليين في ضبيّة.

(2) كان معه حنا صافتلي ووليد فارس.

دوي المعارك في مركز المدينة كان يصل بكل وضوح إلى الحجرة التي يجلس فيها. وواصل الأجانب الهروب من لبنان. وعلى الرغم من العرقلة التي يتسبّب بها سقوط قنابل الهاون وأعمال القنّاصة المتمركزين فوق السطوح، فقد تواصل ترحيل البريطانيين والأميركيين على قدر الإمكان. وأصابت قنبلة يدوية سفير الأورغواي، غيليرمو ستيوارت، بجروح فيما كان يسعى لعبور ممرّ المتحف. إنّ غرب العاصمة الذي يبلغ تعداد سكانه 400 ألف في الحالات العادية، قد شهد وصول أكثر من 50 ألفاً من الدروز والمسيحيين الذين هربوا من الجبل و120 ألفاً قدموا من الضاحية الجنوبية. فالمباني الفارغة جميعها كافة قد جرى احتلالها بما فيها مواقف السيارات تحت الأرض.

في اليوم التالي أرسل أفرام رسالة إلى تل أبيب جاء فيها:

. . . ولاحقاً للأنباء التي نقلها إلينا العقيد آسا يوم أمس، فقد قمنا بعدة اتصالات، لا سيّما مع الرئيس ومستشاريه.

– قال لنا الرئيس إنّ العملية المقترحة تدخل ضمن سياق عام يشمل زيارة الرئيس لإسرائيل. فهل هذا صحيح؟

– نحن، القوات اللبنانية، على استعداد للقيام بمثل تلك العملية مع الدعم الذي تقترحون. ولسوف نستخدم مدرّعات الجيش في سوق الغرب وقبرشمون، حتى لو أدّى ذلك إلى انعكاسات سياسية خطيرة، ذلك أنّنا نعتبر أنّ تنفيذ مثل هذه العملية ذو أهمية حيوية.

لاري[1].

حبس العالم أنفاسه لعدة ساعات في 12 شباط/ فبراير. فقد أعلنت موسكو عن وفاة الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي يوري أندروپوف على أثر مرض طويل. لقد حلّ محل ليونيد بريجنيف منذ 467 يوماً وانقضت 177 يوماً وهو غائب عن مسرح الحياة العامة. لقد جاء رحيل الرجل السوفييتي الأول في وقت سيّئ جداً بالنسبة إلى سورية. فقد دخلت دمشق في مجابهة تحدٍ مع الولايات المتحدة، وهي بحاجة لدعم، وإن يكن دعماً صامتاً، من موسكو. فيُخشى أن تؤدي وفاة أندروپوف الصديق الصدوق لسورية والعرب، وفقاً لوصف حافظ الأسد، إلى تعديل في العون السوفييتي، لحسن استقرار مرحلة الخلافة على الأقل.

إلّا إنه خطر نسبي على كل حال، ذلك أنّ رونالد ريغان، وهو في حالة ليّ ذراع مع حافظ الأسد، كان يعاني من هشاشة المرشحين للانتخابات. وقد أدرك الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران ذلك. فاستفاد من جوّ الحيرة العام ليخرج بالمفاجأة في لقاء تلفزيوني بإعادة التموضع سياسياً. فقد أكّد قائلاً: **إنّ وضع الرئيس اللبناني محرج جداً**، ثم قام بإطراء كبير **للحسّ الكبير بالمسؤولية**

---

(1) إسم فادي أفرام الرمزي، في مراسلاته مع الموساد.

لحركة أمل الشيعية بزعامة نبيه بزي، التي كسبت معركة بيروت الغربية، والتي تقيم علاقة وديّة جداً مع القيادة الفرنسية في العاصمة اللبنانية. فاستبدّ بأمين الجميّل غضب ساخط. فاستدعى من فوره سفير فرنسا، فرنان ڤيبو، وطالبه بتقديم إيضاحات. فتحصّن الدبلوماسي قدر المستطاع وراء ضرورة الحصول على معلومات من باريس.

ومن حينها صار نبيه برّي مقصداً للزائرين من الصباح حتى المساء. فالصحفيون الأجانب جميعاً يرغبون في لقائه. ووضعت وسائل الإعلام نجم بيروت الغربية الجديد في منتصف الطريق الشيعية المحافظة والحداثة الغربية. كان في الثانية والأربعين، طويل القامة، جهوري الصوت ومظهره في الغالب هو مظهر الأقوياء الجدد الهجومي. وقد أقام مركز قيادته في قبو بنايته حيّ بربور قرب كورنيش المزرعة، فكان حافلاً على الدوام: هنالك المبعوثون الخاصون والسفراء ومندوبو الأحزاب الحليفة، ومسؤولو الميليشيا الخاصة به، تراهم في حركة دائمة في صالونه ساعة تناول القهوة.

إنّ فرنسا، أم لبنان وحامية المسيحيين، قد تخلّت عن الجميّل. فقام باستدعاء حلفائه المضمونين جداً إلى المكتب السياسي للكتائب: الأمين العام إيلي كرامة وقائد شرطة الحزب بطرس خوند وكذلك القادة الثلاثة الكبار في القوات اللبنانية فادي أفرام وأنطوان بريدي (توتو) وجوزيف أبو خليل. فهنالك ضغط متعاظم يُمارَس عليه منذ يومين كي يردّ بالإيجاب على الاقتراح الإسرائيلي. وقد اختار عدم التصدّي للقوات اللبنانية وجهاً لوجه، لعدم القدرة على تحييدهم. فأعلن أمامهم قائلاً بتشدّق: علينا أن نضع عواطفنا جانباً. فلدينا قرار تاريخي نتخذه. ولست راغباً في اتخاذه وحدي. فعلينا كلّنا أن نشترك فيه معاً.

واقترح أن يقوم اثنان أو ثلاثة، يختارهم الحزب، ليدرسوا وهم على صلة دائمة به، الخيارات الممكنة كافة، حتى التغييرات الجذرية بنسبة 180 درجة من أجل تخفيف المخاطر عن الطائفة المسيحية.

– سيكون اعتماد خيار متسرّع جريمة. فدراستنا الوضع معاً مسألة حيوية، ينبغي التفكير . . . يجب أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون. يلزمنا أن نرسم لوحة فيها الخيارات كلّها، وإني لأقول بإلحاح، الخيارات كلّها، الولايات المتحدة وإسرائيل وسورية. إنّ مهمتي لصعبة جداً ومعقّدة، لكني أقبل بها. فلنطرح كل شيء على الطاولة. ليست لديّ عقدة نفسية حيال الإسرائيليين ولا السوريين ولا الأميركيين. فسورية تمارس ضغوطاً، عبر المسلمين اللبنانيين، لإلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. فأنا الوحيد في مجابهتهم وكل تراجع سوف يكون وبالاً. لقد كانت إسرائيل، بانسحابها من الشوف، السبب في التدفق السكاني على بيروت الغربية. وهم الآن مستعدون لمساعدتنا على القيام بعملية لاسترجاع المتْنَيْن. لكنّهم يطالبونني، بالمقابل، بأن أذهب إلى القدس. ونحن في غمرة

مفاوضات معهم بشأن هذا الموضوع. أما الولايات المتحدة، فلا يسعني أن أراهن عليها للتوصّل إلى حل نهائي. لكنّي بحاجة للأميركيين من أجل المفاوضات.أما بشأن عملية قبرشمون، فهي غير ممكنة عسكرياً. فاللواء الرابع يوشك أن يلفظ أنفاسه، وأنا متمسّك به. فأنا راغب في أن أكون واثقاً من القدرة على القيام بهذه العملية وأن أقوى في الوقت ذاته على مواجهة هجوم قادم من البقاع. والشيء الأهم أن يقتنع الإسرائيليون بأنّ أمين وفادي شيء واحد.

على الرغم من عملية الإغواء التي قام بها الرئيس، فقد خرج قادة القوات اللبنانية من الاجتماع مذهولين ومفجوعين. فإمّا أن يكون أمين الجميّل فاقداً كل إحساس بواقعية الوضع، وإما أنّه حرص على التلاعب بهم تلاعباً صبيانياً. والتبعات في الحالين قد تكون مفجعة. فكتب فادي أفرام رسالة طويلة للإسرائيليين.

12 شباط/ فبراير 1984– الساعة23 و 55

أنا خارج توّاً من اجتماع مع الرئيس. هنالك، وفقاً لما قال، تعاون ممتاز بينه وبين إسرائيل. ولم يُنكِر وجود مشروع لعملية عسكرية سوق الغرب–قبرشمون. لكنّه أجملها في قضية أكبر. وهو لم يدخل في التفاصيل التي أعطاني إياها آسّا بالأمس. وأوضح أنه لا يستطيع القيام بمثل تلك العملية لأنّ عليه أن يستخدم اللواء الرابع، وهو اللواء الوحيد الباقي على حاله بعناصره المسلمين. وقال الرئيس بوجود اقتراح إسرائيلي يسمح باسترداد المتنين. ومن التفاصيل التي قدّمها، على سبيل المثال، أنّ الإسرائيليين سيصلون شمالاً إلى ضهور الشوير وحتى جسر المديرج نحو الشرق. وقال إنّه في حالة تفاوض دائم مع الإسرائيليين بذلك الشأن.

هنالك من ناحية أخرى، اقتراح سوري: فالسوريون يضمنون، مقابل إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو، حلاً للأزمة بمجموعها. ويقوم الرئيس بإعداد جدول مقارنة بين الخيارات الإسرائيلية والسورية مع حسناتها وسيئاتها. وسوف يقوم المكتب السياسي للكتائب بدراسة هذا الملف، فيما قطع الرئيس على نفسه عهد شرف بتنفيذ ما سيقرّر المكتب السياسي. فينبغي جعل المسيحيين جميعاً يسهمون في ذلك القرار، لا المكتب السياسي فقط: الرئيس الأسبق شمعون، والرئيس الأعلى. . .

وأنا أرى أنّ الرئيس يخاتل في سبيل كسب الوقت، ليتمكّن من مواجهة الضغوط التي نمارسها عليه. فلقد أكّدنا تأكيداً واضحاً أمام المكتب السياسي للكتائب، أنه ليس هنالك، بالنسبة إلينا، من خيارين اثنين، بل خيار واحد: ذلك أننا لن نقبل بالخيار السوري أبداً. ولقد اتَّخذ هذا الموقف ذاته، أعضاء عديدون من المكتب السياسي. إذن هو يحاول، حسبما أرى، أن يكسب وقتاً للتوصّل إلى اتفاق مع السوريين.

إنّ هذه الرسالة ذات طابع شخصي حصراً، فلا ينبغي استخدام مضمونها في أي مناقشة مع

الرئيس أو مع مستشاريه. وأنا أحيطكم علماً كي تكونوا ضمن مجرى الأمور ولكي نستطيع أن ننسّق أفعالنا. وأطلب منكم، أن تحيطوني علماً من جانبكم كي نستطيع أن نتعاون وألا نظلّ معزولين.

مع أفضل التحيات.

بادرت واشنطن إلى طمأنة حلفائها العرب. ؛ انتابهم قلق عميق بسبب الانعطاف الذي سلكته الأحداث في لبنان. وهم لم يفهموا المواقف الأميركية. فصحافتهم، التي تعكس فكر زعمائهم، تتحدّث أكثر فأكثر عن التخلي الأميركي عن العالم العربي لمصلحة إسرائيل حصراً. فينبغي على الولايات المتحدة أن تقوم بتصحيح هذه النظرة للأشياء. وقد قال أحد الناطقين باسم وزارة الخارجية على هامش أحد المؤتمرات **نحن لن ندخل في معركة من أجل اتفاقية 17 أيار/ مايو**. أما من الناحية الرسمية، فإنّ موقف ريغان هو ذاته على الدوام. فبعد أن استقبل ملك الأردن، جاء اليوم دور الرئيس المصري ليُستَقبَل في العاصمة الفيدرالية. وقد وصل إليها في 13 شباط/ فبراير. فجدّد وهو على عتبة البيت الأبيض، دعوته لانسحاب إسرائيلي غير مشروط من لبنان، وطلب من الأميركيين: **دعم منظمة التحرير الفلسطينية. فليس من حلّ بديل عن حوار مباشر.**

بدأ الليل بداية عادية في لبنان. فبعض الانفجارات تُسمَع هنا وهناك. ويشير المقاتلون إلى وجودهم ببعض الطلقات. كانت تُمطِر. إنّه مطر خفيف، متجمّد، ما انفكّ يهطل منذ يومين اثنين. وقد تحولت الطرقات بسببه إلى ممرّات موحلة. وكانت عاصفة بحرية قد قطعت حركة العبّارات التي تمضي بحركة مكوكية ما بين جونيه ولارنكا في قبرص. فأُرغِم ما يقرب من ثلاثين بلجيكياً على تأجيل ترحيلهم. كان طقساً لا يؤاتي بقاء أي مقاتل في العراء. فكان ذلك إعلاناً عن ليلة هادئة عسكرياً.

ثم تدهور كل شيء بعد الحادية عشرة ليلاً بقليل. فالقمم بين سوق الغرب وعاليه أُضيئت بفعل الانفجارات. ودفع دويّ بعيد ومتواصل من الانفجارات العنيفة بسكان بيروت إلى السطوح. فما كان من رشقة من قنابل الهاون، انهمرت على وسط المدينة، إلّا أن انحدرت بهم إلى الملاجئ. وبعد نصف ساعة خرست المدافع، فيما اندفع في الوقت ذاته أكثر من 3000 مقاتل فلسطيني وعناصر من الميليشيا الدرزية والجنود السوريين، بملابس ميدان متنوعة، هجوماً على سوق الغرب وقبرشمون وعبيّه وكفرمتى. كان يتولّى حماية سوق الغرب وضواحيها كتيبتان من اللواء الثامن بقيادة العقيد ميشال عون. أما باقي خط القمم فكان تحت سيطرة 1600 رجل، من المسيحيين والمسلمين، من الكتائب الثلاث المتفرعة عن اللواء الرابع بقيادة العقيد كلاس، مدعومة بكتيبة مدفعية. تقدّم المهاجمون على ثلاثة محاور، وخرقوا خطوط الجيش، فسيطروا على النقاط العالية التي تشرف على خطوط دفاع العسكريين. كانت الجبهة كلّها تتأرجح باستثناء سوق الغرب. فطلبت القيادة اللبنانية العليا دعماً نارياً من البحرية الأميركية. وبعد تردّد طويل وخصوصاً بعد تبادل رسائل عديدة

مع البنتاغون، أطلقت المدمّرة يو إس إس كلودفي ريكت USS Claude V. Rickett، من رؤوس مدافعها، رشقة من 11 طلقة على أهداف حددها اللبنانيون. فقام الجيش على الفور بهجوم معاكس، وأحياناً بالسلاح الأبيض، لاستعادة المواقع المفقودة.

أما في مركز المدينة، فقد «فعّلت» ميليشيا حركة أمل، ومنظمات يسارية، والمرابطون والمقاتلون الفلسطينيون خط التماس، من غير السعي لاختراقه حقاً. كان ذلك الضغط مخصصاً لتثبيت كتيبة المغاوير المحمولة بالحوّامات من اللواء ذاته الذي يسيطر على الخطوط الأولى عند تخوم ساحة المدافع والدبابات أ م ل AML من اللواء الخامس الذي يمكن إرساله دعماً للقمم.

أقلعت عند الفجر المطاردات القاصفة من طراز «هوكر هنتر» من على المهبط الموقت فوق الطريق الدولية قرب جبيل. فقامت بثلاث غارات متتالية للتخفيف من الضغط الواقع على اللواءين الثامن والرابع. أما وقد أخذ المهاجمون على حين غرة، فإنّ الغارة الأولى كانت الأكثر جدوى. أما الثانية والثالثة فجوبهتا بمقاومة أرضية فكانتا أقلّ دقة. وقد جرى إسقاط إحدى الطائرات.

في حدود الساعة الحادية عشرة، غادر الرئيس الجميّل قصره على جناح السرعة داخل حوّامة قادها بنفسه. فيمّم وجهه شطر الشمال. لقد قبل الرئيس السابق سليمان فرنجية بأن يضرب له موعداً. أما مكان الموعد فثكنة الجيش في سمار جبيل، على بعد 42 كم من بيروت، في منطقة يسيطر عليها عناصر المردة، من ميليشيا فرنجية. واستحلف الجميّل سابقه، باسم المسيحية، أن يدعمه في عمله. فحثّه فرنجية على إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. وهو يضمن له أنّ حافظ الأسد سيساعده، بعد ذلك مباشرة، في تشكيل حكومة اتحاد وطني ويسهّل عليه ولايته. وهكذا يتمّ حلّ الأزمة اللبنانية حلاً كاملاً. ودامت المناقشات أربع ساعات، في اجتماع منفرد، تخلله غداء.

أضحى الوضع على القمم شاقاً أكثر فأكثر بالنسبة إلى الجيش. وجرى هجوم جديد على المحور المؤدي إلى بلدة قبرشمون. كانت تلك القرية ذات أهمية استراتيجية بالنسبة إلى المهاجمين. أما بناؤها على مفترق طرق، فيجعل منها ممراً إلزامياً لكل واسطة نقل بين الجبل، ومن خلفه وادي البقاع، وبين ضاحية بيروت الجنوبية.

وجرى على نحو مباغت، التشويش على اتصالات الجيش. أما وقد جرى من بعد اختراق الرموز، أو تسليمها إلى أعداء الحكومة، فقد دخل عاملون على شبكة اللاسلكي لإصدار أوامر متناقضة للوحدات باسم القيادة العامة. وهي أوامر أطاعها العسكريون بكل يسر، لا سيّما وأنّه ما من أحد بوسعه أن يتخيل أنّ القوات الموجودة يمكن أن تتوافر لديها وسائل إلكترونية من ذلك النمط وتلك الأهمية[1].

---

(1) في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1990، أدّت مناورة مماثلة إلى سقوط الجبهة التي كانت تسيطر عليها وحدات الجيش الموالية لرئيس الوزراء ميشال عون الذي اضطرّ للجوء إلى السفارة الفرنسية.

أما بعد ذلك فضربت الفوضى التامة أطنابها. فقد شهد العقيد كلّاس، قواته، وهي تحت القصف، تجول في الاتجاهات كافة فوق أرض المعركة وفقاً لأوامر لاسلكية غير صادرة عنه. فبعث بأوامر مكتوبة إلى رؤساء الوحدات يأمرهم بالانكفاء نحو البحر. وفي تلك الأثناء، قام الإسرائيليون الذين كانوا يتابعون الموقف عن كثب، بتوقيف مركب لوجستي تابع للجيش اللبناني، يحمل أسلحة وذخائر وتعزيزات للواء الرابع، حتى لا يقع في أيدي المهاجمين. لكن قبطان المركب تلقى أمراً باللاسلكي لإلقاء الذخائر في الماء والعودة بالجنود إلى بيروت. وذلك ما قام بفعله.

انكفأ اللواء الرابع في حالة من الفوضى، فتخلّى عن العربات المدرّعة من طراز M113 ودبابات M48. وانفجرت الصدامات بين العسكريين الذين يريدون الارتداد نحو صيدا، أي نحو الإسرائيليين، والذين يريدون تسليم أنفسهم للميليشيا الشيعية أو الدرزية. كان ذلك عملياً هو الفرار الكيفي، باستثناء العسكريين، الذين اعتصموا حول العقيد كلّاس، في السعديات، غير بعيد عن المقر الصيفي لكميل شمعون، بانتظار عملية إخلاء بحرية طلبها الجنرال طنّوس من الأميركيين.

أمّا القوات اللبنانية المنتشرة في إقليم الخروب، فخرجت إلى الشمال من خطها حتى الدامور لاسترجاع قسم كبير من التجهيزات المتروكة لا سيّما العربات المدرعة والدبابات.

ولدى وصول المقاتلين الدروز إلى كفر متى، اكتشفوا مقبرة جماعية فيها 158 جثّة جافة كالمومياءات. فكانت تلك بقايا سكان القرية الدروز، من رجال ونساء وأطفال، وقد تركوا حيث تم رميهم قبل خمسة شهور، في 3 أيلول/ سبتمبر 1983، أثناء المعارك بين الميليشيات الدرزية والقوات اللبنانية للسيطرة على المواقع التي أخلاها الإسرائيليون.

لقد أزيلت عوائق الممرات الجبلية من مكانها. فمقاتلو أمل من الشيعة أقاموا اتصالاً بالقادمين من الجبل. وبيروت الغربية قد اختُرِقت. أمّا الممران الوحيدان الصامدان حتى الآن، فهما اللذان يحميان مقر الرئاسة ووزارة الدفاع: ضهر الوحش، يحمي طريق بيروت دمشق، وسوق الغرب الذي يسدّ «جادة» نحو الأحياء المسيحية. ولقد أوقع اليوم الأخير من المعارك 40 قتيلاً ومئات الجرحى في صفوف الجيش.

استدعى إسحق شامير، عند المساء، مساعديه الرئيسين والمسؤولين العسكريين لوضع كشف أولي. وكان موشيه أرينز حاسماً جداً إذ قال: لم يعد للجيش اللبناني من وجود. فعلى إسرائيل أن تبقى في الجنوب لزمن طويل. ثم تحدّث وزير الدفاع في لقاءٍ أجرته معه الإذاعة بعد ذلك بساعات قلائل: بعد أن نظّفت إسرائيل مدينة بيروت من الوجود الإرهابي، قامت بتسليمها للجيش اللبناني. وكان علينا الحصول على توقيع اتفاقية سلام مع لبنان، لكنّ الولايات المتحدة صرفت نظر الرئيس الجميّل عنها خشية أن يؤدي ذلك الاتفاق إلى خلخلة نظامه. والحال أنا نرى الآن ذلك النظام ينهار، على الرغم من أنّ الرئيس الجميّل تحاشى بكل حذر أي اتصال شخصي بإسرائيل. وإنّ هذا الوضع

ليجسد أحد الأخطاء التي يجري الوقوع فيها، حتى من قبل الحكومات التي تقول إنها صديقة لنا. ومع ذلك فهم يعتقدون أننا السبب في كل الأزمات التي تهزّ الشرق الأوسط.

لقد أدى التفكّك المتوالي لنظام أمين الجميّل، وتصريحات حسني مبارك في واشنطن، إلى تقوية التيار الإسرائيلي الشعبي الداعي إلى عدم جدوى الاتفاق مع البلدان العربية.

استدعى أمين الجميّل المسؤولين المسيحيين، مع حلول المساء في 14 شباط/ فبراير، وذلك ليعرض أمامهم تقريراً للمقارنة بين الخيارين الاثنين المعروضين عليه. كان النص يبدأ بقائمة المطالب السورية: إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو، وتعديلات على توزيع السلطة والأنظمة. أما النتائج التي سوف يستجرّها ذلك فقد وضعت تحتها خطوط: الإبقاء على الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. تمتين العلاقات بين إسرائيل وعدة أطراف مسيحية ودرزية. رجوع الفلسطينيين مع مقاتليهم وتنظيماتهم. الإبقاء على لبنان في النزاع العربي الإسرائيلي أرضاً لعدم الاستقرار والإرهاب. تحويل الاستقلال الوطني إلى «استقلال ذاتي» محدود. خطر النيل من الديمقراطية اللبنانية أو استئصالها. زيادة هجرة اللبنانيين إلى الخارج. انفجار النقمة لدى المسيحيين مع احتمال قيام تمرّد أو مقاومة مسلحة ضد السلطة، بدعم من إسرائيل.

وإذ يفصّل كاتبو التقرير بدقّة أنّ التفاهم مع سورية هو الخيار الوحيد الممكن، فهم يقترحون الإفادة من الهدنة المرتبطة بذلك، للاستعداد لمقاومة سياسية، ولاحقاً عسكرية، تسمح بالتخلّص من السيطرة السورية بأسرع ما يمكن.

أما الخيار الإسرائيلي فيؤدي للحصول على تحريرٍ بالحد الأدنى وعلى ضمانه، وإقامة نظام كانتوني، وتحييد الشوف عسكرياً من قبل إسرائيل، وتضييق الحصار على بيروت الغربية، وبسط سلطة الدولة على أكبر رقعة من أرض الوطن.

طلب الرئيس شمعون من الرئيس أن يوضح معنى الخيار الإسرائيلي. عندئذ أخرج أمين التلكس الذي بعث به إليه، في 7 شباط/ فبراير 1984، السفير الأميركي في باريس، ويقترح فيه القيام بعمليات قصف أميركية مدمّرة على المواقع السورية والفلسطينية. وأضاف أمين إنّ هنالك شرطين اثنين لهذه الهجمات: زيارته للقدس وعقد اجتماع مع الحكومة الإسرائيلية. وقال:

– لست معارضاً لهذا الاقتراح. لكن اعتبره غير كاف. إذ ينبغي له أن يضمن لنا كياناً مسيحياً يمتدّ من زغرتا إلى جزين وحماية في حال تعرّضنا للهجوم لاحقاً.

وأكّد أمين لمحاوريه أنّ مفاوضات في ذلك الشأن تتواصل مع الإسرائيليين.

وسأله شمعون إن كان على استعداد للذهاب إلى القدس. فردّ الجميّل دونما تردّد:

– أجل، سنذهب إلى القدس إن كان هنالك اقتراح ملموس.

واعتمد طريقة جديدة في العمل بإنشاء لجنة سياسية، برئاسته هو أو ممثل عنه، تقوم بجمع

الزعماء المسيحيين كافة. وسأل فادي أفرام عن تاريخ الاجتماع الأول للجنة، موضحاً أنّه سوف يأتي إليه بتقرير معاكس حول المزايا والمساوئ للخيارين السوري والإسرائيلي، قامت بوضعه القوات اللبنانية. فحدده الجميّل بيوم الغد، وهو ساخط.

غادر القائد العام للميليشيا المسيحية الاجتماع، يراوده شعور يتأرجح ما بين الأمل والغضب. فهنالك الأمل في أنّ الرئيس لم يستبعد الخيار الإسرائيلي، على الإطلاق. فجوابه الموجّه إلى كميل شمعون كان واضحاً في ذلك الشأن. والغضب لأنّ الإسرائيليين أبقوا عليه مرّة أخرى بمعزل عن الاقتراح المرسل عن طريق السفير الأميركي. فتاريخه يعود إلى 7 شباط/ فبراير! وهنالك أشياء كثيرة كان لها أن تجري بصورة مغايرة لو أنّه كان على علم بها. وقد لام بشدّة ممثل الموساد المقيم بعد أن استدعاه إلى الكرنتينا.

– قلت لي إنّ مشروع عمليةٍ على نطاق واسع لا وجود له. ولقد أراني الرئيس رسالة بالتيليكس تحمل اقتراحاً بعملية على نطاق واسع باتجاه المتنَيْن. ويقول الرئيس إنّ المشروع لا يزال موضع مناقشة.

فردّ عليه غيزي تساريري قائلاً:

– كن على ثقة من أنّ ذلك الاقتراح بلا أساس!

فطالبه أفرام قائلاً:

– ينبغي إيضاح ذلك بشكل قاطع، وبأسرع ما يمكن. إذ لا يسعنا العمل على أوهام.

فوعده ممثل المعهد[1] بطلب معلومات مفصّلة من تل أبيب.

ما إن افتُتِح اجتماع اللجنة السياسية الأول حتى كرّرت القوات اللبنانية معارضتها للخيار السوري. وعرض فادي التقرير الذي وضعته أجهزته حول المزايا والمساوئ لكل من الخيارين السوري والإسرائيلي. وبعد أن أشار النصّ إلى أنّ لبنان كان على الدوام محلّ أطماع سورية، أكّد أنّ السلطة التنفيذية اللبنانية، باختيارها دمشق، سوف تحصل على وقف عمليات القصف. والمصالحة بين فرنجية وحزب الكتائب. وإمكانية عودة بيروت الكبرى إلى السلطة. وفتح مفاوضات لتسوية المسائل المعلّقة بين لبنان وسورية. أما بالمقابل فيفصّل التقرير أنّ ذلك الموقف سوف يؤدي إلى انتهاء استقلال الدولة اللبنانية. وتنازلات لبنانية على الأصعدة التالية: الأمن والدفاع والإعلام والاقتصاد والتربية والسياسة.وتعديلات في النظام واعتماد قوانين تسيء على المدى الطويل إلى التوازن الطائفي. وهجرة مسيحية، وإدماج لبنان في الفلك السوري، ليغدو من البلدان الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي والابتعاد به عن العالم العربي. والاحتلال النهائي لجنوب لبنان من قبل إسرائيل.

---

(1) الاسم الذي يطلقونه على جهاز الموساد.

ثم يشير التقرير إلى أنّ وجود لبنان ليس مهدداً من قبل إسرائيل. ثم يُدرج ضمن قائمة «المزايا» **وضع لبنان في مأمن من كل سيطرة سورية وعربية. تغطية السيادة اللبنانية في الأراضي التي تؤوي المسيحيين على الأقل. ضمان وجود المسيحيين على صعيد السياسة والحرية والأمن. رحيل العناصر المسلّحة الأجنبية كافة، في المناطق المسيحية على الأقل. إيقاف هجرة المسيحيين. توثيق عرى الروابط بين لبنان والعالم الحر.**

أما في قائمة المساوئ فيضع التقرير في الحاشية **مخاطر مقاطعة سياسية واقتصادية عربية للبنان. تحريض المسلمين ضد السلطة وضدّ السكان المسيحيين. احتمال الانفجار في عدة (كانتونات). إغلاق الأسواق العربية في وجه الإنتاج اللبناني ومخاطر خضوع الاقتصاد اللبناني لسيطرة إسرائيلية.**

وهنالك فصل جرى تكريسه لما يمكن لإسرائيل أن تطلب من لبنان: **إحلال سلام دائم بين البلدين. وحتى ذلك الحين، قيام تنسيق عسكري واستخباراتي لمراقبة الإرهابيين.** ويمكن أن يطالب لبنان بالمقابل: **بعون عسكري ضد كل هجوم سوري. تدخل مباشر ودعم لما بقي من الجيش اللبناني ليستردّ سيطرته على المناطق المسيحية المفقودة. مساعدة للتوصّل إلى تفاهم عميق مع الدروز. المساعدة على إخراج الشيعة من الفلك الإيراني السوري.**

وأعرب أعضاء اللجنة في غالبيتهم عن تأييدهم لذهاب الرئيس إلى إسرائيل وشددوا مرة أخرى على الرفض الذي عبّرت عنه «القوات» للحل السوري. وذكّر عديدون بأنّ أمين الجميّل نفسه قد صرّح بأنه على استعداد للذهاب إلى هنالك.

استقبل الرئيس اللجنة، بعد ذلك على الفور، لسماع حصيلة مناقشاتهم. كان الجميّل مبتسماً ومنشرح الصدر وهو يؤكّد أنّه لا يعارض تقارباً مع تل أبيب، وأنّه على استعداد للذهاب بعيداً في ذلك الاتجاه. لكنّه يخشى، أثناء سفره، من أن تقوم دمشق وحلفاؤها بشن هجوم على مدى واسع. فاقترح أن يذهب وفد إلى إسرائيل لمناقشة التفاصيل الفنيّة لانتقاله والإعداد له، وكذلك وسائل إبعاد ردٍّ سوري. وتمنى على ذلك الوفد، كي يكون تمثيلياً، أن يضمّ جوزيف أبو خليل (من القوات اللبنانية)، ووديع حدّاد (عن الرئاسة)، وإيلي كرامة وجوزيف سعادة (عن حزب الكتائب). وجرى الحديث فيما بعد عن إشراك إيلي سالم (وزير الخارجية)[1]. وبعد ذلك بأقل من 48 ساعة، قلب أمين الجميّل التشكيلة رأساً على عقب، بإرساله وديع حدّاد وإيلي سالم إلى واشنطن لسبر أغوار نيّات الأميركيين. عندئذ اقترح الرئيس على فادي أفرام أن يذهب مع أبي خليل إلى تل أبيب، إذ ليس وارداً وجود ممثلين عن حزب الكتائب. وكان أفرام مرتاباً فرفض.

(1) سوف ينفي إيلي سالم فيما بعد أن يكون فكّر في ذلك السفر، أو حتى أن يكون أجرى اتصالات مع الإسرائيليين.

– إنّك لا تتمتّع بأية مصداقية في إسرائيل. فيستحيل عليّ الذهاب لأتكلّم باسمك في حين أن خلافاتنا في وجهات النظر وتحاليلنا معروفة تمام المعرفة لدى الإسرائيليين. وألحّ الرئيس وهو يؤكّد أنّ همّه الوحيدَ حمايةُ المناطق المسيحية وأنّه يريد الحصول على ضمانات من إسرائيل، فظل القائد الأعلى للقوات اللبنانية متمسّكاً برفضه. إذ لم تكن له أي ثقة بأمين الجميّل، ولم يشأ أن يغامر بمصداقيته في إسرائيل.

قام الموساد، رغبة منه في أن يوضح مع «القوات» نقطة المناقشات بينه وبين أمين الجميّل، بتنظيم انتقال تمثيلي إلى بيروت في 15 شباط/ فبراير. وكان ذلك بقيادة الرجل الثاني في المعهد، مناحيم ناڤوت (مندي). كان الوفد الإسرائيلي يضم روڤن مرحاف، وهو الدبلوماسي الذي عُيّن تواً سفيراً لإسرائيل في لبنان في مركز ضبيّة. وكان على معرفة جيدة بالقوات اللبنانية لأنه واظب على التواصل معها في الأعوام 78 حتى 80، حين كان معاون ديڤيد كيمحي. وكان اسمه الرمزي حينها روبرت. وغيزي تسافريري، المقيم في لبنان وجاك راينش، وهو يهودي لبناني صعد إلى إسرائيل في الأعوام 70، وكان ضابطاً في الاستخبارات العسكرية للجيش الإسرائيلي.

وصلوا إلى الكرنتينا في التاسعة مساء، بعد أن سافروا حتى الزوق في حوّامة. وكان مسؤولون من حزب الكتائب و «القوات» ينتظرونهم في مكتب فادي أفرام. بل كانت هنالك أيضاً سولانج الجميّل، زوجة بشير. قال مندي:

– كانت المسألة، في واقع الأمر، تتعلّق بعملية. لكنّ الموضوع لم يعد وارداً بعد سقوط قبرشمون.

فقال أفرام مقاطعاً:

– لنضع النقاط على الحروف. فالرئيس مقتنع بوجود عرض إسرائيلي جرى إبلاغه بواسطة السفير الإسرائيلي في باريس عبر سفير الولايات المتحدة.

– قال السفير في فرنسا إنّنا على استعداد للبحث إذا كانت الدولة اللبنانية مستعدة للتنفيذ. تلك كانت القاعدة. وعُرِضت علينا بعد ذلك عملية سوق الغرب–قبرشمون. فقلنا نعم من حيث المبدأ. وجرت من بعد عدة اتصالات واجتماعات. فأثرنا عدة نقاط وكنا متفقين عليها، مثل القصف الجوي وإرسال دورية إسرائيلية حتى كفرسيل[1]. لكنّ اللبنانيين لم يصادقوا على تلك النقاط في نهاية المطاف. وجاء رامسفيلد ليقول لنا إنّ رئيسكم غير راغب في عملية عسكرية في الوقت الراهن، كنا في 8 شباط/ فبراير. أما بخصوص العملية الكبرى التي أتيتم على ذكرها، فليس لنا بها من عِلم.

وأضاف مندي مدلّلاً عما كانت في الواقع الأسباب – أي الحدود – لعمل عسكري إسرائيلي:

---

(1) تلة إلى الشرق من تقاطع خلدة تقع إلى الجنوب من مطار بيروت الدولي.

– هنالك قرار من حكومتنا بضرب الإرهابيين أينما كانوا.

فسأل إيلي كرامة:

– هل كانت هنالك مناقشة دون الوصول إلى مخطط؟

فرد جاك راينش:

– إنها مناقشة بسيطة كما هي العادة. فكل ما جرى خلال الأيام العشرة الأولى، مناقشة مشروع مساعدة للواء الرابع للعمل على الوصل بين سوق الغرب وقبرشمون.

فألحّ أفرام قائلاً:

– ألم يتناول البحث خطّة واسعة النطاق؟

– كلا، فقد كنا على استعداد لأن نناقش مع الرئيس، على أعلى مستوى، ما كان يمكن فعله. لكن لم تكن هنالك من خطة محددة. لقد أرسل الرئيس مبعوثاً[1] إلى إسرائيل. وأثناء محادثاته، تناول الحديث زيارة الرئيس الجميّل للقدس، وإمكانية أن ندرس معه مباشرة عملية عسكرية بشرط أن يكون الجيش اللبناني مستعداً لذلك. ثم تلقينا من بعد جواباً بالنفي، بشأن زيارة الرئيس للقدس.

فقال إيلي كرامة، وهو سعيد بالعثور على تفسير يبرّر موقف الرئيس من غير أن يورّطه:

– من المرجّح إذن أن يكون ذلك المبعوث قد رجع يحمل انطباعاً بأنّ الزيارة إن تّمت، فإنّ عملية عسكرية ستكون ممكنة.

وعرض اللبنانيون أمام محاوريهم الخيار المطروح على الرئيس أمين الجميّل. فتفضيل الخيار سيرافقه حتماً طلب رسمي بالعون من تل أبيب. فأكّد مندي قائلاً:

– سوف يُقابَل ذلك مقابلة جادة من جانبنا. فندرس آنذاك ما يمكن القيام به عملاً سياسياً أو عسكرياً. وإنّ دعماً جوياً من جانبنا، لن يكون كافياً على ذلك الصعيد. فينبغي القيام بشيء آخر لمعالجة الوضع الراهن. لكنّي لا أرى أن يباشر الجيش الإسرائيلي عملاً عسكرياً مباشراً. لقد أحدثت الحرب تغييرات كثيرة في إسرائيل. فعليكم رفع عيار علاقتكم بنا. وقرار القيام بذلك عائد إليكم. فمن الصعوبة بمكان أن نردّ اليوم على السؤال حول ما نحن مستعدون لإعطائكم. كان ذلك صعباً قبل الحرب ولا يزال. هنالك شيء أكيد، فنحن مستعدون لمساعدتكم، لكن عليكم أن تقرروا أولاً الدفاع عن أنفسكم.

وقال روفن مرحاف مذكّراً:

– لم يعد للجيش اللبناني من وجود اليوم. فلم يبقَ سوى اللواء العاشر وبعض العناصر المبعثرة. فهل ستساعدون الرئيس في الدفاع عن الجبهات؟

(1) هو سامي مارون الذي سبق أن فاوض الإسرائيليين عن أمين الجميّل. (انظر الفصل 5 «اتفاق بلا طائل»).

- فقاطعه أفرام مغتاظاً:

- قواتنا تقف على الجبهات كافة. نحن مسيطرون على جبهة كفرشيما، قرب بعبدا. . .

فقال مناحيم ناڤوت:

- إنّ بعبدا لرمزٌ هام. والرسالة التي أنا مكلّفٌ بإيصالها إليكم هي أنّه لا ينبغي أن تنخدعوا. فالأمر الأكثر أهميّة هو أن تتوصّلوا إلى إقناع إسرائيل بأنّكم على استعداد للقتال، إمّا على المستوى اللبناني مع الرئيس، وإمّا على المستوى المسيحي.

فقال فادي أفرام متعجّباً وهو على وشك الانفجار غاضباً:

- لأنكم لستم مقتنعين حتى الآن بأننا سنقاتل؟

كان إيلي كرامة قد غادر المكتب قبل بضع دقائق، فرجع مبتسماً. وما إن عاد لاحتلال مكانه حول الطاولة حتى توجّه قائلاً لمندي:

- كنت في حديث هاتفي مع الرئيس. فقلت له إنّك هنا وسألته إن كان بوسعه أن يستقبلك. وأنا بانتظار جوابه.

بعد ذلك بساعة، وفي حدود منتصف الليل، أعطى أمين الجميّل الضوء الأخضر وأرسل سيارة لإحضار الرجل الثاني في الموساد. دام الاجتماع الثنائي بين الرجلين ساعتين. والتقى مندي زملاءه الإسرائيليين، مع أفرام وبريدي، في منزل كريم بقرادوني في الأشرفية. فأكّد لهم أنّ الرئيس مستعد للذهاب إلى إسرائيل، وأنّه يريد مسبقاً اقتراحاً ملموساً من تل أبيب.

أبحر الجنود الإيطاليون من كتيبة سان ماركو ووسائط نقلهم، وعددها 206 عربات، في 19 شباط/ فبراير على متن الباخرة «جولي أرانشيوني». ولم يبق منهم في لبنان سوى قرابة مئة من حملة البنادق، لحماية السفارة وكذلك المشفى الميداني والطاقم الطبي المقيم في قطاع المطار والمقدّم هدية للطائفة الشيعية. ولم يبق في بيروت سوى الوحدة الفرنسية من الجنود البحارة التابعين للكتيبة الثانية من المدفعية البحرية، التي يزداد عناصرها تكتّلاً إثر كل اعتداء. أصبح تشكيل القوة متعددة الجنسيات متمركزاً بعد الآن فوق الأساطيل التي تجوب عدّة أميال مربعة من مياه لبنان الإقليمية. كانت لدى الأميركيين حاملتا طائرات تعملان بالدفع النووي: «جون كندي»، وعلى متنها 85 طائرة و«إندبندنس» (70 طائرة)، والنيوجرسي، وهي البارجة الأقوى في العالم، (تحمل 9 مدافع من عيار 406 مم وصواريخ توماهوك)، والمدمّرة «كلود ريكيت»، وأخيراً حاملة الحوّامات «نيترو». أما الأسطول الثاني من حيث القوة فهو الأسطول الفرنسي أوليفان Olifant. وهذا الأسطول المتجمّع حول حاملة الطائرات «كليمنصو»، يضم الفرقاطة ديكين Duquesne، وخافرة الأسطول المضادة للغواصات ديستريه D'Estrée، وسفينة الدعم لارانس La Rance، وسفينة الإخطار أنكتيل Anquetil وحاملتي القوارب لوراج L'Orage ولا ديف La Dive. ولدى البحرية الإيطالية مضادة الطوربيدات

أرديتو Ardito، وناقلة الجند كارولي Carole، والفرقاطتان أورسا Ursa وبيرسيو Perseo. ولم يكن لدى البريطانيين سوى السفينة المساعدة، وحاملة الحاويات التجارية، وحمولتها 23 ألف طن، والمجهّزة لاستقبال أربع حوّامات، لكنّها تجنّد مئة بحار من لبنان، وتستفيد من القاعدتين البحريتين «أكروتيري» و«ديخيليا» في قبرص. وكان للسوفييت حضورهم بوجود 12 باخرة حربية، وسفينتين برمائيتين، وما يقرب من عشرين من الوحدات الداعمة ومراكب الصيد المحشوة بالأجهزة الألكترونية[1].

واصل وليد جنبلاط ممارسة ضغطه السياسي على شاه بعبدا وهو اللقب الذي أطلقه على أمين الجميّل، تذكيراً بشاه إيران الذي أرسل جيوشه، من غير طائل، لقمع الثورة الشعبية عام 1978. وقد أكّد في إحدى المقابلات قائلاً: **ينبغي محاكمة الرئيس أمين الجميّل على جرائمه بحق الشعب اللبناني، فلا يسعه أن يتفادى ذلك. ومن الخير له أن يُحاكَم محاكمة علنية وعادلة. وما لم يستقل الجميّل فسوف تعمّ الفوضى، والمعارك سوف تستمرّ ويغرق لبنان نهائياً. وليس ما يستطيع أن يردّ إليه مصداقيته. ولقد فهمت الحكومة الأميركية ذلك فهماً عميقاً، فبدأت بتغيير موقفها شيئاً فشيئاً.** وكانت الإشارة إلى «تخلّي» الولايات المتحدة، تتوارد في كل خطاب من خطب المعارضين للرئيس.

أما من الجانب المسيحي، فكانت الضغوط كلها على الشدّة ذاتها. فإضافة إلى القوات اللبنانية، صرّح كميل شمعون علانية، أنّه سيسحب ثقته من الرئيس، إذا ما استجاب هذا الأخير للأوامر السورية. وأكّد قائلاً إنّ إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو، إنّما يعتبر تحوّلاً بنسبة 180 درجة عن السياسة الرسمية. كذلك شجب قيام الرئيس بإرسال مبعوثين إلى العواصم العربية منذ عدة أيام. بل إنّ الرئيس السابق ندب ابنه داني ليحيط أمين علماً بمعارضته. وعادت العربية السعودية للظهور على الساحة اللبنانية مع رفيق الحريري ومخطط جديد للتسوية يتضمّن رفض اتفاقية 17 أيار/ مايو. فاندفع الرئيس إلى بيت أبيه في الجديدة، ليحيط القائد الأعلى للكتائب علماً باقتراح الرياض، وليطلب إليه تحييد كميل شمعون وكذلك الأب الآباتي بولس نعمان، رئيس عام الرهبنة اللبنانية المارونية الذين كانوا يقودون المعارضة السياسية المسيحية. كذلك طلب أمين من الرئيس الأعلى إقناع فادي أفرام بالذهاب إلى إسرائيل.

رضخ فادي أمام إلحاح بيار الجميّل. لكنّه ذكّره بأنّه يعتبر اللقاء الذي جرى بين مناحيم ناقوت والرئيس اللبناني التزاماً من جانب هذا الأخير. كذلك طالب بأن يُعلِم الرئيسُ الإسرائيليين مباشرة بأنّ

---

(1) كان لدى السوريين في لبنان عدد يتراوح بين 40 و50 ألف رجل، وصواريخ سام 5، التي يبلغ مداها ما بين 140 وحتى 300 كم، وصواريخ إس إس 21 التي يصل مداها إلى 120 كم، وفيه من الخبراء السوفييت ما بين خمسة حتى سبعة آلاف، يُناط بهم تشغيل قواعد الصواريخ سام 5. أما الإسرائيليون فيحتلون جنوب البلاد بجيش يصل تعداده إلى 15 ألفاً في مجموعه.

هذه الزيارة تتمّ بموافقته وباسمه. ووجه في النهاية تهديداً لأمين بجعل خطوته علانية، إذا ما قام الرئيس بتغيير رأيه، من بعد أن تكون المناقشات قد بدأت. فقبل أمين دون أن يطرف له جفن. وكرّر له أنّه على استعدادٍ للذهاب إلى إسرائيل، لكنّه يريد مسبقاً أن يحدّد الإسرائيليون خطوطاً حمراء، يقومون بالتدخّل من بعدها لضمان أمن المناطق المسيحية. وطلب من أفرام أن يحصل له في البداية على زيارة سرّية ليستطيع أن يحدّد، مشافهة، بنود اتفاقية، ثم يقوم بزيارة ثانية علانية إن كان ذلك ضرورياً. كان أفرام يعرف الرئيس حقّ المعرفة[1]. ولقد وجده هذه المرة متعباً بشكل خصوصي ومنهكاً، لكنّه كان بشكل خاص مرهقاً ومحطّماً. ولم يكن يرغب، وفقاً لما قال بصوت خفيض، سوى الحفاظ على المناطق المسيحية، حتى لو كان الثمن رئاسته على لبنان كله[2]. كانت المعنويات في القصر في أدنى مستوى لها. وكان سيمون قسّيس على استعداد للقبول بأي حلّ بشرط أن يضع حداً للمعارك. لم يكن للمستشارين من وجود وما كانوا يعرفون بأي مرجعية يتعلّقون. فهم يؤكّدون أنّ لبنان قد انتهى، وأنّه لا ينبغي، بعد الآن، أن تؤخذ بعين الاعتبار سوى مصلحة الطائفة المسيحية. وظنّ فادي أفرام، هذه المرة، أنّ الرئيس سيذهب حقاً إلى إسرائيل، لكن فقط بعد معرفة المزايا التي يمكن للزيارة أن تمثّلها. كذلك كان فادي يعرف أنّ أمين، إذا لم يذهب إلى هنالك، فسوف يتوجّه إلى دمشق على الفور، وسيقول للمسيحيين إنّ إسرائيل لم تقبل بمساعدته. فكان يلزمه إذن أن يُقنِع الإسرائيليين. ولقد أعطاه ممثل الموساد المقيم في لبنان بعض النصائح وهذا الإنذار:

– ليس للرئيس أن يتوقّع أن نقوم بتغيير سياستنا في غضون 24 ساعة. ولو أنّه جاء إلى إسرائيل من دون إعداد ومن دون لجنة، لأحدث صدمة نفسية من شأنها إطلاق عملية فورية. أما الآن فالوضع مغاير، لا سيّما وأنّ المسألة مع أرينز سوف تتطلّب وقتاً.

كان النبأ الأول الذي بعث به وديع حدّاد لأمين الجميّل من واشنطن، توقّف تسليم الأسلحة الأميركية من دبابات وعربات مدرّعة للجيش اللبناني. كان مستشار الرئيس قد استُقبِل من قبل وزير الخارجية جورج شولتز. وقبل اللقاء، أحاطه موظّف عالي المستوى من الوزارة علماً بقرار التوقّف عن تسليم العتاد الذي يُخشى أن يقع في أيدٍ معادية. فأكّد له شولتز ذلك. ودافع حدّاد مشيراً إلى المخاطر المتمثّلة في تقدّم القوات السورية باتجاه القرى المسيحية الواقعة على أعالي بيروت والخشية من وقوع مجزرة. فقال وزير الدفاع بلهجة ساخطة، إنّ الولايات المتحدة تعتبر ذاتها متمسّكة بتعهّداتها السابقة، لكنّها ليست مستعدة على الإطلاق لتقديم تعهّدات جديدة. وبات العذر مفهوماً. فليس للبنان أن يتوقّع أي شيء من واشنطن، بعد اليوم.

واقع الحال أنّ مكتب الـ سي آي إي CIA في دمشق، قد أعلم وزارة الخارجية الأميركية، قبل

---

(1) الرئيس خال زوجته.

(2) فادي أفرام لآلان مينارغ.

24 ساعة، بأنّ مستشار أمين الجميّل للشؤون السورية، جان عبيد، قد أحاط الزعماء السوريين علماً بقرار رئيس الدولة اللبنانية إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. والمقصود بذلك تلك الزيارة المبتورة. وقد نظرت وزارة الخارجية الأميركية للأمر نظرة سيئة جداً.

كذلك كانت حال القوات اللبنانية حين حصل مكتبها في واشنطن على النبأ ذاته بعد ذلك ببضع ساعات. فأعلن فادي أفرام رسمياً، أثناء مؤتمر صحفي، أنّ الميليشيا سوف تعارض الرئيس الجميّل، إذا ما رضخ للضغوط السورية بإلغاء الاتفاقية الإسرائيلية الأميركية اللبنانية. ثم أضاف في بيان آخر: إذا ما اعتبر الرئيس أنّ الحلّ في دمشق، وأنّه يقبل بوضع نفسه تحت السيطرة السورية من أجل تهدئة الوضع، فإنّ القوات اللبنانية سوف تردّ على الفور. فلدينا وسائل الضغوط على الرئيس. وليس لأحد أن ينسى أننا نمارس على الدوام رقابة قوية على هذه المنطقة. لقد كان التهديد واضحاً. فاستقبل أمين الجميّل أفرام وأوضح له مطوّلاً أنّه يسعى إلى كسب الوقت ومعالجة الضغط العسكري الواقع، عبر عمليات قصف متواترة، على المسيحيين وعليه هو. وصدّقه فادي بمقدار.

وبعد ذلك بأيام، في 23 شباط/ فبراير، اجتمعت الفعاليات والسلطات كافة، الدينية والاعتبارية والمدنية أو المالية السنّية جميعها، في مقر المفتي العام في دار الفتوى. وبعد اجتماع مغلق دام عدة ساعات، قرّر المجتمعون الانضمام إلى القادة الدروز والشيعة للطلب بإقامة علاقات متميّزة مع سورية وإلغاء الاتفاقية. فقد كان المجتمعون قد دعموا الرئاسة، حتى ذلك الحين، بشكل مكشوف أو مستتر، بوقوفهم وراء رئيس الوزراء شفيق الوزّان. لكنّ هذا استقال ولم يعد سوى مسيّر للأعمال. وها قد تخلى عن أمين آخر دعم لبناني، غير مسيحي. فبدأ يخفق في الجو بشكل جاد، وللمرّة الأولى، منظور زيارة لدمشق.

استدعى أمين الجميّل مكتب الكتائب السياسي ومسؤولي القوات اللبنانية. فقدّم لهم عرضاً مطوّلاً للوضع – المزري – على الجبهات. إنّ همّه الوحيد الآن حماية المسيحيين. فأعلن للجمع المذهول، أنّه اتخذ قراره بتفضيل الخيار الإسرائيلي. وأعلن أنّه قد كلّف فادي أفرام وأبو خليل بالذهاب إلى إسرائيل للإعداد للزيارة. وخلص إلى القول:

– أريد الذهاب إلى إسرائيل، لكن من يسعه أن يوقف السوريين؟ وكيف السبيل إلى إيقافهم؟

ودارت الأسئلة حول شائعات الإلغاء. فردّ أمين بابتسامة عريضة، قائلاً بلهجة تشوبها الثقة أنّه بصدد المناورة لكسب الوقت انتظاراً للجواب الإسرائيلي. وقال:

– لن أتخذ أي قرار قبل مناقشته مع المكتب السياسي ومع المسيحيين.

ثم استدار صوب فادي أفرام ليسأله لِمَ لم يسافر حتى الآن.

– ذلك أنّ الإسرائيليين يقومون بدراسة المسألة.

وقدّم سيمون قسّيس، رئيس المكتب الثاني، وصفاً للوضع العسكري. فبدأ بعبارة سببت صدمة:

– لم يعد للجيش من وجود. فلم يتبقّ سوى 2200 جندي موضع ثقة، منهم 850 من اللواء العاشر في سوق الغرب. أما على الجبهات الأخرى من كفرشيما إلى المتن، مروراً بالمرفأ، فينتشر 2000 عسكري نصفهم من المسلمين. فلم يعد بوسعنا الصمود عسكرياً. فالحل الوحيد وقف القتال والعثور على حلّ سياسي. وثار ممثلو «القوات» في وجه أقوال رئيس-المكتب الثاني. وأعلنوا قائلين نحن نرفض أن نستسلم. فالميليشيا ظلّت في حالة احتياط في المعارك الأخيرة. فبوسع عناصر الميليشيا أن يتولّوا على الفور أمر جبهات الجبل، بما في ذلك حماية ضيعة الرئيس، بكفيا. والميليشيا مستعدة لتحلّ محل الجيش في مركز المدينة. فقال أفرام بلهجة عدائية يتيح ذلك إخلاء كتيبة على الأقل وإرسالها دعماً إلى سوق الغرب. وبوغت أمين الجميّل بحميّة فادي أفرام، فقبل بمقترحاته كافة، لا سيّما وأنّ يسلّم الجيش للميليشيا دبابات، إذ لم يعد لديه من طواقم لها بعد ردّة المسلمين.

لدى الخروج من الاجتماع، أمسك الرئيس بفادي أفرام من كمّه ليحدّثه على انفراد.

– هل تعتقد أنّي مسرور بالانحناء؟ لكنّك سمعت تقرير سيمون.

فردّ عليه زعيم الميليشيا قائلاً:

– كان علينا التعاون على الأرض تعاوناً مطلقاً لإنقاذ الوضع.

أحاط غيزي تسافريري فادي أفرام علماً بأنّ تل أبيب أعطت الضوء الأخضر لسفره إلى إسرائيل. واقترح عليه مبتسماً، ألّا يتكلّم بشأن الضربات الجوية، إلّا عن الأهداف الفلسطينية .فهي مسألة تمهيد .

بعد ذلك ببضع ساعات، في مساء 24 شباط/ فبراير، وبعد اجتماع أخير مع أمين الجميّل، اقلع أفرام وأبو خليل من المحطة الكهربائية في الزوق على متن حوّامة إسرائيلية، قاصدين تل أبيب.

وقد شاهد اللبنانيان على الشاشة الصغيرة في غرفتهما في فندق بلازا، أثناء نشرة الأخبار، صوراً لرحيل المارينز من بيروت على متن عبّارات وفي حوّامات، متوجّهين نحو سفن الأسطول السادس الراسية في عرض البحر. وتوقّفت الكاميرات مطوّلاً عند إنزال العلم الأميركي على خلفية بعيدة من دوي القصف. وهي صور سبق أن شوهدت قادمة من سايغون أو من بنوم بينه. أمّا الفارق الوحيد هذه المرّة، فهو غياب عمليات القصف المباشر وسط المشهد. والأمر كأنّ الأميركيين قد تعلّموا الرحيل في وقت مبكِر. فهم لم يكونوا هدف المبارزة المدفعية التي كانت تقع في الوقت ذاته في سوق الغرب. ومع ذلك أوعزت البحرية الأميركية، على سبيل الوقاية، بجعل مدفعيتها تنبح باتجاه مواقع الحزب التقدمي الاشتراكي والمواقع السورية في الشوف والمتن الأعلى.

حين وصل فادي أفرام وجوزيف أبو خليل، في التاسعة والنصف من اليوم التالي، السبت 25 شباط/ فبراير إلى وزارة الدفاع، المقفرة بسبب يوم السبت، شاهدا أوري لوبراني يضع سماعة

الهاتف في مكانها. فلقد أعلمه واحد من مراسليه في السفارة الإسرائيلية في واشنطن، بأنّ أمين الجميّل سوف يؤثر الخيار السوري. أما ديفيد كيمحي، الذي كان يحضر اللقاء، فقد علم من جانبه أنّ إيلي سالم، أو أمين الجميّل نفسه، أسرّ للسفير الأميركي بأنّ الرئيس قرّر إلغاء الاتفاق، وأنّه سيحيط دمشق علماً بذلك عبر رسالة مكتوبة، وأنّ لقاء مع حافظ الأسد يمكن أن يتمّ في غضون الـ 48 ساعة المقبلة.

فأجاب فادي أفرام مبتسماً:

– إنّ أمين، وفقاً لما نعلم، منهمك بالمناورة كسباً للوقت.

فعلّق كيمحي قائلاً:

– هذا منطقي، وأعتقد بأنّه صحيح. فهو سينتظر على الأقل لحين عودتكم.

فأشار جوزيف أبو خليل إلى ذلك قائلاً:

– أظنّ أنّه سيفضّل الخيار السوري إن لم يصله جواب من جانبكم. وقد قال لنا أمس مساء أن نعمل بسرعة لأنّ الضغوط هائلة. فالوضع في القصر صعب جداً والمعنويات في مستواها الأدنى.

فقال كيمحي:

– نريد الحفاظ على اتفاقية 17 أيار/مايو، حتى المدى القريب، لا من أجل الاتفاقية ذاتها، بل لأنها رمز لاستقلالكم. وإذا ما أُلغيت، فمعنى ذلك أنّ لبنان تحت السيطرة السورية.

وأضاف لوبراني:

– لدينا مشكلة بسبب تفكك الجيش. فلسنا واثقين من أنّ العناصر المسيحية الباقية قادرة على حماية مناطقكم. ففي هذه الليلة استعادت عبّارات أميركية 13 دبابة M48، تخلّى عنها اللواء الرابع في السعديات. لكن هنالك عشر دبابات من طراز M30 إلى M40 وM113 مفقودة.

فقال أفرام:

– أعرف ذلك. فنحن أخذناها لننشرها في إقليم الخروب.

فهتف لوبراني رافعاً عينيه نحو السقف:

– الحمد لله أنّها لديكم، لكن هل الجنود المسيحيين تابعون لكم؟

– نحن نسعى حالياً لتنظيم عناصر الجيش المسيحيون، بالحفاظ على وحدتهم قدر الإمكان. فقيادة الجبهة في أسواق مركز المدينة، تقيم في مقرّ قيادتنا العامة في الكرنتينا، على سبيل المثال.

فقال لوبراني وهو يرفع حاجبيه:

– لم أكن على علم بذلك.

وسأل كيمحي:

– هل تستطيع القوات اللبنانية، الدفاع عن المناطق المسيحية وحمايتها، إن لم يكن هنالك تدخّل مباشر من العسكريين السوريين؟

– بلى. لكنّ السوريين لا يتدخّلون تدخّلاً مباشراً أبداً. فهم يبعثون برجالهم بلباس الدروز. ويطلون دباباتهم بالألوان الدرزية أو الصاعقة الفلسطينية أو جيش التحرير الفلسطيني. وترسل دمشق الأسلحة والذخائر بكثرة. وهنالك، إضافة إلى ذلك كله، شيء له وزنه في المعارك: المدفعية السورية. إنّها تقلب توازن القوى لمصلحتهم. والرئيس واقع تحت الضغط، ويعتبر أنّ السوريين سيصلون إلى بعبدا في غضون بضع ساعات فيوقفونه. فينبغي القيام بإيماءة حياله.

– وما عساه ينتظر منّا؟

– أن تفرضوا على السوريين خطوطاً حمراء، حول المناطق المسيحية، لا يقومون بتجاوزها، وأن تقوموا بشيء ما لإسكات مدفعيتهم.

فتوجّه لوبراني إلى أفرام سائلاً:

– هل يعتقد رئيسكم أنّ من الممكن تحسين الوضع العسكري من غير إرسال وحدات أرضية، إسرائيلية أو أميركية، إلى بيروت؟

– نحن ندرك ما حدودكم. ونريد فقط إقامة بعض التوازن. ولسوف نقاتل على الأرض بدعم جوي من جانبكم.

– لا بأس، فهذا واضح على القليل.

ونهضوا للانتقال إلى طابق آخر متوجّهين إلى مكتب وزير الدفاع.

كانت تجري في الوقت ذاته معارك رهيبة في ضهر الوحش، على بضعة كيلومترات من عاليه. وهو أشبه بجسر ضيق طبيعي، بين تلّتين، يمرّ من فوقه طريق دمشق بيروت الذي يؤدي مباشرة إلى وزارة الدفاع وخصوصاً إلى القصر الجمهوري. أما جانبا ذلك اللسان الأرضي فيسقطان عمودياً في الواديان الذي يفصل بينهما .وكانت حفنة من الرجال تكفي للسيطرة على السد الذي أقامه الجيش على بضع مئات من الأمتار من مدرسة الجمهور. لكنّ الموقع الذي يجري دكّه دونما انقطاع، كان شديد الهشاشة وينذر بالتحطّم. وطلب أمين الجميّل من ميشال سماحة الحضور لمقابلته بصورة ملحّة. كانت الطريق المؤدية إلى القصر مقفرة والانفجارات في توالٍ دائم. وقد غادر عناصر الحرس الجمهوري مراكزهم ليهبطوا إلى الملاجئ. فدخل سماحة البهو الكبير التالف والفارغ. فالأرض مغطاة بقطع الزجاج المتناثرة وبالركام. لقد أوعز أمين بنقل أثاث القصر، فوُضِع كل شيء في صناديق ونُقِل إلى بيت المستقبل، وهو بناء ضخم من الإسمنت، ومقرٌّ لمؤسسة المستقبل التي أنشأها في المتن. ورفع سماحة الصوت بالنداء.

فجاءه صوت من مكتب الرئيس على يمين المبنى:

– تعال، من هنا.

قاده ضابط نحو درج صغير مموّه وراء ستار. كان الرئيس وزوجته لاجئين في الطابق الثالث

تحت الأرض. وما كاد أمين الجميّل ينتهي من تحيته، وهو لا يكاد يُعرَف من شدة التعب، حتى أكّد له قائلاً:

– سوف يسقط كل شيء، فضهر الوحش ليس معلّقاً إلّا بشعرة. هيّا إلى دمشق. إذهب فقل لهم إنّي موافق على كل شيء وقم بالإعداد لقمّة قبل أن يفوت الأوان.

– لا بأس. لكن دعني أولاً أتحدّث إلى ميشال عون وطنّوس وفادي وآش كا HK [1].

ناوله أمين الجميّل جهاز هاتفه. فأكّد له العسكريان أنّ الوضع ميئوس منه وأنّ دمشق هي الحل الأسرع لوضع نهاية للمعارك. وأخبره حبيقة أنّه لا يمكن الاتصال بفادي أفرام، لكن من غير أن يخبره عن السبب، وأعطاه الضوء الأخضر.

توجّه ميشال سماحة على الفور إلى خط الجبهة الأقل سخونة، فوق بكفيا، فعبره سيراً على قدميه وتوجّه إلى أقرب مركز قيادة سوري. فطلب إجراء اتصال هاتفي مع محمد الخولي، المستشار الشخصي لحافظ الأسد. وإنّ اسم محمد الخولي قد سهّل الأمور، فنادرون في الواقع، هم الذين يسعون للاتصال بتلك الطريقة المستعجلة بالمدير السابق، المرهوب الجانب، لجهاز الاستخبارات العسكرية الجويّة. كان الخولي قد عمل فيما مضى تحت إمرة المقدّم حافظ الأسد يوم كان طيّاراً مقاتلاً. وكان على صلة ببشير الجميّل الذي كان يلقّبه بالـ«بروجكتور». زد أنّ الضباط الذين استقبلوا سماحة على خط الجبهة، أسرعوا في تلبية طلبه لمعرفتهم أيضاً بأنّ الخولي يقوم بدور أساسي في حماية الرئيس السوري وسط التوتر الحاد جداً والناشيء بينه وبين أخيه رفعت.

صعد فادي أفرام وجوزيف أبو خليل، في تل أبيب، الأدراج المزدانة بصور الطائرات المطاردة. وحين بلغا الطابق الثاني، سلكا الرواق المؤدي إلى مكتب موشيه أرينز. كانت صور كافة وزراء الدفاع معلّقة على الجدران. واعتذر أفرام، وهو يدخل الحجرة الكبيرة، لإزعاجه في يوم السبت. فردّ الوزير وهو يضبط وضع نظارتيه بإطارهما المعدني على عينيه:

– إنّ الأمر هام حتى لَيَستدعي العملَ فيه يوم السبت.

وبعد أن أخذ الجميع أماكنهم حول طاولة الاجتماع، بادر أفرام بعرضه:

– أرسلَنا الرئيس لنتدارس وإياك وسيلة إيقاف العملية السورية. وقال لنا إنه على استعداد للذهاب في الخيار الإسرائيلي حتى النهاية. إنّه مثبط الهمّة. ويتراءى لمن في القصر أنّ السوريين على وشك الوصول إلى بعبدا في غضون ساعات قليلة. وما لم نعد وفي يدنا ما يرفع معنويّاته فسوف يمضي مندفعاً إلى دمشق. جئت أسألكم عمّا يمكن فعله. إنه خائف على المنطقة المسيحية، وهو يظنّ أنّ محرقة (هولوكوست) سوف تقع فيها.

---

(1) ميشال عون، قائد اللواء الثامن وقائد جبهة الشوف، وابراهيم طنوس القائد الأعلى للجيش اللبناني، وفادي أفرام وإيلي حبيقة.

فسأل أرينز بلهجته الباردة المعهودة:

- ماذا بقي، عناصر مسيحية في الجيش؟

- الألوية الخامس والثامن والعاشر وبقية ضئيلة من الرابع. وهم يطيعون أوامرنا. أما الجيش فلم يعد له من وجود كجيش. فليس سوى وحدات مبعثرة. ونحن نسعى للحفاظ على هيكليّتهم ونتعامل مع قياداتهم.

فأضاف روفن:

- الوضع النفسي صعب جداً. والسكان يتتابهم الفزع.

أوضح قائد الميليشيا لمحدّثه أنّ الشيء الأشد صعوبة هو عمليات القصف الموجّهة من المتن الأعلى والشوف. فهي تثبّط همم الطبقة السياسية وهمم السكان أكثر. لقد نشر السوريون هنالك ما يقرب من 400 مدفع تحت أعلام درزية في الغالب وفلسطينية، لكنّها على العموم تحت إمرة جنود سوريين.

وأكمل أفرام بابتسامة مُرّة:

- ونحن نردّ بما هو متوافر لدينا: هنالك حوالى مئة فتحة نارية. إنّ المدافع من عيار 155 مم قد صارت 157 مم لفرط استخدامها.

فأضاف جوزيف أبو خليل قائلاً:

- لديّ اقتراح ملموس أقدّمه إليكم.

وأخرج من جيبه ورقة دوّن عليها، بالفرنسية، النقاط الأساسية لما يودّ الحصول عليه من الإسرائيليين. فبدأ بقراءتها وهو يترجمها للإنكليزية:

1-القيام على الفور بشنّ غارات جوية مجدية على المواقع المعادية في سوق الغرب والمتن وأعالي ضهور الشوير وبكفيا.

2- إعلان من الحكومة الإسرائيلية تعيد فيه تأكيد عزمها على الدفاع عن اتفاقية 17 أيار/ مايو بالوسائل كافة التي بحوزتها.

3- إعادة تنظيم خطوط التماس، عسكرياً: الجيش+ القوات اللبنانية.

4-ضرب مواقع المدفعية السورية.

5-تحييد الميليشيا والمدفعية الدرزية بالوسائل كافة.

6-مساهمة البحرية الإسرائيلية والأميركية.

7-حركة وحدة الجيش الإسرائيلي نحو الشوف - طريق صيدا - جزين - الباروك.

لم يضِقْ موشيه أرينز ذرعاً بكلامه، بل أصغى إليه بكل صبر. ثم استدار شطر أفرام وتحدّث إليه للمرّة الأولى، برفع الكلفة:

– أعتقد، يا فادي، أنك ستدرك ما سأقول لك. بل أعتقد أن رئيسك بدأ يدرك ذلك أيضاً. إسرائيل بلد ديمقراطي وصحافته حرّة. ولا تستطيع الحكومة أن تباشر عملاً من غير موافقة الشعب. ولا يسع إسرائيل أن تخاطر بحياة جندي واحد من أجل حكومة لا تقوم حتى بتوجيه الكلام إليها. فالرئيس يتحدّث عنّا حديثه عن أعداء. ويطلب إلينا في الوقت ذاته أن نباشر أعمالاً فيها مخاطر كبرى. من الأهمية بمكان أن تدركوا مدى الخطأ الفادح في إقامة توازٍ بين الخيارين السوري والإسرائيلي. فالخيار السوري يعني سيطرة سورية، في حين أنّ الحال مع إسرائيل هي بخلاف ذلك.

– إنّها مسألة ساعات. قال الرئيس إنّه على استعداد للقدوم إلى هنا للقائكم ووضع حلٍ للمسائل كافة. إنّه لم يعد يتكلّم عن لبنان بل عن المنطقة المسيحية. وهو مستعد للمجيء اليوم إلى إسرائيل، لكنّه يخشى ردة الفعل التي قد تقوم بها دمشق أثناء زيارته.

وخلص ديفيد كيمحي إلى القول:

– المسألة المطروحة هي التالية: سوف يتوجّه الرئيس في الساعات الـ 24 القادمة إلى دمشق، فيُلغي الاتفاقية ويضعكم تحت السيطرة السورية. أمّا الأسئلة التالية فهي: ما العمل لإيقافه؟ وهل ذلك ممكن؟ وما الثمن؟ فنحن لا نستطيع القيام بشيء ما دام يشير إلينا إشارته إلى أعداء. ينبغي حصول تغيير جذري في موقفه. وأنتم قلتم إنّه على استعداد للقدوم إلى هنا لتوقيع اتفاقية سلام.

فأضاف أرينز:

– لا يسعنا أن نعطي ضمانات أو أن نقطع عهوداً قبل أن يجيء إلى هنا. وعليه هو أن يُقرّر ولن يكون لذلك من علاقة بهجومٍ سوري.

فقال أفرام بإلحاح:

– إنّه على استعداد للقدوم وهو لم يطلب شيئاً قبل المجيء. لكن ينبغي أن نتمكّن من الرجوع إلى بيروت فنقول له إنّكم ستكونون على استعداد للردّ. فقد أرسل إليه عبد الحليم خدام رسالة يؤكّد له فيها أنّه إذا ما التجأ إلى بيت المستقبل، فسوف يدمّرونه فوق رأسه. فهل يسعنا أن نقول له إنّ عليه المجيء إلى هنا للقائكم، وإننا نحن، القوات اللبنانية، سندافع عن الجبهات مع الجيش، وإنّ من الممكن القيام بشيء ما معكم لإيقاف عمليات القصف؟

فسأل الوزير قائلاً:

– حين سيغيّر من طبيعة علاقاته معنا، سيعلم السوريون بذلك. لكن هل يمكن ترتيب لقاء سرّي معه؟

فردّ أفرام مذكّراً:

– ليس من سرّيٍّ في لبنان. بل لم يعد هو نفسه يذكر السرّ. فينبغي القيام بشيء عملي. هل يمكن الإعداد لزيارة بدءاً من هذا المساء؟ قال إنّه سيأتي، مع ما يمثّل ذلك من معارك وتضحيات.

فقبل أرينز قائلاً:

- إذن فلنجتمعْ به.

فقال كيمحي:

- ولِمَ لا يذهب الوزير للاجتماع بالرئيس في لبنان؟

فقال أفرام:

- فلْنحاول. لكن هل يسعنا أن نقول للرئيس إنّ الخطوط الحمراء والدعم الجوي ليست مستحيلة؟

- أنا لم أقل إنّها مستحيلة. قلت إنّي لا أستطيع قطع وعود، وإنّي سأناقش ذلك معه.

- لا بأس. فهل يسعنا العودة إلى بيروت على الفور؟

- أجل، بكل تأكيد.

كان ميشال سماحة جالساً في مكتب محمد الخولي، وقد شرح للضابط السوري الوضع مطوّلاً، ثم سأله:

- أودّ الاتصال مباشرة بالرئيس الأسد. فالكل هنا موافق على إلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو. وسوف يأتي أمين إلى دمشق مع شفيق الوزّان وكامل الأسعد وإيلي سالم[1].

- لا بأس. سأتصل بك في أقل من ساعة.

اصطحب أوري لوبراني اللبنانيين وكيمحي، لدى خروجهم من مكتب أرينز، من أجل توصيات نهائية، بينما سيطلب وزير الدفاع من الحاخام الأكبر الموافقة على أن تحلّق، يوم السبت، الحوّامة التي ستُعيد اللبنانيين - في وضح النهار - إلى بيروت.

وذكّرهم لوبراني بأنّ:

- الوضع السياسي في إسرائيل على نحو يستدعي التصويت على حجب الثقة في الكنيست وإسقاط الحكومة، إذا ما قيّدت نفسها بتعهّد ما. فلا بدّ من القيام مسبقاً بتغيير جذري في العلاقات بين الحكومتين. وعندها تستطيع حكومتنا القول إنّ معنا شرعية الرئيس اللبناني. ويسعنا، انطلاقاً من هنا، إرسال وحداتنا إلى الشمال من نهر الأولي. وعند ذلك فقط سوف يقبل الرأي العام الإسرائيلي ذلك الأمر الواقع. وليس للرئيس الجميّل أن يقول إنّه يريد المفاضلة بين الخيارين الإسرائيلي والسوري، بل أن يقول مثل قولكم، بعدم وجود خيار سوري، وإنّه يريد المقاومة والقتال، وإنّه يطلب مساعدتنا.

ثم أضاف كيمحي:

---

(1) هم على التوالي: رئيس الوزراء المستقيل، ورئيس مجلس النواب، ووزير الخارجية.

– إذا ما جاء إلى هنا رئيساً، وبدأ بعرض مشاكله مع الدروز والشيعة، فسوف يكون الأمر عسيراً جداً. أما إذا جاء مسيحياً، وزعيماً للمسيحيين، فسوف يكون الوضع مغايراً تماماً.

وأنهى لوبراني قائلاً:

– مهما يكن من أمر، فينبغي للرئيس أن يُدليَ بتصريح حول مستقبل لبنان. وذلك غاية في الأهمية، إذ نستطيع من بعد أن نذهب إلى الدروز، من دون جنبلاط بالتأكيد، والدفع بهم نحو الاتجاه الصحيح.

فردّ عليهم أفرام قائلاً:

– هنالك أولويات. العمل أولاً على إزالة إحساسه بالخطر الوشيك. ثم مباشرة العملية.

فأضاف كيمحي:

– الأمر الهام أن يقول الرئيس للوزير إنّه يريد التوصّل إلى علاقة جديدة، يشكّل جنوب لبنان نقطة هامة فيها. ولسوف يُفيد من ذلك كثيراً. عندئذ سيقوى على أن يطلب التزامنا بالدفاع عن المناطق المسيحية في شمال بيروت. ولا ينبغي مناقشة الماضي. بل يلزم تركيز الجهود حول الطريقة الفضلى لتفادي انتصار سوري. ولئن توصّلنا إلى ذلك فسوف نكون، نحن وأنتم، سعداء جداً.

كان الجو المكفهرّ والبرد يجعلان خط الجبهة الصامت فوق بكفيا مظلماً. حين رنّ جرس الهاتف في مكتب الضابط السوري، لم يشعر بالمباغتة من أحد. فرفع الضابط السماعة، وأصغى، ثم ناولها إلى ميشال سماحة دون أن يتفوّه بكلمة.

– الرئيس قد قبِل. سيجري اللقاء غداً. الاستعدادات للرحلة هي بالضبط، استعدادات المرّة السابقة ذاتها.

أعرب ميشال سماحة عن شكره. فعبر خط الجبهة واندفع قاصداً قصر بعبدا.

لم يتبادل أفرام وأبو خليل شيئاً من الحديث وهما في طريق العودة. فهنالك ضجيج مراوح الحوّامة، زد أنّ كلّ واحد كان يستمتع من جانبه بلذّة النجاح. فاللقاء بين أمين وأرينز قادم، أما التقارب بين لبنان وإسرائيل فليس سوى مسألة أناة فقط. وكلّ منهما يُعِدّ البراهين التي سيقدّمها للرئيس. أما وصولهما إلى محطة الزوق الكهربائية، غير بعيد عن الطريق الدولية، في الساعة الثانية من بعد الظهر، فجعلت سائقي السيارات مبهوتين.

نقل ميشال سماحة، الذي كان يجهل كل شيء عن مسعى فادي أفرام (مثلما كان هذا الأخير يجهل خطوة سماحة)، لأمين الجميّل وسيمون قسّيس وجان عبيد، تفاصيل حديثه مع محمد الخولي. أمّا وهم عاكفون تماماً على المسألة، فإنّ أي واحد من الأربعة لم يلاحظ انسحاب رفعت الأسد من ذلك الملفّ لمصلحة محمد الخولي. ولم يعيروا الوضع الداخلي في سورية أي انتباه. فالتوتر في دمشق بلغ ذروته. وحصلت بعض الاشتباكات المسلحة بين ميليشيا رفعت الأسد وقوات

الأمن. وأفهم حافظ الأسد أخاه أنّ المنفى الاختياري خير له وبالسرعة القصوى. وجرت عدة توقيفات في محيطه المقرّب تعبيراً عن تصميم الرئيس.

اندفع فادي أفرام وجوزيف أبو خليل مسرعين للقاء الشيخ پيار أولاً. إنّ إقناع الرئيس الأعلى لحزب الكتائب يعني إقناع المكتب السياسي، وبالتالي كنس آخر أشكال التردّد المحتملة لدى الرئيس. كانا بحيوية غامرة وهما يرويان أدق التفاصيل في رحلتهما ومناقشاتهما. وكانا سعيدين بالتوصّل إلى تحطيم الجدار الفاصل بين الرئيس والاسرائيليين. وكان كلّ منهما واثقاً من نفسه. فهنالك تطوّر جديد سوف ينشأ فيسمح بقلب توازن القوى لمصلحة المسيحيين. وانساق پيار الجميّل وراء غبطتهما وحماسهما. فطلب إليهما التوجّه إلى القصر الجمهوري على الفور للقاء ابنه. بل اقترح أن يتولّى بنفسه الاتصال به هاتفياً ليعلمه بقدومهما.

استقبلهما أمين في المكتب الرئاسي. كان بارداً ومتحفّظاً. ونسب أفرام ذلك الموقف إلى العصبية والقلق. وقدّم هو وأبو خليل تقريراً مفصلاً عن زيارتهما مع الإشارة إلى موقف الإسرائيليين، الإيجابي والبنّاء. لبث الرئيس لامبالياً طوال فترة حكايتهما. وما إن انتهيا من الكلام، حتى انطلق أمين بلهجة ملتهبة، في ذمٍّ طويل للإسرائيليين، مندّداً دونما تعيين بمراوغاتهم، وعداوتهم حياله، وبمكرهم وموقفهم المتعجرف. كان أفرام وأبو خليل ذاهلين، وقد خمد صوتهما. وشدّد الرئيس على عدم وثوقه بهم. ثم صرخ قائلاً وهو يغلي ويفور غضباً: **لن يكتب التاريخ أنّ واحداً من آل الجميّل قد وقع اتفاقاً مع الإسرائيليين.**

لم يقو كلّ من فادي أفرام وأبو خليل، في بداية الأمر، على أن ينبس ببنت شفة. كانا مصدومين بكل ما في الكلمة من معنى، فيديران عيونهما في محدّثهما. وبعد صمت طويل، ذكّره أفرام، بأنّه هو الذي أرسلهما إلى إسرائيل بنقاط محدّدة لمناقشتها. فعاد الرئيس إلى شكواه من الإسرائيليين. وأدرك قائد الميليشيا بسرعة أنّه وقع ضحية عملية غشّ. كما فهم على نحو مباغت انّ الرئيس قرر اعتماد الخيار السوري، حتى من قبل أن يسافر إلى تل أبيب. فنهض، وأعلن لمضيفه أنّ الخيار الرئاسي يجبر القوات اللبنانية على معارضته بكل حزم، وخرج من القاعة حتى من غير تحية، وتبعه أبو خليل، ممتقع الوجه، دون التفوّه بكلمة. كاد أبو خليل، وهو في السيارة التي يقودها أفرام، أن يجهش بالبكاء. وأكّد أنّه أضحى مشمئزاً من تلك الخيانة كلّها، وأعلن أنّه عقد العزم على مغادرة البلد بأقصى سرعة.

ما إن بقي أمين الجميّل وحده، حتى هتف لأبيه طالباً إليه أن يجمع، بدءاً من يوم غد، المكتب السياسي لحزب الكتائب. وكان بوسعه أن يرى من نوافذ الطابق الأول لقصره، آخر العسكريين الأميركيين وهم يرتحلون عن رمال الشواطئ اللبنانية، مما يدفع به دفعاً للارتماء في أحضان حافظ الأسد مع إضعاف نظامه. أما اليوم، فلم يعد ينتظر، من أجل تعميم قراره، سوى ضمانات سورية وتفاصيل تتعلّق بإخراجها إخراجاً يراعي حساسيته.

قرّر الرئيس أن يتجاوز أشكال الرفض كافة المتوقعة من الأطراف المسيحية. وكان مقتنعاً بإنّه يستطيع التصدّي لمعارضة شمعون والرهبان الموارنة والقوات اللبنانية، اعتماداً على حزب الكتائب. ففي تقديره، بشأن تلك المعارضة المسيحية، إنّها كلما كانت واضحة، كانت أكثر نفعاً بالنسبة إليه. فهي سوف تشكل حجّة لها وزنها في مناقشاته مع السوريين، للإقلال من عزمهم على إجراء تغييرات دستورية وتقاسم السلطة مع المسلمين. وفي صباح يوم 26 شباط/ فبراير، اجتمع مكتب الكتائب السياسي، ليمنح بالإجماع، دعمه لرئيس الجمهورية القادر دون غيره على تحديد خياره، نظراً إلى أنّ في تصرّفه من دون أي شخص آخر مجموع معطيات القضية.

وعلى الفور، أرسل أمين الجميّل جوني عبدو، مدير الاستخبارات العسكرية السابق، إلى عمان، ليشرح لوليد جنبلاط التوجّهات الجديدة للرئاسة. كما طلب إلى جان عبيد تأكيد قراره بإلغاء اتفاقية 17 أيار/ مايو، وتوجيه الدعوة لمواصلة مؤتمر جنيف، وأخيراً تشكيل حكومة وحدة وطنية. وأضاف أمين إنّ طلب انسحاب القوات السورية من لبنان سوف يتم صوغه بشكل غامض بعض الشيء ومن غير أن يُربَط أبداً بضرورة الانسحاب الإسرائيلي. وكما بلمسة سحرية، صمتت المدافع التي كانت تقصف القصر الرئاسي والمناطق المسيحية، حتى قبل عودة جان عبيد من دمشق.

وفي اليوم التالي، كرّست الصحف كافة صفحتها الأولى للإعلان الرسمي عن زيارة الرئيس اللبناني إلى دمشق. كما أوضحت كلّها، مستخدمة العبارات ذاتها تقريباً، من غير إشارة إلى المصدر، لكن مع التلميح إلى رئاسة الجمهورية، أنّ لبنان سعى - بلا طائل- وراء الحصول من الولايات المتحدة ومن إسرائيل، على تعهّد بأن يبادر أحد هذين البلدين لتفادي مذبحة محتملة ضد المسيحيين بعد انسحاب المارينز.

نشر كميل شمعون بيان استنكار تام يطلب فيه، على الأقل، حصول انسحاب سوري مسبق ويشمل المرتزقة الليبيين والإيرانيين والفلسطينيين، قبل الإلغاء. وأمضى قادة القوات اللبنانية وقتهم في عقد اجتماعات، سعياً وراء الوسيلة الفضلى لمعارضة أمين. وظهر الانشقاق في أوضح صوره في المؤسسة. فجرت تسمية الذين «ضد أمين» في المراكز الحساسة السياسية والعسكرية للميليشيا. وتمّ إنشاء ثلاث قيادات جديدة، سعياً وراء زيادة عدد القادة المخلصين لفادي أفرام. فأُسنِدت إلى كل من جورج عدوان، وسمير جعجع (مفوّضية التعبئة)، وكريم بقرادوني. أما التحرك الأخير لحفظ ماء الوجه، فتمثّلت في تظاهرات ضدّ أمين الجميّل قامت في قرى جنوب لبنان المسيحية كافة. وقد خطب نازار ناجاريان (نازو) في تظاهرة جزين فأثار تهليلاً بين المتظاهرين إذ قال: **نحن نلوذ بالصمت منذ 18 شهراً، أما اليوم فسوف نقول بكل وضوح: نحن إلى جانب التطبيع مع إسرائيل، لا من أجل مسائل أمنية فقط، بل على الصّعيدين الاقتصادي والثقافي أيضاً**. وجرى انتزاع صور أمين من على الجدران لتُستبدل بها صور أخيه بشير. وانتهت الأمور عند ذلك الحد.

لقد سيطرت كآبة صامتة على المنطقة المسيحية. فتشكّل رتل انتظار طويل أمام المبنى الذي استولى عليه الأمن العام. كان الجميع يسعى وراء الحصول على جواز سفر، على الرغم من أنّه ما من أحد كان واثقاً في الحصول من بعد على تأشيرة دخول إلى بلد ثالث.

قدّم دونالد رامسفيلد، مبعوث رونالد ريغان الخاص إلى الشرق الأوسط، استقالته، مكرّساً ما أطلقت عليه الصحافة اسم الفشل الأميركي الضخم. فالإدارة الأميركية بدت عاجزة عن ضبط الموقف بعد جهود استمرّت 18 شهراً. أما الوحدة العسكرية الفرنسية وهي الأثر الأخير من القوة متعددة الجنسيات، وقد أبقت عليها باريس في بيروت من غير سبب حقيقي، فقد تلقّت تهديداً باسمها من الجهاد الإسلامي، المنظمة السرّية للمقاتلين الأصوليين الشيعة الموالين لإيران. وقد أعطت المنظمة، في بيان صادر عنها، الجنود الفرنسيين مهلة أسبوع. فأعلنت حركة أمل على الفور أنّها تضع الفرنسيين تحت حمايتها. أما المشروع الذي عرضته فرنسا على مجلس الأمن بأن يُستبدل بهم ذوو القبعات الزرق، فقد اصطدم بالفيتو السوفيتي. وآل بباريس الأمر إلى الإعلان أنّ فرنسا لا يسعها أن تضع من ذاتها بديلاً للقوانين الدولية. وفي المساء ذاته أصدر «الكيه دورسي» (وزارة الخارجية) بياناً يشير إلى أنّ التشكيل الفرنسي الراهن في لبنان لم يعد ملائماً لدعم الجهود اللازمة للمصالحة الوطنية بين اللبنانيين.

كان أمين الجميّل قد وعد باستدعاء الزعماء المسيحيين قبل الإعلان رسمياً عن قراره. وفعل ذلك في 29 شباط/ فبراير بدعوة الجبهة اللبنانية[1] للاجتماع به وقت الضحى في دير أنطلياس للروم الأرثوذكس. فرفض أن يحضر كل من كميل شمعون وفادي أفرام. وأثار ممثلوهما صخباً عاماً قبل مغادرة القاعة. أما الكتائب، وعلى رأسهم پيار الجميّل، فظلوا وحدهم في القاعة. لقد اصطف الحزب إلى جانب رأي زعيمه التاريخي، وأصدر بياناً جاء فيه أنّ الحزب يتمنى للقمّة السورية اللبنانية أن تُكلّل بالنجاح.

ولم يتوقع أمين أن يُنشَر البيان. ثم توجّه إلى قاعدة حالات، المشادة على الطريق الرئيسة قرب جبيل. وكان ميشال سماحة قد طلب من إيلي حبيقة أن يضاعف مع رجاله عدد التشكيل الأمني الذي نشرته الدولة على طوال الطريق. وقد حصل ذلك من غير أن يُحاط فادي أفرام به علماً. كان في المرسيدس البيضاء المصفحة التي يقودها أمين الجميّل بنفسه، كل من جان عبيد والجنرال عثمان عثمان، قائد قوى الأمن الداخلي. وصعد في سيارة أخرى من الموكب إيلي سالم، وزير الخارجية، ومعه ميشال سماحة. وقبل مغادرة القصر الرئاسي التقى ميشال سماحة بميشال عون. وقد اقترب منه هذا الأخير قائلاً: أريحوني من 17 أيار/ مايو هذه، فما عدت أرغب في سماع اسمها.

(1) ائتلاف الأحزاب المسيحية اللبنانية المحافظة.

وصعد الجميع في حوّامة بوما التابعة للجيش اللبناني. فحطت في مطار لارنكا بجوار طائرة بيضاء مستأجرة من الطيران السويسري. فنزل الركاب من الأولى ليصعدوا في الثانية التي اقلعت بهم باتجاه دمشق.

ما إن وصل وليد جنبلاط في الساعة الواحدة صباحاً عبر طريق الشويفات العسكري الشهير، الذي فتحه المقاتلون الموالون لسورية، حتى توجّه إلى منزل نبيه برّي. وقد تبادلا عناقاً طويلاً أمام عدسات الكاميرات. أمّا في تل أبيب، فالإعلان عن الزيارة احتلّ الصفحة الأولى في الجرائد كافة. إنّ لبنان صار محميّة سورية. ولم يكن لدى يوشع ساغي، الرئيس السابق لمخابرات الجيش الإسرائيلي من تعليق سوى جملة واحدة: لقد ربحت سورية حرب لبنان.

هبطت الطائرة التابعة للطيران السويسري في الساعة الواحدة بعد الظهر في مطار المزة، وتوجّهت بناء على تعليمات برج المراقبة، لتتوقف على مهبط القاعدة العسكرية. وقبل أن تتوقف نهائياً أمام سجادة حمراء طويلة، أدرك أمين الجميّل، وهو ينظر عبر قمرة القيادة، أنّه يُستَقبَل بمظاهر الحفاوة كافة المخصَّصة لرؤساء الدول القادمين في زيارة رسمية. كانت هنالك فرقة مراسم من الحرس الجمهوري بكامل اللباس الرسمي، مع الفرقة الموسيقية، ومنصّة الشرف لخطاب الترحيب. وحتى السلك الدبلوماسي بكامله تلقى دعوة من الرئيس السوري لقطع مسافة 16 كم بين العاصمة والمطار ليكون حاضراً تحت البرد، ساعة وصوله. ومع ذلك فإنّ سورية لمّا تعترف دبلوماسياً بلبنان.

كان حافظ الأسد متلفّعاً بمعطفه الأسود، يقف مبتسماً عند أسفل السلّم، يمدّ له يديه. وقف وراءه، متراجعاً قليلاً، عبد الحليم خدام. وكان يلتمع بريق رضى في عينيه الزرقاوين.

كانت ابتسامة تعلو شفتي أمين الجميّل أيضاً: فيما سقطت خصلة شعر على جبينه بفعل الريح، وقد احمرّ خداه برداً أو انفعالاً. كان متشنّجاً. ولم يكن على ما يبدو مرتاحاً، إذ أدرك أنّ أبّهة الاستقبال إنّما تعني أنّه جاء في مسح صوفي، والحبل في عنقه. وفيما هو يهبط السلم، كانت المدفعية تطلق إحدى وعشرين طلقة على شرفه، وكان لها الدويّ ذاته الذي كان يسمعه يومياً تقريباً منذ عامين على التوالي، وهو في بيروت.

حين وطئت قدماه أرض المطار تقدّم حافظ الأسد نحوه ليعانقه. وكان ذلك أشبه ما يكون بعناق الأب للابن الشاطر (السفيه)[1] الذي عاد إلى البيت.

---

(1) إشارة إلى مثلٍ ورد في الإنجيل بعنوان «الابن الشاطر»، يحكي قصّة ابنٍ طلب من أبيه حصّته في الميراث، فأخذها ومضى ليبدّد ماله على دروب اللهو والفساد. . . ثمّ يفتقر ويعضّه الجوع، فيعود إلى دار أبيه نادماً. فيعانقه أبوه ويقيم احتفالاً قائلاً: «هذا ولدي، كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجِد» المترجم).

خاتمة

على أثر المحادثات التي أجريت في قـ الضيافة، رافق الرئيس حافظ الأسد نظيره اللبناني إلى المطار. كان أمين الجميّل قد رفض عرض نظيره السوري بقضاء الليل في دمشق. فضل القيام بمحطة خاصة في رودس والنزول في فندق لأن مطار بيروت كان غير آمن .

على سلم الطائرة أمسك حافظ الأسد بيد الرئيس اللبناني وبيد ميشال سماحة وقال بصوت ناعم مبتسماً :

-عليكم أن تضموا فادي أفرام، إيلي حبيقة، فؤاد أبي ناضر وميشال سماحة في حكومة موسعة إلى جانب وليد جنبلاط ونبيه برّي. أنا متأكد أن كل شيء سيسير على ما يرام .

-تمتم الجميل بعض الكلمات وصعد إلى الطائرة.

عند وصوله في اليوم التالي إلى قصر بعبدا استدعى أمين جميع الذين رافقوه إلى دمشق ليعلن لهم إنه لن ينقض اتفاق 17 أيار/ مايو دونما إجراء مفاوضات مع إسرائيل لا سيّما حول الترتيبات العسكرية. كان على يقين من أنه سيتمكن من انتزاع المزيد من تل أبيب. وقد ذكّره محادثوه بأقواله أثناء المباحثات مع حافظ الأسد. ولكنه أنكر ذلك. وأصر إيلي سالم، جان عبيد، سيمون قسّيس وميشال سماحة على عدم إمكانية العودة عن الالتزامات المقطوعة. وسرعان ما احتدّ النقاش وذهب الرئيس حتى إنكار معنى الكلمات. وتقرر أن يعود جان عبيد وإيلي سالم إلى دشق للاطلاع على الملاحظات المدوّنة أثناء المناقشات من قبل عبد الحليم خدام. ولدى عودتهما رضخ أمين. شكل حكومة لا تضم أي ممثل عن القوات اللبنانية. كان السوريون مذهولين من هذا الأمر.

شكلت رحلة أمين الجميّل إلى دشق بداية انقسام داخل الشارع المسيحي في لبنان. ووصل هذا الانقسام حدود المجابهة المسلحة بين المتنازعين .

وحتى قبل عودة الرئيس من دشق كان كل عناصر ميليشيا القوات اللبنانية، من أدنى مستوى الهيكلية إلى أعلاه، قد اتخذوا موقفهم «مع» أو «ضد». أول من انضم إليه بعد عودته كان جوزيف أبو خليل. ولكن لم يجاريه كثيرون في هذا الموقف. كانت حرب الجبل وبشاعاتها، وتردد الرئيس

وبلبلته، إضافة إلى مواقفه المعادية «للقوات» كلها لا تزال حيّة في الذاكرة. انسحب كثير من أعضاء ميليشيا القوات. واتخذ فادي أفرام قراراً لطالما ذكر منذ مقتل بشير الجميّل والقاضي بفصل الميليشيا عن حزب الكتائب. لقد عارض أمين الجميّل هذا القرار بقدر استطاعته ولكن كان عليه بداية أن يستعيد سلطته وإسكات المعارضتين المسيحية والاسلامية. وقد تمكن من ذلك في مؤتمر لوزان بمساعدة سورية .

توفي بيار الجميّل في آب 1984. وعندئذ أطلقت يد أمين للعمل. فكان أول أهدافه «ترتيب البيت الكتائبي». وكان القائد العام للقوات اللبنانية الرجل الذي ينبغي عزله. فأعدّ أمين مناورة لبلوغ هذا الهدف .

في مرحلة أولى، وضع يده على خزينة «القوات» بطلبه من ثلاثة من أصحاب حق التوقيع من أصل أربعة في شأن الحسابات المصرفية «للقوات» بأن يحولوا الأموال المتوافرة إلى حساب حزب الكتائب.

ومن ثم حث الحزب على ترشيح ابن شقيقته فؤاد أبو ناضر، رئيس أركان الميليشيا، لمنصب القائد العام «للقوات» وهو المنصب الذي يشغله فادي أفرام. تحاشياً للدخول في مجابهة مسلحة مع الرئيس عزف أفرام عن تقديم ترشيحه في تشرين الأول/ أكتوبر من العام ذاته. انتخب فؤاد، المرشح الوحيد، واختار أفرام المنفى. لم تدم قيادة فؤاد إلّا ستة أشهر! إذ طلبت قيادة الميليشيا من أبو ناضر الرد بحزم على الكتائب في أعقاب سلسلة من المناوشات الدامية بين «القوات» والحزب. ولكن فؤاد فضّل إجراء وساطة. في الثاني عشر من آذار/ مارس قامت انتفاضة قادها ثالوث مكون من: سمير جعجع، الذي أصبح مستشاره السياسي، وكريم بقرادوني وإيلي حبيقة. وقد أزاحوا فجأة ابن أخت الرئيس. يومها فقد أمين الجميّل نهائياً كل سيطرة على القوات. لقد توزع قادة الانقلاب ضمناً المنطقة المسيحية في ما بينهم جغرافياً، تبعاً لمكان تواجد كل منهم. فتولى سمير جعجع القائد العسكري المتحدر من الجبل المسؤولية عن كسروان وأكثرية أعداد المقاتلين. وتولى إيلي جبيقة المسؤولية عن بيروت وضاحيتها المسيحية التي كان رجاله يسيطرون عليها ويقيمون فيها مقرهم العام. أما كريم بقرادوني المفتقر إلى أي دعم عسكري خاص به فقد احتفظ بدور سياسي.

في التاسع من أيار/ مايو 1985، انتخب حبيقة رئيساً للمجلس التنفيذي للقوات اللبنانية وهكذا تقدم من ناحية التراتبية التنظيمية على الآخَرين. وبطريقة سرّية، عبر اتصالات ميشال سماحة، اقترب من السوريين. وفي الثامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1985، صدر بيان أقرّ فيه بعروبة لبنان ووقع باسم القوات وبرعاية سورية اتفاقاً ثلاثياً مع دروز الحزب التقدمي الاشتراكي وشيعة حركة أمل. أثار الاتفاق غضب سمير جعجع المعارض لأي تقارب من السوريين. في الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير 1986، شن جعجع ورجاله هجوماً مسلحاً ضد حبيقة. وللمرة الأولى في تاريخها

تقوم وحدات من القوات اللبنانية بالتصادم في ما بينها تبعاً لمواقف قادتها المباشرين. فتخلى انتيجة ذلك لكثير من عناصر الميليشيا عن البندقية وقبعوا في منازلهم. وأراد جعجع عن طريق مطاردة حقيقية للعناصر حتى داخل الكنائس، أن يقتلع أي تواجد للموالين لحبيقة من الأحياء المسيحية. حوصر حبيقة داخل تحصينه في الكرنتينا ولم يستطع النفاذ بجلده إلّا بأمر أخلاء من ميشال عون. لجأ بعد ذلك إلى مقر قيادته العامة في زحلة الواقعة تحت السيطرة السورية. في العاشر من آب/ أغسطس 1986 حاول فؤاد أبو ناضر القيام بعملية جرى الإعداد لها بطريقة سيئة أن يستعيد السلطة من سمير جعجع الذي أصيب في رجله مما استدعى منه مغادرة البلد. وفي محاولة مماثلة، اجتاز حبيقة في السابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1986 الخط الفاصل بين البيروتين واحتل جزئياً الأشرفية. وفي غضون بضعة ساعات طُرد منها رجاله من قبل عناصر الميليشيا التابعين لسمير جعجع ومن قبل مغاوير الجيش اللبناني.

بعدها بسنتين باليوم والساعة، في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1988، ترك الجميّل منصبه من غير أن يتوصل إلى إعادة تنظيم انتخابات لتعيين رئيس خلف له. وطبقاً للعرف فقد عيّن قبل أن يرحل ميشال عون، رئيساً جديداً للحكومة، وكانت مهمته الرئيسة تنظيم الانتخابات الرئاسية. رفض سليم الحص، رئيس الحكومة المعزولة، هذا القرار وبقي في منصبه بدعم من حكومته وجميع الأحزاب اللبنانية اليسارية والاسلامية فضلاً عن السوريين. شكل عون حكومة عسكرية وأعلن حرباً تحريرية ضد السوريين. بعد ذلك بعدة أسابيع وافق سمير جعجع على توقيع اتفاقية حكم رعتها دمشق ووافقت وصدقت عليها الأغلبية الساحقة من النواب اللبنانيين المجتمعين في الطائف، في العربية السعودية. اندلعت عندئذٍ معارك عنيفة بين القوات اللبنانية والقوى العسكرية التي حافظت على ولائها لميشال عون. وسقط بنتيجتها مئات الضحايا. أجبر ميشال عون على ترك مهامه واللجوء إلى السفارة الفرنسية في أعقاب عملية عسكرية سورية واسعة في الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1990. أما سمير جعجع الذي لجأ إلى الجبال، فقد أُوقف بعد عدة شهور في أعقاب قضية غامضة تتعلق بتفجير بالقنابل داخل كنيسة سيّدة النجاة. أمضى الأول 15 عاماً في المنفى قبل أن يتمكن من العودة إلى بيروت، والثاني الذي حكم عليه بالسجن المؤبد، أعفي عنه في الخامس والعشرين من خزيران/ يونيو 2005.

ملحق 1

تسويات أمنية في لبنان– 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1982

(وثيقة أعدّها الإسرائيليون، وقدّمها موريس درايبر للرئيس أمين الجميّل ضمن إطار المفاوضات التي ينبغي أن تجري بين البلدين)

الخرائط والوثائق الأصلية بالإنكليزية.

سرّي

تسويات أمنية في لبنان. 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1982

1– عموميات

أ–ينبغي للتسويات الأمنية مع لبنان أن تتضمّن الشروط التالية، كما في الاتفاقيات السابقة الموقّعة من قِبَل إسرائيل:

1) تسويات تتعلّق بالمساحة الكلّية للبلدان الموقّعة.

2) تسويات تتعلّق بحال منطقة أو عدّة مناطق محددة.

ب–تتعلّق التسويات الأمنية العامة بنظام العلاقات الأمنية بين أطراف الاتفاقية، كما على سبيل المثال:

– نهاية حالة الحرب.

– توقف المظاهر العدائية.

– تدابير تشترط على الطرفين عدم السماح لقوات بلدان أخرى، معادية لأحد الطرفين، بالانتشار فوق أراضيهما أو العمل انطلاقاً من أراضيهما.

– تدابير تشترط على الطرفين حظر النشاطات الإرهابية انطلاقاً من أراضي كل دولة ضد الأخرى.

– حقّ الطرفين بالتصرّف في حال الدفاع المشروع عن النفس، إذا ما جرى خرق الاتفاقية.

جـ - التسويات الأمنية المتعلقة بمنطقة أو بمناطق محددة ذات العلاقة بالقيود الأمنية المطبّقة في هذه المناطق، كما على سبيل المثال:

- نزع السلاح.
- تحديد القوات.
- تحديد منظومات الأسلحة.

د- ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار، أنّ:

1) لبنان لمّا يُلغِ حالة الحرب مع إسرائيل.

2) كانت الحكومة اللبنانية قد سمحت فيما مضى بإنشاء البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، والتي كان هدفها العمل ضد إسرائيل. كذلك سمح باحتلال لبنان كله تقريباً وعاصمته من قبل سورية.

3) ينبغي للتسوية الأمنية أن تشتمل على ضمانات لتوقّي المفاجآت التي قد تبرز في مستقبل يصعب التكهّن باستقراره. فينبغي في سبيل ذلك الحيلولة مرّة أخرى بين لبنان وبين أن يعود بنية تحتية تتهدّد الجليل وإسرائيل.

2- العناصر الرئيسة للتسويات الأمنية في لبنان

أ - ينبغي تحديد التسويات الأمنية ضمن إطار اتفاق سياسي بين إسرائيل ولبنان. (يمكن للولايات المتحدة، إن رغبت، أن تكون شاهدة على الاتفاقية وحتى أن توقّع عليها بوصفها طرفاً ثالثاً). والاتفاقية سوف تدعى:

الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية

ب - تتضمّن الاتفاقيات الأمنية:

1) أحكاماً أمنية.

2) أحكاماً غير عسكرية تؤدي إلى الأمن (التطبيع) وتفتح الطريق أمام حالة سلام يجري تثبيتها في اتفاق سلام. لأنّ معاهدة سلام ناجمة عن اتفاقية، هي أعلى مستويات الأمن.

جـ - تتضمّن الشروط الأمنية كالعادة، تسويات أمنية، وتسويات عامة وكذلك تسويات خاصة بالمنطقة الأمنية التي ينبغي قيامها في جنوب لبنان.

1) فينبغي للتسويات الأمنية العامة أن تكون هكذا:

ا) إلغاء حالة الحرب بين إسرائيل ولبنان.

ب) لن يسمح أيُّ طرف بقيام نشاطات عدائية انطلاقاً من أرضه ضد أرض الطرف الآخر، إلّا باتفاق بين الطرفين ضمن هذا المعنى.

ج) لن يسمح أيُّ طرف بانتشار قوات أجنبية أو قيامها بنشاطات فوق أرضه، إلّا باتفاق بين الطرفين ضمن هذا المعنى.

د) لن يسمح أيُّ طرف لمنظمة التحرير الفلسطينية، أو للمنظمات الإرهابية الدولية، أو المنظمات الإرهابية الناشطة ضد الطرف الآخر، بالانتشار فوق أرضه أو بالعمل انطلاقاً منها.

هـ) لن يجنّد أيُّ طرف قواته ضد الطرف الآخر انطلاقاً من أرض طرف ثالث.

و) تحتفظ إسرائيل لذاتها، إلى حين إقرار حالة السلام، بحق القيام بجولات استطلاع جوية فوق لبنان.

ز) سيكون هنالك تعاون عبر لجان مشتركة في شؤون الأمن المشتركة بين الطرفين.

2) التسويات الخاصة بالمنطقة الأمنية، ريثما تكون هنالك معاهدة سلام بين لبنان وإسرائيل

أ) ينبغي للمنطقة الأمنية أن تضمن:

– ألاّ تكون المستوطنات في الجليل مهددة بالمدفعية.

– ألاّ تكون الطائرات الإسرائيلية مهددة بصواريخ أرض جو.

– ألاّ تعمل منظمات أو مجموعات إرهابية ضد إسرائيل، أو أن تتمركز قوات أجنبية غير مقبولة من إسرائيل في هذه المنطقة، بأي حال من الأحول، حتى وإن تغيّر الوضع السياسي الاستراتيجي، أو في حال استئناف الحرب الأهلية في لبنان.

– مواصلة سياسة الحدود المفتوحة مع إسرائيل (مثلما هو مفصّل أدناه).

ب) ينبغي أن يكون عمق المنطقة الأمنية من 45 إلى 50 كم، ونقطة الارتكاز هي المطلة. أما ضرورة العمق من 45 إلى 50 كم فتعود إلى الاعتبارات التالية:

– مدى المدفعية بعيدة المدى (قد يصل إلى 50 كم، حينما تنتشر في منطقة جبلية).

– الخصائص الطبوغرافية تسمح بمراقبة الوصول إلى المنطقة الأمنية بدءاً من الشمال.

أمثلة: طريق جانبية، تقاطع طرق، أرض مشرِفة، عند حدود المنطقة الأمنية كما هو موضّح على الخريطة، قد جرى تحديدها استناداً إلى هذه الاعتبارات. وهي تتضمّن جبل الباروك والطريق الجانبية المؤدية إلى الدامور (محلّة الدامور ليست ضمناً) حتى جبال الشوف.

ج) تحديد القوات في المنطقة الأمنية:

– سيكون الجيش اللبناني القوة الوحيدة التي ستنتشر في المنطقة الأمنية.

– سوف يجري دمج القوات المحلية في الجيش اللبناني لتشكّل العمود الفقري للقوات اللبنانية التي ستنتشر في المنطقة، إلى حين توقيع اتفاقية سلام بين إسرائيل ولبنان.

– الأجهزة الوحيدة المسلّحة المسموح بها في المنطقة الأمنية هي: الجيش اللبناني والدرك اللبناني. أما باقي الفصائل المسلّحة فسوف يُنزَعُ سلاحُها.

- إنّ المدفعية والصواريخ أرض - جو، والصواريخ أرض- أرض، والصواريخ أرض - بحر، سوف تكون ممنوعة في المنطقة الأمنية.

- لن تكون في المنطقة الأمنية أية استحكامات ضد إسرائيل.

- سوف تحتفظ إسرائيل، إلى حين توقيع اتفاقية سلام مع لبنان، بثلاث محطات إنذار متقدّمة في المنطقة الأمنية، واحدة منها على جبل الباروك.

د) الإشراف على المنطقة الأمنية :

- سوف تُشكَّل لجنة لبنانية إسرائيلية للإشراف على تنفيذ تسويات الأمن في المنطقة الأمنية.

- ستكون للجنة سلطة إنشاء فِرَقٍ مشتركة للإشراف في المنطقة.

- ستكون للجنة سلطة تشكيل لجان مصغّرة للسهر على تطبيق الاتفاقية.

- لإسرائيل الحق في الحفاظ على مراقبة جوية وبحرية للتسويات الأمنية. (قابلة للتطبيق أيضاً على المجال الجوي والمياه الإقليمية اللبنانية).

هـ- سوف تتيح التسويات غير العسكرية (التطبيع) :

1) وجود حدود مفتوحة، أمام الشعب والسّلع، بين إسرائيل ولبنان. وفي الأحوال كافة، بين إسرائيل والمنطقة الأمنية.

2) إنشاء لجان للنهوض بالعلاقات الطبيعية (في مجالات مثل: التجارة والسياحة والزراعة والجمارك والاتصالات والنقل الجوي والبحري والبرّي).

3) إنشاء وكالات تتضمّن ممثليّات متبادلة لمواصلة العلاقات في ميادين التطبيع.

3- عملية تطبيق التسويات الأمنية

أ-سوف تظل قوات الدفاع الإسرائيلية في المواقع الراهنة إلى حين أن تغادر منظمة التحرير الفلسطينية لبنان ويتم الإفراج عن جميع أسرى الحرب والمفقودين في المعارك أو المخطوفين وبعد إعادة جثامين الجنود القتلى.

ب- سوف تعاود قوات الدفاع الإسرائيلية انتشارها من الخط الحالي 45 إلى 50 كم (مثلما هو مبيّن في الخارطة)، بعد انسحاب السوريين من جبل لبنان وانتشار القوات متعددة الجنسيات لمنعهم من العودة. ولمنع منظمة التحرير الفلسطينية من الرجوع إلى لبنان (أي أنّ القوات متعددة الجنسيات سيكون لها منفذ إلى مداخل الطرق الموصلة).

ج - سوف تظلّ قوات الدفاع الإسرائيلية تحتفظ بمواقعها على الخط 45 إلى 50 كم (مثلما هو موضح على الخارطة) إلى حين توقيع هذين الاتفاقين :

1) إتفاق تم التوصّل إليه بوساطة أميركية لإجلاء الجيوش الأجنبية كافة عن لبنان ولنزع

السلاح الدائم من القوات الأجنبية كافة باستثناء تلك المقبول بها من الطرفين. (ينبغي إكمال الاتفاقية بضمانات أميركية تستعين بوسائل مراقبة وإجراءات استشارة في حالات خرق نزع السلاح).

2) اتفاق ثنائي إسرائيلي لبناني، يجري الوصول إليه بمفاوضات مباشرة (إمكانية مشاركة الولايات المتحدة الأميركية) حول التسويات الأمنية واشتراطات التطبيع كما أشير إليه مفصّلاً أعلاه.

د - بعد توقيع الاتفاقيات تبدأ عملية انسحاب القوات السورية والإسرائيلية، كما اشتُرِط في الاتفاق الأمني. (لن يبدأ الانسحاب إلّا بعد رحيل منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان). وسوف يتم انسحاب القوات الإسرائيلية والسورية في آن واحد وعلى مراحل. ويخضع اكتمال كل مرحلة للتحقق.

هـ - يتأكد لبنان وإسرائيل، في كل مرحلة وقبل إخلاء أي منطقة تسيطر عليها قوات الدفاع الإسرائيلية، من تطبيق التسويات الأمنية، عبر لجنة مشتركة، كما اشتُرِط في الاتفاق في المنطقة المذكورة.

4- إجراء المفاوضات المباشرة في الاتفاق الإسرائيلي اللبناني

أ-سيكون توقيع اتفاق ثنائي بين إسرائيل ولبنان موضوع مفاوضات تجري بين وفدين اثنين. وفد إسرائيلي ووفد لبناني. ويمكن أيضاً وجود وفد أميركي إذا ما رغبت الولايات المتحدة المشاركة في المفاوضات.

ب- تجري المفاوضات في منطقة: القدس وبيروت.

ج - يكون على رأس الوفد المفاوض وزير ويضم ممثلين عن وزارة الخارجية ووزارة الدفاع.

د- قد يكون ممكناً مناقشة بعض المسائل الخصوصية المقررة عامة ضمن إطار لجنة حكومية مشتركة. (مثل: العلاقات بين الأجهزة الأمنية، والتعاون العسكري).

شرح الخارطة (ملحق)

الخط الأزرق: خط الانتشار الراهن الواجب الإبقاء عليه حتى:

- الجلاء الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية عن لبنان.
- جلاء السوريين عن جبل لبنان.
- عودة الأسرى المخطوفين والمغيّبين وأجساد الجنود الإسرائيليين القتلى.

الخط الأخضر: خط الـ 45 إلى 50 كم الذي ينبغي الحفاظ عليه إلى حين تلبية الشروط التالية:

أ - اتفاقية لجلاء القوات الأجنبية كافة عن لبنان، وإخلائه من الجيوش الأجنبية.

ب- اتفاق ثنائي بين لبنان وإسرائيل عبر مفاوضات مباشرة، يحدد التسويات الأمنية وإجراءات التطبيع.

ج – نشر قوات متعددة الجنسيات على مداخل الطرق الممتدة من وادي البقاع إلى الجبل المسيحي بهدف الحيلولة دون إعادة انتشار القوات السورية والإرهابية في هذه المناطق.

هنالك قاعدتان لهذا الخط :

أ – خطر المدفعية بعيدة المدى على الجليل. ض الظروف الطبوغرافية كالمناطق الجبلية تستلزم مسافة 50 كم).

ب – ضرورة أن تكون الطريق الممتدة من الدامور إلى الشوف مراقبة بالقوات المنتشرة في منطقة الـ 45 إلى 50 كم. لأسباب لوجستية وعملياتية تضمن على ذلك النحو الحدود الشمالية للمنطقة الأمنية. أما نقطة الاستناد لهذه الـ 45 إلى 50 كم فهي المطلة في إسرائيل.

ملحق 2

نصّ الاتفاق بين الرئيس أمين الجميّل والإسرائيليين على إثر المفاوضات المباشرة التي جرت في بيروت، في منزل سامي مارون في الأشرفية، بين الممثلين عن الرئيس الجميّل (سامي مارون) والإسرائيليين (مندي، ديفيد كيمحي...)

(النص الأصلي بالإنكليزية)

سرّي

عناصر وخطوط توجيهية أساسية. 14 كانون الأول/ ديسمبر 1982.

- وثيقة عمل-

عموميات:

1-اتفق الفريقان حول ضرورة بذل جهود للوصول إلى نتائج بأسرع ما يمكن، بما يتعلّق بالعناصر التالية التي ينبغي أن تُعتبَر اتفاقيةً شاملة:

1- تطبيع العلاقات.

أ- اتفاقيات أمنيّة.

ج - سحب القوات الإسرائيلية.

2 - لقد تقرّر، من أجل الوصول إلى اتفاق حول هذه العناصر، أن تقوم المحادثات وفق الطريقة التالية:

أ-يجتمع وفدان رسميان. يكون الوفد اللبناني مؤلفاً من ثلاث شخصيات مدنية وثلاثة ضباط من الجيش، ويكون برئاسة مدني. ويجري تصديق الاتفاقية من قبل الحكومتين.

ب- يواصل الاجتماع هذان الوفدان، اللذان يُشكّلان لجنة، بعد عقد اتفاقية شاملة، وبعد سحب القوات للإشراف على تطبيق الاتفاقية.

تطبيع العلاقات.

3 - تطبيع العلاقات يشمل:

أ - الإعلان عن أنّ حالة الحرب لم يعد لها وجود بين لبنان وإسرائيل.

ب - حدود مفتوحة لمرور الأشخاص والبضائع بين البلدين، وفقاً لأنظمتهما. (أنظر الملاحظة).

جـ - تحتفظ إسرائيل بمكتب اتصال في منطقة بيروت، في سبيل الإبقاء على مباحثات متواصلة بين البلدين. فلجنة الاتصال (فقرة 2) تعقد فيه اجتماعاتها. وتهتمّ هذه اللجنة بالمسائل السياسية والاقتصاديةكافة، إلى حين توقيع اتفاقية السلام.

د - يتعهّد البلدان بعدم القيام بحملات دعائية عدائية في ما بينهما وبوضع حدٍ لكل مقاطعة اقتصادية.

هـ - يبدأ الفريقان مفاوضات سريعة، عبر اللجنة، لإتمام اتفاقيات في مختلف المجالات (التجارة، الاتصالات، الخ.)

و- النقاط المذكورة آنفاً، سوف يجري إعدادها إعداداً كاملاً في الاتفاق النهائي.

إتفاقيات أمنية.

4 - لن يُستَخدَم لبنان أبداً قاعدة لأعمال عدائية وإرهابية ضدّ إسرائيل. ولن يُقبَل في هذا الصدد قيامُ أي مكتب أو قاعدة أو بنية تحتية، أينما كان على الأرض اللبنانية، يكون هدفها العام القيام بأعمال إرهابية أو عسكرية ضد إسرائيل. كذلك فإنّ أيّ تنظيم أو مجموعة ذات أهداف مماثلة، لن يُسمَح بقيامها أو عملها انطلاقاً من لبنان.

ينبغي للتسويات الأمنية أن تتضمّن النقاط الرئيسة التالية:

أ - ضمن هدف الاطمئنان إلى أنّ عناصر معادية لن تتسلل إلى المنطقة الأمنية، (من 45 إلى 50 كم عن الحدود الإسرائيلية)، سوف تُقام ثلاث محطات للإنذار المبكّر، ولفترة يجري تحديدها من قبل اللجنة.

ب - لن يكون في المنطقة الأمنية سوى قوات تابعة للجيش والشرطة اللبنانيين.

جـ - سوف يجري دمج القوات المحلية في الجنوب ضمن إحدى البُنى العسكرية الوطنية، لتكون ضمن العناصر المسؤولة عن الأمن في المنطقة مع القوات العسكرية وقوات الشرطة التابعة للحكومة اللبنانية.

د - تحتفظ إسرائيل لذاتها، إضافة إلى ذلك، بحق القيام بعمليات استطلاع جوية فوق جنوب لبنان، وتحريك دوريات بحرية لفترة تتولى اللجنة تحديدها.

هـ - يصار في المنطقة الأمنية تحديدُ حجوم معينة لنماذج من الأسلحة الثقيلة والتحصينات.

و – يجري تشكيل منظومة عسكرية إسرائيلية لبنانية مشتركة للتحقق من الاتفاقيات الأمنية.

ز – لن يسمح لبنان وإسرائيل لأي قوة عربية ولأي جيوش أجنبية، تابعة لبلدان ليس لها علاقات دبلوماسية مع أحد البلدين، بالإقامة فوق أراضيهما.

حـ – إنّ النقاط السابق ذكرها، سوف يجري إعدادها في الاتفاقية النهائية.

انسحاب القوات الإسرائيلية

---

5 – سوف تنسحب القوات الإسرائيلية :

أ – بعد اكتمال انسحاب قوات منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان.

ب – بعد عودة جميع الأسرى الإسرائيليين في أيدي السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك الأشخاص المفقودين وأجساد الإسرائيليين لدى السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية.

جـ – ينبغي عقد اتفاق بين لبنان وسورية من أجل الانسحاب المتزامن للقوات السورية والإسرائيلية.

د – سيكون الانسحاب متزامناً مع السوريين.

هـ – سوف يجري الانسحاب بصورة فورية بعد التوقيع على الاتفاقية الأمنية والتطبيع.

ملاحظة: التمس الجانب اللبناني أن يكون لديه عدد قليل من مراقبي الأمم المتحدة من الجانب اللبناني، في نقطة واحدة ولفترة زمنية محددة. لكنّ الجانب الإسرائيلي رفض ذلك. والجانب اللبناني حرّ في إثارة تلك المسألة في اجتماعات اللجنة.

استُكمِلت هذه الاتفاقية، برسالة في 22 كانون الأول/ديسمبر تتعلّق بجدول أعمال المراحل المختلفة لوضع هذه الاتفاقية موضع التطبيق.

سرّي

22 كانون الأول/ ديسمبر 1982.

جدول أعمال

1 – تطبيع العلاقات

أ – إلغاء حالة الحرب.

ب – حدود مفتوحة.

ج – مكاتب اتصال.

د – إيقاف الدعاية المعادية.

هـ – تجارة، اتصالات، سياحة، إلخ.

2 – إتفاقيات أمنية

أ – منع النشاطات العدائية نحو إسرائيل ولبنان.

ب – محطات إنذار إسرائيلية.

ج – قوات ينبغي وجودها في الجنوب.

د – طلعات جوية للاستطلاع ودوريات بحرية.

هـ – فرض قيود على الأسلحة والاستحكامات.

و – منظومة مراقبة.

ز – وجود قوات أجنبية في لبنان وإسرائيل.

3 – شروط انسحاب القوات الإسرائيلية

أ – رحيل منظمة التحرير الفلسطينية.

ب – عودة الأسرى والمفقودين وأجساد القتلى لدى السوريين و منظمة التحرير الفلسطينية.

ج – انسحاب السوريين بالتزامن.

سوف يجري رفض هذه الاتفاقية لاحقاً من قِبَل الرئيس الجميل على أثر تدخل من وزير الخارجية الأميركية جورج شولتز، الذي رفض إمكانية عقد اتفاقية بين لبنانيين وإسرائيليين من غير مشاركة أميركية.

ملحق 3

رسالة الرئيس اللبناني أمين الجميّل إلى الرئيس السوري حافظ الأسد
الأول من أيلول/ سپتمبر 1983
الجمهورية اللبنانية
الرئيس.
بعبدا في 1 أيلول/ سپتمبر 1983
صاحب الفخامة الأخ الرئيس حافظ الأسد،
رئيس الجمهورية العربية السورية.
دمشق

أبعث إليكم، يا صاحب الفخامة، بأفضل التحيات مع تمنيات بالسعادة والنجاح لكم، والازدهار لشعب سورية.

يسرني أن أحيطكم علماً بأنّ الحكومة اللبنانية بعثت هذا اليوم بواسطة نائب الرئيس ووزير الخارجية والمهاجرين، برسالة إلى الأمين العام للجامعة العربية، تؤكّد فيها قرارها وطلبها بجلاء الجيوش الإسرائيلية وانسحاب القوات غير اللبنانية كافة من لبنان. وإذ أبعث إليكم، يا صاحب الفخامة، بنسخة عن هذه الرسالة، أعرب عن يقيني من أنّكم سوف تتصرّفون تصرّفاً إيجابياً مع مضمونها الذي تحقق ضمن إطار الأنظمة الدستورية اللبنانية، والتي أثرتُها، شخصياً، أثناء اجتماعات دولية عديدة. يضاف إلى ذلك أن عملكم، سيقطع الطريق على كل زعم لمواصلة الاحتلال الإسرائيلي، ويترجم أمنيتكم، التي تعبّرون عنها دوماً، بأن يستعيد لبنان استقلاله ووحدته وسيادته، واستعدادكم لتقديم كل عون له في ذلك الاتجاه.

وبانتظار إصدار فخامتكم للأوامر الضرورية لسحب قواتكم من لبنان، أتطلّع إلى مستقبل مشرق بين لبنان وسورية اللذين يرتبطان بروابط تاريخية وجغرافية ومصالح مشتركة.

وتفضلوا يا صاحب الفخامة الأخ الرئيس بقبول أصدق مشاعر الود والاحترام.
أمين الجميّل

ملحق 4

هيئة أركان سمير جعجع
- نادر سكر (معاون)
- شحادة شواح (عمليات)
- جورج أنطون (لوجيستية)
- غسان توما (استخبارات)
- بيار عبيد (مدفعية)
-إيلينور فضول (Back up)
- أنطوان عنداري (صواريخ)
- قزحيا كسّاب (هندسة)
- قبلان أبي رعد وجيمي خازن (إحتياطيون وتدريب)
- جان خوري (الجنود ومعسكر دير سير)
- موسى (المكتب الخامس)
- إيميل وحبيب رحمة (علاقات عامة)
- جورج سعادة ساعدَ جعجع في الشوف وأسعد أبي رعد في عاليه
تشكيل المواقع المحصّنة والقيادة التي أقامها سمير جعجع في الشوف:
- بحمدون: پول عنداري
- كفركترا- خالد أبو خالد
- الودايا- سهيل منسّى
- ثكنة بيت الدين- جورج أبو سمرا
- دير دوريت- فهد جرجس
- تلة كفرنبرخ-ميلاد رحمة
- معاصر بيت الدين-جوزيف الحاج
- رشمايا- غسان منسّى
- معيوش- ميلاد ألماوي

فهرس الأسماء

فهرس الأسماء

(ب)

الفهرس



خريطة منطقة الشوف. مسرح الاحداث التي وردت في الكتاب



آلان مينارغ

أسرار حرب لبنان

★★

لم يكن من الممكن قط من قبل، أن يظهر سرد بهذا القدر من التوثيق وهذا الكم من التفاصيل عن الأيام المظلمة والأحداث المأساوية التي تعاقبت في لبنان في الفترة ما بين أيلول / سبتمبر 1982 وشباط / فبراير 1984، أي منذ بداية المذابح في المخيمات الفلسطينية في بيروت حتى أول رحلة للرئيس أمين الجميّل إلى دمشق.

تضم هذه الصفحات بين طياتها أدق التفاصيل عن الصراعات حول السلطة السياسية المحلية. وعن تراجع النفوذ الإسرائيلي في أرض الأرز، وعن دور الدول العربية، وعن التردد الذي انتاب المجتمع الدولي. وتسرد هذه الصفحات أيضاً قصص الأشخاص الذين لعبوا دوراً في هذه الفترة. والكثير منهم لا يزال في موقعهم. كما تسرد الطموحات والضربات أسفل الحزام والأكاذيب وحالات التلاعب المختلفة.

استكمالاً للمجلد الأول عن «أسرار الحرب في لبنان يشكّل هذا الكتاب الجديد نصّاً مرجعياً لفهم أساسيات الوضع الراهن. ومن خلال تمكنه غير المسبوق من الاطلاع على محفوظات غير منشورة تخص جميع الأطراف، استطاع آلان مينارغ أن يصف ما وراء الكواليس. وآلان مينارغ هو صحفي ومراسل حرب وخبير في شؤون العالم العربي وقد تمركز مدة طويلة في بيروت ثم في القاهرة قبل أن يشغل منصب المدير العام المساعد للأخبار بإذاعة فرنسا الدولية RFI ونائب إذاعة RMC للشرق الأوسط.

Couverture : © françois.guenet@free.fr



www.librairieinternationale.com

ISBN 9789953015712